

ول
وايرل ديورانت

قصة الحضارة

41

الاسلام والشرق السلافي
الشمال البروتستنتي



قصة الحضارة

ول وَايريل ديورانت

الإسلام والشرق السُّلافي الشمال البروتستنتي

ترجمة
فؤاد أندراوس

الجزء الثالث من المجلد العاشر



تونس

(٤١)



بيروت

حقوق الطبع محفوظة

ولاء الحيت : ص.ب. ۸۷۳۷ - ت: ۲۶۶۱۵۸ - ۲۶۰۶۶۵ - تلکس: ۲۳۴۳۰
العنوان البرقي: دار ميلاب - بيروت - لبنان

المجلد العاشر

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الاسلام والشرق السلافي

١٧١٥ - ١٧٩٦

الفصل السادس عشر

الإسلام

١٧١٥ - ١٧٩٦

١ - الأتراك

حوصرت المسيحية في القرن الثامن عشر بين فولتير ومحمد (صلى الله عليه وسلم) بين حركة التنوير والإسلام . فمع أن العالم الإسلامي كان قد فقد سطوته الحربية منذ رد سوييسكى الترك عن فيينا عام ١٦٨٣ ، إلا أنه ظل مسيطراً على المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر وشبه جزيرة العرب وفلسطين وسوريا وفارس وآسيا الصغرى والقرم وجنوب روسيا وبسارابيا وملدافيا وولاشيا (رومانيا) وبلغاريا والصرب (يوغسلافيا) والجبل الأسود والبوسنة ودلماشيا واليونان وكريت وجزر الارخبيل وتركيا . وهذه الأقطار كلها - باستثناء فارس - كانت جزءاً من امبراطورية الأتراك العثمانيين المترامية الأطراف . فعلى الساحل الدلماشى بلغوا الادرياتيک وواجهوا الولايات البابوية ، وعلى البوسفور تسلطوا على المنفذ البحرى الوحيد من البحر الأسود ، وكان في مقدورهم أن يقفوا سداً منيعاً بين الروس والبحر المتوسط متى شاءوا .

فإذا عبرنا الأقاليم المجرية إلى بلاد المسلمين لم نلاحظ للوهلة الأولى فرقاً يذكر بين المدينتين المسيحية والإسلامية . فهنا أيضاً كان فقراء المسلمين السذج الأتقياء يفاحون الأرض تحت إمرة سادتهم الأغنياء الأذكياء المتشككين . ولكن المشهد الاقتصادى يتغير فيما وراء البوسفور : فلايكاد المزروع من الأقاليم يبلغ ١٥٪ ، أما الباقي فصحراء أو جبال لاتتيح غير

التعدين أو الرعى ، هناك كان الإنسان الذى يتميز به الإقليم هو البدوى الذى أسود لونه وتحمص جلده من الشمس ، وتذثر على نحو معقد اتقاء للرمال والقيظ. أما المدن الساحلية أو المتفرقة هنا وهناك كانت حافلة بالتجارة والحرف اليدوية ، ولكن الحياة بدت أكثر دعة واسترخاء مما كانت فى المراكز المسيحية ، فالنساء يلزمن بيوتهن أو يسرن فى وقار شديد تحت أحماهن ووراء خمرهن ، والرجال يمشون الهوينى فى الشوارع . وكان جل الصناعة يدوياً ، وورشة الصانع ملحقاً بتصدر بيته ، وكان يدخن غليونيه ويتجاذب الحديث مع غيره أثناء العمل ، وأحياناً يشارك زبوناً قهوته .

ويمكن القول بوجه عام إن التركى العادى كان قانعاً غاية القناعة بمدينته ، حتى لقد ظل قروناً لا يطبق أى تغيير ذى بال . وكانت التقاليد هنا كما كانت فى التعاليم الكاثوليكية مقدسة قداسة التنزيل . أما الدين فكان أعظم قوة وانتشاراً فى الأقطار الإسلامية مما كان فى العالم المسيحى ، والقرآن هو الشريعة والديانة مماً ، وفقهاء الإسلام شراح الشريعة الرسميون . وكان الحج إلى مكة المكرمة يقود كل عام درامته المثيرة فوق رمال الصحراء وعلى الطرق المتربة . أما فى الطبقات العليا فإن البدع العقلانية التى طلع بها معترزة القرن الثامن الميلادى ، والتى واصلها الشعراء والفلاسفة المسلمون طوال عصر الإيمان ، لقيت قبولا واسعاً مستوراً . كتبت اللىدى مارى ورتلى مانتاجيو من الاستانة فى ١٧١٩ تقول :

« إن الأفندية (أى الطبقة المتعلمة) .. ليسوا أكثر إيماناً بالوحي الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم بعصمة البابا . ويصرحون بالربوبية بينهم وبين من يثقون بهم ولا يتكلمون على شريعتهم (أى ما عليه القرآن الكريم) إلا بوصفها مؤسسة سياسية ، تصالح الآن لأن يتقيد بها العقلاء من الناس وإن كانت أصلاً من عمل رجال السياسة والمتحمسين من رجُلان الدين » (١) .

وانقسم الإسلام بين مذهبي السنة والشيعة كما انقسمت مسيحية الغرب

بين الكاثوليكية والبروتستنتية ، ثم قام مذهب جديد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب ، أحد شيوخ نجد - وهو الهضبة الوسطى التي نعرفها اليوم بالعربية السعودية . وكان الوهابيون من الإسلام أشبه بالبيورتان من المسيحية : استنكروا التعبد للأولياء ، وهدموا أضرحة المشايخ والشهداء ، واستهجنوا لبس الحرير والتدخين ، ودافعوا عن حق كل فرد في أن يفسر القرآن لنفسه^(٢) . وقد شاعت الخرافات في جميع المذاهب على السواء، ولقي دجاجة الدين كما لقيت المعجزات الكاذبة التصديق السريع ، وكان جل المسلمين يعدون مملكة السحر عالما حقيقيا كعالم الرمال والشمس الذي يكتنفهم^(٣) .

أما التعليم فهيمن عليه رجال الدين الذين آمنوا بأن أضمن سبيل لتكوين المواطنين الصالحين أو الأتباع الأوفياء للقبيلة هي ترويض الخلق لا تخوير الفكر . وكان رجال الدين قد انتصروا في معركتهم مع العلماء والفلاسفة والمؤرخين الذين ازدهروا أيام الإسلام الوسيط ، فانتكس الفلك إلى التنجيم ، والكيمياء إلى الخيمياء ، والطب إلى السحر ، والتاريخ إلى الأساطير . ولكن في كثر من المسلمين حلت الحكمة الصامتة محل التعليم والتفقه في المعرفة . وكما قال داود الحكيم البليغ : « إن العرب والترك ، الذين كتبهم هي وجوه الرجال ... والذين شروحوهم وتفاسيرهم هي الأقوال المأثورة السائرة ومثبات الأمثال الحكيمة القديمة السائدة في عالم الشرق ، هؤلاء قريبون من إدراك الحقائق الإنسانية . إنهم شيوخ راسخون في الحكمة وهم لا يزالون شبابا ، ولا يذسون بعد ذلك إلا القليل مما تعلموا^(٤) » . وقد أكد ورتلي مونتجيو في خطاب كتبه عام ١٧١٧ لأديسون أن « الرجال ذوي الشأن من الأتراك يبدون في أحاديثهم مهذبين لا يقلون تحضرا عن أى رجال التقيت بهم في إيطاليا^(٥) » ، أجل فالحكمة ليس لها وطن .

ولقد كان عالم الإسلام على الدوام غنيا بالشعراء . ذلك أن الصحارى الرهيبة ، والسماء المحيطة ، والنجوم المنتشرة إلى مالا نهاية في الليالي الصافية ، كل أولئك حرك الخيال كما حرك الإيمان الديني بالإحساس بما في الكون من

أسرار ملغزة ، وأضفى دم الشباب المضطرم بالرغبة المكبوتة على مفاتن النساء تصورا مثاليا ، تلك المفاتن التي زدها إغراء في ذكاء وحكمة باحتجابهن وحيائهن . وفي عام ١٧٧٤ نشر السير وليم جونز كتابه « شروح على الشعر العربي » الذي كشف للعقول اليقظة في غربى أوروبا عن حب المسلمين للشعر وما يبطوى عليه من رقة وعاطفة مشهوبة . أما أعظم فحول الشعراء العثمانيين في القرن الثامن عشر فهو نديم ، الذي تغنى بشعره أيام السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) :

ليه أيها الحب الحائر ، إن قلبي وروحي ضاعا هباء
وفرح منى الصبر وذهب الجلد
ذات مرة كشفت عن صدرها البديع ،
فلذا الراحة والسلام يهربان من صدرى . . .
لها خال في خدها وثنى ، وضمائر وثنية ، وعيون وثنية ...
أقسم أن دنيا جمالها القاسى بأسرها وثنية خالصة .
ولقد وعدتني بقبلات على نحرها ، وبقبلات على صدرها ،
ولكن ويلي فقد حذت الوثنية بوعددها السابق .
يا للرشاقة المحببة التي أبرزت بها غداثرها من تحت طربوشها ،
كل مخلوق أبصرها تأمل حسنها مشدوها لتوه .
يا قاسية القلب ، لأجلك يبكي الرجال وينوحون يأسا ،
إن قدك الرقيق لزكى من كل شذى وأبهج من كل لون ،
فليت شعري هل أرضعتك وردة عطرة من ثديها .
وأنك لتقبلين أيتها الحلوة وفي إحدى يديك وردة وفي الأخرى كأس .
فلا أدري أى الثلاثة آخذ .- الوردة أم الكأس أم أنت .

لكأن نبغاً متدفقاً تفجر من نهر الحياة :

حين طلعت على بذلك القد اللدن البديع ^(٦) .

وكان على النساء الاستفادة ما استطعن من قدودهن اللدنة الرشيقة ، ففى ذبلت محسانهن جر عليهن الزمن ذبول النسيان فى زوايا الحريم . وكان لفظ « الحريم » هذا لا يقصر على أزواج الرجل وسراريه ، بل ينسحب على كل إناث بيته . وقد ظل الحجاب مضروباً عليهن فى القرن الثامن عشر ، وكان يسمح لهن بالخروج من الدار ، ولـسكن (بعد ١٧٥٤) كان عليهن إذا خرجن أن يخفين كل عضو فيهن إلا عيونهن الساحرة ، ولا يدخل جناحهن غير الأب ، أو الأخ ، أو الزوج ، أو الإبن . وحتى بعد الموت كان المفروض أن يتصل هذا الفصل بين الجنسين فى الدار الآخرة . فالمؤمنات لهن جنتهن غير جنة الرجال ، والمؤمنون يمشون إلى فردوس آخر ترفه فيه عنهم حور من الجنة أبكار متجددات الشباب . وكانت خيانة المرأة أزواجها تعاقب عقاباً صارماً ويندر حدوثها ، وكان العربى يحلف بـ « شرف حريمه » كأغلظ الأيمان ^(٧) . وروت اللىدى مارى أن النساء التركيات اللاتى سمح لها بلقائهن لم تضحكن بالحجاب الذى عزلهن عن الرجال . وقد رأت بعضهن يعدلن فى جمال الوجه وحسن القدر ورفاهة الطبع « أشهر حساننا الإنجليزيات » ^(٨) . فلما أذن لها بدخول أحد الحمامات العامة الكثيرة ، تبين لها أن النساء يمكن أن يكن جميلات حتى لو تجردن من الثياب . وقد أفتنت على الأخص بنساء الطبقة الراقية فى حمام بأدرنة . دعوتها لخلع ملابسها والاستحمام معهن ، فاعتذرت . « ولما اشتد إلحاحهن على اضطرت فى النهاية إلى أن أفتح قيصى وأرهن مشدى (الكورسيه) ، فأقنعن هذا تماماً إذ رأيت أنهن اعتقدن أنى حبيسة بقيود تلك الآلة بحيث لا أقوى على فتحها ، وقد عزون هذه الحيلة لتدبير زوجى . وعلقت لإحداهن قائلة « أنظرن كم يقسو الأزواج الإنجليز على نساكن المساكين » ^(٩) .

وكان الأتراك فخورين بحماماتهم العامة ، يرون أنفسهم على العموم شعباً

أنظف من النصارى الكفار . وكان الكثيرون من أفراد الطبقتين العليا والوسطى يختلفون إلى الحمام التركي مرتين في الأسبوع ، وأكثر منهم يختلفون مرة في الأسبوع . هناك يجلسون في غرفة ملئت بخاراً حتى يتصببوا عرقاً ، ثم يأتي عامل فيدعك كل مفصل في أجسامهم ويدلك لحمهم ويكيسه بقطعة من القماش الخشن ثم يغسله . لا عجب إذن إن لم نسمع الكثير عن روماتيزم المفاصل في تركيا . على أن أمراضاً أخرى تفشت بينهم لاسيما الرمد ، فالرمل والذباب كانت تنقل العدوى إلى العيون . ولكن الأتراك كما أسلفنا علموا أوروبا التطعيم ضد الجدري .

ولم يخامرهم شك في أن مدنيته تفوق مدينة الاقطار المسيحية . صحيح أنهم سلموا بأن الرق كان أوسع انتشاراً في بلاد المسلمين ، ولكنهم لم يروا فرقا حقيقياً بين الارقاء في تركيا والاقنان (Serfs) أو الخدم (Servants) في العالم المسيحي ، وقد اتفقت معهم في الرأي الليدى مارى واصل اللفظ . وكانوا لا يقولون عنا غلوا في حب الأزهار والعناية بها ، فكانت لهم مثلنا مباريات مجموعة في تربية زهرة الطوليب ؛ كما شهدت الآستانة في عهد السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ - ٣٠) ؛ ويبدو أن الأتراك هم الذين أدخلوا إلى أوروبا المسيحية بطريق البندقية وفينا والأراضي الواطئة أزهار الطوليب والياقوتية (Hyacinth) الشرقية وحوزان الحدائق (ranunculus) كما أدخلوا أشجار القسطل (أبى فروة) - والميموزا (١) .

أما الفن في تركيا فكان الآن في اضمحلال شأنه في معظم الأقطار المسيحية . واعتبر الأتراك أنفسهم أرقى في صناعات الفخار والنسيج والأبسطة والزخرفة وحتى في المعمار . فقد ورثوا عن آبائهم كيف يضمنون على التصوير التجريدى منطقاً وتواصلاً ودلالة . وفاخروا بهاء القاشانى الذى صنعوه (كما يرى على نافورة أحمد الثالث في الآستانة) ، وبريق قرميدهم الذى لا ينطفئ ، وبصلابة منسوجاتهم ورقتها « وبتألق أبسطهم ومثانتها . واشتهرت الأناضول والقوقاز في هذه الحقبة بوبرهما اللامع وتصميم السجاد الهندسى الدقيق ، لاسيما بحاجيد الصلاة التى توجه أعمدتها وأقواسها المندبة

المصلى الراكع صوب المحراب الذى يشير فى كل مسجد إلى قبلة مكة المكرمة . كذلك فضل الأتراك جوامعهم ذات القباب والقرميد والمآذن على أبراج الكتدراثيات القوطية وعقودها وفخامتها الكايبية . وشيدوا حتى فى هذه الحقبة المضمحلة المساجد العظيمة فى نورى - عثمانية (١٧٤٨) ولاليلى - يامسى (١٧٦٥) ، وحاكى أحمد الثالث طراز الحمراء فى القصر الذى شيده فى عام ١٧٢٩ . أما الآستانة فلعلها كانت أروع العواصم الأوربية ، كما كانت أوسعها رقعة برغم شوارعها المتشابكة وأحيائها الفقيرة الكثيرة الضجيج ، وكان سكانها البالغون مايونين من الأنفس ^(١١) مثلى سكان لندن ، وثلاثة أمثال سكان باريس ، وثمانية أمثال سكان روما ^(١٢) . وحين أطلت الليدى مارى على المدينة والميناء من قصر السفير البريطانى ، خيل لـ إليها أنهما « ربما يؤلفان معاً أبهى مشهد فى العالم » ^(١٣) .

على عرش هذه الإمبراطورية العثمانية ، من الفرات إلى الأطلنطى ، تربع سلاطين عصر الاضمحلال . ولقد نظرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب ^(١٤) فى أسباب ذلك الاضمحلال : وهى انتقال تجارة غربى أوروبا التى تقصد آسيا ، إذ أصبحت تدور حول أفريقيا بجرأبدلا من طريقها البرى الذى كان يخرق مصر أو غربى آسيا ؛ وتخریب قنوات الرى أو إهمالها ؛ وتوسع الامبراطورية وامتدادها إلى مسافات مترامية لا تتيح لها الحكم المركزى الفعال وما ترتب على ذلك من استقلال الباشوات ونزوع الولايات إلى الانفصال ؛ وتدهورت الحكومة المركزية لتنفشى الرشوة والعجز والكسل ، وتمرد الانكشارية المرة تلو المرة على النظام الصارم الذى كان له الفضل فيما بلغوا من قسوة وتساط القدرية والجمود على الحياة والفكر ، وتراخى السلاطين الذين استطابوا خدور النساء وآثروها على ساحات الوغى .

وقد استهل أحمد الثالث حكمه بسماحة للإنكشارية بأن يملوا عليه . اختياره لكبير وزرائه (الصدر الأعظم) . وهذا الوزير هو الذى قبل رشوة بلغت ٢٣٠.٠٠٠ روبل بعد أن قاد ٢٠٠.٠٠٠ تركى ضد ٣٨.٠٠٠ جندى من جيش بطرس الأكبر عند نهر بروت ، لقاء سماحه للقيصر المحاصر

بالفرار (٢١ يوليو ١٧١١). وحدث أن حرضت البندقية أهل الجبل الأسود على الثورة على تركيا ، فأعلنت هذه الحرب عليها (١٧١٥) وأتمت فتح كريت واليونان . فلما أن تدخلت النمسا ، أعلنت تركيا الحرب عليها (١٧١٦) ، ولكن أوجين أمير سافوا هزم الترك في بترفارداين وأكره السلطان بمقتضى معاهدة ساروفتس (١٧١٨) على الجلاء عن المجر ، والنزول عن بلغراد وأجزاء من ولاشيا للنمسا ، وتسليم البندقية حصونا في ألمانيا ودلماشيا . ولم تسفر المحاولات التي بذلتها تركيا لتعويض هذه الخسائر بالغارات تشنها على فارس إلا عن المزيد من النكسات والهزائم ، وقد قتل الغوغاء- بقيادة عامل حمام- الوزير إبراهيم باشا وأكرهوا أحمد على التنازل عن العرش (١٧٣٠) .

وجدد ابن أخيه محمود الأول (١٧٣٠ - ٥٤). الصراع مع الغرب ليفرض بالحرب تدفق الضرائب وتعالم الدين ، وأنتزع جيش تركي أوخاكوف وكلبورون من روسيا ، وأسترد جيش آخر بلغراد من النمسا . غير أن أضمة حلال تركيا عاود سيرته الأولى في عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ٧٤) . ففي ١٧٦٢ أعلنت بلغاريا استقلالها . وفي ١٧٦٩ خاضت تركيا الحرب مع روسيا منعاً لانتشار سلطان روسيا في بولندا . وهكذا بدأ ذلك الصراع الطويل الذي أنزلت فيه جيوش كاترين الكبرى هزائم ساحقة بالأتراك . فلما مات مصطفى أبرم أخوه عبد الحميد الأول (١٧٧٤-٨٩) معاهدة مذلة تسمى قجوق قيئارجي (١٧٧٤) ، قضت على النفوذ التركي في بولندا وجنوب روسيا ومالدافيا وولاشيا ، وعلى هيمنة الأتراك على البحر الأسود . وجدد عبد الحميد الحرب في ١٧٨٧ ، فهزم هزائم منكرة ، ومات كمدا . وكان على تركيا أن تنتظر حتى يجيء كمال باشا (أتاتورك) لينهي قرنين من الفوضى ويجعل منها دولة حديثة .

٢ - الإسلام في أفريقيا

بعد أن فتح العثمانيون مصر (١٥١٧) أنابوا عنهم في حكمها الباشوات والولاة . وسمحوا للمماليك الذين كانوا يحكمون مصر منذ ١٢٥٠ بالاحتفاظ

بسلطتهم المحلية بكوات على السنجقيات الاثنتى عشرة التى قسمت إليها البلاد . وبينما كان الباشوات يبددون عافيتهم فى البلدخ والترف ، درب البكوات جنودهم على الولاء لأشخاصهم ، وسرعان ما تلبسوا سلطة الولاة المكروهين . وكان أكثر هؤلاء الحكام الخلبين إقداما هو على بك [الكبير] ، الذى كان فى طفولته قد بيع عبدا . ففى ١٧٦٦ ضاع الباشا وفى ١٧٦٩ أعان استقلال مصر . وانتشى نخمرة النصر فقاد جنده المماليك ليفتح جزيرة العرب ، واستولى على مكة . وانخذ لقب سلطان مصر وشاقان البحرين (الأحمر والمتوسط) . وفى ١٧٧١ أوفد « أبنا الذهب » على رأس ثلاثين ألف مقاتل لفتح الشام . ففتحها ، واسكنه تحالف مع الباب العالى ، وقاد جيشه عائدا إلى مصر . وفر على بك إلى عكا ، وجند جيشا آخر . والتقى بقوات أبنا الذهب والأتراك . وقاتل حتى أثخن بالجراح فمجز عن المضى فى القتال . ووقع فى الأسر . ثم قضى نحبه بعد أسبوع (١٧٧٣) . وعادت مصر ولاية عثمانية من جديد .

ودون ذبذبات السلطة ونشوات القتل هذه استطاعت راكب التجارة وقوافلها . واجتهد الحرفيين . وفيضان النيل السنوى . وعرق الفلاحين فى التربة الطميمة الحسبة . استطاعت كلها أن تبقى فى مصر على اقتصاد لم ينع ثماره غير قلة حبها الطبيعة أو الظروف بالكفاية أو المنصب . وأنتج جهد الحقول والبحار ومحصولها طعاما للمدن وخصوصا الإسكندرية التى كانت من أعظم الثغور . والقاهرة التى كانت من أكثر العواصم سكانا فى عالم القرن الثامن عشر . وكانت الشوارع ضيقة لتحجب الشمس . وقد زينت بالمشربيات والشرفات التى يستطيع الحرير اختلاص النفاذ . بها إلى الحياة من تحتها . وكانت الشوارع الكبيرة تعج بالحرف التى تحدث تطفل رأس المال أو إنتاج الآلات . وكانت كل صناعة فى أفقار الإسلام فنا . وحلت الجودة محل الكم . فصنع الفقراء التحف والظرف الأغنياء والكثهم لم يبيعوهم قط أباءهم وعزة نفوسهم .

وقام فى القاهرة ثلاثمائة مسجد تدعم فقراءها بالرجاء ، وتزين

المدينة بالقباب الضخمة والأروقة المعمدة الظليلة والمآذن الشاخنة . وكان أحدها وهو الجامع الأزهر جامعة الإسلام الأولى ، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة من أقصى بقاع الأرض ، من ماليزيا شرقاً إلى المغرب غرباً ، ليتعلموا لغة القرآن وعلوم البلاغة والتوحيد والأخلاق والشريعة ، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء ، ومنهم يختار المعلمون والقضاة . لقد كان نظاماً وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة .

وهكذا لم يكد يطرأ على الأخلاق أى تغيير من قرن إلى قرن . وكانت سن بلوغ الأحداث متقدمة عنها في الأقطار الشمالية ، فتزوج كثير من البنات في الثانية أو الثالثة عشرة ، وبعضهن في العاشرة ، وبقاء الفتاة بغير زواج إلى السادسة عشرة كان عاراً . ولم يقدر على تعدد الزوجات الذى أباحته الشريعة الإسلامية إلا أغنياء القوم . أما الزوج الذى تخونه زوجته فلم يكن من حقه الشرعى أن يقتل هذه الزوجة المحرمة فحسب ، بل كان يلقي التشجيع من الرأى العام ^(١٥) . وكان الفكر الإسلامى ، كالمسيحى ، يعتبر المرأة مصدراً رئيسياً للشر ، لا يمكن السيطرة عليه إلا بإخضاعها إخضاعاً صارماً . وكان الأطفال ينشأون على نظام الحريم ، فيتعلمون أن يحبوا أمهم وأن نخشوا أباهم ويجلوه ، وكانوا كلهم تقريباً يتعلمون ضبط النفس وحسن الأدب ^(١٦) . وساد حسن السلوك جميع الطبقات ، مع شئ من يسر الحركة ورشاقتها ، لعله أخذ عن النساء اللاتى ربما أكتسبته من حمل الأثقال على رءوسهن . وكان المناخ مانعاً من العجالة مشجعاً على الكسل ٥

ولم يمنع تعدد الزوجات البغاء ، ففي استطاعة البغايا توفير الاثارة التى أحمدها طول الألفة . وتخصصت غوانى مصر في الرقصات الفاجرة ، وبعض الآثار القديمة تكشف عن قدم هذا الاغراء . وكانت كل مدينة كبرى تخصص للبغايا حياً يمارسن فيه حرفتهن دون خوف من عقاب القانون . وكانت النساء اللاتى يحذقن الرقصات الفاجرة ، شأنهن في جميع الحضارات ،

يستأجرون لهن أجسادهن أمام محافل الذكور ، وفي بعض الحالات كانت النسوة أيضاً يستمتعن بمشاهدة هذا الرقص (١٧) .

أما الموسيقى فكانت تخدم الحب والحرب ، فهي تستفر المهاجرين وتهديء المهزومين . وكان الموسيقيون المحترفون من الجنسين يؤدى بهم للترفيه . كتب إدوارد لين في ١٨٣٣ يقول « سمعت في القاهرة أعظم الموسيقيين شهرة وأطربنى أغانيهم أكثر من أى موسيقى أخرى استمتعت بها في حياتى (١٨) . وكانت الآلة المفضلة هى « الكمنجة » ، وهى ضرب من الفيولا النحيلة ، ولها وتران من شعر الخيل على صندوق مصمت مصنوع من جوزة هند شقت بين وسطها ورأسها وغطيت بقشر سمك مشدود^(١٩) . وكان العازف يتربع ويسند طرف الآلة المدبب على الأرض ، ويضرب أوتارها بقوس من شعر الحصان ونشب الدردار . أو قد يقعد العازف وفي حجره قانون كبير وينقر الأوتار بريشة من القرن ملصقة بسبابنيه . وتحول العود القديم الآن إلى شكل الجيتار . فلماذا أضفت نايا ، وماندولينا ، وطمبورينا ، أكتمل لك أوركسترا يروق الذوق المتحضر ، خيراً من تلك الموسيقى البدائية التى تهيج اليوم المحافل الغربية .

أما « دول البربر » أى البلاد التى زعموا أنها « بربرية » أو همجية ... وهى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش . فقد دخلت التاريخ في القرن الثامن عشر أولاً بفضل بطولات قراصنتها أو اغتياها « باياتها » أو « داياتها » وقد احتفظت هذه الحكومات باستقلالها الفعلى بارسالها « الهدايا » بين الحين والحين إلى السلاطين بالآستانة . وكان قوت الشعب يأتى أكثره من الزراعة أو القرصنة ، وكانت الفدية التى تؤدى عن الأسرى النصارى جزءاً هاماً من الدخل القومى : غير أن قباطنة القراصنة كان أكثرهم نصارى^(٢٠) . أما القنون فظلت محتفظة بوجود قلق ، ولكن البنائين المغاربة احتفظوا بقدر من المهارة أناس لهم أن يزرکشوا بالقرميد الأزرق والأخضر المتألق « باب منصور » الفخم الذى أضيف في ١٧٣٢ بوابة بقصر مولاي إسماعيل وجامعه الضخم

(٥) الرصف ينطبق على الرقابة لا على الكمنجة (المترجم) .

الذى ابتناه فى القرن السابع عشر فى مكناس ، وكانت آنئذ مقر سلاطين
مراكش . أما مولاي اسماعيل هذا فقد أقر النظام فى حكمه الذى امتد خمسة
وخمسين عاماً (١٦٧٢ — ١٧٢٧) وأنجب مئات الأبناء ، ورأى فى منجزاته
ما يبرر طلب يد ابنة اللويس الرابع عشر يضمها إلى حريمه ^(٢٠) . ويصعب
علينا أن نسيغ أساليب حياة شديدة التباين عن أساليب حياتنا ، ولكن قد
يعيننا على ذلك أن نتذكر ملاحظة قالها رحالة مغربى عند عودته من زيارة
إلى أوروبا « يالها من متعة أن يعود المرء إلى الحضارة » ^(٢١) .

٣ - الإسلام فى فارس (١٧٢٢ — ٨٩)

ولو سئل رجل فارسى فى هذه الحقبة لأعرب عن شعور بالراحة شبيه
بهذا عند عودته إلى وطنه بعد مقامه حقبة فى الأقطار المسيحية أو حتى
فى أقطار العثمانيين المسلمين . فالفارسي المتعلم حتى سقوط الدولة الصفوية
(١٧٣٦) فى أغلب الظن كان يضع المدنية الإيرانية فى مرتبة أعلى من أى
حضارة معاصرة ، ربما باستثناء الصينية . وكان يستنكر النصرانية باعتبارها
انتكاساً إلى الشرك الشائع بين العوام . ولعله كان يسلم بتفوق بلاد النصارى
فى العلوم والتجارة والحرب ، ولكنه كان يؤثر الفنون على العلوم ،
والحرف اليدوية على الصناعة المميكنة .

كان القرن الثامن عشر قرناً ألماً على فارس . فأتى لإيران وقد غزاها
الأفغانيون من الجنوب الشرقى ، ولاحقها غارات قناصة العبيد من الأذربك
فى الشمال الشرقى ، وهاجمتها غارات السلب والنهب الروسية فى الشمال ،
واجتاحها المرة بعد المرة الجيوش التركية فى الغرب ، وأفقرها طغيان نادر
شاه ملكها المحب للأبهة وتعسفه فى جمع الضرائب ، ومزق أوصالها الصراع
الوحشى بين الأسر المتناحرة طمعاً فى العرش الفارسى — نقول أتى وكيف
تستطيع إيران وقد ابتليت بهذا الاضطراب كله أن تواصل التقاليد العظمى
للأدب والفن الفارسيين .

وكان البلد الذى نسميه الآن أفغانستان فى القرن السادس عشر تنقسمه

ثلاث حكومات : كابول الخاضعة للحكم الهندي ، وبلغ الخاضعة للأزبك ، وهرارة وقندهار الخاضعتان للفرس . وفي ١٧٠٦ - ٨ ثار أفغانيو قندهار بقيادة مير (أمير) فايز وطرّدوا الفرس . وغزا ابنه مير محمود فارس ، وخلع الحاكم الصفوي حسيناً ، ونصب نفسه شاهاً . وقد دعم الدين سلاحه ، لأن الأفغانيين كانوا يتبعون المذهب السني ، ويكفرون الفرس المتشيعين . وقتل محمود في سورة غضب ثلاثة آلاف من حرس حسين وثلاثمائة من أشرف الفرس ، ونحو مائتي طفل أشتبّه في أنهم استنكروا قتل آبائهم . وبعد راحة طويلة قتل محمود في يوم واحد (٧ فبراير ١٧٢٥) جميع الأحياء من أفراد الأسرة المالكة خلا حسيناً ولثنين من أبنائه الصغار . ثم التّاث عقل محمود ، فقتله وهو لا يزال في السابعة والعشرين ابن عمه أشرف (٢٢ أبريل ١٧٢٥) الذي نادى بنفسه شاهاً . وهكذا بدأ سفك الدماء الذي هدّ كيان فارس في ذلك القرن :

واستنجد طهماسب بن حسين بروسيا وتركيا ، فاستجابت بالاتفاق على اقتسام فارس فيما بينهما (١٧٢٥) . ودخل جيش تركي فارس واستولى على همدان وقزوین والمراغة ، ولكن هزمه أشرف قرب كرمانشاه . وكان الجنود الأتراك يفتقرون إلى الحماسة ، فقد تساءلوا أي سبب يدعوهم لمقاتلة الأفغانيين ، وهم أخوة لهم سنيون على شاكلتهم ، ليردوا الصفويين الشيعة الزنادقة إلى الحكم . وتصالح الأتراك مع أشرف ولكنهم احتفظوا بالأقاليم التي فتحوها (١٧٢٧) .

وبدا أن أشرف قد غدا الآن في أمان ، ولكن ما مضى عليه عام حتى تحدى سلطانه المغضوب الدخيل ظهور رجل فارسي مغمور أنقض على العدو في بضع سنين ، فحققت انتصارات من أروع وأفظع ما سجله تاريخ الحروب قاطبة . وقد ولد هذا المقاتل واسمه نادر قبلي (أي عبد الله) في خيمة بشمال شرق إيران (١٦٨٦) وكان يعين أباه على رعي ما يملك من قطعان الغنم والماعز ، ولم يتح له من التعليم غير ما لقنته الحياة الشاقة المحفوفة

بالمخاطر . فلما بلغ الثامنة عشرة وخاف أباه كبيراً لأسرته اختطفه هو وأمه المغيرون الأذرباكي وحملوهما إلى خيوة حيث باعوهما عبيداً . وماتت الأم في ذل الأسر ، ولكن نادراً هرب وأصبح زعيماً لعصابة لصوص ، واستولى على كالات ونيشابور ومشهد ، وأعان ولاءه وولاء هذه المدن للشاه طهماسب ، وتعهد بطرد الأفغانين من فارس ورد عرش فارس إلى طهماسب . وقد أنجز هذا كله في حملات متلاحقة (١٧٢٩ — ٣٠) ورد طهماسب إلى عرشه ، فعين نادراً سلطاناً على خراسان وسيستان وكرمان ومازندران .

وما لبث القائد المظفر أن شرع في استرداد الأقاليم التي استولت عليها تركيا . فاستطاع بهزيمة الترك هزيمة فاصدة في همدان (١٧٣١) أن يخضع العراق وأذربيجان لحكم الفرس . ثم نعى إليه نواباً تمرد في خراسان ، فرفع الحصار عن أروان وزحف ألفاً وأربعمائة ميل عبر العراق وإيران ليحاصر هراة ، وهو زحف يتضاءل بالقياس إليه الزحف الشهير الذي عبر فيه فردريك الأكبر ألمانيا مراراً في حرب السنين السبع . ونزل طهماسب بشخصه أثناء ذلك إلى ساحة القتال ضد الترك فمخسر كل ما كسبه نادر ، ونزل عن جورجيا وأرمينيا وتركيا نظير تعهد الترك بمساعدته ضد روسيا (١٧٣٢) . فأسرع نادر قافلاً من الشرق وأنهى المعاهدة ، وخلع طهماسب وسجنته ، وأجلس على العرش غلاماً لطهماسب لم يجاوز عمره ستة أشهر باسم الشاه عباس الثالث ، ونادى بنفسه وصياً على الصبي ، وأرسل إلى تركيا إعلاناً بالحرب :

ثم زحف إلى الترك بجيش عدته ثمانون ألف مقاتل جندهم بالإقناع أو بالإرهاب . وعلى مقربة من سامراء التقى بجيش عزم — مرم من الترك يقودهم توبال عثمان من محفته لبت ساقية . وأطلقت النار مرتين على جوادى نادر أسفله ، وفر حامل عامه ظناً منه أنه قتل ، وأنقلب عليه فرقة عربية كان يعتمد على معونتها ، وهكذا كانت هزيمة الفرس هزيمة نكراء ما حققة (١٨ يوليو ١٧٣٣) . ولكنه لم فلول جيشه في همدان ، وجند ألفاً

جددا ، وسلحهم وأطعمهم ، ثم كر على الترك وبطش بهم في ليلان في مذبحه رهيبه لقي فيها توبال عثمان حتفه . ثم أندلعت ثورة أخرى في جنوب غربى فارس ، فشق نادر طريقه من الغرب إلى الشرق ، وهزم الزعيم المتمرد فانتحر . وفي عودته عبر فارس والعراق ، ألتقى بثمانين ألف تركى في بغاوند (١٧٣٥) ، وهزمهم هزيمة نكراء أكرهت تركيا على إبرام صلح نزلت بمقتضاه لفارس عن تفليس وجونده وأروان .

لم ينس نادر أن بطرس الأكبر هاجم فارس في ١٧٢٢ - ٢٣ ، واستولى على أقاليم جيلان وأستراباد ومازندران على بحر قزوين ، وعلى مدينتى دربند وباكو . وكانت روسيا قد ردت الأقاليم الثلاثة لفارس (١٧٣٢) لأنشغالها في جهات أخرى . فهدد نادر الآن (١٧٣٥) بالتحالف مع تركيا ضد روسيا أن لم تنسحب من دربند وباكو . وعليه سلمت إليه المدينتان ، ودخل نادر أصفهان دخول الفاتح الظافر الذى أعاد بناء قوة فارس . فلما مات الصبي عباس الثالث (١ٷ٣٦) تختما بموته ملك الصفويين ، جمع نادر بين الواقع والمظهر ، وارتقى العرش باسم نادر شاه .

وكان يؤمن بأن الخلافات الدينية بين تركيا وفارس تعمل على نشوب الحروب المتكررة ، لذلك أعلن أن فارس ستتخلى منذ الآن عن بدعة التشيع وترضى السنية مذهبا لها . فلما أذان زعيم الشيعة هذه الخطوة شنقه نادر بكل هدوء مستطاع . ثم صادر أوقاف قزوین الدينية ليفى بنفقات جيشه لأن فارس على حد قوله مدينة لجيشها أكثر مما هى مدينة لدينها (٢٢) . ثم إذ شعر بالحنين إلى الحرب ، فأشرك معه فى الملك ابنه رضا قلى ، ثم قاد جيشا من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليفتح به أفغانستان والهند .

و ضرب الحصار عاما كاملا حول قندهار . فلما استسلمت له (١٧٣٨) كان كريما رحيا مع المدافعين عنها ، حتى أن جيشا من الأفغانيين أنضوى تحت لوائه وظل وفيا له إلى يوم مماته . ثم زحف على كابول مفتاح ممر

خبير ، وهناك أعانته الغنائم التي ظفر بها على رفع الروح المعنوية في جيشه . وكان محمد شاه ، إمبراطور الهند المغولي ، يأبى أن يصدق بإمكان غزو الفرس للهند ، وكان أحد ولاته قد قتل مبعوث نادر إليه ، فعبّر نادر جبال الهمالايا ، وأستولى على بشاور ، وعبر السند ، وزحف على دلهي حتى لم يعد بينه وبينها سوى ستين ميلا قبل أن يهب جيش محمد لمقاومته والتقى الجيشان الهائلان على بطاح كرنال (١٧٣٩) ، وأعتمد الهنود على فياتهم ، أما الفرس فقد هاجموا هذه الحيوانات الصبورة بكرات النار ، فانقلبت الفيلة هاربة وأشاعت الفوضى في جيش الهنود ، وقتل منهم عشرة آلاف ، وأسر عدد زاد على القتلى ، وبروى نادر أن محمد شاه جاءه يلتمس الرأفة « أمام حضرتنا السماوية » . (٢٣) وفرض عليه القائد المنتصر تسليم دلهي وكل ثروتها القابلة للنقل تقريبا ، والتي تقدر بـ ٨٧,٥٠٠,٠٠٠ جنيه ، بما فيها عرش الطاووس الأشهر ، الذي كان قد صنع (١٦٢٨ - ٣٥) لشاه جهان في أوج سطوة المغول . وقتل بعض جنود نادر في شغب أحدثه الأهالي ، فانتقم بالسماح لجيشه بذبح ١٠٠,٠٠٠ من الوطنيين في سبع ساعات . واعتذر عن هذه القفزة بتزويج ابنه نصر الله من ابنة محمد . ثم زحف قافلا إلى فارس لايعوقه عائق بعد أن أثبت أنه أعظم الفاتحين قاطبة منذ تيمور لنك .

وكان قدره المقدور أنه لو سرح جيشه فرما يعيث فسادا في الأرض ويشق عليه عصا الطاعة ، ولو أبى عليه جيشا عاملا فلزام عليه أن يكسوه ويطعمه ، وكانت النتيجة التي خلص إليها أن الحرب أرخص له من السلم إذا استطاع خوضها على ساحة غريبة . فمن ترى يكون هدفه الآن ؟ وتذكر غارات الأذربك على شمال شرقي فارس ، وكيف باعوه عبدا ، وكيف ماتت أمه في رقها . وإذن ففي ١٧٤٠ قاد جيشه زاحفا على أذربكستان ، ولم يكن لأمر بخارى لا القوة ولا الميل للوقوف في وجه نادر ، ومن ثم فقد أذعن ، وأدى تعويضا ضمحما ، ووافق أن يكون نهر سيحون كما كان في القدم الحد بين أذربكستان وفارس . وكان خان نخبه قد أعد مبعوث نادر ،

فقتل نادر هذا الخان ، وأطلق سراح آلاف من العبيد الفرس والروس (١٧٤٠) .

كان نادر بكل شخصيته مقاتلاً استغرقت الحرب عقله كله ، فلم يعد فيه ذرة من الرغبة في الحكم والإدارة . وبات السلام عنده عبثاً ثقيلاً لا يطيقه . وجعلته الغنائم والأسلاب لإنساناً جشعاً مخيلاً بدلاً من أن يكون جواداً كريماً . فعين ملائ خزائنه كنوز الهند أعلن تأجيل دفع الضرائب في فارس ثلاث سنين ، ثم عدل عن رأيه وأمر بجمع الأموال كما كانت تجمع من قبل ، وأفقر جيّاته فارس كما لو كانت بلداً مغلوباً . ثم خامرته الظنون بأن ابنه يتآمر على خلعه ، فأمر بأن تنفقاً عيناه . وقال له ابنه رضا قلى « لأنك لم تنفقاً عيني بل عيني فارس » (٢٤) . وبدأ الفرس يمتنون منقذهم كما تعلم الروس من قبلهم أن يمتنوا بطرس الأكبر . وأثار الزعماء الدينيون عليه بغض أمة طعنت في إيمانها الديني . فحاول أن يخمّد التمرّد المتعاظم بإعدام المتمردين بالجملة ، حتى لقد بنى أهراماً من جماجم ضحاياهم . وفي ٢٠ يونيو ١٧٤٧ اقتحم خيمته أربعة رجال من حرسه وهجموا عليه ، فقتل اثنين منهم ، ولكن الآخرين صرعا . وتنفست فارس كلها الصعداء .

وهو من بعده البلاد إلى درك من الفوضى أسوأ مما تردت فيه أيام سيطرة الأفغانين . فطالب نفر من خانات الأقاليم بالعرش ، وتلا ذلك مباراة في التقتيل والاغتيال . وقنع أحمد خان بتأسيس مملكة أفغانستان الحديثة . أما شاه رخ - الرجل الوسيم اللطيف الرحيم - فتقدّ سملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل ، فتقهقر ليحكم خراسان حتى ١٧٩٦ . وخرج كريم خان منتصراً من الصراع ، وأسس الاسرة الزندية (١٧٥٠) التي احتفظت بسلطانها حتى ١٧٩٤ . واختار كريم شيراز عاصمة للملكة ، وزينها بالمباني الجميلة ، وساد جنوبي فارس تسعة وعشرين عاماً من نظام وسلام لا بأس بهما . فلما مات جعل المتطاحن على السلطة يتخذ من جديد صورة الحرب الأهلية ، وعادت الفوضى تضرب أطرافها من جديد .

اختتمت فارس آخر مراحلها الفنية العظمى بسقوط الدولة الصفوية على

يد الافغانين ، فلم تجميلها بعد ذلك غير بعض الآثار الفنية الصغيرة . وقد وصف اللورد كرزن مدرسة الشاه حسين (١٧١٤) بأصفهان - وكانت كلية لتدريب الدارسين والمحامين - بأنها « من أفخم الاطلال في فارس » (٢٥). وتعجب السير برسي سايكس من «قرميدها البديع ... ورسومها المخروقة الجميلة» (٢٦). وكان صنّاع القرميد لا يزالون أمهر صنّاعه في العالم بأسره ، بيد أن افتقار الطبقات العليا نتيجة للحروب الطويلة قضى على سوق المهارة والتفوق وأكره الخزافين على الملبوط بفنهم إلى مستوى الصناعة . وصنعت أغلفة الكتب الفاخرة من الورق المعجن المصقول . وأنتج النساجون أقمشة مقصبة ومطرزة غاية في الرهافة . وظلت السجاجيد الفارسية تنسج للمحظوظين من شعوب كثيرة رغم أنها شهدت آخر أمجادها في عهد الشاه عباس الاول . وفي يوشاجان ، وهرّاة ، وكرمان ، وشيراز على الاخص ، كان النساجون ينتجون سجاجيد « لا يقلل من روعتها في عين الناظر إلا مقارنتها بأسلافها الكلاسيكية » (٢٧) .

أما الشعر الفارسي فقد حطم الفتح الافغانى قلبه ، وتركه أخرس كالآخرس طوال حقبة العبودية التالية لهذا الفتح . وحوالى ١٧٥٠ صنف لطف على بك أدار -قاموسا بسير الشعراء الفرس ، اختتم بستين من معاصريه. ومع هذه الوفرة الظاهرة فإنه أسف على ما رآه مجاعة في الكتاب المحيدين في عصره ، وعزا ذلك إلى الفوضى والفقر السائدين ، « واللذين استشرىا بحيث لم يعد لإنسان رغبة في قراءة الشعر فضلا عن قرضه » (٢٨). ونسوق هنا تجربة نموذجية للشيخ على خازن ، الذى نظم أربعة دواوين من الشعر ، ولكنه أمسك في حصار الأفغانين لأصفهان، ومات كل أهل بيته في الحصار، وظل هو على قيد الحياة ، ثم أفاق من محنته ، وهرب من أنقاض المدينة التى كانت رائعة الجمال يوما ما ، وأنفق الأعوام الثلاثة والثلاثين الباقية من أجله في الهند . وقد خلد في « مذاكراته » (١٧٤٢) ذكرى مائة شاعر فارسي في جيله ، وأعظمهم في رأيه سيد أحمد هاتف الأصفهاني ، ولعل أكثر قصائده ظفرا بالثناء تلك التى أكد فيها بوجود المتصوفة لإيمانه بالله رغم الشك والدمار :

« في الكنيسة قلت لفاتنة نصرانية ،
يا من يقع القلب في فخك أسيرا ،
أنت التي يتعلق كل طرف شعرة من شعري بسدى منطقتك !
إلى متى تضلين الطريق إلى واحدنية الله ؟
إلى متى تفرضين على الآله الواحد عار التثليث ؟
كيف يتأتى أن تدعى الإله الحق الواحد أباً وإبناً وروح القدس ؟
فافتري ثغرها الجميل وقالت لي والضحك الحلو يتدفق منها :
إن كنت تعرف سر الآله الواحد فلا ترمني بسبة الكفر !
في ثلاث مرايا يشرق الجمال الأبدي بشعاع من وجهه الساطع .
وبينما نحن في حديثنا هذا أنبعثت هذه الأنشودة بجوارنا من جرس
الكنيسة :

« إنه إله واحد ولا إله سواه ؟
لا إله إلا الله وحده ...
في قلب كل ذرة تشقيها ترين شمسا في الوسط .
أن أنت بذلت لله كل ما تملكين ، فلا حسب كافرا
أن أصابك مثقال ذرة من الخسران ...
سوف تعبرين الصراط الضيق وتبصرين الملكوت الرحب ،
ملكوت الإله الذي لا يحده مكان . . .
وسوف تسمعين ما لم تسمعه أذن ، وترين ما لم تره عين ،
حتى يأتوا بك إلى مكان لا تبصرين فيه من الدنيا وأهلها غير واحد أحد
إلى هذا الواحد ستبذلين الحب من قلبك وروحك ،
حتى ترى بعين اليقين في جلاء لا خفاء فيه .
أنه إله واحد ولا إله سواه ،
لا إله إلا الله وحده » (٢٩)

الفصل السابع عشر

فاصل روسى

١٧٢٥ - ١٧٦٢

١ - العمل والحكم

كتب فريدريك الأكبر حوالى عام ١٧٧٦ يقول : « من بين جيران بروسيا أجمعين تستحق روسيا أعظم الاهتمام لأنها أخطرهم ، فهي قوية وقريبة : وسيضطر حكام بروسيا القادمون كما اضطررت أنا للسعى إلى صداقة هؤلاء الهمج » (١) .

وعلىنا دائما ونحن نفكر فى روسيا أن نتذكر حجمها . كانت فى عهد كاترين الثانية تضم أستونيا وليفونيا وفنلنده (بعضها) ، وروسيا الأوربية ، وشمالى القوقاز ، وسبيريا . وقد اتسعت رقعتها من ٦٨٧,٠٠٠ إلى ٩١٣,٠٠٠ كيلو متر مربع فى القرن الثامن عشر ، وزاد سكانها من ثلاثة عشر مليوناً فى ١٧٢٢ إلى ستة وثلاثين مليوناً فى ١٧٩٠ (٢) . وفى ١٧٤٧ قدر فولتير سكان فرنسا أو ألمانيا بأنهم يزيدون قليلاً على سكان روسيا ، ولكنه لاحظ أن روسيا تبلغ مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة أى من الدولتين . وسيقوم الزمن والأصلا ب الروسية بملء تلك المساحات الشاسعة .

وفى عام ١٧٢٢ كان ٩٧,٧ ٪ من سكان روسيا ريفيين ، وظلت نسبتهم ٩٦,٤ ٪ فى ١٧٩٠ ، فقد كان التصنيع يسير ببطء شديد . وفى ١٧٦٢ كان كل الشعب إلا عشرة فى المائة منه فلاحين ، وكان ٥٢,٤ ٪ من هؤلاء أقناناً (٣) ، ونصف الأرض يمتلكه نحو ١٠٠,٠٠٠ من النبلاء ، ومعظم مابقى منها تملكه الدولة أو الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، وبعضها

ملكه فلاحون شبه أحرار ما زالوا يلتزمون بأداء الخدمات وبالطاعة للسادة المحليين ؛ وكانت ثروة المالك تحسب بعدد أقنانه ، من ذلك أن الكونت بيتر خيريميتيف بلغت ثروته ١٤٠٠٠ ر ١٤٠٠٠ قن ^(٤) . وكان الأقنان الذين تمتلكهم الكنيسة وعددهم ٩٩٢ ر ١٠٠٠ أهم جزء في ثروتها ، وكان ٢٨٠٠٠ ر ٢٨٠٠٠ قن يفلحون أراضي التاج في ١٧٦٢ ^(٥) .

وكان الشريف يتكفل بالقيادة العسكرية والتنظيم الاقتصادي ، وهو عادة معفى من الخدمة العسكرية ولكنه كثيرا ما تطوع بها أملا في الخطوة عند الحكومة . وكان له حقوق محاكمة أقنانه ، وله أن يعاقبهم ، أو يبيعهم أو ينفهم إلى سيبيريا . على أنه كان عادة يسمح للفلاحية بإدارة شئونهم بواسطة مجلس قريتهم أو « المير » وكان القانون يلزمه بإمداد أقنانه بالبنار وبإعالتهم في فترات القحط . وقد ينال القن حريته بشرائها من مالكة أو بالانخراط في سلك الجيش ، ولكن هذا مشروط برضى المالك . وكان للفلاحين الأحرار حق شراء الأقنان وامتلاكهم ، وكان بعض هؤلاء الأحرار ويلقبون « كولاسكي » (أى القبضات) ، يهيمنون على الشئون القروية ، ويقرضون المال بالربا ، وببزون السادة الإقطاعيين استغلالا وصرامة ^(٦) . وكان السيد والقن كلاهما متين السلالة ، صلب العود ، قوى الذراع واليد ، عكفا معا على تذليل التربة ، واضطلعا معا بعبء ترويض فصول السنة . وكانت المشاق أحيانا فوق ما يطيق البشر ، بحيث نسمع مرارا باقنان يهجرون مزارعهم في أعداد كبيرة ويختفون في بولنده أو الأورال أو القوقاز ، وكان الألوف منهم يلقون حتفهم في الطريق ، والألوف يتصيدهم الجند ويقبضون عليهم . وبين الحين والحين يهب الفلاحون في ثورة مسلحة على ساداتهم وعلى الحكومة ، وتنشب بينهم وبين الجيش معارك يستमितون فيها في الدفاع عن أنفسهم ، ولكن الهزيمة تلاحقهم دائما ، فيزحف الأحياء منهم قافلين إلى واجباتهم — إلى أخصاب النساء بذريتهم ، والتربة بدمائهم .

وقد درب بعض الأقنان على الفنون والحرف ، فكانوا يمدون ساداتهم بكل احتياجاتهم تقريبا . ويروى الكونت سيجور في معرض حديثه عن

حفلى أقيم لكاترين الثانية أن الشاعر الذى نظم الاوبرا والمؤلف الذى ألف موسيقاها ، والمعماري الذى بنى قاعة الاستماع ، والنقاش الذى زخرفها ، وممثل المسرحية وممثلاتها ، والراقصين والراقصات فى الباليه ، والموسيقيين فى الأوركسترا — كل أولئك كانوا أقنانا للكونت خريميتييف (٧) . وكان الفلاحون يصنعون فى الشتاء الطويل الملابس والأدوات التى سيحتاجون إليها فى السنة المقبلة . وكانت الصناعة فى المدن بطيئة التطور ، من جهة لأن كل بيت كان ورشة ، ومن جهة أخرى لأن صعوبات النقل كانت عادة تضيق السوق فلا تتجاوز الجهات المجاورة للمنتج . وشجعت الحكومة المشروعات الصناعية بتقديمها الاحتكارات للمحظوظين ، وأحيانا بتزويدهم برأس المال ، وقد وافقت على أن يشارك الاشراف فى الصناعة والتجارة . وظهرت رأسمالية مبتدئة فى صناعات التعدين والميتالورجيا والعتاد الحربى ، وفى إنتاج المصانع للمنسوجات والخشب المنشور والسكر والزجاج . وسمح لل « مقاولين » بشراء الاقنان لتزويد مصانعهم بالعمال ، على أن هؤلاء « الفلاحين المملوكين » لم يكونوا مبروطين بالمالك بل بالمشروع ، وألزمهم مرسوم حكومى صدر فى ١٧٣٦ ، هم وذريتهم ، بالبقاء فى مصانعهم حتى يؤذن لهم رسميا بتركها . وكانوا فى حالات كثيرة يعيشون فى معسكرات منفصلين عن أسرهم فى الغالب الأعم (٨) .

أما ساعات العمل فتتفاوت بين إحدى عشرة وخمس عشرة فى اليوم للرجال ، تتمثلها ساعة للغداء ، وأما الأجور فتتراوح بين أربعة روبلات وثمانية فى اليوم للرجال ، وبين روبلين وثلاثة للنساء . ولكن بعض أرباب العمل تكفلوا بإطعام عمالهم وإسكانهم ودفع الضرائب عنهم . وبعد عام ١٧٣٤ ازداد تشغيل العمال « الأحرار » — أى غير الأقنان — فى المصانع لأنه أتاح مزيدا من الخوافز للعمال وحقق مزيدا من الربح لرب العمل . وكان العمل من الرخص بحيث لا يشجع اختراع الآلات أو استخدامها ، ولكن فى عام ١٧٤٨ أستخدم بولزونوف آلة بخارية فى مصانع الحديد التى يمتلكها بالأورال . (٩)

وبدأت طبقة وسطى صغيرة عديمة الحول سياسيا تتشكل ببطء بين طبقتي النبلاء والملاحين . ففي عام ١٧٢٥ كان نحو ثلاثة في المائة من السكان تجارا : أصحاب متاجر في القرى والمدن والأسواق ، ومستوردين للشاي والحرير من الصين والسكر والبن والتوابل والعقاقير من وراء البحار ، وللمنسوجات الفاخرة والخزف والورق من غربي أوروبا ، ومصندين للخشب والتربنتينة والقار وشحم الحيوان والكتان والقنب . وكانت القوافل تسافر إلى الصين بطريق سيبيريا أو بحر قزوين ، والسفن تقلع من ريجا وريفل ونارفا وسانت بطرسبرج . ولعل الأنهار والقنوات كانت تنقل من التجارة أكثر مما تنقله الطرق البرية أو البحرية .

وكانت موسكو تقع في قلب تلك التجارة الداخلية ، وكانت من الناحية المادية أكبر مدن أوروبا ، إذ أن بها شوارع طويلة عريضة ، و٤٨٤ كنيسة ومائة قصر ، وآلاف الأكواخ والزرائب ، وسكان بلغوا ٢٧٧,٥٣٥ في ١٧٨٠^(١) ، والفرنسيون والألمان واليونان والإيطاليون والانجليز والهولنديون والأسويون يتحدثون لغاتهم ويعبدون آلهتهم كما يشاءون . وكانت سانت بطرسبرج قلعة للحكومة . ومعقلا لأرستقراطية متفرنسة ، ومركزا للأدب والفن ، أما موسكو فكانت قطب الديانة والتجارة ، وتنسم بحياة نصف شرقيه لم تخلع عنها طابعها الوسيط ، وبوطنية سلافية مشربة بالغيرة والإخلاص . هاتان كانتا البؤرتين المتنافستين اللتين تدور حولهما المدنية الروسية ، حيناً تمزق الشعب شطرين كالحلية المنقسمة ، وحيناً نحيله مركبا متوترا سيصبح قبل ختام القرن مبعث الرعب لأوروبا والحكم الفيصل في مصيرها .

وكان محالا على شعب أضناه ووحشه صراعه مع الطبيعة ، وأعوزته أسباب الاتصال أو الأمن على الحياة ، وأفتقر أشد الافتقار إلى فرص التعليم وإلى الوقت الذي يفكر فيه - نقول إن شعبا كهذا كان محالا عليه أن يحظى بامتيازات الديمقراطية ومخاطرها ، اللهم إلا في القرى المعزولة . ولم يكن بد من الاقطاعية في صورة من صورها ، ومن ضرب عن النظام

الملكى فى الحكم المركزى . وكان من الأمور التى لابد من توقعها أن تتعرض الملكية للانقلابات المتكررة ، تقوم بها أحزاب النبلاء المهيمنين على إمدادهم العسكرية للحكومة ، وأن تسعى الملكية إلى الحكم المطلق ، وأن تعتمد على الدين معوانا لجنودها وشرطتها وقضاها على صيانة الاستقرار الاجتماعى والسلام الداخلى .

وكان الفساد عقبة كؤودا سدت كل مسالك الإدارة . وحتى النبلاء الأثرياء الملتفون حول العرش كان من السهل اجتذابهم بـ « الهدايا » . يقول كاستيرا الذى كان معاصرا تقريبا لهذه الحقبة « أن كان هناك عاصم الروس من التملك ، فإنه مامن أحد منهم يستطيع مقاومة أغراء الذهب »^(١١) . وكان النبلاء يهيمنون على حرس القصر ، ذلك الحرس المعز المذل ، الذى يقيم الملوك ويخلصهم ، ويؤلفون طبقة مميزة من الضباط فى الجيش ، ويمثلون مجلس الشيوخ الذى كان يشرع القوانين فى عهد الزابيث ، ويرأسون الوزارات (الكوليجيا) التى تهتم على العلاقات الخارجية ، والمحاكم ، والصناعة ، والتجارة ، والمالية ، ويعينون الكتبة الذين يواصلون السير على النظام البيروقراطى ، ويوجهون إختيار الحاكم للمحافظين ، الذين يديرون الـ « جوبرنيات » أى المحافظات التى انقسمت إليها الامبرطورية ويختارون (بعد ١٧٦١) « الفويفوديين » الذين يحكمون الأقاليم . وكان مكتب الرقيب المالى المؤلف أكثره من رجال الطبقة الوسطى يسط ظله على جميع فروع الحكومة ، وهو مكتب مخبرات إتحدادى ، نحول له أن يكشف ويعاقب الإختلاس ، ولكنه ألنى نفسه محبطاً رغم استخدامه المخبرين على نطاق واسع . فلو أن الملك رفت كل موظف مذنب بالرشوة والفساد لتوقف دولاب الدولة . وكان فى جباة الضرائب من الفهم للمال مالا يبقى لخزانة الدولة مما يجمعون أكثر من ثلثه .^(١٢)

٢ - الدين والثقافة

كان للدين سلطان كبير فى روسيا . لأن الفقر كان مدقعا ، ولأن تجار الأمل وجدوا مشتريين كثيرين . واقتصرت الشكوكية على طبقة عليا

تقرأ الفرنسية ، وكان للماسونية أتباع كثيرون في هذه الطبقة^(١٣) . أما سكان الريف وأكثر سكان المدن فكانوا يقيمون في عالم فوق طبيعي قوامه التدين الذي يشيع فيه الخوف ، يتخيلون الشياطين محيطة بهم ، ويرسمون الصليب مراراً وتكراراً في اليوم ، ويتضرعون للقديسين بالتشفع لهم ، ويتعبدون لرفاتهم ، يرهبون المعجزات ، ويرتعدون فرحاً من النذر ، ويخرون سجداً أمام الصور المقدسة ، ويولولون بترانيم كثيفة تنطلق من صدور جهيرة . وكان للكنائس أجراس ضخمة قوية ، وقد أقام بوريس جودونوف جرساً منها بلغ وزنه ٨٨٢٠٠٠ رطل ، ولكن الأمبراطورة أنا إيفانوفينا بزته في هذا الميدان ، إذ نصب لها جرس يزن ٤٣٢٠٠٠ رطل^(١٤) . وعمرت الكنائس بالمصلين ، وكانت الطقوس هنا أكثر مهابة ووقاراً والصلوات أكثر حماسة ووجداء منها في روما البابوية نصف الوثنية . أما القساوسة الروس — وكل منهم يلقب بالبابا — فكانت لهم لحى وشعر مرسل وأردية قائمة تصل إلى أقدامهم (لأن مظهر السيقان يتعارض مع الكرامة والوقار) . وقلما كانوا يختلطون بالنبلاء أو البلاط بل يعيشون في بساطة متواضعة ، متبتلين في أديرتهم أو متزوجين في دورهم . وكان رؤساء الأديرة يحكمون الرهبان ، والرئيسات يحكمن الراهبات ؛ وكان الكهنة غير الرهبان يخضعون للأساقفة ، وهؤلاء لرؤساء الأساقفة ، وهؤلاء للمطارنة الإقليميين ، وهؤلاء للبطريرك في موسكو ؛ والكنيسة بجمعيتها تعترف برئيس الدولة رأساً لها . وخارج الكنيسة عشرات من الملل والنحل تتنافس في التصوف والتقوى والكراهية .

وأفاد الدين في بث ناموس أخلاق حقق بالجهد خلق النظام وسط الدوافع القوية التي طبع عليها شعب بدائي . واتخذ نبلاء البلاط أخلاق الأرستقراطية الفرنسية وشاداتها ولغتها ، وكانت زيجاتهم صفقات عقارية خفف من عبئها العشاق والخليلات . وكان نساء النبلاء أرق تعليماً من رجاله ، ولكنهن قد يتفجرن في لحظات الغضب بالفاظ حامية وعنف قاتل . أما عامة الشعب فكانت لغتهم سوقية غليظة ، وكثر بينهم العنف ، وكانت القسوة تتفق وقوة البدن وصفاقة الجلد . وكان كل إنسان يقامر ويسكر حسب طاقته ،

ويسرق حسب منصبه^(١٥) ، ولكن الكل كانوا محسنين ، وبزت الأكواخ القصور في كرم الضيافة . وكانت الوحشية والكرم صفتين شائعتين في المجتمع كله .

أما اللباس فيختلف من أزياء باريس العصرية . في البلاط إلى القلانس من الفراء وجلد الغنم والقفازات الصفيقة التي يرتديها الفلاحون ، ومن جوارب النبلاء الطويلة الحريرية إلى الأربطة الصوفية التي تحتوى سيقان الأقتان وأقدامهم . وفي الصيف قد يستحم عامة الناس عراة في الأنهار متجاهلين المجلس . وكانت الحمامات الروسية كالتركية عنيفة ولكنها محبوبة . وفيما خلا هذا كان الاهتمام بالنظافة الصحية عارضا ، وحفظ الصحة العامة بدائيا . وكان النبلاء يخلقون لحاهم ، أما عامة الشعب فيطلقونها رغم مراسيم بطرس الأكبر .

وكان في كل بيت تقريبا بالالايكا (جيتار) ، وكان في سانت بطرسبرج على عهد إليزابيث وكاترين الثانية أوبرا مجلوبة من إيطاليا وفرنسا . وإليها وفد مشاهير المؤلفين والقادة الموسيقيين ، وأبرع مغني العصر وعازفيه . وكان المال ينفق بسخاء على تعليم الموسيقى ، وقد أثبت صوابه وفائدته بتفجر العبقريّة الموسيقية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وكان أصحاب الأصوات المبشرة من الذكور يرسلون من جميع أصقاع روسيا إلى الكنائس الكبرى لتدريبهم . ولما كانت الطقوس الكنسية اليونانية لا تبيح استعمال الآلات في الكورس ، فإن الأصوات كانت حرة طليقة ، فحققت من أعماق الانسجام والتناغم ما لم يكن له نظير في أى بلد آخر في العالم ، وغنى الصبيان أدوار السوبرانو ، ولكن المرتلين بأصوات الباص (العميقة الخفيفة) هم الذين أذهلوا كثيرين من الأجانب بمدى الخفض في أصواتهم وبتناسع شعورهم من همسات الرقة والحنان إلى موجات القوة الحنجرية .

فن تراثهم مؤلفو هذه الموسيقى المؤثرة لفرق الترتيل الروسية ، أكثرهم رهبان مغمورين لم تفرع الأجراس لموتهم ولم تشتهر أسمائهم . ويرز

من بينهم راهبان في القرن الثامن عشر . أولهما سوزونوفتش بيريزوفسكى الصبى الأوكرائى الذى وهب صوتاً كأنما خلق ليتعبد لله . وأوفدته كاترين الثانية إلى إيطاليا على نفقة الدولة ليحصل أفضل التعليم الموسيقى ، وعاش سنوات في بولونيا ، وتعلم التأليف الموسيقى على البادرى مارتينى . فلما عاد إلى روسيا كتب موسيقى دينية جمعت بين القوة الروسية والرشاقة الإيطالية . وقوبلت جهوده لإصلاح ترتيل الكورس بالمقاومة من أنصار القديم ، فبات فريسة لاكتئاب مرضى ، وقتل نفسه غير مجاوز الثانية والثلاثين (١٧٧٧) (١٦) . أما الثانى ، وهو أشهر منه ، فاسمه ديمترى بورتنيانسكى ، الذى أدخل وهو لا يزال طفلاً فى السابعة كورس كنيسة البلاط ، وناطت الإمبراطورة اليزابيث جالوبى بتعليمه ، فلما عاد جالوبى إلى إيطاليا أوفدت كاترين الثانية ديمترى معه إلى البندقية ومنها انتقل إلى يد البادرى مارتينى ثم إلى روما ونابلى ، حيث ألف موسيقى على الطريقة الإيطالية . وفى ١٧٧٩ عاد إلى روسيا ، وسرعان ما عين مديراً لكورس كنيسة البلاط ، وقد احتفظ بمنصبه هذا حتى مماته (١٨٢٥) . وقد ألف لفرقة الترتيل قداساً يونانياً ، وموسيقىات فى أربعة وثمانية أقسام لحمة وخمسين مزموراً . وتدريبه للفرقة يرجع له أكثر الفضل فى بلوغها مكانة من التفوق جعلتها إحدى عجائب العالم الموسيقى . وفى ١٩٠١ احتفلت سانت بطرسبرج بذكرى ميلاده المائة والخمسين بمظاهر الأبهة والفخامة .

أما الفن الروسى فقد سيطر عليه التأثير الفرنسى ، ولكن الشخصية القائدة فيه كان إيطاليا يدعى فرانثيسكو (أوبارتولوميو) راستريللى . وكان بطرس الأكبر قد استقدم أبلى كارلو إلى روسيا (١٧١٥) ، فصب بالبرونز تمثالاً لبطرس ممتطياً صهوة جواد ، وآخر بالحجم الطبيعى للإمبراطورة أنا أيفانوفنا . وورث الابن طراز لويس الخامس عشر الذى جلبه كارلو من فرنسا ، وأضاف إليه بعض ما استوحاه من روائع الباروك التى صنعها بلتازار نويمان وفيشر فون أرلاخ فى ألمانيا والنساء ، وقد طوع هذه التأثيرات لحاجات روسيا وطرزها الفنية بانسجام فائق حتى أصبح المعمارى المقرب للقيصرة اليزابيث . ويكاد يكون كل بناء روسى ذى خطر

مشيد من ١٧٤١ إلى ١٧٦٣ مصمماً بيده أو بيد معاونيه . فعلى ضفة نيفا اليسرى أقام (١٧٣٢ — ٥٤) « القصر الشتوى » الذى أحرق فى ١٨٣٧ ولكن أعيد بناؤه طبقاً لتصميمه الأصيل فيما يظن : كتلة هائلة من النوافذ والعمد فى ثلاث طبقات ، تعلوها التنايل والشرفات المفرجة ؛ وكان أقرب منه إلى ذوق اليزابث قصر زاركوى سيلو (أى قرية القيصر) ، المشيد على ربوة تبعد خمسة عشر ميلاً جنوبى سانت بطرسبرج . وعلى يساره بنى كنيسة ، وفى داخل القصر كان سلم فخيم يودى إلى قاعة كبرى تضمها نوافذ ضخمة بالنهار وست وخسون ثرياً بالليل ؛ وفى الطرف الأبعد قاعة العرش وأجنحة الأمباطورة ، ثم حجرة صينية تقدم فروض الاجلال التى درج القرن الثامن عشر على تقديمها للفن الصينى . وهناك « حجرة الكهرمان » المكسوة بألواح من الكهرمان والتى أهداها فردريك ولیم الأول بديلاً لخمسة وخسين من رماة القنابل اليدوية الفارعى الاجسام ، وقاعة للصور تضم بعض المجموعات الأمباطورية . أما داخل القصر فأكثره بزخرفة وركوكية ، وصفها رحالة إنجليزى بأنها « مزيج من الهمجية والفخامة »^(١٧) . وقد أزيلت بأمر كاترين الثانية زخارف الواجهة الذهبية ، فقد كانت كاترين بسيطة نقية فى ذوقها .

وكان الأدب أبطأ تطوراً من الفن . فقد افتقد التشجيع لندرة القراء ، وقيدت رقابة الكنيسة والدولة حرية التعبير ، ولم تكن اللغة الروسية قد صقلت ذاتها نحواً ولفظاً بحيث ترقى إلى مستوى الأداة الأدبية . ومع ذلك فحتى قبل تولي اليزابيث العرش (١٧٤٢) ترك ثلاثة من الكتاب بصماتهم على صحيفة التاريخ . وأولهم فازيلى تاتيشيف — كان صاحب نشاط وفكر ، رحالة مؤرخاً ، دبلوماسياً وفيلسوفاً ، يحب روسيا ولكنه يفتح عقله فى تشويق للتطورات الاقتصادية والفكرية فى الغرب . وكان واحداً من ذلك النفر من الشباب الذين أوفدهم بطرس إلى الخارج بغية إحصاب روسيا فكرياً . وقد عاد بأفكار خطيرة : فقد قرأ الأصول أو الخلاصات لكتب

بيكون وديكارت ولوك وجروتوس وبيبل ، وذبل لإيمانه السنّي ، فلم يؤيد الدين إلا بوصفه معاوناً على الحكم^(١٨) . وقد خدّم بطرس في حملات حربية خطيرة . وأصبح حاكماً لأستراخان ، وآتهم بالاختلاس .^(١٩) واجتمع له من جولاته ذخيرة من المعلومات الجغرافية والعرقية والتاريخية انتفع بها في كتابة « تاريخ روسيا » . وقد أغضب هذا الكتاب رجال الدين ، ولم يجرؤ أحد على طبعه حتى السنوات السبعة الأولى من حكم كاترين الثانية (١٧٦٨ - ١٧٧٤) .

وواصل ثاني هؤلاء الكتاب الثلاثة — وهو الأمير أنطيوخ كانتيمير — التمرد على اللاهوت . كان ابناً لحاكم (هوسبودار) ملداني ، وجرىء به إلى روسيا في عامه الثالث ، وتعلم الحديث بست لغات ، وخدم في السفارات الروسية في لندن وباريس ، والتقى بمونتسكيو وموبرتوي ، فأما عاد كتب نقداً لا ذعاً لأولئك الغلاة من الوطنيين الداعين للجامعة السلافية ، المعارضين لتلويث الحياة الروسية بالأفكار الغربية . وإلى القارئ طرفاً من قصيدته « إلى عقلي » :

« أيها العقل الفج ، يائسة الدراسات الحديثة ، أمسك ، ولا تدفع القلم في يدي ... ما أكثر الطرق السهلة المؤدية في زماننا هذا إلى أسباب التشريف ، ولكن أقل الطرق تقبلاً هو الطريق الذي خططته الأخوات الخلفيات التسع (ربّات الفنون) ... عليك أن تكذب وتكدهج هناك ، وبينما تشقى أنت يتجنّبك الناس كأنك الوباء ويتهكمون عليك ، ويبغضونك ... » « أن الذي يكب على الكتب ينقلب كافراً » ، هكذا يدمدم كريتو متدمراً في يده مسبحة ... ويريدني أن أرى مبلغ الخطر في بذرة المعرفة التي تلقى بيننا : إن أطفالنا مما يفزع الكنيسة ، بدأوا يقرأون الكتاب المقدس ، وهم يناقشون كل شيء ويريدون معرفة العلة لكل شيء ، ولا يضعون في رجال الدين إلا أقل الثقة ... إنهم لا يوقدون الشمع أمام الصور ، ولا يحفظون المواسم والأعياد ...

« أيها العقل ، نصيحتي لك أن تصبح أشد صمماً من قطعة زلاية ،

ولا تشك لأنك مغمور ... وإذا كانت الحكمة المنعمة قد علمتك شيئاً، ...
فلا تشرحه لغيرك » (٢٠) .

وزاد كانتيمير من إساءاته بترجمته كتاب فولتير « أحاديث حول
تعدد العوالم » ، وقد أدين الكتاب لأنه كوبرنيقي ، مهرطق ، مجدف ،
ولكن كانتيمير أحبط مايته له مضطهدوه ، فقد مات وهو في السادسة والثلاثين
(١٧٤٤) . ولم تجد هجائياته ناشراً يقدم على نشرها حتى عام ١٧٦٢ .

وفي عهد القيصرية الزابيث بدأ الأدب الروسي يؤكد ذاته شيئاً أكثر من
مجرد كونه صدى للأدب الفرنسي . وقد شعر ثالث هؤلاء الكتاب ، وهو
ميخائيل لومونوزوف ، بالتأثير الألماني لا الفرنسي ، وكان قد درس في
ماربورج وفرايبورج ، ثم تزوج فتاة ألمانية ، وجلب معها إلى سانت بطرسبرج
حملاً ثقيلاً من العلم . وأصبح سبع الأكاديمية المبرز في كل شيء حتى في
الشرب (٢١) . ورفض أن يتخصص ، فكان عالماً في المعادن ، وجيولوجياً ،
وكيمائياً ، وكهربائياً ، وفلكياً ، واقتصادياً ، وجغرافياً ، ومؤرخاً ، وفيلولوجياً ،
ونحيطياً . وقد لقبه بوشكن « أول جامعة روسية » (٢٢) وفي غمار هذا كله
كان يقرض الشعر :

وكان منافسه الأكبر على ثناء الطبقة المفكرة هو ألكسيس سوماروكوف
الذي نشر ديواناً من القصائد الغنائية من نظمه ونظم لومونوسوف ليظهر
أنه أشعر منه (وكان الفرق بينهما طفيفاً) . أما مفخرة سوماروكوف
الحقيقية فهي انشاؤه مسرحاً قومياً روسيا (١٧٥٦) ألف له تمثيليات رددت
صدى تمثيليات راسين وفولتير . وقد ألزمت الزابيث حاشيتها بالخصور ،
وكانوا لا يدفعون أجراً عن دخول المسرح ، فشكا سوماروكوف من أن
راتب الخمسة آلاف روبل الذي يتقاضاه في العام لا يقيم أوده ، ولا يعين
مسرحه على الحياة . « أن ما كان الناس يشهدونه في أثينا يوما وما يشهدونه
اليوم في باريس ، يشهدونه كذلك في روسيا بفضل اهتمامي . . . وفي ألمانيا
لم يوفق حشد من الشعراء لما وفقت إلى صنعه بجهودي أنا وحدي » (٢٣) .

وفي ١٧٦٠ أعيا من هذه الجهود المضنية فشدد رحاله إلى موسكو ، ولكن ميله للشجار ما لبث أن أورثه الفقر هناك . فناشد كاترين الثانية أن تبعث به إلى الخارج على نفقة الدولة ، وأكد لها أنه « لو وصف أوروبا قلم كقلمي ، لما كفاه ٣٠٠,٠٠٠ روبل » ^(٢٤) واحتملته كاترين في صبر حتى مات صريع الشراب (١٧٧٧) .

ولنبعث الآن شيئاً من الإشراف في هذه الصفحات بقصة غرام بطلتها أميرة إسمها ناتاليا بوريسوفنا دولجوروكايا ، وكانت إبنة الكونت والمشير بوريس خريميتيف ، رفيق سلاح بطرس الأكبر . ففي ربيعها الخامس عشر (١٧٢٩) يوم كانت « باهرة الجمال ومن كبار الوارثات في روسيا » ^(٢٥) خطبت لفاسيلي لوكيش دولجوروكي ، أقرب المقربين للقيصر بطرس الثاني . وقبل أن يتاح عقد القران مات بطرس ، فبنى خلفه فاسيل إلى سيبيريا ، وأصرت ناتاليا على أن تزوجه وتبعه إلى المنفى . وعاشت معه ثمانية أعوام في تبولسك ، وولدت له طفلين . وفي عام ١٧٣٩ أعدم ، وبعد أن قضت في المنفى ثلاثة أعوام أخرى سمح لها بالعودة إلى روسيا الأوربية فأكملت تعليم أبنائها ، ثم دخلت ديرا في كييف . هناك ، واستجابة لرعاء ولدها ميخائيل ، كتبت « مذكراتها » (١٧٦٨) التي نشرها حفيدها الشاعر الأمير إيفان ميخايلوفيتش دولجوروكي في ١٨١٠ . وقد أحياناً ذكرها ثلاثة شعراء روس ، وهي محل إجلال روسيا باعتبارها نموذجاً للكثيرات من النساء الروسيات اللاتي شرفن الثورة ببطولتهن ووفائهن .

والخلاصة أن الحضارة الروسية في جملتها كانت مزيجاً من الإنضباط الحتمي والاستغلال القاسي ، ومن التدين والعنف ، ومن الصلاة والتجديف ، ومن الموسيقى والتبذل ، ومن الوفاء والقسوة ، ومن الخضوع الدليل والبسالة التي لا تقهر . ولم يستطع القوم أن يكتسبوا فضائل السلم لأنه كان لزاماً عليهم أن يخوضوا ، خلال فصول شتاء مديدة ، وليالي قارسة البرد طويلة ، حرباً مريرة مع الرياح القطبية التي تكتسح سهولهم المتجمدة دون ما حاجز يعوقها . لأنهم لم يعرفوا قط النهضة الأوربية ولا الإصلاح

البروتستنتي ، ومن ثم كانوا — إلا في عاصمتهم المتكلفة — لا يزالون أسرى قيود العصر الوسيط . وكانوا يعززون أنفسهم بكبرياء العرق وبقين الإيمان ، دون أن يبلغ ذلك بعد مبلغ النزعة القومية الإقليمية ، إنما كان إقتناعاً ضارياً بأنه بينما كان الغرب يورد نفسه موارد الهلاك بالعلم والثروة والثنية والكفر ، أقامت « روسيا المقدسة » وفية لمسيحية آباء الكنيسة الأولين ، أقرب الأمم إلى قلب المسيح وأحبها إليه ، وإليها سيؤول حكم العالم وافتدائه ، يوماً ما .

٣ — السياسة الروسية

١٧٢٥ — ٤١

ليس تاريخ روسيا فيما بين بطرس الأكبر والإزابث بتروفا إلا سجلاً كتبها محيراً من الدسائس وثورات القصر . فهذه الحقبة تتيح لنا — إن كان لحقبة ما أن تتيح — ونحن مطمئنون — أن نوفر في الحيز والوقت . ومع ذاك فلا مناص من ذكر بعض عناصر هذا الخليط إن أردنا أن نفهم مركز كاترين الكبرى وخلقها وسلوكها .

كان الوريث الطبيعي للعرش عام ١٧٢٥ بيوتر ألكسيفتش ، صبي العاشرة وابن الكسيس (وألكسيس هو الابن القليل لبطرس الأكبر) ، ولكن أرملة بطرس التي لم تعرف القراءة والكتابة أقنعت حرس القصر (بدفعها رواتبهم التي طال تخلفها) بأنه عينها خلفاً له ، وبفضل تأييدهم أعلنت (٧ فبراير ١٧٢٥) توليها العرش بإسم كاترين الأولى ، إمبراطورة إقليم روسيا كلها . ولكن كاترين الصغرى هذه انغمست بعد ذلك في الشراب والفسق ، وكانت تعجب الخمر حتى تغيب عن وعيها كل مساء ، وتمضى إلى فراشها عادة في الخامسة صباحاً ، وقد تركت زمام الحكم لعشيقها السابق الأمير الكسندر دانيلوفتش منشيكوف ومعه مجلس أعلى — واضطلع الكونت أندراى أوسترمان ، الألماني المولد ، بالشئون الخارجية ووجه روسيا إلى مصادقة ألمانيا والنمسا ومعاداة فرنسا . وعملاً بمخططات

بطرس الأكبر ، زوجت كاترين إبنتها آنا بتروفنا لكارل فريدرش ، دوق هولشتين - جوتنورب ، وذهب العروسان ليعيشا فى كيل ، حيث ولدت آنا الغلام الذى صار فيما بعد بطرس الثالث . أما كاترين نفسها ، فقد ماتت فى ٦ مايو ١٧٢٧ شهيدة لذاتها ، بعد أن عينت خلفا لها الصبي بيوتر الكسيفيتش الذى اغتصب عرشه من قبل .

ولم يكن بطرس الثانى هذا يتجاوز الثانية عشرة ، فظل منشيكوف يواصل الحكم ، واستغل سلطاته فى الإثراء تحسبا للمستقبل . فهب لفيف من النبلاء بزعامة الأخوين إيفان وفاسيلى لوكيتش دولجوروكى فأطاحوا بمنشيكوف ونفوه إلى سيبيريا حيث مات فى ١٧٢٩ . ولم يمض عام حتى لقي بطرس الثانى حتفه بالجدري ، وانتهى بموته صلب الذكور فى أسرة رومانوف . هذا الحادث المؤسف هو الذى أتاح لروسيا أن تحكمها على مدى ستة وستين عاما ثلاث نساء ضارعن ، أو ففن ، أكثر معاصرين من الملوك كفاءة تنفيذية وآثارا سياسية ، وسبقهم جميعا --- باستثناء لويس الخامس عشر - فى مضمار العريضة الجنسية .

أما أولى هؤلاء القيصرات فهى آنا إيفانوفنا ، ابنة إيفان الكسيفيتش البالغة خمسة وثلاثين عاما ، وأبوها كان الأخ الأبله لبطرس الأكبر . وقد اختارها المجلس الأعلى لأنها اكتسبت سمعة وافية بالوداعة والطاعة . ووضع المجلس الذى كان يهيمن عليه آل دولجوروكى وجولتسين «شروطا» بعثوا بها إلى آنا وهى فى كورلاند ، لابد من قبولها لتثبيتها على العرش . ف وقعت على الشروط (٢٨ يناير ١٧٣٠) . ولكن لا الجيش ولا الاكليروس أرادوا إحلال الالوجركية محل الأوتقراطية . لذلك انطلق وفد من حرس القصر للقاء آنا ، والتمس منها أن تتقلد زمام السلطة المطلقة . فاستوحت الشجاعة من أسلحتهم ، ومزقت «الشروط» على مرأى من الحاشية .

وكانت آنا عديمة الثقة بالنبلاء الروس ، فاستقدمت من كورلاند الألمان الذين كانوا يتمتعونها هناك . فأصبح إرنست فون بورن ، أو بيرون

عشيقتها السابق رئيسا للحكومة ، ورد أوسترمان لرياسة الشؤون الخارجية ، وأعاد الكونت خريستوف فون مونيش تنظيم الجيش ، وساعد لوفنفولدى وكورف ، وكيزرلنج ، على تطعيم نظام الحكم الجديد ببعض السكفاية الألمانية . فجمعت الضرائب بصرامة يقطلة ، ووسع التعليم وأدخلت عليه التحسينات ، وهيء للدولة جهازا مدربا من الموظفين المدنيين . وبمثل هذه الفاعلية سبغت الحكومة الجديدة أو نفت أو أعدمت الدولجوروكيين والجلولتسينين .

وعاشت آنا عيشة منتظمة نسييا ، بعد أن قنعت بعشيقين (برون ولوفنفولدى) . فكانت تستيقظ فى الثامنة ، وتخصص ثلاث ساعات لشئون الحكم ، وتبتسم ابتسامة الرضى . إذ ييسط رجالها الألمان سلطان روسيا . فغزا جيش يقوده مونيش بولنده ، وخلع ملكها ستانسلاس لسكزنسكى -- الخاضع لتوجيه الفرنسيين . - وأجلس على عرشه أوغسطس الثالث السكسونى ، واتخذ أول خطوة على طريق ربط بولنده بالروسيا . وردت فرنسا بأن حرصت تركيا على أن تهاجم روسيا ، ولكن السلطان تردد لانشغاله على جبهته الفارسية ، فرأت روسيا الفرصة مواتية لإعلان الحرب على تركيا ، وهكذا بدأت (١٧٣٥) ستون سنة من صراع السيادة على البحر الأسود . وشرح دبلوماسيو آنا الموقف فقالوا إن الأتراك ، أو من يلود بهم فى جنوبى روسيا ، فى يدهم مخارج الأنهار الخمسة الكبرى . دنيستر ، وبوج ، ودنيبر ، ودون ، وكوبان . - التى كانت أهم مسالك التجارة الروسية المتجهة جنوبا ، وأن القبائل الإسلامية نصف الهمجية التى سكنت الاحواض الدنيا لهذه الأنهار هى خطر دائم يهدد مسيحيى روسيا . وأن الشواطىء الشمالية للبحر الأسود جزء طبيعى وضرورى من روسيا . وأن شعبا عظيما ناميا كالشعب الروسى يجب ألا يحال بعد اليوم بينه وبين الوصول إلى البحر الأسود والبحر المتوسط دون معوق ، وقد ظلت هذه الحجج الأنشودة المتكررة التى ظلت تتغنى بها روسيا طوال ما بقى من القرن وما بعده .

أما أول الأهداف فكان القرم ، شبه الجزيرة الذى يقوم معقلا تركيا

على الجبهة الشمالية للبحر الاسود . وكان الاستيلاء على شبه الجزيرة تلك هو الغاية التي استهدفتها حملة مونيش عام ١٧٣٦ . وكان أعدى أعدائه في هذه الحملة المسافات المترامية والمرضى ... ذلك أنه كان عليه أن يعبر ٣٣٠ ميلا من القنار والبرارى التي لا تستطيع بلدة واحدة من بلادها أن تقدم الطعام أو الدواء لجيش عدته ٥٧,٠٠٠ مقاتل ، وكان لزاماً أن ترافقهم ثمانون ألف عربة في طابور طويل معرض في أى نقطة أو لحظة لهجوم قبائل التتار عليه . واستطاع مونيش بفضل قيادته الماهرة أن يستولى في تسعة وعشرين يوما على بريكوب ، وكوسلوف ، وبخشيسراى (عاصمة القرم) ، ولكن في ذلك الشهر تفشت الدوسنطاريا وغيرها من الأمراض في جيشه فأحدثت من الشقاء والتمرد بين رجاله ما أكرهه على التخلي عن فتوحه والتقهقر إلى أوكرانيا ، واستولى أثناء ذلك قائد آخر من قواد آنا على أزوف المشرفة على مصب نهر دون .

وكرر مونيش على الجنوب في أبريل ١٧٣٧ بسبعين ألف مقاتل ، واستولى على أوخاكوف ، قرب مصب نهر بوج . وفي يونيو انضمت إليه النساء في مهاجمة الترك ، ولكن حملتها باءت بفشل ذريع ألجأها إلى إبرام صلح منفرد ، أما روسيا التي تركت فجأة لتواجه الجيش التركى برمته ، والتي كانت تتوقع حربا مع السويد ، فقد وقعت (١٨ سبتمبر ١٧٣٩) صلحا رد إلى الأتراك تقريبا كل ما كسبه الروس في حملات ثلاث . واحتفلي بالمعاهدة في سانت بطرسبرج على أنها إنتصار باهر لم يكلف أكثر من مائة ألف قتيل .

وعاشت آنا سنة بعد الحرب . وقبيل موتها عينت وريثا للعرش ، إيفان السادس ، الغلام الذى لم يتجاوز عمره ثمانية أسابيع : وهو ابن بنت أختها آنا ليوبولدوفنا الألمانية المولدة وأنطون أولريش أمير برنزويك . وأوصت أن يكون بيرون وصيا على إيفان حتى يبلغ السابعة عشرة . ولكن مونيش وأوسترهان كانا الآن قد نالهما من بيرون ما يكفى . فانضما إلى أولريش وليوبولدوفنا ونفوه إلى سيبيريا (٩ نوفمبر ١٧٤٠) . وأصبحت

آنا ليوبولدوفنا وصية ، ومونيش « الوزير الأول » . وخشى السفيران الفرنسي والسويدي أن يسيطر التيوتون على روسيا سيطرة كاملة . فمولا ثورة يقوم بها الأشراف الروس . واختار الثوار سرّاً مرشحاً للعرش اليزافيتا بتروفنا ابنة بطرس الأكبر وكاترين الأولى .

وكانت اليزابث ، كما سندعوها هنا ، في الثانية والثلاثين من عمرها ، ولكنها في أوج حسناتها وشجاعتها ونشاطها ، تحب الألعاب الرياضية والتدريب العنيف ، ولكنها أيضاً ولوعة بمتع الغرام ، وقد رفعت عن سلسلة من العشاق ، ولم تظفر بقدر يذكر من التعليم ، وكانت تكتب الروسية بصعوبة وتتكلم الفرنسية بطلاقة . وبدوا أن فكرة تشريفها العرش لم تخطر لها ببال إلى أن نعتها آنا ليوبولدوفنا وأوسترمان جانبا مؤثرين عليها الأجانب . فلما أمرت الوصية فرق سانت بطرسبرج بالرحيل إلى فنلندا ، وتذمر الجند لأنهم سيواجهون حرب شقاء ، اغتنمت اليزابث الفرصة . فلبست الزي العسكري ، وقصبت ثكنات الجند في الساعة الثانية من صباح ٦ ديسمبر ١٧٤١ ، وناشدتهم أن ينصروها ، ثم ركبت مركبة الجليد إلى القصر الشتوي على رأس فوج من الجيش وأيقظت الوصية ، وزجت بها هي والقيصر الطفل في السجن . فلما استيقظت المدينة وجدت أن لها حاكماً جديداً . إمبراطورة روسية خالصة . وابنة لبطرس العظيم . واغتبطت روسيا وفرنسا بهذا الحدث .

٤ - اليزابث بتروفنا

١٧٤١ - ٦٢

من العسير فهم هذه المرأة خلال ضباب الزمن والأهواء . وحين أقيمتها كاترين الثانية في ١٧٤٤ « راعها منها جمالها وجلال ساوكها » . ومع أنها كانت بدينة جداً ، فإن بدانتها لم تنل قط من حسناتها أو تجعل حركتها ثقيلة مضطربة . . . رغم ارتدائها طوقاً هائلاً لتنويرتها حين تكتمل زينتها^(٢٦) . وكانت تبطن الشكوكية إلى شفا الإلحاد^(٢٧) ، وتظهر الغيرة

على الديانة التقليدية . وقد لاحظ مراقب فرنسي « ميالها السافر للشراب » (٢٨) ، ولكن علينا أن نتذكر أن روسيا بلداً بارداً وأن الفودكا تدفئ شاربها . وقد رفضت أن تزوج مخافة أن يبدد الزوج قوتها ويضعف من أسباب الخلاف والخصومة . ويزعم البعض أنها تزوجت سرّاً الكسيس رازموفسكى ، فإذا كان الأمر كذلك فإنه لم يكن سوى الأول بين أقران عديدين . وكان فيها غرور وخيلاء ، وولع بالحلى والملابس المبهرجة ، ولها خمسة عشر ألف ثوب ، وأكوام من الجوارب ، و ٢٥٠٠ حذاء (٢٩) ، وقد استعمات بعضها قذائف أثناء النقاش ، وكان في استطاعتها أن توبخ خدماها وحاشيتها بلغة السوق ، وقد صدقت على بعض العقوبات القاسية ، ولكنها كانت في سريرتها رحيمة الفؤاد (٣٠) . ألغت عقوبة الإعدام إلا على جريمة الخيانة (١٧٤٤) ، ولم تسمح بالتعذيب إلا في أخطر المحاكمات ، أما عقوبة الجلد فقد بقيت نافذة ، ولكن اليزابث كانت تشعر أنه لا بد من إيجاد وسيلة لتثبيط المجرمين الذين جعلوا الطرق العامة وشوارع المدن غير مأمونة في الليل ، وقد جمعت في طبعها بين القلق والكسل ، ووهبت ذكاء فطرياً حاداً ، وأعطت وطنها خير حكومة سمحت بها حالة التعليم والأخلاق والعادات والاقتصاد الروسى .

وبعد أن نفت أوسترمان ومونش إلى سيبيريا ، أعادت مجلس الشيوخ إلى سلطة القيادة الإدارية ، ووكلت الشئون الخارجية إلى ألكسى بتروفيش بستوزيف — ريومين . وقد وصفته كاترين الثانية بأنه « دساس كبير ، سيئ الظن بالناس ، حازم جرىء في مبادئه ، عدولا يعرف الصفيح ، ولكنه صديق صدوق لأصدقائه » (٣١) . وكان مشغولاً بالمال كما يشغف به عادة من يعرفون أن سمو المنصب قد يقضى إلى السقوط ، وحين حاولت إنجلترا أن ترشوه قدرت أن نراهته تكاف ١٠٠٠٠٠ كراون (٣٢) . ولا علم لنا إن كانت الصفيقة قد تمت ، ولكن بستوزيف وقف بوجه عام في صف إنجلترا ولكن هذا كان رداً طبيعياً على تأييد فرنسا للسويد وتركيا ضد روسيا . وقد عرض فردريك الأكبر هو الآخر على بستوزيف ١٠٠٠٠٠ كراون إن ألف بين روسيا وبروسيا ، ولكن العرض رفض (٣٣) . وبدلاً منه

ألف بستوزيف بين روسيا والنمسا (١٧٤٥) وانجلترا (١٧٥٥) . فلما أثبتت إنجلترا هذا بتحالف مع بروسيا (١٦ يناير ١٧٥٦) تهدم بناء الأحلاف الذي أقامه بستوزيف ، وأهملت الزايت بعدها الأخذ بنصائحه ، وربطت وزارة جديدة روسيا بحلف فرنسي - نمساوي كان «نقضا للأحلاف» السابقة : وكانت رحي حرب السنين السبع دائرة .

وقد رأينا في موضع سابق من هذا الكتاب -- وما أبعد الشقة بيننا وبينه -- كيف هزم القائد الروسي أبراكسين البروسيين في جروس بيجرز دورف (١٧٥٧) ، ثم سحب جيشه إلى بولندة . وأقنع سفيرا فرنسا والنمسا الزايت بأن بستوزيف كان قد أمر بتقهقر أبراكسين وأنه يتآمر لخلعهما . فأمرت بالقبض على المستشار والقائد جميعا (١٧٥٨) . ومات أبراكسين في السجن ، وأنكر بستوزيف التهمتين ، وقد برأت ساحته المعلومات التي أنيط عنها اللثام فيما بعد . وأراد خصومه أن يعذبوه ليعترف . ولكن الزايت كفتهم . وحل ميخائيل فورونستوف محل بستوزيف مستشارا .

وفي غمار حفلات البلاط الراقصة ، وموائد قماره ودسائسه وغيرها وأحقاده ، كانت الزايت تشجع معاونيها على دفع المدينة الروسية قدما . ففتح محسوبها الشاب ايفان شوفالوف جامعة في موسكو ، وأسس المدارس الابتدائية والثانوية ، وأوفد الطلاب في بعثات للخارج للدراسات العليا في الطب ، واستقدم المماريين والمثاليين والمصورين الفرنسيين لأكاديمية الفنون (Akademia Iskustv) التي أقامها في العاصمة (١٧٥٨) . وقد تبادل الرسائل مع فولتير ، وأغراه بتأليف « تاريخ الإمبراطورية الروسية في عهد بطرس الأكبر » (١٧٥٧) . أما أخوه بيوتر شوفالوف فقد أعان الاقتصاد بإلغاء المكوس على التجارة الداخلية . على أن الزايت سمحت أثناء ذلك للمعصب الديني بأن يزداد إرضاء لدعاة الجامعة السلافية . فأغلقت بعض المساجد في أقاليم التار ، ونفت ٣٥٠٠٠ يهوديا .

وكان أكبر مآثرها انتصار جيوشها وقوادها المرة بعد المرة على فردريك

الثانى ، ووقفهم الزحف الروسى ، وأشرفهم على سحقه لولا أن هد تدهور صحتها من قدرتها على حمل التحالف الفرنسى النمساوى الروسى على التماسك كتب السفير البريطانى فى تاريخ مبكر (١٧٥٥) يقول : « لقد ساءت صحة الإمبراطورية وأصيبت ببصق الدم والنهج ، وبالسعال المستمر ، وبالأرجل المتورمة ، وبالماء فى رثتها ، ومع ذلك فقد رقصت « منويتا معى » .^(٣٤) وراحت الآن تدفع ثمنها باهظا لإيثارها حياة الفسق على الزواج . وإذا كانت بغير خلف ، فقد طالما بحثت عن شخص من دم ملكى يستطيع التصدى لمشاكل روسيا الخارجية والداخلية ، فوقع اختيارها — وهو اختيار لا يمكن تفسيره — على كارل فريدرش أولرش ، ابن اختها آنا بتروفنا وكارل فريدرش ، دوق هولشتين — جوتورب . وكانت هذه أكبر غلطة اقترفتها فى حكمها ، ولكنها كفرت عنها باختيارها لشريكة حياتها .

٥ — بطرس وكاترين

١٧٤٣ - ٦١

ولد بيوتر فيودوروفتش ، كما أعادت الزباث تسمية وريثها ، بمدينة كيل فى ١٧٢٨ . وكان بوصفه حفيدا لبطرس الأكبر ولشارل الثانى عشر كليهما صالحا لارتقاء العرشين الروسى والسويدي . وقد ألزم البيت لضعف صحته حتى بلغ السابعة ، ثم اختير بتغيير فجائى للانضمام إلى حرس هولشتين ونشئ على حياة الجندية . وأصبح رقيبا فى التاسعة ، وكان يسير شامخ الرأس فى العروض الميدانية ، وتعلم لغة ضباط الجيش وأخلاقهم . وحين ناهز الحادية عشرة عين له مرب ألمانى نشأه على الإيمان اللوثرى بصورة لاتنسى ، وأسرف فى تأديبه إسرافا أصابه بالعصاب . ولذا أربه هذا المربي بعنفه ، فقد انطوى على الجبن والتكتم ، ولاذ بالمكر والخداع ،^(٣٥) وبات « دأثم الزرق والعناد وحب الشجار »^(٣٦) . ولعل روسى كان مستشهدا به مثلا يوضح الزعم بأن الإنسان خير بالفطرة ولكن البيئة السيئة هى التى تفسده . ذلك أن بطرس كان رقيق الفؤاد ، يتمنى أن يسلك المسلك الحق ، كما سئى من

مراسيمه الملكية ، ولكن دمره ما فرض عليه من القيام بأدوار لا تناسبه .
وحين التقت به كاترين الثانية وهو في الحادية عشرة وصفته بأنه « وسيم
الطلعة حسن السلوك مجامل » وقالت « أنها لم تشعر بأى نفور من فكرة
الزواج به » . (٣٧)

وفي ١٧٤٣ أمرت إليزابيث بأن يؤتى به إلى روسيا ، وخلعت عليه لقب
الغراندوق ، ويبدو أنها أدخلته في المذهب الأرثوذكسى ، وحاولت تدريبه
على شئون الحكم . ولكنها « وقفت مشدوهة » لفقر تعليمه واهتزاز شخصيته
وفي سانت بطرسبرج أضاف السكر عيبا إلى عيوبه الأخرى ، وراود الأمل
إليزابيث بأن هذا الفتى الغريب قد يتاح له ، إذا زوج بامرأة صحيحة البدن ذكية
الفؤاد ، أن ينجب قبل وفاة إليزابيث قيصر كفو الروسيا في مستقبل أيامه .
وبهذه الروح المحردة من التعصب العرقى ، والتي اتسمت بها الاستقراطات
الأوروبية حتى أثناء قيام الدول القومية ، اتجهت إليزابيث ببصرها خارج
روسيا ، فوقع اختيارها على أميرة مغمورة من إحدى الإمارات الألمانية
الصغرى . وكان فريدريك الثانى الماكر قد أوصى بهذا الاختيار أملا فى أن
يظفر بقيصرة ألمانية صديقة فى روسيا التى أصبحت الآن مبعث خوف لألمانيا .

وعند هذه النقطة تواجهنا مذكرات كاترين الكبرى ، وهى مذكرات
لا يتطرق الشك إلى صحة نسبتها إليها ، لم تطبع حتى عام ١٨٥٩ ، ولكن
المخطوطة الفرنسية التى كتبها كاترين بخط يدها محفوظة بدار المحفوظات القومية
فى موسكو فهل هى جديرة بالثقة ؟ إن القصة التى تروىها هذه المذكرات
تؤيدها على العموم مصادر أخرى . (٣٨) وعيها ليس الكذب بل التحيز فهى
قصة أجادت روايتها بذكاء وحيوية ، ولكنها فى بعضها دفاع عن خلعاها
زوجها ، وعن احتمالها نبأ قتله بمثل ما احتملته به من رباطة جأش .

وقد ولدت فى شتنين بيومرانيا فى ٢١ ابريل ١٧٢٩ وسميت عند تعميدها
صوفيا أوجستا فردريكا بأسماء ثلاث عمات لها . أما أمها فكانت يوهانا
إليزابيث أميرة هولشتين - جوتنورب ، ومن طريقها كانت كاترين ابنة

نخالة بطرس . أما أبوها فكان كرستيان أوجست ، أمير انهالت - تسربست في وسط ألمانيا ، واللواء في جيش فردريك . وقد خاب أمل أبوها لولادة بنت لا ولد ، وحزنت الأم كأنها أسقطت جنينا . أما كاترين فقد كفرت عن أنوثتها باتخاذها فحولة القادة العسكريين وحنكة الأباطرة الحاكمين ، بينما ظلت طوال ذلك أكثر العشيقات في أوروبا طلابا وأقربهن منالا .

كانت تشكو ألوانا من أمراض الطفولة ، ومنها مرض اشتد عليها حتى خلفها تبدو للناظرين كأنها ستظل مشوهة ما بقي لها من العمر « في عمردها الفقري تعرج » و « وكثفها اليمنى أعلى كثيرا من اليسرى » ، وأصبحت الآن « تتخذ شكل حرف Z » فحبسها جلاد المدينة السابق ، الذي تخصص في علاج انخلاع المفاصل ، في مشد (كورسيه) « لم أكن أخضعه قط نهارا ولا ليلا إلا حين أغير ملابسى الداخلية ، و وبعد ثمانية عشر شهرا بدأت أبدى علامات على استقامة عودى » . (٣٩) ولكثرة ما تردد في سمعها أنها دميعة ، صممت على أن تنمى ذكاءها بديلا عن الجمال ، فكانت مثلا آخر من أمثلة النقص الذى يشعر به صاحبة فيحفزه إلى قدرات تعويضية . واختفت دمايتها حين لف البلوغ أعضائها فاستدارت . وكانت رغم هذه الخطوب ذات « طبع رضى » وفيها من الفرح الفطرى « ما استلزم ضبطه » . (٤٠)

تلقت تعليمها على مهابين نخص منهم بالذكر قسيسا لوثرىا كان يلقي عننا من أسئلتها . مرة سألته « أليس من الظلم أن يحكم على تيطس ، وماركوس أوريليوس ، وجميع عظماء العالم القديم بالهلاك الأبدى رغم فضلهم ، لأنهم لم يعرفوا شيئا عن رؤيا يوحنا اللاهوتى ؟ » وكانت تحسن الجدل إلى حد حمل معلمها على أن يعزّم جلدها لولا تدخل إحدى المربيات . وقد أرادت بصفة خاصة أن تعرف شكل تلك الهبولى التى سبقت الخليفة كما ورد في سفر التكوين . « ولكن لإجاباته لم تبد قط مقنعة » و « فقد كلانا أعصابه » ، وزاد انزعاجه بإصرارها على أن يفسر لها « بالضبط معنى الختان » (٤١) وكان معلموها الآخرون ومربىها فرنسيين ، لذلك أتقنت

الفرنسية ، فقرأت كورني ، وراسين ، وموليير ، وكان واضحا أنها مهياة لقراءة فولتير . وهكذا أصبحت من أفضل نساء عصرها تعليما .

وانتهى نبأ هذه الأميرة الذكية إلى الإمبراطورة الزابث ، وكانت تواقا إلى فتاة قد تمنح بطرس الذكاء بالتناضح . ففي أول يناير ١٧٤٤ وصلت إلى أم صوفيا دعوة للحضور معها في زيارة للبلاط الروسي . وتردد الوالدان ، فقد بدت لهما روسيا بلداً قلقاً بدايئاً إلى حد خطر ، أما صوفيا التي حدثت أن زواجها من الفرندوق قيد البحث فقد التمت الجواب بقبول الدعوة . وعليه ففي ١٢ يناير بدأوا الرحلة الطويلة الشاقة عبر برلين وشتتن وبروسيا الشرقية وريجا وسانت بطرسبرج إلى موسكو . وفي برلين استضافهم فردريك ، وأعجبه صوفيا ، « وراح يسألني ألف سؤال ويتكلم على الأوبرا والكوميديا والشعر والرقص ، وباختصار كل شيء يمكن أن يخطر ببال إنسان يتحدث إلى فتاة في الرابعة عشرة »^(٤٢) . وفي شتن « ودعني أبي ، وكانت آخر مرة رأيته فيها ، وقد بكيت بكاء مرأ » . وبلغت الأم وابنتها موسكو في ٩ فبراير في حاشية مترفة ، بعد رحلة في مركبة جلديد امتدت اثنتين وخمسين ساعة من سانت بطرسبرج .

وفي ذات المساء التقت ببطرس ثاني مرة ، وقد وقع من نفسها هذه المرة أيضاً موقعا طيبا ، إلى أن أسر لها أنه لوثرى صميم ، وأنه يجب إحدى الوصيفات في البلاط^(٤٣) . ولاحظت أن الروس يكرهون لهجته وعاداته الألمانية ، أما هي فقد عولت على تعلم الروسية والتمكن منها ، وعلى قبول المذهب الأرثوذكسي بخذافيره وشعرت بشيء « أكثر قليلا من عدم المبالاة نحو بطرس ، ولكن » لم أكن غير مبالية بالتاج الروسي . وعينوا لها ثلاثة مدرسين - للغة ، وللدن ، وللرقصات الروسية . وقد شقت على نفسها في الدرس - فنهضت مرة في منتصف الليل للاستذكار - حتى ألزمت الفراش لإصابتها بذات الجنب ، « وظللت أذبذب بين الحياة والموت سبعة وعشرين يوماً ، فصعدت خلالها ست عشرة مرة ، أحيانا أربع مرات في اليوم »^(٤٤) . وفقدت أمها حظوتها في البلاط لأنها طلبت استدعاء قسيس

لوثرى . أما صوفيا فقد كسبت قلوباً كثيرة بطبها قسيساً يونانياً . وأخيراً ، في ٢١ أبريل ، استطاعت أن تظهر أمام الناس . « كنت هزيلة كأننى هيكل عظمى . . . في وجهى وقسمائى غضبون ، وشعرى ساقط ، ولونى غاية فى الشحوب »^(٤٥) وأرسلت لها الأمبراطورة ملء قدر من « الروح » .

وفى ٢٨ يونيو جازت صوفيا ، فى خشوع مؤثر ، مراسم دخولها فى المذهب الأرثوذكسى . وأضيف الآن إلى أسمائها إسمان هما إكاترينا ألكسيفنا ؛ ومن ثم أصبحت منذ الآن تدعى كاترين . وفى صباح الغد ، وفى الكاتدرائية الكبرى ، « أوسبنسكى سوبور » ، خطبت رسمياً للغرندوق بطرس . وابتهج كل من رآها بتواضعها اللبق ، وحتى بطرس بدأ يحبها . وبعد أربعة عشر شهراً من التدريب تزوجا فى ٢١ أغسطس ١٧٤٥ فى سانت بطرسبرج . وفى ١٠ أكتوبر رحلت أم كاترين قاصدة أرض الوطن .

وكان بطرس الآن فى السابعة عشرة ، وزوجته فى السادسة عشرة . كانت جميلة ، وكان قبيحاً لأنه أصيب بالجذرى فى سنة خطبتهما . وكانت من الناحية الفكرية شرهة يقظة ، أما هو فيقول سولوفيف إنه « بدت عليه كل أمارات التخلف العقلى ، وكان أشبه بطفل كبير »^(٤٦) . يلهو بالدمى والعرائس والعساكر اللعب ، ويولع بالكلاب حتى أنه يحتفظ بعدد منها فى شقته ، ولم تعرف كاترين أيهما شر من الآخر ، نباحها أم رائحتها الممتلئة^(٤٧) . وام يحسن الموقف بالعزف على كمانه . وازداد ميله للشراب ، « و منذ ١٧٥٣ كان يشمل بالشراب كل يوم تقريباً »^(٤٨) وكثيراً ما كانت الإمبراطورة إليزابث توبخه على نقائصه ، ولكنها لم تضيف القدوة إلى الوصية . وكان الذى يزعجها أكثر هو كرهه السافر لروسيا التى سماها « بلداً لعيناً »^(٤٩) ، واحتقاره للكنيسة الأرثوذكسية وقساوستها ، وأهم من هذا كله عبادته لفردريك الأكبر ، حتى أثناء اشتباك روسيا وبروسيا فى حرب طاحنة ، وأحاط نفسه بـ « حرس هولشتينى » من الجنود كلهم تقريباً ألمان ، وفى يلب لهو بأورانيباوم كان يلبس لإتباعه الزى الألمانى ، ويدبرهم على الطريقة البروسية . وحين هرم القائدان الروسيان فرمور وسالتيكوف

البروسيين عام ١٧٥٩ أمسكاعن متابعة إنتصاراتهما مخافة أن يغضبباطرس (٥١) الذى قد يصبح قيصرأ فى أية لحظة .

وكاد زواجهما أن يصبح صراعاً بين ثقافتين ، لأن كاترين كانت تسعى إلى المزيد من التعليم بدراسة الأدب الفرنسى . ويبدو أمراً لا يصدق أن تقرأ هذه الشابة خلال سنها التاسعة وهى غراندوقة أفلاطون وبلوتارخ وتاسيتوس وبيل وفولتير وديدرو ومونتسكيو الذى قالت عن كتابه « روح القوانين » إنه ينبغي أن يكون « كتاب صلوات يومية لكل ملك سليم الإدراك » (٥٢) ولا بد أن كتباً كهذه أتت على البقية الباقية من معتقدات كاترين الدينية — رغم أنها واصلت دون توان مراعاتها للطقوس الأرثوذكسية وأعطتها هذه الكتب ذلك المفهوم عن « الاستبداد المستنير » الذى تشربه فردريك من فولتير قبل ذلك بحيل .

وخلال ذلك (إن صدقنا روايتها المباشرة) « لم يصل زواجى بالغراندوق إلى نقطة الاكتمال » (٥٣) وفى رأى كاستيرا الذى كتب فى ١٨٠٠ سيرة لكاترين تنبىء باطلاع حسن كما تتسم بالعداء لها ، أن « بطرس كان يشكو عيباً بدا رغم سهولة إزالته أشد قسوة ، ولم يستطع عنف حبه ولا محاولاته المتكررة أن يحققا نقطة الاكتمال فى زواجه . » (٥٤) وهذه الحالة لها نظير لافت للنظر ، هى حالة لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت . وربما كان النفور الذى انتهت كاترين إلى الإحساس به نحو بطرس خلال خطبتهما الطويلة قد وضح له وأورثه العنة النفسية . وسرعان ما اتجه إلى نساء أخريات ، واتخذ الخليفة تلو الخليفة ممن راودهن الأمل فى الحلول محل الغراندوقة كاترين . وفى روايتها أن سنوات الزواج الأولى هذه كانت سنوات شقاء وتعاسة لها . وذات يوم (فيم يروى هوراس ولبول) ، حين سألتها الإمبراطورة لم يثمر زواجهما ، أجابت بأنه ينبغي ألا ينتظر أى ثمر له . وكان هذا فى الواقع لإعلاناً لعجز زوجها . وأجابت إليزابيث بأن الدولة تطالب بالخلف ، وتركت للغراندوقة مهمة الحصول على هذا الخلف

بمساعدة من تشاء . وكانت ثمرة طاعتها ولدا وبنتا . «^(٥٤)» وقد بينت مدام ماريّا تشوجلوكوفا ، التى عينتها إليزابث وصيفة لكاترين ، للغراندوق (فيما روته هذه) أن هناك استثناءات هامة لقاعدة الوفاء الزوجى ، ووعدتها بأن تكتم السر إذا اتخذت كاترين عشيقا ، «^(٥٥)» و (« لا ريب فى أن هذا الاقتراح المخجل لم يأت من الوصيقة بل من الامبراطورة ذاتها »^(٥٦) » . وعلينا أن ننظر إلى هذه الأمور فى منظور بلاط روسى طال إلفه للمكات عديدات العشاق ، وبلاط فرنسى تعود على ملوك متعددى العشيقات ، وبلاط سكسونى — بولندى ضم مائة وخمسين طفلا أنجبهم أو غسطس الثالث .

فهل اقتدت كاترين بهذه المثل إلى درجة الإفراط ؟ بعد ولايتها العرش ، نعم . أما قبلها فيبدو أنها إقتصرت فى قصيد رواق على ثلاثة عشاق — أولهم — بعد زواجها بنحو ست سنوات — سرجى سالتيكوف ، الضابط الشاب المفعم حيوية . وتشرح كاترين استجابتها لحبه فتقول :

« إن جاز لى توخى الصراحة قات لإننى كنت أجمع بين عقل الرجل ومزاجه ، وبين مفاتن المرأة الجديرة بأن تحب . وأرجو الصفح عن هذا الوصف ، الذى يبرره صدقه فلقد كنت جذابة ، ومن ثم كان نصف الطريق إلى الأغراء قد قطع فعلا ، ومن الانسانية الخالصة فى مثل هذه المواقف ألا يقف الإنسان فى منتصف الطريق فالمرء لا يستطيع أن يمسك بقلبه فى يده ، يحبسه أو يطلقه ، يشد عليه قبضته أو يرخيها كما يشاء . »^(٥٧)

وفى ١٧٥١ حمات ولكنها أسقطت حملها ، وتكررت هذه التجربة المؤلمة فى ١٧٥٣ . وفى ١٧٥٤ ولدت الطفل الذى صار فيما بعد الإمبراطور بولس الأول . واغتبطت إليزابث ، وأهدت كاترين ١٠٠٠ روبل ، وأرسلت سالتيكوف لينزوى انزواء آمونا فى استكهولم ودرسدن ، حيث كان « عابثا مستهترا مع جميع النساء اللاتى قابلهن »^(٥٨) كما تروى كاترين .

أما بطرس فازداد سكرًا ، واتخذ مزيدًا من الخليلات ، واستقر أخيرًا على اليزافينا فوروتسوفًا ، ابنة أخى المستشار الجديد . وكانت كاترين تتشاجر معه ، وتسخر منه ومن أصدقائه علانية . (٥٩) وفى ١٧٥٦ قبلت ملاطفة فتى بولندى وسيم فى الرابعة والعشرين يدعى الكونت ستانسلاس بونياتوفسكى ، قدم إلى سانت بطرسبرج ملحقًا للسفير هانبرى - ولجيز ، السفير البريطانى . وتصفها سيرة ستانسلاس الذاتية فى سنة ١٧٥٥ :

« كانت تناهز الخامسة والعشرين . . . فى تلك اللحظة بالذات التى هى أجمل اللحظات للنساء الجميلات . كان لها شعر فاحم ، وبشرة بيضاء ناصعة وأهداب سوداء طويلة ، وأنف لإغريقى ، وفم كأنه خلق للقبيلات ، ويدان وذراعان غاية فى الحسن ، وقد نحيل يغلب فيه الطول على القصر ، ومشية غاية فى النشاط ملؤها المهابة رغم هذا . وكان رنين صوتها مبهجًا ، وضحكتها مرحة كقطعها » (٦١) .

فلما حلق النظر فيها « نسى أن هناك قطرا اسمه سيبيريا . » وكان هذا الغرام أعمق ما شعرت به من غراماتها الكثيرة ، وغراماته هو ، فقد ظل قلبها مع بونياتوفسكى بعد أن اتخذت عشاقًا آخرين بزم من طويل ، أما هو فلم يفق قط تمامًا من افتنانه بها ، مهما أنزلت به سياساتها من آلام موجعة . وحين ذهبت لتقيم مع بطرس فى أورانينبوم ، خاطر ستانسلاس بحياته بزيارتها سرا هناك . وكشف أمره ، وأصدر بطرس أوامره بشنقه . غير أن كاترين تشفعت لبطرس بخيلته التى هدأت ثائرة الغرائدوق بعد أن ألانها هدية من كاترين . وأخيرًا ، وفى نوبة من الود ، لم يكتف بطرس بالصفح عن بونياتوفسكى ، بل دعا كاترين للانضمام إلى عشيقها ، ودخل معها ومع اليزافينا فوروتسوفًا فى « معيشة رباعية » لطيفة تخللتها عشاءات مرحة اشتركوا فيها جميعًا (٦١) .

وفى ٩ ديسمبر ١٧٥٨ ولدت كاترين بنتًا . واعتقد أفراد الحاشية عموماً أن أباه هو بونياتوفسكى (٦٢) ولكن بطرس نسب الفضل لنفسه ،

ونقبل التّاهى ، ونظم المهرجانات احتفالا بهذا الانجاز (٦٣) ، ولكن الطفلة ماتت بعد أربعة أشهر. واستدعى بونيا توفسكى إلى بولندة بأمر الامبراطورة ، وحرمت كاترين العشق هنية ، ولكنها افتتنت بمغامرات الحب والحرب التى خاضها جريجورى جريجوريفتش أورلوف ، ياور بيوتر شوفالوف . وكان أورلوف قد كسب لنفسه حسن السمعة بثباته فى موقعه فى معركة زورندورف رغم جروحه الثلاثة . وكان له بنية الزجل الرياضى و « وجه ملاك » (٦٤) ، ولكنه لم يعرف من المناقب إلا الظفر بالسلطة والنساء بأى وسيلة متاحة . وكان لشوفالوف خلية هى الأميرة إلينا كوراكين ، وكانت من أجمل حسان القصر وأكثرهن تمحلا ، فاجتذبتها أورلوف وظفر بها من رئيسه ، وأقسم شوفالوف أنه قاتله ، ولكنه مات قبل أن ينفذ فيه وعيده . وأعجبت كاترين بشجاعة أورلوف ، ولاحظت أن له أربعة أخوة فى الحرس كلهم قوى فارع الطول ، وقالت فى نفسها إن هؤلاء الخمسة سيفيدون إذا طرأ طارئ . وعليه رتبت لقاء مع جريجورى ، ثم ثانيا ، فثالثا ، وسرعان ما أزاحت كوراكين واحتلت مكانها . ولم يحل يوليو ١٧٦١ حتى كانت حاملا ، وفى أبريل ١٧٦٢ ولدت ابنا لأورلوف ، وأحيط الحدث بما أمكن من تكتم ، وربى الغلام باسم الكسيس بوبرينسكى .

وفى ديسمبر ١٧٦١ وضح أن الامبراطورة بادئة مرضها الأخير ، وبذلت محاولات لإشراك كاترين فى مؤامرة تستهدف منع بطرس من ارتقاء العرش ، وقد أُنذرت بأن بطرس إن أصبح قيصر سينعجها جانبا ويجعل اليزافيتا فورونتسوف زوجته ومليكتة ، ولكن كاترين رفضت الاشتراك فى المؤامرة . وفى ٥ يناير ١٧٦٢ (حسب التقويم الجديد) ماتت الامبراطورة اليزابث ، وارتقى العرش بطرس دون معارضة سافرة .

٦ - بطرس الثالث

١٧٦٢

وقد أدهش الجميع بسماحة قراراته ، فالود الفطرى الذى حجب به ضباب العادات الفظة الغيبة تكشف الآن فى نوبة من العرفان لتقلده السلطة بسلام ،

فصفح عن أعدائه ، واستبقى معظم وزراء اليزابث ، وحاول أن يتلطف مع كاترين . فخصص لها في القصر جناحا مريحا في طرف منه ، وسكن هو جناحا في الطرف الآخر . وخصص لخليته الغرف الوسطى ، وكان هذا بالطبع إهانة بالغة ، ولكن كاترين أبتهجت في دخيلة نفسها بسكناها على مبعدة منه . وزودها بمخصصات سخية ، ودفع ديونها الباهظة دون تحقيق في أصلها . (٦٥) وفي الحفلات الرسمية كان يسوى بينها وبينه في المكان وأحيانا يقدمها على نفسه . (٦٦)

ثم أعاد من المنفى الرجال والنساء الذين نفاهم الحكام السابقون إلى سيبيريا فعاد الآن مونيش وقد بلغ الثانية والثمانين ليرحب به اثنان وثلاثون حفيدا ، ورده بطرس إلى رتبة المشير ، وأقسم مونيش ليعلمه إلى النهاية ، وقد بر بقسمه . وأحل الإمبراطور السعيد النبلاء من الالتزام الذي فرضه عليهم بطرس الأكبر ، وهو أن يعطوا الدولة سنين كثيرة من حياتهم ، فاقترحوا أن يصنعوا له تمثالا من الذهب ، ولكنه أمرهم أن يستعملوا هذا الذهب استعمالا أرشد . (٦٧) وألغى مرسوم أصدره بطرس في ٢١ فبراير بالشرطة السرية التي أبغضها الناس جميعا ، وحرّم الاعتقال لاتهم السياسية حتى يراجعها مجلس الشيوخ ويقرها . وفي ٢٥ يونيو أصدر بطرس مرسوما بأن يعفى مقترف الزنا من التعنيف الرسمي منذ الآن ، «فمحقى المسيح لم يذن (الزانية) في ذلك الأمر» . (٦٨) وابتهجت الحاشية ، وسر التجار لتخفيض رسوم التصدير ، وخفض ثمن الملح ، وأبطل شراء الأتقان لتشغيلهم في المصانع أما « قدامى المؤمنين » الذين هربوا من روسيا اتقاء اضطهادهم في عهد اليزابث فقد دعوا للعودة والتمتع بالحرية الدينية . ولكن رجال الدين أثارت سخطهم الشديد مراسيم ١٦ فبراير و ٢١ مارس التي أتمت جميع أراضي الكنيسة وجعلت جميع القساوسة الأرثوذكس موظفين حكوميين ذوى رواتب . وحرر الأتقان العاملون على ضياع النبلاء أن يحرروا هم أيضا سريعا . ووسط هذه الإصلاحات كلها — التي أشار بها عليه مختلف الوزراء — راح بطرس يشرب حتى يشمل .

أما أغرب قراراته الذى أسعده أيمًا سعادة ، فهو إنهاؤه الحرب مع بروسيا . وكان حتى قبل ولايته العرش قد فعل الكثير ليساعد فردريك ، فأوصل سرا الخطط الحربية التى وضعها مجلس اليزابث ، وراح الآن يفاخر بعمله هذا ^(٦٩) وفى ٥ مايو ربط روسيا بروسيا فى تحالف دفاعى هجومى . وأصدر تعليماته إلى قائد القوات الروسية المحاربة مع الجيش النمساوى أن يضعها فى خدمة « سيدى الملك » ^(٧٠) ثم ارتدى بزة عسكرية بروسية ، وأمر الجنود المحليين بأن يحدوا حذوه ، ثم أدخل الضبط والربط البروسيين فى الجيش ، ونظم التدريبات العسكرية كل يوم لحاشيته ، وأجبر كل ذكر فى الحاشية على المشاركة فيها دون مراعاة للسن أو القرس ^(٧١) . وقدم « حرس هولشتين » الخاص به على أفواج العاصمة المعتدة بمكانتها .

ولم يكن الجيش الروسى كارها للسلم ، رلسكن أذهله هجر روسيا لحلفائها الفرنسيين والنمساويين فى عجلة ، وتخليها عن جميع الأقاليم التى ظفرت بها من بروسيا خلال الحرب . وأفزعه أن يذيع بطرس عزمه على تجريد جيش روسى على الدنمرك لاسترداد دوقية شلنبرج التى أخذتها الدنمرك من أدواق هولشتين ، ومنهم أبو بطرس . وأبان الجنود فى غير لبس لأنهم سيرفضون خوض حرب كهذه ، فلما طلب بطرس إلى كيريل رازوموفسكى أن يزحف بجيش على الدنمرك أجابه القائد « يا صاحب الجلالة يجب أولاً أن تعطينى جيشاً آخر يكره جيشى على الزحف . » ^(٧٢)

وفجأة وجد بطرس نفسه مكروها رغم إصلاحاته الجريئة الممتازة ، كرهه الجيش خائناً لوطنه ، وكرهه الإكليروس لوثرى أو شرامن اللوثرى ، وطالب الأقنان الذين لم يعتقوا بالحرية فى تدمير وصعخب ، وسخر منه البلاط ووصفه رجلاً أحقق مأفونا . وفوق هذا كله حامت حوله شبهة عامة فى أنه ينوى تطليق كاترين والزواج من خليلته . ^(٧٣) « أن هذه الشابة » (كما يروى كاستيرا) « العاقل من أى موهبة خطاب أو كلام ، المتغطرة فى غباوة .. استطاعت بدهائها أن تحصل من القيصر — تارة بتملقه ، وتارة يتأنيبه ، وتارة حتى بضربه — على تجديد للعهد الذى قطعه لها ... وهو

أن يتزوجها ويبوئها عرش روسيا بدلا من كاترين (٧٤) ولما لعبت برأسه السلطة والخمر عنف في معاملة كاترين ، حتى لقد رماها علانية بالحلقة (٧٥) كتب البارون دبروترى إلى شوازيل يقول : «إن الإمبراطورة (كاترين) في وضع شديد القسوة ، وهى تعامل بمنتهى الاحتقار . . . ولن يدهشنى أنا العليم بشجاعتها وعنفيها إن دفعها هذا إلى نوع من الشطط . . . ولا يألو بعض أصدقائها جهداً في تهديتها ، ولكنهم لا يترددون في المخاطرة بكل شيء في سبيلها أن اقتضى الأمر » (٧٦) .

وكانت سانت بطرسبرج وأرباضها حافلة بأنصار كاترين . أحبا الجيش والحاشية وجماهير الشعب . وكان أخلص أصدقائها في هذه الأيام العvisية ، بعد وصيفاتها وجريجورى أورلوف ، أميرة داشكوف « ليكاترينا رومانوفنا » . ولم تكن هذه السيدة الجريئة المغامرة تتجاوز التاسعة عشرة ، ولكنها كانت ذات مكانة مرموقة في القصر لأنها ابنة أخى المستشار فورونتسوف وأخت خلية بطرس . وكان بطرس في سذاجته أو بين كؤوس الخمر قد كشف لها عن نيته في خلع كاترين وإحلال اليزافيتا فورونتسوف محلها على العرش . (٧٧) ونقلت داشكوف النبأ إلى كاترين ، - ورجتها أن تشارك في مؤامرة لتنحية بطرس . ولكن كاترين كانت قد دبرت فعلا مؤامرة مع نيكيتا بانين ، مربى ولدها بولس ، وكيريل رازوموفسكى ، هتمان (زعيم) أوكرانيا ، ونيقولا كورف رئيس الشرطة ، والأخوين أورلوف ، و ب . ب باسيك ، وهو ضابط في فوج محلى .

وفى ١٤ يونيو أصدر بطرس أمره بالقبض على كاترين ، ثم ألغى الأمر ، ولكنه أمرها بالاعتكاف في بيترهوف ، على اثنى عشر ميلا غرب العاصمة . أما بطرس نفسه فخلا بعشيقتة في أورانيباوم . وترك تعليمات بأن يعد الجيش نفسه للإبحار إلى الدنمرك ، ووعد بأن يلحق به فى يوليو . وفى ٢٧ يونيو قبض على الملازم باسيك لالقاءه خطباً تحط من قدر الإمبراطور . ونحشى جريجورى وألكسى أورلوف أن يكره بالتعذيب على الاعتراف بالمؤامرة ، فقرر التصرف فوراً . وعليه ففى الثامن والعشرين ركب ألكسى

في عجلة قاصداً بيترهوف ، وأيقظ كاترين ، وأقنعها بأن تعود معه راكبة إلى سانت بطرسبرج . وفي طريقهما توقفا عند ثكنات فوج اسماعيلوفسكى ، واستدعى الجند على قرع الطبول ، وناشدتهم كاترين أن ينقذوها من تهديدات الأباطور ، فأقسموا على حمايتها ، « واندفعوا ليقبلوا يدي وقدمي ، وهذب ثوبي ، وهم يدعوني مخلصتهم » (في رواية كاترين ليونيا فوفسكى^(٧٨)) — لأنهم علموا أنها لن ترسلهم إلى الدنمرك . ومضت إلى كندرائية كازن في حراسة فوجين والأخوين أورلوف ، وهناك نودى بها حاكماً مطلقاً لروسيا . ولحقت بها فرقة بريويرازنسكى هناك ، وتوسل رجالها إليها « أن — تغفر لنا أننا آخر من جاء »^(٧٩) ثم انضم إلى صفوفهم حرس الخيالة ، وصحبها أربعة عشر ألف جندي إلى القصر الشتوي ؛ وهناك أعلن مجمع الكنيسة ، ومجلس الشيوخ رسمياً خلع بطرس وتولية كاترين . واحتج بعض ذوى المقامات الرفيعة ، ولكن الجيش أربهم ، فأقسموا عين الولاء للإمبراطورة .

وارتدت زى نقيب في حرس الخيالة ، وركبت على رأس جندها إلى بيترهوف . وكان بطرس قد ذهب إلى هناك صبيحة ذلك اليوم ليراها ، فلما علم بالثورة فر إلى كرونستات . وعرض عليه مونيش أن يصحبه إلى بومرانيا ويجند جيشاً ليرده إلى العرش ، ولكن بطرس عاد إلى أورانييناوم وهو عاجز عن اتخاذ القرار . فلما اقتربت قوات كاترين أنفق يوماً في التماس حل وسط ، ثم وقع على اعتزاله العرش في ٢٩ يونيو (حسب التقويم القديم) ؛ قال فردريك : « لقد سمح بأن يطاح به كما يسمح طفل بأن يرسل إلى فراشه »^(٨٠) . وسجن في روبشا ، على خمسة عشر ميلاً من سانت بطرسبرج . والتمس من كاترين أن تسمح له بالاحتفاظ بخادمه الزنجي ، وكتبه الصغير ، وكانه ، وخليفته . فأجبت طلباته كلها إلا آخرها . ونفيت الزافيتا فورونتسوا إلى موسكو : ثم اختفت من صحائف التاريخ إلى الأبد .

الفصل الثامن عشر

كاترين الكبرى

١٧٦٢ - ١٧٩٦

١ - الحاکمة المطلقة

انتصرت كاترين ، ولكنها كانت عرضة لكل المخاطر التي ينطوي عليها التغيير الفوضوي . فلكن تكافؤ الجنود الذين حرسوها في سعيها الى السلطة أمرت حانات العاصمة بأن تقدم لهم الجعة والفودكا مجاناً ، وكانت النتيجة السكر انتشار بينهم انتشاراً كاد يقوض الأساس الحربي لقوتها . ففي منتصف ليلة ٢٩ - ٣٠ يونيو ، بينما كانت كاترين مستغرقة في أول نوم لها خلال ثمان وأربعين ساعة ، أيقظها ضابط وقال لها ، « إن رجالنا مخمورون جداً . وقد صرح فيهم فارس من الموصار » إلى السلاح ! أن ثلاثين ألف بروسى قادمون لاختطاف أمنا (كاترين) ! فتقلدوا سلاحهم وهم قادمون ليطمئنوا عليك » . وارتدت كاترين ثيابها ، وخرجت ، ونفت إشاعة قدوم البروسيين ، وأقنعت محاربيها بالمضى إلى فراشهم ^(١) .

ثم عرضها ابنها بولس للخطر . وقد بلغ السنة الثامنة من عمره وذلك أن بنين ، وشرافا كثيرين ، ومعظم الاكليروس ، أحسوا أن الشرعية تقتضى تتويج بولس إمبراطورا وتعيين كاترين وصية عليه ، ولكنها خشيت أن إجراء كهذا يلقي بالحكم في أيدي أوجركيه ارسقراطية ستسعى إلى خلعها أو التسلط عليها . وأعلنت رسميا أن بولس وارث للعرش ، ولكن مؤيديه واصلوا إثارة المشاعر ، وشب الابن على كراهية أمه لأنها سلبته حقه في التاج .

وحين ذاع نبأ الانقلاب في أرجاء روسيا تبين أن الرأي العام خارج العاصمة مناوئاً لكاترين . ذلك أن العاصمة عرفت عيوب بطرس مباشرة ، وأجمعت عموماً على عدم أهليته للحكم ، أما الشعب الروسي خارج سانت بطرسبرج فقد عرفه من التدابير السمحة التي أضفت على حكومته شيئاً من السمو . فجماهير موسكو ، البعيدة بعداً لا يسمح لها بالإحساس بفتنة كاترين ، ظلت معارضة في عناد اتولياها العرش . وحين أصطحبت كاترين بولس إلى موسكو (معقل التقاليد السنية) صفق له أهلها بحرارة ، أما كاترين فكان لقاءهم لها فاتراً ، وندد كثير من أفواج الجيش في الأقاليم بجنود بطرسبرج غاصبين للسلطة القومية .

ولا علم لنا إن كان العطف الواسع على بطرس هو أحد العوامل في موته . ذاك أن القيصر المخلوع الذي تحطمت روحه راح يرسل الإلتماسات الدليلة لزوجته ويقول لها « ارحميني وأعطيني سلوى الوحيدة » - يعنى خليلته - ويرجوها أن تسمح له بالعودة إلى أقاربه في هولشتين . ولكنه بدلامن أن يتلقى هذا العزاء حبس في حجرة واحدة وفرضت عليه رقابة دائمة . وكان الكسبي أورلوف ، رئيس حراسة ، يلعب الورق معه ويقرضه النقود . (٢) وفي ٦ يوليو ١٩٦٢ (حسب التقويم الجديد) ، ركب الكسبي في عجلة إلى سانت بطرسبرج وأنبأ كاترين بأن بطرس تشاجر معه ومع غيره من الأتباع ومات في العراق الذي أفضت إليه المشاجرة . أما عن كيفية موته ، فالتاريخ لا يعرف غير الشائعات التي لم تثبت صحة واحدة منها : قيل إنه سُمم أو خنق (٣) ، وإنه ضرب حتى مات (٤) ، وإنه مات إثر « إلتهاب الأمعاء والسكتة الدماغية » (٥) وينتهي آخر من أرخ لهذه الحقبة إلى أن « تفاصيل القتل لم يعط عنها قط اللثام تماماً ، والدور الذي لعبته فيه كاترين يظل غير مؤكد . » (٦) ومن غير المحتمل أن تكون كاترين قد أمرت بهذه الفعل (٧) ، ولكنها لم تعاقب أحداً على ارتكابها ، وأخفتها عن الجماهير يوماً ، وقضت يومين في بكاء ظاهر ، ثم سلمت بالأمر الواقع . وقد أذانتها أوربا كلها تقريباً بالقتل ، أما فردريك الأكبر الذي خسر الكثير بخلع بطرس فقد برأ ساحتها ، « كانت الإمبراطورة جاهلة تماماً بهذه الجريمة ، وقد سمعت بها في يأس »

لم تصطنعه ، لأنها توقعت بحق ذلك الحكم الذى يصدره عليها اليوم كل إنسان . » ^(٨) ووافق فولتير فردريك . أما بولس ابن كاترين ، فبعد أن قرأ الأوراق الخاصة التى خلفتها أمه عند ذاتها ، خلص إلى أن ألكسى قتل بطرس دون أى أمر أو طلب من كاترين . ^(٩)

وخلقت الحادثة مشاكل لكاترين كما حلت مشاكل أخرى : فقد أوجت بسلسلة متعاقبة من المؤامرات لخلعها ، وتركها فى انزعاج متصل وخطر داهم وسط فرضى الحكم التى اكتنفها . كتبت عن هذه الحقبة فيما بعد فقالت : « ظل مجلس الشيوخ متبلدا يصم أذنيه عن شئون الدولة . وبلغت كراسى التشريع درجة من الفساد والتفسيخ كادت تطمس معالمها . » ^(١٠) وكانت روسيا قد خرجت لتوها من حرب انتصرت فيها ولكنها كلفتها ثمنا فادحا ، فكانت الخزانة مدينة بثلاثة عشر مليون روبل ، وتشكو عجزا بلغ سبعة ملايين روبل فى العام ، وأفتضح حال المالية من رفض كبار المصرفيين الهولنديين إقراض المال لروسيا . وتأخرت رواتب الجند شهورا كثيرة . وبلغ من سوء نظام الجيش أن كاترين خشيت أن يغزو تتر جنوبي روسيا إقليم أوكرانيا فى أية لحظة . أما البلاط فقد اضطرب بالمؤامرات وأضدادها ، وبالحوف من فقدان مناصب الكسب أو السلطة ، أو الأمل فى الظفر بها . وبعد سقوط بطرس بقليل ذهب السفير الروسى إلى أنه « من المؤكد أن حكم الإمبراطورة كاترين لن يكون أكثر من فاصل قصير فى تاريخ العالم » ^(١١) . وكان هذا من قبيل التمنى ، لأن فردريك حزن على موت حليفه العابد لشخصه . وأخذت كاترين تلغى الأوامر التى أصدرها بطرس لمساعدة فردريك .

وحاولت الإمبراطورة أن تهدى معارضة رجال الدين بتأجيل تنفيذ المرسوم الذى أصدره بطرس بتأميم أراضى الكنيسة ، ثم ادفأت صدور أنصارها بما خلعتهم عليهم من مكافآت سخية : فنفتحت جريجورى أورلوف بخمسين ألف روبل ، وفتح الطريق أمامه إلى الفراش الملكى . وأعيد بستوزيف من منفاه ، ورد إلى حياة مريحة ولكن دون أن يرد إلى منصبه .

ثم ترفقت بمن عارضوها من قبل . وقدم مونيش فروض الطاعة والولاء فصفحت عنه فوراً وعينته حاكماً على استونيا ولفونيا ، وربما أعانتها هذه التدابير على الثبات فوق عرشها المهترئ ، ولكن أهم العوامل التي كانت عوناً لها هي شجاعتها وذكائها . ذلك أن سبعة عشر عاماً قضتها زوجة مهملة لوريث العرش علمتها رغم حيويتها الشابة قدراً من الصبر والحكمة وضبط النفس وخداع الحكم . وقررت الآن ، في تحد لنصيحة بانين ، وارتياح في ولاء مجلس الشيوخ ونزاهته وكفايته ، أن تركز الحكم كله في شخصها ، وأن تواجه ملوك أوربا المستبدين — باستبدادية تنافس جمع فردريك بين العسكرية والفلسفة . ولم تتخذ لها زوجاً . وإذا كان النبلاء يسيطرون على مجلس الشيوخ ، فقد كان الخيار بين أوتقراطية الملكة والاستبدادية المخزأة للسادة الاقطاعيين ، وهو بالضبط الخيار الذي واجهه ريشليو في فرنسا القرن السابع عشر .

وأحاطت كاترين نفسها بالكفاءة من الرجال ، واكتسبت ولاءهم ، بل حبهم في كثير من الحالات ، ألزمتهم للعمل الشاق ، ولكنها أجزلت لهم العطاء ، ولعلها غالت في مكافآتهم ، فقد أصبح بهاء بلاطها وبذخه عبثاً كبيراً على مواردها . وكان بلاطاً غير متجانس ، مؤصلاً في البربرية ومصقولاً بالثقافة الفرنسية ، ومحكوماً بامرأة ألمانية تفوق مساعدتها تعليمياً وذكاءً . وقد أثمرت مكافآتها السخية للخدمات الاستثنائية المنافسة دون أن تكبح جماح الفساد . فكان الكثيرون من بطانيتها يأخذون الرشا من الحكومات الأجنبية ، واتخذ بعضهم موقف الحياد بقبول الرشا من طرفين متعارضين . وفي ١٧٦٢ أذاعت كاترين على الأمة إقراراً غير عادي ، فقالت :

« أننا نعدده واجباً أساسياً وضرورياً أن نعلن للشعب ، بحسرة صادقة ، أننا سمعنا منذ زمن مديد ، أننا الآن نرى في أفعال ظاهرة للعيان ، إلى أى درجة استشرى الفساد في إمبراطوريتنا ، بحيث لا يكاد يوجد منصب في الحكومة . . . لا تعدو فيه على العدالة عدوى هذا الوباء . فإذا طلب

إنسان وظيفه كان عليه أن يدفع ثمنها ، وإذا شاء إنسان أن يدفع عن نفسه شرا لا فتراء ، فبالمال ، وإذا أراد أن يتهم جاره زورا وبهتاناً في استطاعته بالهدايا أن يضمن نجاح خططه الشريرة » (١٢) .

وكان بعض المؤامرات التي تكاثرت من حولها يستهدف لإحلال إيفان السادس محلها . وكان قد قضى الآن رهين السجن إحدى وعشرين سنة بعد أن خلعه انقلاب ديسمبر ١٧٤١ . ففي سبتمبر ١٧٦٢ أفصح فولتير عن خوفاً من أن « إيفان قد يطيح بمن أحسنت إلينا » (١٣) ، وكتب يقول : « أخشى أن تقتل إمبراطورتنا العزيزة . » (١٤) فزارت كاترين إيفان ، ووجدته « إنساناً مهملًا مهجوراً تردى في العتمة نتيجة السجن سنين طويلة » (١٥) ثم تركت لحراسه أوامراً بأنه لو بذلت أية محاولة لم تصرح بها هي نفسها للأفراج عنه ، فعليهم أن يقتلوا إيفان خيراً من أن يسلموه . وفي منتصف ليلة ٥-٦ يوليو ١٧٦٤ ظهر ضابط في الجيش يدعى فاسيلي ميروفتش على باب السجن يحمل ورقة فحواها أنها أمر من مجلس الشيوخ بتسليم إيفان له . ثم مضى يعينه بعض من الجنود وطرق باب الزنازة التي كان حارسان ينامان فيها مع إيفان ، وطالب بالدخول . فلما رفض طلبه أمر بإحضار مدفع لتعطيم الباب . فلما سمع الحارسان الأمر قتلوا إيفان . وقبض على ميروفتش وأعلنت وثيقة عشر عليها في جيبه أن كاترين خلعت ، وإن إيفان السادس أصبح منذ الآن قيصر روسيا . ورفض عند محاكمته أن يفضى بأسماء شركائه . وكان جزاؤه الإعدام . واتهم الرأي العام عموماً كاترين بقتل إيفان . (١٦)

واتصلت المؤامرات . ففي ١٧٦٨ أكد ضابط يدعى تشوجلوكوف أنه موكل من الله بالانتقام لمقتل بطرس الثالث ، فتسلح بمخنجر طويل ، ووجد طريقه إلى القصر الملكي ، واختبأ عند منعطف دهليز ألفت كاترين أن تمر فيه . وسمع جريجوري أورلوف بخبر المؤامرة ، فقبض على تشوجلوكوف ، الذي اعترف مفاخراً بأنه ينوي قتل الإمبراطورة ، وكان جزاؤه ، النفي إلى سيبيريا .

٢ - العاشقة

أحاط بكاترين نبلاء لا تستطيع أن تثق بهم ، ولاحقها الدسائس التي أحدثت الاضطراب في الادارة ، لذلك اخترعت ضرباً جديداً من الحكم جعلت فيه عشاقها المتعاقبين كبار إدارى الحكومة . فكان كل عشيق خلال صعود نجمه كبير وزرائها ، وأضيفت شخصها إلى مكافأة المنصب ، ولكنها اقتضت كفاءة الخدمة نظير ذلك . كتب ماسون (وهو واحد من أعداء كاترين الفرنسيين الكثيرين) يقول « لم تكن وظيفة واحدة من وظائف الحكومة كلها لا تؤدي فيها الواجبات بمنتهى التدقيق . . وربما لم يكن هناك أى منصب لم تبد فيه الامبراطورة اختياراً وتمييزاً أكثر من غيره . وفي اعتقادي أنه لم تقع حالة تبين فيها أن المنصب شغله شخص غير كفء له . » (١٧) ومن الخطأ أن نكون فكرتنا عن كاترين أنها امرأة فاجرة منغمسة في اللذات ، فقد راعت جميع مظاهر اللياقة ، ولم تسمح لنفسها قط بالدخول في أحاديث نابية ، ولا سمحت بها في حضرتها . (١٨) وقد بذلت لمعظم عشاقها الود الودى - ولبعضهم الود الرقيق ، ورسائلها إلى بومكين تم على إخلاص يكاد يكون صبيانياً ، وقد أصابها موت لانسكوى بحزن مدمر .

وكانت تستعين بالفن والعلم معاً في مهمة اختيار صاحب الخطوة الجديد . فهي تنشئ رجالاً يجمعون بين القدرة السياسية والجسدية ، كانت تدعو المرشح لتناول العشاء ، وتختبر عاداته وعقله ، فإذا جاز هذا الإمتحان الدقيق فحضره بأمرها طبيب القصر ، فإذا خرج من هذا الاختبار سليماً عينته ياورا لها ، وأعطته راتباً مغرياً ، وسمحت له بمعاشرتها . وإذا كانت مجردة تماماً من الإيمان الدينى ، فإنها لم تسمح لأى من الأخلاقيات المسيحية بأن تتدخل في طريقها الفذة في اختيار الوزراء . وقد وضعت الأمر لنقولا سالتيكوف فقالت : « إننى أخدم الامبراطورة بتربيتى الشبان الأكفاء » (١٩) وكانت الخزانة تتكلف غالباً في مكافأة هؤلاء المحظوظين - وإن كانت التكلفة على الأرجح أقل كثيراً مما كانت تنفقه فرنسا على خليلات لويس

الخامس عشر ومحظياته . وفي تقدير كاستيرا أن الاخوة الخمسة أورلوف تسلموا سبعة عشر مليون روبل ، وبوتمكين خمسين مليوناً ، ولانسكوى ١٠٠٠ ٢٦٠ ٧ . وقد ارتدت بعض هذه النفقة إلى روسيا في صورة الخدمة الفعلية . فقد أضاف بوتمكين مثلاً ، وهو أكثر عشاقها حظوة وتديلاً ، أقاليم درت على الامبراطورية الربح الوفير .

ولكن لم كانت تغير وتبدل في عشاقها بهذه الكثرة ، حتى انها اخذت منهم واحداً وعشرين في أربعين سنة ؛ لأن بعضهم أخفق في واجب أو أكثر من واجباتهم المزدوجة ، وبعضهم تبين عدم وفائه ؛ وبعضهم مست الحاجة إليه في مواقع بعيدة . من ذلك أن أحدهم ، ويدعى ريمسكى كورساكوف ، فاجأته في مسكنها بين ذراعى وصيفة شرفها ، فاكتفت كاترين بقرده ، وتركها آخر يدعى مامونوف لأنه أثر عليها رفيقة أكثر شباباً . وأقالت الامبراطورة دون أن تنتقم منه .^(٢١) يقول ماسون ، ومن الخصائص الشديدة الغرابة في خلق كاترين أن أحداً من المقربين إليها لم يجلب على رأسه كرهها أو انتقامها . وإن أساء إليها العديلون منهم ، ولم يحد تركهم مناصبهم بسببها . ولم ير الناس قط أحدهم ينزل به العقاب . . . وفي هذا تبدو كاترين أسمى من جميع النساء .^(٢٢)

بعد تولى كاترين العرش احتفظ جرينجورى أوزلوفت بمكانته المرموقة عشر سنوات ، وقد أطرته كاترين في حب فقالت :

و إن للكورت جرينجورى عقل النسر ، فانا لم ألق في حياتي رجلاً أوثق فهماً أدق والطف لأى أمر يقضه طلع به أو حتى يقترح عليه . . . ونزاهته تعصمه من أى تهجم عليه . . . ومن أسف أن التعليم لم يتح له أى فرصة لصقل سجاياه ومواهبه ، وهى فى الحق فائقة ، ولكن حياته العشوائية تركتها كالأرض المراحة .^(٢٣)

ثم كتبت في موضع آخر ، أن هذا الرجل كان خليقاً بأن يظل (عشيقها وأثرها) إلى النهاية لولا أنه كان أول من مل صاحبه .^(٢٤)

وقد جاهد جريجورى لتحرير الأتقان ، واقترح تحرير المسيحيين من ربة العثمانيين ، وأحسن البلاء فى الحروب ، وأغضب الحاشية بكبريائه وخطره وراغ من ذراعى كاترين . وقد أقصى فى ١٧٧٢ إلى حيث الثراء والدعة فى ضياعه . أما أخوه الكسى فقد أصبح أمير البحر الأول ، وقاد الأسطول الروسى إلى النصر على الأتراك ، وظل محتفظاً بالحظوة طوال العهد ، وعمر حتى قاد أفواجه ضد نابليون .

وحل محل جريجورى فى حظوته فتي فائق الحسن مغمور يدعى الكسيس فاسيلتشيك ، دسه حزب من أحزاب البلاط على كاترين ليصرف فكرها عن أورلوف المنفى ، ولكنها وجدته غير كفء لافى السياسة ولا فى غير السياسة ، فأحلت مكانه (١٧٧٤) جريجورى ألكسندروفتش بوتمكين ، وكان ضابطاً فى حرس الخيالة ، الذين ارتدت زيم (١٧٦٢) لنقودهم ضد بطرس ، فلما لاحظ بوتمكين أن سيفها تنقصه الشراية التى يعز بلبسها الحرس ، انزع شرايته من مقبض سيفه وركب فى جرة خارج صفوف الجيش ، وقدم لها هذا الوسام ، فقبلته ، وأغفرت له جرأته ، وأعجبت بوجهه الوسيم وجسمه المقتول . وكان أبوه - وهو كولونيل متقاعد من صغار النبلاء - قد قرر أن يكون ابنه قسيساً ، وتلقى بوتمكين قدراً لا يستهان به من التعلم فى التاريخ والدراسات الكلاسيكية واللاهوت ، وأثبت تفوقه فى جامعة موسكو . ولكنه وجد حياة الجيش أنسب لمزاجه الجموح الخصب الخيال من المدرسة اللاهوتية . وقد سحره بالطبع ما اجتماع لكاترين من جبال وسلطان ، فقال عنها إنها إذا دخلت حجرة مظلمة أنارتها^(٢٤) .

وفى حرب ١٧٦٨ قاد فوج خيالاته ببسالة مستهترة حملت كاترين على أن تبعث إليه بإطراء شخصى . فلما عاد إلى سانت بطرسبرج أكلته الغيرة من الإخوة أورلوف وفاسيلتشيك . وتشاجر مع الأخوة أورلوف ، وفى معركة معهم فقد إحدى عينيه^(٢٥) . ولكى يخرج الأمباطورة من عقاه - أو يدخل نفسه فى عقائها - ترك البلاط ، واعتزل فى ضاحية ، ودرس اللاهوت ، وأطلق شعره ولحيته ، وأعلن أنه سيترهب ، فرق له قلب كاترين ، وبعثت إليه تقول أنها تقدره تقديراً

تقديرًا كبيراً ، ودعته ليعود . فخلق لحيته ، وهذب شعره ، وارتدى بزته العسكرية ، وظهر في البلاط ، واهتز طرباً لبسمات الأمباطورة . وحين افتقدت كاترين الكفاية في فاسيلتشيك فتحت ذراعيها لبوتمكين ، وكان يومها في الرابعة والعشرين ، في أوج عنفوانه وفتنته . وسرعان ما هامت به هيامه بها ، وراحت تحبوه بوصلها ، وتغدق عليه الروبلات ، والأراضي ، والأقنان ، وحين كان يغيب كانت ترسل إليه رسائل غرامية بريئة من مظهر الجلالة .

« ما أعجب حالى ! كل شيء اعتدت أن أخبر منه وقع لى الآن ، لأن حبي لك أعمانى . فالعواطف التى ظننتها بلهاء مفرطة غير طبيعية أمارسها أنا نفسى الآن . اننى لا أقوى على ابعاد عيني الغيتين عنك . . . »

« لا نستطيع الإلتقاء إلا خلال الأيام الثلاثة القادمة ، فبعدها يحل أول أسبوع في الصوم الكبير ، المخصص للصلاة والصيام . وسيكون اللقاء إنمّا كبيراً . أن مجرد التفكير في هذا البعد يبيكنى » (٢٦)

وعرض عليها الزواج ، ويعتقد بعض المؤرخين أنهما تزوجا سرّاً ، وفي خطابات عدة تدعوه «زوجى الحبيب» وتتكلم عن نفسها فتقول «زوجتك» (٢٧) ، رغم أننا يجب ألا نستخلص الحقيقة أبداً من مجرد الألفاظ . ويبدو أنه ملها ، ربما لهيامها الجموح به ، وتبين أن صوت المغامرة أقوى لديه من الدعوة للهجوم على قلعة فرغ من فتحها . وقد ظل نفوذه عليها عظيماً حتى أن معظم المقربين الذين خلفوه لم يخلفوه إلا بعد الحصول على موافقته .

وهذا ما حدث لبيوتر زافودوفسكى ، الذى استدفاً في خلدتها من ١٧٧٦ إلى ١٧٧٧ ، ولسيمون زوريتش (١٧٧٧ - ١٧٧٨) ، وإيفان رمسكى - كورساكوف (١٧٧٨ - ١٧٨٠) . ولم تشعر بغرام يملك عليها لها مرة أخرى إلا حين اتخذت ألكسيس لانسكوى (١٧٨٠) عشيقاً . فهذا الفتى لم يكن وسيماً كسماً مثقفاً فحسب ، بل كان صاحب حس شعري

(م ٥ قصة الحضارة ، ج ٤١)

مرهف وحب إنسانى للخير ، وصديقاً ذكياً للآداب والفنون . « لقد بدا أن الجميع يشاركون الملكة فى ولعها به » (٢٨) . وفجأة أصيب بالأم لاتطاق فى الأعماء ، واشتبهت الحاشية فى أن يكون بوتمكنين قد دس له السم ، ثم مات رغم كل جهود الأطباء ورعاية كاترين المخلصة ، ولفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعيها . وقضت ثلاثة أيام فى عزلة وحزن . ونحن نسمع المرأة من خلف الحائكة — والقلب من خلف التاريخ — فى رسالة كتبها فى ٢ يوليو ١٧٨٤ .

« خيل إلى أننى هالكة بعد هذه الخسارة التى لاتعوض . . . لقد علمت نفسى بأنه سيكون العون لى فى شيخوختى . كان مجاملاً ، وتعلم الكثير ، واكتسب كل ميولى . . . كان فى أقوم على تربيته ، وكان شاكراً ، رقيقاً ، طبيباً » . . . ان لانسكوى لم يعد له وجود . . . وباتت حجرتى وكراً فارغاً بعد أن كانت تفيض إشراقاً وبهجة ، ولا قدرة لى إلا على جر نفسى إليها كأننى طيف من الأطياف . . . لا أستطيع النظر إلى وجه إنسان دون أن يختنق صوتى . . . لا أستطيع أن أذوق النوم ولا الطعام . . . ولست أدرى ماذا يكون مصيرى » (٢٩) .

وظلت عاماً تحرم نفسها من العشاق ، وأخيراً استسلمت لألكسيس إرمولوف (١٧٨٥ — ١٧٨٦) ، الذى ساء بوتمكنين كثيراً فاستعاض عنه سريعاً بالكسيس مامونوف . ولكن سرعان ما زهد ألكسيس فى خليلته ذات السبعة والخمسين ، واستأذن فى الزواج من الأميرة شرباتوف ، واحتفلت كاترين بالعروسين فى زفاف رسمى بالبلاط ، ثم صرفتهما محملين بالهدايا (١٧٨٩) (٣١) . وآخر القائمة هو بلاتون زوبوف (٨٩ — ١٧٩٦) وكان ملازماً فى حرس الخيالة ، مفتول العضل دمث الطباع . وكانت كاترين شاكراً له لخدماته ، فاضطلعت بالإشراف على تعليمه ، وانتهت معاملته معاملة الأم لابنها . وقد لازمها حتى مماتها .

٣ — الفيلسوفة

بين الحب والحرب ، وسياسة الدولة والدبلوماسية ، وجدت هذه المرأة المدهشة وقتاً للفلسفة . وقد تكون فكرة عن سمو المكانة التى بلغتها جماعة

« الفلاسفة » الفرنسيين حين نرى أكفأ حاكمين من حكام القرن الثامن عشر يعترضان بتبادل الرسائل معهم ويتنافسان على الظفر بشنائهم .

وكانت كاترين قبل ولايتها العرش بزمان طويل تستطيب أسلوب فولتير وفكاهته الذكية وعباراته المجردة من التوقير ، وتحلم بأن تكون ذلك الحاكم « المستبد المستنير » الذى راود أحلامه . ولا بد أنها أعجبت بديدرو أيضاً ، لأنها فى سبتمبر ١٧٦٢ عرضت أن تطبع الموسوعة فى سانت بطرسبرج إذا أمعنت الحكومة الفرنسية فى حظرها . ولم يبق من الرسائل التى كتبها لفولتير قبل ١٧٦٥ إلا واحدة ، وقد ردت على أبيات أرسلها لها فى أكتوبر ١٧٦٣ :

« لأول مرة آسف على أننى لست شاعرة ، وأن يكون ردى على أبياتك بالضرورة نثراً لا شعراً . ولكنى أود أن أقول لك اننى منذ ١٧٤٦ مدينة بأعظم الفضل لك . فقبل تلك الحقبة لم أكن أقرأ شيئاً غير الروايات ، ولكن حدث أن وقعت كتبك فى يدي مصادفة ، وبعدها لم أكف عن قراءتها ، ولا رغبت فى قراءة كتب أقل جودة فى الكتابة أو أقل ثقيفاً . . . وهكذا لا أفتأ أعود إلى خالق ذوقى عودتى إلى أعماق أسباب تسليتى ، وأؤكد لك يا سيدى أننى إن كنت قد حصلت أى معرفة فالفضل فيها لك . وأنا الآن أقرأ مقالك « فى التاريخ العام » ، وبودى لوحفظت كل صفحة منه عن ظهر قلب » (٣١) .

وظلت كاترين طيلة حياتها ، أو حتى مماتهم ، تراسل فولتير وديدرو ودالمبير ومدام جوفران وجريم وكثيرين غيرهم من وجوه الفرنسيين . وأسهمت فى المال الذى جمعه فولتير لقضية كالاس وسيرفانس وقد أسلفنا القول أنها أمرت باستيراد شحنات كبيرة من الساعات من فرنیه ، ومن الجوارب التى صنعها عمال فولتير ، وأحياناً فولتير نفسه (ان جاز لنا أن نصدق الشعب العجوز) . وكان من بواعث فخره أن الرؤوس المتوجة أغدقت عليه أسباب التكريم ، وقد كافأ كاترين بأن أصبح مندوبها الصحفى فى فرنسا . وقد برأ ساحتها من الاشتراك فى جريمة قتل بطرس الثالث ، وكتب يقول « أعلم أن

كاترين تلومها بعض الشائعات التافهة حول زوجها ، ولكن هذه أمور عائلية لا شأن لي بها » (٣٢) . وناشد أصحابه أن يؤيدوه في الدفاع عن كاترين ، فكتب إلى دارجنتال يقول :

« هناك صنيع آخر أرجو أن تسديه إلى ، وهو يخص كاترين . يجب أن ندعم سمعتها في باريس بين أفاضل القوم ووجهائهم ... وعندى أسباب قوية للاعتقاد بأن اللوقين براسلان وشوازيل لايعتبرانها أكثر نساء العالم نقاء ضمير ، ومع ذلك فأنا عليم ... بأنه لم يكن لها يد في موت زوجها السكير . . ثم إنه كان أكبر أحقق تربيع على عرش ... ونحن مدينون بالفضل لكاترين لأنها أوتيت الشجاعة لخلع زوجها ، وهى تسوس ملكها بحكمة واعتزاز ، ويدعى أن نبارك رأساً متوجاً ينشر التسامح الدينى في أرجاء ١٣٥ درجة طولية ... إذن أرجوك أن تذكر كاترين بخير كثير (٣٣) .

أما مدام دو دفان فقد رأت أن تبرة الأميرة هذه مخزية جداً ، كذلك أدانتها مدام دشوازيل وهوراس ولبول (٣٤) . وما كان يتوقع من براسلان وشوازيل اللذين يوجهان علاقات فرنسا الخارجية أن يعجبا بامبراطورة تعارض النفوذ الفرنسى فى بولنده وتتحداه فى تركيا . وكانت الشكوك تساور فولتير ذاته بين حين وحين . فلما سمع بمصرع إيفان السادس ، سلم فى حزن بـ « أن علينا أن نخفف قليلا من غلوائنا فى التحمس » لكاترين (٣٥) . ولكنه ما لبث أن أطرى برنامجها التشريعى ، ورعايتها للفنون ، وحملتها لنشر الحرية الدينية فى بولنده ، وخلع عليها الآن (١٨ مايو ١٧٦٧) لقب « سميراميس الشمال » . وحين خاضت الحرب ضد تركيا قطع هجومه على الكنيسة الكاثوليكية I'imfame ليمتدح حملتها الصليبية لإنقاذ المسيحيين من المسلمين .

أما ديدرو فقد استهواه بالمثل ذلك الجمال المتربع على العرش ، وكان له فى ذلك مبررات قوية . ذلك أن كاترين سمعت أنه ينوى بيع مكتبته ليجمع مهرأ لابنته ، فأصدرت تعليماتها لوكيلها الباريسى بأن يشتريها بأى ثمن يطلبه ديدرو ، فطلب ستة عشر ألف جنيه وقبضها . ثم رجى ديدرو أن يحتفظ

بالكتب حتى مماته ، وأن يكون حارسها على المكتبة نظير راتب قدره ألف جنيه في العام ، وزادت بأن دفعت راتبه مقدماً عن خمسة وعشرين عاماً . وأصبح ديدرو بين عشية وضحاها رجلاً غنياً ومحامياً يدافع عن كاترين . فلما دعت لزيارتها لم يستطع أن يرفض . قال « يجب أن يرى الإنسان امرأة كهذه ولو مرة في العمر » (٣٦) .

وبعد أن دبر شؤون المال لزوجته وابنته خرج وهو في الستين (٣ يونيو ١٧٧٣) في الرحلة الطويلة الشاقة إلى سانت بطرسبرج . ولبت شهرين في لاهاي يرشف حلاوة الشهرة على مهل ، ثم واصل الرحلة بطريق درسدن وليبزج ، وحرص على أن يتجنب برلين وفردريك الذي كان قد أبدى عنه بعض الملاحظات الشائكة . وأصيب مرتين خلال الرحلة بالمغص إصابته عنيفة ، ثم وصل إلى سانت بطرسبرج في التاسع من أكتوبر ، واستقبلته كاترين في العاشر منه . كتب يقول « ليس هناك من يعرف خيراً منها فن رفع الكلفة عن محدثها » (٣٧) . ودعته للتكلم في صراحة ، « كما يتكلم رجل لرجل » . ففعل ، وأوماً إيماءاته على عادته ، وأكد نقاطه بصفع فخذي الإمبراطورة . كتبت كاترين لمدام جوفران تقول « ان ديدرو هذا رجل غريب الأطوار . فأنا أخرج من لقاءاتي معه بفخذين مرضوتين سوداوين تماماً . وقد اضطرت إلى وضع منضدة بيننا وقاية لنفسى ولإعضائي » (٣٨) .

وقد حاول فترة أن يلعب دور الدبلوماسي كما حاول فولتير مع فردريك ، وأن يصرف روسيا عن تحالفها مع النمسا وبروسيا إلى تحالف مع فرنسا (٣٩) ؛ ولكنها سرعان ما صرفته إلى موضوعات أقرب إلى صناعته . وأخبرها في شيء من التفصيل كيف يمكن أن تحول روسيا إلى بلد مثالي ، واستمعت إليه جذلة ، ولكنها ظلت على تشككها . وقد استعادت فيما بعد هذه الأحاديث في رسالة كتبها للكونت لوى --- فليب دسيجور . قالت :

« تحدثت معه كثيراً ومراراً ، ولكن بفضول أكثر من الفائدة . ولو صدقته لانقلب كل شيء في مملكتي ، فالتشريع والإدارة والمالية - كلها

كانت تنقلب رأساً على عقب لتفسح مجالاً لنظريات غير عملية . . . ثم قلت له في صراحة : « يا مسيو ديدرو ، لقد أصغيت بمنتهى اللذة لكل ما أوحى به فكرك اللامع . . أن المرء ، بكل مبادئك السامية ، قد يؤلف كتباً رائعة ، ولكنه يخسر في تجارته . . أنك تشغل على الورق ، الذى يتحمل كل شيء . . أما أنا ، الامبراطورة المسكينة ، فأشتغل على جلد البشر ، وهو جلد سريع التهيح حساس على نحو مختلف » . . . وبعدها قصر كلامه على الأدب^(٤١) . وحين وقعت على مذكرات كان قد كتبها « بتعليقات صاحبة الجلالة الامبراطورة . . لوضع القوانين » وصفتها (بعد وفاته) بأنها « محض هذيان ، لا أثر فيه لمعرفة بالحقائق ولا للتدبير ولا للنظر ثاقب »^(٤٢) . ومع ذلك استمتعت بحديثه المفعم حيوية ، وكانت تبادله الأحاديث كل يوم تقريباً خلال مقامه الطويل (*) .

وبعد أن أنفق ديدرو خمسة أشهر من البهجة الغامرة فى صحبتها ، والتعب فى بلاطها ، نوى الرحيل إلى أرض الوطن . فأمرت كاترين بصنع عربة خاصة له يستطيع أن يتكىء فيها مستريحاً . وسألته أى الهدايا ترسلها إليه فقال لا شيء ، ولكنه ذكرها بأنها لم تف بوعدها أن ترد له نفقات رحلته ، وقد قدرها بألف وخمسمائة روبل ، فنفحته بثلاثة آلاف وبخاتم ثمن ، وعينت ضابطاً ليرافقه حتى لاهاى . فلما عاد إلى باريس أثنى عليها بالشكر والعرفان .

ولم تحاول كاترين الاتصال بروسو . الذى كان نقيضها إلى حد مؤلم فى الطبع والأفكار ، ولكنها صادقت جريم ، لأنها عرفت أن صحيفته « الرسائل الأدبية » تصل إلى أيدي الأوربيين ذوى النفوذ . واتخذ أول خطوة بعرضه (١٧٦٤) أن يوافيها برسائله الدورية ، فوافقت ونقدته ألفاً وخمسمائة روبل فى السنة . وقد رآها أول مرة حين ذهب إلى سانت بطرسبرج (١٧٧٣) فى بطانة أمير هسسى — دار مشنات لحضور زفاف أخت الأمير إلى الغراندوق بولس . وقد وجدته كاترين أكثر واقعية من ديدرو . مطالعاً إطلاعاً مفيداً

(*) لعل القصة التى زعمت أن أويلر أريك ديدور أمام الحاشية الرومية بهرمان جبرى رهى على وجود الله قصة مشكوك فى صحتها (٤٢) .

جداً على جميع مناحى ذلك العالم الباريسى الذى سحرها بأدبه وفلسفته وفنه ونسائه وصالوناته . ودعته «للدردشة» معها كل يوم تقريباً خلال شتاء ١٧٧٣ - ١٧٧٤ وقد كتبت إلى فولتير عن هذ اللقاءات : « ان حديث السيد جريم يمتعنى ، ولكن الأشياء التى نود أن نتبادل الكلام فيها من الكثرة بحيث اتسمت لقاءتنا إلى الآن بالحماسة أكثر من اتسامها بالنظام أو التتابع » وفى حرارة هذه الأحاديث كان عليها المرة بعد المرة أن تذكر نفسها بأن عليها (على حد قولها) أن تعود إلى «أكل العيش» أكل عيشها بالالتفات إلى مهمة الحكم^(٤٣) . وعاد جريم إلى باريس يطفح تحمساً لكاترين «غذاء روحى ، وعزاء قلبى ، وفخر عقلى ، وبهجة روسيا ، وأمل أوروبا»^(٤٤) . وعاد إلى زيارة بطرسبرج فى ١٧٧٦ ، وكان يلقاها كل يوم تقريباً على مدى عام . ورجته أن يمكث ويشرف على التنظيم الجديد للتعليم فى روسيا ، ولكنه حن إلى باريس ومدام رينيه . ولم تكن كاترين بالمرأة الغيور ، فلما سمعت أن مدام رينيه تعاني أزمة مالية بعثت إليها بطريق رقيق غير مباشر ما يكتفى لتلبية حاجاتها^(٤٥) . ومنذ ١٧٧٧ قام جريم بمهمة الوكيل لكاترين فى فرنسا فى المشتريات الفنية والمهام السرية . ودامت صداقته لها إلى النهاية دون أن يكدر صفوها مكدر .

ماذا كانت نتائج هذا الغزل بين الأوتقراطية والفلسفة ؟ أما من حيث مصادقتها للفلاسفة بوصفهم وكلاؤها الصحفيين فى فرنسا ، فالأثر السياسى كان صفراً ؛ فالسياسة الفرنسية ، ومن ثم المؤرخون الفرنسيون ، ظلوا خصوماً ألداء لبلد كروسيا يحبط الأهداف الفرنسية فى أوروبا الشرقية . ولكن إعجابها بأبطال التنوير الفرنسى كان مخلصاً ، لأنه بدأ قبل تقلدها السلطة بزمان طويل ، ولو كان تظاهراً وادعاء لما ثبت للمواجهات الطويلة مع ديدرو وجريم . وقد أعان اتصالها بالفكر الفرنسى على صيغ روسيا المتعلمة بالصيغة الأوربية ، وعلى تعديل رأى الغربى الذى رأى فى روسيا وحشاً هائلاً جباراً . وقد اقتدى روس كثيرون بكاترين ، وراسلوا الكتاب الفرنسيين ، وشعروا بتأثير الثقافة والعادات والفنون الفرنسية . وزار باريس عدد متزايد من الروس ، ومع أن كثيرين منهم أنفقوا وقتهم فى المغامرات

الجنسية ، إلا أن الكثيرين اختلفوا إلى الصالونات والمتاحف والبلاط ،
وقرأوا الأدب والفلسفة الفرنسيين ، وجلبوا معهم أفكاراً شاركت في الإعداد
لتفجير الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر .

٤ — الحاكمة القديرة

لا يتطرق إلينا المشك فى صدق نيات كاترين فى مطلع حكمها .

فقد وجدت هذه القرارات فى نسخة « تليماك » التى كانت تقرؤها :

« عليك بدراسة الإنسان ، وتعلم استخدام الرجال بغير الاستسلام لهم
دون تحفظ . واجتنب عن الكفاية الأصيله وأن وجدت فى أقصى الأرض ،
لأنها تكون عادة متواضعة متوارية .

ولا تسمحى لنفسك بأن تصبحى فريسة للمتملقين ، أفهمهم أنك
لا تعأين بالمديح ولا بالتذلل والخنوع . وضعى ثقتك فى أولئك الذين لديهم
الشجاعة للاعتراض على آرائك . . . والذين تهمهم سمعتك أكثر مما يهمهم
رضاءك .

« كونى مؤدبة ، رحيمة ، منفتحة ، عطوفاً ، متحررة العقل . ولا تدعى
سمو مكانتك بمنعك من النزول فى تلطف إلى صغار الناس . ووضع نفسك
فى موضعهم . واحرصى على ألا يضعف هذا اللطف من سلطانك أو ينتقص
من احترامهم لك . . . وانبذى كل تصنع وافتعال . ولا تسمحى للعالم أن
يلوثك إلى الحد الذى يفقدك مبادئ الشرف والفضيلة القديمة .

اقسم بالسماء أن أطيع هذه الكلمات على صفحة قلبى»^(٤٦) .

وكانت تدأب على الإحاطة بدقائق كل موضوع تتناوله ، وقد كتبت
تعليمات مفصلة عن مئات المواضع من تدريب الجيش والعمليات الصناعية
إلى زينة حاشيتها وإخراج الأوبرات والتمثيلات . قال أحد كتاب سيرتها
الأولين وكان من أقلهم تعاطفاً :

« ان الطموح لم يطأ في روح كاترين تذوقاً حاراً للذة ، ولكنها كانت تعرف كيف تنبذ اللذة ، وتنتقل إلى الاضطلاع بأكثر الواجبات خطراً ، وإلى الممارسة التي لا تكل لشئون الحكم . فتحضر جميع مداولات المجلس ، وتقرأ رسائل سفراتها ، وتعلم ، أو تشير ... بالردود التي يرد بها . ولا تكل لوزرائها سوى تذاصيل العمل ، ولا تفتأ تراقب تنفيذه » (٤٧) .

واستحالت أو كادت مهمة حكم رقعة ملكها الشاسعة لكثرة القوانين الموجودة (عشرة آلاف) . وتنوعها ، وتناقضاتها ، وفوضاها . وإذ راودها الأمل في أن تؤدي لروسيا ما أداه من قبل جستينان للدولة الرومانية ، وفي أن تدعم سلطتها . فإنها دعت إلى موسكو في ١٤ ديسمبر ١٧٦٦ موظفين إداريين وخبراء قانونيين من كل ركن من أركان الامبراطورية ، ليقوموا بمراجعة دقيقة شاملة وجمع وتنسيق للقانون الروسي . واستعداداً لمجيئهم أعدت بشخصها تعاليم « Nakaz » تصف المبادئ التي ينبغي أن يشكل على أساسها القانون الجديد . وقد عكست هذه المبادئ قرائها لمونتسكيو وبكاريا وبلاكستون وفولثير . واستلهمت تعاليمها بالتصريح بأنه يتعين التفكير في روسيا على أنها دولة أوربية . ينبغي أن يكون لها دستور قائم على « مبادئ أوربية » . وليس معنى هذا في مفهومها « حكومة دستورية » تخضع الملك طليئة تشريعية يختارها الشعب . فمستوى التعاليم في روسيا لن يسمح حتى بحق انتخاب محدود كما يوجد آنشد في بريطانيا . إنما يعني حكومة يحكم فيها الحاكم طبقاً للقانون ، وإن كان هو في نهاية الأمر المصدر الوحيد للقانون . وقد أيدت كاترين النظام الإقطاعي . أعنى نظام الولاء والخدمات المتبادلة بين الفلاح والمقطع (التابع) وبين المقطع والسيد الإقطاعي . وبين السيد والملك . باعتباره نظاماً لاغنى عنه للاستقرار الاقتصادي والسياسي والحربي في روسيا عام ١٧٦٦ (وهي بلد الجماعات التي تكاد تنعزل بعضها عن بعض ، وعن مركز الحكومة ، نتيجة لصعوبات الاتصال والتنقل) . ولكنها ألحقت على ضرورة تعريف وتعديد ستم في السادة على أقتانهم قانوناً ، وعلى السماح للأقتان بتملك الأملاك ، وعلى نقل محالمة الأقتان وعتاقهم من السيد الإقطاعي إلى قاضي عمومي يسأل يسأل محكمة إقليمية مسوأة أمام الملك (٤٨) . وينبغي أن تكون جميع المحاكمات

علنية ، وأن يبطل استخدام التعذيب ، وأن تلغى عقوبة الإعدام قانوناً وواقعاً. أما العبادة الدينية فينبغى أن تكون حرة ، «فالتعصب هو أضر الكبائر بين هذه الكثيرة من مختلف العقائد» ^(٤٩) . ثم قدمت هذه التعليمات قبل طبعها إلى مستشاريها ، فنبهوها إلى أن أى تغيير فجائى من الأحوال المألوفة سيدفع بالروسيا إلى مهاوى الفوضى ، وقد سمحت لهم بتعديل مقترحاتها ، لا سيما ما استهدف عتق الأرقاء تدريجياً ^(٥٠) .

وتد دفعت هذه التعليمات التى نشرت فى هولندا فى ١٧٦٧ صفوة المفكرين الأوربيين إلى الثناء الحماسى عليها ، حتى بعد أن عدلت على هذا النحو . وأرسلت الامبراطورة نسخة منها رأساً إلى فولتير ، الذى قدم فروض احترامه المعهودة : «سيدى ، تلقيت البارحة ضماناً من ضمانات خلودك — هو مجموعة قوانينك فى ترجمة ألمانية . وقد شرعت اليوم فى ترجمتها إلى الفرنسية . وسوف تظهر فى الصينية ، وفى كل لسان ، وسوف تكون انجيلا للبشر أجمعين» ^(٥١) . وأضاف فى رسائل تالية : «إن المشرعين يحتلون مكان الصدارة فى هيكل المجد ، أما الفاتحون فيأتون من بعدهم . . . اننى أعد (التعليمات) أجل آثار هذا القرن» ^(٥٢) . ومنعت الحكومة الفرنسية بيع (التعليمات) فى فرنسا .

وقدمت «التعليمات» المعدلة إلى «لجنة صياغة القانون الجديد» التى اجتمعت فى ١٠ أغسطس ١٧٦٧ . وكانت تتألف من ٥٦٤ عضواً تنتخبهم جماعات شتى : ١٦١ من النبلاء و ٢٠٨ من المدن ، ٧٩ من الفلاحين الأحرار ، و ٥٤ من القوزاق ، و ٣٤ من القبائل غير الروسية (مسيحيين أو غير مسيحيين) و ٢٨ من الحكومة . ولم يمثل الأكليروس بصفقتهم طبقة ، ولم يمثل الأتقان اطلاقاً . وكانت اللجنة من بعض وجوهها نظير لمجلس طبقات الأمة الفرنسى الذى تقرر أن يجتمع فى باريس فى ١٧٨٩ ، وقد أتى المندوبون للحكومة بقوائم احتوت المظالم ومقترحات الإصلاح من دوائرهم على نحو ما سيفعل مندوبو ذلك المجلس الأشهر . ورفعت هذه الوثائق إلى الامبراطورة فأتاحت لها ولمساعدتها مسحاً قيماً لحالة المملكة .

ولم تخول اللجنة سلطة اصدار القوانين ، بل تقديم المشورة للامبراطورة عن حالة كل طبقة أو اقليم وحاجاته وتقديم الاقتراحات للتشريع . وكفلت للمندوبين حرية الكلام وعدم المساس بأشخاصهم . واقترح بعضهم عتق جميع الأقنان وطلب بعضهم مزيداً من التوسع في حق امتلاك الأققان . وفي ديسمبر ١٧٦٧ - استراحت اللجنة ، وفي فبراير ١٧٦٨ انتقلت إلى سانت بطرسبرج . وبلغ مجموع الجلسات التي عقدتها ٢٠٣ ؛ وفي ١٨ ديسمبر أجلت إلى أجل غير مسمى لأن نشوب الحرب ضد تركيا استدعى وجود مندوبين كثيرين في الجبهة . ووكلت مهمة صياغة التشريع المقترح إلى لجان فرعية . ظل بعضها يجتمع حتى ١٧٧٥ ، ولكن لم توضع مجموعة قوانين . ولم تسوء كاترين تماماً هذه النتيجة غير الحاسمة ، فقالت «إن اللجنة . . . أعطتني النور والمعرفة عن جميع الامبراطورية ، وأنا الآن على بينة مما يلزم ، وأعرف بهم ينبغي أن أهم . وقد فصلت اللجنة جميع أقسام القانون ، ووزعت الشئون تحت رؤوس مواضيع ، وكنت خليقة بأن أفعل أكثر من هذا لولا الحرب مع تركيا . ولكننا أدخلنا وحدة لم نعهدنا إلى الآن في مبادئ النقاش وطرائقها » (١٢١) . وقد أظهرت كاترين للنبل في الوقت نفسه مبلغ عرض القاعة التي تركز عليها سلطاتها . واقترحت اللجنة قبل انفضاضها أن تخلع عليها لقب «الكبرى» . ورفضت . ولكنها وافقت على أن تلقب «أم الوطن» .

وأصبحت الثتان من توصيات كاترين قانوناً : إلغاء التعذيب واقرار التسامح الديني . وقد توسع في هذا التسامح : فسمح القانون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بأن تنافس اليونانية الأرثوذكسية . وحمى اليسوعيين حتى بعد أن حل البابا كلمنت الرابع عشر طائفتهم (١٧٧٣) ، وأذن للثتار الفولجا بأن يعيدوا بناء مساجدهم . وسمحت كاترين لليهود بدخول روسيا ، ولكنها أخضعتهم لضرائب خاصة ، وقصرت إقامتهم على مناطق معينة (ربما تحقياً لسلامتهم) . ثم تركت الراسكولنيكيين - المنشقين الدينيين - أحراراً في ممارسة شعائرهم دون عائق ، وكتبت إلى فولثير تقول «صحيح أن عندنا متعصبين يحرقون أنفسهم لأنهم لم يعودوا مضطهدين من الغير ، ولكن لو حدا حدوهم المتعصبون في الدول الأخرى لما نجم عن ذلك ضرر يذكر» (١٢٢) .

وأبهج جماعة الفلاسفة بصفة خاصة إخضاع كاترين الكنيسة الروسية للدولة . وشكا بعضهم من أنها لا تزال تحضر الخدمات الدينية (وكذلك كان يفعل فولتير) ، وأدرك أكبرهم سنا أن حضورها أمر لاغنى عنه للاحتفاظ بولاء الشعب . وقد حولت بمرسوم أصدرته في ٢٦ فبراير ١٧٦٤ جميع أراضي الكنيسة ملكاً للدولة . وبدأت الدولة منذ الآن تدفع رواتب رجال الدين الأرثوذكس — وبهذا ضمنت تأييدهم للحكومة . وأغلق الكثير من أديرة الرهبان والراهبات ، ومنع الباقي منها من قبول أكثر من عدد معلوم من المترهين الجدد، ورفعت السن القانونية لنذر الرهبنة . واستخدمت الموارد الفائضة من المؤسسات الكنسية في إنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات (٥٥).

وعارض رجال الدين والنبلاء التوسع في التعليم الشعبي مخافة أن يفضي انتشار المعرفة بين الجماهير إلى الهزيمة والكفر والتعزب ، وأن يعرض النظام الاجتماعي للخطر . هنا بدأت كاترين — كما بدأت في غيره — بتطاعات تحريرية . فلجأت إلى جريم :

« اصغوا إلى لحظة يا أصدقائي الفلاسفة : ستكونون لطافاً ظرافاً إذا تفضلتم برسم خطة للشباب ، من ألف باء إلى الجامعة . . . ليس عندي — أنا التي لم أدرس في باريس ولم أعش فيها — معرفة بهذا الأمر ولا بصبر به . . انى مهتمة جداً بفكرة إنشاء جامعة وإدارتها ، ومدرسة ثانوية (جمنازيوم) وأخرى أولية . . . وإلى أن تستحيبوا لطلبي سأنقب في « الموسوعة » عما أنشده وبالتأكيد سأستخرج منها ما أنشده » (٥٦) .

وقد أثرت فيها أثناء ذلك الحماسة البيداغوجية التي أبدتها إيفان بتسكى ، الذي جاب السويد وألمانيا وهولندة وإيطاليا وفرنسا ، واختلف إلى صالون مدام جوفران ودرس الموسوعة والتي بروسو . ففي ١٧٦٣ أنشأت في موسكو مدرسة القطاء ، خرجت في ١٧٩٦ أربعين ألف طالب ، وفي ١٧٦٤ فتحت مدرسة للبنين في سانت بطرسبرج ، وفي ١٧٦٥ أخرى للبنات ، وفي ١٧٦٤

حول دير سمولنى إلى معهد سمولنى لبنات النبلاء - وهذا صدى لمعهد مدام دمانتون «سان سير» ، وكانت كاترين أول حاكم روسى يفعل شيئاً لتعليم النساء . ولما فت فى عضدها افتقارها إلى المعلمين المؤهلين ، بعثت الطلاب الروس لدراسة التربية فى انجلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ، وأنشئت مدرسة للمعلمين فى ١٧٨٦ .

وقد أعجبتها اصلاحات يوزف الثانى التعليمية فى النمسا ، فطلبت إليه أن يعبرها شخصاً خبيراً بنظامه ، فأرسل إليها تيودور يانكوفش الذى وضع لها خطة نشرتها باسم «قانون المدارس الشعبية» (٥ أغسطس ١٧٨٦) . وأنشئت مدرسة أولية فى أهم بلدة فى كل اقليم ، ومدرسة ثانوية فى كل مدينة كبرى من مدن ست وعشرين مقاطعة ، وفتحت هذه المدارس لجميع الأطفال أيا كانت طبقتهم ، ولم يسمح فيها بالعقاب البدنى ؛ وكانت الدولة تمدها بالمدرسين والكتب المدرسية . بيد أن المشروع أحبطه إلى حد كبير عزوف الآباء عن ارسال أبنائهم إلى المدارس بدلا من استخدامهم للشغل فى البيت . وخلال السنوات العشر التى انقضت منذ تأسيس «المدارس الشعبية» حتى وفاة كاترين ، زاد عددها ببطء من أربعين إلى ٣١٦ مدرسة ، وعدد المعلمين من ١٣٦ إلى ٧٤٤ ، وعدد التلاميذ من ٤,٣٩٨ إلى ١٧,٣٤١ . وفى عام ١٧٩٦ كانت روسيا لا تزال شديدة التخلف عن الغرب فى ميدان التعليم الشعبى .

أما التعليم العالى فكان متاحاً على نطاق ضيق فى جامعة موسكو وفى المعاهد أو الأكاديميات الخاصة ، وأنشئت مدرسة تجارية فى ١٧٧٢ ، وأكاديمية للمناجم فى ١٧٧٣ . ووسعت أكاديمية العلوم القديمة وزودت بالمال الوافر . وفى ١٧٨٣ ، بناء على إلحاح الأميرة داشكوكفا ، وتحت رآستها ، أنشئت أكاديمية روسية لتحسين اللغة ، وتشجيع الأدب ، ودراسة التاريخ ، فأصدرت المترجمات ، ونشرت الدوريات ، وصنفت قاموساً صدر فى ستة أجزاء بين ١٧٨٩ ، ١٧٩٩ .

وقد روعت كاترين نسبة الوفيات العالية فى روسيا ، وبداية وسائل

حفظ الصحة العامة والنظافة الشخصية ، فاستقدمت الأطباء الأجانب ، وأسست كلية للصيدلة في موسكو ، ودبرت المال لإنتاج الأدوات الجراحية . وفتحت في موسكو ثلاثة مستشفيات جديدة وملجأ ومستشفى للأمراض العقلية وفي سانت بطرسبرج ثلاثة مستشفيات جديدة بما فيها « مستشفى سرى » للأمراض التناسلية ^(٥٧) . وفي ١٧٦٨ أدخلت لروسيا التطعيم ضد الجدري ، وهذأت مخاوف الشعب بوضعها شخصها وهي في الأربعين ليجرى عليها العلاج كثاني شخص في روسيا ، وما لبثت كاترين أن كتبت لنفولتر تقول «إن الذين طعموا هنا في شهر واحد أكثر ممن طعموا بفيينا في سنة» ^(٥٨) . (وفي ١٧٧٢ دخل التطعيم نابلي لأول مرة ، وفي ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بالجدري غير مطعم) .

٥ — الاقتصادية

من القوانين الأساسية التي أصدرتها كاترين قانون (١٧٦٥) قضى بأجواء مسح لجميع أراضي روسيا . وقد قوبلت هذه العملية بمقاومة شديدة من الملاك . وحين اختتم العهد كانت قد شملت عشرين إقليماً من خمسين ، ولكنها لم تستكمل حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبينما كان المسح جارياً أدركت الامبراطورة في وضوح مثير للهمم كيف يعتمد اقتصاد روسيا على تنظيم الزراعة بواسطة نظام قوامه السادة والأقنان . وفي ١٧٦٦ أعلنت عن جائزة من ألف دوقاتية تمنح لأفضل مقال عن تحرير الأقنان . وفاز بالجائزة بياردي دلابيه إكس لا شابيل ، الذي رأى أن « العالم كله يطالب الملوك بتحرير الفلاحين » وتنبأ بأن الإنتاج الزراعي سيزداد زيادة هائلة « إذا ملك الفلاحون الأرض التي يزرعونها » ^(٥٩) . غير أن الملاك الأشراف حذروا كاترين من أن الفلاح سيهجر القرى إلى المدن ان لم يربط بالأرض وبسيده الإقطاعي ، أوسياجر من قرية إلى قرية في لامبالاة أكثر ، فيخلق بذلك الفوضى ، ويمزق الاقتصاد ، ويعوق تجنيد أبناء الفلاحين الأشداء للجيش أو الأسطول . ومضت القيصرة الحائرة في مشروعها على حذر ، فالنبلاء يملكون المال

والسلاح اللذين يستطيعان الإطاحة بها ، وهم في هذه المحاولة يستطيعون الاعتماد على تأييد الأسكليروس الذين ساءهم فقدان أراضيهم وأقنانهم . وخافت من التحلل الذي قد تحدثه هجرة جماعية من الفلاحين المحررين إلى مدن غير مستعدة لإسكانهم أو إطعامهم أو تشغيلهم . على أنها قامت بخطوات نحو عتق الأقنان . فجددت مرسوم بطرس الثالث الذي حرم شراء الأقنان لتشغيلهم في المصانع ، وفرضت على أرباب العمل أن يدفعوا أجور عمالهم نقداً وأن يراعوا ظروف العمل التي يقررها موظفوا المدينة أو « المير »^(٦١) ؛ ولكن حتى مع هذا ظل وضع الأقنان الصناعيين وضع العبودية القاسية المذهلة . وحرمت كاترين القنية في المدن التي أنشأها^(٦٢) ، ثم عتقت الأقنان المشتغلين على الأراضي التي أخذت من الكنيسة نظير دفعهم رسماً صغيراً^(٦٣) ، على أن هذه التحسينات طغت عليها منحها المتكررة من أراضي الدولة لمن أخلصوا لها الخدمة كالقواد أو رجال الدولة أو العشاق ، وعلى هذا النحو أصبح أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ من الفلاحين الأحرار أقناناً . وارتفعت نسبة الأقنان في سكان الريف من ٥٢,٤٪ في بداية العهد إلى ٥٥,٥٪ في ختامه ، وزاد عدد الأقنان من ٧,٦٧٠,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠^(٦٤) . ثم أكملت كاترين استسلامها للنبل بـ «خطابات الامتياز للنبل» (١٧٨٥) : فقد أكدت فيها من جديد إعفاءهم من ضريبة الرؤوس ، والعقوبة البدنية ، والخدمة العسكرية ، وحقوقهم في ألا يناكحوا إلا أمام أمراءهم ، وفي استخراج المعادن من أراضيهم ، وفي امتلاك المشروعات الصناعية ، وفي السفر إلى خارج البلاد كما يشاءون . وقد حظرت على الملاك أن يكونوا طغاة أو قساة ، ولكنها أبطلت مفعول هذا الحظر بمنع الأقنان من أن يرسلوا إليها شكاواهم .

ولجأ الفلاحون بعد أن أخذ صوتهم على هذا النحو إلى الفرار أو التردد أو الاغتيال . وقد قتل ثلاثون من السادة الإقطاعيين بأيدي فلاحهم بين عامي ١٧٦٠ و ١٧٦٩ ، واندلعت خمسون فتنة بينهم فيما بين عامي ١٧٦٢ و ١٧٧٣^(٦٥) . وكانت هذه الفتن تنمد سريعا حتى قام زعيم ثائر عرف - بوجاشيف كان قوزاقياً من إقليم الدون ، حارب في صفوف الروس ضد

البروسيين والأتراك ، ثم طلب تسريحه ، ولكن طلبه رفض ، ففر من الجيش ، وقبض عليه ، فعاود الفرار ، وارتضى حياة طريد القانون . وفي نوفمبر ١٧٧٢ ، بعد أن شجعه الرهبان الساخطون ، أعلن أنه بطرس الثالث الناجى بأعجوبة من كل المحاولات التي بذلت لقتله . وجذب الفلاحين وقطاع الطرق للانضواء تحت لوائه ، حتى أحس بأن ساعده اشتد ، فهجر بعصيان الغاصبة كاترين (سبتمبر ١٧٧٣) . وتوافد عليه قوزاق الأورال والفولجا والدون ؛ وآلاف الرجال الذين حكم عليهم بالسخرة في مناجم الأورال ومصاهر المعادن ؛ وفئات «المؤمنين القدامى» التواقين إلى الإطاحة بالكنيسة الأرثوذكسية ؛ وقبائل التتار والقرغيز والبشكير المحلية الذين لم ينسوا أكرامه اليزابث لهم على الدخول في المسيحية ؛ ثم أقنان آبقون من ساداتهم ، ومساكين هربوا من السجون : هؤلاء تقاطروا على لواء بوجاشيف حتى اجتمع له عشرون ألف رجل تحت إمرته . فزحفوا ظافرين من مدينة إلى مدينة ، وهزموا القوات التي سيرها ضدهم الحكام المحليون ، واستولوا على مدن هامة مثل قازان وساراتوف ؛ ثم صادروا المؤن ، وقتلوا الملاك ، وأكروها الفلاحين المعارضين على الانضمام إليهم ، وزحفوا مصعبدين في حوض الفولجا صوب موسكو . وأعلن بوجاشيف أنه لن يرتقى هو العرش هناك ، بل سيؤتة الغراندوق بولس . ولكنه — بمزاح رهيب على الأرجح — لقب زوجته الفلاحة بالملكة ، وكبار ضابطه بأسماء ضباط كاترين : الكونت أورلوف ، والكونت بانين ، والكونت فورونشوف .

وسخرت كاترين أول الأمر من هذا «المركيز بوجاشيف» ، ولكنها حين علمت أن العصاة استولوا على قازان ، جردت قوة كبيرة تحت إمرة الجنرال بيوتر ايفانوفتش بانين لإنقاذ الفتنة . وخف النبلاء لنجدتها بعد أن أدركوا أن الخطر يهدد هيكل الإقطاع بأسره ، وسرعان ما انضم الجنرال الكسندر فاسيلييفتش سوفوروف إلى بانين بفرسانه الذين أصبحوا أحراراً في التحرك بعد عقد الصلح مع الأتراك ؛ وأوقع الخلل في صفوف العصاة التقاؤهم بجنود مدربين تحت قيادة ضباطهم الأباطوريين ، فتقهقروا من موقع إلى آخر ، واستنفدوا مؤنهم ، وبدأوا يتضورون جوعاً . وأعتقل بعض

زعمائهم - الطامعين في الجلبز والعفو - بوجاشيف وسلموه للمتصربين . فنجى به إلى موسكو في قفص من حديد ، وحوكم في الكرملين ، وقطع رأسه ومزق جسده أرباعاً ، وعرض رأسه على عمود في أربعة أقسام من المدينة ليكون « عبرة لغيره » ثم أعدم خمسة من ضباطه ، وجلد غيرهم على هذا الجانب من الموت ، ونفوا إلى سيبيريا . وكان من نتائج الفتنة دعم التحالف بين الامبراطورة والنبلاء .

على أنها تحدث النبلاء شيئاً ما بتأييدها لنمو طبقة قوامها رجال المال والأعمال . ذلك أن اقتناعها ببراهين الفزيوقراطيين دعاها لإقرار حرية التجارة في المحاصيل الزراعية (١٧٦٢) ، ثم في كل شيء ، وأنهت (١٧٣٥) الاحتكارات المعتمدة من الحكومة بإصدارها قراراً يبيح لكل إنسان حرية الاضطلاع بأى مشروع صناعى وتنفيذه . وقد أحرز نمو الطبقة الوسطى غلبة الصناعة التى تقوم فى الأكواخ والعزب ، ومشاركة النبلاء فى المغامرات الصناعية والتجارية . وزادت المصانع من ٩٨٤ إلى ٣,١٦١ فى عهد كاترين ، ولكن هذه كان أكثرها ورشاً صغيرة لا تستخدم من الصناع إلا القليلين . وزاد سكان المدن من ٣٢٨,٠٠٠ فى عام ١٧٢٤ إلى ١,٣٠٠,٠٠٠ فى عام ١٧٩٦ - ومع ذلك لم يزل أقل من أربعة فى المائة من مجموع السكان (٦٥) .

ولم تأل الامبراطورة الكثيرة الشراغل جهداً فى النهوض بالتجارة دون أن تلقى إلا التأييد الضنين من حاشيتها النبيلة . لقد كانت الطرق غاية فى السوء ، ولكن الأنهار كثيرة ، وقد ربطتها القنوات فى شبكة مفيدة . وفى عهد كاترين بدىء شق قناة بين الفولجا والنيفا لربط البلطيق ببحر قزوين ، وقد خططت لقناة أخرى تصل بحر قزوين بالبحر الأسود (٦٦) . وظفرت بالتفاوض أو بالحرب بحرية مرور التجارة الروسية دون معوق فى البحر الأسود ومنه إلى البحر المتوسط . ثم حثت دبلوماسيتها على عقد المعاهدات التجارية مع انجلترا (١٧٦٦) وبولنده (١٧٧٥) والدنمرك (١٧٨٢) وتركيا (١٧٨٣) والنمسا (١٧٨٥) وفرنسا (١٧٨٧) . ونمت التجارة الخارجية من ٢١,٠٠٠,٠٠٠ روبل عام ١٧٦٢ إلى ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ عام ١٧٩٦ (٦٧) .

(م ٦ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

في هذه الأرقام يجب أن نحسب حساب تضخم العملة الذي تدفع به الحكومات نفقات حروبها . وقد اقترضت كاترين من داخل البلاد وخارجها ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ روبل لتمويل حملاتها على تركيا ، وأصدرت نقوداً ورقية تجاوزت كثيراً أى غطاء من الذهب . وفقد الروبل أثناء حكمها ٣٢٪ من قيمته . وفي هذه الفترة ذاتها ، ورغم زيادة الإيرادات من ٢١٥,٠٠٠,٠٠٠ (٦٨) . وأكثر هذا الدين نجم عن الحروب التي كسرت شوكة تركيا ، ومدت حدود روسيا إلى البحر الأسود .

٦ - المحاربة

بدأت كاترين بأهداف سلمية كما يبدأ كل فيلسوف : فأعلنت أن مشاكل الامبراطورية الداخلية ستستغرق اهتمامها ، وأنها ستجنب كل صراع مع الدول الأجنبية إذا لم يتمحش بها أحد . فثبتت صلح بطرس الثالث مع بروسيا ، وأنهت حربه مع الدنمرك . وفي ١٧٦٢ رفضت الإغراء بفتح كورلاند أو التدخل في بولنده ، وقالت «عندى ما يكفي من البشر الذين على إسعادهم ، ولن يزيدني رفاهية ذلك الركن الصغير من أركان الأرض» (٦٩) . ثم خفضت الجيش ، وأهملت ترسانات السلاح ، وسعت إلى التفاوض مع تركيا لإبرام معاهدة للصلح الدائم .

ولكنها كانت كلما درست الخريطة وجدت عيباً في حدود روسيا . ففي الشرق كانت الامبراطورية محمية جيداً بجبال الأورال وبحر قزوين وضعف الصين . وفي الشمال تحميها الثلوج . أما في الغرب فالسويد مستولية على جزء من فنلنده ، قد يتوقع منه الهجوم في أى لحظة يشنه شعب مافئ يسوؤه ما غصبه منه بطرس الأكبر ؛ وكانت بولنده وبروسيا تسدان الطريق إلى «أوروبا» والاصطباغ بحضورتها . أما في الجنوب فقد سد التتار ، الخاضعون لحان مسلم يسيطر عليه الترك ، الطريق إلى البحر الأسود . فأى إجهاضات للتاريخ أعطت روسيا جغرافية كهذه ، وحدوداً شاذة كهذه ؟ وهمس في أذنها القائد القديم مونيش ، والقائد الجديد جريجورى أورلوف ، بأن الوضع يكون معقولاً أكثر لو كان البحر الأسود هو الحد الجنوبي ، وبأنه يكون

جميلاً رائعاً لاستطاعت روسيا الاستيلاء على الآستانه والتسلط على البوسفور .
أما نيكيتا بانين ، وزير خارجيتها من ١٧٦٣ إلى ١٧٨٠ ، فقد فكر في طرق
لإعلاء نفوذ روسيا في بولنده ومنع هذا البلد الأعزل من الوقوع في براثن
بروسيا .

وتأثرت كاترين بحججهم ، وأخذت تتحرق شوقاً لأن تبوئ وطنها الثاني
مكاناً في السياسة يتفق ومكانها على الخريطة . فلم ينقض عام على تقلدها السلطة
حتى انطلقت إلى سياسة خارجية لا ترضى في طموحها بأقل من جعل روسيا
الدولة المحورية على القارة . كتبت إلى الكونت كيزرلنج ، سفيرها في وارسو
تقول « أقول لك ان هدفي أن أرتبط بروابط الصداقة مع جميع الدول ، في
تحالف مسلح ، حتى أستطيع على الدوام أن أقف في صف المظلوم ، وبهذا
أصبح الحكم لأوروبا (٧٠) .

وأنت عليها فترات كانت فيها قاب قوسين من هدفها هذا . وآية ذلك أنها
صعبت روسيا من حرب السنين السبع فلأنها في الواقع حسمت ذلك الصراع
الذي شمل القارة كلها لصالح فردريك . وفي عام ١٧٦٤ أبرمت مع فردريك
معاهدة كانت نذيراً بتقطيع أوصال بولنده . ثم استغلت حاجة الدنمرك إلى
تأييد روسيا لها ضد السويد لتهمين على سياسة الدنمركيين الخارجية . وفي عام
١٧٧٩ كانت حكماً بين فردريك ويوزف في معاهدة تشن ، وأصبحت
حامية الدستور الإمبراطوري الألماني . وفي ١٧٨٠ ربطت الدنمرك والسويد
وبروسيا والنمسا والبرتغال بالروسيا في « عصبة حياد مسلح » لحماية السفن
المحايدة في الحرب الدائرة بين إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية ، فتقرر
ألا تتعرض السفن المحايدة للهجوم من أى من الطرفين المحاربين ما لم تحمل
ذخائر حربية ؛ وأن الحصار لكي يكون شرعياً ولكي يحترم يجب أن يكون
حقيقياً لا مجرد إعلان على الورق .

وقبل أن قلبت الأحلاف ذلك القلب الثاني بزمن طويل بدأ الصراع
الطاحن على التسلط على البحر الأسود . وقد نشأت أول حروب كاترين

الركية نتيجة ثانوية غريبة لغزوها لبولنده . ذلك أنها كانت قد أرسلت هناك جيشاً لإعانة غير الكاثوليك في كفاحهم لنيل حقوق متساوية مع الأغلبية الكاثوليكية ؛ وحمل الكاثوليك سفيراً بابوياً على أن يفهم تركيا أن فرصتها حانت لتهاجم روسيا ؛ وأيدت فرنسا الاقتراح ، وحرضت السويد وخان القرم على الانضمام للهجوم ^(٧١) . وحزن فولتير على امبراطورته التي أحرق بها الخطر . وكتب إليها يقول «إن تجنيد سفير بابوى الأتراك في حربه الصليبية عليك لموضوع جدير برواية هزلية إيطالية عنوانها « مصطلنى الحليف الفاضل للبابا ! » ، فالموقف كاد يغريه بأن يكون مسيحياً . لا بل انه في خطاب أرسله إلى كاترين في نوفمبر ١٧٦٨ اقترح عليها حرباً مقدسة على الكفار .

« إنك تكرهين البولنديين على أن يكونوا متسامحين سعداء على الرغم من سفير البابا ، ويبدو أنك تأقن من المسلمين عنفا . فإذا شنوا عليك الحرب فربما تبلورت فكرة بطرس الأكبر في جعل الآستانة عاصمة الأمبراطورية الروسية . . . وفي ظنى أنه لو قدر على الأتراك أن يطردوا من أوروبا يوماً فسيكون هذا على أيدي الروس . . . فليس يكفي إذلالهم ؛ بل يجب ردهم إلى موطنهم إلى الأبد ^(٧٢) .

ورفضت السويد أن تشارك في الهجوم على روسيا ، ولكن تنار القرم اجتاحتوا مستعمرة «الصرى الجديدة» الروسية ، الحديثة ، (يناير ١٧٦٩) . وزحف جيش تركى عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل صوب بودوليا لينضم إلى جيش الاتحاد البولندى . ورفضت كاترين أن تسحب قواتها من بولنده . وجردت ثلاثين ألف مقاتل يقودهم ألكسندر جولتسين وبيوتر روميا لتسييف لهزيمة التنار ورد الترك ؛ فلما قيل لها إن عدد هؤلاء الترك هائل أجابت « إن الرومان لم يكونوا يعاؤون بكثرة أعدائهم ، إنما كانوا يسألون ، أين هم ؟ » ^(٧٣) . ورد التنار على أعقابهم ، واستولى الروس على آزوف وتاجانروج شمالى الدون ؛ وهزم سبعة عشر ألف روسى ١٥٠,٠٠٠ تركى فى كاجول (١٧٧٠) وتقدم روميانتسيف حتى بلغ بوخارست ، حيث استقباه السكان الأرثوذكس

مظاهر الفرح والتهليل . وفي ١٧٧١ اجتاح فاسيلي ميخايلوفتش دولجوروكي القوم وقضى على الحكم التركي هناك .

وأكثر حتى من هذا إثارة للعجب والأعجاب جرأة الكسي أورلف ، الذى قاد أسطولاً روسياً نحر به عباب المانش ، والأطلنطى ، والبحر المتوسط ، وهزم الأسطول التركى تجاه خيوس ، وأباده فى خزمى (يوليو ١٧٧٠) ؛ غير أن الضرر الذى لحق بمراكبه كان فادحاً فلم يتح له مواصلة انتصاراته .

على أن أحداثاً أخرى لم تبعث مثل هذه البهجة فى فؤاد كاترين . من ذلك أن طاعوناً تفشى فى الجيش الروسى على طول الدانوب ثم ارتد إلى موسكو حيث كان يحصد ألف روح كل يوم فى صيف ١٧٧٠ . وكانت عليمه بأن فردريك ينظر باستنكار إلى امتداد ملكها وسلطانها ؛ وأن يوزف الثانى يزعمه تقدم روسيا إلى حدود النمسا فى البلقان ؛ وأن فرنسا لاترك حجراً لاقلبه دعماً لحليفها تركيا ؛ وأن انجلترا ستقاوم بشدة تسلط روسيا على البوسفور ؛ وان السويد إنما تبرص بها الدوائر . فدعت كاترين الترك إلى مؤتمر ، فحضروا ، ولكنهم حزنوا لأصرارها على استقلال القرم ؛ وفى ١٧٧٣ استؤنفت الحرب .

وفى يناير ١٧٧٤ مات مصطفي الثالث ؛ وقرر خلفه أن تركيا قد بلغت من الفوضى والإرهاق حداً يهدد وجودها كدولة أوربية . فاعترفت تركيا بمقتضى صلح كيجوق قينارجى (فى رومانيا) ٢١ يوليو ١٧٧٤ باستقلال القرم (التي ظلت تحت حكم التتار) ، ونزلت لروسيا عن آزوف ، وكوش ، وبنيكالى ، وكلبورون (على مصب دنيبر) . وفتحت البحر الأسود والبوسفور والدردنيل للمراكب الروسية ، ودفعت لروسيا تعويض حرب قدره ٤,٥٠٠,٠٠٠ روبل ، ومنحت العفو للمسيحيين الذين شاركوا فى ثورات على حكامهم الأتراك ، واعترفت بحق روسيا فى حماية المسيحيين فى تركيا . وكان هذا فى جملة من أميز المعاهدات التى أبرمتها روسيا فى تاريخها (٧٤) . فقد غدت روسيا الآن من دول البحر الأسود ؛ وتركت

القرم وغيرها من أقاليم التتار في جنوبي روسيا مفتوحة أمام الغزو الروسي المبكر ، واستطاعت الامبراطورة الشاكة أن تظهر بمظهر المدافعة عن الإيمان . وراحت كاترين — بعد أن أسكرها النصر — تحلم بتحرير اليونان — أعنى بفتحها ، وبتتويج حفيدها قسطنطين في الأستانة رأساً لامبراطورية جديدة . وأبهجت فؤاد فولتير الشائخ برؤى الألعاب الأولمبية وقد ردت إلى مجدها التليد ؛ فكتبت إليه تقول «سوف تجعل ممثلين يونانيين يمثلون التراجيديات اليونانية القديمة في مسرح (ديونيسيوس) بأثينا» . فلما تذكرت الجيوش والخزائن التي استنفدت أضافت : «على أن أمارس الاعتدال ، وأقول إن السلم خير من أروع حروب الدنيا» (٧٥) .

وأخذت الآن تحل محل فردريك كأشهر ملوك أوروبا ، وتعجب الناس جميعاً من سعيها الحثيث لتحقيق أهدافها ، ومن الامتداد المرعب لسلطانها ، وسافر يوزف الثانى امبراطور النمسا ، الذى طالما انحنى لعبقرية فردريك ، إلى موجيليف ، ومنها أكمل الرحلة الطويلة إلى سانت بطرسبرج ليلتقى بالقيصرة ويسعى إلى التحالف معها . وفى مايو ١٧٨١ أبرمت مع يوزف ميثاقاً للعمل الموحد فى بولنده وضد تركيا .

وكان بوتمكين فى غضون هذا يبني لنفسه الشهرة فى الجنوب . ذلك أنه نظم وسلح وأطعم جيشاً جديداً عدته ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وبني أسطولاً للبحر الأسود ، له موانئ فى سباستبول وأودسا وترسانة فى خرسون ، واستعمر أقطار روسيا الجنوبية ذات المستوطنات الضئيلة ، وأسس المدن والقرى ، وأقام المصانع ، وزود المستعمرين بالماشية والآلات والبزار — وكل هذا ليوفر قواعد للتموين فى حملة حربية تضيف القرم إلى تاج كاترين ، وربما ليظفر بتاج لنفسه . وتشاجر تنار القرم وانقسموا ، فالأن بوتمكين زعماءهم بالرشا ، فلما غزا شبه الجزيرة فى النهاية (ديسمبر ١٧٨٢) لم يلق من المقاومة إلا أقلها ؛ وفى ٨ أبريل ١٧٨٣ ، ورغم احتياجات تركيا عديمة الجدوى ، ابتلعت مملكة الروس القرم . ورقى بوتمكين مشيراً ، ورئيساً للكلية الحربية ، وأميراً لطورس ، وحاكماً عاماً للقرم . ونفحته الامبراطورة فوق هذا كله

بمكافأة من ١٠٠,٠٠٠ روبل ، أنفقها بولتمكين على الخليلات والشراب والطعام .

ورأت كاترين هي أيضاً ان الوقت قد حان لشيء من الاسترخاء . فجمعت بين اللهو والعمل بترتيبها «رحلة ملكية» فخمة على الياكس والماء تفتش خلالها على فتوحها وتترك انطباعاً قوياً في نفوس هذه الأقاليم — وأوروبا كلها — براء بلاطها وأمهته . وفي ٢ يناير ١٧٨٧ ، غادرت القصر الشتوى مدثرة بفرائها وشرعت في رحلتها الطويلة في «برلينيه» أى مركبة مقفلة من الكبر بحيث تحتوى — فضلاً عن شخصها الذى اتسعت أبعاده الآن — عشيقها مامونوف صاحب الخطوة آئله ، وكبيرة وصيفاتها ، وكلباً صغيراً ، ومكتبة صغيرة . وتبعها أربع عشرة عربية و ١٧٠ مركبة جلبد ، تحمل سفراء النمسا ، وبريطانيا ، وفرنسا — كوبننزل ، وفنرهربرت ، والكونت سييجور — مضافاً إليهم الأمير دلين وجيش من الموظفين والبطانة والموسيقين والخدم . وكان بولتمكين قد سبقها بأيام ليعدها الطريق ، وليضيئه بمئات المشاعل ، وليرتب لكل ليلة وجباتها وأماكن لنوم الجميع . وكان الموكب إذاً مر بمدينة كبرى استراح يوماً أو يومين ريثما تلتقى القيصرة بوجوه المدينة ، وتستعرض أحوالها ، وتوجه أسئلتها ، وتوزع اللوم أو المكافأة . وبدأت كل مدينة على الطريق في أحسن مظهر عملا بتحذيرات بولتمكين وتعليقاته ، فاغتسلت وتزينت كما لم تفعل قط من قبل ، سعيدة ولو ليوم واحد في حياتها .

وفي كييف أشرف بولتمكين على نقل البلاط المتنقل إلى سبع وثمانين سفينة كان قد أعدها وزينها . وعليها أبحر الراكب الامبراطورى هابطاً الدنيبر . وعلى طول النهر شاهدت كاترين «القرى البوتمكينية» التى هيأها أمير طورس الأريب وجلاها ليدخل السرور إلى قلبها ، وربما ليترك في نفوس الدبلوماسيين انطباعاً قوياً عن ثراء روسيا . وبعض هذا الثراء ارتجله بولتمكين ، وبعضه كان حقيقياً . «أما أنه شيد القرى الكاذبة على الضفتين ، ودرب الفلاحين ليخلقوا وهماً بما هم عليه من تقدم ، فذلك من شطحات خيال دبلوماسى سكسونى » (٧٦) . فقد قام الأمير دلين بعبدة رحلات

على الشاطئ ليستكشف ما وراء الواجهة ، فقال إنه رغم أن بولنديين لجأ إلى بعض الحيلة ، فإنه (أى دلين) راعته «المنشآت الفخمة وهى بعد فى مهدها ، والمصانع النامية ، والقرى ذات الشوارع المنتظمة التى تحفها الأشجار» (٧٧) . ولعل كاترين نفسها لم تنخدع ، ولكنها ربما استنتجت كما استنتج سيجور ، أنه حتى لو كان نصف ثراء تلك المدن ونظافتها مظهرًا زائلاً ، فإن حقيقة وجود سباستبول فعلاً — المدينة والقلاع والميناء ، وكلها بنى على شواطئ القرم فى عامين — هذه الحقيقة كفت لجعل بولنديين جديراً بالشناء . وقد وصفه الأمير دلين الذى كان يعرف تقريباً كل إنسان ذى شأن فى أوربا بأنه «أعجب رجل التفتت به فى حياتى» (٧٨) .

وفى كانيوف جاء ستانسلاس بونيا توفسكى ملك بولنده ، ليقدم فروض الولاء للمرأة التى منحته حبها وعرشه . وفى موقع أبعد على الدنيبر الأدنى ، عند كايديا كى ، انضم يوزف الثانى إلى الموكب الذى اتخذ طريقه من ثم برا إلى خرسون فالقرم . هنالك داعبت الأمباطورة ، والأمباطور ، والحاكم العام ، أحلامهم بطرد الترك من أوربا ، فحلمت كاترين بالاستيلاء على الآستانة ، ويوزف بابتلاع البلقان ، وبولنديين بتولى عرش داشيا (رومانيا) . ونصحت انجلترا وبروسيا السلطان عبد الحميد بأن يوجه ضربته إلى الروس فى غفلة منهم قبل أن يستكملوا استعداداتهم الحربية (٧٩) . وكان فى وقاحة السفير الروسى فى الآستانة ما هياً لتركيا حافزاً إضافياً ، فحبسه السلطان ، وأعلن الجهاد ، وطالب برد القرم ثمناً للصالح . وفى أغسطس ١٧٨٧ عبر الجيش التركى الرئيسى الدانوب وزحف على أوكرانيا .

لقد تعجل بولنديين فى الإعلان عن فرحه ؛ ذلك أن روسيا لم تكن مستعدة بعد للامتحان النهائى ؛ لذلك نصح الامباطورة بالتخلى عن القرم . ولكنها وبجته على جبهته الذى لم تعهده فيه ، ثم أمرته هو وسوفوروف وروميا نسييف أن يعدوا كل القوات المتاحة لهم وينطلقوا للقاء الغزاة ؛ أما هى فقد انسحبت إلى سانت بطرسبرج . ودحر سوفروف الترك فى كلبورون ، وحاصر بولنديين أوشاكوف المشرفة على منافذ دنيبر وبوج . وبينما كان الجهاد والحرب

الصليبية يواجه أحدهما الآخر في جنوبي روسيا ، قررت السويد أن الفرصة وانتها أخيراً لاسترداد ما فقدت من أقاليم . فجدد جوستاف الثالث حلفاً قديماً مع الترك بعد أن شجعتهم انجلترا وبروسيا ^(٨١) ، وطالب كاترين برد فنلنده وكاريليا للسويد ، والقرم لتركيا . وقد انفصل الحديث عن هذه الحرب في موضع لاحق ، أما الآن فحسبنا أن نقول إن أسطولا سويدياً أنزل بالروس في البلطيق هزيمة فاصلة في ٩ يوليو ١٧٩٩ ، وكان قصف المدفعية السويدية يسمع من القصر الشتوي ، وفكرت كاترين في إخلاء عاصمتها . على أن مفوضيها ما لبثوا أن اقنعوا السويد بأن تبرم الصلح (١٥ أغسطس ١٧٩٠) .

وغدت كاترين الآن حرة في تركيز قوات ضد الترك ، وانضمت النمسا إلى روسيا في الحرب . وأنهى بوتمكين حصار أوشاكوف بأن أمر رجاله بالهجوم مهما كان الثمن . وكلف النصر الروس ثمانية آلاف قتيل ، وختمت المعركة الضارية بمذبحة أئت على الضحايا دون تمييز (١٧ ديسمبر ١٧٨٨) وتقدم بوتمكين ليستولى على بندر ، واستولى النمساويون على بلغراد ، ودحر سوفروف الأتراك في رمنيك (٢٢ سبتمبر ١٧٨٩) . وبدأ أن تركيا مقضى عليها بالفناء .

على أن الدول الغربية أحسست أن الموقف يدعو إلى العمل الموحد ضد كاترين أن أريد ألا يقع البوسفور — ذلك المعقل الاستراتيجي — في يدها فتصبح روسيا السيد المتسلط على أوروبا . وبعد موت فردريك الأكبر (١٧٨٩) رأى خليفته فردريك ولیم الثاني في فزع تحرك روسيا صوب الآستانة ، وتحرك النمسا في البلقان ؛ وبين روسيا والنمسا وهما بهذه القوة الجديدة سببت بروسيا تحت رحمتها . وعليه في ٣١ يناير ١٧٩٠ ربط حكومته مع الباب العالي في ميثاق ألزمه بأن يعلن الحرب على روسيا والنمسا جميعاً في الربيع ، وبألا يضع السلاح إلا إذا ردت لتركيا كل أقليمها التي خسرتها .

وبدا أن المد السياسي يتحول ضد كاترين . فقد أضعف قوة يوزف الثاني نشوب الثورة في الأراضي الواطئة النمساوية وانتشار الفوضى في المجر ، ثم مات في ٢٠ فبراير ١٧٩٠ ، وأبرم خلفه هدنة مع الأتراك . وحث

انجلترا وبروسيا كاترين مرة أخرى على عقد الصلح على أساس الاحتفاظ بكل الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في الحرب ؛ ولكنها أبت ؛ ذلك أن استيلاءها على أوشاكوف كان قد فتح الطريق أمام روسيا إلى البحر الأسود ، فهي لا تريد أن تتخلى عن هذا الكسب الحيوي . ثم إن قوادها كانوا يسرون من نصر إلى نصر ، وتوجوا انتصاراتهم باستيلاء سوفوروف وبوتمكين على مدينة اسماعيل (٢٢ ديسمبر ١٧٩٠) ؛ وقد خسر الروس في سبيل الاستيلاء على هذا المعقل التركي الواقع على الدانوب عشرة آلاف مقاتل ، وخسر الترك ثلاثين ألفاً . وبعد هذه الوليمة الدموية انتكس بوتمكين الذي انهكته الحرب إلى ضرب من الكسل المترف والسفاح المخزى مع بنات أخيه ؛ وفي ١٥ أكتوبر ١٧٩١ مات على طريق قريب من ياسي . وأغمى على كاترين ثلاث مرات في اليوم الذي سمعت فيه نبأ موته .

وفي مارس ١٧٩١ اقترح وليم بت الابن على البرلمان إرسال إنذار نهائي إلى روسيا يطالها بأن ترد لتركيا كل الأقاليم التي استولت عليها في الحرب الراهنة ، واقترح إرسال أسطول بريطاني إلى البلطيق نذيراً بالحرب . ولم تجب كاترين ، أما البرلمان فقد ثني بت عن إنفاذ مشروعه حين سمع التجار البريطانيون يتحسرون على ضياع تجارتهم مع روسيا . وأما تركيا فقد كفت عن الصراع بعد أن انهكتها الحرب ، ف وقعت في جاسي (٩ يناير ١٧٩٢) معاهدة أثبتت سيطرة روسيا على القرم وحوضي دنيبر وبوج . وهكذا لم تصل كاترين إلى الآستانة ، ولكنها بلغت ذروة حياتها كأقوى حاكم في أوروبا ، وألمع امرأة في قرنها .

٧ - المرأة

أكانت امرأة ، أم هولة ؟ رأينا أنها في مستهل حكمها كانت فاتنة الجسد ، وفي عام ١٧٨٠ كانت قد سمت ، ولكن هذه السمعة لم تفعل بها شيئاً إلا إضافة القتل إلى العظمة . وقد وصفها الأمير دلين (الذي كان من أوائل من لقبوها «الكبرى» (٨٤) وصفاً مهذباً فقال :

« كانت في ١٧٨٠ لاتزال حسنة الصورة ، وفي استطاعة الناظر إليها ن يستنتج أنها كانت فيما مضى رائعة الجمال أكثر منها وسيمة . ولم يكن بالمرء حاجة إلى فراسة ليقراً على جبينها ، كما يقرأ في كتاب ، العبقريّة والعدالة والشجاعة والعمق ورباطة الجأش ولطف الطبع والهدوء والتصميم . وقد اكتسبت صدرها الجميل على حساب خصرها الذي كان يوماً ما شديد النحول ؛ ولكن الناس عادة يسمنون في روسيا . . . ولم يلحظ المرء قط أنها قصيرة القامة » (٨٢) .

وقد صورها كاستيرا في كتابته عنها عقب موتها بأنها كانت ترتدى ثوباً أخضر في احتشام . « كان شعرها المبدر ببودة خفيفة ، يطفو على كتفها ، وتعلوه قلنسوة صغيرة مرصعة بالماس . وفي سننها الأخيرة ألفت أن تستعمل قدراً كبيراً من الروج ، لأنها كانت لاتزال تطمع في ألا تسمح لآثار الزمن أن تبدو على وجهها ، ومن المحتمل أن هذا الطموح وحده هو الذي دعاها للعيش بمنتهى الاعتدال » (٨٣) .

كانت مغرورة ، واعية في غير موارد بثقافتها وسلطتها . قال يوزوف الثاني لكاونتز « إن الغرور معبودها ، وقد أفسدها الحظ وثقافتها المسرقة » (٨٤) . وفي رأى فردريك الأكبر أن كاترين لو كانت تراسل الله لادعت لنفسها مرتبة مساوية له على الأقل (٨٥) . ومع ذلك كانت تتحدث إلى ديدرو كما يتحدث « رجل إلى رجل » ، ورجت فالكونيه أن يسقط من حديثه لها عبارات المجاملة . وكانت (باستثناء بعض جرائم القتل المحتملة ومذابح الحرب المبررة) لاتقل لطفاً وأنساً عن تشارلز الثاني ملك إنجلترا أو هنري الرابع ملك فرنسا . وفي كل يوم كانت تلقى من نوافذها الخبز لآلاف الطيور التي تجيئها بانتظام لتطعم (٨٦) . وفي سنوات ملكها الأخيرة كانت تطلق العنان بين الحين والحين لنوبات غضب لاتلبق بصاحبة السلطان المطلق ، ولكنها حرصت على ألا تصدر أمراً أو توقع ورقة وهي في هذه النوبات البركانية ، وسرعان ما أخذت تشعر بالحجل من هذه التفجرات ، وأخذت

نفسها بالتحكم في أعصابها . أما عن شجاعتها فقد نبذت أوروبا كل شك فيها .

كانت شهوانية بلا مرأ ولا مبالاة ، ولكن غرامياتها لا تؤذيها بشيء بقدر ما تؤذيها « حديقة طباء » لويس الخامس عشر . وقد درجت على ما درج عليه كل حكام زمانها فأخضعت الأخلاق للسياسة ، وأخمدت المشاعر الشخصية إذا عرقلت توسيع رقعة دولتها . وحيث انعدم مثل هذا الصراع كان لها كل حنان المرأة ورقتها ، تحب الأطفال ، وتلاعبهم وتمرح معهم ، وتعلمهم ، وتصنع لهم اللعب . وكانت في رحلاتها تحرص دائماً على أن يطعم البسائقون والخدم كما ينبغي أن يطعموا^(٨٧) . وبين الأوراق التي وجدت على منضدتها بعد موتها قبرة كتبها لنفسها ، « كانت نغفر في يسر ، ولا تبغض أحداً ، وإذا كانت متساعجة ، متفهمة ، ذات طبع مرح ، فقد أوتيت روحاً جمهورية وقلباً عطوفاً »^(٨٨) .

ولم تكن عطوفاً على ولدها البكر ، من جهة لأن بولس أخذ منها بعد ولادته بقليل ، وقام على تربيته بانين وغيره تحت إشراف اليزابت ؛ ومن جهة لأن المؤامرات التي دبرت لخلعها كانت أحياناً تنوى جعله إمبراطوراً تحت الوصاية ؛ ومن جهة لأن بولس طالما نأخمره الظن بأن أمه قاتلة بطرس ؛ كذلك لأن بولس « كان يظليل التفكير دائماً في سرقة حقوقه في خلافة أبيه الافتراضية على العرش » . ولكن كاترين تعلق ببابي بولس الساحرين ألكسندر وقسطنطين ، وأشرفت بشخصها على تعليمهما ، وحاولت إبعادهما عن تأثير أبيهما ، وبيتت أن يرث تاجها ألكسندر لا بولس^(٨٩) . أما بولس الذي سعد بزواجه الثاني فكان ينظر في اشمئزاز واضح إلى سلسلة العشاق الذين أمتعوا أمه واستنزفوا موارد الدولة .

أما من الناحية العقلية فقد بزت كاترين كل عشاقها . كانت ترضى جشعهم ، ولكن ندر أن سمحت لهم بتقرير سياستها . وقد أحسنت استيعاب الأدب الفرنسي إلى حد أتاح لها مراسلة أقطابه كما يرسل الواحد من جماعة

الفلاسفة صاحبه ؛ لابل إن خطاباتهما لفولتير كانت تنافس خطاباته لها فطنة وتمييزاً ، وتضارعها رشاقة وخفة دم . وكانت رسائلها كثيرة العدد كثرة رسائل فولتير مع أنها كتبتها خلال فواصل دسائس القصر ، والثورات الداخلية ، والدبلوماسية الحرجة ، والحروب التي غيرت خرائط الدول . وكان حديثها يجعل ديدرو دائم التنبيه والاستعداد ، ويحرك مشاعر جريم إلى حد الانتشاء . « كان على المرء في تلك اللحظات أن يرى هذا الرأس الغد الذي هو مزاج من العبقرية والحسن حتى يكون فكرة عن النار التي تحركها ، والسهام التي تطلقها ، والهجمات التي تلاحق . . . الهجمة منها الهجمة . . . ولو كان في طاقى أن أدون هذه الأحاديث كلمة كلمة لأتيح للعالم كلها قطعة نفيسة وربما فريدة في تاريخ العقل البشرى ^(٩١) . على أنه كان يشوب هذا السيل الدافق من أفكارها اضطراب وعدم استقرار سريعان ؛ فكانت تندفع بأسرع مما ينبغي في، مشاريع لم تمنع التفكير فيها ، وكانت أحياناً يهزمها إلحاح الأحداث وكثرة الواجبات . ولكن النتيجة حتى مع هذا كانت هائلة . »

ويبدو أمراً لا يصدق أن نجد كاترين في حياة اضطربت بمثل هذه الأحداث المثيرة سياسية كانت أم حربية وقتاً تكتب فيه قصائد الشعر ، والأخبار التاريخية ، والمذكرات ، والتمثيلات ، ونصوص الأوبرات ، ومقالات المجلات ، وحكايات الجن ، ورسالة علمية عن سيبيريا ، وتاريخاً للأباطرة الرومان ، ومذكرات مستفيضة عن « تاريخ روسيا » وفي ١٧٦٩ - ١٧٧٠ رأت تحرير مجلة هجائية دون أن تعلن عن اسمها ، وكانت هي أهم محرريها . ومن صورها الأدبية صورة وصفت منافقاً في الدين يحضر القداس يومياً ، ويشعل الشموع أمام الصور المقدسة ، ويتمتم بالصلاوات في فترات متقطعة ، ولكنه يغش التجار ، ويفترى على الجيران ، ويضرب الخدم ، ويندد بالرديلة الفاشية ويتحسر على الأيام الحالية الطيبة ^(٩٢) . أما حكاية الجن التي كتبتها كاترين ، واسمها « الأمير خلور » فتحكى عن شاب خاض مغامرات خطيرة بحثاً عن وردة خرافية بلا شك ، ليكشف في النهاية أنه ليس هناك وردة كهذه إلا الفضيلة ؛ وقد أصبحت هذه القصة من عيون القصص في الأدب الروسى ، وترجمت إلى لغات كثيرة ؛ وكانت

اثنان من مسرحياتها مآسى تاريخية تقلد شكسبير ؛ ومعظمها فكاهيات بسيطة تسخر من المشعوذين والمغفلين والبخلاء والمتصرفين والمسرفين ، وتهزأ بكالسترو ، والماسون ، والمتعصبين الدينيين . هذه التمثيليات كان يعوزها الدقه والصقل ، ولكنها أبهجت الجماهير مع أن كاترين أخفت أنها مؤلفتها ، وقد وضعت هذه العبارة على ستار المسرح الذى شيدته فى الهرمтаж « انه يهذب العادات بالضحك » ؛ وكان هذا خير تعبير عن هدف كوميدياتها . أما أفضل مسرحياتها ، واسمها « أوليج » فكانت تتابعاً رائعاً لمشاهد من تاريخ روسيا ، أشاع فيها الحيرية سبعة مؤد فى الرقصات والبالهات والألعاب الأولمبية . وكان جل إنتاج كاترين الأدبى يراجع السكربتورون ، لأنها لم تتمكن قط من الهجاء أو النحو الروسى ، ثم أنها لم تأخذ هوايتها للتأليف مأخذ الجلد الشديد ؛ ولكن الأدب استمد الشجاعة من قدوتها الامبراطورية وأضنى على ملكها عظمة نهائية ومجداً تشوبه الشواذب .

٨ — الأدب

أخذت روسيا تشعر بعدم نضجها الفكرى ، فراح جيش من المؤلفين يقلدون فى تواضع النماذج الأجنبية ، أو يترجمون آثاراً حظبت بالشهرة فى فرنسا أو انجلترا أو المانيا . وجادت كاترين بخمسة آلاف روبل من جيبتها الخاص لتشجيع هذا السيل الدخيل ، وترجمت هى نفسها قصة « بلزير » لمارمونتييل . فلما تحمس الروس للمشروعات العريضة ترجم رحمانينوف ، أحد ملاك الأرض فى تامبوف ، أعمال فولتير ، وترجم فيريفكين ، رئيس كلية قازان ، إلى الروسية « موسوعة » ديدرو . وترجم غير هؤلاء شكسبير والكلاسيكيات اليونانية واللاتينية ، « وأورشليم المحررة » لتاسو . . .

أما أنجح شعراء العهد فهو جافريل رومانوفتش درزايفن . ولد لأسرة رقيقة الحال فى أورنبرج الشرقية ، وكان الدم التتارى يجرى فى عروقه ، فخدم فى فوج بريوبرازنسكى عشرة أعوام ، ورأى كاترين ترقى إلى ذرى السلطة ، وشارك فى إخماد فتنة بوجاشيف ضابطاً فى الجيش ، وشق طريقه صعباً إلى عضوية مجلس الشيوخ . وحين لاحظ درزايفن أن الامبراطورة

أطلقت اسم «فليتسا» على أميرة خيرة في قصة «الأمير خلور» ، أطلق هذا الاسم في قصيدة عاطفية شهيرة (١٧٨٢) على «الملكة الشبيهة بالآلهة لقبيلة قرغيز - قازاق» وتوسل إلى هذه السلطانة قائلاً «علمني كيف أجد الوردة التي لا شوك لها . . . وكيف أعيش حياة تجمع بين اللذة والاستقامة» (٩٢)

وحين ناجى الشاعر فليتسا بأن «من قلمها تفيض السعادة على كل البشر الفانين» كان يمتدح كاترين على نحو واضح . وحين لام نفسه «على النوم حتى الظهر ، وتدخين التبغ ، وشرب القهوة . . . وجعل الدنيا ترتعد لنظراتي . . . والانغماس في ولائم فاخرة على مائدة تتألق بالفضة والذهب» ، عرف البلاط كله أن هذه غمزة أراد بها بوتسكين . وقد ارتفع درزايف إلى قمة النشوة في مديح «الإمبراطورة» فليتسا ، التي «تخلق النور من الظلمات ، ولا تؤذي أحداً ، وتقضي عن الهنات ، وتدع الناس يتكلمون كما يشاءون ، وتكتب القصص الخرافية لتعلم شعبها ، وتعلم خلور الإنجليزية» (أي حفيدها ألكسندر) . ويختتم الشاعر بقوله : «أتوسل إلى النبي العظيم أن يسمح لي بلمس تراب قدميك ، وأن استمتع بذلك الجدول العذب جدول ألفاظك ولحظك . أني أنضرع إلى قوى السماء أن تنشر أجنحتها الزرقاء وتحرسك في الخفاء . . . وأن يسطع صيت أعمالك في الأجيال القادمة سطوع النجوم في السماء» (٩٣) . وأكد درزايف أنه لا يطعم في جزاء على كل هذا المديح العطر ، ولكن كاترين رفته ، وما لبث أن قرب منها قرباً بصره بعيوبها ؛ فكف عن كتابة المدايح . وانجه إلى عرش أسى ونظم «قصيدة غنائية للإله» ، مهتماً إياه تعالى على كونه «ثلاثة - في - واحد» وعلى حفظه السماوات في مثل هذا النظام الجميل . وكان أحياناً يهبط إلى الميتافيزيقا ، ويردد برهان ديكرارت على وجود الله فيقول : «أنا بالطبع موجود ، وإذن فأنت موجود» (٩٤) . وقد ظلت هذه القصيدة الغنائية نصف قرن لا ينافسها شعر في شعبيتها حتى جاء بوشكين .

وقد فاجأ دنيس إيفانوفتش فون فيزين العاصمة بكوميديتين رشيقتين هما «اللواء» و «القاصر» . ونجحت الثانية نجاحاً كاملاً حتى أن بوتسكين نصح المؤلف قائلاً «مت الآن ، أو لا تكتب شيئاً بعد اليوم» - بمعنى أن أى شيء يكتبه بعد هذا سيضعف من شهرته (٩٥) . وقد رفض فيزين النصيحة ورأى

تحقيق النبوة التي احتوتها . وفي سنته الأخيرة جاب غربي أوروبا وأرسل إلى وطنه بعض رسائل ممتازة احتوت إحداها نبوءة فيها رثين الإفتخار «نحن (الروس) بادئون ، أما هم (يقصد الفرنسيين) فمتهون» (٩٦) .

وأطرف شخصية في أدب عصر كاترين هو نيكولاى إيفانوفتش نوفيكوف . فقد تطور هذا الفتى بعد أن طرد من جامعة موسكو أكسله وتخلفه ليصبح رجلاً ذا نشاط ذهني لا ينى . ففي الخامسة والعشرين (١٧٦٩) ، في سانت بطرسبرج ، رأس تحرير مجلة «الدبور» التي أطلق عليها هذا الاسم بحث شيطاني ليعارض دورية سوماروكوف «الجملة النشيطة» . وقد هاجم نوفيكوف بأسلوبه المرح الفساد الذي استشرى في الحكومة ، وهاجم الإلحاد الفولتيرى السائد في الطبقات العليا لأنه مدمر الأخلاق والشخصية ؛ وامتنح بالمقارنة ما افترض وجوده من إيمان الروس المسلم وأخلاقهم المثالية قبل بطرس الأكبر . «وكان قدامى الحكام الروس قد توقعوا أن إدخال الفنون والعلوم سيقضى قضاء مبرماً على أئمن كنز مملكة الروس — وهو أخلاقهم» (٩٧) . هنا أيضاً كان روسو يخوض حرباً مع فولتير . وحدثت كاترين «الدبور» بنظرات متجهمة ، فاحتجبت في ١٧٧٠ . وفي ١٧٧٥ انضم نوفيكوف إلى الماسون الأحرار ، الذين كانوا ينزعون في روسيا إلى الغيبية ، والتقوية ، والأوهام «الروزكروشية» (*) بينما اخوانهم في فرنسا يداعبون الثورة . وفي ١٧٧٩ انتقل إلى موسكو ، واضطلع بأعمال مطبعة الجامعة ، ونشر في ثلاث سنوات من الكتب عدداً يفوق ما أخرجته تلك المطبعة في أربع وعشرين سنة . وحصل بمعونة مالية من صديق له على مزيد من المطابع ، وكون داراً للنشر ، وفتح مكتبات لبيع الكتب في جميع أرجاء روسيا ، وأذاع نشر إنجيله في الدين والإصلاح . وأسس المدارس ، والمستشفيات ، والمستوصفات والبيوت النموذجية للعمل .

فلما أحالت الثورة الفرنسية كاترين من حاكمة مستبدة مستنيرة إلى حاكمة

(*) Rosicrucian نسبة لجمعية سرية اشتهرت في القرنين الـ ١٧ والـ ١٨ وزعمت أنها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين . (المترجم)

مستبدة مذعورة ، خشيت أن يكون نوفيكونف بسبيل قلب النظام القائم . فأمرت بلاتون ، مطران موسكو ، أن يفحص أفكار نوفيكونف . وكتب الحبر يقول : «أضرع إلى الله الواسع الرحمة أن يكون هناك مسيحيون مثل نوفيكونف ، لا في القطيع الذي وكله الله وأنت إلى فحسب ، بل في العالم بأسره» (٩٨) . ولكن الإمبراطورة التي ظلت على ربيتها رغم ذلك أمرت بسجن نوفيكونف في قلعة شلوسلبورج (١٧٩٢) . هناك ظل حبيساً حتى ماتت كاترين . فلما أفرج عنه بولس الأول اعتكف في ضيعته بتخفين ، وأنفق سنيه الأخيرة في التقوى وأعمال البر .

أما ألكسندر نيكولايفتش راد شتشف فقد لقي حظاً أشد عثراً . أوفدته كاترين إلى جامعة ليبزج ، فتعرف إلى بعض أعمال جماعة الفلاسفة ، وأثر فيه بنوع خاص كتاب روسو «العقد الاجتماعي» كما أثر فيه فضح رينال لوحشية الأوربيين في استغلال المستعمرات وتجارة الرقيق . وعاد إلى سانت بطرسبرج وهو يضطرم بالمثل الاجتماعية ، فلما وكلت إليه إدارة الجمرك تعلم الإنجليزية ليتعامل مع التجار البريطانيين ، ودرس الأدب الإنجليزي ، وأثر فيه خاصة كتاب ستيرن «رحلة عاطفية» . وفي ١٧٩٠ نشر كتاباً من عيون الأدب الروسي اسمه «رحلة من سانت بطرسبرج إلى موسكو» . وقد أقر الكتاب بالإيمان القويم ، ولكنه ندد بخدع القساوسة التي يحتالون بها على سداجة الشعب ؛ وقبل النظام الملكي ، ولكنه برر الثورة على الحاكم الذي ينتهك «العقد الاجتماعي» بتجاهله للقانون . ووصف تمزيق نظام التجنيد الإجباري لأوصال الأسر ، وبغى السادة على أقنانهم . وقال راد شتشف إنه أخبر في أحد الأماكن بنياً مالك هتك عرض ستين فلاحه عذراء . ثم شمر بالرقابة ودافع عن حرية الصحافة . ولم يكن داعية للثورة ، ولكنه طلب التفهم الرحيم لمن يدعون إليها . وناشد النبلاء والحكومة إنهاء القنينة . «فلترق قلوبكم أيها القساة ؛ حطموا أغلال اخوتكم ، وافتحوا سجون الرق . ان للفلاح الذي يهبنا العافية والحياة الحق في التصرف في الأرض التي يفلحها» (٩٩) .

ومن عجب أن الرقيب أجاز الكتاب . ولكن كاترين خافت في ١٧٩٠ أن يخذل شعبها حذو الثورة الفرنسية . فدونت ملاحظة بضرورة عقاب مغتصب العذارى الستين ، ولكنها أمرت بمحاكمة راد شتشفيت بتهمة الخيانة . ووجدت في كتابه فقرات عن اقتحام الحصون وثورة الجنود على قيصر قاس ، ومدائح للانجليز لمقاومتهم ملكاً ظالماً . فحكم مجلس الشيوخ على المؤلف بالإعدام ؛ وخففت كاترين الحكم إلى النفي عشر سنين في سيبيريا . وسمح الامبراطور بولس الأول لراد شتشفيت بالعودة من المنفى (١٧٩٦) ، ثم دعاه ألكسندر الأول إلى سانت بطرسبرج (١٨٠١) . وهناك انتحر بعد سنة ، لأنه ظن دون مبرر أنه سينفى ثانية . ومصيره ومصير نوفيكيوف من الوصمات الكثيرة التي تلتطخ عهداً رائعاً .

٩ — الفن

صنعت كاترين للفن أكثر قليلاً مما صنعتها للأدب ، لأن الفن لا يستهوى غير الطبقات العليا ، ولا يقرع ناقوس الثورة . ولكن الموسيقى الشعبية كانت ثورية دون قصد منها ، لأن كلها تقريباً تألف من أغان حزينة في مقام صغير وبمصاحبة شاكية باكية ، لا تحكى قصة القلوب التي انفطرت حباً فحسب ، بل الأنفس التي براها الكد والكدح . ونادر أن نسمع النبلاء تلك الأغاني ، ولكنهم استمتعوا بالأوبرات الإيطالية التي جلبها إلى سانت بطرسبرج جالوبى ، وبايزيللو ، وساليرى وتشياروزا ، الذين كانت الدولة تدفع أجورهم كلهم ، أما كاترين نفسها فلم تكون شديدة الحب للأوبرا . قالت « لا أستطيع في الموسيقى أن أميز نغمات غير نغمات كلاي التسعة ، التي يشترك كل منها بدوره في شرف الوجود في حجرتي ، والتي أستطيع التعرف على صوت كل كلب منها عن بعد » (١٠٠) .

ثم اعترفت أيضاً أنها لاتملك القدرة على فهم الفن . وقد بذلت وسعها لترى هذا الفهم في روسيا . فوفرت المال الذى مكن بتسكى من أن يدير بالفعل (١٧٦٤) عجلة أكاديمية الفنون التي أنشئت أيام الزايت (١٧٥٧) . واشترت روائع الفن المعترف بقيمتها في الخارج وعرضتها في قاعات تحفها ،

فدفعت ١٨٠,٠٠٠ روبل ثمناً لمجموعة الكونت فون برول في درسدن ،
و ٤١,٠٠٠ جنيه ثمناً لمجموعة السير روبرت ولبول في هوتن هول ،
و ٤٤٠,٠٠٠ فرنك لمجموعة شوازيل ، و ٤٦٠,٠٠٠ لمجموعة كروزا .
وقد عقدت بهذا كله صفقات رابحة دون أن تدري ، لأن هذه المجموعات
التي التقطتها من هنا وهناك ضمت ألفا ومائة لوحة من أعمال رفايل ،
وبوسان ، وفانديك ، ورمبرانت ، وغيرها من التحف الخالدة التي زادت
قيمتها مع الزمن وهبوط العملة . واستطاعت من طريق جريم وديدرو
(اللذين كانت تتابع نشاط صالونيهما باهتمام) أن تكلف برسم اللوحات فنانين
فرنسيين — أمثال فرنيه ، وشاردان ، وهودون — ونسخت لها كطلبها
بالحجم الطبيعي لوحات جصية من أعمال رفايل في الفاتيكان وبنيت قاعة
خاصة بها في الأرميتاج .

ولم تكلف الفنانين الوطنيين إلا بالقليل ، لأن ذوقها الفرنسي لم يجد
في فن جيلها الروسي غير القليل مما له قيمة باقية . . على أنها قدمت المال
لتعليم وإعالة الطلاب في أكاديمية الفنون وأوفدت عدداً منهم للدراسة في غربي
أوربا . وفي تلك الأكاديمية تخرج رسام أحداث التاريخ أنطون لوزنكو،
ورساما الأشخاص ديمتري ليفتسكي وفلاديمير بوروفيكوفسكي .
أما لوزنكو فقد قضى خمس سنين في باريس وثلاثاً في روما ثم عاد
إلى سانت بطرسبرج (١٧٦٩) ليعلم في الأكاديمية . وقد أثار ضجة بلوحته
المساة « فلاديمير أمام روجنيديا » ، ولكنه — ربما الفداحة واجباته الأكاديمية —
أنفق في أن ينتج الروائع المنتظرة منه ، ثم اختطفه الموت وهو في السادسة
والثلاثين (١٧٧٣) . وأما ليفتسكي فقد استخدمته كاترين ليرسم بعض
الشابات اللاتي كن يدرسن بمعهد سمولني ؛ والنتيجة شاهد بجاهلن الرائع .
وقد سرت اللوحة التي صور فيها كاترين بدانتها تحت أردية فضفاضة .
كذلك جلست لتصورها مدام فيجه لبرون ، وكانت من بين الفنانات
الفرنسيات الكثيرات اللاتي دعتن كاترين لأضفاء الرشاقة الفرنسية على
الفن الروسي .

وأعظم فنانها الذين استفادتهم كان فالكونيه . قدم في ١٧٦٦ . وأقام
في روسيا اثنتي عشرة سنة . وقد طلبت إليه كاترين أن يصمم ويصب

بالبرونز تمثالاً لبطرس الأكبر ممتطياً جواده . وكان قد جلب معه شابة تدعى مارى — آن — كوللو ، كانت النموذج لرأس التمثال الضخم . وتحدى فالكوفيه قوانين الفيزياء بتمثيله الحصان يقفز فى الهواء ، وقائماته الخلفيتان فقط تلمسان أرضاً صلبة ، هى صخرة ضخمة جلبت من كاريليا لترمز إلى المقاومة الهائلة التى تغلب عليها بطرس ؛ وتحفةً للتوازن أظهر فالكوفيه حية نحاسية — رمزاً للحسد — تلدغ ذيل الحصان . وقد احتفظت هذه الرائعة الفنية بتوازنها بينما تغيرت سانت بطرسبرج إلى بتروجراد ثم إلى لننجراد . واستغرق فالكوفيه فى هذا العمل وقتاً أطول مما توقعته كاترين ؛ ففقدت اهتمامها به ، وأهملت المثال ، فعاد إلى باريس وقد خاب أمله فيها ، وفى روسيا ، وفى الحياة .

وفى ١٧٥٨ وفد نيكولا — فرانسوا جيبه من فرنسا ليعلم النحت فى الأكاديمية . وقد نبغ ثلاثة من تلاميذه فى عهد كاترين : تشوين وكوزلوفسكى وشيخدرين . أما تشوين فقد كلفه بتمكين بنحت تمثال « كاترين الثانية » لقاعة قصر ناوريدا المقببة (الروتندا) ؛ وقد وصف الخبراء التمثال بأنه « عديم الحياة بارد^(١١) » ، وكذلك يبدو التمثال الذى نحته تشوين لبوتمكين . أما كوزلوفسكى فقد انتهى إلى مثل هذا الجمود فى المقبرة التى نحتها للمرشاه ، سوفوروف ، وحتى فى تمثاله لآله الحب كيوييد . أما شيخدرين فجعل أعماله أنتجها فى عهد ألكسند الأول : فإلى عام ١٨١٢ ينتمى تمثاله المسمى « الكرتيدات يسندن الكرة السماوية » — وترى فيه امرأة تحمل الدنيا . — وقد تخصص إيفان بتروفتش مارتوس فى التماثيل الجنائزية ، وحفلات الجلبانات فى بطرسبرج بتمثيله « الباكية » ؛ وقد قيل عنه أنه « أبكى الرخام » وقد تخلف النحت الوطنى إلا فى تقليده للطرز الأجنبية . وكانت الكنائس الأرثوذكسية تحرم التماثيل وقنع النبلاء بالفنانين الذين يعثرون عليهم بين أقتناهم .

ولكن المعمار ازدهر فى عهد كاترين ، لأنها صممت على أن تترك بصمتها على عاصمتها . قالت « ان المباني العظيمة تعلن عظمة الحكم ببلاغة لا تنقل عن بلاغة الأعمال العظيمة »^(١٢) . وكتبت فى ١٧٧٩ تقول « أنت تعلم أن هوس البناء أقوى اليوم عندنا مما كان فى أى وقت مضى ، ولم يهدم

زلزال قط عمائر قدر العماثر التي شيدناها . . . وهذا الهوس شيء لعين ، فهو ينضب المال ، وكلما بنينا ازددنا رغبة في البناء ، إنه مرض كالسكر بالخمر » (١١٣) . ومع أنها قالت لفالكوניה « انى لا أعرف حتى كيف أرسم » فقد كان لها رأيها الخاص في الفن ، أو قل رأى تأثر بالخفاثر الرومانية في هر كولانيوم وكتب كاي لوس وفنكلمان . فولت ظهرها للباروك المزوق والروكوك الزاهى ، وهما طرازان سادا في عهد اليزابث ، وفضلت عليهما الطراز الكلاسيكى الجديد الأكثر بساطة ونقاء . وقد عزا إليها بعض معاصريها فضل اصدار التعليقات الواضحة المحددة والرسوم التخطيطية التمهيدية لمعاريها (١١٤) .

فلما افتقدت الفنانين الوطنيين الذين يحققون لها أفكارها ، ولت وجهها شطر غربى أوربا التماساً لرجال ورثوا التقاليد الكلاسيكية . وهكذا قدم جان باتست فالان دلاموت ، الذى شيد لها على نهر نيفا قصر أكاديمية الفنون (١٧٦٥ - ٧٢) وله واجهة بطراز النهضة من آجر مكسو ورواق معمد كلاسيكى ، وداخله سلم نصف مستدير فخم يفضى إلى قاعة مستديرة تعلوها قبة . وبني فلان ملحفاً للقصر الشتوى هو الأرميتاج الشهير ، الذى كانت كاترين تراه ملاذاً تحتوى به من مراسيم البلاط ، ولكنه أصبح قاعة تحفها ، وهو اليوم من أهم متاحف العالم . وقالت كاترين في وصفه لجريم عام ١٧٩٠ « أنه خلوق الصغيرة ، في موقع مناسب بحيث لا يكفى الذهب إليه أو الإياب منه إلى حجرتى أكثر من ثلاثة آلاف خطوة . . هناك أجول بين طائفة من الأشياء التى أحبها وأزهو بها ، وتلك الجولات الشتوية هى التى تحفظ على عافيتى » (١١٥) .

ومن فرنسا أيضاً قدم الاسكتلندى تشارلز كامبرون ، الذى درس الزخرفة الكلاسيكية في وطنه . وقد اشتهرت كاترين بالأشراق والرقعة اللذين كان يزين بهما - بالفضة واللاكيه والزجاج واليشب والعقيق والرخام المتعدد الألوان - الجناح الخاص الذى احتفظت به لنفسها ولعشاقها وكلاهما في « القصر العظيم » بتسارسكو سيلو . كتبت تقول « لم أرقط ضريباً لهذه

الحجرات حديثة الزخرف ؛ ولم أمل قط طوال الأسابيع التسعة الأخيرة من تأملها » (١١٦) . وحول هذا القصر خططت لها حديقة بالطراز « الطبيعي » و « الانجليزي » ، وصفتها في خطاب إلى فولتير فقالت : « إنني الآن أهتم جداً بالحدائق الانجليزية الطراز ، بخطوطها القصيرة ، والمنحنية ، ومنحدراتها المدرجة في رفق ، وبركها وبحيراتها . . . إنني شديدة النفور من الخطوط المستقيمة ؛ وباختصار أقول أن الهوس الانجليزي (الانجلومانيا) يسيطر على هوسي بالنبات » (١١٧) . وقد بنى كامرون لولدها بولس وزوجته الثانية الفاتنة في بافلوفسك (وهي ضاحية أخرى من ضواحي العاصمة) قصراً بطراز الفيلا الإيطالية ؛ هنا حفظ الغراندوق وماريا فيودوروفنا التحف التي جمعها في رحلاتهما في غرب أوروبا .

ومن إيطاليا أقبل انطونيو رينالدي ، الذي بنى قصرين باذخين أهدتهما كاترين لجريجوري أورلوف ، قصر الرخام على نهر نيفا ، وقصر جاتشينا قرب تسارسكوسيلو ، الذي أصبح المسكن المفضل عند بولس الأول . ومن إيطاليا جاء جاكومو كوارنجي ، الذي استهوته المعابد اليونانية في بايستوم وروائع بالاديوني قتشنتشا . وفي ١٧٨٠ عرض على كاترين عن طريق جريم تصميمات ونماذج لأبنية شتى كان يؤمل تشييدها . وافتتحت بها كاترين ومنذ ذلك التاريخ حتى ١٨١٥ شيد كوارنجي في سانت بطرسبرج أوعلى مقربة منها العدد الوفير من المباني بالطراز الكلاسيكي ، مسرح الأرميتاج ، ومعهد سمولني (الذي ألحقه بدير سمولني في راستريللي) ، ومصرف الإمبراطورية ، ومصلى الطريقة المالطية ، والقصر الانجليزي في بيتر هوف ، وقصر ألكسندر في تسارسكوسيلو . وقد صمم هذا القصر لحفيد كاترين الذي أصبح فيما بعد ألكسندر الأول ، والذي انتقل إليه في ١٧٩٣ ، بعد الفراغ من تشييده بعامين . « إنه من روائع معمار القرن الثامن عشر » (١١٨) . (*)

(*) كان القصر المفضل لدى القيصر نيقولا الثاني : ومنه فر إلى سيبيريا والموت في ١٩١٧ . وقد حوله السوفييت متحفا . ولحقت به أضرار بالغة في الحرب العالمية الثانية . ولكنه رمم .

ولكن ألم يكن هناك معماريون روس ينفقون روبلات كاترين ؟ بلى .
فقد حداها الأمل في ترك أثر يخلد ذكرها في موسكو إلى أن تكلف فاسيلي
بازينيف بتصميم «كرمان» من الحجر ليحل محل كرمين إيفان الأكبر
المبنى بالآجر . وصمم بازينيف قصراً هائلاً لو قام لتضاءل بالقياس إليه
قصر فرساي ؛ والذين رأوا نموذجة الخشبي — الذي تكلف ستين ألف روبل —
تعجبوا من براعته . غير أن الأساسات التي أرسيت ليقوم عليها هبطت
بهبوط التربة بفعل نهر موسكو ، فنكصت كاترين عن المغامرة على أنها
دبرت المال الذي أتاح لإيفان ستاروف أن يبني على ضفة نيفا اليسرى قصر
تاوريديا ، وأهدت هذا القصر المنيف إلى بوتمكين تخليداً لفتحته القرم .

وأيا كانت تكلفة نفقات المباني التي شيدتها كاترين فلإنها حققت هدفها .
كتب ماسون المعاصر لها يقول : « إن الرجل الفرنسي بعد دورانه على
شواطئ بروسيا الماحلة وشقه سهول ليفونيا المقفرة التي لم تزرع ، تأخذ
الدهشة والطرب إذ يعثر مرة أخرى وسط بيداء مترامية على مدينة كبيرة
فخمة ، تزخر بمجتمع راق وبأسباب الترويح والفنون وألوان الترف التي
خالها لا توجد إلا في باريس » (١٠٩) . أما الأمير دلين فبعد أن شهد أوربا
كلها تقريباً خلص إلى أنه « رغم ما في كاترين من عيوب ، فإن الصروح
التي شيدتها ، العامة منها والخاصة ، تجعل سانت بطرسبرج أبدع مدينة
في العالم » (١١٠) ولا عجب ، فقد حول لحم عشرة ملايين من الفلاحين
ودمهم إلى طوب وحجر .

١٠ — خاتمة المطاف

لو أن كاترين سئلت لينت — كما هو دأب الحكام طوال العصور
والأزمان — أنه ما دام الموت حقاً على البشر على أية حال ، فلم لا يسخر
الحكام عبقرية الرجال لتوجيه هؤلاء الأحياء المطاردين والبشر المقضى عليهم
لا محاله بالموت ، لجعل الدولة قوية ، وجعل مدنها عظيمة ؟ لقد عودتها
سنوات السلطان ، وتحديات الثورة والحرب ، وتقلبات النصر والهزيمة ،

أن تطيق آلام الغير دون أن تجفل ، وأن تغضى عن استغلال الأقوياء للضعفاء باعتبارها شراً لا قبل لها بعلاجه .

وقد أزهبتها الثورة الفرنسية بعد ما أزعجها العديد من المؤامرات لخلعها وأخافتها فتنة بوجاشيف . وقد اطاقها راضية حين توقعت ألا تكون أكثر من إطاحة بارستقراطية عاطلة وحكومة عاجزة ؛ ولكن حين أكره حشد من رعاى باريس لويس السادس عشر ومارى انطوانيت على ترك فرساي وسكنى التويلرى وسط جواهر أفلت زمامها — وحين أعلنت الجمعية التأسيسية أنها صاحبة السلطة العليا ، وحين ارتضى لويس أن يكون الأداة المنفذة لأوامرها لاغير — عندها ارتعدت كاترين فرقاً من التشجيع الذى أعطى بالمثل للذين سعوا إلى أن يفعلوا نظير هذا فى روسيا . فسمحت للأكليروس بأن يحظروا نشر أعمال فولتير التى كانت يوماً ما موضع حبا (١٧٨٩) (١١١) . ثم حرمت هى ذاتها بعد قليل جميع المطبوعات الفرنسية ؛ ونقلت تماثيل فولتير النصفية من قاعاتها إلى حجرة لسقط المتاع (١٧٩٢) (١١٢) ثم نفت المثالى راديشتشيف (١٧٩٠) ، وسجنت نوفيكوف المشرب بروح خدمة المجتمع (١٧٩٢) ، وفرضت رقابة تفتيشية على الأدب والمسرحيات . فلما قطع رأساً لويس السادس عشر ومارى انطوانيت بالجيلوتين (١٧٩٣) قطعت صلاتها مع الحكومة الفرنسية ، وحضت الملكيات الأوروبية على تأليف تحالف ضد فرنسا . ولم تنضم هى ذاتها لذلك التحالف ، بل استعملته لتشغل به الدول الغربية ريثما تم ابتلاعها لبولنده . وقد قالت لأحد دبلوماسيها « إن كثيراً من مشروعاتى لم يستكمل بعد ، ويجب شغل بلاطى برلين وفيينا حتى يتركانا طلقاء بغير قيود » (١١٣) .

على أن آثاراً ضئيلة تخلفت من تحررها القديم وبقيت حتى ١٧٩٣ . فى ذلك العام أبلغها أحد الخاشية أن فردريك — سيزار دلاهارب ، الذى كان المعلم الخاص لحفيديها ، جمهورى عنيد . فأرسلت فى طلبه وأنبأته بالخبر ، فأجاب « ان جلالتك كنت على علم قبل أن تكلى إلى تعليم الغراندوقين اننى سويسرى ، وإذن فجمهورى » ثم رجاها أن تمتحن تلميذه ، وأن

تحكم على عمله من سلوكهما . ولكنها كانت تعلم كم أحسن تعليمهما ، فقالت له «سيدى ، لنكن يعقوبيا أو جمهوريا أو ماشئت ، إننى مؤمنة بأنك رجل أمين ، وهذا يكفينى . فابق مع حفيدى واحتفظ بكامل ثقتى ، وعلمهما بما عهدته فيك من غيرة» (١١٤) .

وفى وسط هذا الضجيج اتخذت آخر عشاقها (١٧٨٩) وهو بلاتون زوبوف . وكان فى الخامسة والعشرين ، وهى فى الحادية والستين . وكتبت لعشيقها «الشرفى» بوتكين تقول : «عدت إلى الحياة كأنى ذبابة خدرها البرد» (١١٥) . واقترح «تلميذها» الجديد هجوماً مثلث الشعب على تركيا : جيش روسى بقيادة أخيه فاليران ذى الأربعة والعشرين ربيعاً يعبر القوقاز إلى فارس ويقطع كل تجارة الياپس بين تركيا والشرق ؛ وجيش ثان بقيادة سوفوروف يتغلغل فى البلقان ليحاصر الآسنانة ؛ ثم أسطول البحر الأسود الروسى ، تحت إمرة الامبراطورة نفسها ليمتسلط على البوسفور . وبعد سنوات من الإعداد بدىء بتنفيذ هذه المغامرة الملحمية (١٧٩٦) واسولى الروس على دربنت وباكو ؛ وتطلعت كاترين إلى انتصارات تكمل برنامجها وتتوج حياتها .

وفى صباح ١٧ نوفمبر ١٧٩٦ بدت مرحلة كالعادة . وبعد الفطور اعتكفت فى حجرتها . ومضى وقت ولم تظهر ثانية ، فقرعت خادمتها الباب ، فلما لم تجب دخلت ، فرجدت الامبراطورة منبعلجة على الأرض ، صريعة انفجار شريان فى الدماغ ، وفصدت مرتين ، وأفادت لحظة ، ولكنها فقدت النطق . وفى العاشرة من مساء ذلك اليوم لفظت أنفاسها .

وأحس أعداؤها أنها لا تستحق ميتة رحيمة كهذه . ولم يغفروا لها قط تلك التناقضات بين مزاعمها التحررية وحكمها الاستبدادى ، وضيقتها بالمعارضة ، وإخفاقها فى تنفيذ الإصلاح المقترح للقانون الروسى ، واستسلامها للنبلاء فى توسيعها للقنية . ولم تحمد لها انتصاراتها تلك الأسر التى أفقرتها الضرائب الباهظة ، أو التى ثكلت أبنائها بسبب حروبها . ولكن الشعب فى جملته صفق لها لأنها مدت روسيا إلى حدود أرحب وأكثر أمناً . لقد

أضافت ٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع لمساحة روسيا ، وفتحت ثغوراً جديدة لتجارة روسيا ، وزادت السكان من تسعة عشر إلى ستة وثلاثين مليوناً . وكانت عديمة الضمير في دبلوماسيتها - ربما أكثر قليلاً من معظم حكام ذلك العهد في ابتلاعها بولنده .

أما أعظم منجزاتها فهو مواصلة جهود بطرس الأكبر لإدخال روسيا في نطاق الحضارة الغربية . وبينما كان بطرس يفكر في هذا الهدف بلغة التكنولوجيا ، كانت كاترين تفكر فيه أولاً بلغة الثقافة ، فاستطاعت بقوة شخصيتها وشجاعته أن تنتزع الطبقات المتعلمة في روسيا من العصور الوسطى وتدفعها إلى فلك الفكر الحديث في الأدب والفلسفة والعلوم والفنون . وكانت بين أندادها من الحكام المسيحيين (باستثناء فردريك الثاني غير المسيحي) سباقة إلى توطيد التسامح الديني . وقد عقد مؤرخ فرنسي مقارنة فضلها فيها على الملك الأعظم (لويس ١٤) قال « إن سماحة كاترين ، وبهاء حكمها ، وفخامة بلاطها ومنشأتها ، وآثارها ، وحروبها - هذا كله كان بالنسبة لروسيا بالضبط ما كانه عصر لويس الرابع عشر بالنسبة لأوروبا . غير أن كاترين إذا نظرنا إليها كفرد وجدناها أعظم من هذا الملك . ذلك أن الفرنسيين هم الذين بنوا مجد لويس ، أما كاترين فهي التي بنت مجد الروس . ولم يتح لها كما أتيج له ميزة حكم شعب مهذب ، ولا أحيطت منذ طفولتها بشخصيات عظيمة مثقفة » (١١٦) .

وفي تقدير مؤرخ إنجليزي أن كاترين « هي الحاكمة الوحيدة التي فاقت إليزابيث ملكة إنجلترا كفاءة ، وهي تعدلها من حيث الأهمية الباقية لأعمالها » (١١٧) . وقال مؤرخ ألماني « كان كل ما فيها « كائنًا سياسيًا » ، لا ضريب لها من جنس النساء في التاريخ الحديث ، ولكنها في الوقت ذاته امرأة خالصة ، وسيدة عظيمة » (١١٨) ، ويجوز لنا أن نطبق عليها المبدأ السمح الذي وضعه جوته : كانت عيوبها عدوى انتقلت إليها من جيلها ، أما فضائلها فكانت من صنعها هي . »

الفصل التاسع عشر

اغتصاب بولنده

١٧١٥ - ١٧٩٥

١ - نظرة عامة على بولنده : ١٧١٥ - ١٧٦٤

كانت الجغرافيا ، والعرق ، والدين ، والسياسة ، هي الأعداء الطبيعية لبولنده . ذلك أن هذا القطر كان يعدل فرنسا اتساعاً ، إذ امتد عام ١٧١٥ من الأودر غرباً إلى ما يقرب من سمولنسك وكيميف شرقاً ، ولكن لم يكن له حد طبيعي - من جبال أو نهر عريض - على أى جهة لبقية شر الغزو ؛ وقد اشتق اسم بولنده من كلمة « pole » وهو السهل . ولم يكن لها سوى منفذ واحد إلى البحر - عند داننرج ، أما الفستولا الذى وجد له مصباً هناك ، فلم يكن بالحد الذى يصلح للدفاع ضد بروسيا المجاورة . وقد افتقدت الأمة وحدة العرق ، فكانت كثرة البولنديين البالغة ٦,٥٠٠,٠٠٠ نسمة (١٧١٥) فى صراع متقطع مع الأقليات الألمانية واليهودية واللوانية والروسية ؛ وهنا التقى التيوتون والسلاف وجهاً لوجه فى عداء طبيعى . ولم يكن هناك وحدة دينية : فالأغلبية الكاثوليكية الرومانية تحكم وتظلم «المنشقين» - وهؤلاء هم الآخرون منقسمون فى نزاع وخصام بين بروتستنت وروم أرثوذكس ويهود . ولم يكن هناك وحدة سياسية ، لأن سلطة السيادة التى حرص أصحابها على الاحتفاظ بها كانت فى يد «السجم» أو «الديت» ، المؤلف كله من نبلاء لكل منهم ، بمقتضى حق النقض المطلق ، سلطة إبطال مفعول أى اقتراح يقترحه الباقيون كلهم ، وإنهاء أى دورة ، أو أى ديت منتخب . ان شاء . أما الملك فينتخبه الديت ، وهو خاضع لـ «مواثيق» يوقعها شرطاً

لانتخابه ، ولم يكن في استطاعته أن يتبع أى سياسة طويلة المدى وهو مطمئن أقل اطمئنان إلى توريث تاجه لذريته أو تلقى التأييد المتصل . وقد طالب النبلاء بهذه السلطة غير المقيدة على التشريع لأن كلا منهم أراد أن يكون مطلق الحرية في السيطرة على أراضيه وأقنانه . ولكن التقييد روح الحرية ، فما إن تصبح الحرية مطلقة حتى تقضى عليها الفوضى ، وتاريخ بولنده بعد جان سويسكى كان سجلاً للفوضى .

وكان أكثر الأرض يزرعه أقنان يرسفون في قيود ذل لإقطاعى لامغيث لهم منه . وكان السيد الإقطاعى أحياناً رقيقاً بهم ، ولكنه كان دائماً مطلق السلطة . وأما أقنانه فلم يدينوا له فقط بجزء المحصول الذى يقدره ويطالبهم به ، بل كان لزاماً عليهم أيضاً أن يعطوه من كدهم ، دون أجر ، عمل يومين أو ثلاثة في ضيعته كل أسبوع . ومن حسن الحظ أن الأرض الجيدة الرى كانت خصبة ، فوجد الفلاحون ما يكفى لإقامة أودهم ، ولكن كوكس وصفهم بأنهم « أشد فقراً وذلاً وشقاء من أى شعب لاحظناه في رحلاتنا »^(١). وكان سادتهم المحليون هم الطبقة الدنيا من النبلاء أو صغار الأعيان (شلاختا) ، وهؤلاء الملاك بدورهم كانوا خاضعين لنحو مائة من الأقطاب الذين يملكون أو يشرفون على مساحات شاسعة . وكان صغار الأعيان يشغلون معظم الوظائف التنفيذية في الدولة ، وهم من الناحية النظرية يؤلفون الغالبية في مجلس السجيم ، ولكن السياسة البولندية كانت من الناحية الفعلية صراعاً بين الأقطاب أو أسرهم ، الذين يتلاعبون بمجموعات من صغار الأعيان مستعينين بالنفوذ الاقتصادى أو الرشوة المباشرة^(٢) .

وظلت الأسرة في بولنده تحتفظ بأفضليتها البهادية على الدولة . فكان آل رادزيفل ، وآل بوتوكى ، وآل تشارتورييسكى ، كل منهم يترابط أفراده بعاطفة من التماسك الأسرى أوثق من أى رباط قوى ، هنا كان حب الوطن هو حرفياً احترام الأب وتبجيله ، والأب الأكبر سنّاً فوق كل شيء . وكانت الأسرة قوية كنظام أو مؤسسة ، لأنها كانت وحدة الإنتاج الاقتصادى والتهذيب الأخلاقى ، فلم يكن هناك نزعة فردانية اقتصادية تشتت الأبناء

في أرجاء الوطن ؛ والإبن يقيم عادة في الضيعة الموروثة ، خاضعاً لأمر أبيه مادام الأب حياً . وزكت الأسرة بفضل وحدة السلطة ، هذه الوحدة ذاتها التي أضعف الدولة افتقادها . وكانت كل ثروة الأسرة تحت إشراف أبوى مركز ، وفي كثير من الحالات كانت تزداد من عام إلى عام بفضل أرباح الاستغلال والتصدير المعاد استثمارها من جديد ، وفي حالات عديدة فاقت ثروة الملك نفسه . وكان عشرون أسرة بولندية في القرن الثامن عشر ينفق كل منها أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه في العام على البيت (٣) . وكانت الأسرة القوية تسمى بيتها بلاطاً ، له مستخدموه ، وجيشه الخاص ، وخدمه الكثيرون ، ومظاهر الأبهة الشبيهة بأبهة الملوك ؛ من ذلك أن الأمير كارول رادزيفيل ، الذي بلغت مساحة أرضه نصف مساحة بولنده ، أُولم في ١٧٨٩ وليمة لأربعة آلاف ضيف كلفته مليوناً من الماركات (٤) .

أما أشهر الأسر البولندية قاطبة — والتي بلغ من شهرتها أنها كانت تعرف باسم « الأسرة » فقط — فهي أسرة تشارتوريسكى . فقد تبوأَت مرتبة الإمارة منذ القرن الخامس عشر ، واتصلت بصلة القرابة ببيت جاجيللو ، الذي حكم بولنده من ١٣٨٤ إلى ١٥٧٢ . وقد تزوج الأمير كازيميرز تشارتوريسكى (مات ١٧٤١) ، نائب مستشار لتوانيا ، بايزابللا مورستن ، التي أضافت دفعة جديدة من الثقافة الفرنسية إلى الأسرة . وأنجب منها ثلاثة من المشاهير هم : (١) فردريك ميشال تشارنوريسكى ، الذي أصبح كبير مستشاري لتوانيا ، (٢) ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى ، الذي أصبح أمير بالاتين لـ « روسيا الحمراء » ، (٣) قنسطنطياً التي تزوجت ستانسلاس بونيا توفسكى الأول ، وولدت له بونيا توفسكى الثاني ، وهو الشخصية المأساوية الكبرى في التاريخ البولندي .

ومن مفاخر آل تشارتوريسكى فوق ما تميزوا به أن نزعهم التحريية . نمت بنمو ثروتهم ، فقد طالما عرفوا بترفقهم بأقنانهم ؛ قال أحد معاصريهم « لو أننى ولدت قننا لوددت أن أكون قننا للأمير ألكسندر أوغسطس تشارتوريسكى » (٥) . فأنشأوا المدارس للأطفال ، وزودوهم بالكتب

المدرسية ، وبنوا الكنائس والمستشفيات والأكواخ النموذجية . ثم جلبوا إلى ضيعتهم وقصرهم في بولافي (قرب لوبلين) معلمين ودارسين دربوا الشباب أياً كانت طبقتهم ، على خدمة الدولة . أما من الناحية السياسية فإن الأسرة عارضت حق النقض المطلق لأن من شأنه أن يجعل الحكم الفعال ضرباً من الحال . واتحدت ضدهم أسر كثيرة شعرت بأن حق النقض هو حاميتها الأوحدة من الأوتقراطية الممركزة . وكان أقواها أسرة بوتوكي ، وزعيمها الأمير فيلكس بوتوكي ، الذي كان في استطاعته أن يركب ثلاثين ميلاً في اتجاه واحد دون أن يجاوز أرضه — ثلاثة ملايين من الأفدنة في أوكرانيا .

أما الصناعة والتجارة ، اللتان شاركتا في القرن السادس عشر في جعل بولنده قطراً عظيماً وفي إثراء مدنها ، فقد عطلتها خصومة ملاك الأرض ومجلسهم النيابي المطيع . فكانت مدن كثيرة بأسرها تقع في نطاق الملكية الخاصة لقطب من الأعيان أثر الزراعة على الصناعة مخافة أن تنشأ طبقة وسطى مستقلة . وكانت منافسة الحرف اليدوية التي ينتجها الأفنان في الضياع قد جرت الكساد على مهرة الصناع في المدن . كتب انطوني بوتوكي في ١٧٤٤ يقول « إن خراب المدن ظاهر للعيان حتى أن كبرياتها في الدولة — باستثناء وارسو دون غيرها — أشبه بأوكار اللصوص »^(٦) . ففي مدينة لفوف مثلاً كثر النجیل في الشوارع ، وأصبحت بعض ميادينها حقولاً مفتوحة ، ومدينة كراكا التي كانت يوماً ما من أعظم المراكز الثقافية في أوروبا هبط عدد سكانها إلى تسعة آلاف ، وعدد الطلاب في جامعتها الشهيرة إلى ستمائة^(٧) .

ويرجع بعض ما أصاب المدن من انحلال إلى عودة الكاثوليك إلى غزو بولنده . فقد كان كثير من البروتستنت المطرودين تجاراً أو صناعاً مهرة ، وقد ترك تقلص عددهم في جميع أرجاء بولنده إلا غريبها (حيث بقي ألمان كثيرون) للمسرح البولندي ملاك الأرض ، وكان هؤلاء من الكاثوليك الرومان ، أو في الشرق من الروم الأرثوذكس أو الموحدين (وهم كاثوليك يمارسون الطقوس الشرقية ولكنهم يعترفون ببابا روما) .

وكان المنشقون أو المخالفون - من البروتستنت والروم الأرثوذكس واليهود ، وجملتهم ثمانية في المائة من السكان - محرومين من الوظائف العامة ومن عضوية الديت ، وكل الدعاوى المرفوعة ضدهم بنظرها محاكم كاثوليكية خالصة ^(٨) . وقد بلغت الخسومة الدينية مبلغاً دفع الجاهير عام ١٧٢٤ ، في مدينة تورون (ثورن) التي كان أكثر أهلها من البروتستنت ، إلى أن انتهك قدسية القربان وتدوس على صورة العذراء بعد أن أثار غضبها الشديد مسلك طالب يسوعى . وقد أعدم تسعة من هؤلاء المغيرين . واستنجد بروتستنت بولنده ببروسيا ، والروم الأرثوذكس بالروسيا ، وعرضت بروسيا وروسيا الحامية ، ومنها تقدمتا إلى الغزو والتقسيم .

أما أخلاق البولنديين فقد شابته الأخلاق الألمانية على المائدة ، والفرنسية في الفراش . وقد أكره الفلاحين على الاكتفاء بالزوجة الواحدة عكوفهم على الأرض والنسل ، ولكن هذا الاكتفاء كان عسيراً في العاصمة لجبال النساء و « سلوكهن المغرى » ^(٩) ، هؤلاء النساء اللاتي لم يسمح لتعليمهن الأرق بأن يقف عقبة في طريق فتنهن . ويروى أن نساء الطبقة الراقية في وارسو كن من الناحية الجنسية منحللات كنساء باريس ^(١٠) . ويؤكد لنا بونياتوفسكى أنه كان بكرا حتى الثانية والعشرين ^(١١) ، ولكنه يضيف أن هذه العفة كانت شاذة في طبقته - وكان السكر متوطناً لا يعرف الفوارق بين الطبقات . فهو بين الفلاحين أنساهم في نشوته ما يعانون من فقر أو مشقة أو برد ، أما النبلاء فقد سرى عنهم ما يعانون من العزلة والسأم ، وفي جميع الطبقات كان الذكور ينظرون إليه لا على أنه رذيلة بل مظهر من مظاهر التميز . وقد كرم القوم يان كوما رتشفسكى لأنه استطاع أن يفرغ في جوفه دلواً من الشمبانيا في جرعة واحدة دون أن يدور رأسه أو تحونه قدماه . وقد نبه القوم بونياتوفسكى إلى أنه لن يكون محبوباً ما لم يشمل بالشراب مرتين في الأسبوع ^(١٢) . وكان اكرام الضيف عادة شائعة بين الجميع ، ولكنه كان يقاس بمقدار الطعام والشراب الذى يقدم للضيف . وقد يحدث أن يرهن أحد الأقطاب مدينة يملكها ليدفع نفقات مأدبة .

وكان البولنديون المثقفون يضيفون على المشهد رونقاً بأزيائهم . أما الفلاح فكان في الصيف يقنع بالقميص والسرّاويل إلى الركبة من التيل الحشن ، دون جوارب طويلة أو حذاء . وفي الشتاء يدثر نفسه كالحزمه دون مراعاة للون ، ولا وقت للزينة ، وأما الأعيان الذين يعدون نحو ٧٢٥,٠٠٠ فلباسهم الحذاء الطويل والسيف والقبعة ذات الريشة والرداء الملون من الحرير أو المخرمات ، ثم حول الحصر حزام عريض من النسيج المنقوش ذى الألوان الكثيرة . وهذا الزي الذى اعزوا بقوميته نقلوه عن المسلمين نتيجة اتصال اللتوانيين بالأتراك فى أوكرانيا ، وقد عكس ما كان يحدث أحياناً من تحالف بين بولنده وتركيا ضد النمسا أو روسيا ، وربما عبر عن عنصر أسيوى فى عادات البولنديين وأخلاقهم .

أما من الناحية الثقافية فقد عطل بولنده من ١٦٩٧ إلى ١٧٦٣ عدم مبالاة ماوكها السكسون بالأدب والفن السلافيين ، كما عطلها حربان مدمران . ولم تكن الكنيسة الكاثوليكية أهم راع للفنون فحسب ، بل لأنها كانت الموزع للتعليم والأمين الأكبر على نفائس الثقافة والأدب . وقد فرضت حجراً دقيقاً على بولنده يقبها حركة العلم والفلسفة فى الغرب ، ولكنها فى نطاق حدودها نشرت المعرفة ونمتها . من ذلك أن جوزيف زالوسكى أسقف كييف جمع ٢٠٠,٠٠٠ مجلد فى وارسو لمكتبته التى تعد من أعظم مكتبات العصر ، وفى ١٧٤٨ فتحها للجمهور وأهداها للأمة ؛ وكان أثناء ذلك يحيا حياة الزهد ، وقد ضحى بنفسه فى الصراع الناشب ليحفظ على بولنده استقلالها .

وهو الذى وجه القسيس الشاب المتطلع ، ستانسلاس كونارسكى ، إلى دراسة التاريخ والقانون وفى ١٧٣١ أصدر كونارسكى المجلد الأول من أربعة مجلدات جمعت ونسقت القانون البولندى من كازيمير الأكبر حتى وقته . هذه الأبحاث وغيرها كشفت لكونارسكى عن مدى سقوط بولنده المحزن من حالة الازدهار الذى شهدته أيام النهضة الأوروبية . وقد اتنع بأن البحث لن يأتى إلا من القمة ، لذلك أنشأ فى وارسو (١٧٤٠) « كلية للنبلاء » يتلقى فيها شباب الأشراف تعليماً لا يقتصر على الرياضة واللغات والآداب الكلاسيكية (التى أجاد اليسوعيون تدريسها) ، بل يشمل

العلوم الطبيعية واللغات الحديثة . وكان هذا عملاً بطولياً ، لأنه لم يكن لديه مال ولا كتب ، ولا معلمون ولا تلاميذ ، ومع ذلك فقد جعل من كلية النبلاء هذه بعد خمسة عشر عاماً من الكد معهداً ذائع الصيت مرموقاً ، وأحد المناجع للإحياء الثقافي في عهد بونيا توفسكى ولدستور ١٧٩١ المستنير . وقد دعا لإصلاح اللغة البولندية تخليصاً لها من العبارات اللاتينية والبلاغة المزوقة ، واحتجت الأمة ، ولكنها تعلمت . ثم توج كونارسكى أعماله بإصداره في بولنده (١٧٦٠-٦٣) أهم رسالة سياسية في القرن ، تحمل هذا العنوان البريء ، « في التسيير الفعال لدفة المناقشات » ولكنها احتوت ثورة شعواء على حق النقض المطلق . وهنا أيضاً ارتفعت الاحتجاجات الكثيرة ولكن بعد عام ١٧٦٤ لم يحل « ديت » بحق النقض . وبمعمونة كونارسكى بدأ بونيا توفسكى إصلاح الدستور البولندي .

وقبل ذلك الإحياء الرائع المتقطع عانت بولنده سبعة عشر عاماً من الفوضى والعار والاضمحلال تحت حكم الملوك السكسون .

٢ - الملوك السكسون : ١٦٩٧ - ١٧٦٣

في موضع آخر من هذا الكتاب (١٣) ذكرنا كيف تخطى الديت البولندي ابن سوبيسكى العظيم ليعطى تاج بولنده لفرديريك أوغسطس ، ناخب سكسونيا الذي دخل في المذهب الكاثوليكي بين عشية وضحاها ليصبح أوغسطس الثاني (أى القوى) ملك بولنده ، وكيف ولى شارلى الثانى عشر ملك السويد مكانه ستانسلاس لشتشز نسكى (١٧٠٤) ، وكيف أتاحت هزيمة شارل في باطاوه (١٧٠٩) لأوغسطس أن يستعيد عرشه ، وقد تمتع بالقليل من السلطات التشريعية التى كان يتمتع بها ملوك القرن الثامن عشر ، ولكن بكل امتيازات الملوك الجنسية . فلما فشل في حكم بولنده رد حبه على سكسونيا ، فجمعل درسدن ، وأترع جوفه بالجة ، وأفرغ عافيه بالخليلات ، ثم أضاف الإهانة إلى الأذى باتخاذ واحد فقط من هؤلاء الخليلات من بين حسان

بولنده . وفي أخريات عهده وضع خطة لتقسيم بولنده بين النمسا وبروسيا^١ وسكسونيا ، ولكنه مات (١ فبراير ١٧٣٣) قبل أن ينفذ تدبيره الشرير . وقد قال على فراش الموت ، « إن حياتي كلها كانت خطيئة متصلة »^(١٤) .

وفي فترة خلو العرش التي تلت ذلك خلال تجميع ديت انتخابي ، أغدق المبعوثون الفرنسيون المال ليكسبوا نواباً يعملون على إعادة لشتشزنسكى . وكان ستانسلاس منذ خلعهم يعيش في الأازاس مستمتعاً بالسلام والأمل . وفي ١٧٢٥ أصبحت ابنته ماري مائكة على فرنسا بزواجها من لويس الخامس عشر ، وتوقع لويس الآن أن يتبع حموه ، متى رد إلى عرشه ، السياسة الفرنسية ، سياسة توحيد بولنده وبروسيا وتركيا في صف واحد يضرب نطاقاً حول النمسا . وشعرت الحكومة الروسية بأن حلفاً كهذا من شأنه إضعافها في صراعاتها المحتومة مع تركيا وبروسيا ، فبادرت بإرسال الروبلات إلى وارسوا لمنع انتخاب لشتشزنسكى . ولكن الجنبات الفرنسية كانت أثقل من الروبلات الروسية ، وفي ١٠ سبتمبر ١٧٣٣ أصبح لشتشزنسكى ملكاً على بولنده باسم ستانسلاس الأول .

ورفضت أقلية الاعتراف بانتخابه ، ووضعت نفسها تحت حماية جيش روسي زحف على الفستولا ونادى بالناخب السكسوني مائكاً على بولنده باسم أوغسطس الثالث (٦ أكتوبر) . وهكذا بدأت حرب الوراثة البولندية ، وبدأ أول تدخل حاسم لروسيا في شئون بولنده وبحث ستانسلاس عن جيش بولنده يدافع عنه ، فلم يجد جيشاً إلا على الورق ، ففر إلى دانتزج واستنجد بفرنسا . وكان يرأس الحكومة الفرنسية آنذاك الكردينال فلوري ، ولم يكن به رغبة لخوض حرب مع روسيا النائية ، فأرسل مفرزة من ٢,٤٠٠ جندي سحقها الروس بجيش من اثني عشر ألف مقاتل . وفر ستانسلاس من دانتزج واعتكف في اللورين . وفي يناير ١٧٣٦ وقع على تنازله عن العرش ، وفي يوليو اعترف بأوغسطس الثالث ملكاً .

ولكنه لم يكن أصلح من لشتشزنسكى لقيادة أمة ركبت الفوضى في صميم دستورها . وتعاون فترة مع آل تشارتوريسكى في محاولات لإنهاء

حق النقض ، فاستعملت أسرة بوتوكى الفيتو المرة بعد المرة للاحتفاظ بهذا الحق ، وأخيراً يئس أوغسطس وأخلد إلى الدعة فى درسدن ، ولم يزر بولنده إلا لماما . واستمر الفساد واستشرى ، وشارك الملك فيه إذ ألقى نفسه عاجزاً عن وقفه ، وباع المناصب لمن يدفع فيها أغلى الأثمان . وهيمن الأقطاب على المحاكم والقوات المسلحة ، وتفاوضوا رأساً مع الدول الأجنبية وتلقوا منها الإعانات المالية^(١٥) . وناورت فرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا لترى أيها يستطيع الظفر بنصيب الأسد من انحلال دولة بولنده الوشيك .

وقبل موت أوغسطس الثالث (٥ أكتوبر ١٧٦٣) وبعده تذرعت المنافسة على تعيين خلفه والتسلط عليه بكل حيلة دبلوماسية حتى وصلت إلى شفا الحرب . فطالب آل بوتوكى بحبش دائم عدته ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ليحمى بولنده من السيطرة الأجنبية ، أما آل تشارتوريسكى فقد راضوا أنفسهم على أن تكون بولنده محمية روسية ، وتفاوضوا مع كاترين الثانية . وأدعت روسيا لنفسها الحق فى حماية الأقلية الرومية الأرثوذكسية فى بولنده ، ومدت ذاكرتها إلى الماضى البعيد لتذكر أن أقاليم بولنده الشرقية انتزعها من روسيا سانت فلاديمير (٩٥٦ - ١٠١٥) قبل ثمانمائة سنة . أما فرنسا فقد ناصرت ابن أوغسطس الثالث خلفاً له ، فلو أن روسيا سيطرت على بولنده لأنهار صرح السياسة الخارجية الفرنسية كله فى الشرق . وأما فردريك الأكبر الذى كان قد اختتم لتوه سبع سنين من الحرب الطاحنة مع فرنسا والنمسا ، فقد كان فى حاجة إلى صداقة كاترين التى نجا من الكارثة بإذنها ، ووافق على أن يؤيد مرشحها للتاج البولندى ، ثم أبرم معها (١١ أبريل ١٧٦٤) معاهدة تلزم الطرفين سراً بمعارضة أى تغييرات فى دستور بولنده أو السويد ، مخافة أن يقضى أى زيادة فى سلطة الملك إلى جعل أحد هذين القطرين أو كليهما قوياً إلى حد خطر ، وهكذا اعتزما الدفاع عن الفوضى باسم الحرية . وهذأت كاترين مخاوف آل تشارتوريسكى بوعداها باحتزال حق النقض المطلق بيد أن تستقر الأمور فى نصابها ، وباختيارها محسوباً من هذه الأسرة مرشحاً للعرش . وفى ٧ سبتمبر ١٧٦٤ ، وبإجماع آراء «ديت» أقتعته الروبلات ،

وجيش روسى لا يبعد عنه أكثر من ثلاثة أميال ، اختير ستانسلاس بونيا توفسكى ليتبوا عرش بولنده .

٣ - بونيا توفسكى

ولد لستانسلاس بونيا توفسكى الأب ، حاكم كراكاو ، وقسطنطينا تشارتو ريسكى ، فى ٧ يناير ١٧٣٢ . قال لمدام جوفران «بيت تربية صارمة جداً على يد أم ندر أن تجدى لها نظيراً اليوم فى أى مكان ، فى حين اكنفى أنى فى وعظى بأن أجد فيه الأسوة الحسنة » ^(١٦) . وحين بلغ السادسة عشرة بدأ القيام برحلات واسعة . وفى ١٧٥٣ بهر مدام جوفرات وصالونها وكل باريس تقريباً بهياته ومسلكه وشبابه . وبعد بضع سنوات ، وجريا على سنة جيله ، كتب صورة ذاتية كانت مطابقة للحقائق مطابقة منصفة ، قال فيها :

« كان خليقاً بى أن أرضى عن شكلى لو كنت فقط أطول بوصة ... وكان أنى أقل انعقافاً ، وفى أصغر بعض الشىء . بهذه التحفظات أعتقد أن وجهى طلق معبر ، ومظهرى لا يخلو من امتياز ... وكثيراً ما يجعانى قصر نظرى أبدو مرتبكاً ، واكن للحظة واحدة فقط . فالواقع أننى قد أودى شعور الغير بالتطرف فى الناحية المضادة - بسلوك شديد الخيلاء ويعينى ما حصلت من تعليم ممتاز على إخفاء عيوبى العقلية والبدنية ، حتى أن كثيراً من الناس ربما توقعوا منى أكثر مما أستطيع إعطاءه فى يسر . وعندى من الذكاء ما يكفى للمشاركة فى أى حديث ، دون أن يكفى للحديث طويلاً ومراراً . على أن ما فطرت عليه من تعاطف ولطف كثيراً ما يخف لنجدتى . وبى ولع طبيعى بالفن ... ويمنعنى كسلى أن أوغل فى الفنون والعلوم كما أشتى . وأنا إما مفرط فى العمل وإما عاطل منه . وفى استطاعتى الحكم على الأمور حكماً جيداً جداً ... ولكننى فى مسيس الحاجة للمشورة المخلصة اكى أنفذ أى خطة من بنات أفكارى . وأنا حساس جداً ، واكن الحزن يؤثر فى أكثر كثيراً من الفرح . فأنا أول من يبتئس ... وإذا أحببت أحببت حباً جماً ... ولست

محبا للثأر . ومع أننى فى أول لحظات غيظى قد أتوق للانتقام من أعدائى ،
لأ أننى لا قدرة لى أبداً على إنفاذ رغبتى ، فالحنو يقف دائماً حائلاً بينى وبين
الآثر» (١٧) .

وتوحى قدرة بونيا توفسكى على أن يرى ذاته - ويعبر عنها - على هذا
النحو الجميل بأنه ولد ليفكر ويكتب لايخطط وينفذ . وكان قد التقى
بمونتسكيو وقرأ فولتير ، واكتسب رهافة ونعومة المجتمع الفرنسى الفكرية
مع درجة من تلك « الحساسية » التى أخذت تجدد التعبير عنها فى روسو . وكان
شديد الحساسية للنساء ، ويشعر أن ما أعطيته ، جسداً وروحاً ، لا يقدر بثمن .
وقد شاع أنه قبض عليه فى باريس لعدم وفائه بدين ، ثم أطلق سراحه بعد
حبسه ساعة ، عندما دفعت مدام جوفران ١٠٠,٠٠٠ جنيه ليفرج عنه» (١٨) .

وبعد أن قضى فى باريس خمسة أشهر ، وإذ كان قد تعلم الانجليزية ،
فقد مضى إلى انجلترا واختلف إلى بعض جلسات البرلمان ، وتطلع إلى إعادة
تشكيل الموقف البولندى على غرار انجلترا كما صورها مونتسكيو . فلما عاد
من رحلاته (١٧٥٤) عين مشرفاً أول للتواين . وبعد عام رافق السير تشارلز
هانبرى ولیمز إلى روسيا ، وكانت النتائج كما أسلفنا . ثم عاد إلى وطنه عام
١٧٥٦ ، ولكنه ذهب إلى سانت بطرسبرج فى ١٧٥٧ سفيراً لبولنده . وشارك
فى المؤامرة ضد الزابث فى ١٧٥٨ ، وأكره على الرحيل عن روسيا دون
أن يمهل وحزنت كاترين على رحيله ، ولكنها حين أيدته ليرتقى عرش
بولنده لم يكن دافعها أنها لم تزل تحبه ، بل لأنه (فى زعمها) أقل حقاً فى
العرش من أى مرشح آخر ، وإذن فخليق به أن يكون أكثر عرفاناً بهذا
الصنيع (١٩) . أما هو فلم يفتق قط كل الإفاقة من تلك العلاقة الغرامية المثيرة ،
وكان يتذكر كاترين قبل أن تقسى السلطة قلبها ، وبقي افتتانها بها حتى حين
اتخذته مطية لإخضاع شعبه .

وبعد انتخابه بيومين أرسل النبأ إلى مدام جوفران :

« ماما العزيزة : يبدو أننى أجد لذة أعظم وأنا أدعوك بذلك الاسم

منذ أمس الأول . (وكانت أمه ميتة) لم يكن في تاريخنا كله انتخاب بهذا الهدوء وهذا الإجماع . . وكانت كل كبريات نبيلات المملكة حاضرات في ساحة الانتخاب وسط أفواج النبلاء . . . وسرني أن تنادى بي أصوات جميع النساء كأصوات جميع الرجال . . . فلم لم تكوني هناك ؟ إذن لانتخبتي ابنك » (٢١) .

وقد رأينا كيف اقتحمت « ماما » طرق أوروبا لتزور « ابنا » في قصره بوارسو (١٧٦٦) . وإذ لم يكن لديها مفهوم واقعي عن الفجوة التي تفصل بين الحضارتين الفرنسية والبولندية ، فقد تاقّت نفسها إلى أن تراه يرفع بولنده في عام واحد ما يقتضى رفعه قرناً ، وأصبحت مشورتها مصدر إزعاج له ، وكدرت محبة بونيا توفسكى البنيوية لها ؛ فتنفس الصعداء حين رحلت ، وإن هدأها بالمجاملات وبصورة لشخصه في إطار مرصع بالماس . واحتفظت بالصورة ولكنها ردت الماس . فلما نأت عنه عاودها حبها له في كل حرارته ، وكتبت له من فيينا تؤكد له « المحبة التي هي ضرورة من ضرورات حياتي » (٢١)

وبذل ستانسلاس ما وسعه من جهد . فانقطع لمهام الحكم خلال هذه السنوات الأولى بشعور الحاكم المخلص لواجبه . فكان يحضر كل يوم مداولات وزرائه ، ويعكف إلى ساعة متأخرة من الليل على مشكلات اضطلع ببحثها في تفصيل شديد التدقيق . وقد وفق إلى حد كبير في تدريب فيلق من الموظفين المدنيين ذوى الكفاية الفائقة والنزاهة المذهلة (٢٢) . ثم فتح بابه لمن يريد لقاءه ، وسحر الجميع بلطفه ، ولم يسحر الجميع بتحمسه للإصلاح . ولكن نشاطه خفف منه إحساسه بأنه معتمد على كاترين ، لا بل على الجيش الروسي الذي خلفته في بولنده ليكفل سلامته وطاعته . وكان سفيرها الكونت أوتوفون شتاكبرج يرقبه بعينه الساهرة مخافة أن ينسى سلطان روسيا عليه .

وكان الأعداء يحدقون به من بعيد ومن قريب . فالنبلاء البولنديون حزبان : الحزب الذي يتزعمه آل بوتوكي يدعو للاستقلال قبل الإصلاح ،

ويرغب في كبح سلطة الملك بالإبقاء على قوة الارستقراطية ، والحزب الآخر الذى يزعمه آل تشارتوريسكى يطلب الإصلاح أولاً ، وحمته أن بولنده بفوضاها الراهنة أضعف من أن تنضو عنها الحماية الروسية . وكان آل تشارتوريسكى مترددين في تأييد يونياتوفسكى ، فقد أحزنهم سرفه وكثرة خليلاته . وقد خصص له الديت ٢,٢٠٠,٠٠٠ طالر في العام ، وفي ١٧٨٦ زادها إلى ٦,١٤٣,٠٠٠ جولدن — وهو ما يوازى ثلث إيراد الحكومة . ولكنه تجاوز مخصصاته ، لأنه كان قد اقترض من المصارف في وطنه وفي خارجه . ودفعت الدولة ديونه مرتين ، ومع ذلك ففي عام ١٧٩٠ كان لايزال مدينياً بمبلغ ١١,٥٠٠,٠٠٠ جولدن ^(٢٣) . وكان مثل كاترين يتطلع إلى تخليد ذكرى ملكه بتشيد الصروح الباذخة ، ووزع نفسه وحاشيته على قصرين غالين ، وأقام حفلات الترفيه الكثيرة التكلفة ، وأغدق العطايا على الفنانين والكتاب والنساء .

وكانت جاذبيته غالية التكلفة . فلقد كان عند توليه العرش في الثانية والثلاثين من عمره ، وسيماً مثقفاً كريماً غير متزوج ، فجمع من حوله رهطاً من الحسان يتلهفن على يده وعلى كيس نقوده . وسر العديداً ممن أخفقن في الزواج منه ، يشاركنه فراشه ، وشاركت بعض الممثلات الباريسيات في الترفيه عن الملك . واحتج التشارتوريسكيون ، فاعترف بخطاياهم وتمادى فيها . وأخيراً قادت خليته تدعى بانى جرابوفسكا إلى المذبح في زواج سرى . وبعدها خضعت حياته الجنسية للرقابة الشديدة ، واستطاع أن يبذل اهتماماً أكثر بشئون الحكم والأدب والفنون .

وقد اهتم اهتماماً شخصياً بأعمال وحياة فناني جيله ومؤلفيه . وحذا حذو كاترين فجمع الصور والتماثيل والكتب ، وبنى قاعة للفن ومكتبة ، وأبرز في المكتبة تمثالاً لفولتير . ووجد عملاً للفنانين الوطنيين ، واستقدم غيرهم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . ولم يستطع بيرانيزى وكانوفا الحضور ، ولكنهما نفذاً أعمالاً له في إيطاليا . وقد حول نصف القصر الملكى إلى مدرسة للفن ،

ودبر المال ليمكن شباب الفنانين الواعدين من الدراسة في الخارج . وأسس قرب وارسو صناعة للبرسلان ضارعت منتجاته منتجات ميسن وسيفر . وقد ألهم بقدوته أثرياء البولنديين — كآدم تشارتوريسكى ، واليزابث لوبوميرسكا ، وهياين رادزيڤيل ، وغيرهم — ليجمعوا التحف ، ويكلفوا الفنانين بأعمال فنية ، ويحاولوا تنويعات الطراز الكلاسيكى الحديث محل روكوك الفترة السكسونية فى بناء قصورهم وزخرفتها . وكان هو ذاته يجذب مزيجاً من فن الباروك والفن الكلاسيكى ، وبهذا الطراز صمم دومينيكو مرليني قصر لازينكى على مشارف وارسو . وكان المصورون الأجانب أثناء ذلك يدرّبون جيلاً جديداً من الفنانين البولنديين الذين بلغوا مرحلة النضج بعد أن اختفت الحرية البولندية .

أما أول الخطوات التى أفضت إلى تلك الكارثة فكانت العقبات التى وضعها فردريك الأكبر فى طريق اصلاح بولنده لذاتها . وإلى ذلك الحين (١٧٦٧) لم يكن لدى كاترين فيما يبدو نية تقطيع أوصال قطار بولنده خاضع خضوعاً واضحاً للنفوذ الروسى ، فالتقسيم سيوسع رقعة بروسيا بحيث تغزو عائقاً أشد خطراً مما يمكن أن تكونه بولنده السلافية أمام مشاركة روسيا فى شئون غربى أوروبا وثقافتها . لذلك اكتفت بالمطالبة بإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية الكاملة . ولكن فردريك أراد أكثر من هذا . فهو لم يستطع قط أن يروض نفسه على قبول هذه الحقيقة ، وهى أن غربى بروسيا ، الألمانى البروتستنتى فى غالبية الكبرى ، خاضع للحكم البولندى الكاثولىكى . ومن ثم كان نوع من التقسيم لبولنده هدفاً لا يغيّب عنه . وأى تقوية لبولنده ، سياسية أو عسكرية ، ستعرق بلوغ أهدافه ؛ لذلك أيد عملاؤه حق النقض المطلق ، وعارضوا فى تشكيل جيش قومى بولندى ، ورحبوا بالخلافات المتحدة بين الكاثوليك والمنشقين لأنها تتيح ذريعة للغزو .

وتعاون تعصب الكهنوت الكاثولىكى الرومانى مع خطط فردريك . فقد قاوم كل محاولة تبذل لإعطاء المنشقين حقوقهم المدنية . وفى «روسيا البيضاء» — التى كانت آنئذ جزءاً من بولنده ، مشتملة على منسك — انتزعت

السلطات الكاثوليكية الرومانية مائتي كنيسة من أتباعها الروم الأرثوذكس وأعطتها لطائفة الموحدين ، ومنعت الجاليا الأرثوذكسية من ترميم كنائسها القديمة وبناء أخرى جديدة . وفي حالات كثيرة فصل الأطفال عن آبائهم لينشأوا على طاعة الكنيسة الرومانية ، وأسيتت معاملة القساوسة الأرثوذكس ، وأعدم بعضهم ^(٢٤) ، وكان بونيا توفسكى ، وهو ربيب جماعة الفلاسفة الفرنسيين ، ميالا إلى التسامح الديني ^(٢٥) ، ولكنه كان عليماً بأن الديت سيقاوم ، بالقوة ان اقتضى الأمر ، أى خطورة للسماح لغير الكاثوليكى الرومان بعضويته ؛ وأحس أنه ينبغي تأجيل اقتراحا كهذا حتى يستطيع تعديل من نوع ما لحق النقض المطلق أن يشد أزره . وأجاب فردريك وكاترين بأهما لا يطلبان من بولنده أكثر مما يمنحانه لأقلياتهم الدينية . وقدم للديت الذى اجتمع فى أكتوبر ونوفمبر ١٧٦٦ التماس من بروسيا وروسيا والدنمرك وبريطانيا العظمى بمنح اخوانهم فى الدين فى بولنده كامل حقوقهم المدنية .

وهنا أثارت بلاغة « كاجيتان سوليتك » أسقف كراكاو ثائرة النواب ، فهبوا غاضبين وطالبوا لا برفض الإلتماس فحسب ، بل بتقديم مؤيديه البولنديين للمحاكمة لأنهم خونة لبولنده ولله ^(٢٦) . ونجا بجلدهم من الموت نفر حاولوا الدفاع عن الملتمس ^(٢٧) . وحاول بونيا توفسكى أن يهدىء المجلس بإصدار (نوفمبر ١٧٦٦) نبذة سماها « آراء مواطن صالح » ودعا فيها جميع البولنديين للوحدة القرمية ، وأنذرهم بأن الشعب المنتقم على ذاته يحرض على الغزو . ثم رجا فى الوقت نفسه السفير البولندى فى بطرسبرج أن يفصل روسيا عن الدول موقعة الملتمس . وكتب يقول « لو أصرروا على هذا (الملتمس) فإنى لا أتوقع غير عشية كعشية (مذبحه) القديس بارتولميو للمنشقين ، وحصاداً من السفاكين أمثال رافياك يغتالوننى . . . وستحيل الامبراطوره عباءتى الملكية رداء (للقنطور) نيسوس . وسيكون على أن أختار بين نبل صداقتها وبين مناصبة وطنى العداة » . وردت عليه كاترين بطريق نيكولاى ربنان سفيرها فى وارسو تقول « لا أستطيع أن أتصور كيف يرى الملك نفسه خائناً لوطنه لمجرد أنه يؤيد مطالب العدل والإنصاف » ^(٢٨) .

لقد كان يفصلها عن بولنده من البون الشاسع سواء في المسافة أو التعليم ما لا يتيح لها الشعور بوطيس الغضب والكبرياء البولنديين . فلما ألفت جماعة من نبلاء البروتستنت اتحاداً في ثورن ، وألف حزب من المتشبعين لآل تشارتوريسكى اتحاداً في رادوم ، أمرت كاترين ربين بأن يعرض عليهما حاية روسيا . وتحت ستار هذه الحجة جلب ثمانين ألف مقاتل روسى إلى تخوم بولنده ، وبعضهم إلى وارسو ذاتها .

وعاد الديت إلى الإجتماع في أكتوبر ١٧٦٧ . وحض الاسقفان زالوسكى وسولتيك النواب على الوقوف بحزم أمام أى تغيير في الدستور . وهنا قبض ربين على الأسقفين واثنين من العلمانيين بتهمة إهانة الامبراطورة متخطياً بونيا توفسكى ، ونقلهم إلى كالوجا على تسعين ميلا جنوب غربى موسكو . فاحتج الديت ، وأعلن ربين أنه إذا لى المزيد من المعارضة فإنه لن يكتفى بترحيل أربعة أقطاب فقط بل أربعين . وفى ٢٤ فبراير ١٧٦٨ استسلم الديت لتهديدات الحرب وأبرم مع روسيا معاهدة قبل بها كل مطالب كاترين . ففتح المنشقون الحرية الكاملة للعبادة الدينية ، وحقهم فى أن يختاروا لعضوية الديت وللوظائف العامة ، وتقرر أن تنظر الدعاوى القضائية بين الكاثوليك والمنشقين أمام محاكم مختلطة . وسر الديت وكاترين وفرديك بتثبيت المعاهدة لحق النقض المطلق ، مع بعض استثناءات للتشريع الاقتصادى . وقبل الديت كاترين حامية لهذا الدستور الجديد ، ولقاء هذا ضمنت كاترين الوحدة الإقليمية لبولنده ما استمر هذا الإتفاق . واغتبطت لأنها لم نكتف بمنح بولنده نصيباً من الحرية الدينية أكبر حتى مما تمتعت به انجلترا ، بل أنها أحبطت خطة فرديك لتقسيم بولنده . وتلقى بونيا توفسكى تهائى جماعة الفلاسفة وازدراء شعبه .

٤ - التقسيم الأول

اتفق الوطنيون والقساوسة البولنديون ١٧٦٨ - ٧٢ مع فرديك على عدم قبول الموقف . وأدان الأكليروس الكاثوليكي الرومانى بقوة تسليم استقلال بولنده الذاقى لامرأة ملحدة روسية . واستنفر البولنديين رجالان ،

أسقف كامرفنيك المسمى آدم كراسنسكى، ويوزف بولاسكى (أبوكازيمير بولاسكى الذى قاتل دفاعاً عن أمريكا) ، بالعظاات والنشرات ليؤكدوا من جديد حريتهم السياسية ودكتاتوريتهم الدينية . فما أنقضى أسبوع على استسلام الديت لربنن حتى ألفت جماعة من البولنديين (٢٩ فبراير ١٧٦٨) اتحاد «بار» — وهى مدينة على الدينيستر فى أوكرانيا البولندية . وكان الأقطاب الذين مولوا الحركة مدفوعين بكراهيتهم لكاترين والملك ، وكان «الجمهور الأبله» كما لقب فردريك أتباعهم يضطرم غيرة على المذهب الحق الأوحده ، وتردد صدى هذه الحماسة فى شعر الشعراء يتحسرون فى مرأى حزينه على إذلال بولنده و «ارتداد» ملكها . وبعثت تركيا والنمسا للوطنيين السلاح والمال ، وأقبل دمورييه من فرنسا لينظمهم فى وحدات مقاتلة . وانضم البولنديون الراغبون فى رد الأسره السكسونية للعرش إلى الحركة التى مالبثت أن انتشرت إلى مواقع متفرقة فى طول البلاد وعرضها . وكتب ربنن إلى كاترين يقول «ان بولنده بأسرها اشتعلت ناراً» . وفكر بونيا توفسكى فى الانضمام إلى الاتحاد ، ولكن أعضاء الغلاة المتهورين نفروه وأقصوه عنه بالمطالبة بخلعهم إن لم يكن بإعدامه (٢٩) . وإذا جاز أن نصديق فولتير (٣١) ، فإن ثلاثين من أعضاء الاتحاد أقسموا فى تشستوكوفا هذا القسم :

«نحن الذين أثارنا غيرة مقدسة دينية ، والذين صممنا على الثأر لله والدين والوطن ، بعد أن أسخطنا ستانسلاس أوغسطس ، محترق الشرائع السماوية والأرضية ، وراعى الكفار والمهرطقين ، نتعهد ونقسم أمام صورة أم الرب المقدسة المعجزية بأن نستأصل من وجه الأرض شأفة من يدنسها بوثة الدين . فليساعدنا الرب ! » .

وأمر ربنن الجيش الروسى بإخماد الفتنة ، فطرد الاتحاديين وراء الحدود التركية وأحرق مدينة تركية . فأعلنت تركيا الحرب على روسيا (١٧٦٨) وطالبت بجلاء الروس عن بولنده وتحريرها . واغتم القوزاق فرصة الاضطراب الشديد ليغزوا أوكرانيا البولندية ، فبطشوا بملك الأرض ، ووكلائهم اليهود ، والفلاحين الكاثوليك الرومان أو البروتستانت ، فى مهرجان من

التقتيل العشوائي ، ففي مدينة واحدة قتلوا ستة عشر ألف رجل وامرأة وطفل . ورد الاتحاديون بقتل من وصلت إليه أيديهم من الروس والمنشقين ، وهكذا عانى البروتستنت واليهود من خطر مضاعف . ففي هذه السنوات بحملتها (١٧٦٨ — ٧٠) هلك خمسون ألفاً من سكان بولنده سواء في المذابح أو المعارك (٣١) .

وبدأت كل الأطراف الآن حديث التقسيم . أما الاتحاديون فقد اتهمهم أعداؤهم بأنهم وافقوا على تقسيم بولنده فيما بينهم وبين حلفائهم (٣٢) . ففي فبراير ١٧٦٩ أرسل فردريك إلى سنانت بطرسبرج اقتراحاً بتقسيم بولنده بين روسيا وبروسيا والنمسا ، واشترطت كاترين في ردها أن تمتد بروسيا والنمسا يد العون لروسيا لطرد الترك من أوروبا ، لكي توافق على أن تخصص بروسيا بذلك الجزء من بولنده الذي يفصل بروسيا الكبرى عن بروسيا الشرقية ، أما باقي بولنده فيخضع للحماية الروسية (٣٣) ، ولكن فردريك تردد . أما شوازيل المتحدث باسم فرنسا فقد اقترح على النمسا أن تستولى على الأقاليم البولندية المجاورة للمجر . ورأتها النمسا فكرة موافقة في وقت موافق ، وعليه ففي أبريل ١٧٦٩ احتلت إقليم سبتر البولندي ، الذي كانت المجر رهنته لبولنده في ١٤١٢ ولم يفك رهنه قط (٣٤) . وفي ١٧٧٠ اقترح الترك الذين كانوا آتئذ يقاتلون بصفتهم مدافعين عن بولنده — على النمسا تقسيم بولنده بين النمسا وتركيا (٣٥) .

وبينما كانت هذه المفاوضات دائرة ارتضت الدول الغربية فكرة تقسيم بولنده نتيجة لامناص منها لفوضاها السياسية ، وأحقاها الدينية ، وعجزها الحربي و « أدرك كل رجل دولة في القارة أن الكارثة واقعة لا محالة » (٣٦) . ولكن البولنديين من خصوم الاتحاديين في هذا الوقت أوفدوا عضواً في الديت ليطلب إلى الفيلسوف الاشتراكي مابلي ، وإلى عدو جماعة الفلاسفة روسو ، أن يضعوا دستوراً مؤقتاً لبولنده جديدة . وقدم مابلي توصياته في ١٧٧٠ — ٧١ ، أما روسو فقد فرغ من « دستور بولنده » في إبريل ١٧٧٢ — بعد شهرين من التوقيع على أولى معاهدات التقسيم .

واستمتع اتحاد بار بلحظات من النشوة قبل انهياره . ففي مارس ١٧٧٠ ،
ومن مدينة فارنا التركية ، أعلن خلع بونيا توفسكى . وفي ٣ نوفمبر ١٧٧١ ،
اعترض بعض — الاتحاديين طريقه وهو يغادر منزل عم له في الليل ،
وتغلبوا على حرسه ، وقتلوا أحدهم رمياً بالرصاص ، ثم جروا الملك من
داخل عربته ، وأخذوا قطعاً في رأسه بضربة سيف ، ثم اختطفوه من عاصمة
ملكه . ولكن دورية من الشرطة هاجمتهم في غابة بيلنى ، وأثناء العراك هرب
بونيا توفسكى ، واتصل بالحرس الملكى ، فأتى رجاله وعادوا به إلى قصره
مشعث الشعر ينزف دماً في الخامسة صباحاً . وهكذا قضى على كل احتمالات
المصالحة بين الحكومة والاتحاد . ولجأ بونيا توفسكى إلى المساعدة الروسية ،
وقمع الاتحاد ، وبقيت منه بقية في تركيا — الهلال يحمى الصليب (١٧٧٢) (٣٧)

على أن تقدم جيوش روسيا إلى البحر الأسود والدانوب أزعج كلا من
بروسيا والنمسا . فلا فردريك الثانى ولا جوزف الثانى كانا مغتربين بتوقع
سيطرة روسيا على البحر الأسود ، وأسوأ من ذلك على الآستانة . وكانت
بروسيا قد تعهدت في معاهدتى ١٧٦٤ و ١٧٦٦ بأن تساعد روسيا إذا هوجمت ،
وكانت تركيا من الناحية الشكلية هى المعتدى في حرب ١٧٦٨ إلى روسيا
التركية ؛ وكانت بروسيا تعرض خزانها للإفلاس بإرسالها المعونات المالية
لروسيا . أما النمسا التى ساءها دخول القوات الروسية فلاحيا فكانت تهدد
بالتحالف مع تركيا ضد روسيا ؛ في تلك الحالة كانت روسيا ستنتظر من
بروسيا أن تهاجم النمسا . ولكن فردريك كان قد ضاق ذرعاً بالحرب . لقد
خاض حربين ليستولى على سيليزيا ويحتفظ بها ، فلم يخاطر بها الآن ؟ ومن
ثم أثر الطرق الدبلوماسية . وتساءل ألا يمكن استرضاء الدول الثلاث بحصص
يلتهمونها من أرض بولنده ؛ لو أن الأمور تركت تجرى مجراها والسفير
الروسى يحكم بولنده فعلا لما كانت المسألة إلا مسألة وقت حتى تبتلع روسيا
ذلك البلد كلية مستترة وراء أى حجة . فهل ما زال في الإمكان الحيلولة
دون هذا ؟ بلى ، إذا ارتضت كاترين أن تأخذ بولنده الشرقية فقط ،
وتدع فردريك يأخذ بولنده الغربية وتنسحب من الدانوب . وهل يخفف

من شره يوزف للقتال أن يعطى نصيباً من الغنيمة ؟

وعليه ففي يناير ١٧٧١ اقترح الأمير هنرى ، أخو فردريك ، الخطة على الدبلوماسيين الروس في سانت بطرسبرج . واعترض بنين بأن روسيا قد ضمنت وحدة بولنده الإقليمية ، فذكروه بأن هذا الضمان كان رهناً بالالتزام بولنده بدستورها الجديد وتحالفها مع روسيا ، وأن هذا الالتزام انقطع بانضمام العدد الكبير من النواب للاتحاد بار المتמרّد . ومع هذا لم ترض كاترين عن الخطة . فأى شىء يدعوها لإعطاء فردريك جزءاً من بولنده بينما قد تأخذ هي الكل بعد قليل ؟ ولم تدعم قوة بروسيا بمزيد من الأرض ، والموارد ، والثغور البلطية ، ومزيد من الجند الفارعين ، ولكنها لم ترد خووض حرب مع فردريك ، فقد كان لديه ١٨٠,٠٠٠ رجل تحت السلاح ، وآثرت على ذلك أن تجعله يمنع يوزف من الاتحاد مع تركيا ضد روسيا ، فهدفها الحاضر ليس بولنده بل البحر الأسود . وعليه ففي ٨ يناير ١٧٧١ ، أشارت لهنرى عرضاً في حفلة إلى موافقتها مبدئياً على خطة فردريك .

وانقضى عام قبل أن تتمكن المفاوضات من الفصل في تقسيم الغنيمة . فقد أراد فردريك أن يأخذ داننرج ، فاعترضت كاترين ، وكذلك بريطانيا التى كانت تجارتها مع البلطيق ترسو على ذلك الثغر . وفي غضون هذا عبأت النمسا قواتها ، وتحالفت سرّاً مع تركيا . وفي ١٧ فبراير ١٧٧٢ وقع فردريك وكاترين « اتفاقاً » على تقسيم بولنده . وألانت كاترين جانب يوزف بتخليها عن جميع مطالب روسيا في فلاحيا والمدافيا ؛ ثم إن رداءة محصول ١٧٧١ جعل من المستحيل عليه إطعام جيشه . وكانت ماريا تريزا من جهة أخرى تتوسل إلى ولدها بكل دموعها لتمنعه من الاشتراك في اغتصاب بولنده ، غير أن فردريك وكاترين أكرهاه على الموافقة بشروعهما في الاستيلاء الفعلى على الأقاليم التى خصما نفسيهما بها . وفي ٥ أغسطس ١٧٧٢ أضاف يوزف توقيعهم على ميثاق التقسيم .

أما المعاهدة فبعد الديباجة التى انتهت إلى الثالث المبارك ، وافقت على أن تحتفظ بولنده بثلثي أرضها وثالث سكانها . واستولت النمسا على بولنده الجنوبية بين فولينيا والكربات ، مع غاليسيا وبودوليا الغربية - ٢٧,٠٠٠

ميل مربع ، و ٢,٧٠٠,٠٠٠ — نسمة . وأخذت روسيا « روسيا البيضاء » (بولنده الشرقية إلى دويينا ودينبر) ٣٦,٠٠٠ ميل مربع ، و ١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذت بروسيا « بروسيا الغربية » فيما عدا داننرج وتورن ١٣,٠٠٠ ميل مربع و ٦٠٠,٠٠٠ نسمة . وأخذ فردريك أصغر نصيب ، ولكنه كان قد ألزم المتآمرين بالسلام ، و « خاط » — على حد قوله بروسيا الغربية و بروسيا الشرقية مع براندنبرج . وقد قال الوطني ترايتشكي إن فردريك على أية حال لم يفعل أكثر من أنه رد إلى ألمانيا « معقل الفرسان الثيوتون » — وادى فايشيزال الجميل — الذى انتزعه الفرسان الجرمان من البرابرة في الأيام الخالية» (٣٨) وذكر فردريك أوربا بأن سكان بروسيا الغربية كثرتهم العظمى ألمانية وبروتستنتية ، أما كاترين فقد ذكرت أن الإقليم الذى أخذته يسكنه كله تقريباً اتباع الكنيسة الرومية الكاثولوليكية المتحدثون بالروسية (٣٩) .

وسرعان ما احتلت الدول الثلاث أنصبتها من الغنيمة بجيوشها . واستنجد بونيا توفسكى بالدول الغربية لتمنع التقسيم ، ولكنها كانت في شغل شاغل عنه ؛ ففرنسا تتوقع الحرب مع إنجلترا ، وقد ترددت في معارضة حليفها النمسا ، وإنجلترا تواجه الثورة الوليدة في أمريكا ، والخطر الذى قد يأتها من فرنسا وإسبانيا ؛ ونصح جورج الثالث بونيا توفسكى بأن يصلى لله (٤٠) . وطالبت الدول صاحبة التقسيم بدعوة الديت ليصدق على التقسيم الجغرافى الجديد ؛ فهاطل بونيا توفسكى عاماً ، وأخيراً دعا الديت للاجتماع في جروندنو . ورفض الكثير من النبلاء والأساقفة حضوره ، وبعض الذين جاءوا واحنحجوا نفوا إلى سيبيريا ؛ وقبل غيرهم الرشا ؛ وحولت البقية المتخلفة من الديت نفسها إلى اتحاد كونفدرالى (يبيح فيه القانون البولندى حكم الأغلبية) ، ووقع الديت المعاهدة التى نزلت عن الأقاليم المنتزعة من بولنده (١٨ سبتمبر ١٧٧٣) وبكى بونيا توفسكى ووقع كما بكّت ماريا تريزا ووقعت .

وقبلت أوربا الغربية هذا التقسيم الأول على أنه البديل الوحيد لابتلاع روسيا لبولنده ابتلاعاً تاماً . ويقال إن بعض الدبلوماسيين « أذهلهم اعتدال

الشركاء، الذين اكتفوا بالثالث في حين كان الكل رهن إشارتهم إن طلبوه»^(٤١). واغتنط جماعة الفلاسفة لأن بولنده المتعصبة عاقبها مستبدوهم المستنرون، ورحب فولتير بالتقسيم باعتباره هزيمة تاريخية للكنيسة الكاثوليكية^(٤٢)، ولكنه بطبيعة الحال لم يكن سوى انتصار للقوة المنظمة على العجز الرجعي.

٥ - التنوير البولندي ١٧٧٣ - ٩١

كان على بونيا توفسكى أن يختار الآن بين روسيا وبروسيا حامياً له وسيداً عليه. فاختار روسيا، لأنها أكثر بعداً، ولأن روسيا دون غيرها تستطيع منع فردريك من الاستيلاء على داننرج وتورن. وكانت كاترين توافقة إلى الحيلولة دون مزيد من توسع بروسيا، التي كان جيشها العقبة الكؤود في طريق التوسع الروسى غرباً. لذلك أمرت سفيرها في وارسو بأن يقدم العون لبونيا توفسكى بكل طريقة تتفق ومصالح روسيا، وأرسلت إلى الملك المقترحات التي وضعها بنين من قبل لدستور بولندى أيسر تنفيذاً. وقد احتفظ هذا الدستور بنظام الملكية الانتخابية وحق النقض المطلق، ولكنه دعم قوة الملك بأن أقام برأسته، وكأداته التنفيذية، مجلساً دائماً من ستة وثلاثين عضواً، ينقسم إلى وزارات للشرطة والعدل والمالية والشئون الخارجية والحرب؛ ثم نص على إنشاء جيش نظامى من ثلاثين ألف مقاتل. وخاف النبلاء أن يهدد جيش كهذا سيطرتهم على الملك، فخفضوا العدد إلى ثمانية عشر ألفاً، على أن الديت الذى انعقد في ١٧٧٥ صدق على الدستور الجديد مع هذا الاستثناء واستثناءات صغيرة أخرى، وأصبح في وسع بونيا توفسكى الآن أن يشرع في رد شيء من العافية على الأمة.

واستمر الفساد ولكن الفوضى قلت، فأمكن التغلب على عصابات قطاع الطرق، ونما الاقتصاد القومى. وعمقت الأنهار لتسمح بمرور السفن الكبيرة، وشقت الترع لتصل بين الأنهار، وأكملت في ١٧٨٣ «قناة ملكية» تربط البحرين البلطى والأسود. وازداد سكان بولنده بين عامى ١٧١٥ و ١٧٧٣ من ٦,٥٠٠,٠٠٠ إلى ٧,٥٠٠,٠٠٠، وتضاعف دخل الدولة. وتقرر نظام للمدارس القومية، وأعدت الكتب المدرسية وزود بها التلاميذ،

ومتحت الهبات من جديد للجامعة كراكاو وفلنوبو بحث فيهما النشاط ، وأسست الدولة كليات لتخريج المعلمين ومولتها . وكان يونياتوفسكى يحب أن يحيط نفسه بالشعراء والصحفيين والفلاسفة . كتب كوكس يقول « إن الملك يولم كل خميس للأدباء المشهورين بعلمهم وقدراتهم ، وجلالته يترأس بنفسه المائدة » (٤٣) . ويقود النقاش في الكتب والأفكار . وقد استضاف ثلاثة مؤلفين ليعيشوا معه ، ورفع دخل مؤلفين آخرين في صمت (٤٤) . وكان آلاف البولنديين ، مع تقديمهم فروض الإجلال للكنيسة — يقرءون لوك ومونتسكيو وفولتير وديدرو ودالامير وروسو . وهكذا أرسيت أسس التنوير البولندى أو الستانسلافى .

وقد اجتذب يسوعى يدعى آدم ناروشفتش أذن الملك بشعره ، فرقى أسقفاً ، ولكنه واصل نظم الشعر العاطفى للطبيعة ، وما زال « ترنيمته للشمس » و « فصوله الأربعة » تحب فيه من يستطيعون قراءته فى الأصل . وقد استعملت « قصائده المجددة » ألفاظاً شعبية رابيلية الطابع أحياناً أو نابية . وطلب إليه ستانسلاس أن يكتب تاريخاً لبولنده يجمع بين السهولة والعمق . فأنفق الشاعر فى هذا العمل تسع سنين ، وأخرج فى ستة مجلدات (١٧٨٠ - ٨٦) أثراً ممتاز بتوثيقه الدقيق . ولكن حماسه فترت بعد التقسيم الثانى ، وأصيب بالاكنتاب ، ولم يعمر أكثر من سنة بعد التقسيم الأخير (٤٥) .

أما أبرز كتاب العهد البولنديين فهو اجناتسى كراسيىكى . وقد اكتسب فى رحلاته صداقة فولتير وديدرو (٤٦) وأصبح قسيساً ، ثم رئيساً للأساقفة آخر الأمر ، ولكن ستانسلاس حثه على إطلاق العنان لمواهبه الشعرية . فكتب ماحمة هازلة سماها « ماحمة الفيران » انتقد فيها نقداً لاذعاً حروب جيله وصورها معارك بين الجرذان والفيران . وفى قصيدته « هوس الرهبنة » (١٧٧٨) هزأ بالخصومات الديرية وأسلحتها الفتاكة هى الكتب اللاهوتية . ثم اتجه إلى النثر ، فروى فى « مغامرات السيد نيقولا المكشف » (١٧٧٦) كيف اكتشف نبيل بولندى شاب ، مزود بكل حصيلة العصر وعواطفه ، تحطمت به السفينة على جزيرة غريبة ، أن الرجال والنساء يمكن أن يكونوا (م ٩ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

بمجددين فضلاء رغم وجودهم في « حالة الفطرة » . وقد اقتنى خطى هومر وسويفت وديفو في أعماله هذه ، ثم اقتبس أسلوب أديسون وأخرج سلسلة من صور الحياة اليومية ، منها « بان بودستولى » (١٧٧٨ وما بعدها) التي تصف حياة جنتلمان ومواطن مثالي . وفي « قصص خرافية وأمثال (١٧٧٩) تحدى فيدروس ولافونتين ، وهاجم في تهكم لاذع خراب الذمة والوحشية المستشرية من حوله . وكانت آخر نصيحة له هوراسية النزعة ، « التمس لك ركناً هادئاً ، ودع السعادة تأتيك خلسة » (٤٧) .

ومع أن تأثير التنوير الفرنسي على ناروشفتش وكراسيكي قد حد منه سلطان الدين ، إلا أنه ظهر بشكل قاطع في ستانسلاس ترمبيكي ، الذي لم يذكر الدين قط إلا بروح العدا . وقد مجد شعره الطبيعة ، ولكن ليس في تلك المظاهر السارة التي كثيراً ما تحرك العواطف الرقيقة ؛ فقد أثر جوانبها الأكثر جموحاً ووحشية ، إسرافها المجنون في إنتاج النبات والحيوان ، عواصفها وسيولها ، صراع الحياة مع الحياة والمأكول مع الآكل ؛ واقتبست خرافاته شكلها من لافونتين ولكن روحها منقول عن لوكريتيوس . وقد أكسبته قوة شعره ورهافته وصقله مكانة مرموقة في هذا الازدهار الأدبي . وسانده بونيا توفسكي في جميع محنه ، وعند خلع الملك رافقه الشاعر في المنفى ، ومكث معه حتى مات .

وكان هناك شعر ديني كثير ، لأن الدين كان العزاء الأخير للبولنديين في خطوطهم الشخصية والقومية . وقصائد فرانتشيشيك كاريونسكي المسماة « أغنية الصباح » و « أغنية المساء » و « ولادة المسيح » أدب كما أنها تعبد . أما فرانتشيشيك كتيانين فكان يتنقل في غير عناء بين هذين العدوين القديمين ، الدين والجنس ، فحين أشرف على دخول القسوسية اكتشف أناكريون والحب ؛ ونشر قصائد غزلية « إيروتিকা » (١٧٧٠) ، ونشد سعادة الدنيا ، ثم عاد إلى الدين ، ومات مجنوناً . إن محاولة التوفيق بين النقيضين قد تفضى إلى الجنون كما تفضى إلى الفلسفة .

أما في مضمار الدراما فإن أبرز رجالها هو فويتشيس بوجو سلافسكي ،

الذى يكرم وطنه ذكره باعتباره «أبا المسرح البولندى» ؛ ويجوز لنا أن نسميه «جاريك» بولنده ، ولكن البولنديين لو سئلوا لوصفوا جاريك بأنه بوجوسلافسكى انجلتره . وكان فيما يبدو أول بولندى كرس حياته كلها للمسرح ، ممثلاً ، وكاتباً مسرحياً ، ومخرجاً ، ومديراً لمسارح دائمة فى وارسو ولفوف ، ومديراً لشركات نشرت تذوق الدراما فى طول البلاد وعرضها ووراء الحدود . قدم شكسبير وشريدان مترجمين ، وألف هو نفسه كوميديات ما زال بعضها يمثل على المسرح البولندى . وكانت أفضل تمثيليات هذه الفترة هى «عودة النائب» بقلم جوليان أورسين نيمنتشفتش الذى كان هو نفسه نائباً ، فقد صور جانبي الأزمة السياسية تصويراً درامياً فى حب نائب من دعاة الإصلاح لفتاة يدافع أبواها عن امتيازات الأقطاب وأساليب العيش فى الماضى .

وآخر رجال التنوير البولنديين وأعظمهم هو هوجو كولونتاچ . نقل إليه تعليمه عدوى أفكار جماعة الفلاسفة ، ولكنه ستر هرطقاته سترأ كافياً حتى حصل على وظيفة كاهن مريحة فى كراكاو . وعينه يونياتوفسكى (١٧٧٣) عضواً فى لجنة للتعليم ، وضع لها كولونتاچ وهو لا يزال فى الثالثة والعشرين برنامجاً لإصلاح تعليمى يتفق وخير برامج جيله . وحين ناهز السابعة والعشرين وكل بإعادة تنظيم جامعة كراكاو ، وأنجز المهمة فى بضع سنين ، ثم بقى فى الجامعة مديراً لها . وفى «خطابات من كاتب مجهول إلى رئيس الديت» (١٧٨٨ — ٨٩) ، وفى «القانون السياسى للأمة البولندية» (١٧٩٠) قدم مقترحات أصبحت أساساً لدستور ١٧٩١ .

وكافحت بولنده ، بفضل حث شعرائها ومعلقها ، لتثير نفسها وتصبح دولة قوية قادرة على الدفاع عن ذاتها . وحانت الفرصة حين عرض فردريك وليم الثانى — خلف فردريك الثانى — على «ديت السنين الأربع» الذى استمر انعقاده من ١٧٨٨ إلى ١٧٩٢ تحالفاً تتعهد فيه بروسيا بأن تحمى جيشها القوى بولنده من أى تدخل أجنبى . وكانت روسيا فى شغل بحربها مع تركيا والسويد ، فالآن قد تستطيع بولنده أن تعتق نفسها من خنوعها الطويل لكاترين ، وتتخلص من أعمال السلب والنهب التى اقترفها الجنود الروس على الأرض

البولندية طوال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة . وحل الديت مجلس بونيا توفسكى الدائم رغم احتجاجاته ، ووافق على أن يجند بإذن الديت جيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وأمر الجيش الروسى بالرحيل عن بولنده فوراً (مايو ١٧٨٩) ، لما كاترين التى كانت فى حاجة لجميع قواتها فى مواقع أخرى فلم تقاوم ، ولكنها أقسمت على الانتقام . وفى ٢٩ مارس ١٧٩٠ أبرم الديت تحالفاً مع بروسيا .

وكان بونيا توفسكى هو أيضاً قد ثمل الآن بجو الحرية . فبند ولاءه لكاترين وتزعم صياغة دستور جديد . وقد نصت شروطه على جعل الملكية وراثية ، ولكنها ضمنت وراثه البيت الملك السكسونى للعرش بعد موت بونيا توفسكى الذى لم يعقب . وتقرر أن توسع سلطات التاج التنفيذية بإعطاء الملك حق النقض المعلق - أى حق منع قرار وافق عليه دابت من أن يصبح قانوناً حتى يؤكد الدابت التالى . ونص على أن يعين الملك وزراءه والأساقفه ، وأن يتولى قيادة الجيش ، وعلى أن ينتخب عدد صغير من المواطنين وغيرهم من أهل المدن نواباً . أما الديت فيتألف من مجلسين ؛ مجلس للنواب له وحده الحق فى وضع القوانين ، ومجلس للشيخوخ - يتألف من الأساقفه وحكام الأقاليم ووزراء الملك - تشترط موافقته على أى قانون . أما حق النقض المطلق فتحل محله قاعدة الأغلبية . ويعترف بالمذهب الكاثوليكي الرومانى ديناً سائداً للأمة ، ويعد الإرتداد عنه جريمة ، وفيما عدا ذلك فحرية العبادة مكفولة للجميع . وبقيت القنية ، ولكن للفلاحين الآن أن يستأنفوا دعاواهم من المحكمة الوراثة إلى محكمة إقليمية أو قومية . وكان تأثير الدستور الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٧ - ٩٨) واضحاً فى هذه التوصيات . ذلك أن البولنديين الذين حاربوا دفاعاً عن المستعمرات الأمريكية كانوا قد هياؤا ذهن بونيا توفسكى ، ولم يكن قد نسى قراءته للوك ومونتسكيو وجماعة الفلاسفة .

ورغبة فى ضمان التصديق على مقترحاته لجأ بونيا توفسكى إلى الحيلة ، ذلك أن كثيراً من أعضاء الديت ذهبوا إلى مواطنهم لقضاء عطلة عيد القيامة عام ١٧٩١ . فدعاه الملك للانعقاد فى ٣ مايو ، وهو تاريخ أبكر من أن

يُتيح للأعضاء البعيدين العودة إلى وارسو لحضور الافتتاح الجديد ؛ أما النواب القريبون الذين وصلوا في الميعاد فكان أكثرهم أحرار النزعة يمكن الاعتماد عليهم في تأييد الدستور الجديد . وعرض عليهم في القصر الملكي بمجرد اجتماعهم ، فقبول بتصفيق جارف ، وصدق عليه بأغلبية كبيرة . وقد تذكر البولنديون الوطنيون ذلك اليوم ، الثالث من مايو ١٧٩١ ، في فخر واعتزاز ، وخلدوه في الأدب والفن والأغاني البولندية .

٦ — تمزيق بولنده ١٧٩٢ — ٩٥

اعترفت جميع الدول بالدستور الجديد لإلاروسيا . ووصفه إدموند بيرك بأنه « أنبل امتياز نالته أمة في أى زمان » وصرح بأن ستانسلال الثانى قد تبوأ مكاناً في التاريخ بين عظماء الملوك ورجال الدولة (٤٨) ، ولكن هذه الحماسة ربما كانت انعكاساً لابتهاج انجلترا بهزيمة كاترين .

وأخفت الامبراطورة حيناً عداها لبولنده الجديدة ، ولكنها لم تغفر طرد جيشها منها على عجل ، ولا لإحلال النفوذ الروسى محل الروسى فى الشئون البولندية . فلما أنهت معاهدة ياسى (٩ يناير ١٧٩٢) حربها مع تركيا ، وتحررت من الخوف من شريكها السابقين فى الجريمة — بروسيا والنمسا — لتورطهما فى الحرب ضد فرنسا الثائرة (ابريل ١٧٩٢) ، تلفتت حولها تبحث عن مدخل جديد إلى بولنده .

وقد هبأها لها البولنديون المحافظون ، إذ وافقوا كاترين كل الموافقة على أن دستور بونيا توفسكى قد صدق عليه ديت جمع على عجل بحيث لم يستطع أشرف كثيرون حضوره . وكان فيليكس بوتوكى وغيره من الأقطاب ساخطين أشد السخط على التخلي عن حق النقض المطلق الذى ضمن لهم القوة أمام السلطة المركزية ، ولم يكونوا راغبين فى النزول عن حقهم فى انتخاب الملك ، وفى الهيمنة عليه تبعاً لذلك . ورفض بوتوكى حلف يمين الولاء للمرسوم الجديد ، ثم قاد جماعة من النبلاء إلى سانت بطرسبرج وطلب إلى الإمبراطرة أن تساعد على إعادة الدستور الأقدم (دستور ١٧٧٥) الذى

سبق أن تعهدت بحمايته . فأجابت بأنها لا تريد التدخل في بولنده بناء على طلب أفراد قليلين ، ولكنها ستنتظر في نداء من أقلية بولندية منظمة يعتد بها ، وأحيط فردريك وليم الثاني علماً بهذه المفاوضات ، وكان متورطاً في الحرب ضد فرنسا ، كارهاً لخوض حرب ضد روسيا ، فأخبر الحكومة البولندية (٤ مايو ١٧٩٢) بأنها إن كانت تنوى الدفاع عن دستورها الجديد بقوة السلاح فعليها ألا تتوقع الدعم من بروسيا ^(٤٩) . وقفل بوتوكي إلى بولنده ، وألف (١٤ مايو ١٧٩٢) ، في بلدة بأوكرانيا ، اتحاد تارجوفيك ، ودعا للانضواء تحت لوائه كل الذين يريدون إعادة الدستور القديم . ولقب اتباعه أنفسهم بالجمهوريين ، وأدانوا تحالف بولنده مع بروسيا ، وأثنوا على كاترين ، واتمسوا بركتها وطلبوا جيشها .

فارسلتها جميعاً ، وزحف الاتحاديون على وارسو بعد أن توفر لهم هذا الدعم . وكانت دعوتهم إلى « الحرية » قد أحدثت بعض التأثير ، لأن مدناً عديدة استقبلتهم استقبالها للمحررين ؛ وفي تريسابول (٥ سبتمبر) رحب القوم ببوتوكي كأنه فعلاً ملك بولنده الجديد . ودعا بونياوفسكى الديت أن يعطيه كل السلطات التي تازم للدفاع . فعينه دكتاتوراً ، ودعا كل الذكور البالغين من البولنديين للخدمة العسكرية ، ثم ارفض . وعين بونياوفسكى ابن أخيه ، الأمير يوزف بونياوفسكى ذا التسعة والعشرين عاماً ، قائداً أعلى للجيش الذي وجدته مفتقراً إلى التدريب ومجهزاً أسوأ تجهيز . وأمر يوزف جميع كتائب الجيش بأن تنضم إليه في لوبار على نهر سلوتش ، ولكن القوات الروسية كانت قد طوقت الكثيرين فلم يستطيعوا الحضور ، والذين حضروا كانوا أضعف من أن يقفوا الزحف الروسي . وتقهر الشاب إلى بوارن ، مركز إمدادات تقهرماً منظملاً أتاحه قتال المؤخرة الباسل بقيادة تاديوس كوتشيوسكو ، الذي كان قد حارب من قبل في صفوف المستعمرات في أمريكا ، وكان الآن وهو في السادسة والأربعين عريقاً في أمجاد الوطنية والحرب .

وفي ١٧ يونيو ١٧٩٢ التقى البولنديون بجيش روسي كبير عند زيلنتسي ، وهزموه في أول معركة حامية انتصرت فيها بولنده منذ أيام سوييسكي . هنا أيضاً أثبت كوتشيووسكو مهارته ، باستيلائه على ربوة سيطرت منها مدفعيته على ساحة المعركة ؛ أما يوزف ، الذي كان إلى الآن موضع الريبة في كفايته من مرعوسيه الذين في مثلي عمره ، فقد كسب احترامهم بقيادته احتياطيه من الجنود بشخصه ليكره الروس على التقهقر . وأثلج نبأ النصر صدر بونياوفسكي ، ولكن كاد يغلب هذا النبأ نبأ آخر بأن الأمير لودفيج فورتمبرج قائد الجيش البروسي الموكل بالقوات البولندية في لتوانيا ، قد هرب من موقعه تاركاً جنوده في حالة من الفوضى أتاحت للروس في ١٢ يونيو الاستيلاء على فلنو عاصمة لتوانيا دون مشقة .

لم يبق من أسباب الدفاع عن بولنده الآن غير جيش يوزف . وكانت مؤنه وعتاده من الضلالة بحيث اضطرت أفواجه إلى الصيام أربعاً وعشرين ساعة ، ولم تملك المدفعية غير اثني عشر صندوقاً من الذخيرة . فأمر الأمير بالتقهقر إلى دوبنو ؛ فلما رمى بالجن ثبت عند دوينكا (١٨ يوليو) واستطاع بجيشه البالغ ١٢,٥٠٠ مقاتل أن يتعادل مع ٢٨,٠٠٠ مقاتل روسي . ثم تقهقر بنظام حسن إلى كوروف ، حيث انتظر وصول التعزيزات والمؤن التي وعده بها الملك .

ولكن ستانسلاس كان قد يئس . ذلك أن رفض فردريك وليم الثاني أن ينفذ شروط الحلف البروسي البولندي ، وخيانة الأمير لودفيج ، وهروب المئات من الجيش الذي جمعه في براجا — كل أولئك كان فوق ما تطيقه روحه التي لم تكن يوماً ما شديدة البسالة . وعليه فقد أرسل نداء شخصياً لكاترين يلتمس شروطاً مشرفة ، وكان جوابها (٢٣ يوليو) إنذاراً نهائياً يشترط عليه الانضمام إلى اتحاد تارجوفيك وإعادة دستور ١٧٧٥ . وقد صدمته لهجتها التي لم تعرف هوادة ولا ليناً ؛ أفهذه هي المرأة التي استجابت يوماً لغرامه الطائش ؟

وكان حنانه هو المسيطر عليه الآن . فلقد فكر في المقاومة ، وفي التسليح والمضى إلى الجبهة ليقود دفاعاً يائساً ؛ ولكن زوجته ، وأخته ، وابنة أخته ، اشتد بكاؤهم لفكرة موته وما يجره عليهم من الوحدة والأسى . حتى وعد الملك بأنه سيسلم . ثم ما جدوى المقاومة بعد هذا كله ؟ فبعد أن قطع الأمل في أى معونة من بروسيا - في وقت توقع فيه الهجمات على الجبهة الغربية العزلاء - ، كيف تستطيع بولنده الوقوف في وجه روسيا ؟ ألم يحاول جاهداً أن يثني الديت عن الاستخفاف بكاترين والمغامرة بكل شيء اعتماداً على وعود بروسيا ؟ ألم يلح في طلب جيش كبير حسن التجهيز ، وألم يرفض الديت اعتماد المال لهذا الجيش بعد أن وافق على الرجال ؟ وحتى لو حقق الجيش البولندي الراهن انتصاراً أو اثنين على الروس ، أفلا تستطيع كاترين ، المتخمة بالجنود بعد أن أبرمت الصالح مع تركيا ، أن ترسل الموجة تلو الموجة من الجنود المدربين المدججين بالسلاح ضد فلوله المبعثرة المختلة النظام ؟ فعلام التضحية بمزيد من الأرواح ، وإسلام نصف بولنده إلى الخراب ، إذا كان التسليم هو النهاية على كل حال ؟

أرسل السفير الروسى الجديد ، ياكوف سيفرس ، إلى أخته وصفا ملؤه اللطف يصور فيه بونيا توفسكى في هذه الساعة ، ساعة الانهيار البدنى والروحي قال :

« لم يزل الملك (في عامه الستين) رجلاً وسيماً أنيقاً . وإن كان وجهه شاحباً . ولكن في وسع المرء أن يرى أن ستاراً قائماً قد أسدل على روحه . إنه يحسن الحديث ، بل يتحدث بوضوح . وهو مجادل حسن الاستماع دائماً ومع الجميع . ومسكن سيء . وهو مهمل ، مزدري مخذول . ومع ذلك فهو ألطف الناس جميعاً . وإذا غضضت النظر عن منهجه الرفيع ، وتأملته من وجهة النظر الشخصية فقط ، قلت إن فضائله ترجح رذائله . ولا ريب في أنه أسوأ الملوك حظاً بعد لويس السادس عشر . إنه يحب أقرباءه حباً جماً . وهؤلاء الناس هم علة نكباته كلها (٥) .

وفي ٢٤ يوليو ١٧٩٢ قرأ بونيا توفسكى الإنذار النهائى الروسى على مستشاريه الخصوصيين ، ونصحهم بأن يركنوا إلى سماحة كاترين وشهامتها . واحتج كثيرون منهم على هذه السداجة . واقترح أحدهم المدعو مالاخوفسكى أن يجمع فى ساعة واحدة ١٠٠,٠٠٠ جولدن لأغراض الدفاع ، وألح على أن الجيش البولندى يستطيع — حتى إذا اقتضى الأمر التخلّى عن وارسو — أن يتقهقر إلى كاركاو ويجنّد جيشاً جديداً فى الجنوب الأهل بالسكان . وهزم اقترح بونيا توفسكى بالتسليم فى المجلس بأغلبية عشرين صوتاً ضد سبعة . ولكنه أبطل قرارهم بحكم سلطته دكتاتوراً ، وأمر ابن أخيه بالكف عن المقاومة . ورد يوزف بأن على الملك بدلاً من هذا التسليم أن يبادر إلى الجبهة بما يستطيع جمعه من قوات ويقاتل إلى النهاية . فلما أصّر ستانسلاس على انضمام الجيش إلى الاتحاد أرسل إليه جميع الضباط إلا واحداً استقالاتهم وعاد يوزف إلى موطنه السابق فى فيينا . وفى ٥ أغسطس احتل جيش روسى براجا . وفى أكتوبر أرسل يوزف رجاء إلى عمه يدعوه لاعتزال ماكه قبل أن تزول البقية الباقية من الشرف . وفى نوفمبر دخل بوتوكى مع طلائع جيش الاتحاديين وارسو دخول الظافر ، وألقى على بونيا توفسكى درساً فى واجبات الملك . ولكن انتصار بوتوكى تبين بعد قليل أنه كارثة ، لأن الجنود الروسيين دخلوا بولنده فى يناير ١٧٩٣ ، وواصلوا زحفهم ليجتاحوا دانيزج وتورن ، دون أن يطلق حلفاء بوتوكى الروس رصاصة ليمنعوهم . ووضح أن روسيا وبروسيا قد اتفقتا على تقسيم بولنده ثانية .

وكانت كاترين وفردريك ولیم قد وقعا هذا الاتفاق فى ٢٣ يناير ، ولكنهما تكتما أمره حتى ٢٨ فبراير . أما بوتوكى فقد استنفر البولنديين من جميع الأحزاب ليهبوا دفاعاً عن بولنده ؛ فضحكوا منه ، ونادى به يوزف نخائناً لوطنه ، وتحداه للمبارزة ، ولكن ستانسلاس منعها .

وبمقتضى هذا التقسيم الثانى حصلت روسيا على ٨٩,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الشرقية ، يعيش فيها ٣,٠٠٠,٠٠٠ من السكان ، بما فى هذا

فلنو ومنسك ؛ أما بروسيا فأخذت ٢٣,٠٠٠ ميل مربع من بولنده الغربية ، يعيش فيها ١,٠٠٠,٠٠٠ من السكان بما فيها دانتزج وتورن ؛ وبقي لبولنده ٨٠,٠٠٠ ميل مربع و ٤,٠٠٠,٠٠٠ نسمة - وهو يقرب من نصف ما ترك لها من قبل في ١٧٧٣. ولم يكن للنمسا نصيب في هذه الغنيمة الثانية ، ولكن هدأتها الوعود الروسية بمساعدتها في الحصول على بافاريا . أما الدول الغربية التي كانت لاتزال منهمكة في صراعها مع فرنسا الثائرة فلم تتخذ أى اجراء ضد هذا الاغتصاب الثانى ، الذى علمته لها كاترين بأنه ضرورة اقتضاها تطور الدعوة الثورية فى وارسو ، التي تهدد بالخطر جميع الملكيات. ولكي تلبس هذه السرقة ثوب الشرعية أمرت بونيا توفسكى أن يدعو الديت للاجتماع فى جرودنو ، وأمرته بالحضور بشخصه ليوقع على تحالف مع روسيا فأبى الذهاب أول الأمر ، ولكن حين عرضت الوفاء بديونه - التي بلغت الآن ١,٥٦٦,٠٠٠ دوقة - قبل هذا الإذلال الجديد خدمة لدائنيه . وزود السفير الروسى بالمال لرشوة عدد كاف من النواب ليحضروا اجتماع الديت ، ولم يجد عناء فى رشوة عدة أعضاء من بطانة الملك ليفشوا كل كلمة فاه بها سيدهم وكل عمل أتاها . وأمكن اقناع هذا «الديت الأخير» (١٧ يونيو إلى ٢٤ نوفمبر ١٧٩٣) بأن يوقع معاهدة مع روسيا ، ولكنه ظل شهوراً بأبى التصديق على التقسيم الثانى . وقيل للأعضاء أنهم ممنوعون من مناداة القاعة حتى يوقعوا ، فظلوا على رفضهم وجلسوا صامتين اثنتى عشرة ساعة . ثم طرح الرئيس المسألة للتصويت ، فلما لم يسمع جواباً أن السكوت علامة الرضى (٢٥ سبتمبر) . وعاد ما بقى من أرض بولنده محمية روسية ؛ وأعيد دستور ١٧٧٥ .

وإذا كان فى استطاعة رجل واحد أن يفتدى الأمة فذلك هو كوتشويسكو أمده التشارتورسكيون بالمال فذهب إلى باريس (يناير ١٧٩٣) واتمس بمعونة فرنسا لبلد يتعاطف فى حرارة مع الثورة الفرنسية . وتعهد بأنه لومدت فرنسا يد المعونة لبولنده لهب الفلاحون البولنديون فى ثورة على القنية ، وأهل المدن على النبلاء ، وقال ان بونيا توفسكى سينزل عن عرشه ليكون النظام جمهورياً ، وإن جيشاً بولندياً سيساند فرنسا فى حربها مع بروسيا^(١) .

ورحب الزعماء الفرنسيون بمقترحاته ، ولكن نشوب الحرب مع إنجلترا (فبراير ١٧٩٣) وغزو الحلفاء لفرنسا ، قضيا على كل أمل في تقديم العون لبولنده .

وفي غياب كوتشيوسكو جند بعض المواطنين والماسون الأحرار وضباط الجيش جيشاً بولندياً جديداً (مارس ١٧٩٤) . وهرع كوتشيوسكو من درسدن إلى كراكاوا لينضم إليه ، فعين قائداً أعلى وأعطى سلطات مطلقة ، وأمر كل خمس بيوت في بولنده أن توافيه بجندي من المشاة ، وكل خمسين بفارس ، وأمر هؤلاء المجندين بأن يأتوا بما يجمعونه من سلاح ، حتى المعاول والمناجل . وفي ٤ أبريل هاجم بأربعة آلاف مقاتل نظامي وألحق فلاح مجند قوة عدتها سبعة آلاف روسي في راتسلافيس قرب كراكاوا ، وهزمها بفضل براعة قيادته من جهة وفاعلية مناجل الفلاحين من جهة أخرى .

فلما سمع فريق الراديكاليين أو « اليعقوبيون » في وارسو بهذا النصر نظم رجاله عصياً مسلحاً انضم إليه الزعماء من الطبقة الوسطى في تردد . وفي ١٧ أبريل هاجم هؤلاء الثوار الحامية الروسية المؤلفة من ٧,٥٠٠ مقاتل ، وقتلوا الكثيرين منهم ، وهزموا فرقة روسية من ١٦٥٠ جندي ، وهربت قوات الاحتلال ، وخضعت وارسو لحظوة للسيطرة البولندية . وحررت انتفاضة كهذه مدينة فلنو (٢٣ أبريل) وشنقت هتمان (زعيم) لتوانيا الأكبر ، واستردت أجزاء من بولنده حتى منسك تقريباً . وفي ٧ مايو وعد كوتشيوسكو الإقنان بعقدهم ، وكفل لهم تملك الأرض التي يزرعونها . وانضموى تحت لوائه خلق كثير من المتطوعين والمجندين حتى اجتمع له في يونيو ١٧٩٤ (١٥٠,٠٠٠) رجل لم يكن منهم حسن التجهيز أكثر من ٨٠,٠٠٠ .

على هؤلاء تلافقت الموجات المتتالية من الجنود الروسية أو الروسية المدربة . وفي ٦ يونيو فاجأ جيش متحالف من ٢٦,٠٠٠ مقاتل البولنديين قرب تشيكوسيني ، ولم يتح لكوتشيوسكو من الوقت إلا ما يجلب فيه ١٤,٠٠٠

مقابل فقط . هزم بنحسائر فادحة ، والتمس الموت في المعركة ، ولكن الموت راغ منه ؛ وتقهقرت فلول البولنديين إلى وارسو . وفي ١٥ يونيو استولى البروسيون على كراكاو ؛ وفي ١١ أغسطس استعاد الروس فلنو ؛ وفي ١٩ سبتمبر أبادت قوة روسية من ١٢,٥٠٠ من الجنود المتحرسين بالقتال بقيادة سوفوروف جيشاً بولندياً من ٥,٥٠٠ مقابل عند تريسابول ؛ وفي ١٠ أكتوبر هزم ١٣,٠٠٠ روسي كوتشيبوسكو نفسه وهو يقود ٧,٠٠٠ بولندي عند ماسيسجويس ، وجرح جرحاً خطيراً وأسر . ولم يفه كما زعمت الأسطورة بصرخة اليأس « لقد قضى على بولنده ! » ولكن الهزيمة كانت قاضية على الثورة الباسلة .

أما سوفوروف فقد وحد مختلف الجيوش الروسية واقتحم معسكر البولنديين الحصين في براجا ، وراح جنوده الذين أصابهم جنون المعركة يذبحون لا المدافعين فقط بل سكان البلدة المدنيين . وسلم يونياتوفسكى وارسو تفادياً لمنبحة أشد بشاعة . وأرسل سوفوروف كوتشيبوسكو وغيره من زعماء الثوار إلى حيث السجن في سانت بطرسبرج ، وأرسل الملك إلى جروندنو ليكون رهن إشارة الإمبراطورة . وهناك ، في ٢٥ نوفمبر ١٧٩٥ ، وقع على اعتزاله الملك . وتوسل إلى كاترين أن تبقى على جزء من بولنده ، ولكنها صممت على أن تحل المسألة البولندية بالقضاء على الأمة البولندية كما ظنت . وبعد خمسة عشر شهراً من النزاع ، وقعت روسيا وبروسيا والنمسا معاهدة التقسيم الثالث (٢٦ يناير ١٧٩٧) واستولت روسيا على كورلاند ولتوانيا وغربي بودوليا وفولينيا — ١٨١,٠٠٠ ميل مربع ؛ واستولت النمسا على « بولنده الصغيرة » بما فيها كراكاو ولودان — ٤٥,٠٠٠ ميل مربع ؛ وأخذت بروسيا الباقي بما فيه وارسوا — ٥٧,٠٠٠ ميل مربع . وفي التقسيمات الثلاثة كلها استوعبت روسيا نحو ٦,٠٠٠,٠٠٠ من سكان بولنده البالغين ١٢,٢٠٠,٠٠٠ نسمة (١٧٩٧) ، والنمسا ٣,٧٠٠,٠٠٠ ، وبروسيا ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة .

وفر آلاف البولنديين من وطنهم ، وتسلم الأجانب الأملاك المصادرة . وظل بونيا توفسكى فى جرودنو ، يتسلى بدراسة النبات ويكتب مذكراته . وبعد موت كاترين دعاه بولس الأول إلى سانت بطرسبرج وخصص له القصر الرخامى و ١٠٠,٠٠٠ دوقاتيه فى العام ، وهناك مات فى ١٢ فبراير ١٧٩٨ بعد أن بلغ السادسة والستين . أما كوتشيو سكو فقد أفرج عنه الامبراطور بولس فى ١٧٩٦ ، وعاد إلى أمريكا ، ثم إلى فرنسا ، وواصل جهوده لتحرير بولنده حتى مماته (١٨١٧) . وأما يوزف بونيا توفسكى فقد فر إلى فيينا ، وشارك فى حملة نابليون على روسيا ، وجرح فى سمولنسك ، وأحسن البلاء فى ليزج ، ورقى مارشالا فى الجيش الفرنسى ، ومات فى ١٨١٣ مكرماً حتى من أعدائه . وأما بولنده فلم تعد دولة ، ولكنها ظلت شعباً وحضارة ، يلوئها الاضطهاد الدينى ، ولكنها تميزت بعظماء الشعراء والقصاصين والموسيقين والفنانين والعلماء ، ولم تتخل قط عن عزمها على النهوض من جديد .



الكتاب الخامس

الشمال البروتستنتي

الفصل العشرون

المانيا في عهد فردريك

١٧٨٦ - ١٧٥٦

١ - فردريك المظفر

من هذا الغول الذى أثار الخوف والإعجاب دولياً ، والذى سرق سيليزيا ، وهزم نصف أوربا المتحد ضده ، وهزأ بالدين ، وازدرى الزواج ، وأعطى فولتير دروساً فى الفلسفة ، واقتطع بعض أوصال بولنده ولو ليمنع روسيا من التهاماً كلها ؟

لقد بدأ أقرب إلى الأشباح منه إلى الغيلان يوم عاد حزيناً منتصراً من حرب السنين السبع ودخل برلين (٣٠ مارس ١٧٦٣) بين تصفيق الجماهير المملقة . كتب إلى دارجنس يقول « إني أعود إلى مدينة لن أعرف فيها غير الأسوار ، ولن أجد أحداً من معارفى ، حيث تنتظرني مهمة ضخمة ، وحيث أخلف بعد زمن غير طويل عظامي فى مشوى لا تكدر هدوءه الحرب ولا الكوارث ولا سفالة الإنسان »^(١) كانت بشرته قد جنت وتغضنت ، وعيناه الزرقاوان الرماديتان داكنتين متفتختين ، ووجهه يحمل آثار المعركة والمرارة ، وأنفه فقط هو الذى احتفظ بجلاله القديم . وقد ظن أنه لن يستطيع الحياة طويلاً بعد أن استنزفت الحرب الطويلة موارده جسداً وعقلاً وأرادة ، ولكن زهده مد فى أجله ثلاثة وعشرين عاماً آخر . كان مقلاً فى طعامه وشرا به ، لا يعرف الترف ، يعيش ويلبس فى قصره الجديد ببوتسدام كما لو كان فى المعسكر ، وكان يضمن بالوقت المخصص للعناية بشخصه ، وفى سنيه الأخير أقلع عن الحلاقة ، واكتفى بجز لحيته بمقص بين الحين والحين ؛ ورددت الشائعات أنه لم يكن يستحم كثيراً^(٢) .

(م ١٠ - قصة الحضارة ج ٤١)

وأكملت الحرب تقسى خلقه الذى بدأ دفاعاً ضد قسوة أبيه . فكان يتطلع بهدوء رواقى بينما الجنود المحكوم عليهم يمرون سداً وثلاثين مرة^(٣) بين صفين من الرجال يجلدونهم . وكان يتمقب موظفيه وقواده ويزعجهم بالجواسيس السريين ، والتدخل المفاجئ ، واللغة البديئة ، والأجر الشحيح ، وبضروب من الأوامر التفصيلية تخنق روح المبادرة والاهتمام . ولم يكسب قط حب أخيه الأمير هنرى الذى جد وأخلص فى خدمته فى الدبلوماسية والحرب . وكان له بعض الصديقات ، ولكنهن كن يخفنه أكثر مما يحببنه ، ولم يسمح لواحدة منهن بدخول دائرة اخصائه . كان يحترم المعاناة الصامتة التى عانتها ملكته التى أهملها ، وعند عودته من الحرب فاجأها بهدية من ٢٥,٠٠٠ طالر ؛ ولكن من المشكوك فيه أنه شاركها فراشها إطلاقاً . ومع ذلك تعلمت أن تحبه إذ رآته بطلاً فى المحن مخلصاً فى الحكم ، وكانت تشير إليه فى حديثها عنه بعبارة « ماكننا العزيز » و « هذا الملك العزيز الذى أحبه وأعبدته »^(٤) . ولم يكن له ولد ، ولكنه كان شديد التعاق بكلايه ، وكان اثنان منها ينامان عادة فى حجرتة ليلاً ، ربما لحراسته ؛ وكان أحياناً يستصحب أحدهما إلى فراشه ليدفئه بحرارة الحيوان . وعندما مات آخر كلابه الكثيره لديه « بكى اليوم كله »^(٥) . وقد ظن به اللواط^(٦) . ولكننا لانملك فى هذه الشبهة غير التخمين .

وعلى أنه كان يخفى تحت بجلده العسكرى الصلب عناصر من الحنان نبدر أن كشف عنها أمام الناس . فقد بكى كثيراً لموت أمه ، وكان يرد على محبة أخته فلهمينه الحارة بمحبة مخلصية . وقد وزع على بنات أخيه بعض الأفضال الصغيرة غير المأخوذة . كان يضحك من عواطف روسو المفرطة ، ولكنه اغتفر له عداءه وعرض عليه الملاجأ حين نبذه العالم المسيحي . وكان يتنقل بين التدريب الصارم لجنوده وصفير الأتخان من نايه . وقد ألف الصوناتات والكونشرتوات والسفونيات التى شارك فى أدائها أمام حاشيته . وسمعه العالم يرنى هناك ، وقرر أنه عزف « بضبط شديد » واستهلال صاف منسق ، ولعب بالأصابع بديع ، وذوق نقي بسيط ، ودقة بالغة فى التنفيذ ، إتقان

متساو في كل معزوفاته » ، على أن يبرني يضيف إلى ما ذكر أنه في بعض الفقرات الصعبة ، . . . اضطر جلالته — على عكس ما تقتضيه القواعد — أن يلتقط نفسه ليكمل الفقرة^(٧) (*) .

وفي سنوات لاحقة أكرمه ازدياد النهج وفقدان عدة أسنان على الإقلاع عن العزف على الناي ، ولكنه استأنف دراسة الكلافير .

وكانت الفلسفة هوايته المحببة بعد الموسيقى . كان يحب أن يشاركه مائدته فيلسوف أو اثنان ليسلخ جلد القساوسة ويستفز قواد الجيش . وكان ثابت القدم كفؤاً لفولتير في رسائله معه . وقد بقي على شكوكيته في حين اعتنق معظم جماعة الفلاسفة العقائد الجازمة والخيالات الشاطحة . وكان أول حاكم في العصور الحديثة يجهر بلاديته ، ولكنه لم يهاجم الدين علناً . وذهب إلى أن « لدينا من درجات الأرجحية ما يكفي لبلوغ اليقين بأن « لاشيء بعد الموت »^(٩) ، ولكنه رفض حتمية دولباخ وأكد (كرجل هو الإرادة المتجسدة) أن العقل يؤثر على الأحاسيس على نحو خلاق ، وان في استطاعة العقل أن يسيطر على دوافعنا الفطرية بالتعليم^(١٠) أما أحب الفلاسفة إليه فهم (صديقي لوكريتيوس . . . وامبراطوري الطيب ماركوس أوريليوس ؟ وعنده أن أحداً لم يضيف إليهما شيئاً ذا بال^(١١) .

وقد اتفق مع فولتير على الاعتقاد بأن « الجاهير » تسرف في إنساها وتفرط في كدها بحيث لا يتسع لها الوقت للتعليم الحقيقي . ولن يجدى تبصيرها بأوهام اللاهوت إلا في دفعها إلى العنف السياسي . وهو يقول في هذا « إن التنوير نور من السماء للواقفين على القمم ، وجمرة مدمرة للجاهير »^(١٢) ،

(*) في ١٨٨٩ نشر براييسكوف وهرقل ١٢٠ قطعة موسيقية من تأليف فردريك الأكبر . وقد سجل عدد منها على أقراص . وقد أحيت سنفونيته في مقام D لتاين وأوركسترا في برلين عام ١٩٢٨ وفي نيويورك عام ١٩٢٩ . (٨)

وقد أجمل قوله هذا تاريخ مذابح سبتمبر ١٧٩٢ وإرهاب ١٧٩٣ قبل أن تبدأ الثورة الفرنسية . وكتب إلى فولتير في أبريل ١٧٥٩ يقول « فلنعترف بهذه الحقيقة : إن الفلسفة والفنون والآداب لا تنتشر إلا بين قلة من الناس ، أما الجماهير العريضة ... فتظل كما جبلتها الطبيعة ، حيوانات شريرة حاقدة »^(١٣) وكان يسمى النوع الإنساني (في شيء من المزاح) . « هذا الجنس الملعون » — ويضحك من أحلام الخير والسلام يقول :

« إن الخرافة والنفعية والانتقام والخيانة ونكران الجميل سوف تثير المعارك الدامية المحزنة إلى آخر الدهر ، لأننا محكومون بالعواطف ، ونادراً جداً بالعقل . ولن تنقطع أبداً الحروب وقضايا المحاكم ومظاهر الدمار والأوبئة والزلازل والتفالييس . . . وما دام الأمر كذلك ، ففي ظني أن هذا الوضع ضرورة لا بد منها . . . ولكن يلوح لي أنه لو كان هذا الكون قد فطره كائن خير لخلقنا أسعد مما نحن . . . إن العقل البشري ضعيف ، وأكثر من ثلاثة أرباع البشر خلقوا ليخضعوا لآنخف ضروب التعصب . فالخوف من الشيطان والجحيم يبهر عيونهم ، وهم يكرهون الرجل الحكيم الذي يحاول تنويرهم . . . وعبثاً أتمس فيهم صورة الله التي يؤكد اللاهوتيون أنهم يحملونها . إن في داخل كل إنسان وحشاً ، وقليلون هم الذين يستطيعون ترويضه ، وأكثر الناس يرخون له اللجام ما لم يكبحهم الخوف من القانون »^(١٤) .

وقد خلص فردريك إلى أن السماح للحكومات بأن تتسلط عليها الأغلبية مجلبة للكوارث . فلكى تحيا الديمقراطية يجب أن تكون — كغيرها من نظم الحكم — أقلية تقنع الأغلبية بأن تسمح لنفسها بأن تقودها الأقلية . وقد رأى فردريك رأى نابليون فيما بعد من أن « الاستقرار موجد دائماً بين الأمم وفي الثورات »^(١٥) وآمن بأن. الاستقرار الوراثية تربي الإحساس بالشرف والولاء ، والرغبة في خدمة الدولة بتضحية شخصية بالغة ، لا يمكن توقعها من نوابع البورجوازيين الذين نشأوا بفضل التسابق على الثروة .

لذلك أحل بعد الحرب شباب النبلاء محل معظم ضباط الطبقة الوسطى الذين ترقوا في الجيش^(١٦) . ولكن بما أن هؤلاء النبلاء المعترزين بعراقتهم قد يصبحون مصدراً للتفتت والفوضى ، وأداة للاستغلال ، إذن فلا بد من أن يحمى ملك مطلق السلطة الدولة من الانقسام ، ويدفع الظلم الطبقي عن عامة الشعب .

وكان فردريك يحب أن يصور نفسه خادماً للدولة والشعب . وربما كان هذا تبريراً لإرداة القوة فيه ، ولكنه تسامى بحياته إلى مستوى دعواه . فأضحت الدولة عنده « الكائن الأعلى » الذى يبذل فى سبيله نفسه وغيره ؛ ومطالب خدمة الدولة تغلب عنده على ناموس الفضيلة الفردية ؛ فالوصايا العشر تتوقف عند أبواب الملوك . ووافقته جميع الحكومات على هذه « السياسة الواقعية » ، وقبل بعض الملوك النظرة إلى الملكية على أنها خدمة مقدسة . وقد اعتنق فردريك هذا المفهوم من اتصاله بفولتير ؛ ومن طريق الصاقهم بفردريك طور الفلاسفة ونظريتهم « الملكية » ومؤداها أن الأمل الأكبر فى الإصلاح والتقدم معقود على تنوير الملوك .

وهكذا أصبح برغم حروبه معبود الفلاسفة الفرنسيين ، وهذا من عدائهم له ، حتى عداء روسو الفاضل . وقد رفض دالامبير طويلاً دعوات فردريك له ، ولكنه لم يكف عن الثناء عليه . فكتب لفردريك يقول « إن الفلاسفة والأدباء فى كل بلد طالما تطلعوا إليك يا مولاي قائداً ومثالاً لهم »^(١٧) وأخيراً أذعن الرياضى المتحفظ للدعوات المتكررة ، وأنفق شهرين مع فردريك فى بوتسدام عام ١٧٦٣ . ولم تنتقص الألفة (والمعاش الذى أجراه عليه) من إعجاب دالامبير به . فقد أبهجه اغفال الملك لقواعد التشريعات ، وأطربته تعليقاته — لا على الحرب والحكومة فحسب ، بل على الأدب والفلسفة أيضاً ، وقال لجولى دلسبيناس إن هذا الحديث كان أروع من أى حديث يتاح للمرء سماعه آنثذ فى فرنسا^(١٨) . فلما ابتأس دالامبير فى ١٧٧٦ حزناً على موت جولى ، بعث إليه فردريك برسالة تظهر هذا الغول فى ثوب الرجل الحكيم الخنون :

« يؤسفنى الخطب الذى ألم بك . . . إن جراح القلب أكثر الجراح إيلاًماً . . . ولا شىء يبرئها غير الزمن . . . إن لى لسوء طالعى حظاً وفيراً جداً من الخبرة بالآلام التى تحدثها خسائر كهذه . وخير دواء هو سيطرة المرء على نفسه ليصرف تفكيره بعيداً . . . وخلق بك أن تختار بحثاً هندسياً يتطلب العكوف الدائم عليه . . . إن شيشرون أغرق نفسه فى التأليف ليتعزى عن موت حبيبته تليا . . . وفى مثل سنك وسنى خلق بنا أن نكون أكثر استعداداً للسوى لأن لحاقنا بمن فجعنا فيهم لن يطول » (١٩) .

ثم حث دالامبير على أن يحضر ثانية إلى بوتسدام « سوف نفلسف معاً تفاهة الحياة . . . وبطلان الرواقية . . . وسوف أشعر بالسعادة فى تهدئة حزنك كأئنى انتصرت فى معركة . » هنا على الأقل ملك أحب الفلاسفة ، ان لم يكن ملكاً فيلسوفاً بكل معنى الكلمة .

ولكن هذه المعاملة لم يعد يطبقها على فولتير ، ذلك أن خلافاتهما فى برلين وبوتسدام ، والقبض على فولتير فى فرانكفورت — كل هذا ترك جراحاً أعمق من الحزن . وبقى الفيلسوف يعانى الألم والمرارة أطول مما بقى الملك . فأخبر الأمير دلين أن فردريك « لاقدره له على عرفان الجميل ، ولم يعترف قط بجميل إلا للجواد الذى هرب على ظهره فى معركة مولفتس » (٢٠) . ثم عاد تبادل الرسائل بين ألمع رجلين فى القرن حين كتب فولتير إلى فردريك محاولاً أن يثنى المحارب اليائس عن الانتحار . وراحا يتبادلان العتاب والمجاملات . وذكر فولتير فردريك بالإهانات التى لقيها الفيلسوف وابنة أخته من عمال الملك ، وأحباب فردريك : « لولا صلتك برجل فتن حياً بعقريتك الرائعة لما أفلت بهذه السهولة . . . فاعتبر الأمر كله منتهياً ، ولا تذكر لى شيئاً بعد اليوم عن ابنة أختك تلك المتعبة » (٢١) . ولكن الملك رغم هذا لاطف الذات المفلسفة على نحو ساحر :

« أتريد كلاماً حلواً ؟ حسناً جداً ، سأخبرك ببعض الحقائق . إننى أقدر فيك أروع عبقرية ولدتها الأجيال ، إننى أعجب بشعرك ، وأحب نثر . . . ولم يؤت كاتب قبلك مثل هذه اللمسة المرفهة ، ولا مثل هذا

الدوق الأصيل الرقيق . . . إنك ساحر في حديثك ، تعرف كيف ترفه وتعلم في وقت واحد . إنك أكثر المخلوقات التي عرفتها إغواء . . . كل شيء في حياة الإنسان يتوقف على الزمان الذي يجيء فيه إلى هذا العالم . وأنا وإن جئت متأخراً جداً ، إلا أنني لست بأسف على هذا ، لأنني رأيت فولتير ، . . . ولأنه يكتب لي « (٢٢) » .

وأعان الملك بترعاته السخية حملات فولتير دفاعاً عن أسرتي كالاس وسرفان ، وصفق للحرب التي شنها على الكنيسة الكاثوليكية (L'infeme) ، ولكنه لم يشارك جماعة الفلاسفة ثقتهم في تنوير النوع الإنساني . فقد تنبأ بفوز الخرافة في السباق بينها وبين العقل . فتراه يكتب إلى فولتير في ١٣ سبتمبر ١٧٦٦ يقول :

« إن مبشريك سيفتحون أعين قلة من الشباب . . . ولكن ما أكثر الحمقى الذين لا يعقلون في هذا العالم ! . . صدقني ، لو أن الفلاسفة أقاموا حكومة فلن يمضي نصف قرن حتى يخلق الشعب خرافات جديدة . . . قد يتغير موضوع العبادة ، كما تتغير الأزياء في فرنسا ؛ (ولكن) ما أهمية أن يسجد الناس أمام قطعة من الفطير ، وأمام العجل أبيس ، أو أمام تابوت العهد ، أو أمام تمثال من التماثيل ؟ لا يهم الاختيار ، فالخرافة واحدة ، والعقل لا يكسب شيئاً » (٢٣) .

على أن فردريك تصالح مع الدين بعد أن قبله ضرورة بشرية ، فحمى كل صوره السلمية بمنتهى التسامح . ففي سيليزيا التي غزاها ترك الكاثوليكية هادئة دون إزعاج ، فيما عدا فتحه أبواب جامعة برلين لجميع المذاهب ، وكانت من قبل وقفاً على الكاثوليك . . ثم رحب باليسوعيين بصفته معلمين ذوي قيمة كبرى ، وكانوا بعد أن طردهم الملوك الكاثوليك قد التمسوا ملجأ تحت حكمه اللأأدرى . وبالمثل بسط حمايته على المسلمين واليهود والملاحدين ؛ وفي عهده وفي مملكته مارس كنانط حرية الكلام والتعليم والكتابة ، وهي الحرية التي لقيت أشد تعنيف وقضى عليها بعد موت فردريك . وفي ظل هذا التسامح اضمحلت معظم صور الدين في بروسيا . ففي ١٧٨٠ كان هناك

كنسى واحد لكل ألف من سكان برلين ، وفي ميونخ ثلاثون^(٢٤) . وقد ذهب فردريك إلى أن التسامح سيقضى على الكاثوليكية عاجلاً . كتب إلى فولثير في ١٧٦٧ يقول « لا بد من حدوث معجزة لكي تعود الكنيسة الكاثوليكية إلى سابق عزها ، فلقد أصيبت بسكتة دماغية خطيرة ، وسوف يمد في أجلك لتعزى بدفنها وكتابة قبريتها»^(٢٥) . ولكن أشد الشكاك غلواً في شكوكيته نسي لحظة أن يشك في الشكوكية .

٢ - إعادة بناء بروسيا

لم يكد حاكم في التاريخ في صناعة الحكم كما كد فردريك ، ربما باستثناء تلميذه جوزيف الثاني إمبراطور النمسا ، كان يأخذ نفسه كما يأخذ جنوده بالتدريب الشاق ، فيستيقظ عادة في الخامسة ، وأحياناً في الرابعة ، ويشغل حتى السابعة ، ثم يفطر ، ويجتمع بمساعديه حتى الحادية عشرة ، ويستعرض حرس قصره ، ويتناول الغذاء في النصف بعد الثانية عشرة مع الوزراء والسفراء ، ثم يعمل حتى الخامسة ، وعندها فقط يسترخى بالموسيقى والأدب الحديث . أما عشاء «نصف الليل» بعد الحرب ، فكان يبدأ في التاسعة والنصف ، وينتهي في الثانية عشرة ، ولم يسمح لأى روابط أسرية بأن تصرفه عما هو عاكف عليه ، ولا لأى مراسم بلاطية بأن تثقله ، ولا لأى عطلات دينية بأن تقطع عليه كده ، وكان يراقب عمل وزرائه ، وعلى كل خطوة تقريباً من خطوات السياسة ، ويرقب حالة الخزانة ، وقد أنشأ فوق الحكومة كلها ديواناً للمحاسبات ، خول له سلطة فحص أى مصلحة في أى وقت . وأصدر إليه تعليماته بأن يبلغ عن أى شبهة مخالفة . وكان يعنف في معاقبة الانحراف أو عدم الكفاية عنفاً اختفى معه من بروسيا أو كاد ذلك الفساد الحكومى الذى استشرى في كل بلد آخر من بلدان أوروبا .

وكان يعتز بهذا العمل ، وبسرعة إفاقة وطنه مما حاق به من دمار . بدأ بألوان من الاقتصاد في بيته أثارت السخرية من بلاطى النمسا وفرنسا المسرفين رغم أنهما بلدان مهزومان . فكان بيت الملك يدار باقتصاد شديد كأنه بيت حرفي . فصوان ملابسه لا يحوى غير حلة جندى ، وثلاثة معاطف قديمة ، وصدريات

متسخة بالنشوق ، ورداء رسمى لازمه طوال حياته . وقد طرد بطانة أبيه من الصيادين وكلاب الصيد ، لأن هذا المحارب أثر الشعر على الصيد . ولم يكن أسطولا ، ولم يسع إلى تملك المستعمرات . وكان موظفوه يتقاضون أجوراً زهيدة ، وقد أنفق بمثل هذا البخل على البلاط المتواضع الذى احتفظ به فى برلين حينما هو مقيم فى بوتسدام . ومع ذلك فقد حكم لايرل تشستر فيلد عليه بأنه أكثر بلاط فى أوروبا أدباً وتألقاً ونفعاً لشباب أن يوجد فيه ، « ثم أردف قائلا : « سترى فنون الحكم وحكمته فى ذلك البلد الآن (١٧٥٢) خيراً مما تراها فى أى بلد آخر فى أوروبا »^(٢٦) . على أنه بعد عشرين سنة من هذا التاريخ كتب اللورد مالمسبرى ، السفير البريطانى لدى بروسيا ، ربما لتعزية لندن ، يقول إنه « ليس فى تلك العاصمة (برلين) رجل فاضل واحد ولا امرأة عفيفة واحدة »^(٢٧) .

على أن فردريك كان يكبح شحه إذا اتصل الأمر بالدفاع القومى . فسرعان ما أعاد جيشه إلى سابق قوته بفضل الإقناع والتجنيد الإجبارى ؛ فهذا السلاح الذى فى متناوله هو وحده الذى يتيح له صيانة وحدة أراضي بروسيا أمام أطماع جوزيف الثانى وكاترين الثانية . وكان على ذلك الجيش كذلك أن يدعم القوانين التى هيأت النظام والاستقرار للحياة البروسية . وقد أحس أن القوة المركزية هى البديل الوحيد للقوة المختلة الممزقة توضع فى أيدي الأفراد . وكان يؤمل أن تتطور الطاعة بدافع الخوف من القوة ، إلى طاعة بدافع الاعتياد على القانون — وهى قوة اختزلت إلى قواعد وأخفت براثنها .

وقد جدد أمره للفقهاء بأن ينسقوا فى نظام قانونى واحد (قانون بروس عام) التشريع المتنوع المتناقض للكثير من الأقاليم والأجيال . وكانت هذه المهمة قد توقفت بموت صموئيل فون كوكسيجى (١٧٥٥) وبنشوب الحرب ، فاستأنفها الآن المستشار يوهان فون كارمر وعضو المجلس الخاص ك.ج. سفاريتس ، واستكملت فى ١٧٩١ . وقد سلم القانون الجديد بوجود الإقطاعية والتقنية ، ولكنه حاول فى

هذه الحدود أن يحمى الفرد من التلغيات أو الظلم الخاص أو العام . فالغى المحاكم التى لاضرورة لها . وقلل من الإجراءات القانونية وعجلها ، وخفف العقوبات ، وصعب الشروط اللازمة للتعين فى وظائف القضاء . وتقرر ألا ينفذ حكم بالإعدام إلا بتصديق الملك ، وفتح للجميع باب الاستئناف أمام الملك . وقد اكتسب سمعة العدالة المحايدة ، وسرعان ما اعترف الجميع للمحاكم البروسية بأنها أنزه وأكفأ المحاكم فى أوروبا^(٢٨) .

وفى ١٧٦٣ أصدر فردريك النظام التعليمى العام ليثبت ويوسع التعليم الإلزامى الذى أعلنه أبوه فى ١٧١٦ - ١٧ . فقرر أن يذهب كل طفل فى بروسيا من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة إلى المدرسة . ومن صفات فردريك المميزة إسقاط اللاتينية من منهج التعليم الأولى ، وتعيينه قدامى الجند معلمين ، وجعله معظم التعليم يجرى بتدريب أشبه بالتدريب العسكرى^(٢٩) . وقد أضاف الملك : « من الخير أن يعلم المدرسون فى الريف الأحداث الدين والأخلاق . . . وحسب أهل الريف أن يتعلموا القليل من القراءة والكتابة . . . ولا بد من تخطيط التعليم . . . بحيث يبقى عليهم فى القرى ولا يؤثر عليهم ليهجروها »^(٣٠) .

وحظى تجديد البناء الاقتصادى بالأولوية فى الوقت والمال . فبدأ فردريك باستخدام المال الذى جمع من قبل لحملة حربية أخرى - زالت الحاجة إليها الآن - فى تمويل تعمير المدن والقرى وتوزيع الطعام على المجتمعات الجائعة ، وتقديم البذور للزراعات الجديدة ؛ ثم وزع على المزارع ستين ألف حصان أمكن توفيرها من الجيش . وبلغت جملة المبالغ التى أنفقت على أعمال الإغاثة العامة ٢٠,٣٨٩,٠٠٠ طالر^(٣١) . وأعفيت سيليزيا التى اجتاحتها الحرب من الضرائب ستة أشهر ؛ وبنى فيها ثمانية آلاف بيت فى ثلاث سنين ، وقدم مصرف عقارى المال للفلاحين السيليزيين بشروط ميسرة . وأسست جمعيات للتسليف فى مراكز شتى لتشجيع التوسع الزراعى . وصرفت مياه منطقة المستنقعات الممتدة على الأودر الأدنى ، فهيات أرضاً صالحة للزراعة لخمسين ألف رجل . وبعث المندوبون إلى الخارج للدعوة مهاجرين إلى بروسيا ، فجاء منهم ٣٠٠,٠٠٠^(٣٢) .

ولما كانت القنية تربط الفلاح بسيده ، فإنه لم توجد في بروسيا حرية الانتقال إلى المدن ، تلك الحرية التي يسرت في انجلترا تطور الصناعة السريع . وقد جهد فردريك بكل الوسائل للتغلب على هذا المعوق . فأقرض الملتزمين المال بشروط ميسرة ، وأجاز الاحتكارات المؤقتة ، واستورد العمال ، وفتح مدارس الصنائع ، وأنشأ مصنعاً للبرسلان في برلين . وناضل لينشئ صناعة الحرير ، ولكن أشجار التوت ذبلت في برد الشمال . وشجع التعدين النشط في سيليزيا الغنية بالمعادن . وفي ٥ سبتمبر ١٧٧٧ كتب إلى فولتير كما يكتب أحد رجال الأعمال لزميل له يقول : « اننى عائد من سيليزيا راضياً عنها الرضى كله . . . فقد بعنا للأجانب ما قيمته ٥,٠٠٠,٠٠٠ كراون من التيل ، و ١,٢٠٠,٠٠٠ كراون من القماش . . . وقد أمكن اكتشاف طريقة لتحويل الحديد إلى صلب أبسط كثيراً من طريقة ريومور » (٣٣)

وتسهيلاً للتجارة ألغى فردريك المكوس الداخلية ووسع الموانئ ، وحفر القنوات وشق ثلاثين ألف ميل من الطرق الجديدة . أما التجارة الخارجية فقد عاقبتها الرسوم المرتفعة على الواردات والحظر المفروض على تصدير السلع الاستراتيجية ؛ واقتضت الفوضى الدولية حماية الصناعة الوطنية لضمان الاكتفاء الصناعى في الحرب . ورغم ذلك نمت برلين قلباً للتجارة وللحكومة : ففي ١٧٢١ كانت تضم من السكان ٦٠,٠٠٠ ، وفي ١٧٧٧ زادوا إلى ١٤٠,٠٠٠ (٣٤) . لقد كانت تتهيأ لتصبح عاصمة لألمانيا .

واكى يمول فردريك هذا المزيج من الإقطاعية ، والرأسمالية ، والاشراكية ، والأوتوقراطية ، اقتضى شعبه من الضرائب قدرأ يقرب مما رد عليهم من نظام اجتماعى وإعانات مالية وأشغال عامة . واحتفظ للدولة باحتكار الملح والسكر والتبغ والبن (بعد ١٧٨١) ، وامتلك ثلث الأرض الصالحة للزراعة (٣٥) . وفرض الضرائب على كل شيء ، حتى على المغنين الجائلين واستقدم هلفتيوس ليخطط له نظاماً محكماً في جمع الضرائب . وكتب

سفير انجليزى يقول : « ان مشروعات الضرائب الجديدة نفرت الشعب حقاً من ملكهم »^(٣٦) . وقد ترك فردريك عند موته فى خزانة الدولة ٥١,٠٠٠,٠٠٠ طالر . وهو ما يعادل إيراد الدولة السنوى مرتين ونصفا .

وفى ١٧٨٨ نشر ميرابو (الابن) بعد زيارات ثلاث لبرلين تحليلاً مدمراً عنوانه « فى النظام المائكى البروسى تحت حكم فردريك الأكبر » . وكان قد ورث عن أبيه مبادئ الفزيوقراطيين التى تنادى بالمشروعات الحرة ، لذلك أدان نظام فردريك باعتباره دولة بوليسية ، وبيرقراطية تخنق كل روح للمبادرة وتعدو على كل حرية شخصية . وكان فى وسع فردريك أن يرد على هذه التهم بأنه لو انتهج سياسة «عدم التدخل Laissez Faire» فى حالة الفوضى التى ضربت أطنابها فى بروسيا عقب حرب السنين السبع لأفسدت عليه هذه السياسة انتصاره بما تجر من فوضى اقتصادية . لقد كان التوجيه أمراً حتمياً ، وكان هو الرجل الوحيد الذى يستطيع القيادة الفعالة ، وهو لا يعرف شكلاً من أشكال القيادة غير قيادة القائد الحربى لجنوده . لقد أنقذ بروسيا من الهزيمة والانهار ، ودفع الثمن بفقدانه حب شعبه له ، وقد فطن إلى هذه النتيجة ، وعزى نفسه بمبررات أخلاقية :

« إن البشر يتحركون إذا حثتهم على الحركة . ويقفون إذا كففت عن دفعهم . . . والناس مقلون فى القراءة ، زاهدون فى أن يتعلموا كيف يمكن التصرف فى أى شىء بطرق مختلفة . أما أنا ، أنا الذى لم أصنع بهم قط غير الخير ، فهم يظنون أننى أريد أن أضع سكيناً على حلقهم بمجرد أن يلوح احتمال لإدخال أى تحسين مفيد ، لا بل أى تغيير على الإطلاق . فى مثل هذه الحالات اعتمدت على شرف هدفى وسلامة ضميرى ، وعلى المعلومات التى أملكها ، ثم مضيت فى طريقى هادئاً »^(٣٧) .

وقد انتصرت لإرادته . فازدادت بروسيا حتى فى حياته غنى وقوة . وتضاعف عدد سكانها ، وانتشر فيها التعليم ، وأخفى التعصب الدينى رأسه . صحيح أن هذا النظام الجديد اعتمد على الاستبداد المستنير ، وأن هذا الاستبداد

بقى بغير الاستنارة بعد أن مات فردريك ، وأن الهيكل القومى اعتراه الضعف وانهار فى فيينا أمام إرادة تعادل إرادة فردريك قوة وجبروتا . ولكن الصرح النابليونى أيضاً ، الذى اعتمد على إرادة رجل واحد وتفكيره ، انهار هو أيضاً ، وفى خاتمة المطاف كان بسمارك ، وريث فردريك والمستفيد البعيد فى تركته ، هو الذى عاقب فرنسا التى سيطر عليها وريث نابليون ، وهو الذى جعل من بروسيا وعشرات الإمارات دولة موحدة قوية هى ألمانيا .

٣ - الإمارات

لنذكر أنفسنا من جديد بأن ألمانيا لم تكن فى القرن الثانى عشر أمة بل اتحاداً مفككاً من دول مستقلة تقريباً ، قبلت صورياً الإمبراطور « الرومانى المقدس » فى فيينا رأساً لها ، وأوفدت ممثلين لها بين الحين والحين إلى ديت إمبراطورى (رايشستاغ) ، أهم وظائفه الاستماع إلى الخطب ، واحتمال عبء المراسم ، وانتخاب إمبراطور جديد . وكان للدول لغة وآداب وفنون مشتركة ، ولكنها تباينت فى العادات والزي والعملة والعقيدة . وكان فى هذا التفتت السياسى بعض الفوائد : فتعدد بلاطات الأمراء كان موافقاً لتنوع الثقافات تنوعاً مشجعاً ؛ وكانت الجيوش صغيرة بدلاً من أن تكون متحدة فتصبح مصدر إرهاب لأوروبا ؛ ثم إن سهولة الهجرة فرضت على الدولة والكنيسة والشعب قسطاً كبيراً من التسامح فى الدين والعادات والقانون . وكانت سلطة كل أمير مطلقة من الناحية النظرية ، لأن المذهب البروتستانتى كرس « حق الملوك الإلهى » . أما فردريك ، الذى لم يقر بأى حق إلهى غير حق جيشه ، فقد سخر من « معظم الأمراء الصغار ، لاسيما الألمان منهم » الذين « يدمرون أنفسهم بالإشراف السفيفه إذ يضللهم الوهم بعظمتهم المتصورة ، فأصغر ابن لأصغر ابن لأسرة مقطعة يخيل إليه أنه من طراز لويس الرابع عشر ، فيبنى فرسايه ، ويقتنى الخليلات ، ويحتفظ بجيش ... له من القوة ما يكتفى لخوض ... معركة على مسرح فيرونا » (٢٨) .

وكانت أهم هذه الإمارات سكسونيا . وقد دالت دولة فنها ومجدها يوم تحالف أميرها الناخب فردريك أوغسطس الثانى مع ماريا تريزا ضد فردريك الأكبر ، فقصف الملك القاسى درسدن ودمرها عام ١٧٦٠ وفر الناخب إلى بولنده بصفته ملكها أوغسطس الثالث ، ثم مات فى ١٧٦٣ . وورث حفيده فردريك أوغسطس الثالث الإمارة الناجبة وهو فى الثالثة عشرة ، واكتسب لقب (العادل) ، وحول سكسونيا إلى مملكة (١٨٠٦) ، واحتفظ طوال تقلبات كثيرة بعرشه إلى أن مات (١٨٢٧) .

ويدخل كارل أويجن ، دوق فورتمبرج ، قصتنا فى المقام الأول باعتباره صديقاً ثم عدواً لشيلى . وقد فرض الضرائب على رعاياه براءة لاينضب معينها ، وباع عشرة آلاف من جنوده لفرنسا ، واحتفظ ببلاط كان فى رأى كازانوفا « ألمع بلاط فى أوربا »^(٣٩) ، حوى مسرحاً فرنسياً ، وأوبرا إيطالية ، وسلسلة من المخطيات . ويعيننا أكثر منه فى قصتنا كارل أوجسط ، دوق ساكسى - فايمار الحاكم من ١٧٧٥ إلى ١٨٢٨ ، ولكننا سنراه فى مظهر أكثر بهاء وهو محاط بنجوم أناروا سماء ملكه - فيلاند ، وهردر ، وجوته ، وشيلر . وكان واحداً من فريق « المستبدين المستنيرين » الصغار الذين ساهموا فى هذا العصر فى نهضة ألمانيا حين شعروا بتأثير فولتير وبالمثال الذى ضربه فردريك . ونهج نهج هؤلاء رؤساء الأساقفة الذين حكموا مونستر وكولون وترير وماينز وفورتزبورج - بامبرج باستكثارهم من المدارس والمستشفيات ، وحدهم من إسراف البلاط ، وتخفيفهم من الفوارق الطبقة ، وإصلاحهم السجون ، وتقديمهم الإعانات للفقراء ، وتحسينهم أحوال الصناعة والتجارة . كتب آدموند بيرك يقول « ليس من السهل أن نجد أوتنصور حكومات أكثر اعتدالا وتسامحاً من هذه الإمارات الكنسية »^(٤٠) .

على أن الفوارق الطبقة كانت تؤكد فى أكثر الدول الألمانية باعتبارها جزءاً من أسلوب الضبط الاجتماعى . فكان النبلاء والاكليروس وضباط الجيش وأرباب المهن والتجار والفلاحون يؤلفون طبقات منفصلة ، وداخل كل فئة من هؤلاء درجات ومراتب صلبت كل منها ذاتها باحتقار المرتبة

الأدنى منها . وكان زواج الفرد خارج طبقته أمراً مستحيلاً تقريباً ، ولكن بعض التجار والماليين اشتروا النبالة . واحتكر النبلاء المناصب العليا في الجيش والحكومة ، وقد اكتسب كثيرون منهم امتيازاتهم ببسالتهم أو كفايتهم ولكن الكثيرين كانوا عالة على المجتمع ، لا يفضلون الحلال التي يرتدونها ، يتنافسون على المكان الاجتماعي المقدم في البلاط ، ويتبعون المواضات الفرنسية في اللغة والفلسفة والتحليلات .

ومما يذكر بالفخر لأمراء ألمانيا الغربية وأساقفتها ونبلائها أنه لم يحل عام ١٧٨٠ حتى كانوا قد اعتنقوا فلاحيتهم الأقنان ، وبشروط يسرت الانتشار الواسع للرخاء في الريف . وقد ذهب رانيهولد لنتس إلى أن الفلاحين مخلوقات أفضل - أكثر بساطة ووداً وفطرية - من التجار الذين يحصون الدراهم أو شباب النبلاء الذين يختالون كباراً^(٤١) . وقد صورت سيرة هينريش يونج الذاتية (١٧٧٧) حياة القرية في كدها اليومي وفي مهرجاناتها الموسمية في صورة مثالية ؛ ووجد هرذر أغاني الفلاحين الشعبية أصدق وأعمق من شعر الكتب ؛ ووصف جوته في كتابه (الشعر والحقيقة) الاحتفال بموسم صنع الخمر بأنه « يغمر بالفرح لإقليمياً بأسره » من صواريخ وغناء ونبيل^(٤٢) . كان هذا جانباً من المشهد الألماني ؛ أما الجانب الآخر فكان الجهد الشاق والضرائب المرتفعة والنساء يشغن في الثلاثين والأطفال الأميين يرتدون الأسماك ويتسولون في الشوارع . قالت إيفا كونيغ لليسنج في ١٧٧٠ « في إحدى المحطات تراحم حولي ... ثمانون شحاذاً ... وفي ميونخ جرت ورأى أسر بأكملها وأفرادها يصيحون بأنني بالتأكيد لن أتركهم يموتون جوعاً »^(٤٣) .

لقد كانت الأسرة في القرن الثامن عشر أهم من الدولة أو المدرسة . أو المدرسة . وكان البيت الألماني المصدر والمركز للتهديب الخلقى ، والنظام الاجتماعي ، والنشاط الاقتصادي . ففيه يتعلم الطفل أن يطيع أباً صارماً ، ويلوذ بأُم محبة ، ويشارك في سن مبكرة في مختلف الواجبات البناءة التي تملأ فراغ اليوم . وقصيدة شيلر « أغنية الجرس » تعطينا صورة مثالية ترى فيها « الزوجة الشديدة التواضع ... تحكم دائرة الأسرة بحكمة ، وتدريب

البنات ، وتكبح تهور الأولاد ، وتعكف في كل لحظة من فراغها على نولها»^(٤٤) . وكانت الزوجة خاضعة لزوجها ، ولكنها معبودة أبنائها . أما خارج البيت ، إلا في قصور الأمراء ، فكان الرجال عادة يقصون النساء عن حياتهم الاجتماعية ، ومن ثم كان حديثهم ينحوي إلى الأملال أو البذاءة . أما في قصور الأمراء فكان هناك كثير من النساء المثقفات المهذبات السلوك . ويرى لكرمان أن بعضهن « يكنّ بأسلوب رائع ويفقن في هذا كثيراً من أشهر مؤلفينا »^(٤٥) . وكان على نساء الطبقة العليا في ألمانيا ، كما في فرنسا ، أن يتعلمن الأغماء جزءاً من بضاعتن ، والاستعداد للزرف الديموع دليلاً على رقة شعورهن .

أما أخلاق البلاط فقد اقتدت بالمثل الفرنسية في الشراب والقمار والفسق والطلاق . تقول مدام دستال إن النبيلات من النساء كن يبدلن أزواجهن « في غير مشقة وكأنهن يرتبن أحداثاً تمثيلية » ، وكن يفعلن هذا « بقليل من مرارة النفس »^(٤٦) . وضرب الأمراء المثل في السلوك اللاأخلاقى ببيع جنودهم للحكام الأجانب ؛ وهكذا بنى حاكم هسى — كاسل قصراً أنيقاً ، وأنفق على بلاط مترف ، من حصيلة تجاره في جنوده . وبلغ مجموع ما باعه الأمراء الألمان — أو ما « أقرضوه » على حد تعبيرهم — خلال الثورة الأمريكية ثلاثين ألف جندي لانجلترا مقابل ٥٠٠,٠٠٠ جنيه ؛ ومن هؤلاء ١٢,٥٠٠ لم يعودوا قط^(٤٧) . ولم يبد ألمانيا القرن الثامن عشر خارج بروسيا ميلاً يذكر للحرب وهم يتذكرون أهوال القرن السابع عشر . ويبدو أن « الخلق القوي » يمكن أن يطرأ عليه التغيير من قرن لآخر .

وكان الدين في ألمانيا أطوع للدولة منه في الأقطار الكاثوليكية . كان منقسماً إلى ملل ونحل ، فحرم بذلك من حبر أعظم مرهوب ينسق عقيدته واستراتيجيته ودفاعه ؛ وكان قادة الدين يعينهم الأمير ، ودخل الدين يعتمد على شهيته . وكان إيماناً قوياً في الطبقتين الوسطى والدنيا ؛ ولم يتأثر بموجات الإلحاد التي تدفقت من انجلترا وفرنسا غير النبلاء والمفكرين وبعض الأكليروس . وكان إقليم الراين أكثره من الكاثوليك ، ولكن في هذا الإقليم بعينه شهدت هذه الحقبة قيام حركة تتحدى ساطة البابوات في جرأة .

وبيان ذلك أنه في ١٧٦٣ نشر يوهان نيكولاوس فون هونتاييم ، أسقف تريير المساعد ، متخفياً وراء اسم مستعار هو يوستينوس فبرونيوس ، رسالة باللاتينية في « حالة الكنيسة ، وساطة بابا روما الشرعية » وترجم الكتاب من اللاتينية إلى الألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وأحدث ضجة في جميع أرجاء غربي أوروبا . وقد قبل « فبرونيوس » سيادة البابا ، ولكن على أنها سيادة شرف وإدارة تنفيذية ؛ فالبابا غير معصوم ، وينبغي أن يتاح استئناف قراراته أمام مجمع عام تكون له السلطة التشريعية النهائية في الكنيسة . وكان المؤلف سيء الظن بالتأثير المحافظ المستور للبلاط البابوي (الكيوريا) ، -- وألمح إلى أن التركيز المفرط للسلطة الكنسية تمخض عن حركة الإصلاح البروتستنتي ؛ وقد تيسر اللامركزية رجوع البروتستنت إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية . وفي مسائل القانون البشري ، لا الإلهي ، ينحى للأمراء العلمانيين أن يرفضوا طاعة البابوية ، ولهم -- إن لزم الأمر -- حق فصل كنائسهم القومية عن روما . وأدان البابا الكتاب (فبراير ١٧٦٤) ، ولكنه أصبح « كتاب صلاة للحكومات » (٤٨) وقد رأينا تأثيره على يوزف الثاني .

ومال رؤساء أساقفة كولون ونريير وماينز وسالزبورج لآراء « فبرونيوس » ، فقد رغبوا في الاستقلال عن البابا استقلال الإمارات الأخرى عن الامبراطور . وعليه في ٢٥ سبتمبر ١٧٨٦ أصدروا « بيان إيمس التمهيدى » (قرب كوبلنتز) الذي كان خليقاً بأحداث حركة إصلاح بروتستنتي جديدة لو أخرج إلى حيز التنفيذ :

« إن البابا أعلى سلطة في الكنيسة وسيظل أعلى سلطة فيها . . . ولكن الامتيازات (البابوية) التي لا تنحدر عن القرون المسيحية الأولى بل هي مبنية على المراسيم الإيزادورية الباطلة ، والتي تنقص من قدر الأساقفة . . . لم يعد في الإمكان أن تعد قانونية ، فهي تنسب إلى اغتصابات الكيوريا الرومانية ؛ والأساقفة الحق (مادامت الاحتجاجات السلمية لا تجدى) في صيانة حقوقهم الشرعية تحت حماية الامبراطور الألماني - الروماني . (م ١١ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

و يجب ألا يكون هناك بعد اليوم أى استثناءات (من الأساقفة) أمام روما . .
و ألا تتلقى الطرق (الدينية) أى توجهات من رؤساء أجنبية ، ولا أن تحضر
بجامع عامة خارج ألمانيا . ويجب ألا ترسل أية تبرعات لروما . . . و ألا
تملأ روما الوطائف الكنسية الشاغرة ذات الدخول ، بل تملأ بانتخاب قانونى
للمرشحين الوطنيين . . . وينبغى أن ينظم هذه الأمور وغيرها مجمع قومى
ألمانى » (٤٩) .

و لم يؤيد الأساقفة الألمان هذا الإعلان خوفاً من قوة الكيوريا المالية ،
ثم انهم ترددوا فى الاستعاضة عن سيادة روما النائية بسلطة الأمراء الألمان
المباشرة والأصعب تفادياً . وهكذا انهارت الثورة الوليدة . وعدل هونتهام
عن أقواله (١٧٨٨) ، وسحب رؤساء الأساقفة بيانهم التمهيدى (١٧٨٩) ،
وعادت الأمور كلها تسير سيرتها الأولى .

٤ ... عصر التنوير الألمانى

ولكن ليس بكل معنى العبارة فالتعليم ، باستثناء الإمارات الكنسية ،
كان قد انتقل من سيطرة الكنيسة إلى سيطرة الدولة . فأساتذة الجامعات
تعيينهم الحكومة وتدفع رواتبهم (فى تقدير مخجل) ، ولهم وضع الموظفين
العموميين . ومع أن جميع المدرسين والطلاب كان يشترط عليهم الإقرار
بأنهم يدينون بمذهب الأمير ، إلا أن الكليات الجامعية ، حتى سنة ١٧٨٩ ،
كانت تتمتع بقدر متزايد من الحرية الأكاديمية . وحلت الألمانية محل
اللاتينية لغة للتعليم . وكثرت المقررات الدراسية فى العلوم والفلسفة . وتوسع
فى تعريف الفلسفة (فى جامعة كونيغزبرج على عهد كانط) بأنها « القدرة
على التفكير . وعلى البحث فى طبيعة الأشياء دون تغرضات أو مذهبية » (٥٠) .
وقد طلب كارل فون تسيدلتس وزير التربية المخلص فى عهد فردريك الأكبر ،
إلى كانط أن يقترح طرقياً « لصد الطلاب فى الجامعات عن دراسات » أنكل
العيش » . وإفهامهم أن التمليل الذى يتعلمونه من القانون ، لا بل اللاهوت
والطب . سيكون أيسر استيعاباً وآمن تطبيقاً لو ملكوا ناصية المعرفة
الفلسفية » (٥١) .

وقد حصل الكثير من فقراء الطلاب على معونة حكومية أو أهلية لمواصلة التعليم الجامعى ، وإنها لقصة مبهجة تلك التى روى فيها لإكرامان كيف كان جيرانه الرحماء يمدون إليه يد المعونة فى كل خطوة من خطى تطوره (٥٢) . ولم يكن بين جماعة الطلاب تفرقة طبقية (٥٣) . فكل خريج يسمح له بأن يحاضر تحت رعاية الجامعة مقابل أى رسم يستطيع جمعه من المستمعين ، وقد بدأ كانط حياته المهنية على هذا النحو ؛ وكانت منافسة المعلمين الجدد لقداماهم تحفز هؤلاء على أن يكونوا مستعدين فى كل لحظة . وقد حكمت مدام دستال على الجامعات الألمانية الأربع والعشرين بأنها « أرقى الجامعات علماً فى أوروبا . فليس فى أى قطر ، ولا حتى فى إنجلترا ، وسائل بهذه الكثرة للتعليم أو للارتقاء بقدرات الإنسان إلى الكمال . ٥ . ومنذ عصر الإصلاح البروتستنتى تفوقت الجامعات البروتستنتية على الكاثوليكية تفوقاً لا جدال فيه ، ويرتكز مجد ألمانيا الأدبى وفخرها على هذه المعاهد » (٥٤) .

وانتشر الإصلاح التعليمى وشاع فى الجو . فأصدر يوهان بازدوا — مسئلاً قراءته لروسو — فى ١٧٧٤ كتاباً من أربعة مجلدات عنوانه « المبادئ » رسم مخططاً لتعليم الأطفال بطريق المعرفة المباشرة بالطبيعة ؛ فيجب أن يكتسبوا الصحة والعافية بالألعاب والتمارين الرياضية ؛ وأن يتلقوا الكثير من تعليمهم فى الهواء الطلق بدلاً من أن يلزموا مكائهم ؛ وأن يتعلموا اللغات لا بالأجرومية والصم بل بتسمية الأشياء والأفعال التى يصادفونها فى خبراتهم اليومية ؛ وأن يتعلموا الأخلاق بتأليف جماعاتهم وتنظيمها ؛ وأن يتهيأوا للحياة بتعلم حرفة ما . والدين يدخل فى المنهج لا بالصورة القديمة الغالبة ؛ وكان بازدويتشك فى عقيدة التثليث جهاراً (٥٥) وأنشأ فى دساو (١٧٧٤) معهداً خيرياً نموذجياً أخرج تلاميذ ، صدمت الكبار « وقاحتهم ، وسلطتهم ، وسعة علمهم وخيالهم » (٥٦) ، ولكن هذا « التعليم التقدمى » ، كان متسقاً مع حركة التنوير ، فانتشر سريعاً فى طول ألمانيا وعرضها .

وكانت التجارب فى مضمار التعليم جزءاً من الاختصار الفكرى الذى

اضطربت به البلاد بين حرب السنين السبع والثورة الفرنسية . فكثرت الكتب والجرائد والمجلات والمكتبات المتنقلة وأندية القراءة كثرة ملؤها الحماسة . وانبثقت الحركات الأدبية العديدة ، ولكل منها أيديولوجيتها ومجلتها وقادتها . وكانت أول جريدة يومية ألمانية « داي لبيزج زيتونج » قد بدأت عام ١٦٦٠ ، فلم يحل عام ١٧٨٤ حتى كان هناك ٢١٧ جريدة يومية وأسبوعية في ألمانيا . وفي ١٧٥١ بدأ ليسنج يحرر القسم الأدبي من « فوسيك ديتونج » في برلين ؛ وفي ١٧٧٢ أصدر ميرك وجوته وهردر « أنباء فرانكفورت الأدبية » ؛ وفي ١٧٧٣ - ٨٩ جعل فيلاند من « در تيوتش مركر » أكثر المجلات الأدبية في ألمانيا نفوذاً . وكان هناك ثلاثة آلاف مؤلف ألماني في ١٧٧٣ ، وستة آلاف في ١٧٨٧ ، وفي لبيزج وحدها ١٣٣ . وكثيرون منهم كانوا كتاباً يعملون بعض الوقت . وربما كان ليسنج أول ألماني تعيش من الأدب سنين كثيرة . وكان جل المؤلفين فقراء ، لأن حق التأليف لم يعدهم إلا داخل إماراتهم ؛ واختزلت الطبقات المسروقة أرباح المؤلف والناشر على السواء اختزالاً شديداً . وقد خسر جوته من كتابه جوتز فون برلينجن وكان ربحه ضئيلاً من قصته « آلام فرتر » ، وهي أعظم انتصار أدبي لذلك الجيل . ويعده تفجر الأدب الألماني أحد الأحداث العظمى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر . فحين كتب دالامبير من بوتسدام في ١٧٦٣ لم يجد في المطبوعات الألمانية شيئاً يستحق الذكر^(٥٧) ؛ ولكن ما وافى عام ١٧٩٠ حتى كانت ألمانيا تنافس فرنسا بل ربما تبرزها في العبقرية الأدبية المعاصرة . وقد لاحظنا احتقار فردريك للغة الألمانية لأنها جشاء غليظة تؤذيها الحروف الساكنة ؛ ومع ذلك فإن فردريك نفسه ، بهزيمة الرائعة لهذا العدد الكبير من أعدائه ، قد أطمع ألمانيا العزة القومية التي حفزت الكتاب الألمان على استعمال لغتهم والوقوف أنداداً لأمثال فولتير وروسو . فلم يحل عام ١٧٦٣ حتى كانت الألمانية قد هذبت نفسها وأصبحت لغة أدبية مستعدة للتعبير عن حركة التنوير الألماني .

ولم يكن هذا التنوير وليسداً بتوليسا . فهو الثمرة المؤلمة التي تمحضت عنها الربوبية الانجليزية مقترنة بالتفكير الحر الفرنسي

على أرض مهدها عقلانية كريستان فون فولف المعتدلة . وكانت تفجرات الربوبية الكبرى التي فجرها تولاند وتندال وكولتز ووستن وولستن قد تمت ترجمتها إلى الألمانية قبيل عام ١٧٤٣ ، وما وافى عام ١٧٥٥ حتى كانت « رسائل » جريم تبث أحدث الأفكار الفرنسية بين الصفوة المثقفة من الألمان . وتوفر في ١٧٥٦ من أحرار الفكر في ألمانيا نغرا أتاح إصدار « معجم لأحرار الفكر » . وفي ١٧٦٣ - ٦٤ أصدر بازدوف كتابه (محبة الصديق) الذي رفض أى وحى إلهي غير وحى الطبيعة ذاتها . وفي ١٧٥٩ بدأ كريستيان فريدرش نيقولاى ، وهو تاجر كتب برلينى ، « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » ؛ وقد ظلت هذه الرسائل التي أثرتها مقالات بأقلام ليسنج وهردر وموسى مندلسون حتى عام ١٧٦٥ مناراً أدبياً لحركة التنوير يحارب التطرف في الأدب والسلطة في الدين .

وشاركت الماسونية في الحركة فتأسس أول محفل للماسون بهمبورج في ١٧٥٣ ، وولتته محافل أخرى ؛ وكان من أعضائها فردريك الأكبر ، وفرديناند دوق برنزويك ، وكارل أوجست دوق ساكسى - فايمار ، وليسنج ، وفيلاند ، وهردر ، وكلويشتوك ، وجوته ، وكلايست . وكانت هذه الجماعات بوجه عام تميل إلى الربوبية ، ولكنها تتحاشى النقد العلنى للإيمان التقليدى . وفي ١٧٧٦ نظم آدم فايسهاويت ، أستاذ القانون الكنسى في إنجولشتات ، جمعية سرية شقيقة ، سماها « برفكتيبيلستن » ، ولكنها اتخذت بعد ذلك الاسم القديم (المستنيرين) وقد اتبع مؤسسها ، وهو يسوعى سابق ، المنهج الذى جرت عليه جماعة اليسوعيين ، فقسم رفاقها إلى درجات من الاطلاع على أسرارها وأخذ عليهم العهد بطاعة قادتهم في حملة « لتوحيد جميع الرجال القادرين على التفكير المستقل » ، ولجعل الإنسان « آية من آيات العقل ، فيبلغ بذلك أسمى درجات الكمال في فن الحكم » . (٥٨) وفي ١٧٨٤ حظر كارل تيودور ، ناخب بافاريا ، جميع الجمعيات السرية ، فلقبت « طائفة المستنيرين » حتفها في سن مبكرة .

وتأثر بحركة التنوير حتى الأكليروس . فطبق يوهان سملر أستاذ الفلسفة

في هاله « النقد الأعلى » على الكتاب المقدس . فزعم (على العكس تماماً من الأسقف فاربورتن) أن العهد القديم لا يمكن أن يكون موحى به من الله ، لأنه — إلا في مرحلته الأخيرة — تجاهل الخلود . وألمع إلى أن المسيحية قد حرفها عن تعاليم المسيح لاهوت القديس بولس الذي لم ير المسيح قط ؛ ثم نصح اللاهوتيين بأن ينظروا إلى المسيحية على أنها صورة عابرة من صور جهد الإنسان في بلوغ حياة فاضلة . فلما رفض كارل بارت وغيره من تلاميذه العقيدة المسيحية بأكملها إلا الإيمان بالله ، عاد سملر إلى إيمانه السنّي ، واحتفظ بكرسى اللاهوت من ١٧٥٢ إلى ١٧٩١ . ووصف بارت المسيح بأنه معلم عظيم فقط . « مثل موسى ، وكوفنوشوس ، وسقراط ، وسملر ، ولوتر ، ومثلي أنا » (٥٩) كذلك سوى يوهان إيبه هارت بين سقراط والمسيح ، وقد طرد من وظيفة القسوسية اللوثرية ، ولكن فردريك عينه أستاذاً للفلسفة في هاله . وقسيس آخر يدعى ف . أ . تيلر اختزل المسيحية إلى الربوبية ، ودعا لعضوية كنيسة أى إنسان مؤمن بالله ، بما في ذلك اليهود (٦٠) ، أما يوهان شولتز ، الراعى اللوثرى ، فقد أنكر لاهوت المسيح ، ولم ير في الله أكثر من « الأساس الكافى للعالم » (٦١) ، وقد طرد من وظيفته في ١٧٩٢ .

هؤلاء المهترقون المفصحون عن هراطقاتهم كانوا قلة قليلة ؛ ولعل المهترقين الصامتين كانوا كثيرين . أما وقد رحب هذا العدد الكبير من رجال الدين بالعقل ، وكان الدين في ألمانيا أقوى كثيراً منه في انجلترا أو فرنسا وكانت فلسفة فولف قد أمدت الجامعات بهذا التوفيق بين العقلانية والدين ، فإن التنوير الألماني لم يتخذ صورة متطرفة . ولم يسع إلى تدبير الدين بل إلى تخليصه من الأساطير والسخافات وسلطان رجال الدين — وهى أمور جعلت الكاثوليكية في فرنسا مبعث سرور عظيم للشعب وسخط شديد للجماعة الفلاسفة ، وقد فطن العقلانيون الألمان — وهم يتبعون روسو لافولتير — إلى ما للدين من إغراء قوى للعناصر العاطفية في الإنسان ؛ ثم إن النبلاء الألمان ، الأقل جهرًا بارتيابيتهم من الفرنسيين ، ساندوا الدين معاونًا للأخلاق والحكم . وجاءت الحركة الرومانتيكية فكبحت زحف العقلانية . ومنعت ليسنج من أن يكون لألمانيا ماكانه فولتير من قبل لفرنسا .

٥ - جوتيهولت ليسنج

١٧٢٩ - ٨١

كان جده الأعلى عمدة لبلدة في سكسونيا ، وظل جده أربعة وعشرين عاماً عمدة على كاهينتس ، وكتب دفاعاً عن التسامح الديني ؛ وكان أبوه الراعي اللوثرى الأول في كاهينتس ، وكتب دروساً في تعليم العقيدة بالسؤال والجواب حفظها ليسنج عن ظهر قلب . أما أمه فكانت ابنة الواعظ الذي تقلد أبوه من قبل منصب الراعي لكنيستته . وكان تصرّفاً طبيعياً منها أن تنذره للقسوسية ، وطبيعياً منه بعد أن ألتحم بالتقوى أن يتمرد .

وكان تعليمه المبكر في البيت وفي مدرسة ثانوية بمدينة مايسين مزيجاً من التأديب الألماني والآداب الكلاسيكية ، ومن اللاهوت اللوثرى والكوميديا اللاتينية . يقول « كان تيوفراستوس ، وبلاوتوس ، وترينس ، عالمي الذي درسته بابتهاج » (٦٢) ، وحين بلغ السابعة عشرة بعث إلى ليبزج على منحة دراسية . فوجد المدينة أكثر إثارة للاهتمام من الجامعة؛ وانغمس في بعض حماقات الشباب ، وعشق المسرح ووقع في غرام إحدى الممثلات ، وسمح له بالدخول وراء الكواليس ، وتعلم وسائل تقوية التأثير المسرحي . وفي التاسعة عشرة كتب تمثيلية ، ووفق في جهوده فأخرجت . فلما سمعت الأم نبأ هذه الخطيئة بكّت ، واستدعاه الأب إلى البيت غاضباً . ولكنه سرى عنهما بابتساماته ، وأقنعهما بسداد ديونه . وحين وقعت أخته على قصائده وجدتها بذيئة إلى حد مذهل وأحرقها ، فرمى ثلجاً في صدرها ليخفف من حماسها ، ثم أعيد إلى ليبزج ليدرّس الفلسفة ويصبح أستاذاً ، ولكنه وجد الفلسفة قاتلة ، واقترض ديوناً عجز عن الوفاء بها ، ثم هرب إلى برلين (١٧٤٨) .

هناك عاش حياة الأديب الذي يلتقط رزقه يوماً بيوم - يراجع الكتب ، ويترجم ، ويشترك مع كريستوب مياموس في تحرير مجلة مسرحية لم تعمر . وما إن بلغ التاسعة عشرة حتى أصبح مدمناً للتفكير الحر . فقرأ سينوزا ووجده برغم هندسته لا يقاوم . وألف مسرحية (١٧٤٩) عنوانها

« الروح الحر » ، قابلت بين تيوفان القسيس الشاب اللطيف ، وأدراسـت الحر التفكير الحشن الصخب الذى تغلب عليه إلى حد ماصفات الأوغاد . هنا انتصرت المسيحية فى الجدل . ولكن فى هذه الفترة أو حولها كتب ليسنج لأبيه يقول « ليس الإيمان المسيحى بالشئ الذى ينبغى للمرء أن يتقبله من أبويه بتسليم » ^(٦٣) وألف الآن تمثيلية أخرى (اليهود) ناقشت الزواج بين المسيحيين واليهود . فهنا عبرانى غنى شريف لا اسم له إلا « المسافر » . ينقل حياة نبيل مسيحى وابنته ، فيعرض النبيل عليه الزواج من ابنته مكافأة له ، ولكنه يعدل عن عرضه حين يميـط اليهودى اللثام عن حقيقة جنسه ؛ ويوافق اليهودى على أن الزواج لو تم لكان غير سعيد . ولم يتعرف ليسنج إلى موسى مندلسون الذى رأى فيه تجسيداً للفضائل التى كان قد خلـعها على « المسافر » إلا بعد خمس سنين (١٧٥٤) وذلك أثناء مباراة للشطرنج .

وفى بواكير عام ١٧٥١ كلف فولتير أو سكرتيره ليسنج بأن يترجم إلى الألمانية مادة أراد الفيلسوف المتغرب أن يستعملها فى دعوى رفعها على أبراهام هيرش ، وسمح السكرتير لليسنج أن يستعير جزءاً من مخطوط كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » . وفى تاريخ لاحق من تلك السنة ذهب ليسنج إلى فتنبرج وأخذ المخطوط معه . وخشى فولتير أن تستعمل هذه النسخة غير المصححة فى إصدار طبعة مسروقة ، فأرسل إلى ليسنج طلباً عاجلاً بأسلوب مهذب ليرد الأوراق . واستجاب ليسنج ، ولكنه أنكر النعمة المتعجلة . وربما كان هذا سبباً فى تشويه خصومته التالية لأعمال فولتير وخلقه .

ونال ليسنج درجة الأستاذية من جامعة فتنبرج عام ١٧٥٢ . فلما عاد إلى برلين شارك فى دوريات شتى بمقالات اتسمت بكثير من التفكير الإيجابى والأسلوب اللاذع . فما حل عام ١٧٥٣ حتى كان قد اكتسب قراء بلغوا من الكثرة جداً يلتبس له معه العذر فى أن ينشر وهو فى الرابعة والعشرين طبعة جمعت كل أعماله فى ستة مجلدات . وقد اشتملت على تمثيلية جديدة اسمها « الأنسة سارة سامبسن » كانت من معالم تاريخ المسرح الألمانى . وكان

المسرح الألماني إلى هذا التاريخ قد أخرج كوميديات وطنية ، ولكن ندر أن أخرج مأساة وطنية . لذلك ناشد ليسنج زملاءه كتاب التمثيليات أن يتحولوا عن النماذج الفرنسية إلى النماذج الإنجليزية ويكتبوا مآسيهم هم . وامتدح ديدرو لدفاعه عن الكوميديا العاطفية ومأساة الطبقة الوسطى ، ولكن تمثيلية « الآنسة سامبسن » استوحاها من إنجلترا - من « التاجر اللندنى » لجورج ليللو (١٧٣١) و « كلاريسا » لصموئيل رتشر دسن (١٧٤٨) .

ومثلت المسرحية في فرانكفورت - على - الأدور عام ١٧٥٥ ، ولقيت قبولا حسناً . وقد احتوت كل عناصر الدراما ؛ بدأت بإغواء ، واختتمت بانتحار ، ووصلتهما بنهر من الدموع . والوغد مليفوت (الحلوى المظهر) هو أفليس في قصة رتشر دسن ؛ تمرس بسلب الفتيات بكارتهن ، ولكنه يستنكر الزواج بواحدة ؛ يعد سارة بالزواج - ويهرب معها ، ويعاشرها معاشرة الأزواج ، ثم يسوف في الزواج ؛ وتحاول خليمة سابقة له أن تسترده ، وتخفق . فتدس السم لسارة ، ويصل أبو سارة ، مستعداً لأن يغفر كل شيء ويقبل مليفونت صهراً له ، ولكنه يجد ابنته تحتضر أما ملفونت فيمتحرم مخالفاً بذلك طبيعته ، وكأنه يطبق ملاحظة ليسنج الساخرة : إن الأبطال في المآسى لا يموتون من شيء إلا من الفصل الخامس (٦٥) .

وخيل إليه أن في استطاعته الآن أن يرتزق من الكتابة للمسرح ، ولما لم يكن في برلين مسارح فإنه رحل إلى ليبزج (١٧٥٥) ثم اندلعت حرب السنين السبع . فأقفل المسرح ، وكسدت سوق الكتب ، وبات ليسنج مفلساً . فعاد إلى برلين ، وشارك في مجلة نيقولاى « رسائل عن أحدث ثمرات الأدب » بمقالات سجلت قمة جديدة في النقد الأدبى الألماني . تقول رسالته التاسعة عشرة « إن القواعد هي ما يشاء أساتذة الفن مراعاته » وفي ١٧٦٠ غزا الجيش النمساوى الروسى برلين ، ففر ليسنج إلى برزلاو حيث عمل سكرتيراً لقائد بروسى . وخلال السنين الخمس التي أقامها هناك اختلف إلى الحانات ، وقامر ، ودرس سبينوزا ، وآباء المسيحية القدامى ، وفنكلمان ، وكتب « لا وكون » . ثم عاد إلى برلين في ١٧٦٥ . وفي ١٧٦٦ دفع بأشهر كتيبه إلى المطبعة .

وهذا الكتاب « لاوكون ، أو على التخوم بين التصوير والشعر » استلهم حافظه المباشر من كتاب فنكلمان « أفكار عن محاكاة الآثار الإغريقية في التصوير والنحت » (١٧٥٥) . وبعد أن كتب ليسنج نصف مخطوطه وصله كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » (١٧٦٤) ، فقطع بحثه وكتب يقول ، « لقد ظهر كتاب الهر فنكلمان في تاريخ الفن . ولن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى قبل أن أقرأ هذا الكتاب » (٦٥) واتخذ نقطة انطلاقاً من مفهوم فنكلمان عن الفن الإغريقي الكلاسيكي متمثلاً في الوقار الهادئ والفخامة المطمئنة ، ووافق على زعم فنكلمان أن مجموعة تماثيل اللاوكون المحفوظة بقاعة الفاتيكان للفنون احتفظت بهذه الصفات رغم الألم القتال (اشتبه لاوكون ، كاهن أبوللو في طروادة ، في أن هناك يونانيين يخشون في « حصان طروادة » ، فقدفه برمح ، ولكن الإله أثينا الخابية لليونان أقنعت بوسيدون أن يطاع من البحر ثعبانين ضخمين التفتا حول الكاهن وولديه التفتافاً قاتلاً) . وقد ظن فنكلمان أن مجموعة لاوكون — التي تعد الآن عملاً من أعمال نحاتين رودسيين في القرن الأخير قبل المسيح — تنتمي إلى عصر فيدياس الكلاسيكي.

أما لماذا خلع فنكلمان ، الذي شاهد هذا الأثر ودرسه صفة الجلال المطمئن على ملامح الكاهن المشوهة فذلك سر غامض . وقد قبل ليسنج الوصف لأنه لم ير التمثال قط (٦٦) . ووافق على أن التمثال خفف من تعبير الألم ، ثم راح يتساءل عن سبب هذا الانضباط الفني ، وأراد استنباطه من قيود الفن التشكيلي الأصيلة الصحيحة .

ثم تمثل بقول الشاعر الإغريقي سيمونيديس إن « التصوير شعر صامت ، والشعر تصوير بليغ » (٦٧) . وأضاف أن الإثنين مع ذلك يجب أن يلزما حدودهما الطبيعية : فالتصوير والنحت ينبغي أن يصفيا الأشياء في المكان ، لأن يحاولا قص قصة ، أما الشعر فينبغي أن يروي أحداثاً في الزمان ، لأن يحاول وصف أشياء في المكان . وينبغي أن يترك الوصف المفصل للفنون التشكيلية ، فإذا ورد في الشعر ، كما في « فصول » طرمسن أو « ألب » هالر ، قطع السرد وشوش الأحداث . « ومعارضة هذا الذوق الفاسد

ومناقضة هذه الآراء التي لا أساس لها ، هو الهدف الرئيسي للملاحظات التالية « (٦٨) . ولكن سرعان ما نسي ليسنج هذا الهدف ، وتاه في نقاش مستفيض لكتاب فكلمان في تاريخ الفن . هنا كانت تعوزه الخبرة والكفاية ، وكان لتمجيده الجمال المثالي باعتبارها هدف الفن أثر معطل على التصوير الألماني . ثم إنه خلط بين التصوير والنحت ، وطبق عليهما جميعاً المعايير الخاصة بالنحت في المقام الأول ، وبهذا شجع شكلية أنطون رفاثيل منجز الجامة . بيد أن أثره على الشعر الألماني كان بركة ؛ فقد حرره من الأوصاف المسهية ، والنزعة الوعظية المدرسية ، والتفصيل الممل ، وأرشده إلى الحركة والشعور . وقد أقر جوته شاكرًا بالتأثير المحرر لكتاب ليسنج « لاوكون » .

ووجد ليسنج نفسه أكثر تمكناً من عمله حين انتقل (ابريل ١٧٦٧) إلى همبرج كاتباً وناقداً مسرحياً براتب قدره ثمانمائة طالر في العام . وهناك أخرج تمثيليته الجديدة . « منا فون بارنهيلم » . وبطل التمثيلية — الميجر ثلهام — العائد من الحرب بأكاليل الغار إلى أملاكه يظفر بخطبة منا الحساء الغنية . غير أن الحظ الذي قلب له ظهر المجن ، والدسائس المعادية التي لاحقته ، يهويان به إلى درك الفقر ، فينسحب من الخطبة لأنه لم يعد الزوج الصالح لوريثة ثروة ضخمة . ويختفي ، ولكنها تطارده وتتوسل إليه أن يتزوجها ، فرفض . وإذ تدرك السبب تدبر خدعة تبنت بها معذمة ولكن في صورة جذابة ؛ ويعرض الميجر الآن نفسه زوجاً لها ويدخل رسولان فجأة يعلنان كل من ناحيه أن منا وتلهام قد استردا ثروتهما . ويتهيج الجميع ، وحتى الخدم يدفعون على عجل إلى الزواج . والحوار مريح ، والشخص بعيدة التصديق ، والحبكة منافية للعقل — ولكن كل الحركات تقريباً منافية للعقل .

وفي اليوم الذي شهد افتتاح المسرح القومي بهمبرج (٢٢ أبريل ١٧٦٧) أصدر ليسنج نشرة قدم بها لمقالاته في نظرية الدراما وقد علقت هذه المقالات دورياً ، طوال العامين التاليين ، على التمثيليات التي أخرجت في ألمانيا ، وعلى نظرية الدراما في أعمال الفلاسفة . وقد اتفق مع أرسطو على القول بأن الدراما تسمى أنواع الشعر ، وقبل في تناقض مندفع القواعد التي وضعها أرسطو في كتابه « في الشعر » :

« لست أتردد في الاعتراف . . . بأنى أعده معصوماً مثل « مبادئ » » (٦٩)
أقليدس (الذى لم يعد الآن معصوماً) . ومع ذلك توسل إلى مواطنيه أن يكفوا
عن تبعيتهم لكورنيلي وراسين وفولتير ، وأن يدرسوا فن الدراما كما هو
معلن في شكسبير (الذى تجاهل قواعد أرسطو) . وقال إنه يشعر ان في
الدراما الفرنسية اسرافاً في الشكلية لا يسمح بإحداث ذلك « التنفيس » أو تطهير
العواطف الذى وجده أرسطو في الدراما اليونانية ؛ وذهب إلى أن شكسبير
قد حقق هذا التطهير على نحو أفضل في الملك لير ، وعطيل ، وهاملت بحدة
الحركة وقوة لغته وروعها . وقد أكد ليسنج ضرورة توفر عنصر الاحتمال ،
ناسياً منديل ديدمونه . فكتاب الدراما التقدير يتجنب الاعتماد على المصادفات
والنفاهاة ، فيبنى بالتدرج كل شخص من شخصه بحيث تصدر الأحداث
بالضرورة عن طبيعة الأشخاص المعنيين . وقد وافق كتاب الدراما في فترة
حركة « شتورم أوندر درانج (الاقترحام والجهاد) على اتخاذ شكسبير مثلاً
أعلى ، وحرروا الدراما الألمانية في ابتهاج من الدراما الفرنسية . وألهمت
الروح القومية التي تصاعدت بانتصارات فردريك وهزيمة فرنسا نداء ليسنج
ودعمته ، وسيطر شكسبير على المسرح الألماني قرابة قرن من الزمان .

غير أن تجربة همبورج انهارت لأن الممثلين تنازعوا فيما بينهم ولم يتفقوا إلا
على الاستياء من مقالات ليسنج النقدية . فشكا فريدرش شرودر من أن
« ليسنج لم يستطع قط أن يفرغ لمشاهدة عرض كامل للمسرحية ؛ فهو
يخرج ويدخل ، أو يتحدث إلى معارفه ، أو يستسلم للتفكير ، ومن السمات
التي تثير سروره العابر يكون صورة هي من نسج عقله ولا تمت إلى الواقع
بسبب » (٧٠) وهذا الحكم المميز أجاد وصف حياة ليسنج وعقله المتبردين .

والآن هل يجدر بنا أن نقف به في منتصف طريقه لنلقى عليه بنظرة ؟
كان ربعة ، منتصب القامة في كبرياء ، قوياً لدينا بفضل التمرين الرياضي
المنتظم ، مليح القسماة ، أزرق العينين في دكنة ، بنى الشعر فاتحه مخففاً
بلونه هذا حتى مماته . وكان دافئاً في صداقاته ، حاراً في عداواته . لا يسعده
شيء كالجدل ، فإذا اشتبك فيه أثخن الجراح بقلم حاد . كتب يقول « ليبدأ

الناقد بالبحث عن شخص يستطيع الاختلاف معه . وهكذا يلج موضوعاً ويوغل فيل شيئاً فشيئاً ، ثم يقفو الباقي هذه الخطوة نتيجة طبيعية لها ، وأنا أعترف صراحة بأننى اخترت أولاً المؤلفين الفرنسيين لهذا الغرض ، لاسيما المسيو فولتير» (٧١) — وقد اقتضى هذا الاختيار قدرأ كافياً من الشجاعة . وكان متحدثاً ذكياً ولكنه مندفع ، حاضر الجواب ، لديه عن كل شيء أفكار بلغت من الكثرة والقوة مبلغاً لم يتح له أن يضفى عليها النظام أو الاتساق أو الفعالية الكاملة . وكان يستمتع بالبحث عن الحقيقة أكثر من الوهم الخطر بأنه وجدها . ومن هنا جاءت أشهر ملاحظاته :

« ليست الحقيقة التى يملكها الرجل — أو يعتقد أنه يملكها — هى التى تجعل له قيمة ، بل الجهد المخلص الذى بذله للوصول إليها . لأنه ليس بامتلاك الحقيقة بل بالبحث يطرر المرء تلك الطاقات التى فيها وحدها كماله المطرد النمو . فالتلك يجعل العقل راكداً كسولاً متكبراً . ولو أن الله احتوى فى تمامه الحقيقة كلها ، ولم تحتو يسراه إلا الحافز الدائم الحركة نحو الحقيقة ، علماً بأننى سأخطئ دائماً أبداً — ثم قال لى « اختر ! » لأحيت رأسى فى اتضاع أمام يسراه وقلت « أبتاه ، أعطى هذا ! فالحقيقة الخالصة لك أنت وحدك » (٧٢) .

وبقيت له من تجربة همبورج الفاشلة صداقتان غاليتان ، إحداهما مع إلبز رايماروس ، ابنة هرمان رايماروس أستاذ اللغات الشرقية فى أكاديمية همبورج ، التى جعلت من بيتها ملتقى لأرقى الجماعات ثقافة فى المدينة . وأنضم ليسنج إلى ندوتها ، واختلف إليها مندلسون وياكوبى أثناء وجودهما فى المدينة ، وسوف نرى الدور الحيوى الذى لعبته هذه الجماعة فى تاريخ ليسنج . أما الصداقة الثانية التى كانت أوثق حتى من هذه فصداقته لإيفا كونييج يقول ليسنج إن هذه السيدة التى كانت زوجاً لتاجر حرير وأما لأربعة أطفال « ذكية تفيض حيوية ، وهبت لباقة المرأة وكياستها » ، وأنها « كانت لا تزال محتفظة ببعض نضارة الشباب وفتنته » (٧٣) ، وقد جمعت هى أيضاً

من حولها صالوناً من الأصدقاء المثقفين ، كان ليسنج يحتل مكان الصادرة منهم . فلما رحل زوجها إلى البندقية في ١٧٩٩ قال لليسنج ، « إنى أترك أسرتى وديعة بين يديك » . ولم يكن هذا بالترتيب الحكيم ، لأن الكاتب المسرحى لم يكن له ما يملكه إلا العبقريّة ، وكان مديناً بألف طالر . وفى أكتوبر من ذلك العام قبل دعوة من الأمير كارل فلهم فرديناند حاكم برنزويك ليضطلع بأمانة مكتبة الدوقية فى فولفنيوتل ، التى تقلص سكانها إلى ستة آلاف نسمة منذ أن نقل دوقها الحاكم مقره إلى برنزويك (١٧٥٣) على سبعة أميال منها ، ولكن مجموعة كتبها ومخطوطاتها كانت فى رأى كازانوف « ثالث أعظم مكتبة فى العالم » ^(٧٤) واتفق على أن ينقد ليسنج ستائة طالر فى العالم ويخصص له مساعدان وخادم ، ويعطى سكناً مجانياً فى قصر الدوق القديم ؛ وفى مايو ١٧٧٠ استقر فى بيته الجديد .

غير أنه لم يكن أمين مكتبة ناجحاً ، ومع ذلك فقد ألهج رئيسه باكتشافه بين المخطوطات بحثاً مشهوراً مفقوداً بقلم بيرنجار الثورى (٩٩٨ --- ١٠٨٨) يتشكك فيه فى عقيدة استحالة خبز القربان وخمرة إلى جسد المسيح ودمه . وقد افتقد فى حياته القاعدة ، التى عاشها الآن ، الكفاح والحافز اللذين وجدتهما فى همبورج وبرلين . ثم إن انكبابه على قراءة الخطوط الرديئة فى الضوء الضعيف أضر عينيه وأصابه بنوبات من الصداع ، وبدأت صحته تتداعى ، فعزى نفسه بكتابة مسرحية جديدة سماها « إميليا جالوتى » أفصححت عن الضيق بامتيازات الطبقة الارستقراطية وأخلاقها . فإميليا هذه ابنة جمهورى متحمس ، يشتهيها سيدهما أمير جراستاللا فيقتل خطيبها بأمره ، ثم تخطفها إلى قصره ؛ فيعثر عليها أبوها ، ويطعمها طعنات مميتة استجابة لإلحاحها ، ثم يستسلم لبلاط الأمير ويحكم عليه بالإعدام ، بينما الأمير سادر فى غيه لا يختلج إلا لحظة . وحرارة المسرحية وبلاغتها أنقذتا خاتمتها ، فأصبحت مأساة محببة على نخشة المسرح الألماني ، وقد أرخ جوته بعرضها الأول (١٧٧٢) بعث الأدب الألماني من رقده . ورحب بعض النقاد بليسنج شكسبيراً ألمانياً .

وفى أبريل ١٧٧٥ ذهب ليسنج إلى إيطاليا مرافقاً لليويولد أمير برنزويك ، وقضى ثمانية أشهر يستمتع بالحياة فى ميلان والبندقية وبولونيا ومودينا

وبارما وبياتشتسا وبافيا وتورين وكورسيكا وروما ؛ وهناك قدم إلى البابا بيوس السادس ، وربما شاهد تمثال لاوكون متأخراً . وفي فبراير ١٧٧٦ كان قد عاد إلى فولفنبوتل . وفكر في الاستقالة ، ولكنه أقنع بالبقاء في منصبه بعلاوة قدرها مائتا طالر فوق راتبه ، ومائة جنيه ذهبي فرنسي (لوى دور) في العام بوصفه مستشاراً لمسرح مانهايم . وعرض الآن وهو في السابعة والأربعين على الأرملة إيفاكونيج أن تصبح زوجاً له وأن تحضر بأولادها معها . فحضرت ، وتزوجا (٨ أكتوبر ١٧٧٦) . وظلا عاماً يتمتعان بحياة سعيدة هادئة . وفي عشية الميلاد من عام ١٧٧٧ ، ولدت طفلاً مات في الغد . وبعد ستة عشر يوماً ماتت الأم أيضاً ، وفقد ليسنج طعم الحياة .

ولكن الجدل حفظ عليه حياته . ففي أول مارس ١٧٦٨ ودع هرمان رايماروس الحياة مخلفاً لزوجته مخطوطاً ضخماً لم يجرؤ قط على طبعه . وقد مررنا في غير هذا الموضوع ^(٧٥) من الكتاب مرور الكرام بهذا « الدفاع عن المؤمنين العقلانيين » . وكان ليسنج قد اطلع على شطر من هذا المؤلف الممتاز ، فطلب إلى السيدة رايماروس أن تسمح له بنشر أجزاء منه ، فوافقت . وكان له بصفته أميناً للمكتبة سلطة نشر أى مخطوط في المجموعة . فأودع مخطوط « الدفاع » في المكتبة ، ثم نشر جزءاً منه في ١٧٧٤ بعنوان « تسامح الربوبيين . . . بقلم كاتب مجهول » . فلم يثر أى ضجة . ولكن الراسخين في الأمور الروحية أثارهم القسم الثانى في مخطوط رايماروس الذى أصدره ليسنج في ١٧٧٧ بعنوان « مزيد من بحوث الكاتب المجهول عن الوحي » . وقد زعم هذا القسم أنه لا يمكن لأى وحى موجه لشعب واحد أن يظفر بقبول جميع الناس في عالم تتنوع أجناسه وأديانه هذا التنوع الكبير ، فالذين سمعوا إلى الآن بالكتاب المقدس ؛ اليهودى — المسيحى ، بعد ألف وسبعمائة سنة ، ليسوا إلا أقلية من البشر ، وإذن فلا يمكن قبوله تنزيلاً من الله للنوع الإنسانى . ثم نشر قطعة أخيرة من المخطوط بعنوان « أهداف المسيح وتلاميذه » (١٧٧٨) لم تصبور المسيح ابناً لله بل صوفياً متحمساً شارك رأى بعض اليهود في أن العالم المعروف يومها قد أشرف على هياته ، وسيعقبه قيام

ملكوت الله على الأرض؛ وقد فهمه الرسل على هذا النحو (في زعم رايماروس)، لأنهم أملوا في أن يبهعوا عروشاً في هذا الملكوت القادم . فلما انهار الحلم بصرخة المسيح الياثسة على الصليب « إلهي إلهي لماذا تركتني » — اخترع الرسل (كما ظن رايماروس) خرافة قيامته إخفاء لهزيمته ، وصوروه بصورة ديان العالم المكافئ المنتقم .

وهاجم اللاهوتيون الذين صدموا أجزاء « مخطوط فولفنبوتل » هذه في نيف وثلاثين مقالا في الصحف الألمانية . واتهم يوهان ملكيور جوتسي كبير رعاة همبورج ليسنج بأنه موافق سرّاً على مزاعم « الكاتب المجهول » ، وحض الكنيسة والدولة جميعاً على عقاب هذا المنافق . أما الخصوم الأكثر اعتدالاً فقد ونخوا ليسنج على نشره بالألمانية المفهومة للقراء شكراً كان من الواجب الإفصاح عنها ، إن جاز الإفصاح إطلاقاً ، باللاتينية لفئة قليلة من القراء . ورد ليسنج في إحدى عشرة نشرة (١٧٧٨) نافست « رسائل بسكال الإقليمية » في تهكمها المرح — ونكتتها الذكية الفتاكة . يقول هيني « لم يسلم منه رأس ، وما أكثر الرؤوس التي أطاح بها لمجرد اللعب الخالص ، ثم دفعته شقاوته إلى رفعها علانية ليرى الناس أنها فارغة »^(٧٦) . وقد ذكر ليسنج مهاجميه بأن حرية الحكم والنقاش عنصر حيوي في برنامج حركة الإصلاح البروتستنتي ؛ ثم إن للشعب الحق في كل المعرفة المتاحة له ، وإلا لكان بابا واحد من بابوات روما خيراً من مائة نبي بروتستنتي . وعلى أية حال فإن قيمة المسيحية (في زعمه) ستبقى حتى لو كان الكتاب المقدس مجرد وثيقة بشرية وكانت معجزاته مجرد قصص خرافية ورعة أو أحداث طبيعية . وصادرت حكومة الدوق أجزاء مخطوط فولفنبوتل ومخطوط رايماروس ، وأمرت ليسنج ألا ينشر المزيد دون موافقة الرقيب البرنزويكي .

فلما ألزم ليسنج الصمت على منبره اتجه إلى خشبة المسرح فألف أروع تمثيلياته . وكان قد أعسر مرة أخرى إثر النفقات التي تحملها بسبب مرض زوجته وموتها ، فاقترض ثلاثمائة طالر من يهودي همبورجي ليوفر الوقت اللازم للفراغ من مسرحية « ناثن الحكيم » . وقد اختار

مكاناً لأحداثها مدينة أورشليم أبان الحملة الصليبية الرابعة . وأما ناثان هذا فتاجر يهودى ورع له زوجة وسبعة أبناء يذبجهم المسيحيون الذين أتلفت الحرب الطويلة أخلاقهم . وبعد ثلاثة أيام يأتيه راهب بطفلة مسيحية ماتت أمها لتوها ، وكان أبوها — الذى قتل فى المعركة مؤخراً — قد أنقذ ناثان من الموت فى مناسبات عديدة . ويسمى ناثان الطفلة ريكا ، ويربها كأنها ابنته ، ولا يلقبها إلا التعاليم الدينية التى يجمع عليها اليهود والنصارى والمسلمون .

وبعد ثمانية عشر عاماً ، وبينما كان ناثان غائباً لقضاء بعض مصالحه ، احترق بيته ؛ وينقذ فارس شاب من فرسان المعبد ريكا ثم يختفى دون التعريف بشخصه ؟ وتحسبه ريكا ملاكاً معجزاً . ويبحث ناثان بعد عودته عن المنقذ ليكافئه ، فيسبه هذا لأنه يهودى ، ولكن ناثان يقنعه بالمجيء لتقبل شكر ريكا وعرفانها . فيحضر ، ويقع فى غرامها وتبادل الحب ، ولكنه حين يعرف أنها مسيحية المولد ولم ترب كمسيحية يسائل نفسه ألا يلتزم بيمين الفروسية بتبليغ الأمر إلى بطريك أورشليم . ثم يشرح مشكلته للبطريك دون ذكر أسماء الأفراد ، ويحدث البطريك أنهما ناثان وريكا ، فيقسم أنه قاتل ناثان لا محالة . ثم يرسل راهباً ليتجسس على اليهودى ، ولكنه هو الراهب ذاته الذى جاء بريكا إلى ناثان قبل ثمانية عشر عاماً ؛ وقد لحظ طوال هذه السنين حكمة التاجر المشربة بالعاطفة ، فيخبره بالخطر الذى يهدد حياته ، ويحزنه ذلك الحقد الدينى الذى يجعل الناس قتله سفاكين للدماء إلى هذا الحد .

ثم يقع صلاح الدين ، حاكم القدس الآن ، فى ضائقة مالية . فيرسل فى طلب ناثان بأمل الاقتراض منه . فيحضر ناثان ، ويفطن إلى حاجة صلاح الدين ، فيعرض السلفة قبل أن تطلب منه . أما السلطان ، العليم بما اشتهر به ناثان من حكمة ، فيسأله أى الأديان الثلاثة أفضل فى رأيه . ويوجب ناثان بقصة حورها بحكمة من القصة التى رواها بوكاشيو ونسبها للملكى صادق اليهودى الاسكندرى . تقول القصة إن خاتماً نفيساً كان يتوارثه جيل بعد جيل دليلاً

على الوارث الشرعى لضيعة غنية . ولكن فى أحد هذه الأجيال يحب الأب أبناءه الثلاثة حباً يستوى حرارة وصدقاً ، فىأمر بصنع ثلاثة خواتم متشابهة ، ويعطى كل ابن خاتماً سرّاً ، وبعد موته يتنازع الأبناء على أى الخواتم هو لأصيل والحقيقى ، ثم يحتكمون إلى القضاء — حيث ظل الأمر معلقاً لم يفصل فيه إلى اليوم . فأما الأب المحب فهو الله ، وأما الخواتم الثلاثة فهى اليهودية والمسيحية والإسلام ، والتاريخ لم يفصل بعد فى أمر هذه الأديان وأياها هو شريعة الله الحققة . ويدخل ناثن تغييراً جديداً على القصة : فالخاتم الأصيل كان المفروض أنه يجعل لابسه إنساناً فاضلاً ، ولكن بما أن أحداً من الأبناء الثلاثة لايفضل غيره من الناس ، فمن المحتمل أن يكون الخاتم الأصيل قد فقد ، فكل خاتم — أى كل دين — حقيقى بقدر ما يجعل لابسه فاضلاً . ويعجب صلاح الدين بجواب ناثن إعجاباً شديداً فيقوم ويعانقه — وعقب هذا الحديث الفلسفى يظهر مخطوط عربى يتبين منه أن فارس المعبد وريكا ولدان لأب واحد . فيحزنان لأنهما لا يستطيعان الزواج ، ولكنهما يفرحان لأن فى استطاعتهما الآن أن يحب أحدهما الآخر كأخ وأخت ينالان بركة ناثن اليهودى وصلاح الدين المسلم ؟

أكان ناثن صورة صاغها على غرار موسى مندلسون ؟ هناك أوجه شبه بين الإثنين كما سنرى فى فصل لاحق ، ومن المحتمل ، برغم أوجه الخلاف الكثيرة ، أن ليسنج وجد فى صديقه الكثير مما ألهمه تلك الصورة المثالية لتاجر القدس . وربما رسم ليسنج اليهودى والمسلم بتعاطف أكثر مما رسم المسيح مدفوعاً برغبته الشديدة فى التبشير بالتسامح ؛ فقارس المعبد فى أول لقاء مع ناثن فظ فى تعصب ، والبطريك (أهو ذكرى ليسنج لجوتسى؟) لاينصف فى صورته هذه الأساقفة الرحماء المستنيرين الذين كانوا آنئذ يحكمون تريير وماينز وكولون . وأنكر جمهور ألمانيا المسيحى التمثيلية حين نشرت فى ١٧٧٩ لأنه رآها غير منصفة ؛ وانضم إلى هذا النقد العديد من أصدقاء ليسنج . فلم تصل تمثيلية « ناثن الحكيم » إلى خشبة المسرح إلا فى عام ١٧٨٣م فى الليلة الثالثة كان المسرح خالياً . وفى ١٨٠١ لقيت

نسخة معدلة أعدها شيلر وجوته قبولا حسناً في فايمار ، وبعدها ظلت من التمثيليات المحببة في المسارح الألمانية طوال قرن كامل .

وقبل أن يموت ليسنج بعام أصدر نداءه الأخير للتفاهم ، وصاغه في عبارات دينية ، كأنما أزداد أن يلين جانب المقاومة ويقيم جسراً بين الأفكار القديمة والجديدة . وهذا المقال المسمى « تربية النوع الإنسانى » من بعض نواحيه يبرر الأفكار القديمة ؛ ثم ندرك أن الدفاع إنما هو دعوة لحركة التنوير . فالتاريخ بجملته يمكن أن ينظر إليه على أنه رؤيا مقدسة ، وتربية تدرجية للنوع الإنسانى . وكل دين عظيم كان مرحلة في هذه الإنارة المتدرجة الخطوات ، فهو ليس كما افترض بعض الفرنسيين خدعة بخدع بها رجال الدين الأثانيون السذج من الناس ، إنما هو نظرية عالمية قصد بها تمدين البشرية ، وغرس الفضيلة والتهذيب والوحدة الاجتماعية . ففي إحدى مراحلها (مرحلة العهد القديم) حاول الدين جعل الناس فضلاء بأن وعدهم بطيبات الدنيا في عمر مديد ؛ وفي مرحلة أخرى (مرحلة العهد الجديد) حاول التغلب على التناقض المشبث للعزائم بين الفضيلة والنجاح في هذه الدنيا بوعده بثواب الآخرة ؛ وفي كلتا الحالتين خطب الناس على قدر فهمهم المحدود في ذلك الوقت . وكل دين فيه نواة غالية من الحقيقة . ربما كان الفضل في تقبل الناس لها ذلك الغلاف من الخطأ الذى جعلها سائغة . فإذا كان اللاهوتيون قد أحاطوا بالمعتقدات الأساسية شيئاً فشيئاً بعقائد عسيرة الفهم ، كالخطيئة الأصلية والتثليث ، فإن هذه التعاليم أيضاً هى رموز للحقيقة وأدوات للتربية . فالله يمكن تصوره على أنه قوة واحدة لها وجوه ومعان كثيرة ؛ والخطيئة أصلية بمعنى أننا كلنا مولودون بنزوع لمقاومة الشرائع الأخلاقية والاجتماعية (٧٧) . ولكن المسيحية فوق الطبيعية ليست سوى خطوة في تطور العقل البشرى ، وستأتى مرحلة أعلى حين يتعلم النوع الإنسانى أن يعقل ، وحين يصبح الناس من القوة ووضوح الرؤية بحيث يفعلون الصواب لأنهم يرونه صواباً ومعقولاً ، لا طمعاً في ثواب مادمى أو سماوى . وقد بلغ بعض الأفراد تلك المرحلة ، وهى لم تتوفر للنوع الإنسانى إلى الآن ولكنها آتية ، آتية لا ريب فيها . . . زمان رسالة جديدة خالدة ! » (٧٨) وكما أن

الفرد المتوسط يلخص في نموه التطور الفكرى والخلقى للنوع ، فكذلك يمر النوع في بقاء خلال التطور الفكرى والخلقى للفرد الأعلى . وإذا شئنا التعبير بطريقة فيثاغورية ، قلنا ان كلا منا يولد من جديد ، ثم يولد من جديد ، حتى تكتمل تربيته — أى تكيفه مع العقل ٥

ترى ماذا كانت آراء ليسنج النهائية فى الدين ؟ لقد قباه معيناً هائلاً للفضيلة ، ولكنه أنكره نسباً من العقائد القطعية التى تفرض قبولها وإلا كانت الخطيئة والعقاب والعار الاجتماعى . وكان فكره عن الله أنه الروح الباطن للحقيقة ، المسبب للتطور والمتطور هو ذاته ؛ ورأى فى المسيح أكمل إنسان مثالى ، ولكنه ليس تجسيداً لهذا الإله إلا مجازاً ؛ وقد تطلع إلى زمن يختفى فيه اللاهوت كله من المسيحية ، فلا يبقى إلا مبدأ أخلاقى سام من العطف الصبور والأخوة العالمية . وفى مسودة خطاب إلى منداسون صرح بالتزامه برأى سبينوزا فى أن الجسم والعقل هما الظاهر والباطن لحقيقة واحدة ، وصفنتان لجوهر واحد متطابق مع الله . وقال لياكوبى « ان المفاهيم التقليدية عن الإله لم يعد لها وجود عندى ، وانا لأطيقها ، لا أطيقها كلها ! لا أعرف غير هذا » (٧٩) ؛ وفى ١٧٨٠ طلب إليه ياكوبى الذى زاره فى قولفنبوتل أن يساعده فى الرد على سبينوزا وتفنيد آرائه ، فصدمه جواب ليسنج : « ليس هناك فلسفة غير فلسفة سبينوزا . . . ولو خيرت فى أن أسمى بإسم آخر لما عرفت غير إسمه » (٨٠) .

وقد ترك ليسنج وحيداً فى أخريات عمره بسبب هرطقاته وضاوئته أحياناً فى الجدل . وبقي له بعض الأصدقاء فى برنزويك يختلف إليهم بين الحين والحين للحديث ولعب الشطرنج . وكان أبناء زوجته يعيشون معه فى قولفنبوتل ، وقد خصص لهم التركة الصغيرة التى خلفتها كاملة . ولكن خصومه شهبوا به فى طول ألمانيا وعرضها ماحداً رهيباً . فتحداهم ، وتجاسر على معارضة الرجل الذى يدفع له راتبه ، ذلك أن كارل فلهلم فرديناند ، الذى أصبح الآن (١٧٨٠) دوقاً على برنزويك ، زج فى السجن يهودياً

شاباً آثار سخطه . فزار ليسنج القى فى سجنه ، ثم اصططحبه إلى منزله بعد ذلك ليسترد عافيته .

أما عافيته هو فكانت قد ولت . وغشى بعصره الآن حتى لم يكذب يقوى على القراءة . وكان يعانى من الربو ، وضعف الرئتين ، وتصلب الشرايين . وفى ٣ فبراير ١٧٨١ بينما كان فى زيارة لبرنزويك أصابته نوبة ربو شديدة ، وبصق دماً . وأوصى أصحابه قائلاً : حين ترونى مشرفاً على الموت ، استدعوا موثقاً ، وسأعلن أمامه اننى أموت على غير دين من الأديان السائدة (٨١) . وفى ١٥ فبراير بينما كان راقداً فى فراشه اجتمع نفر من أصحابه فى الحجرة المجاورة . وفجأة فتح باب حجرته ، وظهر ليسنج ، منحنى الظهر مهزولاً ، ورفع قلنسوته مخيياً ، ثم خر على الأرض صريعاً بسكتة دماغية . وأذاعت مجلة لاهوتية أن الشيطان حمله عند موته إلى الجحيم كأنه فاوست آخر باع روحه (٨٢) . ولم يخلف من المال إلا أقل القليل ، فاضطر الدوق إلى دفع نفقات جنازته .

لقد كان البشير بأعظم عصور ألمانيا الأدبية . فى عام موته نشر كانط كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » ونشر شيار أول تمثيلياته . وكان جوته يرى فى ليسنج المحرر العظيم ، وأبا التنوير الألمانى . قال جوته موجهاً الخطاب إلى طيف ليسنج « فى الحياة كرمناك لها من الآلهة ؛ أما الآن وقد مت فإن روحك تسيطر على جميع النفوس » .

٦ - رد الفعل الرومانتيكى

كان جوته يتحدث باسم أقلية صغيرة ؛ أما السواد الأعظم من الشعب الألمانى فتشبهت بترائه الدينى ، ورحب بالشاعر الذى تغنى بإيمانهم رجلاً ملهماً من السماء . فبعد أن أثار هندل مشاعر إرلنده على الأقل بأنغام « المسيا » السماوية بست سنوات ، أسر فريدرش جوتليب كلوبشتوك قلب ألمانيا بالقصائد الحماسية الأولى من ملحمته (المسيا) (١٧٤٨ - ٧٣) .

وقد ولد كلوبشتوك في ١٧٢٤ قبل مولد ليسنج بخمس سنين ، وعاش اثنين وعشرين سنة بعده . وقد أصبح ليسنج رجلاً حر الفكر وهو ابن القسيس ، أما كلوبشتوك ابن المحامى فقد اتخذ من نظم ملحمة شعرية عن حياة المسيح أهم رسالة لحياته . وبلغ من تحمسه الشديد لموضوعه أنه نشر الأقسام الثلاثة الأولى من الملحمة وهو لا يزال فتي في الرابعة والعشرين ، وقد فتنت هذه الأبيات السداسية التفاعيل ، غير المقفاة ، جمهوراً من القراء بلغ من عرفانهم أنهم أرسلوا الرسائل من جميع أرجاء ألمانيا لابنة عمه حين تقدم لخطبتها بعد سنة يناشدونها أن تقبل الخطبة ، ولكنها رفضتها . بيد أن فردريك الخامس ملك للدنمرك - استجابة لتوصية وزيره يوهان فون برنشتورف - دعا كلوبشتوك للحضور والإقامة في البلاط الدنمركى وإكمال ملحمة نظير أربعائة طالر في العام . وفى طريق الشاعر إلى كوبنهاجن راقته إحدى المعجبات الدنمركيات ، واسمها مارجريتا مولر ؛ وفى ١٧٥٤ تزوجها ، وفى ١٧٥٨ ماتت فحطمت قلبه وأظلمت شعره . وقد خلد ذكرها في القسم الخامس عشر من « المسيا » وفى بعض من أعمق قصائده الشعبية تأثيراً . وأقام في كوبنهاجن عشرين سنة ، ثم ذهبت حظوته عند الملك بعد طرد برنشتورف ، فعاد إلى همبرج ، وفى ١٧٧٣ نشر آخر أجزاء ملحمة الضخمة .

وكان مطلعها دعاء هو صدى للمتن ، ثم روت في عشرين قصماً القصة المقدسة ، ابتداء من تأملات المسيح على جبل الزيتون وانتهاء بصعوده إلى السماء . وبعد أن أنفق كلوبشتوك في كتابة ملحمة وقتاً قارب ما أنفقه المسيح لكى يعيشها ، اختتمها بتسبحة تفيض حمداً وشكراً لله :

ها أنذا قد بلغت هدفى ! ان الفكرة المثيرة
ترف خلل روحى . وذراعك القادرة على كل شىء
ربى وإلهى هى وحدها التى هدتنى
عبر أكثر من قبر مظلم قبل أن أبلغ
ذلك الهدف البعيد ! أنت أيها الرب شفيتنى ،
وأنزلت فيضاً جديداً من الشجاعة على قلبى المتخاذل ،

الذى كان فى صحبة حميمة مع الموت ؛
وكنيت إذا شخصت إلى الأهوال لم تلبث
أشكالها المظلمة أن تتوارى ، لانك تحمىنى ؛
لقد اختفت سريعاً يا تخلصى ، لقد تغيت
بوعد رحمتك . ووطئت قدمى
طريق الخيف ، وكل رجائى فىك أنت ؛ (٨٣)

ورحبت ألمانيا السنية الإيمان بملحمة « المسيا » كأفضل شعر كتب إلى
يومها بالألمانية . وينبئنا جوته عن مستشار فى فرانكفورت كان يقرأ الأقسام
العشرة الأولى « كل سنة فى أسبوع الآلام ، وبهذه الطريقة ، ينعش روحه
طوال العام » . أما جوته فلم يكن يستطيع الاستمتاع بالملحمة إلا بنبد شروط
معينة لا تتخلى عنها ثقافة تسير قدماً إلا على مضض (٨٤) . وقد سكب
كلوبشتوك ورعه بغزارة فى شعره حتى أصبحت قصيدته سلسلة متعاقبة
من الغنائيات والكوراليات الباخية أكثر منها الرواية المتدفقة التى يجب أن
تكونها الملحمة ؛ وليس من اليسير علينا أن نتبع تحليقاً عاطفياً استغرق
عشرين قسماً وخمسة وعشرين سنة .

وكما أن فولتير ولد نقيضه فى روسو ، كذلك جعل ليسنج بارتيايته ،
وعقلانيته ، ونزعتة الفكرية ، ألمانيا تشعر بحاجتها إلى كتاب يدركون مقابل
هذا مكان وحقوق الوجدان ، والعاطفة ، والخيال ، والغموض ، والرومانس ،
والعنصر فوق الطبيعى فى حياة البشر .

وقد أصبحت عبادة « الحساسية » عند بعض ألمان هذه الفترة ،
لأسيا النساء منهم ، ديناً تمناً أصبحت موضحة . وكان فى دارمشتات
« حلقة لذوى الحساسية » جعل أعضاؤها من العاطفة والتعبير الوجدانى
مبدأً وشعيرة . وكان روسو هو « مسيا » هذه النفوس . وفاق تأثيره
فى ألمانيا تأثير فولتير بمراحل ؛ واعترف به هرذر وشيلر ينبوعاً للإلهام ؛
وكان كتاب كانط « نقد العقل العلمى » مشرباً بروسو ، أما جوته

فقد بدأ بروسو « الشعور هو كل شيء » وانتقل إلى فولتير « فكر في أن تحيا » ، ثم انتهى إلى ضرب رأسهما ببعضهما البعض . وجاء في غضون ذلك شعراء الوجدان من إنجلترا : جيمس طومسون ، ووليم كولنز ، وإدوارد بينج ، وقصاص الوجدان رتشردين رسترن . وقد أثارت مختارات توماس برسي من روائع الشعر الإنجليزي القديم ، وديوان مكفرسن (من الشعر المنشور الذي زعم أنه ترجمة لشعر « أوسيان » من مخطوطات غالية قديمة) الاهتمام بشعر العصر الوسيط وغموضه ورومانيته ؛ وبعث كلوبشوك وهانريش فون جرسنبرج إلى الحياة فيثولوجية اسكندناوه وألمانيا السابقة للمسيحية .

وكان يوهان جيورج هامان ، قبل عام ١٧٨١ ، قائد الثورة على العقل . ولد مثل كانط في مدينة كونجزبرج الغائمة السماء ، وأشربه أبوه الوجدان الديني بشدة ، وتلقى علومه في الجامعة ، ثم كافح وهو فقير واشتغل معلماً خاصاً ، ووجد عزاءه في إيمان بروتستنتي يثبت لكل لطومات حركة التنوير ، وكان يقول إن العقل ليس إلا جزءاً من الإنسان ، حديث التطور وليس أساسياً ؛ أما الغريزة ، والحدس ، والوجدان ، فهي أعمق منه ، والفلسفة الحققة تقيم نفسها على طبيعة الإنسان وجوانبه كلها . واللغة ليست في أصلها حصيلة للعقل بل منحة من الله للتعبير عن الوجدان . والشعر أعمق من النثر . والأدب العظيم لا يكتب بمعرفة القواعد والأسباب ومراعاتها ، بل بتلك الخاصة التي لا يمكن تعريفها وهي العبقورية التي تتجاوز كل القواعد مهتدية بالوجدان .

ووافق فريدرش ياكوب هامان وروسو . وقال إن فلسفة سبينوزا منطقية جداً إذا كنت تقبل المنطق ، ولكنها زائفة لأن المنطق لا ينفذ أبداً إلى قلب الحقيقة ، التي لا تتكشف إلا للوجدان والإيمان . فوجود الله لا يمكن إثباته بالعقل ، ولكن الوجدان يعرف أنه بدون الإيمان بالله تكون حياة الإنسان عبثاً مأساوياً يائساً .

بهذا التمجيد للوجدان والشعر شحنت الروح التيوتونية لتطلق تحقيقات

من الأدب الحصب الخيال جعلت النصف الثاني من القرن الثامن عشر في ألمانيا مذكراً بحرارة انجلترا وخصوبة إنتاجها على عهد الزايت . فكثرت مجلات الشعر ، التي عانت قصر العمر المألوف ، وكتب يوهان هاينريش فوس قصة رقيقة بالشعر سماها « لويزه » (١٧٨٣ - ٩٥) فضلاً عن قيامه بترجمة هومر وفرجل وشكسبير ، وقد كسبت هذه القصة محبة الألمان وحفزت جوته لينافسها . وظفر سالومون جسنر بقراء دولين أقبلوا على غنائياته الرقيقة ورعوياته النثرية . ومس ما تياس كلوديوس قلوب مائة ألف أم بأغانيه الريفية عن الحياة العائلية ، مثل أغنيته المسماة « تهويدة تغنى هل ضوء القمر » :

نامى الآن يا صغيرتى !
لسم تبكين؟
ناعمة هي الراحة ،
وحلوة في ضوء القمر .
وسيقبل النعاس عما قليل
وبلا ألسم .
إن القمر يفرح بالأطفال
ويحبك (٨٥) .

أما جوتفريد بورجر فقد أوتى كل فضائل العبقرية الرومانسية . كان ابناً لراعى تنيسة . وأرسل إلى خاله في جوتنجن ليدرس القانون ، ولكن حياته الفاجرة أفضت إلى تركه الكلية . وفي ١٧٧٣ نال غفران جميع الناس لخطاياهم بقصيدته الشعبية « لينوره » . وحيب لينوره هذه يرحل مع جيش فردريك إلى حصار براغ . وفي كل صباح تنتفض من أحلامها وتسأله « يا فلهم ، أنت عديم الإيمان ، أم أنت ميت؟ وإلى متى يبطل قدمك؟ » وتضع الحرب أوزارها ، ويعود الجند ، ويلقاهم الزوجات والأمهات والأبناء بالفرح والشكر لله :

وراحت تستفسر من الجميع في ذلك العرض ،

وتسأل كل واحد عن اسمه ،
ولكن أحداً لم يعطها جواباً ،
لا أحد ممن عادوا ،
فلما مضى كل الجنود ،
مزقت شعرها الفاحش ،
وارتمت على الأرض
في نوبات أليمة من اليأس القاتل .

وتقول لها أمها إن « ما يفعله الله يفعله حسناً » ، وتجب لينوره بأن
هذا وهم ، وتطلب لنفسها الموت . . . وتحدثها الأم عن النعيم والجحيم ،
وترد لينوره بأن النعيم أن تكون مع فلهم ، والجحيم أن تحرم منه ، وتروح
تهذى طوال نهارها . فإذا جن الليل وقف فارس بيابها ، وهو لا يذكر اسمه ،
بل يأمرها بأن تأتي معه ونكون عروسه . فتمتطي خلفه جواده الأسود ،
وتركب الليل كله . ثم يصلان إلى جبانة ، وترقص الأشباح من حولها .
وفجأة ينقلب الفارس جثة هامدة ، وتجد لينوره أنها متشبثة بهيكل عظمي .
وبينا هي تتأرجح بين الحياة والموت تنوح الأرواح بهذه الكلمات :

صبراً ، صبراً ! حتى حين ينفطر القلب !
لاتنازعى الله في سمائه !
لقد جردت من جسدك ؟
فليسبغ الله رحمته على روحك (٨٦) ،

٧ - الزوبعية

اندفعت الحركة الرومانتيكية من ورع كلويشتوك ورقة جسدر إلى
النزعة الفردية الخارجة على تقاليد الاحترام ، إلى تمرد الشباب الألماني
وجهاده في نشوة الثورة الأخلاقية والاجتماعية . ذلك أن ارسنقراطية البلاطات
الجامدة المتصلبة وعقائدية الرعاظ المتهاففة وجشع طبقة رجال الأعمال وتكالهم
الكثيب على المال ، وأساليب البروقراطيين المطردة المملة المباداة للشعور ،

وحذلفة العلماء وغرورهم — كل أولئك أثار سخط شباب الألمان الواعين بقدراتهم المغموتين مكانتهم . وقد أصاحوا السمع لصيحة روسو طلباً للطبيعية والحرية ، ولكنهم لم يعبأوا بتمجيده « للإرادة العامة » ووافقوه على رفض المادية ، والعقلانية ، والحتمية ، ووافقوا ليسنج على تفضيل انحرافات شكسير القوية عن القواعد ، على كلاسيكية كورنبي وراسين المقيدة للحركة . وأساغوا ذكاء فولتير وظرفه ، ولكن المكان الذى اجتازه تراءى لهم صحراء جرداء . وقد طربوا لتمررد المستعمرات الأمريكية على انجلترا . كتب جوته وهو يستعيد ذكرى هذه الحقبة « تمنينا للأمريكيين النجاح كله ، وبدأ أسما فرانكلين وواشنطن يستطيعان يتألقان فى سماء السياسة والحرب »^(٨٧) . هؤلاء المتمردون المجاهدون أحسوا نشوة المراهقة الجسمية واليقظة العقلية ، وشكوا من كابوس الشيوخ على الشباب ، والدولة على النفوس . كانوا مع الأصالة ، والتجربة المباشرة والتعبير الطليق ، واعتقد بعضهم أن عبقريتهم تعفيهم من القانون . وأحسوا أن الزمن فى صفهم ، وأن المستقبل القريب سيشهد انتصارهم . يقول جوته « أوه ، لقد كانت حقبة سعيدة حين كنت أنا وميرك شابين ! »^(٨٨) .

وأعرب بعض هؤلاء المتمردين عن فلسفتهم بتحدى تقاليد الزى وإحلال تقاليد من عندهم محلها ، فكان كرستوف كاوفمان يسير عارى الرأس ، مشعث الشعر ، مفتوح القميص حتى السرة^(٨٩) . ولكن هذا كان حالة شاذة ، وإذا استثنينا حالة انتحار أو حالتين ، فإن أكثر أبطال الحركة اجتنبوا هذا العرض المقلوب لزيهم . وكان بعضهم ميسوراً . وكان جوته نفسه واحداً من أسلاف الزوبعية بمسرحيته جوتز فون برليشنجن (١٧٧٣) ، وفى السنة التالية أصبحت قصته « آلام فرتر » لراء الرومانتيكية الخفاق . وانضم شيلر إلى الحركة فأصدر « الالصوص » (١٧٨١) ، ولكن هذه النفوس المعقدة ، المتطورة ، سرعان ما تركت الحملة ليضطلع بها شباب أكثر التهاباً وأضعف جذوراً .

وكان يوهان ميرك أحد الآباء المؤسسين للحركة وكل الشواهد تدل على أنه كان سليم العقل قوى البدن ، وكان قد أتم دراسته بالجامعة ، وأصبح شخصاً أثراً في بلاط هسي — دار مشقات ، ثم عين رئيساً عاماً لصيرافة الجيش ، واشتهر بالدكاء الخاد والكفاءة العملية . وحين التقى به جوته في ١٧٧١ وقع من نفسه موقعاً حسناً ، فاشترك معه ومع هرذر في تمويل مجلة نقدية تسمى «أنباء فرانكفورت الأدبية» ، ومن هنا لقب «الفرانكفورتيين»^(٩٠) الذى أطلق أول الأمر على المتمردين . وإذا كان ميرك خبيراً بدينياً الأعمال والسياسة ، ورحالة جاب أرجاء ألمانيا وتنقل في أنحاء روسيا ، فقد شهد وانتقد انتقاداً لاذعاً غرور الغنى ، وملل العيش في قصور الملوك والأمراء ، واستغلال الفلاحين . فلما ألغى نفسه عاجزاً عن إصلاح هذه الأحوال ، بات متألماً ساخراً . وقد سماه جوته «مفستوفيليس ميرك» ، واتخذ من نفسه ومن ميرك نماذج لأدوار الأبطال في فاوست . واضطرب عقل ميرك لهزائمه في عمله وتعاسته في زواجه . ووقع في حبائل الدين ، فأنقذه منها دوق ساكسى — فإيمار استجابة لرجاء جوته . ثم بات فريسة لاكتئاب لا يبرحه ، وقتل نفسه وهو لا يزال في الحسمين (١٧٩١) .

وأكثر مأساة حتى من هذه الحياة كانت حياة راينهولد لنتس . وكان ابناً لراعى كنيسة لوثرى في ليفونيا ، أثر في أعصابه الضعيفة ، ومزاجه السريع الإثارة ، في طفولته التأكيد على عقيدتى الخطيئة والجحيم^(٩١) . وأعانه حينما استماعه إلى محاضرات كانط في كونيغزبرج ؛ وقاده كانط إلى كتابات روسو ، فقال لنتس بعد قليل عن «هلوية الجديدة» إنها خير كتاب طبع إطلاقاً في فرنسا . وفي ستراسبورج التقى بجوته ، فبهرته شخصيته الإيجابية ، وفلده في الفكر والأسلوب ، وكتب أشعاراً غنائية اشبهت أشعار جوته إلى حد أنها ضمنت في بعض طبعات أعمال جوته . ثم مضى إلى زيزنهايم ، ووقع (بعد جوته) في غرام فردريكه بريون ، ونظم القصائد الحارة في مدحها . وأكد لها أنها أن لم تستجب لحبه فهو قاتل نفسه ، فلم تفعل ولم يفعل . ثم انتقل إلى فايمار ، وصادقه جوته ، وحسد جوته على نجاحه ، وسخر من علاقة جوته بشارلوتة فون شتاين ، وطلب إليه الدوق أن يرحل

عن الدوقية . . وكان شاعراً ومسرحياً موهوباً . وتمثيلته المسماة « الجند »
نقدت نقداً لاذعاً الفوارق الطبقيّة والحياة البورجوازية ، وشخصيتها المحورية
فتاة من الطبقة الوسطى تتطالع عبثاً إلى الزواج من ضابط . ثم تنقلب مومساً
وتتحرش بأبيها الذي لم تتعرف عليه في الشوارع . وإذا كان لنتس مفتقراً إلى
الثبات والاستقرار افتقاراً أعجزه عن العثور على مكان مرموق في الحياة ،
فقد راح يهيم منتقلاً من وظيفة إلى وظيفة ومن إخفاق إلى إخفاق ، ويعانى
نوبات من الجنون ، ويحاول الانتحار غير مرة ، وأخيراً مات مجنوناً (١٧٩٢).

أما مكسميليان فون كلنجر فكان أذكى دعاة الحركة . ندد بالدنيا
وارتنى فيها إلى مكان مرموق ، وأطلق لقلمه العنان في الحديث العنيف في
تمثيلياته ، ثم أصبح أميناً لجامعة دوربات ، واستمتع بكل آثام الشباب
وحماقاته وعمر حتى التاسعة والسبعين . وعنه كتب جوته بيته الذي نّم عن
حسن إدراك وفطنة : « في الصبايا نخب ما هن عليه ، أما في الفتيان فنخب
ما يرجى أن يكونوه » . وقد أعطت أشهر تمثيلية كتبها كلنجر وهو في
الرابعة والعشرين (١٧٧٦) « شتورم أونند درانج » اسمها ومزاجها للزوعية .
وترى فيها المتمردين الأوروبيين يتغربون في أمريكا أملاً في أن يجدوا منافذ حرة
لزعائم الفردية ؛ أما لغتها فلغة العاطفة المشبوبة وقد جمحت ؛ وأما دعوتها
فدعوة العبقريّة التي تحررت من كل القواعد . وقد حارب كلنجر في
الجيشين المساوي والروسي ، وتزوج ابنة غير شرعية لكاترين الكبرى ،
وهبطت ثورته أخيراً حين تولى منصب الأستاذية ، ثم تجمد عموداً من أعمدة
الدولة .

وأما فلهم هاينزى فقد توج الحركة برواية « أرد نجهللو » (١٧٨٧) التي
جمعت بين الفرضوية ، والعدمية ، والشيوعية ، والفاشية ، واللامبالاة
بالأخلاق ، وإرادة القوة ، في مهرجان صاخب من الشهوانية والجريمة ،
يقول البطل إن الجريمة ليست بجريمة إن كانت شجاعة ؛ وما من جريمة
حقيقة غير الصعف ، وأصدق الفضائل شجاعة الجسم والإرادة ؛ والحياة

إظهار للغرائز الأساسية ، ونحن نخطئ إذا دمعنا هذه الغرائز باللا أخلاقية . وهكذا يغوى أردنجالو ويقتل إذا لاحت له الفرصة أو دفعته الزوة ، ويرى في عواطفه المشبوبة الطليقة من كل قيد أسمى قوانين الطبيعة . وهو يصنف بطولات هانيبال ويمجده إنساناً أعلى ويتساءل : « ما قيمة مليون من الرجال الذين لم يحطوا طوال حياتهم بساعة واحدة كساعاته — بالقياس إلى هذا الرجل الفرد ؟ » (٩٢) وهو يقيم مجتمعاً شيوعياً تسوده شيوعية النساء وحق الانتخاب للنساء وعبادة قوى الطبيعة باعتبارها الدين الأوحده .

في دوامة الزوبعية (شتورم) المضطربة هذه خلعت بعض الأفكار الغالبة على هذه الحركة طابعها وتأثيرها . فمعظم قادتها أتوا من الطبقة الوسطى ، وبدأوا ثورتهم احتجاجاً على امتيازات الحسب والنسب ، ووقاحة ذوي المناصب ، وبذخ الأحرار الذين ينعمون بطيبات العيش على حساب عشور الفلاحين . وقد أجمعوا على الرثاء لحظ الفلاح العاثر — حرّاً كان أو قنّاً — وتصوير خلقه في صورة مثالية . وأهابوا بالنساء أن ينبذن مواضتهن وأطواقهن وعواطفهن الهشة وإغماعاتهن وتقواهن الخائفة الدليلة ، ودعوهن للمجىء والمشاركة في الحياة المثيرة التي يحياها العقل المحرر من الأغلال ، والذكر الجوال . وأعادوا تعريف الدين بأنه إلهام سماوى في نفس عبقريتها جزء من الحافظ الخلاق والسر المبدع في الدنيا . ووجدوا بين الطبيعة والله ، وانتهوا إلى أن الإنسان يكون إلهياً إذا كان طبيعياً . واتخذوا من أسطورة فاوست المنحدرة من العصر الوسيط رمزاً للجوع الفكرى والطموح الملهب الذى يحطم كل حواجز التقاليد أو الاعراف أو الأخلاق أو القوانين . وهكذا نرى « مارمولر » يكتب قبل جوته بزمان مسرحية سماها « فوستس لربن » « لأننى عرفت فيه من البداية رجلاً عظيماً . . . يحس بقوته كلها ، ويشعر باللباس الذى قيده به القدر ، ويحاول أن يخلعه ، وتتوفر له شجاعة الإطاحة بكل شيء يقف في طريقه » (٩٣) .

وقد سميت حماسة الزوبعية وشططها هذه الحركة بأنها تعبير عن المراهقة الفكرية ، وصوت أقلية قضى عليها بأن يعلو صوتها ثم يخبو . ولم تكسب

الحركة أى تأييد شعبي ، لأن التقاليد والشعب يساند الواحد منهما الآخر دائماً . فلما وجد أتباع الحركة أنفسهم بغير قاعدة في بنيان الحياة الألمانية ، تصالحوا مع الأمراء ، وأملوا - كما أمل جماعة الفلاسفة - أن يقود الحكام المستنيرون الطريق إلى التحرر الفكرى والإصلاح الاجتماعى . وأدرك هردر وجوته وشيلر الحركة في شبابهم ، ثم انسحبوا من نارها الآكلة ، وقلموا أظافرهم وأطبّقوا أجنتهم ، وتقبلوا حماية أدواق فيمار الكرام شاكرين .

٨ - الفنانون

كان ألمان العصر الذى نحن بصددده أنداداً فى الفن للفرنسيين والإيطاليين . فلقد نقلوا الباروك عن إيطاليا والروكوك عن فرنسا ، ولكنهم أعطوا إيطاليا فنكليمان ومنجز ، وآثر ملوك فرنسا وملكاتهما الألمان المغتربين أمثال دافيد رونتجن ، و « جان » ريزنر ، وآدم فايسفايلر ، على صناعات الأثاث الفاخر الفرنسيين ؛ من ذلك أن لويس السادس عشر دفع ثمانين ألف جنيه ثمناً لمكتب من صنع رونتجن ^(٩٤) . وحفل المقر الملكى فى ميونخ ، وقصر فردريك الجديد فى بوتسدام ، وبيوت أثرياء الألمان ، بالأثاث الضخم الدقيق النقوش ، حتى وفد طراز أخف فى نهاية العصر من صنع الانجليزيين تشينديل وشيراتن . وكانت مصانع مايسن قد أضرت بها الحرب ، ولكن نمفبرج ولودفجبرج وبوتسدام وغيرها من المراكز واصلت صناعات البرسلان والخزف ، وأشرقت رفوف الألمان ومدافئهم وموائدهم ومكاتبهم بصغار التماثيل المرححة الرشيقة الرقص والغناء والتقبيل .

وعلى نطاق أوسع ظهر نحت التماثيل جدير بالإعجاب . شديد الاهتمام من ذلك أن مارتن كلاور نحت تماثلاً نصفياً لجوته فى أيام فيمار الأولى - بدا فيه متشوّفاً ، براق العين ، واثق النفس ^(٩٥) . ولم يبلغ لودفج ، بن مارتن ، هذا الإتقان فى تمثاله الذى نحته لشيلر ^(٩٦) ، وأفضل منه تمثال شيلر المعروف الآن فى ميدان بشتوتجارت من صنع يوهان فون دانيكر . أما سيد النحت الألمانى فى هذا العصر فيوهان جوتفيلد شادوف ، الذى أصبح مثلاً للبلاط فى برلين عام ١٧٨٨ . وفى ١٧٩١ نحت رأساً لفردريك ،

وفي ١٧٩٣ صنع له تمثالا كامل الطول ؛ وفي ١٨١٦ صب بالبرونز «فردريكا» ^(٩٧) أصغر - وهوراثعة لا ينساها من شهداها . وصب البرونز «مركبة النصر» لبوابة براندنبرج ، وكاد يبلغ روعة الجمال الكلاسيكي في المجموعة البرخامية التي نحتها لولية العهد الأميرة لويزة وأختها فريديريكا .

وكثر المصورون في ألمانيا كثرة أتاح لها أن تنزل لإيطاليا عن انى عشر منهم ثم يبقى لها بعد ذلك مصورون أكفاء « من ذلك أن عدد المصورين من آل تيشباين الذين جمعهم رابطة الفرشاة كان كبيراً بحيث يسهل علينا الخلط بينهم . فأحدهم وهو يوهان هاينريش تيشباين المصور في بلاط هسي - كاسل رسم صورة بديعة للينسج . أما ابن أخيه يوهان فريدرش تيشباين ، فرسم في كاسل وروما ونابلي وباريس وفيينا ولاهاي وديساو وليبزج وسانت بطرسبرج ، وصور مجموعة ساحرة لأبناء الدوق كارل أوجست أمير ساكسي - فايمار . وأما يوهان هاينريش فلهم تيشباين فعاش في إيطاليا (١٧٨٧ - ٩٩) ، ورسم صورة مشهورة «جوته في كمانيا روما» ثم عاد ليصبح مصور البلاط لدوق أولدنبورج .

وكان من مصادر «الزوبعية» «الألمانية المنحازة لإيطالية آدم فريدرش أويزر ، النحات ، الرسام ، النقاش ، المعلم ، وداعية اصلاح الفن على الأصول الكلاسيكية . وقد عاش فنكلمان معه زمناً في درسدن . وانتقد رسمه ، وأعجب بحلقه ، وقال «إنه يعرف كل ما يستطيع الإنسان أن يعرفه خارج إيطاليا» ^(٩٨) وفي ١٧٦٤ عين أويزر مديراً لأكاديمية الفنون في ليبزج ، وزاره جوته هناك وانتقلت إليه عدوى الحمى الإيطالية .

ويحتل مكان الصدارة بين الفنانين الذين بقوا في ألمانيا دانييل شودوفيكى ، وكان بولندياً . ولد في دانبرج ، وترك يتيماً ، فتعلم أن يكسب قوته بصنع الرسوم والمحفورات والصور . وفي ١٧٤٣ انتقل إلى برلين وأصبح ألمانيا في كل شئ غير إلا اسمه . وقد روى حياة المسيح في منمنمات رائعة أذاعت صيته في طول البلاد وعرضها . ثم رسم بمزاج فولتيرى «جان كالاى وأسرتة» وتكاثر الطلب على رسومه حتى إنه لم ينشر أى أثر أدبي كبير في بروسيا

سنين طوالا دون أن تزينه رسوم من صنعه . وفي أروع محفوراته صور أسرته : فصور نفسه هو ومكب على عمله ، وزوجته تشرف في اعتزاز على أبنائه الخمسة ، ثم جدران البيت تكسوها الصور . ورسم بالطباشير الأحمر صورة لوته (شارلوتة) كستز ، التي أحبا جوته وفقدتها . وترى في عمله رشاقة في الخط ورقة في الشعور تميزه عن هوجارت ، الذي كثيرا ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة ما قورن به لكثرة ما صوره من مناظر الحياة المألوفة ؛ ولكنه استنكر بحق هذه العلاقة . وكثيرا ما استلهم فاتو ؛ وفي صورته « لقاء في حديقة الحيوان »^(٩٩) ، ترى ولع فاتو بالهواء الطلق وتموج ثياب النساء الخلاب . وقد ترك أنطون جراف صورة لشود وفيكي^(١٠٠) - يفيض ابتسامات وعقصا ولحما مكنزا - وصورة لنفسه^(١٠١) وهو يتطلع من فوق لوحته ولكنه مكتمل الزينة كأنه يتأهب للذهاب إلى حفلة رقص . وقد أفرغ حيوية أكثر على لوحته الجميلة لزوجته^(١٠٢) ، والتقط غرور الممثلة كورونا شروتر^(١٠٣) وجلل بالثياب المذهبة جسد السيدة هوفرات بومي الفضفاض^(١٠٤) .

وأخر قائمة المصورين في نصف القرن الذي نحن بصددده هو آزهوس ياكوب كارستنز ، الذي استوعب دعوة فنكلمان نصبا وروحاً ، وأكمل الإحياء الكلاسيكي في التصوير الألماني . ولد في شلزفنج ، وتعلم في مدارس كوبنهاجن وإيطاليا ، ومارس عمله في لوبك وبرلين على الأخص ، ولكنه عاد إلى إيطاليا في ١٧٩٢ ، ووجد المتعة الكبرى في تأمل أطلال النحت والعمارة القديمين . ولم يعرف أن الزمن قد نزع اللون من الفن اليوناني فلم يبق إلا على الخط ؛ وعليه أحال فرشاته إلى قلم كما فعل منجز ، ولم يستهدف إلا الشكل الأكمل . وقد أزعجته العيوب البدنية التي شابت أجساد نماذجه التي يصورها في رسمه ، فقرر أن يركن إلى خياله ؛ وأمهجه أن يصور الأرباب اليونانية والمناظر المستقاة من الميثولوجيا اليونانية كما تخيلها هو وفنكلمان . ومن هذه انتقل إلى تصوير دانتى وشكسبير . وكان ولعه بالخط والشكل يفقد دائما اللون والحياة ، وحتى حين كان يبلغ في رؤياه لأشباه الإله رؤيا تقرب

من رؤيا ميكلائجلوا ، كما نرى في لوحة « مولد النور »^(١٠) ، فإننا لانستطيع الثناء عليه إلا لأنه تذكر صور كنيسة السستين بالدقة التي تذكر بها موتسارت موسيقاها . وردت روما على محبته بمحبة مثلها ، وأتاح لعمله (١٧٩٥) العرض في أوسع وأشهر المعارض التي أتيحت لأي فنان حديث . وهناك مات بعد ثلاث سنين غير متجاوز الرابعة والأربعين . ولا غرو فالفن كالجنس قد يكون ناراً آكله .

وغلب مزاج الكلاسيكية الجديدة على الزخرفة المعمارية لبوتسدام وبرلين في عهد فردريك الأكبر . وكان قد بدأ قصره الجديد في ١٧٥٥ ، ولم يسمح للحرب بأن تعوقه عن المضي في المشروع . فشارك في تصميمه ثلاثة معماريين — بورنج ، وجونتارد ، وما نجر ، فزجوا الكلاسيك بالباروك في صرح مهيب يذكر بقصور روما القديمة ، أما الزخارف الداخلية فقد نافسوا فيها أبدع نماذج الروكوكو الفرنسي . وكان للكنيسة الفرنسية في برلين رواق معمد كلاسيكي ، فأضاف إليه جونتارد وتلميذه جبورج أونجر برجاً كلاسيكياً (١٧٨٠ — ٨٥) . وزاد أونجر برلين جلالاً بتشيد مكتبة ملكية في ١٧٧٤ — ٨٠ . أما بوابة براندنبورج التي بناها كارل لانجهانز في ١٧٨٨ — ٩١ فقد قلدت تقليداً سافراً مداخل الأكروبول الفخمة ؛ وقد نجت بالجهد من التدمير في الحرب العالمية الثانية ، ولكنها فقدت « الكدرية » الشهيرة . وهي العربة ذات الجياد الأربعة التي توجهها بها شادوف .

كانت مدن ألمانيا أخرى تنحت الآثار المخلفة لأمراء البيوت المالكة والنبلاء والرفات ، فزينت أخت فردريك فلهلميه مدينة بايرويت بقصر زين بالروكوكو الساحر (١٧٤٤ — ٧٣) . وفي كاسل صمم سيمون لوى دورى (١٧٦٩ وما بعدها) صالة الرقص الفخمة والحجرة الزرقاء في قلعة حاكم هسي — كاسل . وفي الراين قرب دسلدورف بنى نيكلاوس فون بيهاجي قلعة بترات الفخمة (١٧٥٥ — ٦٩) ، وبني فليب دلا جيير لودفجز بورج قصر مونريبو الجميل (١٧٦٢ — ٦٤) .

٩ - بعد باخ

أسعدت ألمانيا بالموسيقى وتأثرت بها أكثر من أى أمة أخرى باستثناء إيطاليا . فالأسرة التى خلت من الآلات الموسيقية كانت شذوذاً وكانت المدارس تعلم الموسيقى تعليمها للدين والقراءة سواء بسواء تقريباً . وكانت الموسيقى الكنيسية آخذة فى الاضمحلال لأن العلم والفلسفة ، والمدن والصناعة ، كانت تصرف العقول عن الدين إلى الدنيا ، وظلت الترانيم اللوثرية العظيمة تجلجل ، ولكن الأغنية أخذت تتحول من الكوارس الكنسية إلى الليدات والتمثيلات الغنائية والأوبرا . وقد افتتح يوهان بيتر شولتس عهداً جديداً فى الأغنية بـ « أغان فى فوكستن » (١٧٨٢) ؛ وبعدها حظيت ألمانيا بزعامة لا تنازع فى استخدام الموسيقى فى الشعر الغنائى .

وقد شجع التحسين الآلى الذى أدخل على البيانوا انتشار الحفلات الموسيقية وظهور مهرة العازفين على الآلات . وغزا العازفون أمثال يوهان شوبرت ، وآبوت فوجلر ، ويهان هومل ، المدن الكثيرة بأدائهم الموسيقى . فى ١٠ مارس ١٧٨٩ قام هومل الذى لم يتجاوز الأحد عشر ربيعاً بعزف على البيانو فى درسدن ؛ ولم يدرك أن موتسارت سيكون بين السامعين ؛ وخلال الحلقة رأى أستاذه السابق وتعرف عليه ؛ فما إن فرغ من عزف قطعه حتى شق طريقه بين الجمع المصفق وعانق موتسارت فى عبارات حارة تفيض بالولاء والهجة^(١٠٦) . واكتسب آبوت (أعني آبوت ، أى الأب الدينى) فوجلر لقبه هذا برسامته قسيساً (١٧٧٣) ؛ وفى مانهايم كان قسيس البلاط ومدير الموسيقى معاً . وكان فى التأليف الموسيقى من أكثر كتاب القرن أصالة وتأثيراً ؛ وفى العزف على الأرغن آثار غيرة موتسارت ؛ وفى التعليم كان صاحب الفضل فى تكوين فيبر وميربير ؛ ثم أضحك مانهايم وهو ممثل للبابا بلبسه الجوارب الطويلة الزرقاء وبجمله كتاب صلواته مع موسيقاه ، وبجعله جمهوره أحياناً ينتظره ريثما يفرغ من صلواته .

وكان أوركسترا مانهايم الآن فرقة من ستة وسبعين موسيقياً منتقنين ،

يقودهم بكفاية كرسيتيان كانا بيش معلماً وقائداً وعازفاً منفرداً على الكمان . وقد أثر عن اللورد فورد ابس قوله إن ألمانيا تبرز سائر الأمم لسببين : الجيش البروسي وأوركسترا ماينهايم . ويليه شهرة أوركسترا جيفاندهاوس بليزج . وكانت الحفلات الموسيقية عملاقة تحوى ثلاثة أو أربعة أو أحياناً ستة كونسرتوات في برنامج واحد . والقوم يحيونها في كل مكان - في المسارح والكنايس والجامعات والقصور والحدائق والمتنزهات . ونافست السمفونية الآن الكونسرتو في البرتوار الأوركسترا الى ، وما وافت سنة ١٧٧٠ - حتى قبل مجيء هايدن - حتى حظيت السمفونية بقبولها كأرقى ألوان الموسيقى الآلية (١١٧) .

ونصف المؤلفين الموسيقيين في هذه الحقبة منحدرين من قلب يوهان سبستيان باخ القوى وصلبه المكين . أنجبت له زوجته الأولى سبعة أطفال ، أحرز اثنان منهم - فلهم فريدمان وكارل فليب إيمانويل - سمعة دولية . وأنجبت له زوجته الثانية ثلاثة عشر طفلاً برز في عالم الموسيقى منهم اثنان هما يوهان كريستوف فريدرش ويوهان كريستيان . ثم أنجبت يوهان كرسستوف فريدرش مؤلفاً موسيقياً صغيراً هو فلهم فريدرش ارنت باخ ؛ وهكذا أعطى يوهان سبستيان باخ العالم خمسة رجال ضمنوا لهم مكاناً في تاريخ الموسيقى . يضاف إلى هؤلاء أحد أقربائه الأبعدين واسمه يوهان ارنت باخ ، درس على الأستاذ في ليبزج ، وأصبح رئيساً لفرقة المارتلين في فايمار ، وترك عدة مؤلفات موسيقية ليحجر عليها النسيان ذيلوله .

أما فلهم فريدمان باخ فقد ولد في فايمار . والقسم الأول من مؤلف أبيه « الكلافير الوسيط » كتب لتعليمه . وقد سار حثيثاً في دراسته ، ولم يناهز الستة عشر عاماً حتى كان يؤلف الموسيقى . فلما بلغ الثالثة والعشرين عين عازفاً للارغن بكنيسة صوفيا بدرسدن ، ولما كانت واجباته في هذه الوظيفة هينة فقد ألف عدة صوناتات وكونسرتوات وسمفونيات . ثم ازداد راتباً وشهرة حين اختير (١٧٤٦) عازف أرغن في كنيسة ليفراون بهاله . وأقام هناك ثمانية عشر عاماً ، ومن هنا تلقب « باخ هاله » . وكان مولعاً بالشراب لا يعلو على ولعه به إلا ولعه بالموسيقى . ثم استقال في

١٧٦٤ ، وظل عشرين عاماً يهيم متنقلاً من بلد إلى بلد ، ويقوم بالجهد أوده بالعزف في حفلات موسيقية وبتعليم التلاميذ . وفي ١٧٧٤ استقر في برلين حيث مات في ضنك عام ١٧٨٤ .

وكان كارل فليب إيمانويل باخ أعسر ، فاضطر إلى قصر عزفه على الأرغن والبيانو . وفي ١٧٣٤ حين بلغ العشرين التحق بجامعة فرانكفورت ، وهناك حظى بصحبة جيورج فليب تليمان ، الذي كان أحد عرابيه يوم عماده وأعطاه جزءاً من اسمه . وفي ١٨٣٧ عزف بعض مؤلفاته أمام جمهور ضم فردريك وليم الأول ملك بروسيا . ولما علم بأن ولي العهد فردريك يحب الموسيقى ، قصد راينزبرج وقدم نفسه إليه دون أن يظفر بشرة عاجلة ؛ ولكن في ١٧٤٠ عينه فردريك ، الذي أصبح الآن ملكاً ، عازفاً على الصنج في أوركسترا الكنيسة ببوتسدام . ولكنه ضاق بمصاحبة ناي فردريك الهوائي المزاج وقبول سلطته الملكية في الموسيقى . وبعد أن قضى في الأوركسترا ستة عشر عاماً ، اعتزل ليفرغ للتعليم . وقد حدد كتابه « بحث في العزف الحقيقي على الكلافير » (١٧٥٣ وما بعدها) بداية تقنية البيانو الحديثة ، وكان لهذا الكتاب الفضل في اكتساب هايدن البراعة الفنية في العزف على البيانو ، وبسببه قال موتسارت عن « باخ برلين » هذا : « إنه أبونا ، ونحن صديقه ؛ والذين يعرفون منا أي شيء على وجهه الصحيح ، فلنما تعلمناه منه ، ووجد ذلك الطالب الذي لا يعترف بهذا » (١١٨) . وقد خرج إيمانويل في مؤلفاته عامداً على أسلوب أبيه الكونترابنطي ، مؤثراً تناولاً متجانساً الصوت وخطاً ميلودياً أبسط . وفي ١٧٦٧ قبل وظيفة المدير لموسيقى الكنيسة في همبورج ، وهناك أنفق الإحدى وعشرين سنة الباقية في أجله . وفي ١٧٩٥ جاء هايدن إلى همبورج ليراه ، ولكنه وجد أن أعظم أبناء يوهان سبستيان قد مضى على موته سبع سنين .

أما يوهان كريستوف فريدرش باخ فقد درس على أبيه وفي جامعة ليزج ، ثم عين في الثامنة عشرة (١٧٥٠) موسيقار الحجرة في بوكسبورج ، لفلهلم كونت شاومبورج — له . وحين بلغ السادسة والعشرين أصبح مديراً للموسيقى . أما الحدث العظيم الذي وقع له في عامه الثامن والعشرين فهو

مجيء هرذر (١٧٧١) مبشراً ؛ وقد زوده هرذر بنصوص ملهمة للأوراتوريات والكنتاتات ، والأغاني ؛ واتبع يوهان كرسstof أساليب أبيه وروحه ، ثم ضاع في خضم تغيرات الدهر وتقلباته .

وعلى النقيض منه كان ولاء الإبن الأصغر ، يوهان كرستيان باخ ، لإيطاليا . بعث إلى برلين وهو لا يتجاوز الخامسة عشرة عند موت أبيه ، وهناك بدل له أخ غير شقيق ، يدعى فلهم فريدمان ، العون وقام على تعليمه . وحين بلغ التاسعة عشرة ذهب إلى بولونيا ، حيث أدى الكونت كافاليري أجوستينوليتا نفقات دراسته على الأب مارتيني ؛ وقد افتتن الشاب بالحياة الإيطالية والموسيقى الكاثوليكية ، فدخل في المذهب الكاثوليكي ، وظل ست سنوات يخص الكنيسة أولاً بمؤلفاته الموسيقية . وفي ١٧٦٠ عين عازف أرغن في كاتدرائية ميلان ، وأصبح « باخ ميلان » . ثم أثارت الأوبرا الإيطالية أثناء ذلك طموحه للتفوق في الموسيقى غير الدينية كما تفوق في الموسيقى الكنسية ، فأخرج الأوبرات في تورين ونابلي (١٧٦١) ؛ وشكا رؤساؤه الميلاينيون من أن رشاقة هذه المؤلفات تتنافر مع مركزه في الكاتدرائية . فنقل يوهان كرستيان مقامه إلى لندن (١٧٦٢) . حيث حظيت أوبراته عادة بعروض طويلة الأمد . وما لبث أن عين رئيساً للموسيقى عند الملكة شارلوت صوفيا ، ورحب بالصبي موتسارت ذى الأعوام السبعة عند مجيئه إلى لندن في ١٧٦٤ ، وراح يلهمه على البيانو . وأحب الصبي هذا الموسيقى الذي اكتمل نضجه الآن ، وأخذ عنه الكثير من الألحان في تأليف الصوناتات والأوبرات والسمفونيات . وفي ١٧٧٨ ذهب باخ إلى باريس ليقدم أوبراه « أماديس الغالين » ، وهناك التقى ثانياً بموتسارت . وكان ابتهاج فتي الثانية والعشرين به كابتهاجه قبل خمسة عشر عاماً . كتب فولفجانج لأبيه يقول « إنه رجل أمين ينصف الناس ، وأنا أحبه من كل قاي » (١٧٩) .

ويمكن القول على الجملة أن أسرة باخ هذه ابتداء من فايت باخ الذي مات في ١٦١٩ ، وانتهاء بفلهلم فريدرش إرنست باخ الذي مات في ١٨٤٥ ، هي أبرز الأسر في تاريخ الثقافة . فمن بين نحو ستين من هؤلاء الباخين

المعروفة أسمائهم من أقرباء يوهان سبستيان ، كان ثلاثة وخمسون موسيقيين محترفين ، وكان ثمانية من أسلافه وخمسة من أخلافه من وزن كاف لتبرير نشر مقالات عنهم في قاموس للموسيقى^(١١٠) . وقد ظفر عدد من الأبناء في حياتهم بصيت ذائع وشهرة فاقت ما تتمتع به يوهان سبستيان . ولا يعنى هذا أنهم احتكروا الشهرة الموسيقية ، فالموسيقيون الأفاضل كانوا كالعادة يلقون المديح الأعظم وهم أحياء ، ثم يجر عليهم النسيان ذبوله حين يموتون ؛ وقد نافس مؤلفون موسيقيون مثل كارل فريدرش فاش وكريستيان فريدرش شوبارت أبناء باخ في ذبوع اسمهم .

وإذا نحن رجعنا النظر إلى هذا النصف الثانى من القرن الثامن عشر لحظنا بعض الخطوط الخاصة فى التطور الموسيقى . فاتساع مساحة البيانوا وازدياد قوته حررا الموسيقى من خضوعها للألفاظ وشجع المؤلفات للموسيقى الآلية ؛ ثم إن إقبال الجماهير المتزايد على الحفلات الموسيقية ، وتقلص هيمنة الكنيسة ، بعدا بالمؤلفين عن يوليونيية يوهان سبستيان باخ وقربهم من هارمونييات خلفائه الأسهل تذوقاً . وعمل تأثير الأوبرا الإيطالية على تفوق الميلوديا حتى فى قطع الموسيقى الآلية ، بينما أحدثت الليدات ، بحركة مضادة ، تعقيداً جديداً فى الأغنية . وبلغت الثورة على الأوبرا الإيطالية ذروتها فى جلوك ، الذى أراد إخضاع الموسيقى للدراما ، ولكنه بالعكس أضفى السمو على الدراما بالموسيقى . وعلى درب آخر طورت الثورة « المسرحية الغنائية » ، التى بلغت أوجهاً فى « الناي السحري » . وانتقل الكونشرتو جروسو إلى الكونشرتو الموضوع لآلة منفردة واحدة وأوركسترا ، واتخذت الصونات شكلها الكلاسيكى فى كارل فلييب إيمانويل باخ وهايدين ، وتطورت الرباعية إلى السمفونية . وهكذا تهباً كل شىء ليهتوفن .

١٠ — الشيخ فرتز *

فوق كل هذه الحياة المنوعة : حياة السياسة والدين والصناعة واللهم والموسيقى والفن والعلم والفلسفة والبر والأثم — كان يلوح طيف البطل الشائخ الذى لقبته ألمانيا « الشيخ فرتز » — لا حباً بل تكريماً له بوصفه أعجب وأدهش

تيوتوني في عصره . فهو لم يقنع بحكم مملكته وأوركستراه ، بل حسد قلم فولتير وتاقت نفسه إلى الظفر بالثناء عليه شاعراً ومؤرخاً . وقد خلف للأجيال التالية ثلاثين مجلداً من كتاباته : سبعة في التاريخ ، وستة في الشعر ، وثلاثة في الأبحاث العسكرية ، واثنين في الفلسفة ، واثنى عشر في الرسائل ، كلها بالفرنسية . أما أشعاره فأكثرها من النوع العابر سريع الزوال ، ولم يعد القراء يذكرونها . ولكنه كان من كبار المؤرخين في جيله . ففي بواكير ملكه كتب تاريخ أسلافه - « مذكرات في تاريخ أسرة براندنبورج » (١٧٥١) . وقد زعم لنفسه الحياد كما يزعم أكثر المؤرخين : « لقد ارتفعت فوق كل الأهواء والميول ، ونظرت إلى الأمراء والملوك والأقرباء نظري إلى أناس عاديين » ، ^(١١١) ولكنه ارتفع إلى ذروة الحلياسة والنشوة وهو يصف الناخب الأكبر فردريك ولیم .

أما راعته الأدبية فهي « تاريخ عصرى » الذى سجل حكمه . وقد بدأه عقب انتهاء الحرب السيليزية الأولى (١٧٤٠ - ٤٢) ، وواصل كتابته على فترات حتى أخريات عمره . وقد ضمنه تاريخ العلم والفلسفة والأدب والفن ، ربما متأثراً بفولتير - وإن كان قد كتب جانباً كبيراً من هذا الكتاب قبل أن يظهر كتاب فولتير « قرن لويس الرابع عشر » و « مقاله في الأعراف » وقد اعتذر عن تضييعه حيناً في كتابه على « بلهاء يلبسون الأرجوان ، ودجاجة يحملون التيجان . . . أما تتبع الكشف عن الحقائق الجديدة ، وتفهم أسباب التغيير في الأخلاق والعادات ، ودراسة الطرق التى قشعت بفضلها ظلمة الطمعية من عقول الناس - فهذه بالتأكيد موضوعات جديرة بأن تشغل جميع المفكرين » . ^(١١٢) وقد اثنى على هوبز ولوك والمؤله في انجلترا ، وعلى توماسيوس وفولف في ألمانيا ، وفونتينيل وفولتير في فرنسا . « هؤلاء العظماء وتلامذتهم كالوا للدين ضربة قاضية . وبدأ الناس يحصون ما كانوا يعبدونه بغبوة ، وأطاح العقل بالخرافة . . وكسبت الربوبية أتباعاً كثيرين ، وهى العبادة البسيطة للكائن الأعظم » . ^(١١٣) ولإذ كان فردريك يحتقر الحكومة الفرنسية ويحب الأدب الفرنسى ، فإنه فضل ملحمة فولتير « الهريادة » على الألياذه ، وفضل راسين على سوفوكليس وسوى بين بوالو وهوراس ،

وبين بوسويه وديموستين . وسخر من لغة ألمانيا وأدبها ، وامتدح فيها المعمارى ،
وشق على نفسه ليبرر غزوه سيليزيا ، فقال انه أحس أن لرجل الدولة أن
ينتهك الوصايا العشر أن اقتضته ذلك مصالح دولته الحيوية » فعبر أن يحث
الملك بعهدده من أن يهلك الشعب « (١١٤) - وهذا الهلاك - كما أمل أن
تصدقه - هو الخطر الذى تهدد بروسيا فى ١٧٤٠ ؛ وقد اعترف بأنه اقترف
أخطاء كثيرة فى قيادة جيشه ، ولكنه رآه أمراً لا ضرورة له أن يسجل فراره
مولفنز . وهذان المجدان فى جملتهما يقفان على قدم المساواة مع أفضل
الكتابات التاريخية عن أوروبا الحديثة قبل جبون .

وما إن وضعت حرب السنين السبع أوزارها حتى عكف فردريك
على كتابة « تاريخ حرب السنين السبع » . وكان كقصور يتطلع إلى أن يكون
خير مؤرخ لحملاته ، وكقصور تحاشى الحرج فتكلم عن نفسه بضمير الغائب ،
وهنا أيضاً حاول - ربما بعذر أفضل - أن يبرر المبادرة الجريئة التى بدأ بها
الحرب . وقد امتدح ألد أعدائه ، ماريا تريزا ، فى كل ما يتصل بحكمها
الداخلى ، أما فى علاقاتها الخارجية فقد أدان هذه المرأة المتكررة « التى »
استبد بها الطمع فأرادت أن تبلغ هدف المجد من كل طريق « (١١٥) ووسط
سجل الحملات ، الحامد إلى حد لا بأس به ، توقف ليندب أمه التى ماتت
فى ١٧٥٧ وشقيقته التى لحقت بها فى ١٧٥٨ . والصفحة التى وصف فيها
فلهلمنية واحدة من الحب فى بيداء خربة من الحرب .

وقد خلص إلى أن التاريخ أستاذ عظيم تلاميذه قليلون : « ان فى طبيعة
البشر ألا يتعلم إنسان من التجربة . وحماقات الآباء تضيع هدرآ على الأبناء ،
وكل جيل لا بد مقترف حماقاته » (١١٦) « كل من يقرأ التاريخ يامعان
يدرك أن المشاهد ذاتها كثيراً ما تتكرر ، وأنه لا حاجة بنا إلا لتغيير أسماء
الممثلين » (١١٧) . ولكننا حتى لو استطعنا أن نتعلم ، فإننا سنظل عرضة للمصادفة
التي لا يمكن التنبؤ بها . « إن هذه المذكرات تقنعنى أكثر فأكثر بأن كتابة
التاريخ إن هى إلا تجميع لحماقات الناس وضربات الحظ . فكل شئ يدور
حول هذين الموضوعين » (١١٨) .

وقد حاول مرتين (١٧٥٢ و ١٧٦٨) في «وصية أخيرة» أن ينقل لورثته بعض الدروس المستفادة من تجربته الخاصة . فحظهم على دراسة أهداف الدول المختلفة ومواردها ، والوسائل المتاحة لحماية بروسيا وتنميتها . وحذا حذو أبيه في تأكيده على الحاجة لأحكام ضبط الجيش ، وحذر خلفائه من الإنفاق فوق ما يسمح به الدخل ؛ وتنبأ بالمناعب السياسية التي ستتحقق بفرنسا لسفهاها المالى ؛ ونصح بزيادة الإيرادات لا بفرض ضرائب جديدة بل بحفز إنتاجية الاقتصاد . وينبغى حماية كل الأديان ما التزمت الهدوء والسلام --- رغم أن «جميع الأديان إذا فحصها المرء وجدها تركز على نسق من الخرافة غير معقول قليلا أو كثيراً»^(١١٩) . إمامسلطة الملك فيجب أن تكون مطلقة ، ولكن على الملك أن يعد نفسه أول خادم للدولة . ومادامت بروسيا في خطر من صغر حجمها وسط دول كبيرة كروسيا وفرنسا والامبراطورية النمساوية المجرية ، فإن من واجب الملك أن يغتفر أى فرصة ليوسع بروسيا ويوحدها --- ويحسن أن يكون ذلك بفتح سكسونيا وبروسيا البولندية وبوميرانيا السويدية : «أن أول شغل شاغل للأمير هو أن يصون سلطته» ، أما الثانى فهو أن يوسع رقعته . وهذا يقتضى المرونة وسعة الخيلة . . . وستر المداخل مع الخفية يكون بإعلان الميول السلمية حتى تأتى اللحظة المواتية . تلك طريقة جميع رجال الدولة العظماء»^(١٢٠) .

وينبغى أن يعد الملك خلفه للحكم . فينبغى له التعليم على يد رجال مستنيرين لا رجال كنسيين ، لأن هؤلاء يشحنون رأسه بنزعبلات يقصد بها أن يكون أداة طيعة في يد الكنيسة^(١٢١) . وتعليم كهذا من شأنه أن يخرج عقلا ضعيفاً سرعان ما تسحقه مسئوليات الدولة . «ذلك ما رأيته ، وإذا استثنيت مائة المجر (ماريا تريزا) وملك سردينيا (شارل إيمانويل) ، فإن كل ملوك أوروبا ليسوا سوى بلهاء مشهورين»^(١٢٢) . وقد كتب هذا إليزابيث تحكم روسيا . وكانت «وصية» ١٧٦٨ أكثر تأديباً ، لأن كاترين كانت قد أثبتت علو هممها ، وتنبأ فردريك الآن بأن روسيا ستكون أخطر دولة في أوروبا^(١٢٣) .

فلما شاخ بدأ يسائل نفسه إن كان ابن أخيه ووريثه المحتمل --- فردريك

فلهم الثاني — صالحاً لورثة الحكم . كتب إليه يقول « إننى أشقى من أجلك ولكن على أن أفكر فى الاحتفاظ بما أصنع ، فإن كنت كسولاً خاملاً ذاب فى يديك كل ما جمعته بالجهد والمشقة » (١٢٤) . وفى ١٧٨٢ كتب وقد ازداد تشاؤماً « لو أن ابن أنخى لان وتراخى بعد موتى ، لما بقى شىء اسمه بروسيا فى ظرف عامين » (١٢٥) . وقد تحققت النبوءة فى فيينا عام ١٨٠٦ ، لا لأن فردريك وليم الثاني كان رخوا لينا ، بل لأن نابليون كان صلباً قاسياً .

وقد بات فردريك ذاته فى عقده الأخير قاسياً إلى حد لا يخطر على فاختزل قدراً كبيراً من الحرية التى سمح بها للصحافة قبل ١٧٥٦ . كتب ليسنجن إلى نيتولاى فى ١٧٦٩ يقول « إن حريتك البرلينية تنقلص . . إلى حرية جلب ما تشاءون جلبه إلى السوق من سخافات ضد الدين . . . ولكن ليرفع إنسان صوته نيابة عن الرعايا ، وضد الاستغلال والاستبداد . . . وعندها ستنبين سريعاً أى دول أوربا أكثرها اليوم عبودية وذلاً » . (١٢٦) وكره هرذر وطنه بروسيا ، وانصرف فنكلمان فى « رعب » عن ذلك « البلد المستبد » (١٢٧) . وحين زار جوته برلين فى ١٧٧٨ أدهشته عدم شعبية الملك . ومع ذلك كان الشعب يبجل فردريك شيخاً لم يضمن طوال خمسة وأربعين عاماً بيوم واحد فى سبيل خدمة الدولة .

وقد برته الحرب كما براه السلم . وكثرت واشتدت عليه نوبات النقرس والربو ، والمغص والبواسير ، وزادت أوجاعه حدة لولعه بالوجبات الثقيلة والأطعمة الحريفة . وفى ٢٢ — ٢٥ أغسطس ١٧٧٨ استعرض جيشه السيليزى قرب برزلاو . وفى اليوم الرابع والعشرين ظل على صهوة جواده ست ساعات بردائه العسكرى العادى والمطر يهطل غزيراً ، وعاد إلى مسكنه مبللاً يرتعد من البرد . ولم يستمد عافيته بعدها قط . وفى يونيو ١٧٨٦ أرسل فى طلب الدكتور تسمرمان من هانوفر . وتوقف عن تعاطى العقاقير التى وصفت له ، وآثر الأحاديث المرحلة عن الأدب والتاريخ ، ولكى يلزمه تسمرمان الهدوء وصف له كتاب جيون « اضمحلالات الامبراطورية الرومانية

وسقوطها» (١٢٨) . وتفاقت أوصابه بالاستسقاء ، وأحدثت القطوع التي أجريت له لتخفيف الانتفاخات غرغرينة . ثم أطبق عليه الالتهاب الرئوى فاكتمل الحصار ، وفي ١٧ أغسطس ١٧٨٦ مات فردريك وهو فى الرابعة والسبعين . وكان قد طلب أن يدفن فى حديقة « صانسوسى » قرب قبور كلابه وحصانه الحبيب ، ولكن أمر رحيله هذا الذى أصدره على البشرية أغفل ، فدفن إلى جوار أبيه فى كنيسة الحامية ببوتسدام . وحين جاء نابليون ووقف أما قبر فردريك بعد أن هزم البروسيين فى يينا قال لقواد جيشه « لو كان على قيد الحياة لما كنا هنا » (١٢٩) .

الفصل الحادى عشر

كانط

١٧٢٤ — ١٨٠٤

١ — مقدمه

لعل كانط ما كان ليظهر قط لولا وجود فردريك الأكبر . ذلك أن كتابيه « نقد العقل الخالص » و « الدين فى حدود العقل وحده » يسرت صدورهما شكوكية فردريك وتسامحه الدينى ؛ فلم ينقض على موت فردريك عامان حتى أخرجت الحكومة البروسية كانط .

كان كانط كفردريك ربيعاً لحركة التنوير ، وقد تشبث بولائه للعقل حتى النهاية — رغم كل ذبذبته الاستراتيجية ، ولكنه أيضاً كروسو كان جزءاً من الحركة الرومانتيكية ، مكافحاً للتوفيق بين العقل والوجدان ، وبين الفلسفة والدين ، وبين الفضيلة والثورة . وقد أشربه أبواه النزعة التقوية ، ثم هجنها بعقلانية كرستيان فون فولف ؛ واستوعب هرطقات جماعة الفلاسفة ؛ وهجنها بـ « اعتراف قسيس سافوا بالإيمان » فى كتاب روسو « لأميل » ؛ وورث سيكولوجية لوك وليبنيتس وباركلى وهيوم الدقيقة الباردة ، واستخدمها فى محاولة لينقل العلم من هيوم ، وينقل الدين من فولتير . وقد رتب حياته بانتظام بورجوازى ، ورحب بالثورة الفرنسية . وإذ عاش منفرداً فى بروسيا الشرقية ، فإنه أحس ولخص كل تيارات عصره العقلية .

ولد فى كونيجزبرج (٢٢ أبريل ١٧٢٤) النائية عن فرنسا ، المولعة بالوضوح والمعتمة بضباب البحر . وقد أثرت بعض الشكوك حول أصل أسرته الاسكتلندى ، ولكن كانط نفسه يخبرنا أن جده « فى ختام القرن

الماضى هاجر من اسكتلنده إلى بروسيا ، ولا أدري لم^(١) . وتزوج أبوه يوهان جيورج كانط من آنا رويتر ، وكان لإيمانويل (ومعناها الله معنا) رابع أبنائهم الأحد عشر . وقد اتخذ اسمه الأول من قديس يوم ميلاده ، ثم غير اسم الأسرة من Cant إلى Kant لمنع الألمان من أن ينطقوه «تسانت»^(٢) وقد نشأت الأسرة كلها على مذهب التقوين ، الذى كان كالمثودية الانجليزية يشدد على الإيمان والتوبة والالتجاء رأساً إلى الله ، بعكس العبادة اللوثرية التقليدية فى الكنيسة بقسيس وسيط .

وكان أحد وعاظ التقوين قد أنشأ فى كونيجزبرج «كلية فردريكية» . والتحق إيمانويل بها من سن الثامنة إلى السادسة عشرة . وكان اليوم المدرسى يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً بنصف ساعة من الصلاة ، وكل حصّة فى النصف تحتم بالصلاة ؛ وخصصت ساعة كل صباح لتعليم الدين ، مع التشديد على نيران الجحيم ؛ وكان التاريخ يدرس أساساً من العهد القديم ، واليونانية من العهد الجديد . وحده ويوم الأحد يكرس أكثره للعبادة . لقد كان تعليماً أثمر الفضيلة فى بعض خريجيه ، والنفاق فى آخرين ، وربما روحاً كثيفة فى معظمهم . وقد أنكر كانط فيما بعد هذه الجرعة الثقيلة من التقوى والإرهاب ، وقال ان الخوف والرعدة يغلبانه حين يتذكر تلك الأيام^(٣) .

وفى ١٧٤٠ انتقل إلى جامعة كونيجزبرج . هنا كان أحب المدرسين إليه مارتن كنوتسن الذى عرف كانط بـ «عقلانية» فولف رغم كونه تقوياً . وكان كنوتسن قد قرأ للربوبيين الانجليز ، وأدانهم ولكنه ناقش آراءهم ، وترك بعض الشكوك الربوبية فى واحد من تلاميذه على الأقل . فلما دعى كانط بعد قضاء ست سنين فى الجامعة لرسم قسيساً لوثرانياً ، رفض الدعوة رغم ما وعد من ترقية قريبة إلى وظيفة مريحة^(٤) . وعاش بدلاً من ذلك تسع سنين رقيق الحال يعلم أبناء الأسرة الخاصة ويواصل دراسته . وكان اهتمامه حتى ١٧٧٠ بالعلم لا باللاهوت «وكان لوكرتيوس من أحب المؤلفين إليه»^(٥) .

وفى ١٧٥٥ نال كانط درجة الدكتوراه ، وسمح له بأن يحاضر فى الجامعة

بوصفه « معلماً خاصاً » لا يكافأ إلا بالرسوم التي يقرر الطلبة دفعها . وظل خمسة عشر عاماً في هذا الوضع القلق . وخلال هذه البداية الطويلة الأمد رفضت طلباته لوظيفة الأستاذية مرتين . وظل فقيراً ، يتنقل من نزل إلى نزل ، ولا يجرؤ على الزواج ، ولا يسكن بيتاً خاصاً به حتى بلغ التاسعة والخمسين^(٦) . وقد حاضر في مواضيع كثيرة التباين ، ربما ليجتذب عدداً أكبر من الطلاب ، وكان عليه أن يحاضر بلغة واضحة ليتيسر له العيش . ولا بد أن كانط المعلم كان يختلف تماماً عن كانط المؤلف الذي اشتهر بغموضه . وقد وصفه هردر ، الذي كان أحد تلاميذه (١٧٦٢ - ٦٤) بعد ثلاثين عاماً ، مختلفاً له بذكرى ملؤها العرفان بالجميل ، فقال :

« أسعدنى الحظ بمعرفة فيلسوف كان معلماً . ففي مستقبل عمره تحلى بشجاعة الشباب المرححة ، وأعتقد أن هذه الشجاعة لازمته حتى الشيخوخة . وكان جبينه الواضح المفكر مستقراً للبشر والسرور الذي لا يكثر صفوه مكدر ، وكان حديثه حافلاً بالأفكار شديد الإيحاء ؛ وفي متناوله الضحك والدعابة الذكية والخيال الفكه ؛ ومحاضراته تجمع بين التعليم والترفيه الكثير . وبالروح ذاتها التي انتقد بها ليينتس وفولف وبابو مجارتن وهيوم ، بحث في القوانين الطبيعية التي قال بها نيوتن وكبلر والفزيائيون . وبهذا الأسلوب تناول كتابات روسو ولم يكن لأى عصبية أو ملة ، ولا تحيز أو إجلال لاسم من الأسماء ، أدنى تأثير عليه مقابل نشر الحقيقة ودعمها . وكان يشجع سامعيه على التفكير لأنفسهم ويضطرهم في رفق إلى هذا التفكير ؛ أما الاستبداد فكان غريباً على طبعه . وهذا الرجل الذي أذكر اسمه بأعظم عرفان وتبجيل هو إيمانويل كانط ، وصورته ماثلة أمامي ، وهى محبة إلى نفسي^(٧) . »

ولو أردنا أن نتذكر كانط على الأخص من واقع عمله قبل أن يبلغ السابعة والخمسين (١٧٨١) لوجب أن نرى فيه العالم أكثر من الفيلسوف - رغم أن هذين المصطلحين لم يكونا بعد منفصلين . وأول أعماله المنشورة « خواطر من التقييم الحقيقي للقوى الديناميكية ، ١٧٤٧ » نقاش علمي عن قوة الجسم أثناء حركته وهل تقاس (كما زعم ديكارت وأويلر) بالكتلة

مضروبة في السرعة ، أو (كما زعم ليبنتس) بالكتلة مضروبة في مربع السرعة ؛ وهو انجاز ممتاز لفقي في الثالثة والعشرين . وتلا هذا بعد سبع سنوات مقال في زمن دوران الأرض اليومي وهل يتغير بالمد والجزر . وفي العام نفسه نشر كانط بحثاً عن الأرض وهل يسيلها إلى الشيخوخة ؛ هنا أعرب كانط عن القلق الذي يساور عصرنا الحديث على فقد الشمس بعض طاقتها كل يوم على تجمد أرضنا في المستقبل .

وفي بحث رائع نشر عام ١٧٠٥ قدم الشاب الجريء ذو الحادية والثلاثين عاماً « التاريخ الشامل للطبيعة ، ونظرية السماوات » . وقد نشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلف وأهدى إلى فردريك الأكبر ؛ وربما خاف كانط أن يلحقه أذى من رجال اللاهوت وأمل في أن يبسط الملك عليه حمايته ، وقد رد جميع عمليات الأرض والسما إلى قوانين آلية ، ولكنه أكد أن النتيجة ، بما فيها من تناسق وجمال ، تثبت وجود عقل أسمى . ولكي يفسر كانط أصل المنظومة الشمسية اقترح « الفرض السديمي » . قال :

« انني أزعم أن كل مادة المنظومة الشمسية . . . كانت في بداية الأشياء كلها متحللة إلى عناصرها الأولية ، وأنها ملأت كل الفضاء . . . الذي تدور فيه الآن الأجسام المكونة منه . . . وفي فضاء مملوء على هذا النحو ، لا يمكن أن يدوم هدوء شامل إلا لحظة . . . فالعناصر المشتتة الأكثف نوعاً ، تحكم قوتها الجاذبة ، تجمع من حولها كل المادة الأفل وزناً نوعياً ؛ وهذه العناصر هي الأخرى ، مع المادة التي وحدتها معها ، تتجمع في النقاط التي توجد فيها جسيمات من نوع أكثر كثافة ، وهذه بالمثل تنضم إلى جسيمات أكثف . . . وهلم جرا . . .

« ولكن للطبيعة قوى أخرى ، . . . بفعلها تتنافر هذه الجسيمات ، وهي التي تحدث - بصراعها مع الجاذبيات - تلك الحركة التي هي بمثابة الحياة الدائمة للطبيعة . . . وقوة التنافر هذه تظهر في مرونة الأنخرة ، وتدفع الأجسام القوية الرائحة ، وانتشار جميع المواد الكحولية . وهذه القوة هي التي بفعلها تحيد تلك العناصر التي قد تكون ساقطة إلى النقطة التي تجتذبها . . .

عن حركتها في خط مستقيم ؛ وسقوطها العمودي يكون في حركة دائرية حول المركز الذي تسقط نحوه » (٨) .

واعتقد كانط أن جميع النجوم تجمعت أو هي بسبيل التجمع — في مثل هذه المنظومات من الكواكب والشموس ، وقد أضاد عبارة ذات مغزى « أن الخليقة لا تكتمل أبداً ، انها لا تكف عن مواصلة السير » (٩) . وهذا الفرض السديمي الذي افترضه كانط في ١٧٥٥ ، وكذلك التعديل الذي أدخله عليه لا بلاس (١٧٩٦) ، حافل بالتسميات كمعظم ما تلاه من النظريات في أصل الكون ، ومع ذلك يقول فيه فلكى حى شهر « إني أعتقد أن بحث كانط عن أصل الكون كان أبدع تلخيص موضوعي للعلم حتى ذلك الوقت » (١٠) . أما بالنسبة لنا فإن دلالة البحث تكمن في بيانه أن كانط لم يكن ميتافيزيقياً غيبياً بل رجلاً فتن بالعلم ، وكافح للتوفيق بين المنهج العلمى والعقيدة الدينية . وهذا لب جهوده حتى النهاية .

وفي ١٧٥٦ ، حين هزته كارثة زلزال لشبونة التي وقعت في ١٧٥٥ — كما هزت فولتير — إلى أعماق فلسفته ، نشر كانط ثلاث مقالات عن الزلازل ومقالا عن نظرية في الرياح . وفي ١٧٥٧ نشر « مجملات لمجموعة محاضرات في الجغرافيا الطبيعية وبياناً عنها » ، وفي ١٧٥٨ نشر « نظرية جديدة في الحركة والسكون . فلما اتسعت دائرة اهتماماته أرسل إلى المطبعة رسائل قصيرة عن موضوعات التفاؤل (١٧٥٩) ، والقياس المنطقي (١٧٦٢) ، و أمراض الرأس (١٧٦٤) . وقد ألمع في هذه الرسالة إلى أن تقسيم العمل المتزايد قد يقضى إلى الجنون نتيجة التكرار الرتيب للعمل . وفي ١٧٦٣ انتقل إلى اللاهوت ببحث عنوانه « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » ؛ ووضح أنه كان مهلبل الخاطر لاهتزاز إيمانه الدينى . وفي ١٧٦٤ ، بعد ثمانى سنين من نشر بيرك رسالة مماثلة ، قدم « ملاحظات على الشعور بالجميل والجليل » .

ومرت به أوقات خطر له فيها أن يوسع فرضه في أصل الكون التطورى

(م ١٤ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

ليشمل علم الأحياء ؛ وكان على علم بأن الأشكال الجديدة تطورت من القديمة بفعل تغيرات في ظروف الحياة ^(١١) ، وقبل الرأي القائل بأن تشريح الإنسان كان في الأصل ميسراً لحركة أرجل أربع ^(١٢) . ومع ذلك أحجم عن فكرة البيولوجية القائمة كلها على المذهب الآلي . « كذلك مرت بي أوقات سرت خلالها في هذه الدوامة مفترضاً هنا ميكانيكا طبيعية عمياء أساساً للتفسير ، واعتقدت أنني أستطيع استكشاف طريق أساكنه إلى المفهوم البسيط الطبيعى . ولكننى كنت دائماً أنتهى إلى تحطيم سفينة العقل ، ومن ثم أثرت المغامرة في محيط الأفكار الذى لا حدود له » ^(١٣) . وكان رودلف راسبي (مؤلف رحلات البارون مونتشاوزن) قد اكتشف مؤخراً مخلوط ليبنتس المفقود منذ زمن طويل « مقالات جديدة في الفهم البشرى » ونشره في ١٧٦٥ ، واستطاع كانط أن يقرأه بالفرنسية ، وقد أسهم في تحويله إلى نظرية المعرفة . على أنه لم يهجر اهتمامه بالعلم هجراناً تاماً ، فقد كتب في تاريخ متأخر (١٧٨٥) مقالا عنوانه « في براكين القمر » . غير أن الصراع الباطن بين دراساته العلمية ولا هوته الموروثة حفزه إلى التماس التوفيق بينهما في الفلسفة .

ويحتمل أن يكون من العوامل التى وجهته هذه الوجهة الجديدة عرض (١٧٧٠) منصب أستاذ المنطق والميتافيزيقا عليه . وكان الراتب ضئيلاً لرجل بلغ السادسة والأربعين وهو ١٦٧ طالرا في العام ، زيد ببطء إلى ٢٢٥ في ١٧٨٦ ؛ وقد رفعت الراتب خدمات عارضة أداها بوصفه « سناتورا » و « أقدم أساتذة الكلية » في ١٧٨٩ إلى ٧٢٦ طالرا وكانت التقاليد تقضى بأن يلقى الأستاذ الجديد خطاباً افتتاحياً باللاتينية . واختار كانط موضوعاً عسيراً هو « في شكل وهداىء العالم المحسوس والعالم المعقول » . واستعمل كانط المصطلحات « المدرسية » التى كانت لانزال سائدة في الجامعات الألمانية . وقصد بالعالم المحسوس العالم كما تدركه الحواس ، وسوف يسميه أيضاً فيما بعد بعالم الظواهر . أما العالم المعقول . فيقصد به العالم كما يدركه الذهن أو العقل ، وسوف يسميه بعد ذلك العالم « النومينى » . ونحن نحاول فهم العالم المحسوس بأن نطبق عليه المفاهيم الذاتية للزمان والمكان بواسطة الرياضة والعلوم ؛ والعالم المعقول بتجاوز الحواس عن طريق العقل

والمتافيزيقا إلى مصادر العالم المحسوس وأسبابه فوق الحسية . هنا أرسى كانط نظريته الأساسية : وهى أن الزمان والمكان ليسا شيئين موضوعيين أو محسوسين بل شكلين من أشكال الإدراك الحسى أصيلين فى طبيعة العقل وبنياه ؛ وأن العقل ليس متلقياً ونتاجاً سلبياً للأحاسيس ، بل هو عامل إيجابى - له طرائق وقوانين عمل أصيلة لتحويل الأحاسيس إلى أفكار .

وقد عد كانط هذا البحث الجوهري « النص الذى سيفصل القول فيه فى الكتاب التالى » وتدل هذه العبارة الواردة فى خطاب حرره فى ١٧٧١ إلى ماركوس هرتس على أن الفيلسوف كان الآن يخطط لكتابة « نقد العقل الخالص » . وبعد اثنتى عشرة سنة من العكوف على ذلك البحث الضخم نشره على الناس فى ١٧٨١ ، وأهداه لكارل فون تسيدلنتس وزير التعليم والشئون الدينية فى عهد فردريك الأكبر . وكان تسيدلنتس ، كما كان الملك ، ربيب حركة التنوير ، ونصيراً لحرية النشر . وقد قدر كانط أن حمايته ستكون مفيدة جداً إذا استشف اللاهوتيون وراء ألفاظه الغامضة واستنتاجاته السنية فى ظاهرها تحليلاً من أشد التحليلات التى نلقاها اللاهوت المسيحى تدميراً .

٢ - نقد العقل الخالص ، ١٧٨١

إذا وجد العالم هذا الكتاب عسيراً فقد يكون السبب منهج العمل الذى انتهجه كانط . كتب إلى موسى مندلسون (١٦ أغسطس ١٧٨٣) يقول : مع أن الكتاب « ثمرة تأمل شغلنى على الأقل اثنى عشر عاماً ، فإننى أكملته بأقصى سرعة فى أربعة أشهر أو خمسة ، باذلاً أبغى العناية بمحتوياته ، ولكن دون اهتمام يذكر بالعرض أو بتيسير فهمه للقارئ - وهو قرار لم أندم عليه قط ، وإلا فلو تباطأت وحاولت صياغته فى شكل أكثر شعبية لما اكتمل العمل إطلاقاً فى أغلب الظن » (١٤) . إن الوضوح يقتضى الوقت ، ولم يكن كانط واثقاً من أنه يملك الوقت . وقد حذف عمداً بعض الأمثلة الموضحة

مخافة أن يتضح كتابه ؛ « فهذه ليست ضرورة إلا من وجهة النظر الشعبية ، وهذا الكتاب لا يمكن أبداً جعله صالحاً للاستهلاك الشعبي » (١٥) . وهكذا كتب كانط لأهل حرفته ، وركن إلى غيره في تبسيطه وتخفيفه ليصلح للهضم . ومع أن كرستيان فون فولف كان قد سبقه في التأليف الفلسفى بالألمانية ، إلا أن تلك اللغة كانت لاتزال على جفافها في التعبير عن ظلال التفكير ، ولم تكن قد استقرت على مصطلحات فنية في الفلسفة . وكان على على كانط في كل خطوة تقريباً أن يخترع ترجمة ألمانية لمصطلح لاتيني ، وفي كثير من الحالات حتى اللاتينية كانت تفتقر إلى مصطلحات تنى بالفوارق الدقيقة التي أراد التعبير عنها . وقد أربك قراءه بخلعه المعاني الجديدة على الألفاظ القديمة ، وبإسياه أحياناً تعاريفه الجديدة . والصفحات المائة الأولى واضحة وضوحاً لا بأس به ، أما باقى الكتاب فحريق فلسفى لا يبصر فيه القارئ غير الخير شيئاً غير الدخان .

وقد احتاج العنوان نفسه إلى إيضاح . فأتى للقارئ أن يعرف أن « نقد العقل الخالص » معناه تمحيص نقدى حصيف للعقل مستقلاً عن التجربة ، و « النقد لم يعن التحليل والعرض فحسب ، بل الحكم أيضاً ، كما يستفاد من سالف اللفظة اليونانى (بمعنى يحكم) . وقد قصد كانط أن يصف الحس ، والإدراك الحسى والفكرة والعقل ، وأن يقرر لكل منها حدودها واختصاصاتها الصحيحة . ثم أمل أن يبين أن فى استطاعة العقل أن يعطى المعرفة مستقلاً عن أى خبرة مؤيدة ، كما هى الحال فى معرفتنا أن ستة مضروبة فى ستة تساوى ستة وثلاثين ، أو أنه لا بد أن يكون للمجول علة . تلك أمثلة لـ « العقل الخالص » - أعنى المعرفة القبلية أو الأولية ، أى المعرفة التى لا تتطلب برهاناً من التجربة . يقول : « إن ماكرة المعرفة الحاصلة من المبادئ القبلية يمكن أن نسميها العقل الخالص ، والبحث العام فى قدرتها وحدودها (يؤلف) نقد العقل الخالص » (١٦) . وقد اعتقد كانط بأن بحثاً كهذا سينطوى على كل مشكلات الميتافيزيقا ؛ وكان على ثقة من أنه « ما من مشكلة ميتافيزيقية واحدة لم تحل ، أو لم يقدم

مفتاح حلها على الأقل» في هذا النقد ^(١٧) . وذهب إلى أن الخطر الوحيد الذى يخشاه « ليس خطر تفنيد آرائى بل عدم فهمى » ^(١٨) .

فما الذى جره يا ترى إلى خوض هذه المغامرة البطولية ؟ قد يظن أن اعلاء حركة التنوير الفرنسية من شأن العقل - وزعم جماعة الفلاسفة أن الإيمان يجب أن يخضع للعقل - وما حاق باللاهوت المسيحى نتيجة لهذا من دمار ، كان السبب الذى جعل كانط يصمم على دراسة أصل العقل وعمله وحدوده . وقد لعب ذلك الحافز دوره ، كما ورد فى مقدمة كانط للطبعة الثانية ^(١٩) ، ولكن المقدمة ذاتها أوضحت بجلاء أن العدو الذى اسهدفه هو هذه التوكيدية الإيقانية (الدجماطيقية) بكل ألوانها - أى كل مذاهب الفكر التقليدية والمبتدعة على السواء ، التى ينشئها عقل لم يخضع للامتحان . وقد لقب كرستيان فون فولف بـ « أعظم الفلاسفة الدجماطيقين قاطبة » لأنه اضطلع بإثبات عقائد المسيحية ، وفلسفة لېنتس بالعقل وحده . وكل المحاولات التى تبذل للبرهنة على صدق الدين أو كذبه بالعقل الخالص هى فى نظر كانط صور من الدجماطيقية ؛ وقد حكم بـ « دجماطيقية الميتافزيقا » على كل مذهب فى العلم أو الفلسفة أو اللاهوت لم يخضع أولاً لامتحان نقدى للعقل ذاته .

وقد اتهم تفكيره هو ، حتى عام ١٧٧٠ ، بأنه مدان بهذه الدجماطيقية . يقول إن ما أيقظه من هذه التأملات غير الممحصة هو قراءته لهيوم - ربما كتابه « بحث فى الفهم البشرى » الذى ظهرت ترجمة ألمانيا له فى ١٧٥٥ . وكان هيوم قد زعم أن كل تدليل يعتمد على فكرة العلة ، وأنها فى التجربة الفعلية لاندرك العلة إدراكاً حسياً بل التعاقب وحده ؛ وإذن فكل العلم والفلسفة واللاهوت يرتكز على فكرة - علة ليست غير فرض ذهنى لاحتمالية مدركة حسياً . كتب كانط يقول « أعترف بصراحة أن ملاحظة ديفد هيوم هى التى قطعت على سباني الدجماطيقى منذ سنين طويلة ووجهت أبحاثى فى مجال الفلسفة النظرية فى اتجاه مختلف كل الاختلاف » ^(٢٠) . فكيف يمكن إنقاذ مفهوم العلة من المكان الوضيع ، مكان الفرض غير اليقيني ، الذى

خلفه فيه هيوم ؟ يقول كانط أنه لا سبيل إلى ذلك إلا ببيان أنه قبلي ، مستقل عن الخبرة ، واحد من تلك المقولات ، أو أشكال الفكر ، التي وإن كانت ليست بالضرورة فطرية ، إلا أنها جزء من التركيب الفطري للعقل (*) . ومن ثم صمم على التغلب على دجماطيقية فولف وارتيازية هيوم جميعاً بنقد — أي بتمحيض نقدي — يصف في الوقت نفسه سلطة العقل ويحددها ويحييها . وهذه المراحل الثلاث — الدجماطيقية ، والارتيازية ، والنقد — هي في نظر كانط المراحل الثلاث الصاعدة في تطور الفلسفة الحديثة .

وفي ولع بالتعاريف ، والتمييزات ، والتصنيفات ، وباستخدام للألفاظ الطويلة اختصاراً للكلام ، قسم كانط المعرفة كلها إلى معرفة تجريبية (تعتمد على التجربة) وأخرى ترانسندنتالية (مستقلة عن التجربة ومن ثم متجاوزة لها) . وقد وافق على أن المعرفة كلها « تبدأ » بالتجربة ، بمعنى أن إحساساً ما لا بد أن يسبق وينبه عمليات الفكر ، ولكنه يعتقد أنه في اللحظة التي تبدأ فيها التجربة فإن تركيب العقل يشكلها بما تأصل فيه من أشكال « الحدس » (الإدراك الحسي) أو الإدراك العقلي . وأشكال « الحدس » الأصلية هي الصور المشتركة بين الجميع ، والتي تتخذها التجربة في إحساسنا الظاهر كمكان ، وفي حساسيتنا الباطنة كزمان .

وبالمثل توجد أشكال فطرية من الإدراك العقلي أو الفكر ، مستقلة عن التجربة وهي تشكلها . وقد سماها كانط المقولات ، وقسمها بثناثق أولع به وحرص عليه حرصاً شديداً إلى أربع مجموعات ثلاثية : ثلاث مقولات للكم — هي الوحدة والكثرة وجملة الكل ؛ وثلاث مقولات للكيف — هي الوجود والسلب وحد التناهي ؛ وثلاث مقولات قوائم للإضافة هي الجوهر في مقابل العرض ، والسببية في مقابل التلازم ، والمشاركة أو التفاعل ؛

(*) ذكر كانط في خطاب لبارني في ١٧٩٨ تفسيراً لاحقاً لـ « يقظته » هذه . قال : « إن تناقضات العقل الخالص (الصعوبات التي ينطوى عليها الإيمان بالله أو عدم الإيمان به ، أو حرية الإرادة ، أو الخلود) . . . هي التي بدأت إهتاضاً من سباق الدجماطيقى وساقنتني إلى نقد العقل » (٢١) .

وثلاث مقولات قوائم للجهة - هي الإمكان في مقابل الاستحالة، والوجود في مقابل العدم ، والضرورة في مقابل العرضية . وكل إدراك حسى يندرج تحت واحد أو أكثر من هذه الأشكال أو القوالب الأساسية للفكر . فالإدراك الحسى إحساس ترجمه الأشكال الفطرية للزمان والمكان ، والمعرفة إدراك حسى تحولته المقولات إلى حكم أو فكرة . والتجربة ليست قبولا سلبياً لانطباعات موضوعية على حواسنا ، إنما هي حصيلة العقل المؤثر إيجابياً على خامة الإحساس .

وقد حاول كانط أن يعارض ارتيائية هيوم في العلية ، وذلك بأن عد علاقة العلة والمعلول شكلاً حقيقياً من أشكال الفكر لا حقيقة موضوعية ؛ وهى بهذه الصفة مستقلة عن الخبرة وليست خاضعة لعدم يقينية الأفكار التجريبية . ولكنها مع ذلك جزء ضرورى من كل تجربة ، لأننا لا نستطيع فهم التجربة بدونها . ومن ثم فإن « إدراك العلة العقلى » ينطوى على صفة الوجوب ، التى لا يمكن لأى تجربة أن تعطىها » (٢٢) . وقد ظن كانط أنه بـ « خفة القلم » هذه أنقذ العلم من ذلك القيد المذل ، قيد الاحتمال ، الذى قضى عليه به هيوم . بل انه زعم أن العقل البشرى لا الطبيعة - هو الذى ينشئ « قوانين الطبيعة » الشاملة ، وذلك بإضافته على بعض تعميماتنا - كالتعميمات الرياضية - صفات من الشمول والوجوب لا تدرك موضوعها إدراكاً حسياً . « إننا نحن الذين ندخل ذلك الترتيب والانتظام على المظهر الذى نسميه « الطبيعة » . وما كنا لنجدهما قط فى المظاهر لو لا أننا نحن أنفسنا بحكم طبيعة عقلنا ، وضعناهما فى الأصل هناك » (٢٣) و « قوانين الطبيعة ليست كيانات موضوعية بل مركبات عقلية نافعة فى معالجة التجربة » .

وكل معرفة تتخذ شكل الصور أو المثل، والمثالى بهذا المعنى على صواب : فالعالم « بالنسبة لنا » ليس إلا أفكارنا . وما دمنا لانعرف المادة إلا كأفكار وبواسطة الأفكار ، فالمادية إذن مستحيلة منطقياً ، لأنها تحاول أن ترد المعلوم مباشرة (الأفكار) إلى المجهول أو المعلوم بطريق غير مباشر . ولكن المثالى يخطئ إذا اعتقد أنه لا شئ « موجود » إلا صورنا ، لأننا نعلم أن الصور

يمكن إحداثها بالأحاسيس ، ونحن لا نستطيع تفسير كل الأحاسيس دون أن نفترض ، لكثير منها ، علة خارجية . وبما أن معرفتنا مقتصرة على الظواهر أو المظاهر -- أى على الشكل الذى يتخذه السبب الخارجى « بعد » أن تشكله أساليب إدراكنا الحسى والعقلى -- فإننا لا نستطيع أبداً أن نعرف الطبيعة الموضوعية لتلك العلة الخارجية ^(٢٤) ، ولا بد أن تظل بالنسبة لنا شيئاً -- فى -- ذاته ، ملغزاً ، « نوميئاً » يدرك عقلياً ولا يدرك حسياً على الإطلاق . فالعالم الخارجى موجود ولكنه فى حقيقته المطلقة مجهول لا يمكن معرفته » ^(٢٥) .

والنفس أيضاً حقيقية ولكن لا يمكن معرفتها . ونحن لا ندركها حسياً على الإطلاق بوصفها كياناً مضافاً إلى الحالات العقلية التى ندركها حسياً ، وهى الأخرى « نوميئاً » يدرك عقلياً بالضرورة باعتبارها الحقيقة التى من وراء الذات الفردية ، والحس الأخلاقى وأشكال العقل وعملياته . والإحساس بالذات يمتزج مع كل حالة عقلية ، ويوفر الاستمرارية والهوية الشخصية . والوعى بالذات « وعى الذات الاستبطانى » هو أوثق تجاربنا قاطبة ، ولا سبيل إلى إدراكه عقلياً كشيء مادمى بأى جهد بطولى من جهود الخيلة ^(٢٦) . ويبدو من المستحيل أن تؤثر نفس لا مادية فى جسد مادمى ، وأن تتأثر به ، ولكن لنا أن نعتقد أن الحقيقة المجهولة والكامنة وراء المادة « قد لا تكون مع ذلك شديدة الاختلاف فى طبيعتها » من ذلك الشيء -- فى -- ذاته ، الباطن ، الذى هو النفس ^(٢٧) .

وليس فى استطاعتنا بالعقل الخالص أو النظرى أن نثبت (كما حاول فولف) أن نفس الفرد خالدة ، أو أن الإرادة حرة ، أو أن الله موجود ؛ ولكننا أيضاً لا نستطيع بالعقل الخالص أن ندحض هذه المعتقدات (كما خطر لبعض الشكاك أن يفعلوا) فالعقل والمقولات مهياة للتعامل مع الظواهر أو المظاهر فقط ، الظاهرة أو الباطنة ، ولا نستطيع تطبيقهما على الشيء -- فى -- ذاته ، أى على الحقيقة التى من وراء الأحاسيس أو النفس التى من وراء الأفكار . فإذا حاولنا إثبات عقائد الدين أو دحضها وقعنا فى أغلاط (فى البرهان)

أو أغاليط (مغالطات) أو نقائص — تناقضات ملازمة . كذلك ينتهى بنا الأمر إلى استحالات كهذه إذا قلنا إن العالم كان له بداية أو لم يكن ، أو إن الإرادة حرة أو غير حرة ، أو إن كائناً واجباً أو كائناً أعلى موجود أو غير موجود . وعبر كانط في بلاغة غير معهودة فيه عن البرهان الغائى (٢٨) . ولكنه خلس إلى أن « قصارى ما يستطيع هذا البرهان إثباته هو « مهندس » . . . تعوقه دائماً أشد التعويق تكيفية المادة التى يشتغل بها ، لا « خالق » . . . يخضع لفكرته كل شىء » (٢٩) .

ومع ذلك فكيف نستطيع الرضى بمثل هذه النتيجة المحيرة — وهى أن حرية الإرادة ، والخلود ، والله ، هذه كلها لا يمكن إثباتها أو نفيها بالعقل الخالص ، يقول كانط إن فى باطننا شيئاً أعمق من العقل ، هو شعورنا الذى لا يقبل التنفيذ بأن الوعى ، والعقل ، والنفس ، ليست مادية ، وأن الإرادة حرة إلى حد ما ، وإن يكن على نحو غامض ولا منطقى ؛ ونحن لانستطيع أن نقنع طويلاً بالنظر إلى العالم على أنه تسلسل لا معنى له من التطور والفناء دون مغزى خلقى أو عقل أصيل . فكيف نستطيع تبرير إرادة الإيمان فينا ؟ من جهة (كما يقول كانط) بالجدوى الفعلية للإيمان — لأنه يقدم لنا بعض الهداية فى تفسير الظواهر ، ويوفر لنا شيئاً من السلامة الفلسفية والسلام الدينى ، يقول :

« إن أشياء العالم يجب النظر إليها » كأنها « تلقت وجودها من عقل أسمى ففكرة (الله) هى فى الحقيقة مدرك عقلى موجه ، لا مدرك عقلى مباشر (هى فرض يعين على الكشف والفهم ، ولكنها ليست برهاناً) . . . فى ميدان اللاهوت يجب أن ننظر إلى كل شىء « كأن » جماع المظاهر كلها (العالم المحسوس ذاته) له أساس واحد ، أسمى ، كلى الاكتفاء ، وراء ذاته — هو عقل موجود بذاته ، مبتكر ، مبدع . لأنه فى ضوء هذه الفكرة ، فكرة العقل المبدع ، نوجه الاستخدام التجريبي « لعملنا » بحيث نحصل على أقصى امتداد مستطاع له . . . والمفهوم المحدد الوحيد الذى يعطينا إياه العقل النظرى الخالص عن الله هو ، بأدق معنى ، مفهوم « ربوبى » ؛ أى أن العقل لا يحدد الصحة

الموضوعية لمثل هذا المفهوم ، إنما هو يعطينا فقط الفكرة عن شيء هو الأساس للوحدة الاسمي والواجبة لكل الحقيقة التجريبية » (٣٠) .

ولكن المبرر الأشد إلزاماً للاعتقاد الديني ، في رأى كانط ، هو أن هذا الاعتقاد لا غنى عنه للأخلاقية و « لولا أن هناك كائناً أصلياً متميزاً عن العالم ، ولو كان العالم . . . بغير خالق ، ولو كانت إرادتنا غير حرة ، ولو كانت الروح . . . فانية كالمادة ، إذن لفقدت الأفكار والمبادئ الأخلاقية » (٣١) . وإذا شئنا للصفة الأخلاقية والنظام الاجتماعي ألا يعتمدا كلية على الخوف من القانون ، فلا بد لنا من دعم الإيمان الديني ، ولو بوصفه مبدأ منظماً ، ويجب أن نسلك ، كأننا نعرف « أن هناك إلهاً ، وأن نفوسنا خالدة ، وأن إرادتنا حرة » (٣٢) . أضف إلى ذلك ، أننا إعانة للفكر والأخلاق — مبررون في تمثيل سبب العالم بلغة تشبيهية لطيفة دقيقة . (بغيرها لا نستطيع تصور أى شيء متصل بهذا السبب) أغنى ككائن ذي فهم ، ومشاعر سرور وأستياء ، ورغبات ومشينات تقابلها » (٣٣) .

وهكذا نختتم كتاب « النقد » الشهير ، مخلفاً مذاهب الفكر المتعارضة وقد سرى عنها وأثار استياءها . لقد أصبح في وسع الشكاك أن يزعموا أن كانط برد اللادرية ، وأن يزدروا إرجاعه الله إلى مكانته السابقة مكملاً للشرطة . ووبخه اللاهوتيون المصدومون على تسليمه بهذا القدر الكبير للكفر ، واغتبطوا لأن الدين خرج — فيما بدا لهم — حياً من رحلته الخطرة داخل متاهة عقل كانط . وفي ١٧٨٦ وصف كارل راينهولت هذه الضجة الكبرى فقال :

«لقد حكم الدجماطيقيون على كتاب « نقد العقل الخالص » : بأنه محاولة شك يقوض يقينية المعرفة كلها . الشكاك بأنه قطعة من التبجح المستعلى تضطلع بإقامة صورة جديدة من الدجماطيقية على أنقاض مذاهب سابقة ؛ وفوق الطبيعيين بأنه حيلة مبيتة بدهاء لإزاحة الأسس التاريخية للدين ، ولاقاء المذهب الطبيعي دون جدل عنيف ؛ والطبيعيون بأنه دعامة جديدة لفلسفة الإيمان المحتضرة ؛ وحكم عليه الماديون بأنه إنكار مثالي النزعة لحقيقة

المادة ؛ والروحانيون بأنه قصر لا مبرر له للمعرفة كلها على العالم المادى
مستتر تحت اسم ميدان التجربة . . . » (٣٤) .

وهاجمت مدارس الفكر هذه كلها تقريباً الكتاب فأذاعت بذلك
شهرته ولو بتجريحه . وأعلت من قدرة كل العوامل حتى عسر فهمه الذى
جعله تحدياً يتعين على كل عقل عصرى أن يقبله . وسرعان ما جرت
مصطلحات كانط وألفاظه الطويلة على كل لسان مثقف .

ولم يستطع كانط أن يفهم لم عجز نقاده عن فهمه . ألم يعرف كل
مصطلح أساسى مراراً وتكراراً ؟ (بلى ، وما أشد التباين فى تعاريفه !)
وفى ١٧٨٣ رد على المتهجمات بإعادة صياغة « النقد » فيما خاله صورة أبسط ،
وسمى رده فى تحد « مقدمة لكل ميتافيزيقا مستقبلية قادرة على الظهور كعلم » .
وزعم فى هذا الرد أنه قبل كتابة « نقد العقل الخالص » لم تكن هناك ميتافيزيقا
ميتافيزيقا حقيقية على الإطلاق ، لأنه ما من مذهب قدم لنفسه بتمحيص
ناقد لأداته — وهى العقل . فإذا كان بعض القراء عاجزين عن فهم كتاب
« النقد » فقد يكون السبب أنهم ليسوا على مستواه تماماً ؛ « وفى هذه الحالة
على القارئ أن يستخدم مواهبه العقلية فى شىء آخر » ، وعلى أى حال « مامن
حاجة تدعو كل إنسان لدراسة الميتافيزيقا » (٣٥) . لقد كان فى الأستاذ العجوز
دعابة وكبرياء ، وفيه حدة فى الطبع أيضاً . على أن « المقدمة » باتت كلما
أو غلت عسرة عسر كتاب النقد الأسمى .

واتصل الجدل فى ظل حكومة فردريك الأكبر المتسامحة . وكان كانط
قد كتب فى كتابه « نقد العقل الخالص » فقرات بليغة عن شرف العقل ،
وعن حقه فى حرية التعبير (٣٦) . وفى ١٧٨٤ ، حين كان لا يزال مطمئناً
إلى حماية فردريك وتسيدلتس ، نشر مقالا عنوانه (ما التنوير ؟) .
وقد عرف التنوير بأنه حرية الفكر واستقلاله ، واتخذ شعاراً ونصيحة
القول المأثور « تجرأ على أن تعرف » . وأبدى أسفه على تخلف
التحرر الفكرى نتيجة لحافضة الأغلبية على القديم . « فإذا سألنا

هل عايشون في عصر مستنير ؟ فالجواب لا » ، إنما نحن نعيش في « عصر التنوير » ثم حيا فردريك باعتباره عنوان حركة التنوير الألماني وحاميها ، والمملك الوحيد الذي قال لرعاياه « فكروا كما تشاءون » (٣٧) .

ولعله كتب هذا الكلام مؤملاً أن خليفة فردريك سيلزم سياسة التسامح . ولكن فردريك وليم الثاني (١٧٨٦ — ٩٧) كان أكثر اهتماماً بقوة الدولة منه بحرية العقل . فلما أعدت طبعة ثانية من « نقد العقل الخالص » (١٧٨٧) عدل كانط بعض فقراته ، وحاول التخفيف من حدة هرطقاته بمقدمة طابعها الاعتذار . قال « وجدت من الضروري أن أنفي المعرفة (بالأشياء في ذاتها) لأفسح مجالاً للإيمان . . . فالنقد وحده يستطيع أن يقطع جذور المادية والقدرية والكفر والإلحان والتعصب والخرافة » (٣٨) . وكان محققاً في هذا الحلز . ففي ٩ يوليو ١٧٨٨ أصدر يوهان كرستيان فون فولنر ، وزير الإدارة اللوثرية « مرسوماً دينياً » رفض التسامح الديني صراحة باعتباره مسئولاً عن التحلل الخلقي ، وهدد بالطرد من منابر الكنائس أو كراسي الجامعات كل الوعاظ أو المدرسين المنحرفين عن المسيحية التقليدية . في هذا الجو الرجعي نشر كانط « نقده » الثاني .

٣ — نقد العقل العملي ، ١٧٨٨

وما دام كتاب « النقد » الأول زعم أن العقل الخالص لا يستطيع أن يثبت حرية الإرادة ، وما دامت الأخلاقية — في رأى كانط — تحتاج إلى هذه الحرية ، فإن عمليات العقل بدت وقد تركت الأخلاقية ، كاللاهوت ، دون أساس عقلي . بل أسوأ من هذا أن حركة التنوير قوضت الأساس الديني للأخلاق بالتشكيك في وجود إله مثير معاقب . فأني للحضارة أن تبقى حية إذا انهارت عمدة الأخلاقية التقليدية هذه ؟ وأحس كانط أنه هو نفسه ، بوصفه تلميذاً صريحاً للتنوير ، ملتزم أخلاقياً بالعثور على أساس عقلي ما لنا موس أخلاقي . وعليه ففي مقال تمهيدى عنوانه « المبادئ الأساسية لميتافيزيقا الأخلاق » (١٧٨٥) رفض محاولة أحرار الفكر إقامة الأخلاقية على

تجربة الفرد أو النوع ؛ فمثل هذا الاشتقاق البعدي خليق بأن يسلب المبادئ الأخلاقية تلك الكلية وذلك الإطلاق اللذين هما في رأيه شرط للمبدأ الأخلاقي السليم . ثم أعلن بما تميز به من ثقة بالنفس : « أنه من الواضح أن المفاهيم الأخلاقية كلها مستقرة ومتأصلة قبلياً في العقل كلية » (٣٩) . وقد استهدف كتابه الثاني الكبير « نقد العقل العملي » العثور على ذلك المستقر والأصل وإيضاحه . فسيحلل العناصر القبلية في الأخلاقية كما حلل الكتاب الأسبق في النقد العناصر القبلية في المعرفة .

يزعم كانط أن لكل فرد ضميراً ، إحساساً بالواجب ، وعياً بقانون أخلاقي أمر . « شيان يملآن العقل بالإعجاب والرهبة المتجددين المتعاضمين أبداً . . . السموات المرصعة بالنجوم من فوقنا ، والقانون الأخلاقي في داخلنا » (٤٠) . وكثيراً ما يتعارض هذا الشعور الأخلاقي برغباتنا الحسية ، ولكننا ندرك أنه عنصر أسمى فينا من طلب اللذة . وهو ليس ثمرة التجربة ، إنما هو جزء من بنائنا النفسي الأصيل ، مثل المقولات ؛ وهو محكمة باطنية حاضرة في كل شخص من كل جنس (٤١) . وهو مطلق الحكم ، يأمرنا أمراً غير مشروط ، وبغير استثناء أو عذر ، بأن نفعل الحق من أجل الحق ، كغاية في ذاته ، لا كوسيلة للسعادة أو الثواب أو لخير غيره . فأمره مطلق .

وهذا الأمر المطلق يتخذ شكلين : « اعمل بحيث تستطيع قاعدة إرادتك أن تظل على الدوام صادقة كمبدأ للتشريع العام » ؛ أسلك بحيث إذا سلك الغير مثلك سار كل شيء على ما يرام ، وهذه (الصيغة المعدلة من القاعدة الذهبية — أي التي تأمر بمعاملة الناس كما تحب أن يعاملون) هي « القانون الأساسي للعقل العملي الخالص » (٤٢) ، وهي « الصيغة لإرادة خيرة خيرا مطلقاً » (٤٣) . وفي صيغة ثانية ، « اعمل بحيث تعامل الإنسانية ، سواء ممثلة في شخصك أو في شخص أي إنسان آخر ، وفي كل حالة ، كغاية لا كمجرد واسطة اطلاقاً » (٤٤) ، — في هذه الصيغة الثانية أعلن كانط مبدأ أشد ثورية من أي شيء احتواه الإعلان الأمريكي أو الفرنسي لحقوق الإنسان .

والأحسان بالالتزام الخلقى دليل إضافي على قدر من حرية الإرادة .

فأنى يكون لنا هذا الشعور بالواجب لو لم نكن أحراراً في أن نعمل أو لا نعمل ، ولو كانت أفعالنا مجرد حلقات في سلسلة لا تنقسم من العلة والمعلول الميكانيكيين ؟ والشخصية بدون الإرادة الحرة عديمة المعنى ؛ وإذا كانت الشخصية عديمة المعنى كانت الحياة كذلك ، وإذا كانت الحياة عديمة المعنى كان الكون كذلك ^(٤٥) . ويدرك كانط بمنطق الحتمية الذى يبدو ولا مهرب منه ، فكيف يستطيع الاختيار الحر أن يتدخل في عالم موضوعي يبدو محكوماً بقوانين ميكانيكية (كما يعترف كانط) ؟ ^(٤٦) وجوابه عن هذا السؤال بلغ الغاية في الغموض والإبهام . فهو يذكرنا بأن القانون الميكانيكي مركب عقلي ، نظام يفرضه العقل ، بواسطة مقولته العلية ، على عالم المكان والزمان ذريعة للتعامل معه باتساق . وما دمنا قد قصرنا المقولات على عالم الظواهر ، وما دمنا قد سلمنا بأننا لانعرف كنه العالم النوميى -- الشيء -- في -- ذاته الكائن خلف الظواهر -- فأنا لانستطيع الزعم بأن القوانين التى نركبها للظواهر تصدق أيضاً على الحقيقة المطلقة . وبما أننا سلمنا أننا لانعرف ، فى ذاتنا ، إلا الذات الظاهرية -- عالم المدركات الحسية والصور فقط -- ولا نعرف كنه النفس الباطنة والنومينية ، فإننا لانستطيع الزعم بأن قوانين العلة والمعلول التى يبدو أنها تحكم أفعال أبداننا (بما فيها أمخاخنا) تنطبق أيضاً على إرادات الحقيقة الروحية المطلقة الكائنة وراء عملياتنا العقلية . غوراء ميكانيكيات العالم الظاهرى للمكان والأفكار فى الزمان قد تكون هناك حرية فى العالم النوميى الذى بلا مكان ولا زمان ، عالم الحقيقة المطلقة -- الظاهرة أو الباطنة . وأفعالنا وأفكارنا تتحدد بمجرد دخولها عالم الأحداث المادية أو العقلية المدركة حسياً ؛ وقد تظل حرة فى أصلها فى النفس غير المدركة حسياً ؛ « وهكذا يمكن للحرية والطبيعة أن توجدا معاً » ^(٤٧) ، وليس فى إمكاننا إثبات هذا ، ولكن يجوز لنا شرعاً أن نفترضه متضمناً بحكم طبيعة حسنا الأخلاقى الآمرة ؛ وبدونه تموت حياتنا الأخلاقية .

على أى حال (فى رأى كانط) ، لم لا ينبغى أن نقدم العقل العملى على النظرى ؟ أن العلم ، الذى يبدو أنه يجعلنا آلات ذاتية الحركة ، هو فى النهاية مضاربة -- مقامرة على الصحة الدائمة لنتائج ومناهج لا تفتأ تتغير . ونحن

على حق إذا شعرنا بأن الإرادة في الإنسان أهم من الذهن ، فالذهن أداة صاغت الإرادة للتعامل مع العالم الخارجى والميكانيكى ، وما ينبغى أن يكون السيد المتسلط على الشخصية التى تستخدمه (٤٨) .

ولكن إذا كان الحس الأخلاقى يبرر افتراضنا قدر من الإرادة الحرة ، فإنه يبرر أيضاً اعتقادنا بخلود النفس ، ذلك أن حسنا الأخلاقى يستحثنا إلى كمال تحبطه المرة بعد المرة دوافعنا الحسية ، ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الكمال فى حياتنا على الأرض ؛ فإذا كان هناك عدل فى العالم فلا بد أن نفترض أننا سنبقى حياة متصلة بعد الموت لا كمالنا الأخلاقى . وإذا كان هذا يفترض أيضاً وجود إله عادل ، فإن هذا أيضاً يبرره العقل العملى . فالسعادة الأرضية لا تتفق دائماً والفضيلة ، ونحن نشعر أن التوازن بين الفضيلة والسعادة سيصح فى مكان ما ، وهذا لا سبيل إليه إلا إذا افترضنا وجود إله يحقق هذه المصالحة ، وعليه فإن وجود سبب للطبيعة كلها ، متميز عن الطبيعة ذاتها ، محتوياً لمبدأ . . . الانسجام الدقيق بين السعادة والفضيلة ، هذا أيضاً من مسلمات « العقل العملى » (٤٩) .

وقد عكس كانط النهج التقليدى المؤلف . فبدلاً من أن يستنبط الحس الأخلاقى والناموس الأخلاقى من الله (كما فعل اللاهوتيون من قبل) ، استنبط الله من الحس الأخلاقى . ويجب أن نتصور واجباتنا لا على أنها « أوامر تعسفية لإرادة غريبة عنا » بل قوانين أساسية لكل إرادة حرة فى ذاتها . على أنه مادامت تلك الإرادة والله كلاهما ينتميان إلى العالم النومينى ، فينبغى أن نتقبل هذه الواجبات على أنها أوامر إلهية ولن ننظر إلى الأفعال (الأخلاقية) على أنها إلزامية لأنها أوامر الله ، ولكننا سنعدها أوامر إلهية لأن فينا إلتماً باطنياً نحوها » (٥٠) .

وإذا كان هذا التفكير « الإرادى » (العنيد) يشربه بعض الغموض ، فقد يكون السبب أن كانط لم يكن شديد التحمس لمحاولته التوفيق بين فولتير وروسو . فقد مضى « نقد العقل الخالص » شوطاً أبعد حتى من فولتير فى الاعتراف بأن العقل الخالص لا يستطيع إثبات حرية الإرادة ،

أو الخلود ، أو الله . ولكن كانط كان قد وجد في تعاليم روسو — عن تهافت العقل ، وأولية الوجدان ، وانبثاق الدين من الحس الأخلاقي للإنسان — مهزباً مستطاعاً من الإرادية ، والتحليل الخلقى ، وبوليس فولنر . ورأى أن روسو أيقظه من « السبات العقائدى » فى الأخلاق كما أيقظه هيوم فى الميتافيزيقا ^(٥١) . فكان كتابه الأول فى النقد ينتمى إلى حركة التنوير ، والثانى إلى الحركة الرومانتيكية ، ومحاولة الجمع بين الإثنين كانت من أبرع الإنجازات فى تاريخ الفلسفة . وقد عزا هاينى المحاولة إلى الحرص على حاجات عامة الشعب : لقد رأى الأستاذ خادمه الأمين لا مبه يبكى على موت الله ، « فرق له قلب إيمانويل كانط ، وأثبت أنه ليس فيلسوفاً عظيماً فحسب ، بل إنساناً طيباً أيضاً » ، وقال بمزيج من العطف والتهكم : « يجب أن يكون للامبه العجوز إله ، وإلا فلن يستطيع أن يكون سعيداً . . . أما من جهتي أنا فإن العقل العملى يستطيع أن يضمن وجود الله » ^(٥٢) .

٤ — نقد الحكم ، (١٧٩٠)

ولابد أن كانط نفسه كان غير راض عن براهينه ، لأنه فى كتابه « نقد الحكم » عاد إلى مشكلة الآلية مقابل الإرادة الحرة ، وتقدم إلى مشكلة الصراع بين الآلية والقصد ، وأضاف إليها مقالات معقدة فى الجمال ، والجلال ، والعبرية ، والفن . وهو مزيج لا يثير الشهية .

أما ملكة الحكم هذه ، « فهى عموماً ملكة التفكير فى الجزء على أنه محتوى فى الكل » ، وهى إدراج شئ أو فكرة أو حدث تحت صنف أو مبدأ أو قانون . لقد حاول كتاب « النقد » الأول أن يدرج جميع الأفكار تحت المقولات الكلية القبلية ، وحاول الثانى إدراج جميع المفاهيم الأخلاقية تحت حس أخلاقى قبلى كلى ، أما الثالث فاضطلع بالعثور على مبادئ قبلية لأحكامنا الجمالية (إلاستيقية) -- فى النظام أو الجمال أو الجلال فى الطبيعة أو الفن ، ^(٥٣) « انى أجرؤ على الأقل فى أن تنهض صعوبة حل معضلة ، فى طبيعتها مثل هذا التعقيد ، عذراً يبرر بعض الغموض الذى لا يمكن تجنبه فى حلها » ^(٥٤) .

ان الفلسفة « الدجماطيقية » قد حاولت من قبل أن تجد عنصراً موضوعياً في الجمال ؛ أما كانط فيشعر أن هنا ، على الأخص ، يكون العنصر الدائى هو الغالب . فليس هناك شىء جميل أو جليل إلا أن يجعله الوجدان كذلك . ونحن نصف بالجمال أى شىء يعطينا تأمله لذة منزهة — أى لذة مجردة من رغبة شخصية ؛ فنحن نستمد إشباعاً جمالياً ، وجمالياً فقط ، من غروب الشمس ، أو من لوحة لرفائيل ، أو كندرائية ، أو زهرة ، أو حفلة موسيقية ، أو أغنية . ولكن لم تعطينا أشياء أو تجارب يعينها هذه اللذة المنزهة ؟ لعل السبب أننا نرى فيها اتحاداً في الأجزاء يؤدى وظيفته بنجاح فى كل متناسق . وفى حالة الليل تلذنا العظمة أو القوة التى لا تهددنا بخطر ؛ وهكذا نشعر بالجلال فى السماء أو البحر ، إلا إذا هددنا اضطرابهما بالخطر .

ويزداد تقديرنا للجمال أو الجلال بقبولنا الغائية — أى بتعييننا فى الكائنات الحية موافقة أصيلة بين الأجزاء وحاجات الكل ، وبشعورنا بحكمة إلهية فى الطبيعة وراء التناسق والانسجام ، والعظمة والقوة . ولكن العلم يهدف إلى عكس هذا تماماً — وهو أن يثبت أن الطبيعة الموضوعية كلها تعمل بقوانين ميكانيكية ، دون خضوع لأى قصد خارج عنها ، فكيف السبيل إلى التوفيق بين هذين المدخلين إلى الطبيعة؟ بقبولنا الآلية والغائية جميعاً بقدر ما تساعدنا كبديتين موجهتين ، كفرضين ييسران الفهم أو البحث . فالمبدأ الآلى يساعدنا على الأخص فى البحث فى المواد غير العضوية ، أما المبدأ الغائى فهو خير عون لنا فى دراسة الكائنات الحية . وفى هذه الكائنات قوى للنمو والترا الذى يعنى التفسير الميكانيكى ؛ فهناك توفيق واضح بين الأجزاء وأغراض العضو أو الكائن ، كاستخدام الخالب القبض والعيون للإبصار . ومن الحكمة الإقرار بأنه لا الآلية ولا الغائية يمكن إثبات صدقهما صدقاً كلياً . والعلم نفسه ، بمعنى من المعانى ، هو غائى ، لأنه يفرض فى الطبيعة ترتيباً ، وانتظاماً ، ووحدة معقولة ، « كأن » عقلاً إلهياً نظمها ويبقى عليها (٥٥) .

وقد اعترف كانط بالصعوبات الكثيرة التى تعترض النظر إلى الإنسان

والعالم على أنهما حصيلة تدبير إلهي : « إن أول شيء كان يقتضى تدبيره بجلاء في نظام يوضع بحيث يحقق كلا غائياً للكائنات الطبيعية على الأرض هو موطنها — التربة أو العنصر الذى يراد لها أن تزكو عليه أو فيه . ولكن التعمق في طبيعة هذا الشرط الأساسى للإنتاج العضوى كله يظهر أثراً لاى علل إلا تلك التى تعمل دون غاية إطلاقاً ، بل تنزع في الواقع إلى التدمير دون أن يكون القصد منها تشجيع تكوين الأنواع والنظام والغايات . والبحر لا يحويان فقط آثار كوارث قديمة العهد هائلة حلت بهما وبكل ما زخر به من كائنات حية ، ولكن تكوينهما بجملته — طبقات اليابس وخطوط سواحل البحر — يحمل كل المظاهر الدالة على أنه نتيجة قوى عنيفة قهارة لطبيعة تعمل في فوضى» (٥٦) .

ومع ذلك أيضاً ، فإننا لو تخلينا عن كل فكرة في وجود هدف في الطبيعة لسلبنا الحياة كل معناها الأخلاقى ، فتصبح سلسلة حمقاء من ولادات مؤلمة وميتات معذبة ، ليس فيها للفرد وللأمة وللنوع شىء مؤكد إلا الهزيمة . فلا بد لنا من أن نؤمن بغاية إلهية ولو للاحتفاظ بسلامة عقولنا — وما دامت الغائية لا تثبت غير صانع مكافح بدلا من خيرية إلهية كلية القدرة ، فلا بد إذن من أن نرسى إيماننا في الحياة على حس أخلاق لا يبرره غير الاعتقاد باله عادل . بهذه العقيدة نستطيع أن نعتقد — وأن كنا لا نستطيع أن نثبت بالبرهان — ان البار هو الغاية النهائية للخليقة ، وأنه أنبل ثمرة للتدبير العظيم المملغز (٥٧) .

٥ — الدين والعقل ١٧٩٣

لم يكن كانط قانعاً قط بلاهوته « كأنى » المتردد . ففي ١٧٩١ ، في كتيب عنوانه « عن تهافت جميع المحاولات الفلسفية في الإلهيات » أعاد القول إن « عقلنا عاجز كل العجز عن تبصيرنا بالعلاقة بين العالم . . . والحكمة السامية » . وأضاف إلى هذا تحفظاً ، ربما لنفسه ، فقال : « على الفيلسوف ألا يلعب دور المحامى الخاص في هذا الأمر ؛ وعليه ألا يدفع عن أى قضية

يعجز عن فهم عدالتها، ولا يستطيع إثباتها بطرق التفكير الخاصة بالفلسفة» (٥٨)

ثم عاد الى المشكلة في سلسلة من المقالات أفضت به إلى تحدى الحكومة الروسية تحدياً أسافراً. وطبعت أولى هذه المقالات وعنوانها « في الشر المتأصل » في « مجلة برلين الشهرية » عدد أبريل ١٧٩٢ . وأذن الرقيب بنشرها على أساس أن « العلماء المتعمقين في التفكير هم وحدهم الذين يقرعون كتابات كانط » (٥٩) . ولكنه رفض نشر المقال الثاني « في الصراع بين مبادئ الخير والشر للسيطرة على الإنسان » . ولجأ كانط إلى حيلة . ذلك أن الجامعات الألمانية كان لها امتياز اعتماد الكتب والمقالات للنشر ، فقدم كانط المقال الثاني والثالث والرابع إلى كلية الفلسفة بجامعة يينا (وكان يشرف عليها آنذ جوته وكارل أوجست دوق فايمار ، وكان شيلر أحد أساتذتها) ، وأذنت الكلية بالنشر ، وبهذا طبعت المقالات الأربع كلها في كونيغزبرج عام ١٧٩٣ بعنوان « الدين في حدود العقل وحده » .

والسطور الأولى تعلن الفكرة الرئيسية السائدة فيها : « بقدر ما تبني الأخلاق على مفهوم الإنسان كفاعل حر ، هذا الإنسان الذي — بسبب حريته هذه — يتعاضد بعقله عن رؤية القوانين غير المشروطة ، فإن هذه الأخلاق في غير حاجة إلى فكرة كائن آخر من فوقه ليضعه يدرك واجبه ، ولا إلى حافز غير القانون ذاته يجعله يؤديه . . . ومن هنا فإن الأخلاق من أجل ذاتها هي لا تحتاج إلى دين على الإطلاق » (٦١) . ويعد كانط بطاعة السلطات ، ويسلم بالحاجة إلى الرقابة ، ولكنه يشدد على « ألا تسبب الرقابة أى اضطراب في مجال العلوم » (٦٢) فغزو اللاهوت للعلم ، كما حدث في حالة جاليليو ، « قد يعطل جميع جهود العقل البشري . . . ويجب أن يتمتع اللاهوت الفلسفي بكامل الحرية على قدر ما يمتد إليه علمه » (٦٣) .

ويستنبط كانط مشكلات الأخلاق من وراثة الإنسان لنوازع الخير والشر . « لا حاجة لإقامة الدليل صورياً على أن نزعة الفساد لا بد متأصلة في الإنسان وذلك لكثرة الأمثلة الصارخة التي تضعها الخبرة أمام

أعطينا» (٦٣). وهو لا يوافق روسو على أن الإنسان يولد خيراً أو كان خيراً في «حالة الطبيعة» ، ولكنه يتفق معه في إدانة «رذائل الحضارة والمدنية» لأنها «أشد عيوب أذى» (٦٤) ، «والواقع أن هذا السؤال مازال بغير جواب ، وهو ، ألا تكون أسعد في حالة غير متحضرة . . . مما نحن في حالة المجتمع الراهنة» (٦٥) ما فيه من استغلال ونفاق وخلل أخلاقي وتفتيل بالجملة في الحرب. وإذا شئنا أن نعرف طبيعة البشر الحقيقية فيمكن أن نلاحظ سلوك الدول. ولكن كيف بدأ «الشر المتأصل في طبيعة البشر» ؟ . . انه لم يبدأ بسبب «الخطية الأصلية» ، «فلا ريب في أن أشد التفسيرات كلها سخفاً لذيوع هذا الشر وانتشاره في جميع أفراد وأجيال نوعنا هو التفسير الذي يصفه ميراثاً منحدرًا إلينا من أبوين الأولين» (٦٦) . وربما كانت النوازع «الشريرة» قد تأصلت في الإنسان تأصلاً قوياً لأنها كانت ضرورية للبقاء في الأحوال البدائية ، وهي لاتصبح رذائل إلا في المدنية — في المجتمع المنظم ، وفيه لا تحتاج إلى القمع بل إلى الضبط (٦٧) . «فالمدول الطبيعية ، إذا نظرنا إليها في ذاتها ، خيرة ، أى أنها لا تلام ، ومحاولة القضاء عليها ليست عديمة الجدوى فحسب ، بل ضارة ومستحقة للوم . والأولى أن نروضها ، وبدلاً من أن يصطدم بعضها ببعض يمكن أن ينسق بينها لتنسجم في كل يسمى السعادة (٦٨) . والخير الأخلاقي هو أيضاً غريزي ، كما يدل على ذلك الحس الأخلاقي في جميع الناس ، ولكنه في أول الأمر ليس إلا حاجة ، لابد من تنميتها بالتعليم الأخلاقي والتهذيب الشاق . وأفضل الأديان ليس الذى يفوق غيره في التمسك الدقيق بالعبادة الطقسية ، بل أعظمها تأثيراً في الناس ليعمروا حياة أخلاقية (٦٩) . والدين القائم على العقل لا يبنى نفسه على وحى إلهي . بل على إحساس بالواجب يفسر على أنه أقدس عنصر في الإنسان (٧٠) . ومن حق الدين أن ينظم نفسه على هيئة كنيسة (٧١) . وله أن يحاول تحديد عقيدته بالأسفار المقدسة ، وأن يعبد . بحق ، المسيح بوصفه أعظم البشر شهماً بالله . وأن يعد بالجنة وينذر بالنار (٧٢) . و«لا يمكن تصور دين لا يحتوى على اعتقاد بحياة آخرة» (٧٣) . ولكن لا ينبغي أن يكون ضرورياً للمسيحي أن يؤكد إيمانه بالمعجزات ، أو بلاهوت المسيح ، أو بالتكفير عن خطايا البشر بصلب المسيح . أو بالحكم المقدر على الأرواح بالجنة

أو النار بالنعمة الإلهية تمنح دون نظر إلى الأعمال الصالحة أو الشريرة^(٧٤).
و « من الضروري أن نغرس بعناية بعض أشكال الصلاة في أذهان الأطفال
(الذين لا يزالون في حاجة إلى حرفة الدين »^(٧٥) . ، ولكن صلاة
الضراعة « التي يتوسل بها لكسب النعمة الإلهية وهم خرافي »^(٧٦) .

أما حين تنقلب كنيسة ما مؤسسة لإكراه الناس على الإيمان أو العبادة ؛
و حين تزعم لنفسها الحق الأوحد في تفسير الكتاب المقدس وتعريف الأخلاقية ،
و حين تكون كهنوتها يدعى لنفسه سبيل الاتصال وحده بالله والنعمة الإلهية ؛
و حين تجعل من عبادتها مجموعة طقوس سحرية لها قوى معجزة ؛ و حين
تصبح ذراعاً للحكومة وأداة للطغيان الفكري ؛ و حين تحاول أن تتسلط
على الدولة وتستخدم الحكام العلمانيين مطاياا للطمع الكهنوتي - عندها
يثور العقل الحر على كنيسة كهذه ، و يبحث خارجها عن ذلك الدين العقلي
الخالص ، الذي هو السعي لبلوغ الحياة الأخلاقية^(٧٧) .

وقد تميز هذا الأثر الكبير الأخير من آثار كانط بالتذبذب والغموض
الطبيين في رجل لا ولع له بحياة السجون . ففيه الكثير من الحشو « السكولاستي » ،
ويشوبه العجيب من تشقيقات المنطق ومن اللاهوت المفرق في الخيال . ومع
ذلك فالعجب العجيب في رجل بلغ التاسعة والستين ، أن يظل مبدياً مثل
هذه القرة في الفكر والقول ، ومثل هذه الشجاعة في صراعه مع قوى الكنيسة
والدولة مجتمعة . وقد بلغ الصراع بين الفيلسوف والمملك ذروته حين (أول
أكتوبر ١٧٩٤) أرسل إليه فردريك وليم الثاني الأمر التالي الصادر من
المجالس الماكي :

« إن شخصنا البالغ السمو قد لاحظنا طويلاً باستياء شديد كيف
تسعى استخدام فلسفتك لتتوض وتخط من قدر الكثير من أهم وألزم تعاليم
الأسفار المقدسة والمسيحية ، وكيف أنك على التحديد ، فعلت هذا في
كتابك « الدين في حدود العقل وحده » . . . ونحن نطالبك فوراً بجواب
غاية في النزاحة ، ونوقع أنك في المستقبل ، تجنباً لسخطنا الشديد ، لن
يبدر منك ما يسمى كهذا الذي بذر . بل على العكس فإنك طبقاً لمتعضيات

واجبك ستستخدم مواهبك وسلطتك لكي يتحقق هدفنا الأبوى أكثر فأكثر . أما إذا تماديت في المقاومة فلك أن تتوقع بالتأكيد أن نجر عليك المقاومة عواقب وخيمة » (٧٨) .

ورد كانط رداً ملؤه الاسترضاء . فذكر أن كتاباته لم يوجهها إلا للدارسين واللاهوتيين ، الذين ينبغي صيانة حرية تفكيرهم لصالح الحكومة ذاتها . وقال إن كتابه قد سلم بقصور العقل في الحكم على الأسرار النهائية للإيمان الدينى . ثم اختتم بتعهد بالطاعة : « لأننى بوصنى خادماً جلالكم المخلص كل الإخلاص أعلن هنا إعلاناً قاطعاً اننى منذ الآن سأمتنع كلية عن جميع التصريحات العلنية عن الدين ، الطبيعى منه والموحى ، سواء فى المحاضرات ، أو المؤلفات . » فلما مات الملك (١٧٩٧) أحس كانط أنه فى حل من وعده ؛ ثم ان فردريك وليم الثالث عزل فولتر (١٧٩٧) وألغى الرقابة ، وأبطل المرسوم الدينى الصادر فى ١٧٨٨ . وبعد هذه المعركة أجمل كانط نتائجها فى كتيب سماه « صراع الملكات » (١٧٩٨) ، كرر فيه دعواه بأن الحرية الأكاديمية لا غنى عنها للنمو الفكرى للمجتمع . ونحن إذا نظرنا إلى الأمر فى جوهره ، تبين لنا أن الأستاذ القصير القامة ، القابع فى ركن قصى من أركان المعمورة ، قد انتصر فى معركته ضد دولة تملك أقوى جيش فى أوروبا . وستنهار الدولة عما قريب ، ولكن ما وفى عام ١٨٠٠ حتى كانت كتب كانط أبلغ الكتب تأثيراً فى حياة ألمانيا الفكرية .

٦ - المصلح

واعتزل إلقاء المحاضرات فى ١٧٩٧ (بعد أن بلغ الثالثة والسبعين) ، ولكنه واصل نشر المقالات فى الموضوعات الحيوية حتى ١٧٩٨ . وظل على صلة بالشئون العالمية رغم عزلته . فلما اجتمع مؤتمر بازل عام ١٧٩٥ ليرتب صلحاً بين ألمانيا وأسبانيا وفرنسا ، اغتئم كانط الفرصة (كما فعل من قبل الأبيه سان - بيير مع مؤتمر أوترخت فى ١٧١٣) لينشر كراسة عنوانها « فى السلام الدائم » .

وقد استهلها استهلالاً متواضعاً بوصفه « السلام الأبدى » شعاراً يليق بجبانة الموتى ، وأكد للساسة أنه لا يتوقع منهم أن يروا فيه أكثر من مجرد « معلم نظرى متحذلق عاجز عن إلحاق أى خطر بالدولة » .^(٧٩) وبعد أن نحى مواد الصلح المبرم في بازل جانباً باعتبارها مواد تافهة قصد بها مساقرة الظروف ، وضع بوصفه لجنة مؤلفة من رجل واحد — « ست مواد أولية » تحمل الشروط الأساسية للسلام الدائم : فحرمت المادة الأولى جميع التحفظات والملاحق السرية لأى معاهدة . وحظرت المادة الثانية على أى دولة أن تستولى على أخرى أو تسيطر عليها . وطالبت المادة الثالثة بالتخلص تدريجياً من الجيوش الدائمة . وذهبت المادة الرابعة إلى أنه لا يجوز لأى دولة « أن تندخل بالقوة في دستور دولة أخرى » . وطالبت المادة السادسة كل دولة تخوض حرباً مع أخرى بألا « تسمح بأعمال عدائية من شأنها أن تجعل الثقة المتبادلة مستحيلة ، في حالة إبرام سلام في المستقبل ، كالاستعانة بالقتلة يغتالون أو يدسون السم . . . والتحريض على الفتنة في دولة العدو » .

وإذ كان من غير المستطاع إبرام صلح طويل الأمد بين دول لا تعترف بحدود لسيادتها ، فإنه لا بد من بذل الجهود الحثيثة لتطوير نظام دولي ، وليجاد بديل للحرب بهذه الطريقة . ومن ثم وضع كانط بعض « المواد المحددة » للسلام الدائم . أولاً ، « يجب أن يكون دستور كل دولة جمهورياً . ذلك أن الملكيات والارستقراطيات تنزع إلى الحروب المتكررة ، إذ أن الحاكم والنبلاء هم عادة في مأمن من فقد أرواحهم وثرواتهم في الحرب ، لذلك يبادرون إلى خوضها بوصفها « تسلية الملوك » ؛ أما في الجمهوريات « المواطنون هم المسئولون عن قرار إعلان الحرب أو عدم إعلانها ، وهم الذين سيتحملون العواقب » ، ومن ثم « فليس من المحتمل أن يغامر مواطنو دولة (جمهورية) في أى وقت بلعبة غالية التكلفة إلى هذا الحد »^(٨٠) . ثانياً « يجب أن يبنى كل حق دولي على أساس اتحاد فدرالى بين الدول الحرة » ،^(٨١) وألا يكون هذا الاتحاد دولة عظمى ، « فالواقع أن الحرب ليست سيئة سوءاً لابرء منه كسوء الملكية العالمية »^(٨٢) . فينبغى أن يقرر كل شعب حكومته الخاصة

به ، ولكن على كل دولة بمفردها (على الأقل .. دول أوروبا) أن تتجمع في اتحاد كنفدرالى تحول له سلطة التحكم في علاقاتها الخارجية . والمثل الأعلى الذى لابد من التمسك به هو أن تمارس الدول القانون الأخلاقى الذى تطالب به مواطنيها . فهل يمكن أن تسفر مغامرة كهذه عن شر أعظم مما ينجم عن الممارسة الدائمة للخداع والعنف الدوليين ؟ لقد راود كانط الأمل بأن مكيافلى سيثبت في نهاية المطاف أنه مخطيء ، وليس هناك من داع للتضارب بين الأخلاقية والسياسة ، ذلك أن « الأخلاق وحدها هي القادرة على قطع العقدة التى لا تقوى السياسة على فكها » (٨٣) .

وواضح أن كانط كان مخدوعاً في أمر الجمهوريات (التي شاركت بعد ذلك في أشنع الحروب قاطبة) ؛ ولكن ينبغي أن نقرر أنه كان يعنى بـ « الجمهورية » الحكومة الدستورية لا الديمقراطية الكاملة . فلقد كان عديم الفقه بالدوافع المتهورة التي تحفز رجالاً لا تكبحهم قيود (٨٤) ، وكان يخشى إطلاق حق التصويت للجميع باعتباره تسليطاً للأغلبية الجاهلة على الأقليات التقدمية والأفراد الخارجين على الإجماع (٨٥) . ولكن كانت تغيظه الامتيازات الموروثة ، وخيلاء الطبقة ، والفنية التي تطوق كوينزبرج ، ورحب بالثورة الأمريكية التي أخذت ، في رأيه ، تكون اتحاداً فدرالياً من دويلات مستقلة ، على غرار النظام الذى اقترحه لأوروبا . وناصر الثورة الفرنسية بحماسة تقرب من حماسة الشباب ، حتى بعد مذابح سبتمبر وحكم الإرهاب .

ولكنه ، شأن أتباع التنوير جميعاً تقريباً ، آمن بالتعليم أكثر مما آمن بالثورة . في هذا المجال ، كما في مجالات كثيرة ، أحس بتأثير روسو والحركة الرومانتيكية . « يجب أن نسمح للطفل منذ نعومة أظفاره بكامل الحرية من جميع النواحي . . . شريطة ألا يتدخل في حرية غيره » (٨٦) . على أنه تحفظ بعد قليل في هذه الحرية الكاملة ، وسلم بأن قدرًا من الضبط ضرورى في تكوين الخلق ؛ « فإهمال الضبط شر أعظم من إهمال الثقافة ، لأن إهمال الثقافة يمكن علاجه في الحياة فيما بعد » (٨٧) . أما أفضل ضبط فهو العمل . وينبغي مطالبة الطفل به في جميع مراحل تعليمه . والتربية

الأخلاقية لا غنى عنها ، وينبغي أن تبدأ في مرحلة مبكرة . وإذا كانت الطبيعة البشرية تحتوى بذرة الخير والشر كليهما ، فإن كل تقدم أخلاقى رهن باقتلاع الشر وغرس الخير ، ولا يكون هذا بالثواب والعقاب ، بل بالتشديد على مفهوم الواجب » .

والتعليم الذى تقوم به الدولة ليس أفضل من التعليم الذى تقوم به الكنيسة ، فالدولة ستسعى إلى تكوين المواطنين المطيعين اللينين المتعصبين لوطنهم . والأفضل ترك التعليم للمدارس الخاصة التى يرأسها معلمون مستثيرون ومواطنون مشربون بروح الخدمة العامة ^(٨٨) . لذلك أشاد كانط بمبادئ ومدارس يوهاك بازروف . وأسف على ما تتسم به مدارس الدولة وكتبها المدرسية من تحيز للقومية ، وتطلع إلى زمن تعالج فيه جميع الموضوعات بحيدة ونزاهة . وفى ١٧٨٤ نشر مقالا بعنوان « أفكار لتاريخ عام من وجهة نظر عالمية » : وقد أجمل المقال تقدم البشرية من الخرافة إلى التنوير ، ولم يفسح للدين إلا دوراً صغيراً ، وطالب بمؤرخين يرتفعون فوق التعصب القومى .

وقد أدفأ فؤاده بالإيمان بالتقدم ، الأخلاقى منه والفكرى ، كما أدفأ جماعة الفلاسفة أفئدتهم . ففي ١٧٩٣ وبخ موسى مندلسون على قوله أن كل تقدم يلغيه تفهقر . « فى الإمكان الاستشهاد بأدلة كثيرة على أن النوع الإنسانى بوجه عام ، لاسيما فى زماننا بالقياس إلى الأزمنة السابقة كلها ، قد سار خطوات لا يستهان بها نحو حياة أفضل من الناحية الأخلاقية . ولا ينقض هذا القول حالات التوقف المؤقتة . وصراخ القائلين بأن النوع الإنسانى ينحط باستمرار منشؤه بالضبط أن المرء حين يقف على درجة أعلى من الأخلاقية يمتد بصره إلى مدى أبعد أمامه فيكون حكمه على حالة الناس كما هم ، بالقياس إلى ما ينبغي أن يكونوا ، حتماً أشد صرامة » ^(٨٩) .

فلما بدأ كانط آخر عقد فى عمره (١٧٩٤) أصاب تفاؤله المبكر شىء من الإحلام . ربما بسبب الرجعية فى بروسيا وتحالف الدول على فرنسا . الثائرة . فانطوى على نفسه ، وكتب سراً ذلك الأثر الذى نشر بعد وفاته ، والذى قدر له أن يكون وصيته الأخيرة للنوع الإنسانى .

٧ — بعد الموت

كان في بدنه من أضال الرجال في جيله حجماً — لا يجاوز طوله خمسة أقدام إلا قليلاً ، يزيد قسراً تقوس إلى الأمام في عمره الفقرى . وكان يشكو ضعفاً في رثيته ، ووجعاً في معدته ، ولم يطل عمره إلا بفضل تغذية منتظمة معتدلة . ومما ينفق وطبيعته أنه وهو في السبعين كتب مقالا عنوانه « في قدرة العقل على التحكم في الشعور بالمرض بقوة العزيمة » . وكان يؤكد على حكمة التنفس من الأنف ؛ فالمرء يستطيع التغلب على الكثير من نزلات البرد ، وغيرها من العثرات بإقفال فيه ^(٩٠) . ومن ثم كان في مسيراته اليومية يمشى وحيداً تجنباً للحديث . ثم يمضى إلى فراشه بانتظام في العاشرة ، ويستيقظ في الخامسة ، ولم يستغرق في النوم إلى ما بعدها مرة على مدى ثلاثين عاماً (كما يؤكد لنا) ^(٩١) . وقد فكر في الزواج مرتين ، ثم أحجم مرتين . ولكنه لم يكن عزوفاً عن عشرة الناس ؛ فقد اعتاد أن يدعو ضيفاً أو ضيفين ، غالباً من تلاميذه ، دون أى امرأة قط — لمشاركته غداءه في الواحدة بعد الظهر . وكان أستاذاً للجغرافيا ، ولكن ندر أن تحرك خارج كونيغزبرج ، ولم يرقط جبلاً ، ولعله لم ير البحر قط على قربه منه ^(٩٢) . وقد شد من أزره طوال محنة الفقر والرقابة عزة نفس لم تلن لإظهارياً لأى سلطان غير سلطان عقله . وكان كريم النفس سمحاً ، ولكنه صارم في أحكامه ، يفقد روح الفكاهة الخلق بأن ينقذ الفلسفة من الغلو في الجدل . وكان حسه الأخلاقى أحياناً يبلغ من الرهافة حد التزمى الذى يسمى الظن بكل اللذات حتى تثبت أنها فاضلة .

ولقد بلغ من قلة اكترائه بالدين المنظم أنه لم يختلف إلى الكنيسة إلا إذا اقتضته ذلك واجباته الجامعية ^(٩٣) . ويبدو أنه لم يصل قط في حياته بعد الرشد ^(٩٤) . روى هررد أن تلاميذ كانط بنوا شكوكيتهم الدينية على تعليم كانط ^(٩٥) . وقد كتب كانط إلى مندلسون يقول « صحيح حقاً أننى أفكر بأوضح اقتناع ، وبغاية الرضى ، في أشياء كثيرة ليس لدى الشجاعة أبداً على قولها ، ولكنى لا أقول أبداً أى شىء لا أعتقد » ^(٩٦) .

وكان حتى آخر سني حياته يجاهد لتحسين عمله ، وفي ١٧٩٨ أخبر صديقاً : « إن العمل الذي أشغل به نفسي الآن يجب أن يتناول الانتقال من الأساس الميتافيزيقي للعلوم الطبيعية إلى الفيزياء . فلا بد من حل هذه المشكلة ، وإلا كان هنا فجوة في نسق الفلسفة النقدية » .^(٩٧) ولكنه في ذلك الخطاب وصف نفسه بأنه « قد عجز عن العمل الذهني » . ودخل حقبة طويلة من اضمحلال البدن ، والأوجاع المتراكمة ، وشعور الوحشة الذي يصاحب شيخوخة العزب . ووافته المنية في ١٢ فبراير ١٨٠٤ . ودفن في كتدرائية كونيجزبرج ، فيما يعرف الآن بـ « ستواكانطيانا » ، (مثوى كانط) ونقشت على قبره كلماته « السماء المرصعة بالنجوم من فوق ، والقاموس الأخلاقي في باطنى » .

وقد خلف عند موته خليطاً كبيراً من الكتابات نشرت على أنها « أثر منشور بعد وفاة مؤلفه » في ١٨٨٢ - ٨٤ . وفي إحداها وصف « الشيء - في ذاته » - الطبقة السفلية المجهولة من وراء الظواهر والأفكار - بأنه « ليس شيئاً حقيقياً ، . . . ولا حقيقة موجودة ، بل مجرد مبدأ . . . للمعرفة القبلية التركيبية للعيان - الحسى المتعدد »^(٩٨) . وقد سماه ... « أى شيئاً لا وجود له إلا في فكرنا » . وقد طبق هذه الارتيازية ذاتها على فكرة الله :

« ليس الله جوهرأ موجوداً خارجي ، بل مجرد علاقة أخلاقية في باطنى . . . والأمر المطلق لا يفترض جوهرأ يصدر أوامره من عل ، ويتصور إذن على أنه خارجي ، بل هو أمر أوني من عقلى أنا . . . والأمر المطلق يمثل الواجبات الإنسانية كأوامر إلهية لا بالمعنى التاريخي ، كأن (كائنات إلهية) قد أصدر أوامر للناس ، بل بمعنى أن العقل . . . له القدرة على الأمر بسلطة شخص إلهي وعلى هيئته . . . « وصورة كائن كهذا ، يجثو أمامه الجميع . . . الخ . تنبعث من الأمر المطلق ، وليس العكس . . . ان الكائن الأعلى . . . هو من خلق العقل ... لا جوهر خارج عني »^(٩٩) .

وهكذا انتهت الفلسفة الكانطية التي تشبثت بها المسيحية طويلا ، في ألمانيا ثم بعدها في انجلترا ، باعتبارها آخر وأفضل أمل للألوهية ، بتصور كتيب لله يراه خيالا نافعا نماه العقل البشرى ليفسر المطلقة الواضحة للأوامر الأخلاقية .

أما خلفاء كانط الذين كانوا يجهلون هذا الأثر الذي خلفه بعد موته ، فقد أشادوا به منقاد المسيحية ، والبطل الألماني الذي قتل فولتير ، وغلوا في تمجيد إنجازه غلوا غلب تأثيره على تأثير أى فليسوف من المحدثين . وتنبأ أحد تلاميذه وهو كارل رانپولت بأنه لن يمضى قرن حتى تنافس شهرة كانط شهرة المسيح ^(١١) . وقبل الألمان البروتستنت كلهم (باستثناء جوته) زعم كانط بأنه أحدث « ثورة كوبرنيقية » في علم النفس : فبدلا من أن يكون الفكر (الشمس) هو الذى يدور حول الشئ (الأرض) ، جعل الأشياء تدور حول الفكر ، ويعتمد عليه . وقد أراضى غرور الذات الإنسانية أن يقال لها إن أساليبها الفطرية في الإدراك الحسى هى المقومات المحددة لعالم الظواهر . وخلص فشته (حتى قبل وفاة كانط) إلى أن العالم الخارجى من خلق العقل ، واستهل شوبنهاور — الذى قبل تحليل كانط — بحثه الضخم « العالم كإرادة وفكرة » بهذا الإعلان « إن العالم فكرتى » — وهو إعلان أثار بعض الدهشة في مدام دستال .

واغتنب المثاليون لأن كانط كان قد جعل المادية مستحيلة منطقياً ببيانته أن العقل هو الحقيقة الوحيدة المعروفة لنا مباشرة . وسعد الصوفيون لأن كانط كان قد قصر العلم على الظواهر ، وأقصاه عن العالم النومينى والحقيقى حتماً ، وترك هذه المماكة الغامضة (التى أنكر في دخيلة نفسه وجودها) متزهاً خاصاً للاهوتيين والفلاسفة . أما الميتافيزيقا ، التى كان جعاعة « الفلاسفة » الفرنسيين قد أقصوها عن الفلسفة ، فقد رد لها اعتبارها حكماً للعلوم كلها ، وأقر جان بول لاشتيير لألمانيا بسيادة الهواء ، بعد أن أقر لبريطانيا بسيادة البحر ، ولفرنسا بسيادة اليابس . وبني فشته وشيلنج وهيجل القلاع الميتافيزيقية على مثالية كانط الترانسندنتالية ، وحتى راقعة شوبنهاور اتخذت نقطة انطلاقها

من تشديد كانط على أولوية الإرادة . قال شيلر « انظر كيف هيأ غنى واحد أسباب الرزق لمجموعة من المتسولين » (١١١) .

كذلك أحس الأدب الألماني هو أيضاً تأثير كانط سريعاً ، لأن فلسفة عصر تكون على الأرجح أدب العصر الذي يليه . ففرق شيلر برهة في مؤلفات كانط ، وكتب خطاباً ملؤه الإجلال للمؤلف ، وبلغ في مقالاته النظرية غموضاً يقرب من الغموض الكانطي . وأصبح الإبهام واللبس موضحة فاشية في الكتابة الألمانية ، وشعار نبالة يشهد بعضوية حامله في تلك الطائفة العتيقة ، طائفة نسايجي خيوط العناكب . قال جوته « إن التأمل الفلسفي ، على العموم ، أذى للألمان ، لأن من شأنه أن يجعل أسلوبهم غامضاً عسراً مهماً . وكلما قوى تعلقهم بمدارس فلسفية بعينها ازدادت كتابتهم سوءاً » (١١٢) .

ويتردد المرء في اعتبار كانط كاتباً رومانتيكياً ، ولكن الفقرات الأدبية الغائمة التي كتبها في الجمال والجلال غدت من الينابيع التي انبثقت منها الحركة الرومانتيكية . ولقد انبعثت محاضرات شيلر في بينا « ورسائله في تربية الإنسان الاستطيقية » (١٧٩٥) - وهي معالم على طريق تلك الحركة - من دراسته كتاب كانط « نقد الحكم » . وقد هيأ التفسير الذاتي النزعة لنظرية كانط في المعرفة أساساً فلسفياً لمذهب الفردية الرومانتيكية الذي نشر لواءه مزهواً في حركة « شتورم » (الزوبعية) . وعبر تأثير كانط الأدبي إلى إنجلترا ، فتأثر به كولبردج وكارليل ، ثم عبر إلى إنجلترا الجديدة ، وأعطى اسماً لحركة إمرسن وثورو - ترانسندنتالية (١١٣) . لقد هز أستاذ الجغرافيا القصير القامة المحدودب الظهر العالم وهو يطلأ أرض « متنزه الفيلسوف » في كونيجزبرج . وما من شك في أنه قدم للفلسفة وعلم النفس أشق ما عرفه التاريخ إلى الآن من تحليل لعملية المعرفة .

الفصل الثاني والعشرون

الطرق إلى فايمار

١٧٣٣ - ٨٧

١ - أثينة ألمانيا

ترى لم أختار اسمي عصور الأدب الألماني فايمار دون غيرها وطناً له ؟
ان ألمانيا لم يكن لها عاصمة واحدة تركز فيها ثقافتها كما كانت الحال في
فرنسا وإنجلترا ، ولم تكن تملك ثروة مركزية لتمويل هذه الثقافة . وكانت حرب
السنين السبع قد أضعفت برلين وليبيزج ، أما درسدن فكادت تدمرها
تدميراً ، وأما همبرج فقد بذلت مالها أولاً للأوبرا ، ثم للمسرح . وفي
١٧٧٤ كانت فايمار ، عاصمة دوقية ساكسي - فايمار - آيزيناخ ، بلدة
هادئة يسكنها نحو ٦,٢٠٠ نسمة ، وحتى بعد أن ذاع صيتها أشار إليها
جوته بـ « هذه العاصمة الصغيرة التي تضم - كما يقول الناس على سبيل
المزاح عشرة آلاف شاعر وبعض السكان » ^(١) فهل مجدها يا ترى بناه
افراد عظام ؟ .

لقد حكمت فايمار من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٥ ابنة أخت فردريك الأكبر ،
وهي المرأة المرحمة ، الدوقة الأرملة آنا أماليه ، التي تزلت وهي في الثامنة
عشرة بموت زوجها الدوق قسطنطين ، وأصبحت وصية على والدهما كارل
أوجست الذي لم يتجاوز العام الواحد . وإليها يرجع الفضل في فتح باب بين
الحكومة والأدب بدعوتها فيلاند للحضور والقيام على تهذيب أبنائها (١٧٧٢) .
وكانت واحدة من نساء عديدات مثقفات حفزن الشعراء والمسرحيين

والمؤرخين تحت قيادتها وحتى موتها في ١٨٠٧ بإغراء الجنس والمديح ، وقد حولت بيتها بعد عام ١٧٧٦ صالوناً ، شعجعت فيه استعمال الألمانية لغة للأدب — رغم أن الجميع كانوا يتكلمون الفرنسية أيضاً .

وفي ١٧٧٥ كان بلاط فايمار يضم نحو اثني عشر شخصاً واتباعهم . وقد وجد الشاعر الكونت كرسنيان تسوشتولبرج في هذا البلاط جوّاً ساراً خالية من الكلفة في ذلك العام الذي وصل فيه جوته . يقول « إن الدوقة العجوز (وكانت يومها في السادسة والثلاثين) هي الفطنة المجسمة ، وهي مع ذلك لطيفة وطبيعية جداً . أما الدوق فغلام عجيب ، كله وعد وتبشير ، وكذلك أخوه . ثم هناك الكثير من الأشخاص الممتازين » .^(٢) وفي ١٧٨٧ وصف شيلر « نبيلات فايمار » بأنهن « شدييدات الحساسية وقل أن تجد بينهما واحدة لم تخض تجربة غرام ، وجميعهن يحاولن غزو القلوب . . . فهنا حكرمة هادئة لا تكاد تحس بها ، تسمح لكل إنسان بأن يحيا ، وأن يصطلي في الهواء والشمس . وإذا كان بالمرء ميل إلى المرح فكل الفرص متاحة له »^(٣) .

وتقلد كارل أوجست حكم الدوقية في ٣ سبتمبر ١٧٧٥ حين بلغ الثامنة عشرة . وما لبث أن اتخذ له زوجة بعد أن أجرى معاشاً على خليلته^(٤) ، والزوجة هي لويزه أميرة هسي — دارمشتات ، ثم اقتنص جوته في الطريق ، وكان يمارس الصيد في ضراوة ، ويسوق مركبته في تهور مخترقاً شوارع المدينة الهادئة ، وينتقل على عجل بين النساء ؛ ولكن تهوره كبه عقل نصج يبطء حتى بلغ القدرة على الحكم الصائب . وقد درس الزراعة والصناعة وبسط رعايته عليهما ، وشجع العلوم ، وأعان الأدب ، وجاهد لخير إمارته وشعبها . واستمع إلى مدام دستال التي جابت ألمانيا في ١٨٠٣ تقول : « ليس بين الإمارات الألمانية كلها إمارة تشعرنا أكثر من فايمار بمزايا الدولة حتى يكون أميرها رجلاً قوى الفهم قادراً على السعى لإسعاد جميع طبقات رعاياه دون أن يفقد شيئاً من طاعتهم . . . ومواهب الدوق الحربية يحترمها الجميع ، وحديثه المثير المشرب بالتفكير يذكرنا على الدوام بأنه ربيب فردريك

العظيم . ولسمعته وسمعة أمه الفضل في اجتذاب ألمع رجال العلم والثقافة إلى فايمار . ولأول مرة أصبح لألمانيا حاضرة أدبية كبرى»^(٥) .

٢ — فيلاند : ١٧٣٣ — ١٧٧٥

كرستوف مارتن فيلاند هو أقل الرجال الأربعة ، الذين أذاعوا صيت فايمار ، شهرة بين الناس ، ولكن لعله كان أجدرهم بالحب . وقد عزفت على قيثارته كل مؤثرات جيله تقريباً ووفقت نغماتها كل بدوره . كان ابناً لراعي كنيسة في أوبرهولتسهايم (قرب بيمراخ في فورتمبرج) فنشئ على التقوى واللاهوت . فلما اكتشف الشعر جعل الرجل الفاضل كلوبشتوك مثله الأعلى ، ثم تحول إلى فولتير ترفهاً عن نفسه . ثم وجد في بلدة فارتهاوزن القريبة منه مكتبة الكونت فون شتاديون الضخمة ، فنهل من الأدبين الفرنسي والانجليزى ، ونفض عنه قدراً كبيراً من اللاهوت ، حتى لقد هزأ بإيمان صباه في رواية سماها « دون سلفيو فون روزالفا » (١٧٦٤) . ونشر مترجمات نثرية لعشرين من مسرحيات شكسبير (١٧٦٢ — ٦٦) ، فأتاح بذلك لألمانيا لأول مرة نظرة إلى شكسبير ككل ، ويسر لكتاب التمثيليات الألمان مهرباً من الصيغة الكلاسيكية التي اتخذتها الدراما الفرنسية . وكان فنكللمان وآخرون أثناء ذلك يبشرون بالدعوة بالهيلينية ، وصاغ فيلاند لنفسه صورته الخاصة من هذه الدعوة فاتخذ نغمه أبيقورية خفيفه في كتابه « قصص هزلية » (١٧٦٥) ، وجعل رجلاً اغريقياً وهماً البطل لأهم عمل نثرى ألفه وهو « تاريخ أجاثون » (١٧٦٦ — ٦٧) ، الذى وصفه ليسنج بأنه « الرواية الوحيدة اللائقة بالرجال المفكرين »^(٦) .

وقد أراد فيلاند (البالغ ثلاثة وثلاثين عاماً) في صفحاتها المطووفة أن يبسط فلسفته في الحياة ، متمثلة في المغامرات الجسدية والعقلية لرجل أثينى من عصر بركليس . قال في المقدمة « لقد اقتضت خططنا تصوير بطلنا وهو يجتاز شتى المحن » ، وهى محن من شأنها أن تربي الإنسان على الأمانة والحكمة دون الالتجاء إلى الحوافز أو الدعائم الدينية^(٧) . وأجاثون (أى الطبيب) ،

(م ١٦ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

الشاب الوسيم ، يقاوم محاولة إحدى كاهنات دافى لإغوائه ، وبدلاً من ذلك يشعر نحو العذراء الساذجة « بسوخى » (النفس) بحب نقي وإن كان مشوباً . ويدخل عالم السياسة ، فيشتمز من تعصب الأحزاب ، ويندد بالناخبين لافتقارهم إلى المبدأ ، ثم ينفي من أثينا. وفيما هو يهيم في جبال اليونان يقع على لفيف من النسوة التراقيات يحتفان بعيد باخوس برقصات شهوانية عنيفة ؛ فيحسبنه باخوس ، ويكدن يخنقنه بعناقهن ، ثم تنقذه عصابة من القراصنة ، تبيعه عبداً في أزمير لهيباس ، وهو أحد سوفسطائي القرن الخامس ق . م . ويشرخ فيلاند فلسفة السوفسطائيين في سخط فيقول :

« ان الحكمة التي جعل منها السوفسطائيون مهنة لهم كانت من حيث الكيف كما كانت من حيث الأثر النقيض للحكمة التي جهر بها سقراط . فالسوفسطائيون علموا فن إثارة أهواء الرجال (بالخطابة) ؛ بينما غرس سقراط فن سيطرة الإنسان على أهوائه . وقد بينوا كيف يظهر الإنسان أمام الناس حكيماً فاضلاً ، أما هو فقد بين كيف يكون الإنسان كذلك . وهم شجعوا شباب أثينا على محاولة السيطرة على الدولة ، أما هو فبين لهم أنهم سينفقون نصف عمرهم ليتعلموا كيف يحكمون ذواتهم . وكانت فلسفة سقراط تفخر بالحياة مجردة من الغنى ، أما فلسفة السوفسطائيين فكانت تعرف كيف تحقق الغنى . كانت كيسة ، خلا به ، متقلبة ، مجدت العظماء . . . وعشت بالنساء ، وتملقت كل شخص ينقدها ثمن التماق . كانت في كل مكان لاثمسة الغربية ، لها الخطوة في البلاط ، وفي مخادع النساء ، ومع الطبقة الارستقراطية ، وحتى مع طبقة الكهان ، في حين أن تعاليم سقراط . . . يحكم عليها الفضوليون بأنها عدمة النفع ، والمتبطلون بأنها عديمة المذاق ، والأتقياء بأنها خطيرة . » (٨)

وتتشبه في هيلاس كما يصوره فيلاند كل أفكار السوفسطائيين ورذائلهم . فهو فيلسوف ، ولكنه حرص على أن يكون مليونيراً أيضاً . وهو يعزم

أن ينشئ أجاثون المستقيم الخلق على أسلوب أبيقورى فى التفكير والعيش .
ويزعم أن أحكم سياسة ينتهجها الإنسان أن يجرى وراء الأحاسيس اللذيذة ،
و « كل اللذات هى فى حقيقتها حسية » ^(٩) . وهو يضحك من أولئك الذين
يحمون أنفسهم من لذات هذه الحياة الدنيا أملاً فى مباحج السماء التى قد
لا تتحقق أبداً . « فمن ذا الذى رأى مرة أولئك الأرباب ، وتلك المخلوقات
الروحية ، التى يؤكد (الدين) وجودها ؟ » فهذا كله حيلة يخادعنا بها
الكهنة ^(١٠) . ويدين أجاثون هذه الفلسفة لأنها تتجاهل العنصر الروحي
فى الإنسان وحاجات النظام الاجتماعى . ويقدمه هيباس إلى دانائى المرأة
الغنية الجميلة ، ويشجعها على اغوائه ، ويخفى عنه ماضى دانائى حين كانت
محظية . وترقص المرأة وتحمل أجاثون رشاقة جسدها مع سحر حديثها
وموسيقى صوتها على أن يقدم لها حبه الخالص الطاهر . وتفسد دانائى على هيباس
مؤامرتة إذ ترد حب أجاثون بمثله . ذلك أنها بعد أن تقلبت فى أحضان
رجال كثيرين تجد تجربة وسعادة جديدتين فى حب أجاثون . وهى تتطلع
إلى أن تبدأ مع أجاثون حياة جديدة أكثر طهراً بعد أن سئمت غرامياتها
العديمة العاطفة . فتشترى من هيباس ، وتعتهق ، وتدعوه لمقاسمتها ثروتها ،
ولكن هيباس يباح لأجاثون بماضى دانائى وهى محظية انتقاماً منها . فيركب
أجاثون البحر إلى سيراكيوز .

وهناك يكتسب سمعة طيبة بالحكمة والنزاهة ، فيصبح الوزير الأول
للكناتور ديونيسيوس . وقد تخلّى الآن عن بعض مثاليته :

« فلم يعد يحلم كما كان بتلك المثاليات الرفيعة عن طبيعة البشر . أو قل
لأنه انتهى إلى معرفة البون الشاسع بين الإنسان الميتافيزيقى ، الذى يفكر فيه
المرء أو يحلم به فى خلوته المتأملّة ، أو الإنسان الفطرى وهو خارج لتوه فى
بساطته الفجة من يدى الطبيعة الأم ، وبين الإنسان الزائف الذى جعله
المجتمع والقوانين والآراء والحاجات والتبعية والصراع المتصل بين رغباته
وظروفه ، وبين مصلحته ومصلحة غيره ، وما يترتب على ذلك من
ضرورة إخفاء مقاصده الحقيقية وسترها باستمرار — أقول إن هذا كله

جعل الإنسان كاذباً ، منحطاً ، مشوهاً ، متكرراً وراء مئات الصور الخداعة وغير الطبيعية . ولم يعد ذلك المتحمس ، الفتي الذى كان يخيل له أن تنفيذ مشروع عظيم سهل يسير كتصوره . وقد تعلم أن على المرء ألا يتوقع الكثير من الآخرين ، وألا يعتمد كثيراً على تعاونهم معه ، (أهم من ذلك كله) ألا يثق كثيراً بنفسه . . . وتعلم أن أكثر الخطط كمالاتها فى الغالب أسوأها (وأنه) لا شيء فى العالم الأخلاقى ، كما فى العالم المادى ، يتحرك فى خط مستقيم ، وبالاختصار أن الحياة أشبه برحلة بحرية يتعين فيها على الربان أن يكيف مسيره وفق هوى الريح والجو ، ولا يطمئن أبداً إلى أن التيارات المعاكسة لن تعطله أو تجنح بمركبه ، وأن كل شيء رهن بهذا : وهو أن يضع نصب عينيه ميناء الوصول الذى يقصده رغم مئات الانحرافات عن الطريق» (١١) .

ويخلص أجاثون الخدمة لسيراكيوز وينجز بعض الإصلاحات ، ولكن مؤامرة فى القصر تخلعه ، فيعتزل فى تارنتوم . وهناك يرحب به صديق قديم لآبيه هو الفيلسوف والعالم الفيشاغورى أرخيتاس (ازدهر ٤٠١ — ٣٦٥ ق . م) الذى يحقق حلم أفلاطون بالملك الفيلسوف . وهناك يعثر على حبيبة صباه بسونخى ، ولكنها الأسف متزوجة من ابن أرخيتاس ، ثم يتبين أنها أخت أجاثون . على أن دانائى يؤقن بها (بعض الروايات السحرية) من أزمير إلى تارنتوم ، وقد هجرت عاداتها الأبيقورية لتحيا حياة العفة والبساطة . ويطلب إليها أجاثون أن تغفر له بعد أن أدرك أنه أثم بهجرانه أياها ، فتعانقه ، ولكنها ترفض الزواج منه ، فقد عولت على التكفير عن انحرافات الماضى بحياة الزهد والتعفف فى ما بقى لها من أجل . وتختتم القصة بأجاثون قانعاً قناعة لا تصدق بأن يعد المرأتين أختين له ٥

والكتاب تشوبه عشرات المآخذ . فبناؤه مفكك ، ومصادفاته ذرائع كسولة للتهرب من الصنعة الروائية ؛ وأسلوبه لطيف ولكنه شديد الاطناب ؛ وفى كثير من الفقرات يبتعد الفاعل عن الفعل حتى ينسى ؛ وقد هنا أحد النقاد المؤلف بعيد ميلاده بأن تمنى له حياة طويلة طول جملة . ولكن «تاريخ

أجاثون» برغم هذا يعد من أعظم آثار عصر فردريك . وقد دلت استنتاجاته على أن فيلاند قد اصطليح مع الدنيا ، وأن في الاستطاعة الآن أن يوكل إليه تعليم الشباب المندفع المتوتر وترويضه . فعين في ١٧٦٩ أستاذاً للفلسفة في إيرفورت . ومنها أصدر بعد ثلاث سنين « المرأة الذهبية » وهو كتاب بسط فيه آراءه في التربية . وأفتنت به آنا آماليا ، فدعته ليحرب نظرياته التربوية مع أبنائها . فذهب ، وأنفق ما بقي من عمره في فايمار ، وفي ١٧٧٣ أنشأ مجلة (الرائد الألماني) ، التي ظلت جيلا (١٧٧٣ - ٨٩) تحت قيادته أعظم المجلات الأدبية نفوذاً في ألمانيا . وكان النجم الفكري لفايمار حتى أتى جوته ، وحين اقتحم الكاتب الشاب الجريء المدينة في ١٧٧٥ ، رحب به فيلاند دون شعور بالغيرة . وسيظل صديقه مدى ست وثلاثين سنة .

٣ — جوته بروميشيوس : ١٧٤٩ - ٧٥

١ — نشأته

تقلبت على يوهان فولفجانج فون جوته شتى التجارب منذ كان يوجب شوارع فرانكفورت — على — المين وهو واع بأنه حفيد عمدتها ، حتى سبعينياته التي كان لأحاديثه العارضة فيها الفضل في إذاعة اسم كاتب سيرته إكرمان (كما أذاع جونسون اسم بوزويل) ، واستوعب كل ما وسع الحياة والحب والرسائل ان تمنحه ، راداً إياه — في عرفان — حكمة وفنا .

وكانت فرانكفورت « مدينة حرة » ، يسودها التجار والأسواق ، ولكنها إلى ذلك المقر الذي خصصه الأباطرة لتتويج الملوك الألمان وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة . وفي ١٧٤٩ كان يسكنها ٣٣,٠٠٠ نسمة جلهم تقي مذهب بشوش الوجه . وكان مولد جوته في منزل متين ذي طوابق أربعة (دمره حريق في ١٩٤٤ ثم أعيد بناؤه في ١٩٥١) . وكان أبوه يوهان كاسبار جوته ابن خياط وفندقى ميسور الحال ، وقد دمر يوهان كاسبار مستقبله السياسى بالكبر والخيلاء ، واعتزل مهنة المحاماة مؤثراً حياة الدراسة الهاوية في مكتبته

الأنيقة . وفي ١٧٤٨ تزوج كاتارينا اليزابث ، ابنة يوهان فولفجانج تكستور عمدة فرانكفورت . ولم ينس ابنها قط أنه عن طريقها ينتسب إلى الإشراف من غير حملة الألقاب ، الذين حكموا المدينة أجيالا قبل ذلك . قال لأكرمان وهو في الثامنة والسبعين ، « نحن أشراف فرانكفورت كنا نعد أنفسنا دائما مساوين لطبقة النبلاء ؛ وحين احتوت يداي لإجازة النبالة (التي منحت له عام ١٧٨٢) لم أر أني ظفرت بشيء أكثر مما كنت أملك منذ زمن طويل » . (١٢) وكان يحس أن « الأوغاد فقط هم المتواضعون » (١٣) .

وكان أكبر أطفال ستة ، لم يتجاوز الطفولة منهم غيره هو وأخته كورنيليا ؛ في تلك الأيام كان الحنان الأبوى الكبير يعد عناء باطلا . ولم يكن بيتهم بالبيت السعيد ؛ فالأم لطيفة الطبع تميل إلى الفكاهة والشعر ، ولكن الأب حاكم صارم منزمت أقصى عنه قلوب أطفاله بخشونة طبعه وضيق خلقه . يقول جوته مستعيداً ذكرى طفولته « لم يكن في الإمكان نمو علاقته سارة مع أبي » (١٤) . وربما اكتسب جوته منه كما اكتسب من تجربته عضواً في مجلس شورى الدوق بعض التصلب الذي بدا عليه في أنحرى حياته . وربما أخذ عن أمه روحه الشاعرة وحبه للدراما . وقد بنت في بيتها مسرحاً للعرائس ؛ ولم يفق ابنها قط من افتتاحه بهذا المسرح .

وتلقى الأطفال تعليمهم المبكر على يد أبيهم ، ثم من معلمين خصوصيين . واكتسب فولفجانج الإلمام بقراءة اللاتينية واليونانية والانجليزية وبعض العبرية ، والقدرة على التحدث بالفرنسية والإيطالية . وتعلم أن يعزف على الهاربسيكورد والفيولنشيلا ، ويرسم ويصور بالألوان ، ويركب الخيل ويثاقف ويرقص ، ولكنه اتخذ الحياة خير معلم له . فارتاد كل نواحي فرانكفورت بما فيها حي اليهود ؛ وسدد النظرات الغرامية للفتيات اليهوديات الحسان ، وزار مدرسة يهودية ، وحضر حفلة ختان ، وكون لنفسه فكرة عن أيام اليهود المقدسة (١٥) . وأضافت إلى تعليمه أسواق فرانكفورت إذ جلبت إلى المدينة وجوهاً وسلعاً غريبة دخيلة ، وكذلك أضاف الضباط الفرنسيون في بيت جوته إبان حرب السنين السبع . وفي ١٧٦٤ شهد الصبي ذو الخمسة

عشر ربيعاً تتويج يوزف الثانى ملكاً على الرومان ؛ وقد حفظ كل صغيرة وكبيرة فى الحفل ، وانفق عشرين صفحة على وصفه فى سيرته الذاتية^(١٦) .

وحين ناهز الرابعة عشرة وقع فى أول غرام من غرامياته الكثيرة التى أثمرت نصف شعره . وكان فى تلك الآونة قد اشتهر ببراعته فى قرض الشعر ، فطلب إليه بعض الصبية ممن اختلط بهم أحياناً أن يكتب خطاباً منظوماً بأسلوب فتاه موجهاً إلى فتى ؛ فأحسن كتابته ، مما حملهم على أن يرتبوا تسليمه لعضو مقيم من جماعتهم على أنه مرسل إليه من حبيبته . وأراد الصبى أن يرد على الشعر بالشعر ولكن أعوزته الكفاية وخانته القوافى ، فطلب إلى جوته أن ينظم له رداً . فوافق ، وعرفاناً بحميله دفع العاشق نفقات نزهة خرجت فيها الجماعة إلى فندق فى إحدى ضواحي المدينة . وكانت الخادمة صبية مراهقة تدعى مرجريته — أو جرتشن اختصاراً ، وقد أطلق جوته اسمها على بطة تمثيليته « فاوست » . وربما هيأته القصص الغرامية التى قرأها ، والرسائل التى كتبها ، لتدوق سحر الأنوثة فى الصبايا . كتب وهو فى السنين يقول « إن أول نوازع الحب فى شاب غشيم يتجه اتجاه روحياً بحثاً . ويبدو أن الطبيعة ترغب فى أن يدرك أحد الجنسين بحواسه الجمال والطيبة فى الجنس الآخر . وهكذا تكشف لى عالم جديد من الجميل والرائع بمرأى هذه الفتاه وبمبلى الشديدها »^(١٧) . ولم يفقد ذلك العالم بعدها قط ؛ فكانت المرأة بعد المرأة تحرك روحه الحساسة ، وتحركها غالباً بالتبجيل كما تحركها بالرغبة ؛ فحين كان فى الثالثة والسبعين وقع فى غرام فتاه فى السابعة عشرة .

وغلبه الارتباك لحظة وأعجزه عن التحدث إلى ساحرته . « ذهبت إلى الكنيسة مدفوعاً بحبى لها . . . ورحت خلال الخدمة البروتستنتية الطويلة أحقد فيها بملء عيني »^(١٨) . ثم رآها ثانية فى فندقها جالسة فى المغزل . كما جلست جرتشن أخرى فى فاوست . واتخذت هى الخطوة الأولى الآن ، ووقعت فى ابتهاج الخطاب الغرامى الثانى الذى اصطنعه كأنه مرسل من فتاة . ثم قبض على واحد من الجماعة كان جوته قد أوصى جده به ، وهو يزييف سندات ووصايا ؛ فنهى فولفجانج أبواه عن مزيد من الاتصال بهؤلاء

الصبيبة ، ورحلت جرتشن إلى مدينة بعيدة ، ولم يرها جوته بعدها قط . وقد تضايق كثيراً حين علم أنها قالت « كنت أعامله دائماً على أنه طفل » (١٩) .

وكان الآن (١٧٦٥) راضياً تمام الرضى بالرحيل عن فرانكفورت ودراسة القانون في جامعة ليبزج ، وراح ككل شاب طلعة يقرأ قراءات واسعة خارج الموضوعات المقررة لدراسته . وكان قد تصفح « قاموس بيل التاريخي النقدي » في مكتبة أبيه ، وخرج منه بأذى كبير لإيمانه الديني ؛ « ما إن وصلت إلى ليبزج حتى حاولت أن أنحرر كلية من صلتى بالكنيسة » (٢٠) . ثم أنفق فترة في التنقيب في الغيبيات والخيمياء وحتى السحر ، وهذا أيضاً دخل في مسرحية « فاوسمت » . ثم جرب الحفر وصنع الرواسم من الخشب ، ودرس مجموعة الصور المعروضة في درسدن ؛ وتكررت زيارته للمصور أويزر في ليبزج . وقد ألم بكتابات فنكلمان بطرية أويزر ، وعن هذه الكتابات وكتاب ليسنج « اللاوكون » تلقى أولى نفحات إجلاله للطراز الكلاسيكي ، وكان هو وطلاب آخرون يعدون استقبالا حاراً لفنكلمان في ليبزج حين وافاهم نبأ مصرعه في تريست (١٧٦٨) .

وكان الإحساس بالجمال هو الغالب في مدخله إلى العالم . ففي الدين لم يحب غير أسرار المقدسة ، المثيرة ، الغنية بالألوان . ولم يحب الفلسفة كما كتبها الفلاسفة ، باستثناء سبينوزا ؛ وكان يرتعد من المنطق ويهرب من كانط . وقد أحب الدراما ، وكتب مسرحية لا قيمة لها في ليبزج ، ودأب على قرض الشعر كل يوم تقريباً ، حتى وهو يستمع إلى محاضرات القانون ، والقصائد التي نشرها باسم « أغاني ليبزج » مكتوبة بأسلوب أناكريون ، فيها عبث ولهو ، وأحياناً إثارة وشبق :

ومع ذلك فأنا قانع تملؤني الفرحة
إن هي جادت فقط ببسمتها الحلوة ،
أو إن استعملت وهي على المائدة
قدمي حبيبها وسادة لقدميها ؛

أو أعطني التفاحة التي قضمتها ،
أو الكأس التي شربت منها ،
وكشفت عن ثديها المكشون
حين تنشُد ذلك قبلي (٢١) .

أكانت هذه مجرد منى ؟ لا فيما يبدو . ذلك أنه كان قد وجد في ليزج رأساً جميلاً — رأس آنتيت شونكريف — راغباً في أن يلج على الأقل الدهليز إلى الحب . وكانت أبنه تاجر خمور يقدم وجبة الظهر للطلاب . وكان جوته يتناول طعامه هناك مراراً فاشتهاها . واستجابت لحرارة عاطفته بتحفظ حكيم ، وسمحت لرجال آخرين بأن يتقربوا منها ، فبدأ يغار ، وأخذ يتجسس عليها ؛ وتشاجرا ثم تصالحا ، وتشاجرا وتصالحا ، ثم تشاجرا وافترقا . ولقد ذكر نفسه حتى في هذه النشوات أنه حفيد عمدة ، وأن باطنه قرينا — هو حافز ودافع الجنى — هم يطالب بالحرية في سبيل الاكتمال التام إلى مصيره المحتوم . وقبلت آنتيت خطيباً غيره .

ورأى جوته في هذا هزيمة له ، وحاول نسيانها بالانغماس في اللذات . « لقد فقدتها حقاً وكان للجنون الذي انتقمته به لخطئي من نفسي بالعدوان على طبيعتي الجسدية بشتى الطرق المسعورة ، لألحق بعض الأذى بطبيعتي الخلقية — أقول كان له ضلع كبير جداً في إصابتي بالأمراض البدنية التي خسرت بسببها بعضاً من أفضل سنى عمري » . (٢٢) واستسلم للاكتئاب ، وأصابه عسر هضم عصبي ، وابتلى بورم مؤلم في عنقه ، واستيقظ ذات ليلة على نزيف كاد يقضى عليه . وغادر ليزج دون أن يظفر بدرجة الجامعة ، وقفل إلى فرانكفورت (سبتمبر ١٧٦٨) ليواجه تأنيب الأب ومحبة الأم .

ثم تعرف أثناء فترة نقاهته الطويلة إلى سوزانه فون كلتنبرج ، وكانت تقوية مورافية ، لطيفة ، عذبة . « كان صفاؤها وهذؤ عقلها لا يرحانها قط ، وكانت تنظر إلى مرضها نظرتها إلى عنصر ضروري في وجودها الأرضي

العاير» (٢٣) . وقد وصفها بعد سنين وصفاً فيه تعاطف وبراعة في « اعترافات روح جميلة » . التي أدخلها في كتابه « ولكنه سجل في غير مبالاة مزاعمها من أن قلقه واكتتابه سببهما اخفاقه في المصالحة مع الله . » كنت أعتقد منذ حدثني إنني على علاقة طيبة جداً مع إلهي — لا بل انني تخيلت . . . انه قد يكون مديناً لي بدين لم يوفه بعد ، لأنني كنت من الجرأة بحيث رأيت أن عليه لي مأخذاً يقتضى أن أغتفره له . وكان هذا الغرور قائماً على حسن نيتي الذي لا حد له ، وهو ما كان خليقاً بإلهي أن يعينني عليه معونة أفضل كما بدا لي . وللقارئ أن يتصور كم من المرات دخلت في منازعات مع أصدقائي حول هذا الموضوع ، ولكنها كانت تنتهي دائماً بغاية المودة والصفاء » (٢٤) .

ومع ذلك مرت به لحظات متفرقة من التقوى ، إلى حد الاختلاف إلى بعض جلسات الإخوان الموارفين ، ولكن نفره من هؤلاء القوم البسطاء (٢٥) ، « ضعف ذكائهم » ، وسرعان ما ارتد إلى الجمع المتقطع بين الإيمان بوحدة الوجود والشك العقلاني .

وفي أبريل ١٧٧٠ رحل إلى ستراسبورج أملاً في نيل درجته القانونية . ووصفه زميل من الطلاب (وهو في الحادية والعشرين) بأنه « فتى وسيم الوجه ، له جبين رائع وعينان واسعتان متقدتان » ولكنه أردف « ان التعامل مع هذا الشاب لن يكون أمراً يسيراً ، إذ يبدو أن له طبعاً جموحاً غير مستقر » (٢٦) . وربما كان مرضه الطويل سبباً في إثارة أعصابه ؛ وكان « قرينه » أشد اقلاقاً له من أن ينيله الهدوء والاستقرار ، ولكن أى شاب تسرى النار في دمه يستطيع أن ينعم بالهدوء ؟ وحين وقف أمام الكتدرائية الكبرى حياها بشعور الوطنية ، لا بوصفها كاثوليكية بل « معماراً ألمانياً ، معمارنا ، فالإيطاليون لا يستطيعون المفاخرة بشيء نظيرها ، وأقل منهم الفرنسيون » (٢٧) (ولم يكن قد رأى بعد إيطاليا ولا فرنسا) . « وصعدت وحيداً إلى أعلى قمة في البرج . . . وغامرت من هذا العلو بأن أخطو إلى الخارج على افريز لا يكاد يبلغ ياردة مربعة . وقد أوقعت هذا الرعب

والعذاب على نفسى مراراً وتكراراً حتى أصبحت التجربة فى نظرى أمراً غير ذى بال » . (٢٨) وقد لاحظ أحد أساتذته أن « الهرجوته كان يسلك بأسلوب جعل الناس ينظرون إليه نظرهم إلى دعى كاذب من أدياء العلم ، وخصم مسعور لكل تعلم دينى . والرأى الذى أجمع عليه الكل تقريباً أن فى رأسه برجاً ناقصاً » (٢٩) .

وعملت التجارب الجديدة الكثيرة على تأجيح ناره . فقد التقى بهرد مراراً خلال إقامته فى ستراسبورج . وكان هرذر الذى يكبره بخمس سنوات ، هو الطرف المسيطر فى هذه اللقاءات ؛ وقد وصف جوته نفسه ، فى نوبة تواضع عارضة ، بأنه « كوكب » يدور حول شمس هرذر . وأزعجته نزعة هرذر الدكتاتورية ، ولكنه حفزه إلى قراءة الأغاني الشعبية القديمة ، وكتاب مكفرسن « أوسيان » ومسرحيات شكسبير (فى ترجمة فيلاند) . ولكنه قرأ أيضاً فولتير وروسو وديدرو ثم درس مقررات فى الكيمياء والتشريح والولادة ، فضلاً عن مواصلة دراسة القانون . . . ثم انه واصل دراسته للنساء .

ذلك انه شعر بفتنتهن بكل ما فى الشاعر من حساسية مرهفة ، وكل ما فى الشباب من توهج كهربى . وبعد هذه الحقبة بسبعة وأربعين عاماً أخبر إكرمان بأنه يعتقد أن للأشخاص تأثيراً مغنطيسياً غامضاً على غيرهم ، وأكثره عن طريق تباين الجنس (٣٠) . فكانت تحركه خطرات الفتيات الخفيفة الرشيقة ، وموسيقى أصواتهن وضحكهن ، ولون أثوابهن وحفيفها ؛ وكان يحسد الزهرة التى كن أحياناً يزين بها مشدهن أو شعرهن على التصاقها بهن . وكانت الواحدة تلو الأخرى من هذه المخلوقات السحرية تستنفردمه ، وتكبر فى خياله ، وتحرك قلمه . لقد أحب من قبل جرتشن وآنيت ، وعما قليل سيكون هناك لوته وللى وشارلوته ، ثم منا وأولريكه . أما الآن ، فى زيزنهايم (قرب ستراسبورج) ، فكانت افتمن قاطبة — فردريكه بريون .

كانت الابنة الصغرى (تسعة عشر ربيعاً فى ١٧٧١) لراعى كنيسة

المدينة ، الذى شبه جوته بقسيس ويكفيلد الفاضل الذى روى جولدمسنت قصته . والصفحات التى كتبها جوته عن فردريكه فى سيرته الذاتية هى أروع ما كتب فى حياته من نثر (٣١) . وكان يركب مراراً من ستراسبورج ليستمتع بما اتسمت به هذه الأسرة الريفية من بساطة لم تفسدها الحضارة . وكان يصطحب فردريكه فى نزاهات طويلة لأنها كانت ترسل نفسها على سجيته فى الهواء الطلق . وقد أحبه ، ومنحته كل ما طلب . « فى خلوة فى الغابة تعانقنا بعاطفة عميقة ، وتبادلنا أخلص التأكيدات بأن كلا منا يجب الآخر من أعماق قلبه » . (٣٢) ولكن سرعان ما راح يعترف لصديق بأن « المرء لا تزداد سعادته مثقال ذرة بنيله ما تمنى » .

وكان خلال ذلك يكتب باللاتينية رسالة الدكتوراه التى أكدت (كما أكد فبرونيوس) حق الدولة فى الاستقلال عن الكنيسة . وقد نالت موافقة الكلية الجامعية ؛ ونجح فى الامتحانات ؛ وفى ٦ أغسطس ١٧٧١ نال درجة الليسانس فى القانون . وجاء أوان الرحيل عن ستراسبورج . فركب إلى زيزنهايم ليودع فردريكه ، « وحين مدت إليها يدي وأنا على صهوة جوادى ، اغروروقت عينها بالدموع . وأحسست بضيق شديد . . . وبعد أن نجوت آخر الأمر من انفعال الوداع ، تماكنت نفسى تماماً ومضيت فى رحلة هادئة مظلمة » . (٣٣) أما تقرير الضمير فجاء بعد ذلك . « لقد انتزعت جريتش منى ؛ وهجرنى آنيث ؛ أما الآن فكنت مذنباً لأول مرة . فقد جرححت أحب قلب جرحاً فى الصميم ؛ وكانت فترة الندم الكئيب مع افتقادي ذلك الغرام المنعش الذى كنت قد ألفته — فترة عذاب أليم . . » (٣٤) انه شعور أنانى إلى حد محزن ، ولكن من منا ، فى تجارب الحب وزلاته ، لم يجرح قلباً أو قلبين قبل أن يظفر بقلب ؟ وماتت فردريكه دون أن تزوج ، فى ٣ أبريل ١٨١٣ .

٢ — جوتز وفرتر

لم يمارس حامل أجازة القانون الجديد مهنة المحاماة فى فرانكفورت إلا كرهاً وكان يزور دارمشتات بين الحين والحين ، وأحس تأثير تمجيدها

للعاطفة في وجدانه . وجاز الآن فترة من رد الفعل الشديد ضد فرنسا ، وضد
الدراما الفرنسية وقواعدها الصارمة ، وحتى ضد فولتير . وراح يسبغ
أكثر فأكثر شكسبير الذى عرض على خشبة المسرح طبيعة الإنسان حلالا كانت
أو حراماً . في هذا المزاج ، وفي عنفوان الشباب وحيويته ، كان مهياً للحركة
الزوبعية . فتماطف مع رفضها للسلطة ، وإعلائها للغريزة فوق العقل ،
وللفرد البطل فوق الجماهير الحبيسة في سخن التقاليد . وهكذا كتب « جوتز
فون برليشنجن » في ١٧٧٢ - ٧٣ .

وكانت انجازاً ممتازاً من فنى في الثالثة والعشرين : دراماً جمعت بين
الحب والحرب والخيانة في قصة تنبض بالحاسة للحرية ، وتنضح حيوية ،
وتشد الانتباه من أولها لآخرها . أما جوتز هذا ففارس أطاح الرصاص
بيمناه في المعركة وهو في الرابعة والعشرين (١٥٠٤) ؛ فركبت في ذراعه
يد حديدية أعانته على استعمال سيفه قاطعاً بئراً كما كان من قبل ، وإذ رفض
الاعتراف بأى سيد إلا الإمبراطور ، فقد أصبح واحداً من أولئك « البارونات
للصوص » الذين ادعوا باسم الحرية أن لهم مطلق السلطة على أرضهم إلى
درجة سلب عابري السبيل وشن الحروب الخاصة . وفي ١٤٩٥ أصدر
الأمبراطور مكسميليان الأول مرسوماً يحرم الحروب الخاصة ، وإلا كان
عقاب المذنب مزدوجاً - النفى بأمر الإمبراطور والحرم بأمر الكنيسة ،
ورفض جوتز ذو اليد الحديدية النفى لأنه يخالف الحقوق المتوارثة ، ودارت
التمثيلية أول الأمر حول الصراع بين الفارس المتمرد وأمير بامبرج الأسقف ،
وإذ كان جوته يحب النساء أكثر كثيراً من حبه للحرب ، فإنه ركز الاهتمام
على أوليده فون فاللدورف التى إلهب جمالها وثوراؤها رجالا كثيرين بالرغبة
المشوبة المستهتر . ففى سبيلها نقض أدلبرت فون قايزلنجن ، وهو فارس
« حر » آخر ، تحالفه مع جوتز وفسخ خطبته لماريا أنخت جوتز ، وإنجاز
إلى الأسقف . ولعل جوته تذكر - فى حب فايزلنجن المتذبذب - عدم وفائه
هو . وأرسل نسخة من التمثيلية إلى فردريكه بيد صديق قائلاً « سيسرى عن
فردريكه المسكينة بعض الشيء أن ترى العاشق الخائن يموت بالسم » (٣٥) .

وقد حور المؤلف التاريخ ليطوعه لمسرحيته ، فجوتفريد فون برليشنجن لم يبلغ في نبلة وشهامته مبلغ جوتز كما صورته جوته ؛ ولكن تعديلات كهذه تعد من قبيل الجواز الشعري ، شأنها شأن القوافي المشوهة . كذلك يغتفر لجوته ذلك الحديث الخشن المتهور الذى أجراه على لسان بطله تعبيراً عن الفحولة . وحيي أخرجت المسرحية في برلين (١٧٧٤) أدانها فردريك الأكبر « تقليداً بغيضاً » لتلك « البربرية » التى رآها هو في شكسبير ، كما رآها فولتير ؛ ثم دعا المسرحيين الألمان أن يلتمسوا نماذجهم في فرنسا . وقد وافق هرذر فردريك أول الأمر ، وقال لجوته « لقد دمرك شكسبير » (٣٦) ، ولكنه بعث بالنسخة المنشورة إلى أصدقائه مشفوعة بالتقريظ العظيم . « أمامكم ساعات من السحر . فهناك قدر غير عادى من القوة والعمق والإخلاص الألماني الأصيل في التمثيلية ، وإن كانت بين الحين والحين لا تعدو أن تكون تدريباً ذهنياً » (٣٧) . أما الجيل الأصغر فقد حيا جوته بوصفه أسمى تعبير عن حركة « شتورم » وطاب للقراء الألمان أن يسمعوا أخبار فرسان العصر الوسيط ، ورموز الخلق الألماني الجبار . ولد البروتستنت أن يسمعوا أصدقاء لوثر في « الأخ مارتن » ، الذى يشكو من أن ندوره الفقر والعفة والطاعة ندور غير طبيعية ، والذى يصف المرأة بأنها « فخر الخليقة وتاجها » ، ويهش للخمر لأنها « تهيج قلب الرجل » ، ويقلب قولاً مأثوراً قديماً بقوله أن « الهجة أم الفضائل كلها » (٣٨) . وحتى أبو جوته ، الذى اضطرب أن يعاونه في مهنة المحاماة والذى رأى فيه صورة لتدهور سلالة أبيه ، اعترف بأنه ربما كان في الغلام خير رغم كل شيء .

وفي مايو ١٧٧٢ كان على المحامى الشاب أن يذهب في مهمة قضائية إلى فتسلار ، مقر محكمة الاستئناف الامبراطورية . وراح يجول بين الحقول والغابات ومخادع النساء غير مكترث البتة بالقانون ، وهو يرسم ويكتب ويستوعب . وفي فتسلار التقى بكارل فلهم يروزايم ، الشاعر والمتصوف ، وجيورج كروستيان كستنر ، وهو موثق وصفه جوته بأنه « يتسم بالسلوك الهادى والرصين ، وبوضوح الرؤية ، . . . وبالنشاط الرزين الذى لا يكل » (٣٩) ،

وبلغ من ثقته بالترقى في وظيفته أنه كان مرتبطاً بفتاة ليتزوجها . وقد وصف كستنر جوته وصفاً فيه سماحة وكرم :

« هو في الثالثة والعشرين ، والإبن الوحيد لأب غنى جداً . وقد تقرر — وفقاً لمشيئة أبيه — أن يمارس المحاماة في المحكمة هنا ، أما مشيئته هو فهي أن يدرس هومر وبندار وأى شيء آخر توحى به عبقريته وذوقه وقلبه . . . والحق أنه صاحب عبقرية أصيلة ، ورجل على خلق . وهو صاحب خيال ذو حيوية خارقة ، ويعبر عن نفسه بالصور والتشبيهات . . . ومشاعره عنيفة ، ولكنه يملكها عادة . وقناعاته نبيلة ، وهو برىء تماماً من الهوى ويسلك كما يحب دون أن يعباً إن كان سلوكه هذا يسر غيره ، أو هو السلوك العصري ، أو السلوك المباح . وكل ألوان القهر بغیضة في نظره . وهو يحب الأطفال ، وفي وسعه أن يلاعهم ساعات بطولها . . . إنه رجل ممتاز تماماً » (٤٠) .

وفي ٩ يونيو ١٧٧٢ التي جوته بخطيبة كستنر في حفلة رقص ريفية ، واسمها شارلوت بوف . ثم زارها في الغد ، ووجد في الأنوثة فتنة جديدة . أما لوته هذه التي كانت يومها في العشرين فهي أكبر الأخوات في أسرة من أحد عشر طفلاً . وكانت الأم ميتة والأب مشغولاً بكسب قوته ؛ وقامت لوته بدور الأم للأطفال الكثيرين . ولم تؤث بهجة الفتاة الصمحية البدن ونضارتها فحسب ، بل زادت عليهما جاذبية المرأة الشابة التي تؤدي في بساطة وأناقة هندام مهام وظيفتها بكفاءة وحب وبشاشة . وسرعان ما وقع جوته في غرامها ، فما كان في استطاعته أن يظل طويلاً بغير صورة أنثى تدفء خياله . ورأى كستنر الموقف ، ولكنه لثقته مما يملك أبدى تسامحاً كريماً . أما جوته فقد سمح تقريباً بمزايا الخطيب المنافس ، ولكن لوته كانت دائماً تصده ، وتذكره بأنها مخطوبة . وأخيراً طلب إليها أن تختار بينهما ، ففعلت ، ورحل جوته عن فتسلار في الغد (١١ سبتمبر) دون أن تختلج كبرياؤه إلا لحظة . وظل كستنر صديقه الوفي حتى مماته .

وقبل أن يعود جوته إلى فرانكفورت توقف في إيرنبراشتاتين على الرين ، وهي موطن جيورج وصوفي فون لا روش . وكان لصوفي ابنتان « سرعان

ما جذبتني بشدة كبراهما مكسمليانه ، وإنه لإحساس للذيد جداً حين يبدأ غرام جديد في التحرك داخلنا قبل أن نحمد القديم تماماً . فعند غروب الشمس يود المرء أن يرى القمر يطالع على الجانب المقابل » (٤١) . على أن مكسمليانه تزوجت بيتر برنتانو ، وولدت بنتاً رشيقة اسمها بتينا ، وقعت في غرام جوته بعد خمسة وثلاثين عاماً . وراض جوته نفسه على حياة فرانكفورت والمحاماة . ولكنه لم يرتض هذه الحياة تماماً ، فقد فكر حيناً في الانتحار . يقرل :

« كنت أملك فيما أملك من مجموعة كبيرة من السلاح خنجر أجميلا جيد الصقل . وكنت أضعه كل ليلة بجوار فراشي ، وقبل أن أطفى الشمعة جربت إن كان في استطاعتي أن أفلح في إغمد السن الحاد بوصتين في قلبي . فلما لم أوفق في هذه المحاولة قط ، أقفلت أخيراً عن الفكرة بضحكي من نفسي ، وكففت عن كل أوهامى ووساوسى ، وصممت على أن أعيش .

« ولكنى أستطيع هذا العيش في بشر اضطرت إلى حل مشكلة أدبية ، تتحول فيها كل مشاعرى الماضية . . . إلى ألفاظ . فجمعت لهذا الغرض العناصر التى كانت تعتمل في سنوات ، واستحضرت في ذهنى الحالات التى أثرت في وعذبتى أشد تأثير وعذاب ؛ ولكن شيئاً لم ينته إلى شكل محدد . فقد افتقدت الحدث ، أو الأسطورة ، التى يمكن فيها أن ترى هذه الحالات كلا متكاملًا » (٤٢) .

وقدم محام من زملائه في فتسلار هذا الحدث الذى يدمج هذه العناصر . فى ٣٠ أكتوبر ١٧٧٢ قتل فلهم يروزالم نفسه ياساً من حبه لزوجة صديق له ، بعد أن استعار مسدساً من كستنر . قال جوته وهو يستحضر الحدث « وبمجرد سماعى بنياً موت يروزالم . . . تشكلت خطة « فوتر » فى ذهنى ، وتسابق الكل معاً من جميع الجوانب » (٤٣) . ربما ، ولكنه لم يبدأ تأليف الكتاب إلا بعد خمسة عشر شهراً . وواصل أثناء ذلك مغازلته لمكسمليانه برنتانو -- التى كانت قد انتقلت مع زوجها إلى فرانكفورت -- بمثابة وإصرار جعلاً الزوج يحتج ، فانسحب جوته .

وشتت جهده ألوان مختلفة من المشروعات الأدبية الخففة . فقد دأب

فكرة قص قصة اليهودى التائه من جديد ، وخطط زيارة يقوم بها اليهودى لسبينوزا ، وأن يبين أن الشيطان كما تدل جميع الظواهر منتصر على المسيح فى العالم المسيحى ^(٤٤) ، ولكنه لم يزد على عشر صفحات فى « اليهودى التائه » . ثم نظم هجائيات فى ياكوبى ، وفيلاند ، وهردر ، ولنتس ، ولا فاتر ، ولكنه وفق رغم ذلك فى كسب صداقتهم . وشارك فى كتاب لا فاتر فى الفراسة ، سمح له بأن يفحص قسما دماغه ، وكانت النتائج مرضية لغروره . وكان حكم السويسرى « إن هنا ذكاء ، مع حساسية تؤججه . لاحظ الجبين النشيط . . . والعين السريعة النفوذ والفحص والافتتان . . . والأنف ، الذى يكفى فى ذاته إعلاناً عن الشاعر . . . مع الذقن الفحل ، والأذن القوية المتسعة . . . فمن ذا الذى يرتاب فى العبقرية الكامنة فى هذا الدماغ ؟ » ^(٤٥) ومن ذا الذى يستطيع تطبيق هذه المقاييس الدماغية ؟ « على أن ياكوبى قال إن هذا ممكن ، لأنه بعد أن زار جوته فى يوليو ١٧٧٣ وصفه فى رسالة إلى فيلاند بأن « عبقرى من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، رجل به دس من الجفن ، كتب عليه أن يسلك وفق أوامر الروح الفردى » ^(٤٦) .

وأخيراً ، فى فبراير ١٧٧٤ ، كتب جوته الكتاب الذى آذاع اسمه فى طول أوروبا وعرضها ، « آلام الفتى فرتر » . وكان قد أطلال التفكير فيه ، وأطلال ترديده فى تأملاته وخياله ، حتى لقد أطلقه الآن كما يقول « فى أربعة أسابيع . . . اعتزلت الناس كلية ، ومنعت زيارة أصحابى » ^(٤٧) . قال لأكرمان بعد خمسين سنة « كان ذلك خلقاً غدوته بدم قلبى كما يفعل طائر البطريق » ^(٤٨) . وقد قتل فرتر لينج نفسه السلام .

وكان ملهماً فى إيجاز الكتاب . اشتعمل شكل الرسائل ، محاكاة لقصة رتشر دسن « كلاريسا » وقصة روسو « جولى » من جهة ، ومن جهة أخرى لأن هذا الشكل كان ملائماً للإفصاح عن العاطفة وتحليلها ، وربما لأنه فى هذا الشكل استطاع أن يستعمل بعض الرسائل التى كتبها من فتسلار لأخته كورنيليا أو لصديقه ميرك . وصددم شارلوت وكسترن بإطلاقه اسمها الفعل

« لوته على بطله حب واضح أنه يصف غرام جوته بعروس كستر ، وكستر يقابله في القصة « البرت » الذي صورته المؤلف في إطراء . وحتى اللقاء في المرقص ، وزيارة الغد ، كانا في القصة كما كانا من قبل في الواقع . « منذ ذلك اليوم تستطيع الشمس والقمر والنجوم أن تسير سيرتها في هدوء ، ولكني لا أعي بنهار ولا ليل ، وكل العالم من حولي يتلاشى . . . لم يعد عندي صلوات أتلوها إلا لها »^(٤٩) . على أن فرتر ليس جوته بالضبط : فهو أكثر عاطفية ، وأميل إلى البكاء والكلام المتدفق والرياء لنفسه . ولكي يقود المؤلف القصة إلى نهايتها الفاجعة ، اقتضاه ذلك أن يغير فرتر من جوته إلى فلهم يروزاليم . أما اللمسات الأخيرة فهي تحكي تاريخ ما حدث : يستعير فرتر ، كما استعار يروزاليم ، مسدس البرت لينتحر به ، وقصة ليسنج « إميليا جالوتي » ملقاة على مكتبه وهو يموت . « ولم يصحبه كاهن » إلى قبره .

كانت قصة « آلام الفتى فرتر » (١٧٧٤) حدثاً في تاريخ الأدب وتاريخ ألمانيا . فقد عبرت عن العنصر الرومانسي في الحركة الزوبعية ودعمته ، كما عبرت قصة « جوتز فون بريشنجن » من قبل عن العنصر البطولي . واستقبلها الشباب المتمرد بالمديح والمحاكاة ، وارتدى بعضهم السترة الزرقاء والصدرة الصفراء البرتقالية كفرتر ، وبكى بعضهم كفرتر ، وانتحر بعضهم باعتبار الانتحار الشيء « العصري » الوحيد الذي يجب عمله . واحتج كستر على الولوج في أسرارهم . ولكن لم يلبث أن هدى ، ولم يقل لنا أحد ان شارلوتة شكت حين قال لها جوته « ان اسمك تنطقه آلاف الشفاه المعجبة بكل اجلال »^(٥٠) . ولم يشارك رجال الدين الألمان في هذا الاستحسان . وأدان واعظ همبرجى القصة لأنها دفاع عن الانتحار . اما الراعى جوتسي ، عدو ليسنج ، فقد حمل على الكتاب ، وأدانه ليسنج لعاطفيته المفرطة وافتقاره إلى القصد الكلاسيكي^(٥١) . وفي عشاء عام القس ي. ك. هازنكمبف جوته في مواجهته على « تلك القطعة الشريرة من الكتابة » ، ثم أردف « ليه. الله قلبك الضمضال ! » وأفحمه جوته بجواب

هاديء : « اذكرنى فى صلواتك » (٥٢) . وكان الكتيب أثناء ذلك يكتسح أوروبا فى مترجمات عديدة ، منها ثلاثة فى فرنسا خلال سنوات ثلاث ؛ واعترفت الآن فرنسا لأول مرة بأن فى ألمانيا أدباً .

٣ — الملحد الشاب

كان لرجال الدين بعض العذر فى القلق على جوته ، لأنه كان فى هذه المرحلة يجهر بعداء الكنيسة المسيحية . كتب كسترن فى ١٧٧٢ يقول « انه يحل الدين المسيحى ؛ ولكن ليس فى الصورة التى يصوره بها لاهوتيونا . . . انه لا يتردد على الكنيسة ، ولا يتناول القربان ، ونادراً ما يصلى . » (٥٣) وكان جوته يكره على الأخص تأكيد المسيحية على الخطيئة والندم (٥٤) ، ويؤثر أن يأثم دون ندم . كتب إلى هرذر (حوالى ١٧٧٤) يقول « ليت تعلم المسيح كانه لم يكن هذا الهراء الذى يثر سخطى بصفتى بشراً ، مخلوقاً مسكيناً محدوداً ذا رغبات وحاجات ! » (٥٥) ووضع مخطوطاً لمسرحية عن بروميثيوس رمزاً للإنسان يتحدى الآلهة ، ولكنه لم يزد على مقدمة صدمت ياكوبى وأهيجت ليسنج . وما بقى منها هو أكثر تفجرات جوته المعادية للدين تطرفاً . يقول بروميثيوس :

غط سماءك يازيوس بالضباب الملبد بالغيوم .

ولله — كما يلهو طفل يقطع رؤوس الشوك

على شجر البلوط وقمم الجبال !

فأنت لابد تارك أرضى قائمة .

وكوخى ، الذى لم تبذه .

ومدافأتى التى تحسدنى على توهج نارها .

لست أعرف تحت السماء من هو أفقر منكم أيها الآلهة !

إنكم تغذون جلالكم بالجهد من الضحايا وصلوات الرغبات .

ولولا حرق الأطفال والمتسولين المتعللين بالأمال

لما ت هذه الجلالة جوعاً .

حين كنت طفلاً لا أعرف في ماذا أفكر ،
كانت عيناى الضالتان تتطلعان إلى الشمس ،
كان لها أذنًا تصيخ السمع إلى شكائى ،
أو قلباً كقلبي يرق لنفس معناة .
فن ترى أعاننى على غطرسة الطاغية ؟
ومن أنقذنى من الموت ، من العبودية ؟
أليس هو قلبي المقدس المضطرم ،
هو الذى صنع هذا كله وحده ،
ولكنه لحداثته وطيبته ولأنه كان مخدوعاً ،
فهو يرفع الشكر لذلك النائم هناك ؛
أجداك ؟ لماذا ؟
هل خففت مرة أحزان المثقلين بالهموم ؟
هل كفت كنت مرة دموع المعذيين ؟
ألم يفطرنى بشرا ؟
ذلك الزمان الجبار والقادر السرمدى -
سيدائى وسيداك . . .
ها أنذا قاعد هنا . أصنع الرجال على شاكلى ،
سلالة شبيهة بى .
تحزن وتبكى . تفرح وتمرح ،
وتزدريك كما أزدريك .

ثم انتقل جوته ببطء من حضيض الإلحاد المغرور هذا إلى « حلولية »
سبينوزا الأكثر تهديماً . روى لافاتر أن « جوته قال لنا أشياء كثيرة عن
سبينوزا ومؤلفاته ... فقد كان رجلاً غاية في الإنصاف والاستقامة والفقير ...
وكل الربوبيين المحدثين قد أخذوا آراءهم عنه أولاً . . . وأضاف جوته أن
رسائله أطرف ما عرف العالم كله عن الاستقامة وحب البشر » (٥٦) ،

وبعد اثنين وأربعين عاماً قال جوته لكارل تسلتر إن أكثر الكتاب تأثيراً فيه هم شكسبير وسبينوزا ولينا يوس^(٥٧) وفي ٩ يونيو ١٧٨٥ كتب إلى ياكوبى بتسلمه كتابه « قى تعاليم سبينوزا » ، وتكشف مناقشته لتفسير ياكوبى لهذه التعاليم عن دراسة مستفيضة للفيلسوف — القديس اليهودى . كتب يقول « إن سبينوزا لا يبرهن على وجود الله ، انه يبرهن على أن الوجود (حقيقة المادة — العقل) هو الله . فليرمه غبرى لهذا السبب بالإلحاد ، أما أنا فأميل إلى أن أصفه وأثنى عليه رجلاً تقياً جداً ، لا بل مسيحياً جداً ! . . . وأنا آخذ عنه أصبح المؤثرات فى تفكيرى وسلوكى »^(٥٨) .

وقد علق جوته فى سيرته الذاتية على رده على ياكوبى بقوله : « كنت لحسن الحظ قد أعددت نفسى . . . بعد أن انتحلت إلى حد ما أفكار وعقل رجل خارق للعادة . . . وهذا العقل ، الذى كان قد أثر فى تأثيراً حاسماً جداً ، وكتب له أن يؤثر تأثيراً عميقاً جداً فى أسلوب تفكيرى كله ، هو سبينوزا . ذلك أننى بعد أن بحثت فى العالم عبثاً عن وسيلة لتطوير طبيعتى الغربية ، وقعت فى النهاية على كتاب « الأخلاق » لهذا الفيلسوف . . . فوجدت فيه مسكناً لعواطفى المشبوبة ، وتفتحت أمامى نظرة واسعة حرة تشرف على العالم الحسى والخلقى . . . ولم تبلغ بى الجرأة قط مبلغ الاعتقاد بأننى فهمت كل الفهم رجلاً . . . ارتقى ، بدراساته الرياضية والربانية ، إلى ذرى الفكر ، رجلاً يلوح ان اسمه حتى فى يومنا هذا ، يعين الحد الذى تقف عنده كل المحاولات التأملية »^(٥٩) .

وقد أضاف مزيداً من الدفء لعقيدته الأسبينوزية فى الحلول (وحدة الوجود) بولعه الشديد بالطبيعة ، ولم يكن هذا الولع ابتهاجاً فحسب بمرأى الحقول النضرة أو الغابات الغامضة أو النباتات والأزهار المتكاثرة فى تنوع غزير ، بل إنه عشق أيضاً حالات الطبيعة الأكثر بصرامة ، وأحب أن يشق طريقه خلال الريح أو المطر أو الثلج ، ثم صعوداً إلى قمم الجبال الخطرة . وكان يتحدث عن الطبيعة كأنها أم يرضع من صدرها رحيق الحياة ونكهتها . وقد عبر فى ملحمة من الشعر المنثور سماها « الطبيعة » (١٧٨٠) ، بوجدان

دينى ، عن استسلامه المتواضع للقرى الخلاقة المدمرة التى تكتنف الإنسان ،
وانداماجه السعيد فيها :

« الطبيعية ! انها تكتنفنا وتحضرنا — ونحن لا نستطيع الخيطو خارجها ،
ولا التعمق فى داخلها . انها تتلقانا ، دون توسل إليها ولا تحذير ، فى حلبة
رقصها ، ثم ترافقنا فى رقص سريع حتى تنهك قوانا ونخر من بين ذراعها . .

« انها لا تفتأ تخلق الأشكال الجديدة ، فما هو موجود الآن لم يكن
موجوداً قط من قبل ، وما فات لن يعود ؛ الكل جديد ، ومع ذلك فهو
دائماً القديم .

انها تبدو وكأنها دبرت كل شئ للفردية ، ولكنها لا تعبأ بمثقال ذرة
بالافراد ، انها بانية أبدأ ، هادمة أبدأ ، ومصنعة لا سبيل
للوصول اليه . . .

انها تملك الفكر ؛ وهى تتأمل باستمرار ، لا كإنسان ، بل كالطبيعة .
أن لها عقلا كلى الشمول خاصاً بها ؛ وما من أحد يستطيع النفوذ إليه . . .
انها تسمح لكل طفل بأن يعبت بها ، واكل أحقق بأن يحكم عليها ،
والآلاف تعثر أقدامهم ولا يرون شيئاً ، ان فرحتها بالكل .

انها رحيمة ، وأنا أنى عليها وعلى كل أعمالها . انها حكيمة هادئة . لا يستطيع
المرء أن يستخلص منها أى تفسير ، أو ينزع منها عطية لا تعطيها بمشيئتها الحرة .

لقد وضعتنى هنا . وسوف تقودنى بعيداً . وأنا أوكل إليها نفسى ،
ولها أن تفعل بى ما تشاء . فهى لن تكره صنعة يدها « (٦١) .

وفى ديسمبر ١٧٧٤ توقفت الدوق كارل أوبست بفرانكفورت فى
الطريق بحثاً عن عروس فى كارلسروهى . وكان قد قرأ « جوتز فون
برليشنجن » وأعجبته . فدعا مؤلفها للقائه . وذهب جوته . ووقع من نفس
الدوق موقعاً طيباً . وساءل الدوق نفسه ألا يجوز أن يصبح هذا العبقرى
الوسيم المهذب نجماً ساطعاً فى بلاط فايمار . وكان عليه أن يعجل بالرحيل ،
ولكنه طلب إلى جوته أن يلتقى به ثانية فى رجوعه من كارلسروهى .

كان جوته كثير الكلام عن القدر ، قليله جداً عن المصادفة . ولعله لو سئل لأجاب إن القدر — لا المصادفة — هو الذى جاء به إلى الدوق ، وأنه هو الذى صرفه عن حسن اللي شوثيان إلى مخاطر فايمار وفرصها المجهولة . أما لى هذه فكانت ابنة تاجر غنى فى فرانكفورت . وقد دعى جوته إلى حفل استقبال فى بيتها بعد أن أصبح الآن سبعاً من سباع المجتمع الراقى . وعزفت لى على البيانو عزفاً رائعاً ، واثكأ جوته على ركن منه وراح يحدق على مهل فى مفاتيها ذات الستة عشر ربيعاً وهى تعزف . « كنت أحس اننى أشعر بقوة جذابة غاية فى الرقة . . . ثم ألفتنا أن نلتقى . . . وأصبحنا الآن ولا غنى للواحد عن صاحبه . . . وملكنى شوق لاسبيل إلى مقاومته (٦١) . فما أسرع ما ترتفع هذه الحمى الشهيرة ، التى فجرتها حساسية شاعر . قبل أن يدرك معنى ما فعل ، كان قد خطبها رسمياً (ابريل ١٧٧٥) . أما لى التى ظنت أنها اقتنصته وأمنته ، فراحت تعابث غيره . وشهد جوته ذلك فغلت مراجل غيظه .

فى هذه الفترة بالضبط مر صديقان هما الكونت كرسيتيان والكونت فريدريش تسو شتولبرج بفرانكفورت فى طريقهما إلى سويسرة . واقترحا على جوته أن ينضم إليهما . وحثه أبوه على الذهاب ومواصلة الرحلة إلى إيطاليا . « وانفصلت عن لى بعد أن أفضت إليه ببعض السر ولكن دون أن استأذن قبل الرحيل » (٦٢) .

وقد بدأ الرحلة فى مايو ١٧٧٥ ، والتقى بالدوق ثانية فى كارلسروهي ، فدعاه بصفة نهائية إلى فايمار . ومضى إلى زيورخ . حيث التقى بلافاير وبودمير . وتسلىق سانت جوتهارد وتطلع باشتياق إلى إيطاليا ، ثم تسلطت على خياله من جديد صورة لى ، فترك أصحابه ويمم شطر وطنه ، وفى سبتمبر كانت لى بين زراعيه . ولكنه ما أن خلا إلى نفسه فى حجرة حتى عاوده خوفه القديم من الزواج سجنًا وركوداً . وأنكرت لى تردده ، فاتفقا على فسخ خطبتهما ، وفى ١٧٧٦ تزوجت برنهارت فون توركهيلم .

أما الدوق الذى ألم بفرانكفورت فى طريق عودته من كارلسروهي

فقد عرض على جوته أن يرسل إليه عربة تقله إلى فامار . ووافق جوته ، ودبر أمره ، وانتظر اليوم الموعود . ولكن العربة لم تأت . أفكان ذلك عبثاً وخديعة ؟ وبعد أن قضى أياماً من التلبث المغيظ انطلق في رحلته إلى إيطاليا . ولكن العربة الموعودة لحقته في هيدلبرج ، وقدم مبعوث الدوق التفسيرات والاعتذارات ، فقبلها جوته . وفي ٧ نوفمبر ١٧٧٥ وصل إلى فامار ، وكان يومها في السادسة والعشرين ، ممزقاً كعادته دائماً بين إله الغرام والقدر ، تهفو نفسه إلى النساء ولكنه مصمم على أن يصير إنساناً عظيماً .

٤ — هرذر ١٧٤٤ — ١٧٧٦

لم يمض شهر على وصول جوته إلى فامار حتى أنهى إلى الدوق اقتراحاً مشفوعاً بموافقته الحارة ، هو اقتراح فيلاندا بأن تعرض على يوهان جوتنفريد هرذر وظيفة المشرف العام على أكليروس الدوقية ومدارسها . ووافق الدوق . أما هرذر فقد ولد بمورنجن في بروسيا الشرقية (٢٥ أغسطس ١٧٤٤) ، فهو من حيث الجغرافيا وضباب البلطيق قريب لإيمانويل كانط . وكان أبوه معلماً فقيراً وقائد فرقة ترتيل تقوى النزعة . وهكذا كان للصبي أوفر نصيب من الشدائد . فنذا كان في الخامسة كان يشكو ناسورا في عينه اليمنى . واضطرته ضرورة المشاركة بعد قليل في موارد الأسرة إلى ترك المدرسة والاشتغال سكرتيراً وخادماً لسبستيان تريشو ، الذي كان يكسب رزقاً طيباً بتأليف كتيبات في التقوى . وكان لديه مكتبة استوعبها يوهان . فلما بلغ الثامنة عشرة أرسل إلى كونيغزبرج لإزالة الناسور ولدراسة الطب في الجامعة . على أن الجراحة أخفقت ، وقلبت فصول التشريح معدة الشاب فانصرف عن الطب إلى اللاهوت .

وتصادق مع هامان الذي كان يعلمه الإنجليزية مستعملاً هاملت نصاً ، وحفظ هرذر المسرحية كلها تقريباً عن ظهر قلب . واختلقت إلى محاضرات كانط في الجغرافيا والفلك وفلسفة فولف . وبلغ من حب كانط له أنه أعفاه من الرسم الذي يحصل من الطلبة نظير حضورهم المحاضرات . وكسب هرذر قوته بالترجمة وتدريس التلاميذ الخصوصيين ، ثم قام بالتدريس في مدرسة

الكندراتية بمدينة ريجا من سن العشرين إلى الخامسة والعشرين . وحين بلغ الحادية والعشرين رسم قسيساً نوثر يا ، وفي الثانية والعشرين أصبح ماسونيا (٦٣) ، وفي الثالثة والعشرين عين مساعداً للراعى فى كنيسة ريجا . ودخل عالم النشر فى الثانية والعشرين بكتاب فى الأدب الألمانى الحديث ، ثم أضاف إليه جزءاً ثانياً وثالثاً بعد عام . وراعت ثقافة المؤلف الشاب كانط وليسنج ونيقولاي ولا فاتر - وامتدحوا دعوته إلى أدب قومى متحرر من الوصاية الأجنبية .

واستبق هرذر الموضوعة « الفرثية » بوقوعه فى غرام يائس بامرأة متزوجة . واشتدت معاناته من الاكتئاب والغم فى بدنه وعقله ، فنهجه رؤساؤه أجازة ينقطع فيها عن عمله . ووعدوه بأن يوظفوه من جديد براتب أعلى عند عودته . واقترض مالا ، ثم غادر ريجا (٢٣ مايو ١٧٦٩) ولم يرها ثانية قط . وركب البحر إلى نانت ، وأقام فيها أربعة أشهر ، ثم مضى إلى باريس والتقى بيدلرو ود الامير ، ولكن أحداً لم يستطع اقناعه بالانحياز إلى التنوير الفرنسى .

وذلك أن ميله الفطرى كان جمالياً (استيقياً) أكثر منه عقلياً . وفى باريس بدأ يجمع الشعر البدائى ، ووجد فيه متعة تفوق ما فى أدب فرنسا الكلاسيكى . وقرأ كتاب مكفرس : « أوسيان » فى ترجمة ألمانية ، وحكم بأن هذه التقليدات البارعة أروع من معظم الشعر الانجليزى الحديث بعد شكسبير . ثم بدأ فى ١٧٦٩ مقالات فى النقد الفنى والأدبى أطلق عليها اسم (الغياض) ، ونشر ثلاثة مجلدات منها فى حياته بعنوان (غابات من النقد) . وفى فبراير ١٧٧٠ أنفق أربعة عشر يوماً فى اتصال مثير مع ليسنج فى همبورج . ثم صاحب أمير هولشتين - جوتورب معلماً ورفيقاً . وجاب معه ألمانيا الغربية . وفى كاسل التقى برودلف راسبى ، أستاذ الآثار والمؤلف القادم لكتاب « قصة البارون مونتشاوون عن أسفاره وحملاته العجيبة فى روسيا » (١٧٨٥) . وكان راسبى قد استرعى اهتمام ألمانيا بكتاب توماس برسى « مخلفات من الشعر الانجليزى القديم » سنة ظهوره (١٧٦٥) .

وتقوى هردر في إيمانه بأن واجب الشعراء أن يهجروا الدعوة الفنكلمانية اللسنجية لتقليد الكلاسيكيات اليونانية ، وأنه أخلق بهم أن يتشبثوا بالمنابع الشعبية لتقليد أمتهم في الشعر الفولكلورى والتاريخ القصصى الغنائى .

وانتقل هردر مع الأمير إلى دارمشتات ، فالتقى بجماعة « الحساسيين » فيها . وراقه لإعلاؤهم شأن العاطفة ، وخص بالتقدير عواطف كارولينية فلاخسلاند ، الأخت اليتيمة لزوجة عضو المجلس الخاص اندرياس فون هسى ، ودعى هردر للوعظ في كنيسة محلية ، فسمعتة ، وتأثرت بوعظه ، وتمشياً معاً في الغابات ، وتلامست أيديهما فانعطف قلبه ، وعرض عليها الزواج ولكنها نبهته إلى أنها تعيش على صدقة أختها ، وأنها لن تستطيع أن تدفع له مهرأ ، ورد هو بأنه مثقل بالدين ، وأن المستقبل أمامه غامض جداً ، وأنه ملتزم بمرافقة الأمير . وتعاهداً بالأ تكون خطبة رسمية ، ولكنهما اتفقا على تبادل الحب بالرسائل . ثم رحلت جماعته إلى مانهايم في ٢٧ أبريل ١٧٧٠ .

فلما وصلوا إلى ستراسبورج ترك هردر الأمير رغم شوقه لرؤية إيطاليا . ذلك أن الناسور الذى فى غدته الدمية سد القناة الدمية الموصلة إلى المنخر فأصابه بألم لا يهدأ . ووعده الدكتور لوبشتين أستاذ أمراض النساء فى الجامعة بأن الجراحة ستزيل الانسداد فى ثلاثة أسابيع . واستسلم هردر ، دون مخدر ، للثقب المتكرر لقناة خلال العظم إلى ممر الأنف . ولكن الجرح بدأ يتلوث ، وظل هردر ستة أشهر تقريباً حبس حجراته فى الفندق وقد فت فى عضده فشل الجراحة ، وران عليه اكتئاب بسبب شكوكه فى مستقبله . فى هذه الحالة النفسية من المعاناة والتشاؤم ، التقى بجوته (٤ سبتمبر ١٧٧٠) . ويذكر جوته هذه الفترة فيقول « أتيح لى أن أحضر الجراحة وأن أكون نافعاً فى نواحي كثيرة »^(٦٤) . وقد ألهمه رأى هردر القائل بأن الشعر ينبثق غريزياً فى الشعب ، لا من « بضعة رجال مهذبين مثقفين »^(٦٥) . وحين رحل هردر وقد نفذ ما معه من مال ، « اقترض جوته مبلغاً من أجله » رده هردر فيما بعد .

ثم قبل على مضض دعوة من الكونت فلهلم تسوليبي ، حاكم إمارة شاومبورج - لبيى الصغيرة فى شمال غربى ألمانيا ، ليعمل واعظاً لبلاطه ورئيساً للمجلس الكنسى فى عاصمته المتواضعة بوكيبورج . وفى أبريل ١٧٧١ هادر هردر استراسبورج ، وزار كارولينه فى دارمشتات وجوته فى فرانكفورت ، ووصل إلى بوكيبورج فى الثامن والعشرين . فوجد الكونت حاكماً « مستبدلاً مستنيراً » من طراز إدارى صارم ، أما المدينة فكانت قروية فى كل شئ إلا الموسيقى ، التى كان يحسن تزويدها بها يوهان كريستوف فريد ريش باخ ، وراض هردر نفسه على الانفصال عن التيار الرئيسى للفكر الألمانى ، ولكن الكتب التى أصدرها فى مكانه الصغير أثرت تأثيراً قوياً فى ذلك التيار ، وأسهمت فى تشكيل الأفكار الأدبية للحركة الرومسية . وقد أكد للكتاب الألمان أنهم إن التمسوا الإلهام فى جذور الأمة وحياة الشعب فسوف يأتى الوقت الذى يزول فيه الفرنسيين فى كل ما حققوه . وقد تحققت هذه النبوءة فى الفلسفة والعلم .

وقد ظفر بحته فى أصل اللغة (١٧٧٢) بالجائزة التى قدمتها أكاديمية برلين عام ١٧٧٠ . ومع أن هردر كان يجهر بتدينه مخلصاً ، إلا أنه رفض الفكرة التى تزعم أن اللغة من صنع الله وحده ؛ وقال إنها من صنع البشر ، وأنها تنبت طبيعياً من عمليات الإحساس والتفكير . وألمح إلى أن اللغة والشعر كانا واحداً باعتبارهما تعبيرين عن الانفعال ، وأن الأفعال ، المعبرة عن الفعل ، كانت أول أقسام الكلام . وفى مجلد آخر سماه « فلسفة أخرى مضافة إلى فلسفات التاريخ » (١٧٧٤) عرض التاريخ على أنه « الفلسفة الطبيعية للأحداث المتعاقبة » فكل حضارة هى وجود بيولوجى له مولده وشبابه ونضجه وانحلاله وموته ؛ ويجب أن تدرس من وجهة نظر عصرها ، دون تحيزات مبنية على بيئة وعصر آخرين . وقد أعجب هردر إعجاب الرومانتيكيين عموماً بالعصور الوسطى لأنها زمان الخيال والوجدان ، والشعر والفن الشعبيين ، والبساطة والسلام الريفيين ؛ وعلى نقيض ذلك كانت أوربا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، وللرذيلة . وانتقد التنوير لأنه عبادة لوثن العقل ، وقارن بينه وبين ثقافات

اليونان والرومان مقارنة لا تخدم التنوير . ولقد أبصر هردر يد الله كما أبصرها بوسويه في العملية التاريخية كلها ، ولكن الواعظ المفوه كان أحياناً ينسى لاهوته ، ويرى أن « التغيير العام للعالم كان يقوده الإنسان أقل كثيراً مما يقوده قدر أعظم » (٦٦) .

وحمله شعوره بالوحدة إلى أن يطلب إلى كارولينه وزوج أختها أن يأذنا له بالحضور والزواج منها رغم ضآلة دخله . فوافقا ، وزف الحبيبان في دارمشتات في ٢ مايو ١٧٧٣ . ثم عادا إلى بوكيبورج ، واقترض هردر بعض المال ليجعل دار القسيس بيتاً مبهجاً لزوجته . وقد بذلت له زوجته الخدمة والحب الخالص مدى الحياة . وبفضل وساطتها انقشع الفتور الذي ران من قبل على المودة بين هردر وجوته ، وحين وجد جوته نفسه في موقف يسمح له بتزكية الراعي لوظيفة أنسخي عطاء ، أسعده أن يفعل ذلك . وفي أول أكتوبر ١٧٧٦ وصل هردر وكارولينه إلى فايمار ، وانتقلا إلى البيت الذي أعده لهما جوته . ولم يبق الآن سوى عضو واحد ليكتمل عقد الرباعي الذي سيضع شهرة فايمار .

٥ - شيلر في سني تطويفه ١٧٥٩ - ١٧٨٧

ولد يوهان كريستوف فريدريش شيلر في ١٠ نوفمبر ١٧٥٩ بمدينة مارباخ في فورتمبرج . وكانت أمه ابنة صاحب فندق الأسد ، وأبوه جراحاً - ثم ضابط برتبة الكابتن - في جيش الدوق كارل أويجين ؛ وكان ينتقل مع فوجه ، ولكن زوجه أقامت أكثر الوقت في لورش أولود فجزبرج . وفي هاتين المدينتين تلقى فريدريش تعليمه . وقد نذره أبواه للقسوسية ، ولكن الدوق اقترحهما بأن يبعثا به وهو في الرابعة عشرة إلى كارلسشول (مدرسة كارل) في لود فجزبرج (ثم في شتوتجارت) ، حيث يعد أبناء الضباط لمهنة المحاماة أو الطب أو الجندية . وكان نظام المدرسة نظاماً عسكرياً صارماً ، والدراسات مجافية لطبيعة غلام فيه حساسية مرهقة تقرب من حساسية الفتيات . وكان رد فعل شيلر أن تشرب كل ما وجد إليه سبيلاً من

الأفكار الثورية ، ثم صيها (١٧٧٠ - ١٧٨٩) فى مسرحية « اللصوص »
التي فاقت جوتز فون برلينجنج تعبيراً عن الحركة الزوبعية .

وفى ١٧٨٠ تخرج شيلر فى الطب ، وأصبح جراحاً لفوج فى شتوتجارت .
وكان راتبه ضئيلاً ، وسكن حجرة واحدة مع الملازم كايف . وكانا يجيزان
طعامهما وأكثره من السجق والبطاطس والخس ، ثم البنيذ فى المناسبات
السارة . وقد شق على نفسه ليكون رجلاً له كل حس الجندى بالمعركة
والجعة والمواخير ، وزار المومسات اللاتي مختلفن إلى المعسكر^(٦٧) ؛ ولكنه
لم يكن يسيغ الابتذال والسوقية ، فالنساء فى نظرته المثالية أسرار غامضة
مقدسة يجب أن يدنو منها الرجل فى إجلال ورعدة . وكانت صاحبة الدار
واسمها لويزة فيشر أرملة فى الثلاثين ، ولكنها إذا عزفت على الهاربسيكورد
« فارقت روحى جسدى الترابى الفانى »^(٦٨) ، وتمنى لو « اننى التصقت
إلى الأبد بشفتيك » . . . لا تشرب أنفاسك^(٦٩) . وهى طريقة مبتكرة
فى الانتحار .

وحاول عبثاً أن يجد ناشراً لمسرحية « اللصوص » ، فلما أن أخفق ،
وفر واقترض ثم طبعها على نفقته (١٧٨١) . وقد أدهش نجاحها الناس حتى
مؤلفها ذا الإثنين والعشرين ربيعاً . وفى رأى كارليل أنها بدأت « عصرأ
فى الأدب العالمى »^(٧٠) ، ولكن ألمانيا الوقور صدمها أن المسرحية لم تترك
ناحية من نواحي الحضارة الراهنة إلا أدانتها . وذكرت المقدمة التى صدر بها
شيلر تمثيلته أن نهايتها تبين عظمة الضمير وأذى التمرد .

وخلاصة التمثيلية أن كارل مور ، وهو الإبن البكر للكونت المسن
مكسمليان فون مور ، نخصه أبوه بحبه لما اتسم به من مثالية وسماحة خلق ؛
ومن ثم يحسده ويبغضه أخوه فرانتن . ويرحل كارل ويدخل جامعة لبيزج ،
ويتشرب مشاعر التمرد التى تضطرب بها صدور شباب أوروبا الغربية . فلما
الح الدائنون فى مطالبة بالدين ، راح يندد بعباد المال القساة الذين « يلعنون
الصدوق الذى يقصر فى الحضور إلى الكنيسة بانتظام ، ومع أن تقواهم
لا تخرج عن عد مكاسبهم ، المجلوبة بالربا ، على مذبح الكنيسة ذاته »^(٧١) .

ثم يفقد كل إيمان بالنظام الاجتماعى القائم ، وينضم إلى عصابة من اللصوص ، ويصبح زعيماً لها ، ويقسم يمين الولاء لها حتى الموت ، ثم يهدى ضميره بلعب دور روبن هود . ويصفه أحد أفراد العصابة بهذه العبارات :

« انه لا يقتل كما تقتل طمعاً فى شىء يسلبه ، أما المال . . . فيبدو أنه لا يعبأ به مثقال ذرة ، فثلث الغنيمة الذى هو حق خالص له يعطيه لليتامى ، أو ليعين به شباب الكلية المبشرين بمستقبل مرموق . أما إذا وقع فى برائته عين من أعيان الريف الذين يسومون فلاحهم سوء العذاب كأنهم الأنعام ، أو وغد يرفل فى فاخر الثياب ممن يعوجون القضاء ليعخدم مآربهم . . . أو أى رجل من هذا النوع — عندها يا بنى يتجلى على فطرته ثائراً هادراً كأنه شيطان رجيم » (٧٢) .

ويندد كارل برجال الدين لأنهم يتملقون السلطان ويعبدون صنم المال سرّاً ، « وخبرهم لا يتردد فى أن يخون الثالث الأقدس كله فى سبيل عشرة شواقل » (٧٣) .

ويدبر فرانتس فى غضون هذا ابلاغ الكونت فى رسالة كاذبة أن كارل مات . ويصبح فرانتس الوريث لثروة أبيه ، ويتقدم لخطبة أميليا التى تحب كارل حياً أو ميتاً . ويدس فرانتس السم لأبيه ، ويهدى وخز ضميره بالإلحاد : « لم يثبت بعد أن فوق هذه الأرض عينا ترقب كل ما يجرى عليها . . . ليس هناك إله » (٧٤) . ويسمع كارل بجرائم أخيه ، فيفقد عصابته إلى قلعة الأب ويضرب حصاراً على فرانتس ، فيتضرع هذا إلى الله مستميتاً فى التماس العون ، فإذا لم يصله عون قتل نفسه . وتقدم أميليا نفسها لكارل شريطة أن يقلع عن حياة اللصوصية ؛ وهو تواق إلى هذا ، غير أن أتباعه يذكرونه بتعهده البقاء معهم حتى الموت . فيحترم تعهده ، وينصرف عن أميليا ؛ ولكنها تتوسل إليه أن يقتلها ، فيستجيب لها ، وبعد أن يرتب أن ينال عامل فقير المكافأة المرصودة للقبض عليه ، يستسلم للقانون وللمشقة .

وهذا كله بالطبع هراء . فالشخص والأحداث يستحيل تصديقها ،

والأسلوب منمق طنان ، والخطب لاتطاق ، والفكرة عن المرأة مثالية على نحو رومانسى . ولكنه هراء قوى . ذلك أن فينا كلنا تقريباً تعاطفاً خفياً مع أولئك الذين يتحدون القانون ؛ فنحن أيضاً نحس أنفسنا أحياناً وقد ضيقت علينا الخناق وأرهقنا آلاف القوانين والأوامر التي تكبلنا أو تغرمننا وقد طال اعتيادنا على المنافع التي وهبنا إياها القانون حتى أننا لناخذها قضايا مسلمة ؛ ونحن لا نشعر بتعاطف طبيعى مع الشرطة حتى نقع ضحية من ضحايا التمرد على القانون . ومن ثم وجدت التمثيلية المطبوعة قراء متحمسين واستحساناً حاراً ، ولم تمنع شكاوى الوعاظ والمشرعين ، الذين زعموا أن شيلر مجذ الجريمة ، أحد النقاد من أن يحبيه لأنه يعد بأن يصبح شكسبيراً « ألمانيا »^(٧٥) ، ولا منعت المخرجين من أن يقترحوا لإخراج المسرحية .

وعرض البارون فولفجانج هريبرت فون دالبرج أن يقدمها على المسرح القومى بمانهيم إذا وضع لها شيلر نهاية أسعد . ففعل : واقتضى التعديل أن يتزوج مور أميليا بدلا من أن يقتلها . وتسلسل شيلر من شتوتجارت دون أن يستأذن الدوق كارل أو بجين قائده الحربى ليحضر العرض الأول للمسرحية فى ١٣ يناير ١٧٨٢ . وأقبل الناس من فورمز ودارمشتات وفرانكفورت وغيرها من المدن ليشهدوا التمثيل . ولعب أوجست افلاندر دور كارل ، وكان من ألمع ممثلى الجيل ؛ وأبدى النظارة استحسانهم بالصياح والتشجيع ، ولم تلق مسرحية ألمانية أخرى من قبل مثل هذا الاحتفاء^(٧٦) ، وكانت قوة فى الحركة الزوبعية . وبعد المسرحية كرم الممثلون شيلر وتودد إليه ناشر من مانهيم ، وشنق عليه أن يعود إلى شتوتجارت ويستأنف حياته جراحاً للفوج . وفى شهر مايو تسلسل ثانية إلى مانهيم لشهد عرضاً آخر لمسرحية « اللصوص » ، وابتاع مع دالبرج الحطط لمسرحية ثانية . فلما أن عاد ثانية إلى فوجيه ، وبخه الدوق وحظر عليه تأليف المزيد من التمثيليات .

ولم يقو على تقبل هذا الحظر . وفى ٢٢ سبتمبر ١٧٨٢ هرب إلى مانهيم فى صحبة صديق يدعى أندرياس سترایشر . وهناك قدم لدالبرج تمثيلية جديدة سماها « مؤامرة فييسكو فى جنوه » . وقرأها على الممثلين ،

فحكّموا بأنّها باطلة هبوطاً مؤسفاً عن مستوى « اللصوص » ، وقال والبرج أنّه قد يخرج المسرحية إذا راجعها شيلر ؛ فعكف شيلر أسابيع على هذه المهمة ، ولكن دالبرج رفض حصيلة هذا الجهد . ووجد شيلر نفسه لا يملك فلساً . وأنفق سترابشر على إعاشته النقود التي ادخرها ليدرس الموسيقى في همبروج . فلما نفدت ، رحب شيلر بدعوة للإقامة في باورباخ في كوخ تملكه السيدة هرييتا فون فولتسوجن . وهناك كتب تمثيلية ثلاثة سماها « الدسييه والحب » . ووقع في غرام الأنسة لوته فون فولتسوجن البالغة من العمر ستة عشر ربيعاً . ولكنها أثرت عليه منافساً في حبها . وظفرت « فييسكو » التي نشرت في غضون هذا بتوزيع جيد . وندم دالبرج ، وأرسل إلى شيلر دعوة ليكون كاتب التمثيلات المقيم لمسرح مانهايم براتب قدره ثلاثمائة فلورن في العام . فوافق (يوليو ١٧٨٣) .

ونعم شيلر بعام من السعادة القلقة رغم كثرة ديونه التي عجز عن سدادها ورغم ما أصيب به مرة من مرض خطير . وعرضت فييسكو على المسرح أول مرة في ١١ يناير ١٧٨٤ ، وقد أفسدها ما أصر عليه دالبرج من نهاية سعيه سعادة لا يمكن تصديقها ، ولم تثر المسرحية أي حماسة من النظارة . بيد أن « الدسييه والحب » كانت أفضل بناء ، وأقل خطباً ، وأظهرت حساً متزايداً بالمسرح ؛ وقد رأى فيها البعض ، من وجهة النظر المسرحية ، أفضل المآسى الألمانية قاطبة^(٧٧) . وبعد أن فرغ الممثلون من العرض الأول (١٥ أبريل ١٧٨٤) ضجح النظارة بتصفيق صاحب حمل شيلر على أن يقوم من مقعده في إحدى المقصورات وينحني للجمهور .

كانت سعادته مفرطة قصيرة الأجل . ذلك أنه لم يكن بطبيعته صالحاً للتعامل مع الممثلين ، الذين كانوا على شاكلته تقريباً في عصبيتهم ؛ فقد قسا في الحكم على آدائهم ، ولا مهم على عدم حفظ أدوارهم حفظاً دقيقاً^(٧٨) . ولم يستطع أن يكمل تمثيلية ثلاثة سماها « دون كارلوس » في الزمن المشروط . فلما أن قارب عقده « كاتباً للمسرح » الانتهاء في سبتمبر ١٧٨٤ رفض دالبرج تجديده . ولم يكن شيلر قد ادخر شيئاً ، فعاد من جديد يواجه الإملاق والدائنين الذين فرغ صبرهم .

في هذه الفترة أو نحوها نشر بعض « الرسائل الفلسفية » التي تدل على أن الشكوك الدينية قد أضيفت إلى مشكلاته الاقتصادية . فهو لم يستطع تقبل اللاهوت القديم ، ومع ذلك اشمأزت روحه الشاعرة من الإلحاد المادى ، كذلك الذى عبر عنه دولباخ في كتابه « مذهب الطبيعة » (١٧٧٠) . ولم يعد قادراً الآن على أن يصلى ، ولكنه كان يحسد القادرين على الصلاة ، وقد وصف في إحساس بالحسرة الفادحة ذلك العزاء الذى يهبه الدين لآلاف النفوس في ظروف الألم والحزن والاحتضار ^(٧٩) . على أنه احتفظ بإيمانه بحرية الإرادة ، وبالخلود ، وبإله مجهول ، بانياً هذا كله ، كما بناه كانط ، على الوجدان الأخلاقى . وقد أعرب في عبارة لاتنسى عن مبدأ المسيح الأخلاقى « حين أبغض أنتزع شيئاً من نفسى ، أما حين أحب فإننى أزيد ثراء بما أحب . والصفوح معناه أن أتلقي ثروة فقدت . وكرهاته البشر إنما هى انتحار بطيء » ^(٨٠) .

وسط هذه الظروف المعقدة جمل كرسثيان جوتفريد كورنر حياة شيلر بصداقة من أروع الصداقات في تاريخ الأدب . ففي يونيو ١٧٨٤ أرسل إلى شيلر من ليبزج رسالة تنم على الإعجاب الحار ، مشفوعة بصور له ، ونخطيبته منا شتوك ، وأختها دوراً ، وخطيب دوراً لودفيج هوبر ، ومحفظة جيب طرزتها منا . أما كورنر هذا فقد ولد في ١٧٥٦ (قبل مولد شيلر بثلاثة أعوام) لراعى كنيسة القديس توماس التى قاد فيها باخ قبل جيل الكثير من الموسيقى الخالدة . وقد نال الشاب أجازته في القانون وهو في الحادية والعشرين ، وكان الآن مستشاراً لمجلس الكنيسة الأعلى في درسدن . وأخر شيلر رده حتى ٧ ديسمبر ، إذ كان مرهقاً بمتاعبه وهمومه . ورد عليه كورنر يقول « نحن نقدم لك صداقتنا دون تحفظ ، فاحضر إلينا بأسرع ما تستطيع » ^(٨١) .

وتردد شيلر . وكان قد كون صداقات في مانهايم ، ووقع في غرام العديديات ، لاسيما (١٧٨٤) شارلوتة فون كالب ، التى تزوجت قبل

ذلك، بعام واحد . وفي دارمشتات ، في ديسمبر ١٧٨٤ ، التقى بالدوق كارل أوجست أمير ساكسى - فايمار ، وقرأ عليه الفصل الأول من « دون كارلوس » ، ونال لقب Rat أو المستشار الفخرى ، ولكن لم يصله أى عرض بمكان فى سماء فايمار . ومن ثم فقد قرر أن يقبل دعوة كرونر للبيزج . وعليه ، فى ١٠ فبراير ١٧٨٥ أرسل إلى المعجب الذى لم يعرفه بعد نداء عاطفياً يظهره قريباً من نقطة الانهيار .

« فى الوقت الذى سهرع فيه نصف سكان مانهايم إلى المسرح . . . أظير إليكم أنها الأصدقاء الأعزاء . . . فنذ أن تلقيت خطابكم الأخير لم تبرحنى قط الفكرة بأننا مخلوقون بعضنا لبعض ، لا تسيثوا الظن بصداقتى إذ تبدو متعجلة بعض الشيء . فالطبيعة تطرح الكلفة فى رضاها عن بعض الكائنات . والنفوس النبيلة ترتبط بخيط رقيق كثيراً ما يتبين أنه طويل البقاء .

« فإذا ما التمستم العذر لرجل تدفق قلبه أفكار عظيمة ولكنه لم ينجز غير أفعال صغيرة ؛ رجل لا يستطيع إلى الآن إلا أن يتحدث من حماقاته أن الطبيعة رصدته لشيء ما ، ويطالب بالحب الذى لا حدود له ، وهو مع ذلك يجهل ما فى وسعه أن يقدمه رداً على هذا الحب ؛ ولكنه رجل يستطيع أن يحب شيئاً ما يتجاوز شخصه ، ولا يعذبه شيء كرويته نفسه بعيداً كل البعد من أن يكون ما يشتهى أن يكونه ؛ أقول إذا تطلع رجل هذه طبيعته إلى صد اقتكم فإن صد اقتنا ستكون أبدية ، لأننى أنا ذلك الرجل . فلعلكم ستحبون شيلر ، حتى إن كان تقديركم للشاعر قد تضاعف » .

وقد توقف عن إكمال هذا الخطاب ، ولكنه استأنفه فى ٢٢ فبراير :

« لا أستطيع المقام بعد اليوم فى مانهايم . . . فلا بد لى من زيارة لبيزج والتعرف إليكم . إن نفسى متعطشة لغذاء جديد - لناس أفضل - للصداقة ، والمودة ، والمحبة . لا بد أن أكون قريباً منكم ، وبفضل حديثكم وصحبكم ستنتعش روحى الجريحة . . . يجب أن تهونى حياة جديدة ، وسأصبح خيراً مما كنت فى أى وقت مضى . سأكون سعيداً - لأننى لم أنعم بالسعادة قط إلى الآن . . . أتراكم ترحبون بمقعدى ؟ » (٨٢) .

ورد كورنر في ٣ مارس يقول « سنستقبلك بأذرع مفتوحة » ثم نقد ج. ي. جوشن الناشر الليبرالي بعض المال ليرسل إلى شيلر مقدم أتعابه عن مقالات مستقبله ^(٨٣). فلما أن وصل الشاعر إلى ليبزج (١٧ مارس ١٧٨٥) كان كورنر غائبا في درسدن ، ولكن خطيبته . وأختها ، وهوبر . ادفأوا شيلر بالطعام والحفاوة البالغة . وأحبه جوشن لتوه ، وكتب يقول « لأستطيع أن أصف لك مبلغ عرفان شيلر واستجابته حين تبذل له النصيحة الناقده ، ومبلغ جهاده في سبيل تطوره الخلقى » ^(٨٤).

والتقى كورنر بشيلر أول مرة في ليبزج في أول يوليو . ثم قفل إلى درسدن . وكتب إليه شيلر يقول « لقد جمعت السماء بيننا بطريقة عجيبة ، وصداقتنا معجزة . » ولكنه أردف أنه أشرف على الإفلاس من جديد ^(٨٥) . فبعث إليه كورنر بالمال . والطمأنينة ، والنصيحة :

« إن كنت في حاجة إلى المزيد فاكتب لى وسأرسل لك أى مبلغ يرجوع البريد . أننى لو كنت ذا ثراء طائل ، وكان فى استطاعتى . . . أن أرفعك فوق العوز والحاجة لضروريات الحياة فى يوم من الأيام . لما جرؤت على أن أفعل هذا ، فأنا عليم بأنك قادر على كسب ما يبنى بكل حاجاتك بمجرد أن تشرع فى العمل . ولكن اسمح لى — على الأقل سنة واحدة — بأن أعفيلك من ضرورة العمل . فى استطاعتى أن أدبر هذا دون إعسار ، وفى استطاعتك أن ترد لى المال إن شئت حين تسمح بذلك ظروفك » ^(٨٦).

وزاد من قدر هذا الجود أن كورنر كان يجهز نفسه للزواج . وزف العروسان بدرسدن فى ٧ أغسطس ١٧٨٥ . وفى سبتمبر لحق بهما شيلر وعاش معهما ، أو على حسابهما ، حتى ٢٠ يوليو ١٧٨٧ . فى هذه الفترة أو نحوها — ربما وسط سعادة العروسين — كتب أشهر قصائده « أغنية للفرح » التى أصبحت تاج السمفونية التاسعة . وكلنا يعرف ميلودية يتوقف المؤثرة ، ولكن القليلين منا ، خارج ألمانيا ، من يعرفون كلمات شيلر . وقد بدأت بنداء للمحبة الشاملة ، وانتهت بدعوة للثورة :

أيها الفرحة المنبثقة من لهب سماوى
يا ابنة الفردوس ،
لأننا نقبل إلى هيكلك
ملتجئين بتلك النار المقدسة .
أنت صاحبة التعاويذ التى وحدث
من باعدت التقاليد الرهيبة بينهم ،
كل الناس يصبحون أخوة
حيث يمتد جناحك الرفيقان .

الكورس :

نحن نجتمع الملايين بين أحضاننا ،
ونرسل قبلتنا إلى الدنيا بأسرها !
أيها الأخوة ، ان وراء السماء المرصعة بالنجوم
يسكن أب محب .
من جرب النعيم المقيم
في صداقة الأصدقاء ،
ومن ظفر بعذراء محبوبة
ليشاركنا فى ابتهاجنا .
ومن سبي قلبا
ملكه دون الناس أجمعين -
ومن أخفق ، فلينصرف
عن جماعتنا باكيا .

الكورس :

كل ساكن للكون الكبير
يقدم الإجلال للمبحة
وهى تتقدم الطريق إلى النجوم
حيث يملك الآله المجهول .
إن القلوب الباسلة الرازحة تحت الآلام
تمد يد العون حيثما يبكى الأبرياء .
والعهد الذى لا يخلد أبدا

والوفاء للصدق والعدو !
وتحدى الملوك ، والروح الجريئة ،
وإن كلفتنا المال والدم أبها الأخوة ،
التيجان لأشرف مستحقها
والموت لكل سلالة الكذابين !

الكورس : أقفل الدائرة المقدمة
وأقسم بالخمرة الذهبية !
أقسم بالوفاء بهذه العهود المقدمة
أقسم برب الفلك .

وظل كورنر يعول شيلر عامين أملأ في أن يصوغ الشاعر في شكل لائق
تلك المسرحية التي قصد بها تصوير الصراع بين فليب الثاني وابنه كارلوس •
ولكن شيلر طال توانيبه وتسويفه للتمثيلية حتى فقد المزاج الذي بدأها به ،
ولعل ازدياد اطلاعه على التاريخ غير نظرته إلى فليب ؛ ومهما يكن الأمر ،
فقد غير الحبكة حتى افتقدت الوحدة والتسلسل . « وفي غضون هذا (فبراير
١٧٨٧) وقع في غرام هنرييتا فون أرنيش ، واستهلكت الخطابات الغرامية
مداد قلمه ، بينما كانت هي تتصيد خطيباً أغنى منه . وأقنع كورنر شيلر
بأن يعتكف في إحدى الضواحي حتى يفرغ من مسرحيته . وأخيراً تمت
(يونيو ١٧٨٧) ، وعرض مسرح همبورج أن يخرجها . وانتعشت معنوية
شيلر وكبرياؤه ، فلعله الآن يرى جديراً بالانضمام إلى كوكبة الأدباء المتألقة
حول الدوق كارل أوجست ، أما كورنر الذي تنفس الصعداء فقد وافقه
على أنه ليس للشاعر مستقبل في درسدن . ثم إن شارلوتة فون كالب كانت
في فايمار ، بغير زوج ، تغريه بالمجيء . وعليه ، ففي ٢٠ يوليو ، وبعد
الكثير من عبارات الوداع ، ركب شيلر منطلقاً من درسدن إلى حياة جديدة .
فوصل فايمار في الغد ، وهكذا اكتمل عقد الزمرة العظمى .

الفصل الثالث والعشرون

فأعمار إبان ازدهارها

١٧٧٥ - ١٨٠٥

١ - ... تنمة لفيلاندا : ١٧٧٥ - ١٨١٣

حين رأى مونسارات فيلاندا في مانهام عام ١٧٧٧ قال في وصف وجهه أنه « قبيح إلى حد مخيف ، تغشاه ندوب الجدري ، وله أنف طويل ، . . . وفيما خلا هذا فهو . . . رجل موهوب جداً . . . والناس يحذقون فيه كأنه قد هبط من السماء » (١) . وقد كرهه طيور النوء الهائجون أنصار الحركة « الزوبعية » لأنه سخر من انتشاءاتهم المتمردة ؛ أما فأعمار فأحبته لأنه لطف نقله اللاذع بالكنيسة وبغفران عام للنوع الإنساني ، ولأنه احتمل في رضى تفجر النجوم الجديدة مراراً في سماء الأدب بينما كان في استطاعته أن يدعى لنفسه مكان الصدارة . وقد خلد جوته ذكره في سيرته الذاتية بشعور العرفان بصنيعه (٢) . أما شيلر فقد خاله في أول لقاء بينهما مغروراً محزوناً ، ولكن « الموقف الذي اتخذه منى للتو يدل على الثقة والحب والتقدير » (٣) .

وقال الشاعر الكبير للشاعر الفتى « سنفتح عما قليل قلبينا الواحد للآخر ، وسيساعد كل منا صاحبه بدوره » (٤) ، وقد أثبت وفاءه بهذا الوعد ، « لأننى وفيلاندا نتقارب أكثر كل يوم . . . ولا تفوته مناسبة لا يذكرني فيها بكلمة طيبة » (٥) .

وقد وفق فيلاندا في منافسته للوافدين الجدد بإصداره في ١٧٨٠ رواية شعرية اسمها « أوبرون » تحكى قصة فارس تنقله عصا أمير الجان السحرية من مائة جنية ومن شركاء مفاتن ملكة اشتدت بها حرارة العشق . وحين

اضطر جوته إلى الجلوس لمصور يرسم صورته وأراد أن يقعد ساعة دون حركة ، طلب إلى فيلاند أن يقرأ عليه أجزاء من هذه الملحمة . يقول فيلاند « لم أشهد قط لإنساناً سعد بعمل إنسان آخر كما سعد جوته » ^(٦) . وقد ترجم جون كوينسى آدمز القصيدة وهو سفير للولايات المتحدة في بروسيا في ١٧٩٧ - ١٨٠١ ، واقتبس منها جيمس بلانشيه نص أوبرا فيبر (١٨٢٦) .

واحتوى عدد مارس ١٧٩٨ من مجلة فيلاند « الرائد الألماني الجديد » مقالة يحتمل أنها بقلم فيلاند - تنبأت بالأحداث المقبلة على نحو يلفت النظر . فقد لاحظت الفوضى التي تردت فيها فرنسا منذ ١٧٨٩ ، وأوصت بتعيين دكتاتور لها ، كما وقع في الأزمات التي تعرضت لها روما الجمهورية ، ورشحت بوناپرت الشاب ، الذي كان يواجه المتاعب يومئذ في مصر ، بوصفه صالحاً لهذه المهمة بشكل واضح . وحين فتح نابليون ألمانيا فعلا التقى بفيلاند في فايمار وفي إيرفورت (١٨٠٨) ، وتحدث معه في أدب اليونان والرومان وتاريخهم ، وكرمه فيمن كرم من الكتاب الألمان بوصفه أعظمهم بعد جوته ^(٧) .

وفي ٢٥ يناير ١٨١٣ كتب جوته في يوميته « دفن فيلاند اليوم » ثم أنهى النبأ إلى صديق في كارلسباد قائلاً : « لقد تركنا صديقنا الطيب فيلاند . في ٣ سبتمبر احتفلنا كما الفنا كل عام بعيد ميلاده الثمانين بمظاهر الابتهاج . لقد كان في حياته توازن بديع بين الهدوء والنشاط . فلقد أسهم بقدر هائل في ثقافة الأمة العقلية في ترو وأناة ملحوظين ، دون أى نضال مشبوب أو صراخ عال » ^(٨) .

٢ - هرذر والتاريخ : ١٧٧٧ - ١٨٠٣

كتب شيلر في يوليو ١٧٨٧ « لقد تركت هرذر لتوى . . . أن حديثه رائع ، ولغته دافئة قوية ، ولكن مشاعره يراوحها الحب والكراهة » ^(٩) .

وكانت واجهات هرذر في فايمار متنوعة ، فلم تنح له متسعاً من الوقت للتأليف . فكان بصفته قسيساً خاصاً للدوق يقوم بواجبات العباد ، والتثيبت

في الإيمان ، وعقد الزيجات والإشراف على الجنازات لأسرة الدوق وبلاطه ، وبصفته المرافق العام للدوقية كان يشرف على سلوك الأكليروس وتعييناتهم ، ويحضر اجتماعات مجلس الكنيسة ويلقى عظات فيها من سلامة العقيدة القدر الذي تسمح به شكوكه الخاصة . وكانت مدارس الدوقية تحت إدارته ، فأصبحت نموذجاً تحتذى ألمانيا كلها . هذه المسؤوليات مضافاً إليها ناسوره وسوء صحته عموماً ، جعلته سريع الغضب وصبغت حديثه بين الحين والحين بما سماه جوته « اللدغة الخبيثة » ^(١١) . وقد ظل ثلاث سنين (١٧٨٠ — ٨٣) هو وجوته يتحنب أحدهما صاحبه ؛ وقد أنكر الدوق بعض عظات هردر . قال جوته « بعد عظة كهذه لم يبق أمام أى أمير إلا الاعتزال » ^(١٢) . وقال فيلاند اللطيف الطبع معلقاً في ١٧٧٧ « وددت لو قام بينى وبين هردر اثنا عشر هرمًا » ^(١٣) ، وتعلمت فإيمار أن تلتمس المعازير « الاكلينيكية » لقسيسها الشبيه بدين سويقت ، وردت زوجته اللطيفة كارولينه على بعض لدغه . وفي ٢٨ أغسطس ١٧٨٣ اغتنم جوته اتفاق وقوع عيد ميلاده وعيد ميلاد ابن هردر المبكر في يوم واحد ليدعو آل هردر للعشاء . واصطلح عضو المجلس الخاص والمراقب العام ، وكتب جوته يقول ان « السحب الكثيبة التي فرقت بيننا طويلاً قد انجلت ، وإلى الأبد في اعتقادي » ^(١٤) . وبعد شهر أضاف « لست أعرف رجلاً أنبل قلباً أو أسمح وروحاً » ^(١٥) ، وذكر شيلر في ١٧٨٧ أن « هردر شديد الإعجاب بجوته — بل هو يكاد يعبده » ^(١٦) . وأصبح فيلاند وهردر في الوقت المناسب صديقين متفاهمين ^(١٧) ، وكان هذان ، لا جوته ولا شيلر ، هما اللذين قادا الحديث في صالون آنا أماليا واكتسبا قلب الدوقة الأرملة ^(١٨) .

وواصل هردر وسط واجباته الإدارية البحث في الشعر البدائي ، وجمع عينات منه من نيف وعشرة شعوب ، ومن أوفيدس إلى أوسيان ، ونشرها في « مختارات سماها Volksliede » « أغاني شعبية » (١٧٧٨) أصبحت ينبوعاً من ينابيع الحركة الرومانتيكية في ألمانيا . وبينما كان جوته يتهاى لعودة إلى المثل والأشكال والأساليب الكلاسيكية ولضبط العقل للعاطفة ، كان هردر يشير بالانتفاض على عقلانية القرن الثامن عشر وشكلية القرن السابع عشر والعودة إلى إيمان العصر الوسيط وأساطيره وأناشيده وأساليب حياته .

وفي ١٧٧٨ عرضت الأكاديمية البافارية جائزة لأفضل مقال « في آثار الشعر في عادات الأمم وأخلاقها » . وفاز مقال هرذر ونشرته الأكاديمية في ١٧٨١ . وقد تتبع المقال ما رآه المؤلف تدهوراً للشعر بين العبرانيين واليونان والأوربيين الشماليين ، من التعبير الملحمي المبكر عن التاريخ والمشاعر والأفكار الشعبية في إقاعات طليقة فياضة ، إلى تدريب « مصقول » ومدرسي ، بعد المقاطع ، ويلوى القوافي ، ويقدر القواعد ، ويضيع حيوية الشعب وسط مظاهر الافتعال المميته التي تشوب حياة الحضر . وزعم هرذر أن النهضة الأوروبية قد انتزعت الأدب من الشعب وحبسته بعيداً في قصور الملوك والأمراء ، وأن الطباعة قد احلت الكتاب محل المنشد الحي . وفي مقال آخر « في روح الشعر العبري » (١٧٨٣) اقترح هرذر قراءة سفر التكوين على أنه شعر لا علم ، وكان قد تمكن من العبرية بجهد الخاص ، وألح إلى أن شعراً كهذا يستطيع أن يحمل بالرمزية من الحقيقة قدر ما يحمله العلم بـ « الواقع » .

ولقد كافح إيمانه الديني للصمود رغم سعة اطلاعه على الكتب العلمية والتاريخية . ففي عامه الأول في فایمار اشتبه بعضهم في أنه ملحد ، حر الفكر ، سوسيني ، صوفي (١٨) . وكان قد قرأ أجزاء « مخطوطة فولفنبوتل » لريماروس ، التي نشرها ليسنج ، وتأثر بها تأثراً كفى لتشكيكه في لاهوت المسيح (١٩) . ولم يكن ملحداً ، ولكنه وافق على وحدة الوجود التي قال بها سبينوزا . قال لياكوب في ١٧٨٤ « لست أتبين إلهاً من وراء العالم المادي » (٢٠) . وقد حذا حذو ليسنج في دراسة سبينوزا والدفاع عنه ، « يجب أن أعترف أن هذه الفلسفة تسعدني جداً » (٢١) . وقد كرس لسبينوزا الفصول الأولى من رسالة عنوانها « أحاديث عن الله » (١٧٨٧) ، ففي هذا البحث فقد الله صورته الذاتية وأصبح قوة الكون وروحه ، الذي لا سبيل إلى معرفته إلا في نظام العالم والوعي الروحي للإنسان (٢٢) . على أن هرذر في دراساته الموجهة إلى الأكليروس قبل الصفة الخلارقة لمعجزات المسيح ، وخلود النفس (٢٣) .

ثم جمع العناصر المتفرقة لفلسفته وجعل منها كلا منسقاً نسبياً في رائعة ضخمة سماها في تواضع « أفكار نحو فلسفة في تاريخ الإنسان » ، وهي

كتاب من كتب القرن الثامن عشر البزرية الخطيرة . صدر في أربعة أجزاء في ١٧٨٤ و ١٧٨٧ و ١٧٩١ . وإشراف مشروع ضخيم كهذا على التمام وسط مسئوليات هرذر الرسمية يقوم شاهداً على الخلق القوي والزوجة الصالحة . وآية ذلك ما كتبه هرذر إلى هامان في ١٠ مايو ١٧٨٤ : « لم أولف طوال حياتي كتاباً كهذا وأنا نهب للكثير من المتاعب وأسباب الإرهاق من الداخل ودواعي الإزعاج من الخارج ، بحيث أستطيع القول إنه لو لا أن زوجتي ، التي هي « المؤلف الحقيقي » لكتبي ، ولولا جوته الذي نظر مصداقة في الجزء الأول — أقول لولا أنهما لم يفترأ عن تشجيعي وحثي ، لظل كل شيء في مثنوى الكائنات التي لم تر النور » (٢٤) .

ويستهل الجزء الأول بقصة للخلقة ، دنيوية في صراحة ، مبنية على الفلك والجيولوجيا المعروفين ، دون لجؤ للكتاب المقدس إلا بوصفه شعراً . وقد زعم أن الحياة لم تنشأ من المادة ، لأن المادة ذاتها حية . والجسم والعقل ليسا جوهرين منفصلين متضادين . إنما هما صورتان لقوة واحدة ، وكل خلية في كل جسم حتى تحتوى الصورتين إلى حد ما . وليس هناك قصد خارجي يمكن رؤيته في الطبيعة ، ولكن هناك قصداً باطنياً — هو « التصميم الكامل » والباعث لكل بذرة أن تتطور إلى كائن نوعي بكل ما لها من أجزاء معقدة مميزة . وهرذر لا يقول بأن الإنسان تطور من الحيوانات الدنيا ، ولكنه يراه عضواً في المملكة الحيوانية ، يناضل كغيره من الكائنات للطعام والبقاء . وقد أصبح الإنسان إنساناً باتخاذ القامة المنتصبة ، مما طور فيه جهازاً للحس قائماً على البصر والسمع لا على الشم والذوق ؛ فغدت قوائمه الأمامية أيدي . حرة في القبض ، والاستعمال ، والاحتواء ، والتفكير . وأسمى ثمرات الله أو الطبيعة هو الذهن الواعي ، الفعال بتفكير وحرية ، المكتوب له الخلود .

ويبدأ الجزء الثاني من « الأفكار » بفرض يزعم أن الإنسان بطبيعته خير ، ويجدد القول بالتفوق والسعادة النسبيين للمجتمعات البدائية ، ويستنكر الفكرة الكانطية — الهيكلية فيما بعد — التي تزعم أن الدولة هي هدف التطور البشري . وقد احتقر هرذر الدولة كما عرفها . كتب يقول « في الدول العظمى لا بد

أن يتضور المئات جوعاً لكي يزهو فرد واحد ويتقلب في النعيم ؛ أن عشرات الألوف يظلمون ويساقون إلى الموت لكي يستطيع أحق أو عاقل متوج واحد أن يحقق حلمه» (٢٥) .

وفي الجزء الثالث امتدح هرذر أثينا على ديمقراطيتها النسبية التي أتاحت للحضارة أن تنتشر في كثير من طبقات السكان . أما روما التي أقامت ثراءها على الفتح والرق فقد طورت حضارة ضيقة خلفت الشعب في الفقر والجهل . في هذا التاريخ كله لم ير هرذر أى « عناية إلهية » ، فهو أشد من أن يكون من عند الله . فالله ، الواحد مع الطبيعة ، يدع الأمور تجري في أعنتها وفق القانون الطبيعي وغباوة البشر . ومع ذلك فبحكم صراع البقاء ذاته ينبعث بعض التقدم من القوضى ؛ فيطور العون المتبادل ، والنظام الاجتماعي ، والأخلاق ، والقانون ، كوسائل للبقاء ، ويتحرك الإنسان في بطء صوب إنسانية رحيمة . لا لأن هناك خطأ متصلاً للتقدم ، فهذا غير ممكن ، لأن كل حضارة قومية هي كيان فريد . له طابعه المتأصل ، ولغته ، ودينه ، وناموسه الخلقى ، وأدبه وفنه ، وكل حضارة — شأنها شأن أى كائن حي — إذا استثنينا ما يطرأ عليها من حوادث عارضة — تنحو للنمو إلى نهايتها القصوى الطبيعية ، التي تضمحل بعدها وتموت . وليس هناك ضمان لتفوق الحضارات اللاحقة على السابقة ، ولكن اسهامات كل حضارة تنقل على نحو أفضل إلى الحضارات التي تخلفها . وهكذا ينمو التراث الإنساني .

والجزء الرابع يمتدح المسيحية أما للمدنية الغربية . فالبابوية الوسيطة حققت هدفاً نافعاً يكبحها استبدادية الحكام والنزعة الفردية للدول ؛ والفلاسفة المدرسيون ، وإن نسجوا نسيجاً واهياً أجوف بالفاظ ثقيلة ، إلا أنهم أرهفوا أدوات العقل ولغته . وجامعات العصر الوسيط جمعت وحفظت ونقلت الكثير من ثقافة اليونان والرومان ، بل بعض علوم العرب والفرس وفلسفتهم . وهكذا أصبح المجتمع الفكرى أكبر عدداً وأرهف حساً من أن يقوى عليه سدة السلطة . ونحطمت أغلال العرف ، وأعلن العقل الحديث تحرره .

وحقق هرذر فيما بين الجزئين الثالث والرابع من « الأفكار » حلمه الذى طال تأجيله برؤية إيطاليا . ذلك أن يوهان فريد ريش هوجو فون دالبرج ، المستشار الكاثوليكي الخاص لرئيس أساقفة تريير الناخب ، دعا هرذر ليصحبه فى رحلة كبرى تدفع له فيها كل نفقاته . وأذن له دوق ساكسى - فامار ، وكارولينه ، بالغياب ؛ فغادر فامار فى ٧ أغسطس ١٧٨٨ . فلما لحق بدالبرج فى أوجزبرج وجد أن خلية دالبرج عضو هام فى الجماعة . واجتمع على هرذر وجودها ومطالبها ، وسوء صحته ، لتتغص عليه رحلته . وفى أكتوبر وصلت آنا أميليا إلى روما . فترك هرذر دالبرج وانضم إلى بطانتها . وقد استلطف انجليكا كاوفمان استلطافاً أكثر مما ترضى عنه كارولينه ، وأسرفت رسائل كارولينه فى الكلام عن جوته والميل إليه . وعاد هرذر لدغه ، وكان قد سمع أنباء عن حياة جوته فى روما . وكتب يقول « ان رحلتى هنا كشفت لى لسوء الحظ عن حياة جوته الأنانية على نحو أوضح مما كنت أتمنى ، وهى حياة فى صميمها لاتعبأ بالغير على الإطلاق . إنه لا يملك غير هذا ، فلندعه وشأنه إذن . . » (٢٦) .

وعاد إلى فامار فى ٩ يوليو ١٧٨٩ . وبعد خمسة أيام سقط الباستيل ، وغير هرذر خططه فى التأليف . فأكمل الجزء الرابع من « الأفكار » ، ثم نعى الكتاب جانباً ، وكتب بدلا منه « رسائل لتقدم الإنسانية (١٧٩٣ - ٩٧) » . وقد بدأها بتقريظ حذر للثورة الفرنسية ، ورحب بأنصار الإقطاع الفرنسى ، ولم يندرف دموعاً على علمنة الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا (٢٧) ، وحين انطلق الدوق وجوته لمواجهة الفرنسيين عند فالمر ، وعادا بجوران أذيال الهزيمة ، حبس هرذر هذه « الرسائل » الأولى ، وخصص الباقي للثناء على الموتى من العباقرة الذين لا خوف من الثناء عليهم .

ولم يفقد فى شيخوخته شيئاً من لذة الصراع الفكرى . فقابل نقد كانط لكتاب « الأفكار » بهجوم حاد على « نقد العقل الخالص » . ووصف الكتاب بأنه تلاعب رهيب بالألفاظ الميتافيزيقية الأشباح ، مثل « الأحكام التركيبية القبلية » ، وأنكر ذاتية المكان والزمان ، واتهم كانط بأنه أعاد إلى علم النفس فكرة الملكات ، التى زعم الفلاسفة

المدرسيون أن العقل ينقسم إليها . ثم المص ، في تنبؤ ، إلى أن الفلسفة قد تختط طريقاً جديداً بالتحليل المنطقي للغة—لأن الاستدلال ما هو إلا حديث باطنى .

وقد وافق جوته إلى حد كبير على نقد هردر لكانط ، ولكن هذا لم يعصمه من لدغة نصيبه منه بين الحين والحين . فحين أقام كلاهما تحت سقف واحد في يينا عام ١٨٠٣ قرأ جوته على جماعة كان هردر واحداً منها أجزاء من مسرحيته الجديدة « الإبنة الطبيعية » (أى غير الشرعية) . وأثنى هردر على المسرحية للآخرين ، ولكن حين سأله المؤلف رأيه لم يستطع مقاومة الرد بتورية عن الصبي الذى ولدته خلية جوته فقال : « انى أحب ابنتك الطبيعى أكثر من ابنتك الطبيعية » ولم يستطع جوته الدعاية . وبعد ها لم يلتق الرجلان قط . واعتكف هردر فى خلوة بيته بفامار ، ومات هناك فى ١٨ ديسمبر ١٨٠٣ — قبل شيلر بعامين ، وقبل فيلاندر بعشرة ، وقبل جوته بتسعة وعشرين ودفن بأمر الدوق كارل أوجست — الذى كثيراً ما ضايقه هردر — بمراسم التكريم الكبير فى كنيسة القديسين بطرس وبولس .

٣ — جوته عضو المجلس الخاص

١٧٧٥ — ٧٦

لجى جوته فى فامار ترحيباً من الجميع إلا السياسيين . كتب فيلاندر إلى لافاتر فى ١٣ نوفمبر ١٧٧٥ « لأبد لى من انبائك بأن جوته معنا منذ الثلاثاء الماضى ، وأنه لم تنقض ثلاثة أيام حتى شعرت بمحبة عميقة لهذا الشخص الرائع — فأنا أنفذ إلى أعماقه وأحسه وأفهمه تماماً — على نحو تستطيع أن تتخيله أفضل كثيراً مما أستطيع أن أصفه » (٢٨) . وفى الشهر نفسه كتب أحد رجال الحاشية إلى والدى جوته يقول « فكراً فى ابنكما كأوثق صديق لدوقنا العزيز ، . . . وهو محبوب إلى حد العبادة أيضاً من جميع السيدات من فضليات النساء فى هذه المنطقة » (٢٩) .

بيد أن سماء فامار لم تخل من غيوم . ذلك أن الدوق كان يستطيط الصبيد العنيف والإفراط فى الشراب ، وقد صاحبه جوته فيهما جميعاً أول الأمر ،

فاتهم كلوبشتوك الشاعر علانية بأنه يفسد أميراً فاضلاً . وخشيت لوزيه أن يتصوى جوته زوجها عنها ، مع أن حقيقة الأمر أنه استخدم تأثيره ليرد الدوق إلى الدوقة رغم أن زواجهما لم يكن زواج حب . وتشكك بعض الموظفين في جوته باعتباره تابعاً متطرفاً من اتباع الحركة « الزوبعية » ذا معتقدات وثنية وأحلام رومانسية . وهجم على فایمار عدد من أنصبا تلك الحركة — لنن ، وكلنجر ، وغيرهما — وقدموا أنفسهم باعتبارهم أصدقاء جوته ، وطالبوا بالغيمة . وحين استلطف جوته بيتنا ذا حديقة خارج بوابة المدينة ولكنه قريب من قلعة الدوق — أفقد كارل أوجست جوته بعض عطف الرأى العام بإخلائه شاغلي البيت تمكيناً لجوته من الانتقال إليه (٢١ أبريل ١٧٧٦) . هناك تخفف الشاعر من مراسم البلاط ، وتعلم كيف يزرع الخضر والأزهار . وظل ثلاثة أعوام يسكن البيت على مدار السنة ، ثم في الصيف فقط حتى ١٧٨٢ ، حين انتقل إلى قصر فسيح في المدينة لينصرف إلى واجباته المتزايدة بصفته عضواً في الحكومة .

كان الدوق قد فكر فيه شاعراً ، ودعاه إلى فایمار ليكون كوكباً من كواكب الأدب في بلاطه . ولكنه رأى أن مؤلف مسرحية ناثرة ورواية غرامية باكية ، هذا الكاتب الذى ناهز السادسة والعشرين ، أخذ يصبح رجلاً ذا حكم عملى شديد . وعليه فقد عين جوته في « مكتب للأشغال » ، وطلب إليه أن ينظر في حالة المناجم في المينا وفي تشغيلها . وقام جوته بالمهمة بهمة وذكاء حملاً كارل أوجست على التصميم على ضمه للمجلس الخاص الذى يدير شئون الدوقية . واحتج عضو قديم على تدفق الشعر على المجلس على هذا النحو الفجائى ، وهدد بالاستقالة . ولكن الدوق والدوقة الأرملة هدها ثأثرته ، وفي ١١ يونيو ١٧٧٦ أصبح جوته « عضو المجلس المختص بالتفويض الدبلوماسى » براتب سنوى قدره ألف ومائتا طالر . فقاتل من مغازلاته للسيدات . وقد كتب فيلاند ليرك في ٢٤ يناير يقول « منذ أمد طويل ، من اللحظة التى قرر فيها أن يكرس نفسه للدوق وشئون الدوق ، راح يسلك بحكمة مبرأة من الخطأ ويحذر الرجل الخبير بأمر الدنيا » (٣٠) . وفي ١٧٧٨ رقى إلى منصب وزير الحرب ، وكان يومها

منصباً هادئاً ، ثم إلى العضوية الكاملة للمجلس الخاص في ١٧٩٩ . وقد حاول بعض الإصلاح ، ولكنه وجد نفسه معوقاً بالمصالح المكتسبة في القمة ، واللامبالاة العامة في القاعدة ، وما لبث هو نفسه أن بات محافظاً تام المحافظة . وفي ١٧٨١ عين رئيساً لغرفة الدوقية . وفي ١٧٨٢ خلع عليه يوزف الثاني براعة النبالة ، وغدأ « فون » جوته . قال لأكرمان بعد خمسة وأربعين عاماً « في تلك الأيام كنت أشعر بغاية الرضى عن نفسي بحيث اننى لو كنت رقيت أميراً لما وجدته تغييراً ذا بال » (٣١) .

وامتزجت بمستقبله السياسى قصة غرام كانت أبى وأحر وألم حب في حياته . استمع إلى وصف الدكتور يوهان تسمرمان لإحدى مرضاه وصفاً لا يمت إلى الطب بسبب في نوفمبر ١٧٧٥ .

« ان للبارونه فون شتين ، زوجة البارون ورئيس الخياله ، عيوناً نجلاء سوداء رائعة الجمال . وصوتها رقيق خافت . ولا يفوت أحداً أن يلحظ على وجهها سمات . . . الرزانة ، ودماثة الطبع ، واللطيف . . . والفضيلة ، والحساسية العميقة . أن آداب السلوك في البلاط ، التى تملك ناصيتها إلى حد الكمال ، تحولت فيها إلى بساطة رفيعة نادرة . وهى نقية جداً ، ذات سمو روحى مؤثر يكاد يبلغ حد النشوة . ولا يستطيع المرء من مشيتها الأنيقة ومهارتها في الرقص التى تقرب من مهارة المحترفين ان يستشف نور القمر الهادى المطمئن . . . الذى يملأ قلبها بالسلام . أنها في الثالثة والثلاثين ، ولها عدة أطفال . وأعصابها ضعيفة . ووجنتها ورديتان ، وشعرها فاحم ، وبشرتها . . . إيطالية اللون » (٣٢) .

وقد ولدت شارلوتة فون شارت في ١٧٤٢ ، وتزوجت البارون يوسياس جوتلوب فون شتين في ١٧٦٤ . وفي ١٧٧٢ بلغ مجموع ما أنجبت من أطفال سبعة ، مات منهم أربعة . وحين التقى بها جوته كانت لاتزال تعاني من الحمل المتكرر ، وامتزج إحساسها بالضعف بما فطرت عليه من تواضع وحياء . ورفعهما جوته في خياله إلى السماء ، ولا غرو فقد كان فيه دم شاب وخيال شاعر ، ألف تجميل الواقع ونيط به هذا التجميل ، ومع ذلك لم يجاوز

ما قاله طبيبها في تمجيدها . فقد كانت شيئاً جديداً في بستان وروده النسائية : كانت ارستقراطية ، كأنما ركب السلوك المهذب في فطرتها ، ورآها جوتها كأنها من النفائس المدخورة في قدس النبالة . وكان من ثمرات علاقتهما أنها نقلت إليه آداب طبقتها ، وعلمته ضبط النفس ، والطبيعية ، والاعتدال ، والمجاملة . وكانت شاكراً حبه إياها لأنه رد إليها اهتمامها بالحياة ، ولكنها قبلت هذا الحب كما تقبل امرأة كريمة المربي إعجاب فتى يصغرها بسبع سنين — باعتباره آلام النمو لروح متشوق يبحث عن التجربة وتحقيق الذات .

ولم يكن حباً من أول نظرة ، فبعد أن انضم إلى زمرة فاعمار بستة أسابيع كان لا يزال يقرض الشعر عن « الجميلة لى » شونمان^(٣٣) . ولكن في ٢٩ ديسمبر ١٧٧٥ ، لاحظ الدكتور تسمرمان تنبه جوتها إلى « فضائل ومفاتيح جديدة في شارلوت » . وما حل ١٥ يناير حتى كان يحاول مقاومة افتتانه الوليد بها ، فقال لها « اننى مسرور لأنى أبعد عنك وأفطم نفسي منك » ، ولكن لم يواف ٢٨ يناير حتى كان قد ألقى السلاح ، وكتب إليها يقول « ياملاكى الحبيب ، لن آتى إلى البلاط . ان بى من شعور السعادة ما لا أطيع معه كثرة الخلق . . . فأسمحى لى أن أحبك كما أفعل » . ثم كتب في ٢٣ ٢٣ فبراير « يجب أن أخبرك أيها المختارة بين النساء أنك أقيت في قلبى حباً يملؤنى بهجة »^(٣٤) .

وردت برسائل كثيرة ، ولكن لم يبق منها غير واحدة من هذه الحقبة : « لقد عزلت نفسى بعيداً عن العالم ، ولكنه الآن يعود إلى عزيزا ، وعزيرى بسببك . ان قلبى يبكئنى وأنا أشعر اننى أعذب نفسي وأعذبك . فقبل ستة أشهر كنت على أتم استعداد للموت ، وأنا لم أعد الآن مستعدة للقائه »^(٣٥) . وملكته النشوة . فقال لفيلاندا « ليس من تفسير لما تفعله هذه المرأة . . . إلا إذا قبلت نظرية التقمص . أجل ، لقد كنا يوماً ما رجلاً وزوجته ! »^(٣٦) واتخذ لنفسه امتياز الأزواج في الشجار والمصالحة . كتبت شارلوت إلى تسمرمان في مايو ١٧٧٦ تقول : « لقد تركنى ثائراً قبل أسبوع ، ثم عاد بحب طاغ . . . فإذا هو صانع بى في النهاية ؟ »^(٣٧) ويبدو أنها أصرت على أن يظل حبهما أفلاطونياً ، أما هو فكان به من حرارة العشق ما لا يجعله

يترك جبهما عند هذا الحد ، فقال لها « ان امتنع على العيش معك فإن حبك لن ينفعني بأكثر من حب غيرك الغائبات غنى » (٣٨) . ولكنه أُرْدِفَ في الغد « اصفحني غنى أننى آلمتك . وسأحاول بعد اليوم أن أحتمل الألم وحدى » (٣٩) .

وشعر بالوحشة حين ذهبت إلى بيرمونت النائية في الشمال للعلاج ، ولكنها زارته في المينا وعند عودتها (٥ - ٦ أغسطس ١٧٧٦) . وكتب في ٨ أغسطس يقول « كان لحضورك أثر عجيب في . . . وحين أفكر أنك كنت هنا في كهفي معي ، وإننى أمسكت بيدك وأنت تنحنين على . . . أرى صلتك بي مقدسة وغريبة معاً . . . فليس هناك كلام يعبر عنها ، وأعين الرجال لا تبصرها » (٤٠) . وكان لا يزال حاراً في حبه لها بعد أن انقضى على لقائهما الأول قرابة خمس سنين . ففي ١٢ سبتمبر ١٧٨٠ كتب وهو وحيد في زلباخ « كلما استيقظت من أحلامي وجدتني مازلت أحبك وأصبو إليك . واليلة بينما كنا راكبين ورأينا النوافذ المضاءة في بيت أمامنا ، قلت في نفسي ليها هناك لتضيفنا . أن هذا المكان جحر حقير ، ومع ذلك فلو أننى استطعت أن أعيش هنا في هدوء طوال الشتاء معك لأحببته كثيراً » (٤١) . ثم كتب في ١٢ مارس ١٧٨١ :

« لقد امتزجت روحانا امتزاجاً جعلنى كما تعلمين مربوطاً بك رباطاً لا فكاك منه ، ولن يفصلنا علو ولا عمق . وددت لو كان هناك قسم ما أو سر مقدس ما يربطنى بك على نحو مرئى ووفقاً لقانون ما . لكم يكون هذا رائعاً ! ولا شك أن فترة الاختبار كفانى طولها لانعام التفكير الواجب في الأمر . . . أن اليهود يربطون زناراً حول أذرعهم أثناء الصلاة . وهكذا أربط على ذراعى زنارك العزيز حين أوجه صلاتى إليك ، وأرغب إليك في أن تنقلنى إلى طبيبتك وحكمتك واعتدالك وصبرك » .

وقد فسر بعضهم « فترة الاختبار » المنصرمة ، بأنها تشير إلى أن شارلوتة أسلمت جسدها إليه » (٤٢) ، ومع ذلك كتب إليها بعد ست سنوات يقول .

(م ١٩ - قصة الحضارة ج ٤١)

« يا عزيزتي لوته ، أنت لا تعلمين أى عنف أوقعته بنفسى وما زلت أوقعه : وكيف أن فكرة عدم امتلاكى لياك . . . ترهقنى وتفنىنى »^(٤٣) . فإذا كان غرامهما قد اكتمل حقاً فإن السر قد كتم أحسن كتمان . وقد احتمل البارون فون شتين ، الذى عمر حتى ١٧٩٣ ، هذه العلاقة الغرامية بمجاملة جنتلمان من أهل القرن الثامن عشر . وكان جوته يختم خطاباتهِ بين الحين والحين بعبارة « تحياتى إلى شتين »^(٤٤) .

وقد تعلم أن يحب أطفالها أيضاً ، وكلما امتد به العمر اشتد شعوره بحرمانه من أطفال له . وفى ربيع ١٧٨٣ أقنعها بأن تسمح لابنها فرتز ذى السنين العشر بالإقامة معه فى زورات طويلة ، وحتى بمصاحبته فى رحلات طويلة . وفى أحد خطاباتهِ لفرتز (سبتمبر ١٧٨٣) يظهر جانب الأمومة فيها ، وتتكشف قلوب البشر الكامنة خلف واجهة التاريخ المجردة من عواطف البشر .

« اننى عظيمة الالتهاج لأنك لم تنسنى . وأنت منطلق فى هذا العالم الجميل ، وأنتك تكتب إلى بحروف لا بأس بها وإن لم يكن رسمها حسناً جداً . ومادمت تعترم الإقامة أطول مما توقعت ، فلنأخذ أخشى ألا تبدو ثيابك حسنة المظهر جداً . فإذا اتسخت واتسخت أنت أيضاً ، فاطلب إلى عضو المجلس الخاص جوته فقط أن يلتقى بفرتزى الصغير الحبيب فى الماء . . . حاول أن تستمتع بفرصتك الطيبة ، واجتهد أن تسر عضو المجلس بسلوكك ، ووالدك يرغب إلى أن اقرئك تحيته »^(٤٥) .

فإذا وفى عام ١٧٨٥ كان غرام جوته قد هدأت فورته فى فترات صمت طويلة . وفى مايو ١٧٨٦ شككت شارلوته من أن « جوته يفكر كثيراً ولا يقول شيئاً »^(٤٦) . وكانت الآن تناهز الرابعة والأربعين ، أما هو فى السابعة والثلاثين ، وكان آخذاً فى الانطواء على نفسه . كثير التردد على بيتنا هروباً من بلاط فايمار والتماساً لتجدد الشباب بين الطلاب . وكان قد اعتاد دائماً أن ينعش نفسه بالطبيعة ، فيتسلق قمة بروكن (وهى قمة ارتفاعها ٣,٧٤٧ قدماً فى جبال هارتس ، اقترنت منذ أمد بعيد بأسطورة فاوست) ، ويخرج فى

رحلات مع الدوق في سويسره (سبتمبر ١٧٧٩ إلى يناير ١٧٨٠) . وكان أحياناً وهو يسترجع الماضي يشعر « بأننى خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى الوظيفة والبلاط بفايمار لم أكد أنجز شيئاً »^(٤٧) فى مضمار الأدب أو العلم . ولكن كان من الخير تهجين الشاعر بالأدبى ، وتأديب الغنى الذى كاد التذليل يفسده ، والعاشق الخائن ، بتبعات المنصب وبطء الانتصار فى الحب . وقد أفاد من كل تجربة ونما مع كل هزيمة . « أن خير ما فى ، هو ذلك السكون الباطنى العميق الذى أعيش فيه وأتمو ، رغم العالم ، والذى بفضلله أكتسب مالا يقوى العالم على انتزاعه منى أبداً »^(٤٨) . فلم يكن شىء يضيع هدراً عليه ، وكل شىء وجد التعبير عنه فى مكان ما فى كتاباته ، وأخيراً أصبح خير ما حوته ألمانيا المفكرة منصرفاً فى كل متكامل .

وينتمى إلى هذه الحقبة قصيدتان من أعظم قصائده : أولاهما مزاجية بين الفلسفة والدين ، وبين الشعر والنثر ، فى قصيدة « الطبيعة » . وثانيتهما أعظم أشعاره الغنائية كمالاً . وهى الثانية من قصائده المسماة « أنشودة الجوالين فى الليل » التى نقشها على جدران كوخ الصيد فى ٧ سبتمبر ١٧٨٠^(٤٩) ربما فى حالة من حالات الشوق القلق :

على قمم التلال كلها
ران السكون ؛
وعلى ذرى الأشجار
لاتكاد تسمع
نفساً يتردد ؛
الطير نيام فى الغابات
مهلاً : فأنت أيضاً
ستهجع مثلها سريعاً^(٥٠) .

وهناك قصيدة من قصائد جوته العاطفية المشهورة الأخرى تنتمى إلى هذه المرحلة من مراحل تطوره : وهى قصيدة « ملك العفارىت » الحزينة وضع لها شوبرت لحناً موسيقياً . فتى عبر شاعر عن إحساس الطفل بالكائنات

الخفية المنتشرة في الطبيعة تعبيراً أقوى مما في هذا الخيال السريع ، خيال الطفل المشرف على الموت ، الذى يرى « ملك العفاريت » آتياً ليخطفه من بين ذراعى أبيه ؟ .

في هذه الحقبة أيضاً كتب جوته ثلاث مسرحيات نثرية : « اجمونت » (١٧٧٥) وافجيني في تاوريس (١٧٧٩) وتورقواتو تاسو (Torquato Tasso) (١٧٨٠) — وهى ثمر كاف لخمس سنين قضاهما في خضم السياسة . ولم تخرج « اجمونت » على المسرح إلا في ١٧٨٨ ، أما لفجيني فقد تمت على مسرح فايمار في ٦ أبريل ١٧٧٩ (قبل العرض الأول لأوبرا جلوك التى بهذا الاسم بستة أسابيع) ؛ ولكن جوته غير فيها وبدل ، ونظمها شعراً ، أثناء مقامه في روما ، بحيث يحسن النظر إليها على أنها نتاج لمرحلة جوته الكلاسيكية . كذلك أعاد صياغة « تاسو » ونظمها شعراً في إيطاليا ، ولكنها تدخل هنا جزءاً من افتتاحان جوته بشارلوتة فون شتين . ففي ١٩ أبريل ١٧٨٢ كتب إليها يقول : « كل كلام تاسو موجه إليك »^(٥١) . وصدقت كلامه ، فطابقت بينها وبين ليونورا ، وبين جوته وتاسو ، وبين كارل أوجست ودوق فرازا .

وقد تلقف جوته الأسطورة التى زعمت أن انهيار عقل تاسو في بلاط فرازا قد اشدت ، ان لم يكن قد نشأ أصلاً ، عن غرام تعس بأخت لألفونس الثانى (حكم ١٥٥٩ — ٩٧)^(٥٢) . وما من شك في أن جوته كان يفكر في نفسه حين وصف ما يدور في فكر تاسو الشعري :

ان عينه قلما تطيل النظر إلى هذا المشهد الأرضي ،
أما أذنه فرهفة السمع لأنغام الطبيعة .
وأما صدره فيتلقى للتو في ابتهاج
ما يقدمه التاريخ وتأتى به الحياة ،
ثم يجمع الأشتات المتفرقة ويربط بينها
ويبعث حسه الذكى الحياة في الموتى .
وهكذا يغرينا الرجل العجيب

وهو يتحرك في عالمه المسحور
بأن نطوف معه ونشاركه فرحه .
وهو يبدو كأنه يدنو منا ، إلا أنه يظل
بعيداً كما كان ، فإذا اتفق ووقعت عينه
علينا رأى الأشباح في مكاننا (٥٣)

وقد تكون ليونورا ، الأميرة الجلييلة التي ترضى حب الشاعر ولكنها
تأمره بأن يكبح حماسه ويراعى اللياقة ، هي شارلوتة فون شتين تضبط
غرام جوتة المشبوب في هذا العالم الفاسق ويعلن تاسو - وهنا يتكلم الشاعران
كلاهما :

كل ما يصل إلى القلب من أغنيتي
فيتردد صداه فيه ، إنما أدين به لواحد ،
واحد فقط ! فلم يحسم حول روحي
طيف غامض ، يتقدم تـاره
في سناء باهر ، ثم يتوارى ثانية .
فأنا نفسي ، بعيني رأس ، أنا الذي أبصرت
مثال كل فضيلة وكل جمال (٥٤)

وأما الدوق الفونسو فهو شبيه كارل أوجست في صبره على غضبات
الشاعر وغرامياته وأحلام يقظته ، وهو مثله يحزنه تباطؤ الشاعر في الفراغ
من رائعة موعودة :

بعد كل خطوة بطيئة يدع عمله ،

لا يفتأ يبدل ويغير ، ولا طاقة له على الانتهاء (٥٥) .

وهو وصف صادق لكتابة جوتة المنجمة وإبطاءه وتسوية في إنجاز
« فلهم ما يستر » و « فاوست » . وأميرة أخرى تمتدح الفونسو كارل أوجست
على إتاحتها الفرصة لتاسو - جوتة لينضج بممارسته لشئون الدنيا وهنا تعلق
أبيات مشهورة :

« إن الموهبة تكون نفسها في سكون »

والشخصية تتشكل في نهر العالم (٥٦) .

ولكن التلازم بين الشاعرين يتضاءل في النهاية : فتأسو لا يبدى شيئاً من قدرة جوته على السباحة في نهر العالم ، فيغرق في مملكة أحلامه ويضرب بالحلز واللياقة عرض الحائط ، ويحتضن الأميرة المذهولة بين ذراعيه ، ويجن جنونه حين تنتزع نفسها من ضمته ومن حياته . ولعل جوته أحس بأنه كان قد وقف على شفا هذا الجرف .

وكثيراً ما فكر في إيطاليا ملاذاً يعتصم به من موقف يهدد سلامة عقله . وفي نحو هذه الفترة في الصيغة الأولى لـ « فلهم ما يستر » نظم لمينون أغنية شوق ولهفة تلائم آماله أكثر من آمال مينون :

أعرف البلد الذي تزهر فيه أشجار الليمون .
حيث تتوهج ثمار البرتقال الذهبية في الأوراق الداكنة .
حيث يهب النسيم العليل من السماء الزرقاء ،
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة النار السامقة
حيث تقوم شجرة الآس المطمئنة وشجرة الغار السامقة
أعرفه جيداً ؟ هناك ! هناك !
اشتبهى يا حبيبي انطلق معك !

لقد كانت فامار جميلة ، ولكنها لم تكن دافئة . ثم ان هموم المنصف كدرت روح الشاعر ، « أنها لوسيلة مرة من وسائل كسب القوت أن يضطر المرء إلى محاولة خلق التناغم والانسجام بين نشازات العالم » (٥٧) . وقد أضنته حياة البلاط ، « ليس بيني وبين هؤلاء القوم ولا بينهم وبينى شيء مشترك يربطنا » (٥٨) . وكانت قد وقعت بعض الجفوة بينه وبين الدوق لعجزه عن مسايرة خطي الدوق في الصيد والغزل ، وغرامه الكبير الوحيد قد براه الزمن وكثرة الشجار . فأحس أنه لا بد له من التحرر من هذه الأصناف الكثيرة ، والبحث عن اتجاه ونظرة جديدين . فطلب إلى الدوق أن يمنحه أجازة ، فاستجاب الدوق ، ووافق على أن يواصل دفع راتب جوته . ورغبة في توفير مبلغ إضافي من المال باع جوته لجوشن ، الناشر اللينزجي ، حق نشر طبعة من مجموعة مؤلفاته . ولم يبع جوشن إلا ٦٠٢ نسخة ، فخسر ١.٧٢٠ طالرا في هذه المغامرة .

وفي أول سبتمبر ١٧٨٦ كتب جوته إلى شارلوتة من كارلسباد يقول :
« الآن وداعاً أخيراً ، أريد أن أكرر لك أنى أحبك حباً جماً . . . وأن
تأكيدك لى انك تجدين من جديد لذة فى حبي يجذب فرحة حياتى . لقد احتملت
الكثير فى صمت إلى الآن ، ولكنى لم أرغب فى شىء بأحر مما رغبت فى أن
تتخذ علاقتنا صورة لايقوى عليها أى ظرف . فإذا لم يكن هذا ممكناً ،
فلن ارتضى أن أسكن حيث تكونين ، بل أؤثر أن أكون وحيداً فى ذلك
العالم الذى انطلق إليه الآن^(٥٩) .

٤ - جوته فى إيطاليا : ١٧٨٦ - ٨٨

واتخذ له فى رحلة اسماً مستعاراً هو « المسيو جان - فليب مولر » لأنه أراد
التحرر من مضايقات الشهرة . وكان فى السابعة والثلاثين ، ولكنه ذهب
بتطلع يفوق حتى تطلع الشباب وترقبه المرح ، وباستعداد يفضل كثيراً
استعداد الشباب ، لأنه كان ملماً ببعض تاريخ إيطاليا وفنها . وفى ١٨
سبتمبر كتب إلى هرذر يقول « آمل أن أعود شخصاً مولوداً من جديد »
وكتب إلى كارل أوجست « أرجو أن أعيد معى إنساناً تطهر تماماً وتجهز
تجهيزاً أفضل كثيراً من ذى قبل » . وإلى هذين وإلى غيرهما من الأصدقاء
أرسل « رسائل من إيطاليا » مازالت تحوى نبض الحياة الإيطالية السريع .
وقد قدم لها بالشعار القديم « Auch in Arkadien - هو أيضاً كان الآن فى أركاديا .
وقد رأينا فى موضع آخر من الكتاب مبلغ شكره على ضوء الشمس . فقد
صاح عند دخوله إيطاليا « إلى أومن بالله من جديد ! »^(٦٠) ولكنه أحب
الشعب الإيطالى أيضاً ، وجوهم وقلوبهم الطلقة ، وطبيعية حياتهم ، وحرارة
حديثهم ومرحه . وإذا كان عالماً كما كان شاعراً ، فإنه لاحظ الخصائص
الخاصة بالظواهر الجوية ، والتكوينات الجيولوجية ، والعينات المعدنية ،
 وأنواع الحيوان والنبات ، وأحب حتى السحالى المارقة فوق الصخور .

وبلغ من شدة شوقه للوصول إلى روما أنه مر مرور الكرام بفينيسيا
ولبارديا وتسكانيا ولكنه تلبث فى فتشنتسا وقتاً كفى لأشعاره ببساطة معمار
بلاذيو وقوته الكلاسيكيتين . وعاد يؤكد من جديد نفوره من الطراز القوطى .

« لقد تحررت إلى الأبد — ولله الحمد — من كل ميل إلى تلك الأعمدة الشبيهة بقصبات التدخين ، وقلاعنا الصغيرة المتوجة بأبراج الكنائس ، والأطراف المورقة لمبانينا ! . . . لقد فصح بلاديو أمانى الطريق لكل . . . فن » (٦١) . وعاد بهذا الطريق إلى فتروفيفوس الذى درسه فى طبعة أشرف عليها جاليانى ، صاحبنا الظريف القادم من نابلى وباريس . واستحال الطراز الكلاسيكى الآن غراماً عنده ، يلون كتاباته وفكره ، ويعيد صياغة بعض أناجه القديم ، مثل « افجينى » و « تاسو » فى قالب وخط كلاسيكيين . وفى البندقية بدت قصور الباروك فى عينيه مسرفة فى الهرج ، مفرطة فى الأناقة النسائية ؛ لابل إنه انصرف عن واجهات النهضة إلى أطلال العائز والتماثيل الكلاسيكية فى المتاحف . ولكن دمه الحار تجاوب مع لون فيرونيزى وتتسيانو وكبريائهما .

وقد بحث فى فرار عبثاً عن القصر الذى حبس فيه تاسو . وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى بولونيا وثلاث ساعات فقط فى فلورنسة انطلق حثيثاً عبر بروجه وتيرنى وتشيتا دى كاستيللو ، وفى ٢٩ أكتوبر ١٧٨٦ ركب إلى روما محترقاً « البورتا ديل بوبولو » (بوابة الشعب) وأحس الآن بلحظة عابرة من التواضع « كل الطرق مفتوحة أمامى لأنى أسير بروح التواضع » (٦٢) .

وإذ لم يكن قد تمكن بعد من لغة الحديث الإيطالية . فقد بحث عن الجالية الألمانية ، لاسيما الفنانين الألمان ، لأنه تطلع إلى أن يتعلم على الأقل أصول الرسم والتصوير والنحت . وأعجبت انجليكا كاوفمان بحماسه ووسامته فرسمته فى صورة أبرزت شعره الأسود وجبينه العالى وعينه الصافيتين . وارتبط بصداقة حميمة مع يوهان هاينريش فلهلم تيشباين . الذى أسلمه لنا فى لوحته الشهيرة « جوته فى الريف » (٦٣) . يستلقى فى استرخاء كأنه فتح أركاديا . وكان جوته قد راسل هذا المصور قبل حضوره إلى إيطاليا بزمان طويل . ثم التقيا لأول مرة فى ٣ نوفمبر ، حين اجتمعا فى « بياتسا سان بيترو (ميدان القديس بطرس) . وتعرف الشاعر على الفنان ، وقدم إليه نفسه ببساطة « أنا جوته » (٦٤) ، ووصفه تيشباين فى خطاب إلى لافاتر بهذه العبارات :

« وجدته تماماً كما توقعت . ولم يدهشني غير الرزانة والهدوء في رجل له هذه الحساسية الناشطة ، ثم قدرته على الاسترخاء والتصرف بحرية في جميع الظروف . وما يسرني أكثر حتى من هذا هو بساطة حياته . فكل ما طلبه مني كان في إعداد حجرة صغيرة يستطيع أن ينام فيها ويعمل دون إزعاج ؛ ثم أبسط الطعام . . . وهو يجلس الآن في تلك الحجرة الصغيرة عاكفاً على قصة « افجيني » من الصباح الباكر إلى الساعة التاسعة . ثم يخرج لدراسة روائع الفن » (٦٥) .

وكثيراً ما كان تيشباين مرشداً له في جولاته هذه ، ورتب تزويده بما طلب من الرسوم ، وحصل له على نسخ من الصور الأكثر شهرة . وقد رسم جوته بنفسه رسوماً تخطيطية للصور التي أراد تذكرها بنوع خاص . ثم جرب النحت ، ونحت رأساً لهرقول . واعترف بأنه غير موهوب في الفنون التشكيلية ، ولكنه شعر أن هذه التجارب تعطيه إحساساً أفضل بالشكل ، وتساعد على تصور ما يريد وصفه (٦٦) . ثم أكب على كتاب فنكلمان « تاريخ الفن القديم » ، « هنا على الطبيعة أجده ثميناً جداً . . . والآن يستطيع عقلي في النهاية أن يتسامى إلى أعظم وأتقن إبداعات الفن في مأمن هادئ » (٦٧) . « إن تاريخ العالم كله يربط نفسه بهذه البقعة ، وأحسبني ولدت . . . ولادة جديدة صادقة منذ اليوم الذي دخلت فيه روما . . . أظنني تغيرت إلى الصميم » (٦٨) . ويبدو أنه استمتع خلال ذلك بالفن الحلى الذي قدمته الموديلان « اللذذات » اللاتي جلسن للمصورين في مراسمهم (٦٩) . وأنهت إقامته في روما ذلك التخلص من النزعة الرومانتيكية الذي بدأ عمشوليات المنصب . وبدأ الآن تمرد جوتز على القانون ، ودموع فرتر ، في نظر جوته الذي أخذ ينضج كأنها أمارات عقل غير متزن ، « ان الرومانتيكية مرض ، والكلاسيكية صحة » (٧٠) . وقد كان في تممسه الجديد للآثار للرخامية والأعمدة والتيجان والقواصر الكلاسيكية والخطوط النقية للتماثيل اليونانية مسحة رومانتيكية . « إذا شئنا حقاً نموذجاً نحتديه ، فعلينا دائماً أن نرجع إلى قدماء اليونان ، الذين يتمثل في أعمالهم دائماً جمال الإنسان » (٧١) . وقد رأى جوته ، كلما رأى فنكلمان ، الجانب « الأبولوني » للحضارة

والفن اليونانيين فقط — تمجيد الشكل والقصد ، وكاد الآن يتجاهل تلك
النشوة « الديونيسية » التي لونت الخلق والدين والحياة اليونانية تلويهاً دافئاً
جداً ، والتي أعربت في جوته ذاته عن نفسها خلال « قرينه » وغرامياته .

في هذا الوجد الكلاسيكي أعاد كتابة « افجينى فى تاوريس » شعراً
(١٧٨٧) ، واعتزم أنه ينافس راسين ، لا بل يوريديس نفسه . وإذا كان
قلبه لا يزال محتفظاً بجمرات النار التي أضرمتها فيه شارلوتة فون شتين ،
فقد سكب في أحاديث الأميرة اليونانية شيئاً من رقة البارونة الألمانية وتمالكها
نفسها . وروى القصة القديمة جداً ، بكل ما فيها من تعقيدات الميثولوجية
والأنساب ، وزاد من حدة الدراما بتصويره الملك السكودى تصويراً
متعاطفاً ، وأقدم على تغيير الخاتمة لتتوافق مع الفكرة — النادرة بين اليونان —
التي تزعم أن على الإنسان التزامات حتى للبرابرة (الهمج أو غير اليونان) .
ولا يستطيع تقدير انجاز جوته حق قدره إلا الذين يقرءون الألمانية بطلاقة ،
ومع ذلك قال ايپوليت تين ، وهو رجل فرنسى ، وناقد فذ ، خبير على
على الأرجح بدرامات راسين : « اننى لأفضل أى عمل أدبى حديث على
درامة جوته افجينى فى تاوريس » (٧٢) .

وقد أحييت ذكريات شارلوتة في هذه المسرحية ، ثم في « تاسو »
« أكثر منها ، اللتين أعاد كتابتهما في روما ، شعوره من نحوها . لقد أصابها
بجرح عميق هروبه المفاجئ إلى إيطاليا وتركه ولدها في عهدة خادم ، فأعادت
فرتز لفورها ، وطالبت جوته برد كل الرسائل التي كتبها له . فكتب معتذراً
من روما (٨ و ١٣ و ٢٠ ديسمبر ١٧٨٦) ، وبعثت إليه (١٨ ديسمبر)
بتذكرة فيها لوم « حلومر » فكان رده (٢٣ ديسمبر) « ليس في طاقى أن
أصف لك كيف يدمى قلبي أنك مريضة ، ومريضة بسبب غلطى . فاصفحى
عنى . لقد صارعت أنا نفسى الموت والحياة ، وما من لسان يقوى على
النطق بما كان يعتمل في داخلي . » وأخيراً لانت . فكتب لها أول فبراير
١٧٨٧ « الآن أستطيع أن أنصرف إلى عملى وأنا أسعد مزاجاً لأننى تسلمت منك
رسالة تقولين فيها أنك تحبين رسائلى وتبهجين بها » .

في ذلك الشهر ذهب هو وتيشباين إلى نابلي وإرتقى فيزوف مرتين ؛ وفي محاولته الثانية غطى ثوران صغير للبركان رأسه وكتفيه بالرماد . ووجد متعة عظمت في الأطلال الكلاسيكية في بومبي ، وبهت للجلال البسيط الذي رآه في المعابد اليونانية ببايستوم . فلما عاد إلى روما ركب البحر إلى بلرمو ، ومضى ليدرس المعابد الكلاسيكية في سجسته وجرجنتي (أخرجنتو) ، ووقف في المعبد اليوناني بتاورمينا ، ثم قفل إلى روما في شهر يونيو . فلما تعاضم افتتاحه بـ « أروغ مدينة في العالم كله » (٧٣) . أقنع الدوق كارل أنجست بأن يواصل دفع راتبه حتى نهاية ١٧٨٧ . فلما ان نفذت المهلة راض نفسه ببطء على العودة إلى الشمال . فغادر روما في ٢٥ أبريل ١٧٨٨ ، وسافر على مهل عبر فلورنسه وميلان وكومو حتى بلغ فانتار في ١٨ يونيو . وكان كل يوم يتساءل كيف يستقبل الدوق ، والحاشية ، وشارلوتة ، رجلا يحس أنه تبدل إنساناً آخر .

٥ - جوته في الانتظار ١٧٨٨ - ١٧٩٤

كان الدوق قد عين رئيساً جديداً للمجلس بموافقة الشاعر الغائب ؛ والآن أعنى جوته بناء على طلبه من جميع واجباته الرسمية عدا منصب وزير التعليم ، ولم يخدم المجلس بعدها إلا بصفة استشارية . وكان الدوق لطيفاً معه ، ولكنه كان قد اتخذ إحصاء غيره ، ثم إنه لم تعجبه العواطف الشبيهة بالزعات الجمهورية التي استشفها من « إجمونت » بعد أن أعاد الشاعر كتابتها . أما جمهور القراء فقد نسي جوته أو كاد ؛ وأقبل على شاعر جديد يدعى شيلر ، وصفق بحماسة لتمثيلية « اللصوص » الزاخرة بروح التمرد والعنف الذي اتسمت به الحركة « الزوبعية » ، والذي بدأ الآن سخيلاً فجاً في عين شاعر يتأهب للتبشير بالنظام والقصد الكلاسيكيين . وأما شارلوتة فون شتين فقد استقبلته ببرود . وأنكرت طول غيابه ، وتمهله في العودة ، وتحمسه المتصل لإيطاليا ، ولعالمها سمعت بـ « موديلات » روما . كتبت تقول إن لقاءهما الأول عقب وصوله كان « زائفاً كل الزيف في طابعه ، ولم يتبادل شيئاً غير الملل » (٧٤) . ورحلت لتقيم فترة في كوخبرج ، وصار جوته حراً في التفكير في كرستيانه فولبيوس .

وقد دخلت هذه الفتاة حياته في ١٢ يوليو ١٧٨٨ إذ حملت إليه رسالة من أخيها . وكانت في الثالثة والعشرين ، تعمل في مصنع للأزهار الصناعية ، وراع جوته منها روحها النضرة ، وعقلها البسيط ، وأنوثتها المتفتحة . فدعاها إلى بيته ذى الحديقة لتعمل مديرة للبيت ، وما لبث أن جعلها خليلة له . ولم تنل حظاً من التعليم ، وقال « أنها لا تستطيع فهم الشعر إطلاقاً »^(٧٥) ، ولكنها استسلمت له في ثقة واطمئنان ، ومنحته تحقيق ذاته الجسدى الذى أنكرته عليه شارلوتة فيما يبدو . وفى نوفمبر ١٧٨٩ ، حين أوشكت أن تصبح أما ، أخذها إلى بيته فى فامار ، وجعلها زوجته علانية فى كل شئ إلا الاسم . وصدمت شارلوتة والحاشية لتجاوز الحدود الطبعية وعدم إخفائه العلاقة المحرمة . وقد أحزنه كثيراً هو وكرستيانه هذا الموقف ، ولكن الدوق المتمرس بالتحليلات قام عراباً للطفل الذى ولد فى عيد الميلاد ١٧٨٩ ، وعمده فى أغسطس هرذر الصارم ، الغفور رغم صرامته .

أما جوته ، الذى كثيراً ما كان عاشقاً ، ولكنه الآن فقط كان أباً ، فقد وجد الكثير من السعادة فى « الرجل الصغير » و « المرأة الصغيرة » . ودبرت له أمر بيته ، واستمعت إليه فى حب حتى وهى لاتفهمه ، ومنحته الصحة والعافية . قال لصديق منذ اجتازت هذه العتبة أول مرة لم ينلنى منها غير الفرح^(٧٦) . ولم يرفها عيباً غير حبها للخمر حباً فاق حتى حبه ، وما أفضى إليه هذا أحياناً من المرح والقصف الذى لا يمكن السيطرة عليه . وكانت تختلف إلى المسرح ، وترتاد حفلات الرقص الكثيرة ، بينما يظل جوته فى البيت ويخلد ذكره فى « المراثى الرومانية » Romische Elegien (١٧٨٩ — ٩٠) ، التى كتبها على طريقة بربروتىوس وبأخلاقيات كاتوللوس . وليس فى هذه « المراثى الرومانية » شئ حزين ، إنما تشتق اسمها هذا من بحر المراثى « elegiac » الذى تتناوب فيه البحور السادسة والخماسة التفاعل ؛ وهى لاتتصل بروما بل بأرملة طروب — نستشف من ورائها كرسطيانه نفسها :

« كل ماتحويه أسوارك المقدسة أى روما الخالدة
يشغى بالحياة ، ولكنه فى ناظرى ساكن ميت .

أواه ، منذا يوشوش فى أذنى ؟ متى أشهد فى النافذة
ذلك القد الجميل الذى يحى وإن أحرق ؟
لا تندى يا حبيبتى على أنك استسلمت هكذا سريعاً !
ثقى بى ، أراك غير جريئة ؛ إنما أشعر بالإجلال . .
ان الاسكندر وقيصرو وهنرى وفردريك ، هؤلاء الجبابرة ،
يودون أن يخلعوا على نصف المجد الذى ظفروا به
لو أننى وهبهم ليلة واحدة على الأريكة التى أرقدها عليها ؛
ولكنهم وا أسفاه يقعدهم ليل أوركوس فى قسوة .
فاغبتبط لأذن ، أيها الحى ، ناعماً فى بيتك المنور بالحب
قبل أن تبلى موجة « ليندى » الخزينة قدمك الهاربة » (٧٧)

وربما كانت تلك الأرملة الجميلة ذكرى من أيام روما ، ولكن دفع
هذه الأبيات مبعثه كرسيتيانه . على أية حال ألم يكن يدرس الفن ؟
على أنه مما يعيننى على الدرس أيضاً أن أرى
بيد حساسة تلافيف صدرها الجميلة وأدع
الأنامل الحكيمة تنزلق هابطة على الفخذ الناعم ،
لأننى هكذا أتمكن من صنعة النحات القديم ، وأتأمل ،
وأقارن ، وأتعلم أن آتى وأبصر
بعين شاعرة ، وأشعر بيد مبصرة (٧٨) .

ولم يرق نبيلات فإيمار هذا العرض المرخص لمفانن ، وحزنت شارلوتة
الوقور على انحدار بطلها « جالاهاد » لابل ان كارل أوجست ذاته انزعج
قليلاً ، ولكن سرعان ما هدأت نفسه . وعندما كانت الدوقة الأرملة عائدة
من إيطاليا أرسل الدوق جوته إلى البندقية ليصحبها إلى أرض الوطن . وطال
مقامه هناك (مارس إلى يونيو ١٧٩٠) طولا ضايقه ، وتاق إلى كرسيتيانه ،
وصب جام غيظه من الباعة الإيطاليين ووسائل النظافة الإيطالية فى « الاجرامات
الفينيسية » - وهى ، أقل أعماله اغراء بالقراءة .

فلما عاد من البندقية وجد أن الثورة الفرنسية تبعث النشوة فى شباب
ألمانيا ، والخوف فى حكامها . وكان الكثيرون من أصحابه ، وفيهم فيلاند

وهردر ، يصفقون للإطاحة بالاستبدادية الملكية في فرنسا . أما جوته ، الذى أدرك أن كل العروش مهددة بالخطر ، فقد اتخذ موقفه إلى جوار الدوق ، وأشار عليه بالحيلة وقال إن أناساً كثيرين جداً « يجرون وفي أيديهم منفاخ بينما يلوح لى أن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أباريق الماء البارد للسيطرة على النار^(٧٩) . وأطاع أمر كارل أوجست له بأن يصحبه في حملة الحلف الأول ضد فرنسا . وحضر معركة فالمل (٢٠ سبتمبر ١٧٩٢) ، ووقف هادئاً تحت النيران ، وشارك في الهزيمة . وقد سجل ضابط ألماني في يوميته أن الشاعر - عضو المجلس الخاص ، حين طلب إليه التعليق على الحدث أجاب « منذ اليوم ومن هذا الموضع يبدأ عصر جديد في تاريخ العالم »^(٨٠) . وليس لدينا ما يؤيد هذه القصة . ومهما يكن من أمر ، فإن جوته هاجم الثورة بقوة حين عاد إلى فايمار ، وكانت تدخل فترة شططها ووحشيتها (١٧٩٢ - ٩٤) .

ورسخت هذه التطورات في جوته ذلك التحول الطبيعي ، تحول العقل الآخذ في النضج ، من التلذذ بالحرية إلى حب للنظام . وشعر جوته انه إذا كان في استطاعة أى أحق أن يكون مبتكراً ، فإن في استطاعة أى أحق أن يحيا كما يشاء^(٨١) . منتهكاً العادات أو القوانين في اطمئنان لأن غيره يراعونها . ولم يشعر بتحمس للديمقراطية ، فلو أتيح لنظام كهذا أن يمارس فعلا لكان معناه تسلط الغفلة والجهل والخرافة والهمجية . لقد كان لطيفاً سمحاً في نطاق دائرته ، ينفق بعض دخله على أعمال البر المستورة^(٨٢) ، ولكنه كان ينكمش من الجماهير . فإذا وجد بين الجماهير أو الأغراب انطوى على نفسه في كبرياء وأحجام ، وكان يجد سعادته الوحيدة في بيته . في سنى القلاقل هذه (١٧٩٠ - ٩٤) ران عليه سبات كثيب أيقظته منه لمسة شباب شيلر المتحمس ومنافسة قلمه .

٦ - شيلر في الانتظار ١٧٨٧ - ١٧٩٤

كان جوته في إيطاليا حين وصل شيلر إلى فايمار . واعترف الشاعر المعسر بغيرته من عضو المجلس الخاص الغائب . « بينما هو يرسم في إيطاليا ، يبذل التكرات

من الناس العرق من أجله كأنهم دواب الحمل . أنه يبعثر هناك راتباً قدره ١,٨٠٠ طالر ، وهنا عليهم أن يضاعفوا كدهم ليحصلوا على نصف هذا المال » (٨٣) . وفي ١٢ أغسطس ١٧٨٧ كتب بروح أكثر تعاطفاً .

« يتكلم الكثيرون هنا عن جوته في شيء من الحب ، بل انهم أكثر حباً له وإعجاباً به إنساناً أكثر منه مؤلفاً . ويقول هردر إنه أوتي حكماً شديداً الوضوح وعمقاً كبيراً في الوجدان ، وعواطف نقية جداً . وجوته في رأى هردر هبياً من كل روح للدرس والوقعية ، وهو لم يؤذ أحداً قط . . . وهو في معاملاته السياسية يتصرف بصراحة وجراً . . . ويقول هردر أن جوته أحق بالإعجاب كرجل دنيا منه شاعراً . . . وأن له عقلاً يتسع لأي شيء » (٨٤) .

وكان الدوق غائباً حين حضر شيلر ، ولكن أنا أماليا وشارلوتة فون شتين استقبلته استقبالا حاراً . وأخبره فيلاند أنه « ينقصه الصقل والوضوح والدوق » (٨٥) ، وتطوع بأن يصقله ، وسرعان ما أخذ الشاعر المتحمس يكتب المقالات لمجلة فيلاند « الرائد الألماني » . وقد وجد ترفهاً أحر مع شارلوت فون كالب ، التي كان لها كشارلوتة الأخرى زوج واسع الأفق « ان الناس أدخلوا يهمسون في صوت عال بعض الشيء حول علاقتي بشارلوتة . . . وقد كتب لي الهر فون كالب . وسيحضر في آخر سبتمبر ، وسيؤثر وصوله كثيراً في ترتيبياتي . وصادقته لي لم يطرأ عليها تغيير ، وهو أمر مدهش ، لأنه يحب زوجته ، ويعلم بصلتي الحميمة بها . . . ولكنه لا يمكن أن يشك لحظة واحدة في وفائها . . . وما زال كما كان ، الرجل الأمين الطيب القلب » (٨٦) .

وفي ٢٧ أغسطس ١٧٨٧ عرضت « دون كارلوس » أول مرة في همبورج . وكان بشيلر من الوله بفاعمار ما منعة من الذهاب لحضور العرض . وقد استقبلت تمثيليته هذه وهي أولى تمثيلياته الشعرية ، بالمديح والدم كليهما لأنها استسلام لأسلوب المأساة الفرنسية ، ولكن يعوزها الوحدة المسرحية التي تتطلبها قواعد أرسطو . وقد استهلت بالصراع بين فليب الثاني وابنه على حب اليزايت أميرة فالوا ، ثم انتقل مركز الاهتمام في منتصف التمثيلية

إلى كفاح الأراضى الواطئة للتححرر من السيادة الإسبانية ومن قسوة ألفا .
ونحاول شيلر أن يرسم صورة محايدة لفليب ، وقد صفق القراء البروتستنت
لهذا النداء الذى وجهه المركز بوزا إلى الملك :

يا صاحب الجلالة ،
لقد مررت مؤخراً بأرض فلاندر وبرابانت —
أقاليم كثيرة غنية موفقة ،
تزخر بشعب باسل عظيم أمين !
قلت فى نفسى انه لشيء رائع حقاً
أن يكون الإنسان أباً لشعب كهذا !
ثم تعثرت قدى فوق كومة من عظام رجال محترقة !
فليتك ترد لنا كل ما حرمتنا منه ،
وتدع السعادة تتدفق من نبع خيرك
لأنك قوى كريم النفس ؛ دع عقل الإنسان
ينضج فى ملكك الشاسع ويصبح
ملكاً حقاً بين مئات الملوك ! . . .
دع كل فرد من رعيتك يصبح ماكانه يوماً ما—
الغاية والهدف لرعاية المليك واهتمامه ،
لا يربطه واجب غير محبة الأخ لأخيه» (٨٧)

وهجر شيلر الدراما طويلاً رغم نجاح دون كارلوس . وكان قد كتب
إلى كورنر فى ١٧٨٦ يقول « ان التاريخ يدخر لى مع كل يوم تال مغريات
جديدة . . . وددت لو لم أدرس شيئاً غيره طوال عشر سنوات متصلة ؛
أظننى كنت أصبح مخلوقاً من نوع آخر . أترى أنه مازال أمانى متسع من
الوقت للتعويض عما فقدت؟ » (٨٨) ولم يكن فى استطاعته أن يعول نفسه ،
فضلاً عن أن يعول أسرة ، من حصيلة مسرحيات عارضة قد تذهب وتموت

موتاً مبكراً حتى بعد أن تحظى بعرض أول يصفق له النظارة . فاعمل كتاباً ناجحاً في التاريخ يكسبه من الشهرة العلمية ما يكفي للظفر بأستاذية في جامعة يينا . هناك لن يبعد عن فائمار بأكثر من أربعة عشر ميلاً ، وسيتقى في نطاق سلطة الدوق وكرمه .

وعليه ، فبعد أن فرغ من « دون كارلوس » عكف على تأليف « تاريخ سقوط الأقاليم الواطئة المتحدة » . ولإذ كان لا يقرأ الهولندية ، فقد اعتمد على مراجع ثانوية جمع من رواياتها تصنيفاً غير ذي قيمة باقية . وانتقد كورنر المجلد الأول (١٧٨٨) بأمانته المعهودة : « ان العمل الراهن ، مع كل مزاياه ، لا يحمل طابع تلك العبقرية التي أنت ميسر لها » (٨٩) . وتخطى شيلر عن الكتاب ، ولم يصدر مجلد ثان في موضوعه .

وفي ١٨ يوليو ١٧٨٨ عاد جوته من إيطاليا ، وفي سبتمبر التقى بشيلر في ضاحية رود ولشتات . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : « ان الفكرة العظيمة التي كونتها عنه لم تنقص مثقال ذرة . . . ولكنني أشك في أننا سنتقارب تقارباً وثيقاً يوماً ما . . . انه يسبقني بمراحل . . . فلا يمكن أن نلتقي على الطريق . وقد سارت حياته كلها من بدايتها في اتجاه معاكس لاتجاه حياتي . وعالمه ليس عالمي . وأفكارنا في بعض النقاط متعارضة تعارضاً تاماً » (٩٠) . والحق أن الشاعرين كانا يبدوان وكأن العناية قصصت بهما أن يكره الواحد صاحبه . فجوته ، ذو التسعة والثلاثين ، قد وصل ونضج ، أما شيلر ، ذو التسعة والعشرين ، فكان يتسلق ويجرب ؛ ولم يتفقا إلا في الأنانية المتعالية . كان أصغرهما من غمار الشعب ، رقيق الحال ، يكتب الشعر القريب من الثورية ؛ أما الآخر فكان غنياً ، رجلاً ذا مكانة ومنصب مرموق ، عضواً في المجلس الخاص يستنكر الثورة . وكان شيلر قد خرج لتوه من حركة « الزوبعية » ؛ كان صوت الوجدان والعاطفة والحرية والرومانس ؛ إماموته ، الذي تولع باليونان ، فكان بكل ميوله مع العقل ، والقصص ، والنظام ، والأسلوب الكلاسيكي . على أية حال ليس من الطبيعي في عالم المؤلفين أن يحب بعضهم بعضاً ، فهم إنما يسعون للظفر بذات الجائزته .

(م ٢٠ - قصة الحضارة ، ج ٤١)

فلما أن عاد جوته وشيلر إلى فايمار لم يكن يفصل مسكنيهما غير مسيرة قصيرة ، ولكنهما لم يتصلا الواحد بالآخر . وساءت العلاقة بينهما بظهور نقد شيلر المناوئ لثميلية جوته « إجمونت » وقرر جوته أن أثينا الصغيرة لا تتسع لكاميهما . ففي ديسمبر ١٧٨٨ زكى شيار إكرسى في التاريخ بجامعة يينا . وقبل شيلر المنصب مسروراً وزار جوته ليشكره ، ولكنه كتب إلى كورنر في ٢٩ فبراير ١٧٨٩ :

لو طالت عشرتي لجوته لشقيت بها . فهو لا يهش حتى لأصدق أصدقائه ، ولا شيء يربطه . وأنا أومن حقاً أنه أناني من الدرجة الأولى . وقد أوتى موهبة تطويق أعناق الناس بمجاملات صغيرة وكبيرة ، ولكنه يفلح دائماً في أن يظل هو نفسه حراً . . . وأنا أنظر إليه على أنه تجسيد لنظام مدرّس جيداً من الأناثية التي لا حد لها . وينبغي ألا يطبق الناس مخلوقاً كهذا بقرّبهم . وأنا أبغضه لهذا السبب ، وإن لم أملك إلا الإعجاب بعقله ، والتفكير فيه بسمو . لقد بعث في مزيجاً عجيباً من البغض والحب» (٩١) .

وفي ١١ مايو ١٧٨٩ تسلم شيار عماله في يينا ، وفي ٢٦ مايو ألقى « خطاب الافتتاح » وموضوعه « ما التاريخ العالمى وما الهدف من دراسته » ؟ ولأذ كان الدخول مجاناً ، فقد تبين أن الحضور يفوق كثيراً ما تتسع له الحجرة المخصصة ، وانتقل الأستاذ مع جمهوره في هرج ومرج إلى قاعة في الطرف الآخر من المدينة . وقد لقيت هذه المحاضرة ثناء مستطاباً ، « فقد غنى لى الطلبة سرينادا في تلك الليلة وهتفوا لى ثلاثاً (٩٢) . غير أن عدد من سجلوا أسماءهم للحضور المحاضرات كان صغيراً — وكان الحضور نظير رسم يدفعه الطالب ، ومن ثم كان دخل شيلر من التدريس ضئيلاً .

فأضاف إليه بالكتابة . وفي ١٧٨٩ — ٩١ أصدر على ثلاث دفعات « تاريخ حرب الثلاثين » . هنا وجد اليسر على الأدل من حيث اللغة ، وإن منعه مضايقات شديدة مرة أخرى من الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وشوه حبه لإصدار الأحكام والتفاسف القصة وقطعها . ومع ذلك فقد رحب فيلاند بالكتاب دليلاً على « قدرة شيلر على أن يرتفع إلى مستوى هيوم وروبرتسن

وجيرون»^(٩٢) . وبيعت سبعة آلاف نسخة من المجلد الأول في السنة الأولى لصدوره .

وشعر شيلر الآن أن في استطاعته إشباع شوقه إلى بيت خاص به ، وإلى امرأة تمنحه حبها ورعايتها . وكان قد أتيح له لحظة خاطفة لشارلوت وكارولينه فون لنجفيلد في ماينهايم عام ١٧٨٤ . ثم رآهما ثانية في رودولشتات في ١٧٨٧ ، وكانت «لوته» تعيش هناك مع أمها ، أما كارولينه ، الشقية في زواجها ، فكانت تسكن في البيت المجاور . وكتب شيلر إلى كورنر يقول : ^(٩٤) «انهما لذيذتان رغم أنهما غير جميلتين ، وهما تسرانني غاية السرور . وهما مطلعتان على أدب العصر ، وتتوفر الأدلة على تمتعهما بتعليم راق جداً . وهما عازفتان ماهرتان على البيانو» . وأنكرت السيدة لنجفيلد فكرة زواج ابنتها من شاعر مملق ، ولكن كارل أوجست نفذه بمعاش صغير قدره مائتا طالر ، وأنعم عليه دوق ساكسي - ميونيخ بشعار النبالة . وقد نبه لوته إلى أن فيه عيوباً كثيرة ، فقالت أنها لحظتها ، ولكنها أضافت « ان الحب حب الناس كما نجدهم ، وقبول مواطن ضعيفهم إن وجدت بقلب محب» .^(٩٥) وزفا في ٢٢ فبراير ١٧٩٠ ، واتخذوا منزلاً متواضعاً في يينا . وأتته لوته بدخلها البالغ مائتي طالر في العام ، وأنجبت له أربعة أطفال ، وأثبتت خلال شداثته كلها أنها الزوجة الصابرة الحنون . كتب يقول « ان قلبي يسبح في السعادة ، وعملي يستمد قوة وعافية جديديتين»^(٩٦) .

وعكف على عمله بهمة ، يعد محاضرتين كل أسبوع ، ويكتب المقالات ، والقصائد ، والتاريخ . وظل شهوراً يكبد ويكدح أربع عشرة ساعة في اليوم^(٩٧) . وفي يناير ١٧٩١ أصيب بنوبتين من «الحصى النزلية» جلبتا معه آلاماً في المعدة وبصمة للدم . وظل طريح الفراش ثمانية أيام ومعدته ترفض كل طعام . وأعان الطلبة لوته على العناية به و « تنافسوا أيهم يسهر معي وبعث إلى الدوق بست زجاجات من نبيذ ماديرا المعتق الذي أفادني مع بعض النبيذ المجري»^(٩٨) . وفي شهر مايو أصابه « تشنج رهيب ، مصحوب بأعراض الاختناق ، فترأى لي أن ساعتى قد دنت . . . وودعت

احبائي ، وظننتني راحلا عن الدنيا في أى لحظة . . . وخففت عني كثيراً
جرعات قوية من الأفيون والكافور والمسك واستعمال عوامل التبرئ» (٩٩) .

وأزعج أصحابه شائعة كاذبة بموته ، وصلت حتى كوبنهاجن .
وهناك - بناء على اقتراحين من كارل راينهولت وينز باجيزن - وهما
نبيلان دانمركيان - عرض الدوق فردريش كوستيان أمير هولشتاين -
أوجستنبورج والونت إرنست فون شيملمان على شيلر منحة سنوية قدرها
ألف طالر على مدى ثلاث سنين . فقبلها شاكرآ . وأعفته الجامعة من التدريس
ولكنه ظل يحاضر فرقة خاصة صغيرة . ثم خصص بعض فراغه الجديد ،
بناء على اقتراح من راينهولت ، لدراسة فلسفة كانط التي قبلها كاملة
تقريباً ، وهو ما أضحك جوته وأثار اشمئزاز هرذر ، وربما ألحق بعض
الأذى بشعر شيلر .

ونشر الآن (١٧٩٣) مقاله الطويل « في الكياسة والكرامة » الذي
استهل التربية الرومانسية « للروح الجميلة » . وقد عرف هذه الروح
الجميلة بأنها تلك التي « ينسجم فيها العقل والحواس ، والواجب والميل ،
وتجسد هذه كلها التعبير الخارجي في الكياسة » (١٠٠) . ولا بد أن
المتبرعين الكوبنهاجيين قد هالهم أن يتلقوا ، كبعض الرد على منحهم ،
كتيباً عنوانه « رسائل في التربية الجمالية (الاستطيقية) للإنسان » (١٧٩٣ -
٩٤) . وقد بدأ شيلر بفكرة كانط عن الإحساس بالجمال كتأمل نزيه
للصور المتناسقة ، ثم زعم (مع شافتبيري) أن « الشعور الذي ينميه الجميل
يهذب السلوك » ويصبح الحس الجمالي هو والفضيلة واحداً . وأنه لعزاء
أن نقراً ، في هذا الرأي المنبعث من أيام فاعمار المزدهرة ان شيلر (كجوته)
رأى أن جيله منحل ، غارق في انحطاط خلقي سيئ » (١٠١) .

فلما عاد من الفلسفة إلى الشعر وجد عناء في استحضار « تلك المرأة
والنار المضطربة التي كنت أملكها من قبل ، .. لقد أفسدني الجدل النقدي » (١٠٢) .
ولكنه أصر على أن « الشاعر هو الإنسان الأصيل الوحيد ، وليس
أفضل الفلاسفة إلا كاريكاتورا إذا قيس به » (١٠٣) ، ورفع

وظيفة الشاعر في تعليم البشر والتساعى بهم إلى مستوى الإلهام السماوى .
وقد وصف في قصيدة غنائية طويلة « الفنانون ١٧٨٩ » الشعراء والفنانين
بأنهم يرشدون النوع الإنسانى إلى وحدة الجمال مع الفضيلة والحق . وفي
قصيدة أخرى « آلهة اليونان » (١٧٨٨) امتدح اليونان على حساسيتهم
الجمالية ولابداعاتهم الفنية ، وزعم ، في إبهام حذر ، إن العالم بات كثيباً
قبيحاً منذ حلت المسيحية محل الهيلينية . وكان واقعاً الآن تحت سحر جوته كما
وقع جوته من قبل تحت سحر فنكلمان .

ولعل تصوير شيلر وجوته الرومانسى لليونان القديمة كان هروباً من
المسيحية . فشيلر ينتمى إلى التنوير رغم بعض الفقرات الورعة ، شأنه في
ذلك شأن جوته ؛ وقد قبل إيمان القرن الثامن عشر بالخلاص عن طريق
العقل البشرى لا النعمة الإلهية . واحتفظ باعتقاد ربوبى في الله - شخصى
في الشعر فقط - وخلود غامض . ورفض الكنائس كلها البروتستنتية منها
والكاثوليكية . ولم يكن يطبق المواعظ حتى مواعظ هرذر . وقد كتب بيتين
شهيرين في الجرام عنوانه (عقيدتى) يقول فيهما :

أى دين أعترف به ؟ ولا واحد من كل
الأديان التى تذكرها لى . ولم ؟ بسبب الدين (١٠٤) .

وكتب إلى جوته فى ٩ يوليو ١٧٩٦ يقول « ان الطبيعة السليمة الجميلة -
كما تقول أنت نفسك - ليست فى حاجة إلى ناموس أخلاقى ، إلا إلى قانون
لطبيعتها ، ولا إلى ميثافيزيقا سياسية . وكان فى وسعك أن تضيف أيضاً
أنها ليست فى حاجة إلى إله ، ولا فكرة خلود تدعم وتصون بها ذاتها » .
ومع ذلك كان فيه عوامل من الخيال والرقرة ردت صوب المسيحية :

« اننى أجد أن المسيحية تحتوى فعلاً على الأصول الأولى لكل ما هو
أسمى وأنبى ؛ وصورها الخارجية المختلفة لا تبدو لنا بغضبة منفرة إلا لأنها
تعبيرات سيئة عن الأسمى . . ولم يشدد أحد تشديداً كافياً على ما يمكن
أن يكونه هذا الدين لعقل جميل أو على الأصح ما يمكن أن يفهمه منه

عقل جميل . وهذا يفسر نجاح هذا الدين نجاحاً كبيراً مع الطبائع الأنثوية ، وأنه في النساء فقط يمكن احتمالها إطلاقاً» (١٠٥) .

لم يكن شيلر كجوته مركباً من حيث بدنه للوثنية الخالصة . كان وجهه مليحاً ولكنه شاحب ، وقوامه فارغاً ولكنه نحيل هش . وكان يخشى تقلبات الجو اليومية ويؤثر القعود في حجراته يدخن ويتنشق . وكان يقابل بينه وبين جوته مقابلة الفكرة ضد الطبيعة ، والخيال ضد العقل ، والعاطفة ضد الفكر الموضوعي (١٠٦) . وكان يجمع بين الحياء والكبرياء ، يخشى الخصومة ولكنه يرد دائماً على الهجوم ؛ سريع الغضب فاقد الصبر أحياناً ، (١٠٧) ربما لأنه كان عليمًا بأن عمره ينفد ؛ يكثر النقد للغير ويحسد هم أحياناً (١٠٨) . وكان يميل إلى استخراج العبرة عن كل شيء ، وإلى الضرب على وتر مثالي عال . ومما يريح نفوسنا أن نراه يستمتع بغراميات قصة ديدرو «الحلى الواشية» (١٠٩) . وقد أجاد تحليل موهبته في خطاب مبكر إلى جوته :

« لقد غلبني عقل الشاعر عموماً حين كان ينبغي أن أفلسف . وغلبني عقل الفيلسوف حين كنت أريد الشعر . وحتى الآن كثيراً ما يحدث أن يقتحم الخيال تجريداتي ، والفكر الهادئ نتاجي الشعري . ولو استطعت السيطرة على هاتين القوتين بحيث أعين لكل منهما حدودها (كما كان جوته يفعل) لبقى لدى أمل في التطلع إلى مصير سعيد . ولكن حين بدأت أعرف طاقاتي المعنوية واستخدمها على الوجه الصحيح ، هاجمني المرض للأسف وهددني بتقويض قواي البدنية» (١١٠) .

وعاوده المرض بعنف في ديسمبر ١٧٩٣ ؛ ثم تماثل للشفاء ، ولكن إحساسه بأنه لا شفاء له منه وأنه يجب أن يتوقع نوبات راجعة أورثه الكتابة . ففي ١٠ ديسمبر كتب إلى كورنر يقول «لئن أكافح هذا الشعور بكل قوى عقلي . . . ولكنني أصد دائماً . . . فإن غموض مستقبل ؛ . . . والشكوك في عبقريتي التي لا بدعها ولا يشجعها الاتصال بغيري ، والافتقار التام لذلك الحديث العقلي الذي أصبح ضرورة لا غنى لي عنها » ؛ تلك كانت الأفكار الملازمة لمحنة الجسدية . وراح يتطلع في تشوق ، من بينا لفنار ،

إلى جوته الذى ينعم بعافية يحسد عليها ، ذلك « العقل السليم فى الجسم السليم »
وأحس شيلر انه هناك يوجد الرجل الذى يستطيع أن يعطيه الحافز والدعم ،
لو أن الجليد القائم بينهما ذاب ، وسقط حاجز الأميال الأربعة عشر الذى
يفصل بينهما !

٧ - شيلر وجوته ١٧٩٤ - ١٨٠٥

وسقط الحاجز لحظة حين حضر الرجلان فى يونيو ١٧٩٤ جلسة عقدتها
جمعية التاريخ الطبيعى فى فيينا . فلما التقى شيلر بجوته وهما يغادران القاعة ،
قال معلماً أن العينات البيولوجية المعروضة فى المؤتمر تعوزها الحياة ، ولا
لا يمكنها أن تعين مشاهدتها حقاً على فهم الطبيعة . ووافق جوته مشدداً ،
وتجاذبا الحديث حتى بلغا بيت شيلر . وقال جوته فيما بعد مستعيداً ذكرى
اللقاء « وأغرائى الحديث بالدخول معه وشرحت له . . . » « تحول النباتات » -
وهى مقالة زعم فيها جوته أن جميع النباتات تنويغات من نمط أولى
واحد . وأن كل أجزاء النبات تقريباً تنويغات أو تطويران للورقة .
« واستمع . . . إلى هذا كله بكثير من الاهتمام وبفهم واضح ، ولكن
ما إن فرغت حتى هز رأسه وقال لى « ليست هذه تجربة ، إنما هى فكرة » ،
أى أنها نظرية لم تثبتها الملاحظة أو الاختبار . وغاظ التعليق جوته ، ولكنه
رأى أن لشيلر عقلاً مستقلاً ، فازداد احترامه له . أما زوجة شيلر « التى
أحببتها وقدرتها منذ طفولتها ، فقد بدلت قصارها لتوثق تفاهمنا المتبادل » (١١١) .

وفى مايو ١٧٩٤ كان شيلر قد وقع عقداً بالإشراف على تحرير مجلة
أدبية شهرية «تسمى داي هورين والهوراي» فى المتيولوجيا الإغريقية
ربات الفصول . وكان يأمل أن يجند للمجلة كانط ، وفشته ، وكلوبشتوك ،
وهردر ، وياكوبى ، وياجيزين ، وكورنر ، ورايبولت ، وفلهلم فون
همبولت ، وأوجست فلهلم فون شليجل ، ثم جوته - أفضل صيد يطعم
فى اقتناصه . وفى ٣ يونيو أرسل إلى فايمار رسالة موجهة إلى « السيد الكريم
المحتد ، الرفيع المقام ، المكرم ، عضو المجلس الخاص » ، تحتوى على
نشرة تمهيدية للمجلة المقترحة ، وأضاف : « أن الورقة المرافقة تعرب عن

رغبة عدد من الرجال الذين يقدرونك تقديراً بغير حدود في أن تشرف
الدورية بمقالات من قلمك ، يجمع الكل بصوت واحد على عظم قيمتها .
ونحن نشعر يا صاحب السعادة بأن موافقتك على دعم هذا المشروع ستكون
ضماناً لنجاحه » (١١٢) . ورد جوته بأنه يسره المشاركة بمقالاته . وأنه « على
ثقة من أن الاتصال الأوثق بالرجال الأصلاء الذين يؤلفون لجنّتكم سيبعث
حياة جديدة في كثير مما هو راكد الآن في باطنى » (١١٣) .

وهكذا بدأ ترسل يعد من ذخائر تاريخ الأدب ، وصداقة اتصلت إحدى
عشرة سنة - حتى موت شيلر - فيها من تبادل الاحترام والعون ما ينبغى
أن يدخل في تقديرنا للنوع الإنسانى . وربما كان أكثر هذه الرسائل الباقية
كشفاً - وعددها ٩٩٩ - هى الرسالة الرابعة (٢٣ أغسطس ١٧٩٤) ،
التي حلل فيها شيلر - بعد عدة لقاءات مع جوته جمعت بين المجاملة
والصراحة وبين التواضع والاعتزاز بالنفس ، الفارق بين عقليهما . قال :

« إن أحاديثي الأخيرة معك حركت كل ذخيرة أملكها من الأفكار . . .
فكثير من الأشياء التي لم أستطع أن أصل فيها إلى تفاهم خاص مع نفسى
تلقت ضوءاً جديداً غير متوقع من تأملى لعقلك (فهكذا أسمى التأثير العام
لأفكارك على) . . لقد أعوزنى التجسيد لعدد من أفكارى التأملية ، وأنت
وضعتنى على الطريق المفضى إليه . وأسلوبك الهادى الواضح فى النظر إلى
الأشياء يعصمك من التيه فى الطرق الجانبية التي كثيراً ما يشرّد بي فيها
تأملى وخيالى المستبد . ان حدسك الصائب يدرك كل الأشياء ، ويدركها
على نحو أكمل كثيراً مما ينشده المرء فى عناء التحليل . . . وعقول كعقلك قل
أن تعرف إلى أى حد بعيد نفذت وتغلغلت ، وأنه ما من داع يذكر يدعوها
للاستعارة من الفلسفة ، التي لا تستطيع فى الواقع إلا أن تتعلم منها . . . ومع
أننى فعلت هذا على بعد ، إلا اننى طالما راقبت المسار الذى سلك فيه عقلك . .
أنت تبحث عن الضرورى فى الطبيعة ، ولكنك . . . تنظر إلى الطبيعة
بوصفها كلا حين تحاول جعل الضوء يلقي على أجزائها الفردية ، أنت تبحث
عن تفسير الفرد فى جماع مظاهرها المتنوعة » (١١٤) .

أما رد جوته (٢٧ أغسطس) فقد تجنب في ذكاء تحليل عقل شيلر :
« ما كنت لأتلقى بمناسبة عيد ميلادى الذى وقع هذا الأسبوع هدية
أجمل من رسالتك التى تلمخص فيها حياتى بيد ودود ، وتشجعنى فيها بتعاطفك
على استخدام قدراتى استخداماً أكثر مثابرة ونشاطاً . وسيكون من دواعى
سرورى أن أكشف لك حين تتاح لى الفرصة ماكانه حديثك لى ، وكيف
أننى أنا أيضاً أعد تلك الأيام مرحلة متميزة فى حياتى ، لأنه يبدو لى اننا
لأنملك بعد هذا اللقاء غير المتوقع إلا أن نطوف فى دروب الحياة معاً » .

وتابع جوته هذه الرسالة (٤ سبتمبر) بدعوة لشيلر ليحضر إلى فايمار
وينفق معه أياماً فيها . « سيكون فى استطاعتك أن تشرع فى أى عمل تشاء
دون أن يزعمك أحد . وسنتجاذب الحديث معاً فى أوقات ملائمة . وفى
ظنى اننا لن نفترق دون أن نحقق بعض الكسب . وعليك أن تعيش هنا
تماماً كما تحب ، وكما لو كنت فى بيتك ما أمكن ذلك » . ولم يردد شيلر
فى القبول ، ولكنه حذر جوته قائلاً « ان تشنجات الربو التى أعانى منها
تلزمنى الفراش طوال الصباح لأنها لاتسمح لى بأى راحة فى الليل » . وهكذا
كان شيلر ضيف جوته وعليله تقريباً من ١٤ إلى ٢٨ سبتمبر . وأعنى أكبر
الرجلين بالشاعر العليل عناية رفيقه ، وحماه من المضايقة ، وبذل له النصيح
فى أمر غذائه ، وعلمه حب الهواء الطلق . كتب شيلر (٢٩ سبتمبر) بعد
عودته إلى يينا يقول « أجدنى فى بيتى مرة أخرى ، ولكن أفكارى لاتزال
فى فايمار . ولا بد لى من وقت طويل أحل فيه خيوط كل الأفكار التى
أيقظتها فى » . ثم (٨ أكتوبر) ، ناشده بما عهد فيه من تحمس « يبدو لى
انه من الضرورى أن نصلى فوراً إلى قدر من التفاهم الواضح حول أفكارنا
عن الجميل » .

ثم تلا ذلك شهر ثلاثة من التحضير للعدد الأول من مجلة « هورين » الذى
صدر فى ٢٤ يناير ١٧٩٢ . والثانى فى أول مارس . والأعداد الباقية
شهرياً على مدى ثلاث سنين ، وكتب جوته من فايمار (١٨ مارس) يقول
« إن الناس يتهافنون عليها ، ويتخاطفون أعدادها ، ولما كنا لنطمع فى أكثر

من ذلك لهذه البداية « . وفي ١٠ أبريل كتب شيلر لجوته يقول « لقد كتب
لى كانط خطاباً ودياً جداً ، ولكنه طلب مهلة لإرسال مقالاته . . . ويسرنى
أننا أغرينا الطائر العجوز بالانضمام إلينا . » وطلب جوته أن تنشر مقالاته
غفلاً من التوقيع ، لأنها اشتملت على عدد من « مرائيه الرومانية » ، وكان
عليماً بأن نزعتها الشيقة القوية ستبدو غير لائقة بعضو فى المجلس الخاص .

وفى حماسة النجاح المبهورة أقنع شيلر جوته بأن يشترك معه فى إصدار
دورية أخرى « التقويم السنوى للشعر » صدرت كل سنة من ١٧٩٦ إلى
١٨٠٠ . وأطرف ما احتوته هو الأبحرارات المسماة Xenien والتي صاغها
الشاعران على غرار ابجرامات مارتياك Xenia (اكسنيا) التي كانت تكتب
هدايا للضيوف . وقد وصف شيلر المشروع لكرونر فقال : « ان العملية
كلها تجميع لأبحرارات ، كل منها مقطع شعري من بيتين . وهى فى
أكثرها هجائيات عنيفة شيطانية ، موجهة بصفة خاصة ضد المؤلفين وأعمالهم ،
يتخللها هنا وهناك ومضات خاطفة من الأفكار الشعرية أو الفلسفية . فسيكون
هناك عدد لا يقل عن ستمائة من هذه المقطوعات »^(١١٥) . وكان جوته قد
اقترح هذه الفكرة ذريعة لرد اللطمات إلى نقادها ، وللسخرة من المؤلفين
المغرورين وأصحاب الميول البورجوازية ، ولتنبيه جمهوره القراء الألمان إلى الاهتمام
بالأدب اهتماماً أشد . وعزماً على أن يطلقها هذه « الهدايا » على معسكر
الرجعيين « كالثعالب المشتعلة الذبول »^(١١٦) وكانت الأبحرارات بلا توقيع ،
وكان بعضها نتاجاً مشتركاً للمتأمرين كليهما . وإذا كان الكثير من هذه الذبول
المشتعلة موجهاً ضد مؤلفين طواهم النسيان أو جدليات لا يذكرها الناس
الآن ، فإن الزمن أطفأ نارها ، ولكن واحداً منها بقلم جوته يستحق منا
التنويه الخاص :

« جاهد دائماً فى سبيل الكل ، وإذا لم تستطع أنت نفسك أن تصبح كلا ،
فاربط نفسك إلى كل ما يوصفك جزءاً تابعاً » .
وهناك إبحرام آخر يعزى عادة إلى شيلر يفصل الفكرة :

« أتخاف الموت ؟ أتريد الحياة دون أن تموت ؟ إذن عش فى الكل !

فسوف يبقى بعد أن تموت بزمن طويل . » وقد جر عليهما الجزء الهجائي من الاجرامات هجمات مضادة آلت شيلر واضحكت جوته . ونصح جوته شيلر بأن يجعل من عمله الرد الوحيد على هذا الهجوم . « بعد مغامرتنا المجنونة في الاجرامات ، علينا أن نحرص على العكوف على أعمال الفن العظيمة الجليلة دون غيرها ، وأن نحزى جميع خصومنا بتحويل طبائعنا المتقلبة إلى صور نبيلة » (١١٧) .

وهكذا كان ، ففي سنى صداقتهما النامية تلك كتب جوته وشيلر بعضاً من اروع قصائدهما : فكتب جوته « عروس كورنت » و « الآله والبايدير » ؛ وكتب شيلر « المسيرة » (١٧٩٥) و « كراكي أبيكوس » (١٧٩٧) و « أنشودة الناقوس » (١٨٠٠) . وأضاف شيلر مقالا كبيراً في « الشعر الساذج العاطفي » (١٧٩٥) - وطلع جوته على الناس بقصته « تلمذة فلهم ما يستر » (١٧٩٦) .

وقد غنى شيلر بالشعر الساذج العاطفي ، ذلك الشعر المنبعث عن الإدراك الحسى الموضوعى مقابل الشعر الذى ينشئه الوجدان التأملى ؛ وكان في طويته يقارن بين جوته وشيلر . أما الشاعر «الساذج» فليس بسيطاً ولاسطحياً ولا مخدوعاً ، إنما هو شاعر توافق في يسر مع العالم الخارجى بحيث لايشعر بأى تعارض بينه وبين الطبيعة ، بل يجد طريقه إلى الواقع بالحدس المباشر غير المتردد : ويستشهد شيلر بهومر وشكسبير مثالين على فكرته . وكلما أصبحت المدنية أكثر تعقيداً وافتعالا فقد الشعر هذه المباشرة الموضوعية والانسجام الذاتى ؛ ودخل الصراع النفس ، وكان على الشاعر أن يقتنص من جديد بالخيال والوجدان هذا التوافق والاتحاد بين النفس والعالم - كمثل أعلى يتذكره أو يتطلع إلى تحقيقه ؛ ويغدو الشعر عندئذ تأملياً ، يلبد الفكر سماءه (١١٨) . وكان شيلر يعتقد أن معظم الشعر اليونانى من النوع الساذج أو المباشر . ومعظم الشعر الحديث حصيلة التنافر والتفكك والشك . والشاعر المثالى هو الذى يصهر المداخلين جميعاً ... البسيط والتأملى ... في رؤية واحدة وصورة شعرية واحدة . وقد ذكر جوته فيما بعد أن هذا المقال أصبح مصدراً للجدل بين الأدب والفن الكلاسيكيين والرومانتيكيين .

ونمو فكرة « تلمذة فلهم ما يستر » من بدايتها إلى تمام تنفيذها يوضح منهج جوته في الخلق . فقد تصور القصة في ١٧٧٧ ، وأتم الكتاب الأول في ١٧٧٨ ، ثم نحاها جانباً ، ولم يكمل الكتاب الثاني حتى يوليو ١٧٨٢ . ثم عكف على الكتاب الثالث حتى نوفمبر من ذلك العام ، وعلى الرابع حتى نوفمبر ١٧٨٣ ؛ أما الكتابان الخامس والسادس فقد امتد بهما الزمن ثلاث سنين أخرى . وقد أطلق على الكتب الستة « انطلاق فلهم ما يستر المثير » وقرأ أجزاء منها على بعض أصحابه ، ثم طرحها جانباً . وعاد إلى القصة في ١٧٩١ بلحاح من هردر وآنا آماليا ، وأضاف إليها كتابين في ١٧٩٤ ، ثم عرض المخطوط المتعاطم على شيلر ، الذي رد بانتقادات واقتراحات وتشجيع كلما وافاه المؤلف بصفحات جديدة ، وكأنها صورة لقابلة تعين الأم على ولادة فات أوانها . وأخيراً ، في ١٧٩٦ ، دفع جوته بالمؤلف كله إلى المطبعة . لا عجب إذن أن كانت الحصيللة النهائية مشوهة تشويهاً طفيفاً ، ضعيفة البناء ، « ذهنية » القوام ، مهوشة ، ممتازة في أجزاء فقط ، وفي عكسها لتردد جوته بين الاهتمامات المتضاربة ، والمثل العليا الغامضة . لقد كان الحسم والثقة بالنفس ، اللذان نعته بهما شيلر ، هما الستار المتكبر للتذبذب والصراع الداخليين .

وقد عبر الكتاب عن فترة التلمذة في النقابات الحرفية الألمانية ، وخلال زمن الوصاية هذا أصبح فلهم « معلماً » موضوع القصة المطوف إذن هو هو تلمذة فلهم البطيئة الأليمة في نقابة الحياة . وبسبب مسارح العرائس التي أحبها جوته طفلاً ، واهتمامه المتصل بالمسرح ، ربط القصة بفرقة من الممثلين تجتاز مدنًا كثيرة وتتقلب عليها عشرات الغير دروساً في الحياة وصوراً لأساليب العيش الألمانية . وإذ كان وفيّاً لعدم وفائه فقد أدخل بطله إلى مسرح الأحداث بهجراته خليلته ماريانه . وفلهم ليس بالشخصية الفتانة . فهو يترك نفسه تساق من موقف لآخر أو من فكرة لأخرى على هوى الظروف أو بقوة الشخصية المفروضة عليه ، والمرأة هي التي تقوم بالمبادرة في غرامياته . ولد بورجوازيّاً ، ومن ثم فهو يتعثر إعجاباً بالرجال النبلا

المولد ، ويأمل في تواضع أنهم في يوم ما سيعترفون باستقراطية العقل . أما فيلينه فأكثر جاذبية منه : فهي ممثلة جميلة تشب بخنة من عشق إلى عشق ، ولكنها تحمل تطويفها الغرامى بمرح معد وعدم وعى بالإثم يحلها من خطيئتها . أما مينون الصغيرة ففريدة في بابها ، تتبع أباه الشيخ في إحساس بالواجب وهو يعزف عزفاً غير بارع على قيثارته في جولات يجمع فيها الدراهم . ويقول جوته في وصفها أنها تتكلم « المانية ركيكة جداً » (١١٩) . ولكنه يجرى على لسانها تلك الأغنية الرائعة « أتعرف ذلك البلد » . وهي تقع في غرام المراهقة بفلهلم الذى يحبها حبه لطفلة ، وتموت هي حزناً حين تراه بين ذراعى تريزا . وقد التقطها امبرواز توما من بين هذه الصفحات الثمانمائة ليجعل منها أوبرا حزينة ممتعة (١٨٦٦) .

وامتدح شيلر رصانة أسلوب القصة وصفاءه ، وما في وصف الفرقة التمثيلية الجواله من صدق ومطابقة للحياة ، ولكنه أشار إلى تناقضات في الترتيب الزمني ، وشبه استحالات سيكولوجية ، وانهاكات للذوق ، وأخطاء في التصوير والتصميم (١٢٠) . واقترح تغييرات في الحبكة ، وأولى بأفكاره عن النحو الذى ينبغى أن تختم عليه القصة (١٢١) . وقال له جوته مؤكداً ، « اننى بالتأكيد سامتثل لرغباتك المنصفة ما استطعت (١٢٢) . ولكنه اعترف لأكرمان ، بعد ثلاثة وثلاثين عاماً ، بأنه بذل قصاراه ليحمى قصته من تأثير شيلر (١٢٣) . وكان نقاد آخرون أقل تعاطفاً ، فوصف أحدهم الكتاب بأنه ماخوذ متجول ، وشكت شارلوت فون شتين قائلة « حين يتناول جوته العواطف السامية يقذفها دائماً ببعض الأقدار ، وكأنما يريد بذلك أن ينكر على الطبيعة البشرية أى طموح إلى القداسة » (١٢٤) . على أن القصة لم تستحق هذه الانتقادات العشوائية ، ففيها الكثير من الصفحات السارة ، ومازال في استطاعتها أن تثير شوق القراء الذين تحرروا من ضجيج العالم وصخبه .

وفي ٢٣ مارس ١٧٩٦ ذهب شيلر إلى فايمار مرة أخرى ضيفاً على جوته . هناك عملاً معاً في خدمة المسرح . وكان جوته مديراً صارماً ، يختار التمثيلات المراد عرضها ، ويدرب الممثلين . « فاستبعد كل ما كان كثيراً

أو ضعيفاً أو باكياً أو هش العاطفة ، كما استبعد تماماً كل ما كان خفيفاً أو مرعباً أو ثائيباً» (١٢٥) . أما الجمهور فاقصر عادة على البلاط ، إلا حين يدعى بمض الطلاب من بيننا . وقد عاق أوحست فون شليجل على هذا الوضع تعليقاً لاذعاً « أن لألمانيا مسرحين قوميين — فيينا بجمهور من خمسين ألف مشاهد ، وفيار من خمسين » (١٢٦) .

وعاد شيار إلى بينا في ١٢ أبريل ، وقد حفزه اتصاله المجدد بالمسرح لينصرف عن التاريخ والفلسفة والشعر العارض إلى الدراما . ولقد طالما فكر من قبل في تأليف مسرحية عن فالنشتين ، فحثه جوته على الشروع فيها . وفي نوفمبر ذهب جوته إلى بينا ، وعاش حيناً في اتصال يومي بشيلر . فلما عاد جوته إلى فيمار كتب إليه يقول « لايفتاك أن تستغل أفضل أوقاتك ، حتى تمضى قدماً بمأساتك ، ليتسنى لنا أن نشرع في مناقشتها » (١٢٧) .

وبينما كان شيار عاكفاً على تأليف « فالنشتين » ، شحذ روح المنافسة في جوته نجاح « لويزه » (١٧٩٥) التي ألفها يوهان هينريش فوس قصة ريفية شعرية تمثل الحياة والمواطف الألمانية — فحرب هذا اللون المحبب ، ونشر في ١٧٩٨ — « هيرمان ودوروتيا » . أما هيرمان فهو الإبن القوي السام ، الخجول الهادئ ، لأب صفراوى المزاج وأم حنون يديران « الخان الذهبي » ومزرعة واسعة في قرية قريبة من الراين . ويصل إلى علمهم أن مئات من اللاجئين قادمون من بلدة على التخوم استولى عليها الفرنسيون ، فتجهز الأسرة رزماً من الثياب والطعام ، يحملها هيرمان إلى اللاجئين . ويجد بينهم صبية لها « نهدان بارزان » و « كاحلان إرائعان » (١٢٨) تقدم للاجئين العون وأسباب الراحة . فيهم بها ، وبعد شدائد لا بد منها ، يصطحبها إلى بيته ويقدمها إلى أبويه بوصفها عروسه . ويروى الشاعر القصة في أبيات متدفقة من البحر السداسي التفاعيل ، وصور الحياة الريفية الموجزة تضيئ رواء على القصة ، وقد أجهجت النداءات لطرد الغزاة الفرنسيين الألمان المتحمسين لوطنهم والذين وجدوا مسرحيتي جوته « إلفجيني » و « ناسو » غريبتين عويصتين . واكسبت الملحمة الصغيرة شعبية جديدة لمؤلف لم يظفر منذ « فرتر » إلا بقلّة من القراء خارج دوقية ساكسي فيمار .

أما شيلر فكان نجمة في صمود من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٠ . ففي ٢٨ نوفمبر ١٧٩٦ كتب إلى كورنر يقول « مازلت أطيل الفكر جاداً في » فالنشتين » ، ولكن العمل التعس مازال أمامي بلا شكل ولا نهاية . « وقد بدأ المسرحية نثراً ، ثم نحاها ، ثم استأنفها شعراً . وكان على الملام بالمادة من الدراسات التي قام بها ليؤلف كتابه « تاريخ حرب الثلاثين » ، ولكنها بلغت من الوفرة والتعقيد في الشخصوص والأحداث مبلغاً أكرهه على الإفلاع عن محاولة ضغطها في خمسة فصول . وقرر أن يقدم للدراما بتمهيد (برولوج) من فصل واحد سماه « معسكر فالنشتين » ، وأن يقسم الباقي إلى تمثيليتين . وشرحت الأولى مؤامرة خلع القائد المتمرد ، ووازنتها بغرام ملتهب بين ابنة فالنشتين وابن زعيم في المؤامرة . وإما الدراما النهائية والأساسية فستكون « موت فالنشتين » .

فلما قرأ جوجه التمهيد « راعه التصوير الواقعي لمعسكر الجيش ، والإعداد البارع للتطورات اللاحقة ، فأصر على عرض « معسكر فالنشتين » على مسرح فايمار (١٢ أكتوبر ١٧٩٨) قبل أن يكتمل القسم الأول ؛ وربما كانت هذه الطريقة ذكية لإلزام الشاعر بالكشف على مهمته . وفي مطالع ١٧٩٩ ذهب شيلر إلى فايمار لإخراج التمثيلية الأولى ، فعرضت أول مرة في ٣٠ يناير ولقيت قبولا حسناً . وعاد إلى بينا وراح يعكف بشكل محموم على « موت فالنشتين » . ويكشف خطاب في ١٩ مارس ١٧٩٦ عن الحالة النفسية لكاتب خرج لتوه من أتون الخلق « لقد طالما روعتني اللحظة التي سأفرغ فيها من عملي ، مع شدة رغبتى في مجيء تلك اللحظة ؛ والواقع أنني أشعر بأن حريتي الراهنة أسوأ من حالة العبودية التي كنت أعانيها إلى الآن . فقد ذهب الآن الجمهور الذي اجتذبتني حتى الآن وألزمي هذا هذا الواجب ، وأنا أحس كأنني معلق في الهواء إلى مالا نهاية » .

وجاء ما يكفي من الإثارة مع التدريبات والعرض الأول (٢٠ أبريل ١٧٩٩) لموت فالنشتين . وكان نجاحها كاملاً . وحتى جمهور فايمار النقاد أحس أنه شهد رائعة من روائع العرض الدرامي . ووصل شيلر الآن

إلى قمة تطوره . لقد قصر الخطب وكثف الحركة ، ورسم كل الشخصيات الهامة بحيوية وقوة ، وجمع كل خيوط الحبكة . مما في الخاتمة الفاجعة — وهي ذلك الموت المخزي لرجل عظيم دمره الطمع والكبرياء اللذان لاحدود لهما . وأحس شيلر أن في وسعه الآن أن يقف على قدم المساواة مع جوته (١٢٩) ، وكان على حق في ضمارة الدراما . وأضاف الدوق ماثي طالر لمعاش شيلر ، ربما بناء على اقتراح من جوته ، ودعاه للإقامة في فيمار . وهكذا انتقلت الأميرة في ٣ ديسمبر ١٧٩٩ إلى بيت قريب جداً من بيت جوته ، حتى أن الشاعرين ظلا حيناً يلتقيان كل يوم (١٣٠) .

وكان شيلر خلال ذلك قد زج بنفسه في مسرحية أخرى بعد أن حفره انتصاره . كتب إلى كورنر في ٨ مايو ١٧٩٩ يقول « شكراً لله ! لقد وقعت وقعت فعلاً على موضوع جديد للأساة » ودرس لهذه التمثيلية « مارياستيوارت » الخلفية التاريخية ، ولكن لم يدع أنه يكتب التاريخ ، فقد نوى أن يكتب تمثيلية يستخدم فيها التاريخ مادة وخلفية . فرتب من جديد الأحداث والتسلسل الزمني ليخدم الاتساق والتأثير الدراميين ؛ وأكد على العناصر غير السارة في خالق الزباث ، وجعل من ماري بطلة مبرأة من كل دنس تقريباً ، ثم أتى بالملكيتين وجهاً لوجه في مواجهة درامية . والتاريخ لا يعرف هذا اللقاء ، ولكن المشهد من أقوى المشاهد في أدب المسرح . فلما أن عرضت في فيمار في ١٤ يونيو ١٨٠٠ انتشى شيلر مرة أخرى بنجاحه . وما وافى شهر يوليو حتى كان عاكفاً على تمثيلية « عذراء أورليان » . هنا أيضاً عدل التاريخ ليعخدم هدفه : فبدلاً من حرق العذراء صور جان دارك هاربة من أسريها الانجليز ، مندفعة إلى المعركة لتنقذ ملكها ، لاقية حتفها وهي منتصرة على ساحة القتال . وكان العرض الأول في ليپزج (١٨ سبتمبر ١٨٠١) أعظم انتصار ظفر به شيلر طوال حياته .

أكان جوته يغار من صعود نجم صديقه فجأة على المسرح الألماني؟ لقد اغتبط بهذا الصعود ، وظل بعد مضي ثمانية وعشرين عاماً يحكم على « موت

فالنشئين» بأنها «عظيمة حتى انك لاتجد لها نظيراً من نوعها» (١٣١). على أنه لم يرفع قدر منافسه في الشعر إلى المقام الذي رفعه إليه في الدراما ، فقد أحس أن شيلر كدروصفاء شعره بالفلسفة ، وأنه لم يملك قط ناصبة موسيقى الشعر تماماً (١٣٢). وحين أراد بعض المعجبين بشيلر أن يقدموا على مسرح فايمار تعبيراً عن تقديرهم له ، منع جوته هذا العرض بحجة أن فيه غلوّاً في التباهي (١٣٣). وفي يوليو ١٨٠٠ ذهب إلى بينا للخلوة والدرس ، بينما ظل شيلر في فايمار ، واكن في ٢٣ نوفمبر كان شيلر لايزال يتكلم عن جوته بعبارات الصداقة التي لم تشبها شائبة . وكان رأيه في جوته أنه «أعظم رجل موهوب منذ شكسبير . . . وطوال سني صداقتنا الحميمة الست لم تخامرني أدنى شك في نزاهته . لقد انصف بأسمى صفات الصدق والإحساس بالشرف ، وأعمق الجهد في السعي إلى ما هو حق وخير» (١٣٤). ثم أردف «وددت لو استطعت أن أبرر جوته بمثل هذه الحرارة من جهة علاقاته الأسرية ! . . . فبسبب أفكار خاطئة عن مقومات السعادة البيتية ، وخوف منكود من الزواج ، انزلق إلى ورطة تضنيه وتشقيه في بيته ذاته ، وهو أضعف وألين قلباً من أن يتخلص منها . ذلك مغمره الوحيد . » وقد أبت زوجة شيلر كغيرها من سيدات فايمار أن تستقبل كرسيتيانه في بيتها ، ونذر أن ذكر شيلر كرسيتيانه في اتصالاته القائمة بجوته .

على أن هذه الصداقة بين «الديوسقورين» — كما كانا يلقبان أحياناً — رغم ما شابها من صدوع ، أثبتت على الأقل أن الانسجام ممكن بين عبقرية كلاسيكية وأخرى رومانتيكية . كانا يبعثان الرسائل الواحد لصاحبه كل يوم تقريباً ، ويتناولان العشاء معاً مراراً ، وكثيراً ما وضع جوته مركبته تحت تصرف شيلر ؛ وأهدى شيلر «شطراً من الطلب الذي سلمه الساعة تاجر النبيذ الذي أتعامل معه» (١٣٥). كتب جوته في ٢٠ أبريل ١٨٠١ : «لنتمش معاً قرب المساء» ، وكتب في ١١ يونيو «وداعاً ، بلغ تحياتي الرقيقة لزوجتك العزيزة ، واشرح صدى عند عودتي (من جوتنجن) باطلاعى على بعض ثمرات جهلك» ؛ وفي ٢٨ يونيو ١٨٠٢ : «سيصملك مفتاح حديقتي وبيتي ، وأريدك أن تمضي هناك ما أذكئك من الأوقات (م ٢١ — قصة الحضارة . ج ٤١)

السعيدة » . وبعد موت شيلر باثني وعشرين عاماً قال جوته لأكرمان ،
« كان من حسن حظي . . . ان وجدت شيلر ، لأننا رغم اختلاف طبائعنا
فلان ميولنا كانت تتجه إلى نقطة واحدة ، مما وثق صلاتنا إلى حد استحالة
معه حقيقة على الواحد أن يعيش بدون الآخر » (١٣٦) .

وقد عوقهما المرض في سنوات صداقتهما الأخيرة . ففي الشهور الثلاثة
الأولى من سنة ١٨٠١ كان جوته يشكر العصبية ، والأرق ، والأنفلونزا
العنيفة ، والحراريج التي أفغلت عينيه حيناً . وفي إحدى مراحل مرضه طالت
غيوبته حتى توقعت فامار موته . وفي ١٢ يناير كتبت شارلوتة فون شتين
لولدها فرتز تقول : لم أكن أدري أن صديقي السابق جوته ما زال عزيزاً
جداً على ، وأن مرضاً خطيراً قهره منذ تسعة أيام سيهزني إلى الأعماق » (١٣٧) .
وأخذت أوجست ، ابن كرسثيان ، إلى بيها فترة لتخفف الأعباء التي
ألغها مرض جوته على خليلته التي كانت تبذل له العناية دون كلل . وكان
إبلاله بطيئاً ليماً . كتب إلى شارلوتة يقول « صعب على المرء أي يجد
طريقه إلى العودة » (١٣٨) .

وفي ١٨٠٢ اشترى شيلر بيتاً في فامار لقاء ٧,٢٠٠ جولدن ، وكان
الآن ميسوراً بفضل الحصيلة المتزايدة من مسرحياته الممثلة والمنشورة ،
وساعده جوته ، وكان وقتها في بيها ، على بيع البيت الذي كان يسكنه هناك .
وفي ١٧ مارس ١٨٠٣ أخرج شيلر « عروس مسينا » ، وهي محاولة —
اعترف بها لنفسه (١٣٥) — لمنافسة مسرحية سوفوكليس « أوديب » بتصوير
النضال بين أخوين يعشمان امرأة يتبين أنها أختهما مستعينة بكورس مقسم .
ولم تحز المسرحية الرضى . وجاز جوته بنكسة مماثلة حين أخرج في ١٨٠٣
« الابنة الطبيعية » (أي غير الشرعية) .

وكان بين المشاهدين لعرض من عروض « الابنة الطبيعية » سيدة
لامعة هوائية هي جرمين نكير ، مدام دستال ، التي كانت تجمع مادة
لكتابها « فن ألمانيا » وقد رأت شيلر أول مرة في ديسمبر ١٨٠٣ :

« في صالون دوق ودوقة فامار ، في جماعة جمعت بين الاستنارة

والذنبالة . وكان يجيد قراءة الفرنسية ، ولكنه لم يتكلمها قط من قبل . وقد عرفت في شيء من التحمس عن تفوق نظامنا المرامى على ما عدها من الأنظمة قاطبة ، فلم يرفض . نازا تى دون أن يشعر بأى ضيق لما يجد من مشقة وبطء في التعبير عن نفسه بالفرنسية . . . وسرعان ما اكتشفت الكثير جداً من الأفكار خلال عقبة ألفاظه ، وراعتنى جداً بساطة خلقه . . . فقد وجدته شديد التواضع ، . . . شديد الحيوية ، حتى لقد أخذت على نفسى العهد منذ تلك اللحظة بمصادقة له ماؤها الإعجاب» (١٤١) .

وقد أهد شيار جوته لاتعرف إليها ! « إنها تمثل الثقافة الفكرية لفرنسا في نقائها . . . ولا يعيبها غير تدفقها المفرط . ولا بد للمرء أن يحول نفسه إلى جهاز سمع مركز واحد لكى يتابعها » (١٤١) . وأتى بها إلى جوته في ٢٤ ديسمبر . وكتب جوته يقول : « ساعة الميزة جداً . لم أجد فرصة للنطق بكلمة . أنها تجيد الحديث ، ولكن بإسراف شديد . » وكانت روايتها عن اللقاء مطابقة لروايته مع تغيير طفيف ، فقد قالت إن جوته أكثر من الكلام حتى لم تجد فرصة للنطق بقطع واحد (١٤٢) . وقد كان كتابها بمثابة كشف أمارت لفرنسا اللثام عن ألمانيا « وطن الفكر » . كتبت تقول « لا يعقل ألا يكون الكتاب الألمان ، وهم أكثر الرجال في أوروبا اطلاعاً وتفكيراً ، جديرين بلحظة انتباه تبذل لأدبهم وفلسفتهم » (١٤٣) .

واعترزم شيلر أن يسترد بجهوره الذى رفض « عروس مسينا » ، فاختار بناء على اقتراح جوته موضوعاً لدرامته التالية قصة ولیم تل الشعبية : وسرعان ما عكف على الموضوع في لطفة وانفعال . قال جوته في ١٨٢٠ مستحضراً تلك الفترة ، « بعد أن جمع كل المادة الضرورية قعد للعمل . . . ولم يبرح . قعده حتى فرغ من المسرحية . فإذا غلبه التعب أسند رأسه على ذراعه وأغوى هنيهة . . . ومجرد أن يستيقظ كان يطلب . . . قهوة سوداء قوية ليظال يقظاً . وهكذا فرغ من المسرحية بعد ستة أسابيع » (١٤٤) .

وقبل شيلر أسطورة شائعة — على أنها تاريخ — عن ولیم تل قائد ثورة

السويسرين على النمسا في ١٣٠٨ . كانت الثورة حقيقية ، وكذلك كان جيسلر الوكيل النمساوي المكروه . وتروى الأسطورة أن جيسلر تعهد لوليم تل بالعمو الكامل إذا أثبت براعته المشهورة في استعمال القوس والسهم بإصابته تفاحة على رأس ولده . ووضع تل سهمين في منطقتيه ، وأصاب التفاحة بأولهما . وسأله جيسلر عم كان يريد بالآخر ؛ وأجاب تل « كنت أريدك أنت إن أصاب الأول ولدى » . ولقيت المسرحية الاستحسان في فينمار في ١٧ مارس ١٨٠٤ وفي كل مكان عرضت فيه بعدها بقليل ، وتبعتها سويسره جزءاً من تقاليدھا القومية . فلما نشرت المسرحية بيع منها سبعة آلاف نسخة في بضعة أسابيع . وأصبح اسم شيلر الآن أوسع ذيوفاً من اسم جوته .

ولكن أجله دنا . إذ لم يبق له في الحياة غير شهر . ففي يوليو ١٨٠٤ أصابته نوبة من المغص اشتدت حتى خشى طبيبه أن يموت وتمنى هو الموت . ثم تماثل للشفاء ببطء ، وشرع في تأليف مسرحية أخرى اسمها « ديمتريوس » (« ديمتري الكاذب » الذي يذكره تاريخ روسيا) . وفي ٢٨ أبريل ١٨٠٥ رأى جوته آخر مرة ، ومن ذلك الاجتماع عاد جوته إلى بيته وأصيب هو الآخر بإصابة خطيرة بالمغص . وفي التاسع والعشرين بدأ مرض شيلر الأخير . كتب هينريش فوس يقول : « غارت عيناه في رأسه ، وكان كل عصب فيه ينتفض متقلصاً » ^(١٤٥) . واثمرت عليه توترات الجهد الأدبي الضارة . والتهاب أمعائه . واعتلال رئتيه . قال جوته فيما بعد « إن شيلر لم يسرف في الشراب قط ، وكان شديد الاعتدال فيه ، ولكنه اضطر في ساعات ضعفه البدني إلى تنشيط قواه بالمسكر » ^(١٤٦) . وفي ٩ مايو قابل شيلر الموت بهدوء عجيب : فقد ودع زوجته وأطفاله الأربعة وأصدقائه ، ثم نام ، ولم يستيقظ ثانية . وأظهر تشريح جثته الرثة اليسرى وقد أتلفها السل تماماً ، والقلب منحللاً ، والكبد والكلية والأمعاء كلها مصابة . وقال الطبيب لادوق « في هذه الظروف لا تملك غير العجب من أن الرجل المسكين استطاع أن يعيش كل هذا العمر » ^(١٤٧) .

وكان جوته عندئذ في حال من المرض لم يجرؤ معها إنسان على أن
ينبئه بموت شيلر . وفي ١٠ مايو أفضت إليه كرستيانه بالنبأ وهي تنسج ،
وكتب إلى تسلتر يقول « كنت أظن انني أفقد حياتي أنا ، فإذا أنا أفتد
صديقاً كان نصف وجودي ذاته » (١٤٨) . ووصل بما بقي له من وجوده
إلى تمام تحقيق ذاته .

* * *

الفصل الرابع والعشرون

جوته « تسطورا » (*)

١٨٠٥ - ١٨٣٢

١ - جوته ونابليون

أحسن بنا - ونحن مقيدون بحدودنا المقررة - أن نترك جوته معلقا عند هذه النقطة ، وعلى قلمه فاوست وفي شبه خوصته الحكمة ، أم أن نلاحق هذا الأونجي - الذي لا يكف عن التطور - إلى نهايته ، مقلبن الصحائف مضحين بالوقت ؟ « إن الحكمة السرمدية تجذبنا إلى العلا » . (١)

في ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ هزم نابليون البروسيين في بينا . وكان الدوق كارل أوجست ، المتحالف مع بروسيا ، قد قاد جيشه الصغير ضد الفرنسيين في تلك المعركة . ودخل الأحياء المدحورون فاعمار ، وأعقبهم الغالبون الجوع ، فنهبوا المحال واحتلوا بيوت الناس . واستولى ستة عشر جنديا الزاسيا على بيت جوته ، وأعطتهم كرسيه الطعم والشراب والفراش . في تلك الليلة اقتحم البيت جنديان آخران ثملا بالخمير ، فلما افتقدا الأسرة في الطابق الأسفل ، صعدا عدوا إلى حجرة جوته ، ولوحا بسيفيهما في وجهه ، وطالباه بمكان للنوم ، ووقفت كرسيه حائلا بين الجنديين ورفيقها ، وأقنعتهما بالخروج ثم أرتجت الباب . وفي الخامس عشر من الشهر وصل نابليون إلى فاعمار وأعاد النظام إلى نصابه ، وصدرت التعليمات بعدم إزعاج « الأديب الكبير » وبضرورة اتخاذ جميع الإجراءات لحماية جوته العظيم وبيته . (٢) ومكث معه المارشالات لان ونيه وأوجروا برهة ثم رحلوا معتذرين بمجاملين . وشكر جوته كرسيه على شجاعته وقال لها « إن أذن الله سنكون زوجا وزوجة » وفي ١٩ أكتوبر تزوجا . أما أمه الطيبة التي احتملت في حب جميع مثاليه ، وفي تواضع جميع مفاخره ، فقد جددت بركاتها لها . ثم ماتت في ١٢ سبتمبر ١٨٠٨ ، وورث جوته نصف تركتها .

(١) أي المرشد الحسكي المتقدم في السن (المترجم) .

وفي أكتوبر ١٨٠٨ رأس نابليون مؤتمرا من ستة ملوك وثلاثة وأربعين أميرا في أرفورت ، وأعاد رسم خريطة ألمانيا ، وحضر الدوق كارل أوجست المؤتمر واصطحب جوته في بطانته . وطلب نابليون إلى جوته أن يزوره في ٢ أكتوبر ، وذهب الشاعر ، وأنفق ساعة مع الغازي ، وتاليران ، وقائدين ، وفريدريش فون مولر ، وهو قاضى فابمارى . وهتأه نابليون على عافيته (وكان جوته يومها في التاسعة والخمسين) ، واستفسر عن أسرته ، ثم دخل في نقد جرىء لقرتر . وقد عاب الدرامات الشائعة التي تؤكد على القضاء والقدر « فلم الحديث عن القضاء والقدر ؟ إن السياسة هي القضاء والقدر ... ما قول المسيو جوته في هذا ؟ » ولا علم لنا بجواب جوته ولكن مولر روى أن نابليون قال لقواده معلقا بينما جوته يبرح الحجرة « هاكم رجلا ! » (٣) .

وفي ٦ أكتوبر عاد نابليون إلى فابمار ، واصطحب معه فرقة ممثلين من باريس من بينهم تالما العظيم . ومثلوا في مسرح جوته مسرحية فولتير « موت قيصر » وعقب الحفلة انتحى نابليون بجوته جانبا وناقش معه التراجيديا ، فقال « إن الدراما الجادة تصلح جدا لأن تكون مدرسة للأمرء كما هي مدرسة الشعب ، لأنها من بعض نواحيها فوق التاريخ ... يجدر بك أنت أن تصور موت قيصر صورة أبهى مما صوره فولتير ، وتبين كم كان قيصر (نابليون) سيسعد العالم لو أن الشعب أتاح له الوقت لإنفاذ خططه السامية . « ثم بعد قليل » لابد أن تأتى إلى باريس ! إني أوجه إليك هذا الرجاء المشدد ! ستتاح لك هناك نظرة أوسع للعالم ، وستجد ذخيرة من الموضوعات لشعرك » (٤) .
وحين مر نابليون بفابمار ثانية عقب تقهقره المشثوم من موسكو طلب إلى السفير الفرنسى أن يبلغ جوته تحياته .

وأحس الشاعر أنه في بونابرت قد التقى ، على حد تعبيره ، بـ « أعظم فكر شهده العالم » (٥) إلى الآن . وقد وافق تماما على حكم نابليون لألمانيا ، فلم يكن هناك ألمانيا على أية حال (كما كتب جوته في ١٨٠٧) إنما هي خليط من الدويلات ، أما الإمبراطورية الرمانية المقدسة

فقد نفذ قضاء الله فيها في ١٨٠٦ ، وبدأ لجوثة أن من الخير أن تتوحد أوروبا ، لا سيما تحت رئاسة رجل ألمعى كبونايرت . ولم يغتبط بهزيمة نابليون في واترلو ، مع أن دوقه قاد أفواج فائمار مرة أخرى ضد الفرنسيين . لقد كانت ثقافته واهتماماته أشمل وأعم من أن يتيحاً له الشعور بالكثير من الزهو الوطني ، ولم يستطع أن يستشعر في نفسه الميل لتأليف الأغاني ذات الحماسة القومية رغم كثرة ما طلب إليه . قال لا كرمان وهو في الثمانين :

« أتى لي أن أولف أغاني الحقد وأنا لم أشعر بشيء من الكره ؟ وأقول فيما بيني وبينك أنني لم أكره الفرنسيين قط وإن شكرت الله على خلاصنا منهم . وأتى لي ، أنا الذي أرى الحضارة والهمجية الشيئين الوحيدين اللذين لهما مغزى ، أن أبغض أمة هي من أكثر أمم الأرض ثقافة ، أمة أدين لها بجزء عظيم من ثقافتى ؟ على أية حال أرى أن مسألة الكراهية بين الأمم هذه شيء غريب . فأنت ستجدها دائماً أقوى وأشد مما تكون ضراوة في المراتب الدنيا من المدنية . ولكن يوجد مستوى تختفى فيه كلية ، ويقف عليه الإنسان فوق الأمم إذا جاز التعبير ، ويحس أفراح شعب مجاور أو أتراحه كأنها أفراحه هو وأتراحه . ولقد كان هذا المستوى يلائم طبيعتى ، ولقد بلغت قبل أن أبلغ الستين بزم من طويل » (٦) .

ألا ليت كل دولة غنيت بمليون من هؤلاء « الأوروبيين الصالحين ! » .

٢ - فاوست : الجزء الأول

لم يقبل جوثة دعوة نابليون أيّاه للانتقال إلى باريس أو للكتابة عن قيصر ، ذلك أنه طالما احتضن في ذهنه وفي مخطوطاته موضوعاً أثارة لإثارة أعنى حتى من أعظم مستقبل سياسى : ألا وهو صراع النفس للبلوغ الفهم والجمال « وهزيمة النفس بسبب قصر عمر الجمال وروغان الحقيقة ، والسلام المستطاع للنفس ، بتضييق الهدف وتوسيع الذات . ولكن كيف

السبيل إلى تخيل هذا كله في قصة رمزية عصرية وشكل درامي ؟ لقد ظل جوته يحاول تحقيق هذا الهدف ثمانية وأربعين عاما .

وكان قد تعلم قصة فاوست (٧) في طفولته من كتيبات القصص الشعبية ومسارح الدمى ، ورأى صوراً لفاوست والشيطان على جدران حانة أورباخ في ليبزج . وتطفل هو نفسه في شبابه على السحر والخيماء ، وامتزج بحثه الدعوب عن الفهم بتصوره لفاوست ، ودخلت قراءته لفولتير والملمه بتهكمات هرذر في تصويره لفستوفيليس ، وأعطت جريتشن التي أحبها في فرنكفورت ، وفردريكة بريون التي هجرها في زيزنهايم ، لمارجريت أسمها وصررتها .

ويتجلى عمق تأثير جوته بقصة فاوست ، وتباين الأشكال التي اتخذتها في فكره ، إذا علمنا أنه شرع في تأليف المسرحية في ١٧٧٣ فلم يفرغ منها إلا في ١٨٣١ . وحين التقى بهردر في ١٧٧١ كتب في ترجمته الذاتية :

« أخفيت عنه في تكتم شديد اهتمامي بشخص معينة أصلت جذورها في وكانت تشكل نفسها شيئاً فشيئاً في صورة شعرية . وتلك هي جوتزفون برليشنجن وفاوست . . . فسرح عرائس فاوست ذو المغزى كان يجلجل ويتردد في باطني بأنغام كثيرة . كذلك كنت قد طوفت في شتى ضروب العلم ، وانتهيت في فترة مبكرة من حياتي إلى تبين بطلانه . ثم لأنني جربت كل أساليب العيش في الحياة الواقعية ، وكنت دائماً أعود منها ضيق النفس غير راض عنها . هذه الأشياء وغيرها حملتها معي وسعدت بها في ساعات العزلة ولكن دون أن أكتب شيئاً » (٨) .

وفي ١٧ سبتمبر ١٧٧٥ كتب إلى مراسل يقول : « أحسست بانزعاش هذا الصباح وكتبت مشهداً في مسرحيتي فاوست » (٩) . وفي تاريخ لاحق من ذلك الشهر سأله . بوهان تسمرمان عن سير المسرحية . « فأني بحقيبة مملوءة بمئات من قطع الورق وألقاها على المائدة . وقال : هاك فاوستي » (١٠) . وحين ذهب إلى فايمار (نوفمبر ١٧٧٥) كان أول شكل للدراما قد اكتمل (١١) . ولكنه نحاها لأنه لم يرض عنها ، وام تصل « فاوست الأصلية »

هذه قط إلى المطبعة إلا في ١٨٨٧ حين وجدت في فایمار (١٢) نسخة خطية نسختها الآنسة فون جوشهاوزن . وراخ ينفخ ويوسع فيها طوال خمسة عشر عاما أخرى . وأخيراً نشرها (١٧٩٠) باسم «شدره من فاوست» تبلغ الآن ثلاثاً وستين صفحة ، (١٣) وكان هذا أول شكل مطبوع لأشهر مسرحية منذ هاملت .

على أن جوته ظل غير راض عنها ، فأسقط الموضوع حتر ١٧٩٧ . وفي ٢٢ يونيو كتبت إلى شيلر يقول « أعتزمت أن أستأنف كتابة « فاوستى » . مفككا ما طبع منها ، مرتباً إياه في كتل كبيرة معداً تطور المسرحية إعداداً أو في كل ما أريده أن تتفضل بتقليب الأمر في فكرك في ليلة من لياليك النابغية — وتخبرني بما تتطلبه من المسرحية بوصفها كلا ، وتفسر لي أحلامى تفسير نبي صادق . ورد عليه شيلر في الغد . « أن ازدواج الطبيعة البشرية ، ومحاولة الإنسان الفاشلة للجمع بين العنصر الإلهي والعنصر الجسدى ، لا تغيب عن البصر أبداً . . . أن طبيعة الموضوع ستكرهك على تناوله فلسفياً ، وعلى الخيال أن يكيف نفسه لخدمة فكرة عقلية . « أما خيال جوته فكان غاية في الخصوصية ، وأما تجاربه الناصعة الذكرى فكثيرة جداً ، لذلك أدخل الكثير منها في «شدره من فاوست» فضاعف بذلك من حجمها ، وفي ١٨٠٨ أذاع على العالم ما نسميه الآن الجزء الأول من فاوست .

وقبل أن ينطق دميته بكلمة ، صدر الدراما بإهداء رقيق إل أصدقائه الموتى ، وبفصل تمهيدى هزلى « برولوج فى المسرح » بين المدير والمؤلف والمضحك ، و « برولوج فى السماء » يراهن الله فيه مفسدوفيليس على أن فاوست لا يمكن أن يظفر به الإثم بصفة دائمة . ثم يتكلم فاوست أخيراً فى فى أبسط شعر هزلى :

« أجهدت نفسى فى دراسة الفلسفة والشريعة والطب ، وتعمقت أيضاً — وباللهجرة فى دراسة علوم الدين ، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال . ثم أرانى — أنا البليد المسكين — بعد هذا كله لم أتقدم شبراً ولم أخط نحو العرفان خطوة .

« سميت الأستاذ والدكتور، وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذي
أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمن وذات الشمال . ثم أرانا بعد
هذا كلمة لم نزل عاجزين عن أن ندرك شيئاً أو أن نلم بشيء » (١٤) . (*)

وقد تبين أن البحر الرباعي التفاعيل ، المنحدر من تمثيلات هانز زاكس
القصيرة ، هو الوزن المترقق اللائق لدراما هذبت الفلسفة بالفكاهة .

وفاولست هو بالطبع جوته ، حتى في كونه رجلاً في الستين ، لم يزل
كجوته يناشئ في الستين بحسن المرأة ورشاقها . وتطلعه المزدوج إلى الحكمة
والجمال هو روح جوته الضميم ، وقد تحدى تطلعه الآلهة المنتقمة بوقاحتها ،
ولكنه كان نبيلاً . لقد قال فاولست وجوته نعم للحياة ، الروحية والحسية ،
الفلسفية والمرحة ، وعلى النقيض من ذلك كان مفستوفيليس (وهو ليس
ابليس بل فيلسوف إبليس فقط) شيطان الإنكار والشك ، كل تطاع في
نظره هراء ، وكل حس إنما هو هيكل عظمي يكسوه جلد . وقد كان جوته
في لحظات كثيرة هذا الروح الساخر أيضاً . وإلا لما استطاع أن يسبغ عليه
هذا الذكاء وهذه الحياة . ويبدو مفستوفيليس أحياناً صوت التجربة ،
والراقعية والعقل ، يكبح رغبات فاولست وأوهامه الرومانسية ، والحق ،
كما قال جوته لاكرمان « إن شخصيه مفستوفيليس ... حصيلة حية لخبرة
واسعة بالدنيا » (١٥) .

وفاولست لا يبيع روحه بغير شروط ، فهو لا يوافق على أن يقذف به
في الجحيم إلا إن أراه مفستوفيليس لذة فيها من الإشباع الدائم له ما يحجب
له معاشتها إلى الأبد :

« لئن جاء اليوم الذي أرقد فيه على فراش الكسل والراحة ، ...
فليكن ذلك اليوم آخر عمري ! ... ولو مرت بي لحظة من الزمن وكانت
من الحسن بحيث قلت لها أن « لا ترحي فأحلك ! إذن فتهيء لي
سلاسلك وأغلالك ... هنالك أرحب بالموت » ... (**) »

(*) الترجمة للدكتور عوض محمد : فاولست : لجنة التأليف والترجمة والنشر ص (٧)

(**) فاولست : د . محمد عوض محمد ، ص ٨٨

وبهذا الشرط يبرم فاوست حلقة مع دمه ويصبح في استهتار «هلم نطقى الآن ظمأ رغباتنا المتأججة في بحر من الشهوات» (١٦).

ويأخذه مفيسstofوليس إلى مارجريت- «جریشن» فيجد فيها فاوست كل فتنة البساطة التي تولى مع المعرفة وتعود مع الحكمة . ويتودد إليها بالجواهر والفلسفة :

« مارجريت : قل لي مارأيك في الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم . لكنني أخشى أن تكون قليل الإيمان .

فاوست : دعى هذا يا حبيبتي ! أنت ترينني متيماً بك ؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمي ودمي ، وما أريد لعمرى أن أسلب أحدا دينه ومعتقده .

مارجريت : هذا خطأ . يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين ! ... قل لي : هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست : أيتها الحبيبة ! من ذا الذي يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول « أنا أعتقد بالله » ...

مارجريت : إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست : لا تسيئي فهم أقوالى أيتها الحبيبة : أى الناس يقدر أن ينطق باسمه ؟ وأيهم يستطيع أن يقول « أنا لاؤمن به ؟ وأى الورى يحس ويبصر ، ويسمع ، ويعى ، ثم يجرو أن يقول « أنا لاؤمن به » ؟ ذلك القابض على كل شيء والممسك كل شيء ؟ أليس هو الممسك لي ولك ولنفسه ! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ... وإلى هذه النجوم الزهر تسبح في السماء ، مرسله ضياءها الأبدي المحبوب ؟ ... فن هذا كله فاملاى قلبك حتى يطفح ... بتلك السعادة ، ويستنير بذلك النور . وعندئذ فلتسميه كما تشائين ، ولتدعيه بما يحلو لك من الأسماء : السعادة . أو القلب أو الحب أو الرب . أما أنا فما له اسم عندي . وكل همى أن أحسه وأستشعره . فالشعور هو كل شيء ! وما الإسم إلا صدى لاطائل تحته ، أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع .

مارجريت : هذا كله حسن وجميل ... لكنى مازلت قلقة لأنى أرى
قدمك فى المسيحية غير راسخة .

فاوست . ولم أيتها الطفلة العزيزة ! ^(١٧) « (*) .

وهى لا تتأثر بحلوليته الغامضة ، بل بالصورة الجميلة والثياب الرائعة
التي خلعها سحر مفيستوفوليس على شبابه المجدد . وهى تنشد على مغز لها أنشودة
ملؤها الحنين الحزين (* *) .

» أنا - صبحى ومسائى

فى عذاب وبلاء ،

واعنائى ! واشقائى !

هل لدائى من دواء ؟

كيف لا يشهد نخطي

كيف لا يزداد كربى

كيف لا يمزق قلبى

وحبيب القلب ناء ؟

بان صفو العيش عنى

قرح التسبيد جفنى ،

لم يسكن نار حزنى

دمع عيني وبكائى .

قد نبا عنى الرقاد

وبرى جسمى السهاد

آه ! قد طال البعاد

وشفائى فى اللقاء .

(*) فاوست ، ترجمة د . محمد عوض محمد ص ١٤٧ ، ٢٤٨ .

(* *) مترجمة بتصريف بقلم د . محمد عوض محمد : فاوست ص ٢٤٤

ففى يسمع دهرى
ويرينى وجه بدرى
قد أضل الحب فكرى
والهوى أعضل داء :
أوما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب ؟
الهوى أمر عجيب
منه سقمى ودوائى ؟
ما أحلاه إذا ما
ثغره ابدى ابتساما !
قد حكى البدر التمام
فى سناء وبهاء .
آه لو أشفى بلثمة
منه أو أحظى بضمة !
ثم يقضى الدهر حكمة
بـهـلاكى وفنائى (١٨) .

وبقية القصة يعرفها الغرب كله ، ولو من جونو فقط . فارجريت
تعطى أمها شرابا منوما لا تفيق منه لكى تقبل هى حبيبها وتغيب عن الوعى
دون رقيب . ويقتل فاوست فالتين أختا مارجريت فى مبارزة ثم يختفى ؛
أما مارجريت فتقتل طفلها العديم الأب خزيا وحسرة ، فيقبض عليها ويحكم عليها
بالإعدام . ويزورها فاوست فى زترانها ويرجوها أن تهرب معه ، فتعانقه ،
ولكنها ترفض مغادرة زترانها . ويجذب مفيستوفيليس فاوست بعيدا ،
بينما يصبح صوت من السماء « كتبت لها النجاة » .

ولم يدرك جمهور القراء — إلا ببطء — أن فاوست ١٨٠٨ هذه أروع
دراما وأجمل شعر أنتجتهما ألمانيا إلى ذلك التاريخ . ولكن قلة من أصحاب
العقول اليقظة فطنوا للتوالى أنها جديرة بأن تنبأ مكانها بين شوامخ الأدب
العالمى . وشبه فريدريش شليجل جوته بدانتى ، وسوى جان بول رشت
بينه وبين شكسبير ، ورفع فيلاند في دنيا الشعر إلى مقام السيادة الذى ارتفع
إليه نابليون في دنيا الحكم والحرب (١٩) .

٣ — نسطور عاشقاً

في السنوات ١٨١٨ — ٢١ دخل جوته في غرامين مثيرين ، فضلاً
عن صلاته ببتيئا برنتانوا . ففي ٢٣ أبريل ١٨٠٧ جاءت بتينا ذات الاثنين
وعشرين ربيعاً إلى الشاعر المسن بخطاب تقديم من فيلاند . وكانت حفيذة
صوفى فون لاروش التى أحبت فيلاند من قبل ، وابنة مكسمليانه برنتانوا التى
غازلت جوته في شبابه * وقد أحست أن لها دالة الحفيذة على قلب جوته .
ولم تلبث بعد أن دخلت حجراته أن ألقت بنفسها بين ذراعيه . وقبلها هو
على أنها طفلة ، وبعدها كان يرسلها بهذا المعنى ، ولكنه طوى رسائله على
أحدث قصائده الغزلية ، ومع أنها لم تكن موجهة إليها إلا أنها عدتها بوحاً
بغرام مشبوب ، وأضفت عليها ذلك اللون في كتابها « رسائل جوته إلى طفلة »
الذى نشرته في ١٨٣٥ .

أما ملهمة أكثر هذه القصائد فهي فلهمينا هرتسلييب . وكافت منا ،
كما دعاها جوته بعد قليل ، ابنة كتي في يينا . وقد عرفها طفلة ، ولكنها
في عام ١٨٠٨ كانت في التاسعة عشرة ، فتاة خجولا ، رقيقة ، مشرقة .
وكانت تنلغف كل كلمة يفوه بها ، وتتحسر على أن شيخوخته ومكانته
الاجتماعية تمنعها من عشقه وتملكه . وأدرك هو شعورها ، واستجاب له
ونظم لها الصونيتات ، موريا على اسمها كقلب محب ، ولكنه تذكر أنه لم
يمض على زواجه من كرستيانه إلا زمن قصير . ويلوح أنه كان يفكر في منا
وهو يصور أوتيايه الخجول الودود ، المشدودة الأعصاب ، في قصته
« الانحدابات العاطفة ١٨٠٩ » .

وهذه القصة الممتازة ، فى رأى مؤلفها ^(٢٠) ، خير قصصه المنشور ،
فهى أفضل تنظيماً وأكثر تماسكاً فى روايتها من أى من تطويقات فلهلم مايستر .
وهنا نلاحظ قول جوته لأكرمان (٩ فبراير ١٨١٩) : « ليس فى قصة
(الإنجذابات العاطفة) بأسرها سطر لم أعشه أنا نفسى حقيقة وفعلاً ، ووراء
النص معان أكثر كثيراً مما يستطيع أى إنسان استيعابه من قراءة واحدة » .
والواقع أن عيب الكتاب أن فيه من جوته أكثر مما يجب ، ومن التفلسف
الجارى على ألسنة لا يتوقع أن يجرى عليها قدر أكبر مما ينبغى .

(مثال ذلك أنه يجعل الفتاة أوتيليه تحتفظ بيومية يودع فيها بعضاً
من أنصج التأملات كقوله « لا سبيل لى الدفاع عن أنفسنا أمام التفوق
العظيم فى إنسان غيرنا سوى سبيل الحب » ^(٢١) . ولكن احتواء هذا الكتاب
على هذا القدر الكثير من جوته هو الذى يجعله دافئاً بالحياة غنياً بالفكر :
لأن شارلوتة القصة هى أيضاً شارلوتة فون شتين • تغرى ولسكنها
تأبى أن تحون زوجها ، ولأن الكبتن هو جوته العاشق لزوجته
صديقه ، ولأن إدورد ، الزوج ذا الخمسين المقيم بأوتيليه هو جوته
المفتن بمنى هرتسليپ ، ولأن القصة هى محاولة جوتة تحليل حساسيته الشبهة .

وقد قصد هنا أن يفكر فى الجاذبية الجنسية بلغة كيميائية . وربما
اتخذ عنوان كتابه من « الإنجذابات العاطفية » الذى نشره الكيميائى السويدي
العظيم توربرن أولوف برجمان فى ١٧٧٥ . والكبتن يصف لادورد
وشارلوتة انجذابات جزئيات المادة وتنافراتها وتجمعاتها فيقول : « ينبغى
أن نرى بنفسيكما هذه الجواهر — التى تبدو ميتة جداً وهى مع ذلك زاهرة
باللشاط والقوة — تعمل أمام عيونكما ، يبحث بعضها عن بعض . . .
ويمسك ويسحق ويلتهم ويدمر بعضها بعضاً ، ثم يعود إلى الظهور
فجأة . . . فى صور نضرة ، مجددة ، غير متوقعة . » ^(٢٢) فحين يدعو
إدورد صديقه الكبتن ، وتدعو شارلوتة ابنة أخيها أوتيليه ، للإقامة
معهما فى زيارات طويلة ، يهيم الكبتن بشارلوتة ، وإدورد بأوتيليه .
وحين يتصل إدورد بزوجته جنسياً يفكر فى أوتيليه ، وتفكر

شارلوتة فى الكبتن ، فى ضرب من الزنا السيكلوجى : ويبدو الوليد عجيب الشبه بأوتيليه ، وتحنو أوتيليه على الطفل كأنه طفلها . ثم تركه ليغرق كأنما جاء ذلك مصادفة ، ويحملها تأنيب الضمير على أن تضرب عن الطعام حتى الموت . ويموت إدورد حسرة ، ويحتفى الكبتن ، وتبقى شارلوتة على قيد الحياة ، ولكنها ميتة روحياً .

ويخلص فيلسوف فى المدينة إلى أن « الزواج هو البداية والنهاية لكل ألوان الحضارة . أنه يروض المتوحشين ، ويمنح أكثر الناس ثقافة ، خير فرصة للركة ودمائة الخلق . وينبغى أن يكون غير قابل للفسخ لأنه يجلب من السعادة الكثير ، ما يجعل متاعبه العارضة لا وزن لها (٢٣) » . على أن أحد شخوص القصة يقترح بعد أربع صفحات من هذا القول زواج التجربة الذى لا يتجاوز العقد فيه فى المرة خمس سنوات .

وفى ١٨١٠ نلتقى بجوثة فى كارلسباد يستشفى بياها ويغازل شاباتها ، بينما تظل كرستيانه التى مضى على زواجها أربعة أعوام فى البيت تغازل الشبان . فقد تديمت بالشاعر ذى الحادية والستين عاما يهودية حسناء سمراء تدعى ماريانه فون إينبرج ، ثم هرب منها إلى الشقراء سلفى فون تسيجزار . وفى قصيدة وجهها إلى سلفى يدعوها « الأبنة الخلية ، الحبيبة ، البيضاء النحيقة القوام » (٢٤) ، وقد أرسلت إليه كرستيانه نداءات تناشده الوفاء :

« وهل وصلت بتينا وتلك السيدة فون أينبرج إلى كارلسباد ؟ يقولون هنا إنه من المتفق عليه أن تكون زلفى وآل جوترز هناك أيضاً . فلماذا أنت صانع وسط كل معاشاتك ؟ ما أكثرها ! ولكنك لن تنسى أقدمها عهداً ، أليس كذلك ؟ فسكر فى قليلاً أيضاً ، بين الحين والحين ، لى أريد الوثوق بك ثقة تامة ، مهما قال الناس . لأنك كما تعلم الوحيد الذى يفكر فى إطلاقاً » (٢٥) . ويبحث إليها بهدايا صغيرة .

وقد وجد وقتا كل يوم تفريفا لكتابة شىء من الشعر أو النثر . وحوالى عام ١٨٠٩ بدأ يكتب سيرته الذاتية ، وقد سماها « الخيال والحقيقة من حياتى » واعترف العنوان اعترافاً جميلاً بأنه بين الحين والحين ، عن عمد أو غير عمد ،

ربما مزج الخيال بالواقع . أما غرامه بشارلوت بوف فقد مسه مسنا خفيفا رقيقا ، ولكنه كان أكثر إفاضة في قص غرامه بفردريكه بريون ، وكانت المرأتان لا تزالان على قيد الحياة . ثم حالي في براعة وأريحية الكثير من أصدقاء شبابه — لنتس ، وبازدوف ، ومرك ، وهردر ، وياكوبى ، ولافاتر . أما عن نفسه فقد تكلم في تواضع ، وقد شكى في ملاحظاته الخاصة من أن كاتب السيرة الذاتية يتوقع منه الناس أن يعترف بنقائصه ولا يعلن عن فضائله ^(٢٦) . والكتاب تاريخ فكر أكثر منه تاريخ حياة ، والأحداث فيه قليلة والتأملات وفيرة . أنه أعظم كتبه النثرية »

وفي ١٨١١ تلقى من بيتهوفن خطاب إعجاب مع «مقدمة موسيقية لأجمونت» . والتقى الشاعر والمؤلف الموسيقي في تيلتز في يوليو ١٨١٢ ، وعزف بيتهوفن لجوته وكان يتمشى معه . وإذا صدقنا الرواى أوجست فرانكل ، « كان الناس في المتنزه — أينما ذهبوا — يفسحون لهما الطريق باحترام ويحيونهما . وقال جوته وقد غاظته هذه المقاطعات المستمرة : « يا لها من سضايقة ! لا أستطيع أبدا تجنب هذا الأمر . » وأجاب بيتهوفن بابتسامة « لا يضايقك هذا يا صاحب السعادة ، فلعلنى أنا المقصود بالاحترام . » وكتب جوته إلى تساتير (٢ سبتمبر ١٨١٢) : « لقد أذهلتنى موهبة بيتهوفن ، ولكن شخصيته للأسف لا يمكن السيطرة عليها إطلاقا . إنه ليس مخطئا ... في اعتباره العالم بغيبضا ، ولكن هذا الموقف لا يجعل هذا العالم أكثر إمتاعا له ولا لغيره . وكثير من هذا الموقف يلتمس له العذر فيه بسبب مؤسف هو أنه يفقد قدرته على السمع . » ^(٢٧) أما تعليق بيتهوفن على جوته فكان « ما أشد صبر الرجل العظيم على ! وما أعظم الخير الذى أسداه لى ! ولكن « جو البلاط يلائمه أكثر مما ينبغى . » ^(٢٨)

لقد كانت مظاهر البلاط وسلوكه جزءا من حياة جوته الرسمية ، لأنه كان لا يزال يمارس نشاطه فى الإدارة . أما حياته البيتية فقد فقدت سحرها . فأوجست ابنه ، الذى بلغ الثانية والعشرين فى ١٨١٢ ، كان ضعيف المواهب لا أمل فى إنقاذه ، وكرستيانة باتت بدينة مدممة للشراب ، وكان لها بعض العذر ، لأن مغازلاته للنساء لم تتوقف . فخلال زيارته لفرانكفورت ، كثيرا

ما كان يقيم في فيلا يوهان فون فلييمير الواقعة في إحدى الضواحي ، وكان يعجب بماريانه زوجة فلييمير . وفي صيف ١٨١٢ أنفق أربعة أسابيع تقريبا معهما . وكانت ماريانه في الحادية والثلاثين ، ولكنها كانت في ريعان جمالها الأنثوى . وكانت تغنى أشعار جوتة العاطفية وألحان موتسارت غناء ساحرا ، وتنظم الشعر الرفيع ، وتبادل مع جوتة سلسلة من القصائد محاكاة لحافظ والفردوسي وغيرهما من شعراء الفرس (وكان حافظ قد ترجم إلى الألمانية في ١٨١٢) . وفي بعض القصائد شهوانية سافرة وحديث عن الفرح المتبادل في العناق الجسدى ، ولكن هذا الترخص قد يكون مجرد انحراف شعري . والتقى الثلاثة مرة أخرى في سبتمبر هيدلبرج ، وكان الشاعران يخرجان معا في مسيرات طويلة ، وكتب جوتة اسم ماريانه بحروف عربية في التراب حول نافورة القلعة . ولم يلتقيا قط بعد ذلك اليوم ، ولكنهما ظلّا يتراسلان طوال السبعة عشر عاما الباقية من حياته . ويبدو أن فلييمير زاد اعترازا بروجته لأنها فتنت رجلا بهذه الشهرة ، ولأنها عارضت شعر جوتة بقصائد لا تقل روعة عن قصائده . وضمن جوتة أشعارها وأشعاره في « الديوان الشرقى الغربى » الذى نشره في ١٨١٩ .

وبينما هو ماض في مراسلاته نثرا وشعرا ماتت كرستيانه (٦ يونيو ١٨١٦) . وسجل جوتة في يوميته : « كان صراعها مع الموت رهيبا ... خواء وصمت قاتل في باطنى ومن حولى . » (٢٩) وران على هذه السنوات اكتئاب عميق . وحين زارته شارلوتة كستنر ، حبيبة صباه التى فقدتها ، والتى كانت الآن زوجة في الرابعة والستين لعضو المجلس الناجح كستنر الهانوفرى ، في صحبة ابنتها (٢٥ سبتمبر ١٨١٦) لم يستشعر أى عاطفة تحتلج بين جوانحه ، وكان حديثه كله حديثا تافها مجاملا . ولكن في ١٨١٧ ، تزوج ابنه أوجست من أوتيليه فون بوجفيس ، بعد أن قطع حياة كلها خلاعة وفسق ، ودعاه جوتة ليسكن معه ، وأنت أوتيليه بمرج الشباب إلى البيت ، وما لبثت أن أعطت الشاعر المسن أحفادا أنبضوا قلبه بالحياة من جديد .

وأعانتته على ذلك أولريكه فون لفتزوف ، وكانت إحدى بنات ثلاث

لأماليا فون لفتزوف التي عرفها جوته في كارلسباد . والتقى في أغسطس ١٨٢١ بأولريكة في مارينباد ، وقد قالت فيما بعد مسترجعة ذكرى هذا اللقاء : « لما كنت قد أقيمت سنوات في مدرسة داخلية فرنسية بستراسبورج ، وكنت لا أتجاوز السابعة عشرة ، فإني لم أسمع قط بجوته ، ولا خطر لي أنه رجل مشهور وشاعر فعلى . وعلى ذلك لم أشعر قط بالحنين من السيد العجوز الودود ... وفي غد ذلك اليوم ذاته طلب إلى أن أتمشى معه ... وكان يصحبني معه في نزهته كل صباح تقريبا . » (٣٠) وعاد إلى مارينباد في ١٨٢٢ ، و « طوال ذلك الصيف أبدى لي جوته غاية الود » . وبعد عام التقيا في كارلسباد ، وسرعان ما أثارا القيل والقال في مجتمع المياه المعدنية . وكان الشاعر الآن قد قرر أن حبه أكثر من الحب الأبوى . وألح الدوق كارل أوجست على أولريكة في أن تزوج جوته ، ووعداها إن فعلت بأن يمنع أسرتها في فايمار بيتا جميلا ، وأن تحصل بعد موت الشاعر على معاش قدره عشرة آلاف طالر في العام (٣١) . وفضت الأم وابنتها . وقفل جوته مخزونا إلى فايمار ، وأغرق خيبة أمله في المداد . وعمرت أولريكة حتى أوفت على الخامسة والتسعين .

في ذلك العام ، عام ١٨٢١ الذي قاد جوته لأولريكة ، جاءه في فايمار كارل تسلتر - مدير الموسيقى في يينا - بتلميذ في الثانية عشرة يدعى فيليكس مندلسون . وكان تسلتر قد فتح روح جوته على عالم الموسيقى ، بل أنه علمه التأليف الموسيقى . وأذهلت براعة عازف البيان الصغير الشاعر العجوز وأبهجته ، فأصر أن يمكث معه أياما . وقد كتب فيليكس في ٦ نوفمبر يقول : « في كل صباح يقبلني مؤلف « فاوست » و « فرتير » . وفي العصر أعزف له قرابة ساعتين ، وبعض العزف فوجات من باخ ، وبعضه من ارتنجالي . وفي ٨ نوفمبر أقام جوته حفل استقبال ليقدم فيليكس إلى مجتمع فايمار الراقى . وفي ١٠ نوفمبر كتب فيليكس : « في كل عصر يفتح البيان ويقول : لم أسمعك قط اليوم . تعال وأسمعني شيئا من الضوضاء . ثم يجلس إلى جوارى ويصنئ . لا تتصور كم هو عطوف ودود . » فلما أراد تسلتر أن يرجع فيليكس إلى يينا ، أقنعه جوته بأن يترك تلميذه أياما أخرى . وكتب الصبي

السعيد «وعلت الآن أصوات الشكر لجوته من كل ناحية ، ولثمت أنا والنبات شفثيه ويديه . وطوقت أوتيليه دون بوجفيس عنقه بذراعيها ، ولما كانت جميلة جدا ، وهو يغازلها بطوال الوقت ، فقد كان الأثر رائعا » (٣٢) . إن في التاريخ لحظات سعيدة تتوآرى خلف درامة المأساة ، وتحت ملاحظة المؤرخين .

٤ - العالم

ولتعة الآت إلى سنوات صباه ، حين بدأ بحثه الذي امتد طوال حياته في العلم ، باهتمام يقظ ولذة تلتهم كل شيء . وقليلون منا من يعرفون أن جوته كرس للبحث والمؤلفات العلمية وقتاً أكثر مما كرس اكل شعره ونثره مجتمعين (٣٣) . وكان قد درس الطب والفيزياء في ليزج ، والكيمياء في ستراسبورج : ثم بدأ دراسة التشريح في ١٧٨١ ، وظل سنوات يضرب في أرجاء ثورنجا جامعاً للعينات المعدنية والنباتية ويرقب التكوينات الجيولوجية . وكان في أسفاره لا يلاحظ الرجال والنساء والفن فحسب ، بل الحيوان والنبات والظواهر البصرية والمتيولوجية أيضاً . وقد قام بدور رائد في إنشاء المختبرات في يينا . وكان يشتد فرحه بانتصاراته في العلم أو حزنه بهزائمه فيه ، اشتداده بنجاحه أو إخفاقه في الأدب .

وقد استحدث شيئا في دراسة الطقس . ذلك أنه نظم محطات للرصد الجوي في دوقية ساكسي - فامار ، وأعان على إنشاء محطات أخرى في طول ألمانيا وعرضها (٣٤) ، وأعد التعليمات اللازمة لها . وكتب المقالات في « نظرية الطقس » و « أسباب تذبذبات البارومتر » وأقنع الدوق كارل أوجست بأن يشرع في اقتناء المجموعات التي كانت النواة لمتحف علم المعادن في يينا ، وبعد أن درس الطبقات الجيولوجية في لمينا وذهب إلى أنها تؤيد نظرية أبراهام فرنر التي زعمت أن جميع التكوينات الصخرية على القشرة الأرضية نتيجة لفعل المياه البطيئة . (ويجب أن تقرر هذه النظرية « النباتية » بالنظرية « البركانية » التي تقول بالتغير نتيجة للحركات العنيفة) . وكان من أوائل من ألمعوا إلى أن عمر الطبقات قد يقرر من المتحفرات

المطمورة فيها ، ومن دافعوا عن رأى القائل بأن الجلاميد الهائلة الموزعة الآن توزيعاً شاذاً في المرتفعات قد قذفها هناك موجات من الجليد هابطة من المنطقة القطبية الشمالية^(٣٥) .

وفي ١٧٩١ - ٩٢ نشر جوته في مجلدين « مقالات في البصريات » ، وكتب يقول « كان هدفي تجميع كل ما هو معروف في هذا الميدان ، والقيام بكل التجارب بنفسى ، منوعاً فيها قدر الاستطاعة ، ميسراً متابعتها ، مراعيّاً أن تكون في متناول الشخص العساذى^(٣٦) . وقد أجرى خلال السنوات من ١٧٩٠ إلى ١٨١٠ مالا يحصى من التجارب لتفسير اللون ، وما زال متحف جوته بفافمار يحتفظ بالأدوات التى استعملها . وظهرت الحصىلة فى ١٨٠٠ فى مجلدين كبيرين يحتويان التصوص ، ومجلد للوحات ، تحت هذا العنوان « فى نظرية اللون » . وكان هذا أكبر آثاره عالماً .

وقد درس الألوان باعتبارها ناشئة لا عن التركيب الكيمى للأشياء فحسب ، بل عن تكوين العين وعملها . وحلل تكيف الشبكية للظلام والنور ، وفسولوجية العمى اللونى ، وظواهر أطياف اللون والصور التلوية ، وآثار تناقضات الألوان وتجمعاتها فى الإحساس وفى التصوير . وحسب اللون الأخضر - خطأ - مزيجاً من الأصفر والأزرق . (وهما يمتزجان هكذا حقاً على لوحة ألوان الرسام ، ولكن حين يتحد الأزرق والأصفر فى الطيف ينتج عنهما الرمادى والأبيض) . وقد أعاد لإجراء الكثير من التجارب التى ورد وصفها فى « بصريات » نيوتن (١٧٠٤) ، فوجد فى عدة حالات نتائج تختلف مما ذكر فى ذلك الكتاب ، وخلص إلى آهام نيوتن بعدم الكفاية وبالعش أحياناً^(٣٧) . وقد عارض رأى نيوتن فى أن اللون الأبيض تأليف من عدة ألوان ، وذهب إلى أن اتحاد الألوان ينتج عنه بانتظام اللون الرمادى لا الأبيض . ولكن نتائجه لم يقبلها لامعاصروه ولا من أتوا بعده فى ميدان البصريات . فقد اثنوا على تجاربه ورفضوا الكثير من نظرياته . وفى ١٨١٥ أرسل إليه آرثر شوبنهاور مقالا دافع فيه بكفاية عن فكرة نيوتن فى أن الأبيض تأليف من عدة ألوان . -- وكان شوبنهاور يعجب بجوته شاعراً

وفيلسوفاً ؛ ولم يغتفر له الشيخ فعلته قط . وزاد الرفض العام لنظرية في الألوان سنيته الأخيرة قنماً .

وكان طبيعياً لرجل كجوته ، حساس إلى هذا الحد أن يستهويه عالم النبات . فحين زار بادوا في ١٧٨١ أبهجته الحداثق النباتية ، ففيها وجد مجموعة أغنى وأكثر تنوعاً من كل ما رأى في حياته . وشاهد مدى اختلاف نباتات الجنوب عن نباتات الشمال ، فصمم على دراسة تأثير البيئة على شكل النبات ونموه . كذلك لم يشعر قط بمثل هذا الشعور العميق بقدرة الطبيعة الممطرة العارمة على تطوير كل نوع — بما تفرد به من حيث التركيب والنسيج واللون والخط — من بزور تبدو بسيطة متشابهة . فيالها من خصوبة ، وبها من قدرة على الابتكار ! ولكن أهناك بعض عناصر مشتركة في كل تنوع الأفراد ، وفي كل تطور الأعضاء والأجزاء ؟ وخطر له أن هذه الأجناس والأنواع والأشكال هي تحورات من نموذج أصلي أساسي ، وأن هذه النباتات كلها ، مثلاً ، شكلت على غرار نموذج أساسي أصيل — حتى وإن كان متخيلاً — أو نبات أول ، هو أم النبات جميعاً . وكتب إلى هررد يقول « إن هذا القانون ذاته يمكن تطبيقه على كل حي » أي على الحيوانات كما يطبق على النباتات ، فالحيوانات هي أيضاً تحورات من أصل بنائي واحد^(٣٨) . وكما أن الكائن الحي الفرد ، بكل تفرد ، هو محاكاة لنمط أول ، كذلك قد تكون أجراء الكائن تحورات لشكل أساسي واحد . ولاحظ جوته في بادوا تخيله (بالبيئة) كانت أوراقها في مراحل مختلفة من التطور ؛ فدرس مراحل الانتقال المرئية من أبسط ورقة إلى مروحة السعف الكاملة الرائعة ؛ وتصور فكرة مؤداها أن جميع تركيبات النبات — باستثناء المحور أو الساق — هي تحورات ومراحل للورقة^(*) .

وبعد عردة جوتة إلى فايمار نشر نظريته في كتيب من ست وثمانين صفحة عنوانه « محاولة قام بها س . ف . جوته عضو المجلس الخاص لدوقية ساكسي — فايمار ، لتفسير تطور النباتات » (١٧٩٠) .

(*) كان كاسبار فريد ريش فولف قد خلص إلى هذه النتيجة في ١٧٦٨ .

وضمك علماء النبات من الكتيب وقالوا إنه أحلام شاعر ، ونصحوا الشاعر بأن يلزم حرفته . (٣٩) فلم يكذبهم ، وصاغ آراءه من جديد ، في قصيدة سماها « محور النباتات » وتجمعت الأدلة والمؤيدون للنظرية شيئاً فشيئاً .

وفي ١٨٣٠ قدم إيتين جوفروا سانتليير مقال جوته لأكاديمية العلوم الفرنسية ، وأشاد به أثراً من آثار البحث الدقيق والخيال الخلاق يؤيده تقدم علم النبات (٤٠) .

وألغ جوته (١٧٩٠) في محاولة لتطبيق نظريته على التشريح إلى أن الجمجمة ليست سوى محور وتتمة للفقرات ، تحتوى المنيخ كما تحتوى العمود الفقرى على الحبل الشوكى ، وليس هناك اليوم اتفاق على هذه الفكرة . ولكن لإنجازاً ذكياً أكيداً يرجع الفضل فيه إلى جوته في التشريح - وهو إثباته وجود العظمة البينفكية في الإنسان (وهى العظمة التى تتوسط عظمتى الفك العلوى والى تحمل القواطع العلوية) . وكان علماء التشريح قد تبينوا وجود هذه العظمة في الحيوان ، ولكنهم ارتابوا في وجودها في الإنسان ، وكان لاكتشاف جوته الفضل في تضيق الخلاف البنيانى بين الإنسان والقرود .

استمع إلى الشاعر يعلى نجاحه في خطاب من يينا إلى شارلوت فونشتين مؤرخ ٢٧ مارس ١٧٨٤ - العاشق والعالم ممزجين معاً : « سطور إلى حبيبتي لوتة ، أقرأها تحية الصباح ... لقد منحت شعوراً بالرضى يبهجنى . ذلك أنى اهتديت إلى كشف تشريحى جميل وهام في وقت معاً . وسيكون لك نصيبك فيه ، ولكن لا تنبسى بكلمة عنه » . (٤١) وأذاع كشفه في مقال خطى أرسله إلى مختلف العلماء في ١٧٨٤ بعنوان « محاولة قائمة على علم العظام المقارن ، لإثبات أن العظمة البينفكية في الفك الأعلى يشترك فيها الإنسان والحيوانات العليا » وكانت هذه « أول رسالة كتبت من قبل يمكن أن توصف بحق بأنها تلخل في باب التشريح المقارن ، وهى إذن معلم في

تاريخ هذا العلم » (٤٢) (وقد نشر المشرح الفرنسي فيليكس فيك دازير هذا هذا الكشف ذاته في السنة نفسها ١٧٨٤) .

كتب جوته في رسالته : « أن الانسان شديد الشبه بالحيوان الأعجم : فكل مخلوق إنما هو نعمة أو تحوير في تآلف ألحان عظيم » (٤٣) وقد ذهب كثيرون من العلماء والفلاسفة الذين سبقوه إلى أن الإنسان جزء من مملكة الحيوان ونظم قصيدة سماها « تطور الحيوانات » ولكنه لم يكن من دعاة التطور بالمعنى الدارويني . فقد افترض ثبات الأنواع اتباعاً للمذهب نيناويس ، وهكذا لم يكن « النبات الأول » الذي قال به نباتاً بدائياً فعلياً تطورت منه جميع النباتات ، إنما كان مجرد نمط عام كانت كل النباتات تحويرات له . ولم يكن رأيه كراي معاصريه لامارك وإرازمس دارون في أن الأنواع متطورة من أنواع أخرى بالانتخاب البيئي لأشكال واحدة .

فهل كان جوته عالماً حقيقياً ؟ ليس بالمعنى الاحترافي . لقد كان هاوياً غيوراً مستنيراً ، وعالماً بين القصائد والروايات والغراميات والتجارب الفنية والواجبات الإدارية .

وقد استخدم أجهزة كثيرة وجمع مكتبة علمية كبيرة ، ولاحظ ملاحظات مفيدة وتجارب دقيقة وشهد لهم هولتز بالدقة الواقعية لعمليات والتجارب الموضوعية التي وصفها جوته (٤٤) . وقد نجح التفسيرات الغائية . ولكن العلماء المحترفين لم يقبلوه عالماً ، لأنهم نظروا إليه هاربياً يعتمد على الخدس والفرص بثقة مفرطة . وكان ينتقل بسرعة أكثر مما ينبغي من موضوع أو تحقيق إلى آخر لا مسا كلا منها نقطة خاصة ، دون أن يبلغ في أي منها مسحا للميدان في إلا في البصريات ونظرية اللون . ولكن كان هناك شيء مثالي وبطولي في إصراره المتشعب المتعدد الأشكال . رقال إكرمان في ١٨٢٥ : « سيلينج جوته عامه الثمانين بعد بضع سنوات ، ولكنه لم يكل من الأبحاث والتجارب ، فهو لا يفتأ جاداً في أثر تأليف كبير » (٤٥) . وربما كان الشاعر محققاً في رأيه أن الهدف الأكبر للعالم ينبغي ألا يكون إمداد الرغبات القديمة بأدوات جديدة ، بل توسيع الحكمة بالمعرفة في سبيل إثارة الرغبة .

٥ - الفيلسوف

كان في الفلسفة ، كما كان في العلم ، عاشقاً لأستاذاً محترفاً - مع أنه صاحب الفضل في تعيين فشته وشيلنج وهيغل في كراسي الفلسفة بيننا . وكان قليل الاهتمام جداً بمجدييات المذاهب الفلسفية ، ولكنه كان معنياً أشد العناية بتفسير الطبيعة ومعنى الحياة . وكلما تقدم به العمر بات بفضل العلم والشعر حكيماً ، وقد وجد الأنارة عن « الكل » من كل شيء ، وكل لحظة ، وكل جزء : « كل عابر ليس إلا رمزاً » ^(٤٦) و « الأقوال المأثورة العارضة » التي خلفها عند موته دون أن تطيع ، تنضح بالحكمة في كل صفحة .

ولم يقدم أى نسق منطقي ، ولكنه ألمع ، برامتها إلى « أنه لا حقيقى إلا ما هو مثمر » ^(٤٧) وإلى أنه « في البدء كان الفعل (لا الكلمة) » ^(٤٨) فنحن نجد الحقيقة في الفعل أكثر مما نجدها في الفكر ، وينبغي أن يكون الفكر أداة للعمل ، لا بدىلا عنه . ولم يولع بكانط كما أولع به شيلر ، فقد اعترف بأن الطبيعة النهائية للحقيقة تتجاوز علمنا ، ولكنه لم يشعر أن هذا يلزمه بسنية العقيدة ، بل على العكس أوصى بتجاهل ما لا يمكن معرفته ، « إن مالا سبيل إلى سير أغواره ليست له قيمة عملية » ، والعالم المحسوس كاف لحياتنا ^(٤٩) ولم تساوره أى ريب أو مخاوف معرفية حول الاعتراف بوجود عالم خارجى . كتب لشيلر بعد أن قرأ كانط وشيلنج يقول « أنى أسلم مختاراً بأن ما ندركه حسياً ليس الطبيعة (فى ذاتها) ، بل إن الطبيعة تفهم طبقاً لصور وملكات معينة لفكرنا ولكن توافق طبائعتنا العضوية مع العالم الخارجى . . . (يدل على) تصميم من الخارج ، وعلاقة نحو الأشياء » ^(٥٠) « وكثيرون يقاومون الاعتراف بالحقيقة ، لأشياء إلا لأنهم لو قبلوه لانهاروا » ^(٥١) .

هولكن بجوته رفض المادية رفضه للمثالية الذاتية . وقال إن « مذهب الطبيعة » الذى قال به دولباخ « بدا لنا [نحن الطلاب فى ستراسبورج] شديد القتامة . . . رهيباً كالموت ، حتى لقد وجدنا فى إطلاقه وجوده عناء ونكد ، وكنا نرتعد فرقا منه كأنه عفريت » ^(٥٢) . كان هذا فى شبابه ،

ولكنه أحس به أيضاً في شيخوخته وهو يكتب إلى كنيبل في ٨ أبريل ١٨١٢ :

« إن الرجل الذي لا يدرك هذه الحقيقة : ولا يسمو إلى هذه الرؤية ، وهي أن الروح والمادة ، للنفس والجسد ، الفكر والامتداد ، ... إنما هما مقوما الكون التوأمين الضروريان ، وسيظلان كذلك أبد الدهر ، وإن لـهذين الاثنين حقوقاً متساوية ، ومن ثم يمكن اعتبارهما في وجودهما معاً ممثليين لله ؛ أقول أد رجلاً لا يدرك هذا خير له أن ينفق عمره في ثروة أهل الدنيا ولغوهم الفارغ .

وهذا بالطبع هو سبينوزا ، وجوته يتبع سبينوزا إلى الحتمية — « نحن ننتمى إلى قوانين الطبيعة ، حتى أن تمردنا عليها ^(٥٣) ، ولكنه أحياناً يميل إلى الاتفاق مع كانط على أن « حياتنا ، مثلها مثل الكون الذي ننتمى إليه ، تتألف على نحو ملغز من الحرية والضرورة . » ^(٥٤) وكان يشعر بقوة قضاء وقدر تعمل فيه — صفات تفرض نمره وتقرره ، ولكنه يتعاون معها ، كما يتعاون عامل حر يخدم قضية تحركه وتحتويه .

أما دينه فتجميد للطبيعة ، ورغبة في التعاون مع قواها الخلاقية — قدرتها الإنتاجية المتعددة الأشكال ومثابرتها العنيدة ؛ على أنه استغرق زمناً طويلاً ليكتسب صبرها . وقد شخص « الطبيعة » على نحو مبهم ، فرأى فيها فكراً وإرادة ، ولكنه فكر يختلف تماماً عن فكرنا ، وإرادة محايدة في غير أكثرات كأنها تحايد بين ناس وبراغيث . فليس للطبيعة مشاعر أخلاقية بالمعنى الذي نقصده من التزام الجزء بالتعاون مع الكل ، لأنها « هي » الكل . وفي قصيدته « الإلهي » (١٧٨٢) وصف جوته الطبيعة بأنها بغير شعور ولا رحمة . فهي تدمر كما تعمّر بإسراف . « كل مثاكم العليا أن تمنعني (جوته) من أن أكون أصيلاً ، صالحاً وطالحاً ، كالطبيعة » ^(٥٥) ، ومبدؤها الأخلاق الوحيد هو : عش واجعل غيرك يعيش . وقد سلم جوته بحاجة كثير من النفوس إلى سند فوق طبيعي ، ولكنه لم يشعر بمثل هذه الحاجة إلا في أخريات عمره . « من عنده الفن أو العلم فهو يملك (ما يكفي من)

الدين ؛ أما من ليس عنده فن أو علم فهو في حاجة إلى الدين » (٥٦) . اننى بصمتى شاعراً وفناناً أشعر بتعدد الآلهة (فأشخص قوى الطبيعة المنفصلة) ، أما في دورى عالماً فأنا أميل إلى الحلولية (أى أرى إلهاً واحداً في كل شيء) (٥٧)

وإذا كان « وثنياً ثابتاً عامداً » في الدين والأخلاق ، فقد خلا من الإحساس بالخطيئة ، ولم يشعر بحاجة إلى إله يموت كفارة عنه ، (٥٨) وأنكر كل حديث عن الصليب . وقد كتب إلى لافتر في ٩ أغسطس ١٧٨٢ يقول « لست عدواً للمسيحية ، ولا مضاداً لروح المسيحية ، ولكنى قطعاً لا - مسيحي . . . أنك تقبل الإنجيل ، كما هو ، على أنه حقيقة إلهية . حسناً ، ما من صوت مسموع من السماء يمكن أن يقنعني بأن امرأة يمكن أن تحبل بطنفل دون رجل ، وأن رجلاً ميتاً يقوم من قبره . وأنا أعد هذه كلها تجديفات على الله وعلى إعلان ذاته في الطبيعة » (٥٩) . وضيق عليه لافتر الحناق (كما يروى لنا جوته) و « أخيراً سألتى السؤال العسير » إما مسيحي وأما ملحداً « فصارحته بأنه ان لم يترك لى مسيحيته كما اعتززت بها إلى ذلك الحين ، ففي استطاعتي أن أنحاز دون تردد إلى صف الإلحاد ، خصوصاً وأننى أرى أنه ما من إنسان يعرف على التحديد المعنى المقصود من كل من هذين اللفظين » (٦٠) . وقد ذهب جوته إلى أن « الدين المسيحي ثورة سياسية جهيضة انقلبت أخلاقية » (٦١) وفي الأدب « مئات الصفحات التي فيها من الجمال والفائدة ، مثل ما في الأناجيل » (٦٢) ، ومع ذلك أعد الأناجيل الأربعة كلها حقيقية لا غبار على صحتها ، ففيها يتجلى البهاء المنعكس للقوة السامية التي انبثقت من شخص المسيح وطبيعته ، الذي كان إلهياً ما ظهرت الألوهية في الأرض . . . وأنا أنحنى أمامه بوصفه المظهر الإلهي لأسمى مبدأ للفضيلة » (٦٣) . ولكنه اعتزم أن يعبد الشمس كما يعبد المسيح ، باعتبارها مظهراً معادلاً من مظاهر القوة الإلهية (٦٤) . وقد أعجب بلوثر ، وامتدح حركة الإصلاح البروتستنتي لتخطيها أغلال التقاليد ، ولكنه أسف على انتكاسها إلى العقائدية المتزمتة (٦٥) . وخامره شعور بأن البروتستنتية ستعاني من افتقارها إلى المراسم الملهمة المكونة للعادات ، ورأى أن الكاثوليكية

حكيمه سمحة في رمزها للعلاقات والتطورات الروحية بالأسرار المقدسة البالغة الوقع في النفوس (٦٦) .

أما آراء جوته في الخلود فقد تغيرت مع السنين . ففي ٢ فبراير ١٧٨٩ كتب إلى فريدریش تسو شتولبرج يقول . « أما أنا فأتمسك بوجه عام بتعاليم لوكريتيوس ، وأقصر نفسي وكل آمالي على هذه الحياة » . ولكنه في ٢٥ فبراير ١٨٢٤ قال لآكرمان « لا أريد إطلاقاً أن أستغنى عن سعادة الإيمان بحياة مستقبلية ؛ والحق أني أقول مع لورنتسودي مديتشي ان الذين لا رجاء لهم في حياة أخرى هم موتى حتى في هذه الحياة » ، وفي ٤ فبراير ١٨٢٥ ، « اني راسخ الاقتناع بأن روحنا شيء لا يقبل الفناء إطلاقاً » (٦٧) .
وقرأ زفيدنبورج ، وقبل فكرة عالم الروح (٦٨) ، وداعب آمال تقيصص الأرواح . ودرس القبلانية وبيكوديللا ميراندولا ، بل رسم البروج أحياناً لكشف الطالع (٦٩) . وكلما تقدم به العمر ازداد تسليمه بما للإيمان من حقوق .

« إذا توخيت الدقة في التعبير ، قلت إنه لا يمكنني أن أصل إلى معرفة الله إلا المعرفة التي أستقيها من الرؤية المحدودة المتاحة للمدركات الحسية على هذا الكوكب المفرد . ومعرفة كهذه إنما هي شظية من شظية . ولست أسلم أن هذه المحدودية ، التي تصدق على ملاحظتنا للطبيعة ، يجب أن تصدق في ممارسة الإيمان . فالعكس هو الصحيح . ولعل معرفتنا ، وهي ناقصة بالضرورة ، تتطلب الإضافة والاستكمال بفعل من أفعال الإيمان » (٧٠) .

وفي ١٨٢٠ أسف على تأليفه « برومثيروس » المتمرد أيام شبابه ، لأن شباب المتطرفين يومئذ كانوا يستشهدون به ضده (٧١) . وقد انصرف عن فشته حين أنهم فشته بالإلحاد (٧٢) . وكان رأيه الآن « انه من واجبنا ألا نخبر غيرنا بأكثر مما في قدرتهم تلقيه . فالإنسان لا يفهم إلا ما يناسبه » (٧٣) .

وكما تغيرت آراؤه في الدين ، كذلك تغير مفهومه للأخلاق مع تقدم عمره . فحين كان يظفر بنشاط الشباب وكبرياته فسر الحياة بأنها ليست سوى

مسرح لتنمية الذات والظهور . « ان هذه الرغبة الملحة في أن أرفع ما استطعت
هرم حياتي الذي أعطيته وأرسيت قاعدته لي ، ترجع كل ماعداها ،
ولا تكاد تسمح بالمحظة انتكاس » (٧٤) . وقد رأيناها يجرح نفوساً رقيقة
في هذه العملية . ولكنه حين نضج بفضل المنصب، السياسي أدراك أن
الحياة البشرية عملية تعاونية ؛ وأن الفرد إنما يحيا بالمساعدة المتبادلة ؛
وأن الأفعال الأنانية — وان ظلت القوة الأساسية — إلا أنه لا بد من أن
تحتاج الجماعة . ففاوست في قسمها الأول هي النزعة الفردية متجسدة ؛
وفي قسمها الثاني يحمل « الخلاص » وسلامة الروح ، بالعمل للصالح العام .
وفلهم ما يستر في « تلميذته » يحاول تعليم ذاته وإثراءها وإن كان بحكم طبيعته
وتدريبه كثيراً ما يهين اخوانه ؛ وفي « تطويقاته » يحاول تحقيق المزيد من
سعادة المجتمع . وقد غض جوته من الوصية بمحبة الأعداء، ولكنه عرف
النبيل بنبل في تصديده من أروع قصائده :

« ليكن الإنسان نبيلاً

معيناً وطيباً

فذلك وحده

هو الذي يميزه

عن سائر الكائنات

التي نعرفها . . .

ان الطبيعة

مجردة من العواطف

تشرق شمسها

على الأشرار والأبرار ،

ويضيء القمر والنجوم

على الصالحين والظالمين .

والرياح والسيول ،

والرعد والبرد ،

تهدر في طريقها ،
تنزع وتكتسح أمامها
واحداً بعد واحد . . .
ولا مناص لنا كلنا بحكم القوانين
العظمى ، الأبدية الصارمة ،
من أن نكمل دورة وجودنا .
ولكن الإنسان وحده
يستطيع المحال ،
فهو يميز ،
ويختار ، ويحكم ؛
ويستطيع أن يطيل مكث
اللحظة العابرة .
هو وحده القادر على
أن يثيب الخير ،
ويعاقب الشر ،
ويشفي وينقذ ،
ويصدق النصح
للخطاة والضالين
فليكن الإنسان النبيل
معيناً وطيباً .

ولكى يكون الإنسان نبيلاً عليه أن يحذر المؤثرات المفسدة ، و « الكل
مؤثر إلا ذواتنا » (٧٥) . « دعلك من دراسة المعاصرين والذين يحاربونك ؛
بل أدرس عظماء الماضي الذين احتفظت آثارهم بقيمتها ومكانتها قروناً .
فليرجل الموهوب حقاً ينحو هذا النحو بحكم طبيعته ، والرغبة في التنقيب
في أعمال الأسلاف العظام علاقة صادقة على الموهبة السامية » ، (٧٦) وعليك
باحترام المكتبات وإجلالها لأنها التراث الذى خلفه هؤلاء الرجال . « ان

المرء حين يتأمل مكتبة ما يشعر كأنه في حضرة رأس مال هائل يأتي في صمت بفائدة لا تقدر» (٧٧). ولكن الفكر بغير الخلق أسوأ كثيراً من الخلق بغير الفكر ، « فكل ما يحرر العقل دون أن يمنحنا السيطرة على أنفسنا مؤذ » (٧٨). خطط لحياتك ، ولكن حاول الموازنة بين الفكر والعمل ؛ فالفكر بغير العمل مرض . « فلأن تعرف حرفة وتمارسها يزودك بثقافة أكثر مائة مرة من نصف المعرفة » (٧٩). « وما من بركة تعبد بركات العمل » (٨٠) وفوق كل شيء كن « كلا » أو انضم إلى كل « أن النوع الإنساني وحده هو الإنسان الحق ، ولا يستطيع الفرد أن يفرح ويسعد إلا إذا امتلك شجاعة الشعور بنفسه في الكل » (٨١).

وهكذا نرى الفنى الذى ورث أسباب الرغد والأمن ، والذى أضحك طلاب ستراسبورج على لباسه المترف الغريب ، قد تعلم بفضل الفلاسفة والقديسين وتجارب الحياة أن يفكر فى الفقراء بعطف ، وأن يتخلى لوتقاسم المحظوظون من الناس ثرواتهم مع الفقراء بسخاء أكثر . وينبغى أن تفرض الضرائب على النبلاء بنسبة دخولهم ، وأن يتيحوا لاتباعهم الإفادة من « المنافع التى تهيئها المعرفة والرجاء المتزايدان » (٨٢) وقد أحس جوته بما يحس به البورجوازيون من حسد لأصحاب النبالة بالميلاد حتى بعد أن طبق صيته آفاق أوروبا . « فى ألمانيا لا تتاح فرصة الحصول على . . . ثقافة شخصية مكتملة الجوانب للنبلاء » (٨٣). وكان يراعى جميع فروض الاحترام المألوف فى سلوكه مع رؤسائه . وكل الناس يعرفون ما وقع لجوته وبيتهوفن فى تبلنز ، فى يوليو ١٨١٢ ؛ ولكن المصدر الوحيد لهذه القصة هو بيتينا برنتانوفون آرنييم . غير الموثوق بروايتها ، التى ادعت أنها تنقل عن رواية بيتهوفن :

« يستطيع الملوك والأمراء حقاً أن يخلعوا الألقاب والأوسمة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا عظماء الرجال الذين يجب إذن النظر إليهم بإجلال . وحين يجتمع اثنان مثل جوته ومثلى ، فلا بد لهؤلاء السادة من ذوى الحساب (م ٢٣ — قصة الحضارة ، ج ٤١)

والنسب أن يفقهوا معنى العظمة عند أمثالنا . فبالأمس التقينا بالأسرة الامبراطورية (المتساوية) كلها ، وخلص جوده ذراعه من ذراعى ليقف جانباً . أما أنا فكبيست قبعتي على رأسى واخترقت الجمع فى أكثف نقطة وذراعى تتدليان على جانبي . واصطف الأمراء وأفراد الحاشية فى صفين ؛ وزفج دوق فامار قبعته لى ، وحيثنى الامبراطورة أولاً . وقد أضحكنى أن أرى الموكب يمر أمام جوته الذى وقف على جنب وقبعته فى يده . وقد عنفته بعدها بقسوة على ما أتاه (٨٤) .

وسيختلف انفعالنا بهذه القصة باختلاف عمرنا . فلقد شعر جوته بأن الارستقراطية العاملة بنشاط وبروح خدمة الجاعة تهيء خير الحكومات الممكنة آنئذ فى أوربا ، وتستحق الاحترام الواجب للنظام والضبط الاجتماعيين . وينبغى اصلاح المفسد ، ولكن فى غير عنف أو اندفاع ؛ فالثورات تكلف أكثر مما تساوى ، وتنتهى عادة إلى حيث بدأت . ومن ثم يقول مفستوفيليس لفواست :

« واأسفاه ! إليك عني ! كف عن الثرثرة حول ذلك الشجار بين الطغيان والرق ! انه يضايقنى . فما إن ينته حتى يبدأ من جديد مع المهزلة كلها » (٨٥) .

ومن ثم يقول جوته لأكرمان فى سنة ١٨٢٤ : « صحيح اننى لم أكن صديقاً للثورة الفرنسية . فلقد كانت أهوالها عاجلة جداً . . . على حين لم تكن آثارها النافعة منظورة بعد . . . ولكننى بالمثل لم أكن متعاطفاً مع الحكم التعسفى الذى سبقها . وكنت حتى فى ذلك الوقت مقتنعاً بأنه ما من ثورة هى غلطة الشعب . بل هى دائماً غلطة الحكومة » (٨٦) . وقد رحب بنابليون نعمة على النظام فى فرنسا وأوربا بعد عقد حفل بالاضطرابات . وكان يتشكك فى الديمقراطية لأنه « ما من شئ أسوأ من الجهل النشيط » (٨٧) ، و « محال أن نتصور أن الحكمة يمكن أن تكرن فى يوم من الأيام صفة شعبية » (٨٨) .

ثم سخر من تذبذب « اطان بين الأحزاب . « أن الناس يتقلبون فى

السياسة كما يتقبلون على فراش المرض من جنب إلى جنب أملاً في مزيد من الراحة في رقادهم»^(٨٩). وقد عارض حرية النشر بحجة أنها تعرض المجتمع والحكومة للإزعاج المستمر على يد كتاب يعوزهم النضج والشعور بالمسؤولية. وبدأت له الصرخة المطالبة بالحرية، في أواخر عمره، مجرد جوع المحرومين من المناصب للسلطان والمغانم. «ان الهدف الأوحد هو نقل القوة والنفوذ والثراء من يد إلى اليد التالية. وما الحرية إلا كاحية السر التي يهمس بها المتآمرون المستترون، وصيحة المعركة الصاخبة يصبح بها الثوار السافرون، لا بل شعار الاستبدادية ذاتها وهي تسوف جماهيرها الخاضعة على العدو واعدة إياها بالخلاص من الطغيان الخارجي إلى الأبد»^(٩٠).

لقد وفي جوته كل الوفاء بواجب الكبار، بقيامه بوظيفة الكابح لطاقة الصغار.

٦ - فاوست : الجزء الثاني

ولقد سكب فلسفته التي تقدم بها العمر في الجزء الثاني من فاوست. ففي خاتمة الجزء الأول كان قد ترك «نفسه الثانية»، محطة يائسة، في قبضة مفسدوفيليس — الشهوة تعاقب على افراطها. ولكن، أكان ممكناً أن يكون هذا كل شيء، وأن يكون جماع الحكمة؟ ان فاوست لم يكن قد خسر رهانه كل الخسران، فالشيطان لم يعثر له بعد على أية متعة تهديء نضاله وتملاً حياته. فهل ثمة أشباع كالذي يتوق إليه في أى مكان؟ لقد كافح جوته طوال أربعة وعشرين عاماً ليجد للقصة تنمة وقعة تحويان أو ترمزان إلى النتائج التي خلص إليها تفكيره، وتسبغان على بطله خاتمة نبيلة ملهمة.

وأخيراً. وحين بلغ الثامنة والسبعين، تصدى للمهمة. ففي ٢٤ مايو ١٨٢٧ كتب إلى تسلتر الذي شاخ كما شاخ هو وكان مزماً أن يموت معه: «أود أن أعترف لك في هدوء... بأننى عاودت العكوف على فاوست. فلا تخبر بذلك أحداً». وكانت خاتمة بايرون المثرة في حرب اليونان التحريرية

قد حركت مشاعر جوته ؛ فالآن يستطيع أن يجعل بايرون ، في شخص « يوفوريون » (ومعناه السعادة) ، بن فاوست وهيلانة يمثل شفاء العقل العصري ، الممزق الحائر ، بفضل اتحاده مع جمال اليونان القديمة الهادىء . ومن ثم راح يكبد وبكدح في ساعات الصباح ، فلا يبلغ من ذلك غير صفحة واحدة على أحسن تقديره ، حتى أفضى لأكرمان في أغسطس ١٨٣١ ، قبل موته بسبعة شهور ، بأن المهمة المضنية قد تمت — بعد أن انقضت تسع وخمسون سنة على تصوره إياها أول مرة . وكان قد كتب يقول « أسعد الناس من استطاع وصل نهاية حياته ببدايتها » (١١) . وقال الآن « أيا كان مقدار ما بقى لى من الحياة ففى وسعى أن أعده منذ الآن منحة ، ولست فى الحق أبالى ان كتبت سأنجز فوق ما أتجزت أم لا » (١٢) .

ولا يستطيع المرء أن يسترسل اليوم فى قراءة كل الجزء الثانى من فاوست إلا فى ثقة واطمئنان أعوام ثمانين . فابتداء من المنظر الافتتاحى الذى يصف فيه فاوست ، بعد استيقاظه بين حقول الربيع ، شروق الشمس ببلاغة لم تبل جدتها ، تقف حركة القصة المرة بعد المرة للتغزل فى جمال الطبيعة أو التغنى بعظمتها أو رهبتها ؛ وقد أجاد المؤلف الوصف . ولكنه أسرف فيه ؛ فجوته المبشر بالانضباط الكلاسيكى يأتى هنا ضد شعار « القصد فى القول » . ذلك أنه صب فى الدراما كل شىء تقريباً تراكم بغير نظام فى ذاكرته الجياشة : الميثولوجيات اليونانية والألمانية ، وليدا والبجعة ، وهيلانة وركبها ، والساحرات ، والفرسان ، والجنيات . والأقزام والحيوانات الخرافية ، والأقزام البشرية ، وحوريات الغاب ، والسيرانات ، ومقالات الجيولوجية « النبتونية » ، والخطب الطويلة يلقيها الرسل ، والفيات بائعات الزهر ، وحوريات الحداث ، والخطابون ، — والمهرجون القصار السمان ، والسكارى ، وأتباع الفرسان ، ووكلاء الإقطاعيين ، والنظار ، ثم سائق مركبة حربية وأبو هول ، ومنجم وإمبراطور ، وآلهة الحقول وفلاسفة ، وكراكى أبيكوس ، و« رجل قصير » (قزم) صنعه فجنر تلميذ فاوست كيميائياً . والحليط أشد تحيراً وإرباكاً من الدغل المدارى ،

لأنه يضيف العنصر فوق الطبيعي إلى الطبيعي ، ويسبغ على كل شيء موهبة الخطابة أو الغناء .

وما أعظم الراحة التي نستشعرها حين نظهر هيلانة في الفصل الثالث ، وهي ما تزال على نحو معجز إلهة بين النساء ، تغزو قلوب الرجال برشاقة حركتها أو بلحظ عينيها . وتتخذ القصة قوة جديدة ، ويرتفع الكورس إلى نبرة سوفوكلية ، حين تسمع هيلانة ان منيلاوس رغبة في عقاب « الجمال الوقح المتخطرس » أمر بأن تسلم هي ووصيفاتها إلى شهوات قبيل « بربرى » يغزو بلاد اليونان من الشمال . أما زعيمهم فتاوست نفسه ، الذى انقلب بحيلة مفستوفيلية فارساً من فرسان العصور الوسطى ، مليح القد والصوره واللباس . ويبلغ جوته ذروة فنه الدراى حين يصف لقاء هيلانه وفاوست — اليونان القديمة تواجه ألمانيا الوسيطة . فليتحدا الإثنين ! تلك هى الفكرة الرئيسية فى القصة . ويفتن فاوست ككل الرجال فيلقى عند قدمها بكل ما وهبه السحر والحرب من مال وقوة . وتستسلم هى لتوسلاته ، فهذا المصير على أى حال لم يكن شراً من الموت . ولكن منيلاوس يقترب مع جيشه فيقطع عليهما نعيمهما . وفى لمح البصر ينقلب فاوست من الغرام إلى الحرب ، ويستنفر رجاله ويقودهم إلى غزو اسبرطه (وهذه ذكرى « الفرنجة » يغزون المورة فى القرن الثالث عشر) .

ثم يتغير المشهد ، فقد مرت السنون سراعاً ، وإذا يوفوريون شاب سعيد يشرح صدر فاوست وهيلانه بـ « العناق والمزاح اللعوب والنداءات المرحية » (٩٣) . قافزاً فى استهتار من جرف إلى جرف ، وأبواه يحذرانه فى رفق ، راقصا فى عنف مع الحوريات اللائى افتتن بحسنه (بايرون فى إيطاليا) ، ويمسك بواحدة منهن فى جنبل ، فإذا هى تنفجر مشتعلة بين ذراعيه . وحين يسمع فى ترحيب ناقوس الحرب يندق ، يندفع خارجاً ، فيهبى من منحدر قائم ، ويدعو أمه وهو يموت لتأحق به فى العالم السفلى .

« هيلانه (لفاوست) ويلاه ! ان حكمة قديمة يتحقق فى صدقها -- فزفاف المال إلى الجمال لا يدوم أبدا . ان رباط الحياة يتمزق كما يتمزق

رباط الحب ، فوداعاً لهما جميعاً وأنا أبكيهما في عذابي ، وعلى صدرك أرتمي مرة أخرى ، فتلقيني يا بر سيفوني أنا ووالدى . (تعانق فاوست ؛ ويتلاشى جسمها وتبقى الثياب والنقاب بين ذراعيه) .

وهكذا ينتتم الفصل الثالث ، وهو أجمل فصول هذا الجزء الثانى من فاوست . وهو الجزء الذى بدأ بجوته بكتابه ، وسماه « هيلانه » ، وظل حيناً يفكر فيه على أنه كل كامل قائم بذاته ؛ ولو تركه كذلك لكان خيراً له . فهنا ارتفع جوته لآخر مرة إلى قمة شعره بجهد بطولى لاستنهاض ما بقى له من قوى ، مازجا الدراما بالموسيقى كما جرى اليونان على عهد بركليس ، نافخاً الحياة والحرارة فى شخوص قصة رمزية معقدة لشفاء العقل العصرى .

ومن ذلك العلو الشاهق ينزل الجزء الثانى من فاوست إلى حرب بين امبراطور وغريم ينافس على العرش الرومانى المقدس . ويحقق فاوست ومفستوفيليس بحيلهما السحرية النصر فى الحرب للإمبراطور ؛ ويطلب فاوست وينال جزاء له مساحات كبيرة من ساحل الامبراطورية الشمالى ، مضافاً إليها ما يسعه انتزاعه من الأرض من يران البحر . وفى الفصل الخامس نرى فاوست وقد بلغ المائة سيداً على ملك شاسع ، واكنه لم يصبح بعد سيداً على نفسه . وذلك أن كوخاً لزوجين من الفلاحين هما فليمون وباوكيس نجب المنظر من قصره ؛ فيعرض عليهما بيتاً أفضل فى موقع آخر ، واكنهما يرفضان ؛ فيطلب إلى مفستوفيليس وعملاته أن يطردوهما ؛ ولكنهم يلقون المقاومة ، فيشعلون النار فى الكوخ ؛ ويموت الزوجان المعجوزان رعباً . ولا يلبث فاوست أن تطوف به رؤى الأرواح المنتقمة عجايز شملوات اسمهن الفقر ، والذنب ، والهمل ، والحاجة ، والموت ؛ وينفخ الهم فى وجهه فيعصيه . وتنشله من اليأس فكرة فيها شيء من الإيثار ؛ فيأمر مفستوفيليس وشياطينه بأن يقيموا السدود على البحر ، ويحفظوا المستنقعات ، ويبنوا على الأرض الجديدة ألف بيت وسط الحقول الخضراء ؛ ويتخيل هذه الأرض المنتزعة من البحر ، ويشعر بأنه ان استطاع « مع شعب حر أن يقف على أرض حرة » لقال أخيراً لهذه اللحظة العابرة « لاتبرحى لأنك جميلة جداً » ^(٩٤) . ويسمع أصوات الفؤوس والمعاول ، فيظن

أن مشروعه الضخم يتقدم ؛ أما الحقيقة فهي أن الشياطين تحفر قبره . ويأخذ
منه الإرهاق كل مأخذ ، فيخر صريعاً على الأرض ؛ فيشمت فيه مفيستو
فيليس بينما يتهبأ حشد من الشياطين لحمل روح فاوست إلى الجحيم ؛ ولكن
جيشاً من الملائكة ينقض من السماء ، وبينما يتسلى مفستوفيليس بالإعجاب
بسيقانهم ، يرفع الملائكة رفات فاوست . وفي السماء نرى فاوست الذي
ألبس جسداً نورانياً تستقبله بالتحية جريتشن الممجدة الآن ، والتي تتوسل
إلى الأم العذراء قائلة : « هينى أن أعلمه ! » وتأمرها العذراء بأن تقوده
صعداً ، ويختتم كورس سحرى المسرحية بهذا النشيد :

« كل عابر
ليس إلا رمزاً ؛
وكل ناقص لم يكمل
يبلغ الكمال هنا »
وما لا يمكن وصفه
يتحقق ها هنا
السرمدى الأثنوى
يجذبنا صعداً وقدماً .

٧ - التمام : ١٨٢٥ - ١٨٣٢

في ١٨٢٣ أصبح يوهان بيتر إكرمان ، البالغ واحداً وثلاثين عاماً ،
سكرتير جوته ، وبدأ يدون حديث الشيخ للأجيال القادمة وتحتوى حصيلة
هذا الجهد « أحاديث مع جوته » (ثلاثة مجلدات ١٨٣٦ - ٤٨) ، التي
راجعها جوته جزئياً ؛ من ذخائر الحكمة أكثر مما نجده عند معظم الفلاسفة .

وفي سبتمبر ١٨٢٥ احتفلت فامبار بالذكرى الخمسين لتولى كارل
أوجست العرش وحضر جوته الاحتفال . وأمسك الدوق بيده وتمم قائله
معاً إلى آخر نسمة ^(٩٥) . وفي ٧ نوفمبر احتفل البلاط بالذكرى الخمسين

لقدم جوته إلى فيمار ، وأرسل إليه الدوق خطاباً أذيع أيضاً على الشعب :

« ببالغ السرور أود أن أنوه بالذكرى الخمسينية لهذا اليوم يويلا
للاخدام الأكبر للدولتي فحسب ، بل لصديق صباى الذى رافقنى طوال
تقلبات الحياة بثابت المحبة والولاء والوفاء . وإنى لمدين فى نجاح أهم مشروعاتى
لمشورته الواعية ولتعاطفه الذى لاينى وخدمته النافعة . وإنى لأعد ضمى
أياه لشخصى بصفة دائمة مفخرة من أعظم مفاخر ملكى (٩٦) .

ثم أقبلت سنوات الشيخوخة الحزينة حين يخفى الصديق تلو الصديق ،
ففى ٢٦ أغسطس ١٨٢٦ ، بعد عيد ميلاد جوته السابع والسبعين بيومين ،
أرسلت شارلوتة فون شتين ، وهى فى الرابعة والثمانين ، آخر ما نعرف من
رسائل لحبيبها منذ نصف قرن : « كل تمنياتى الصادقة وبركاتى بمناسبة هذا
اليوم . وأتوسل إلى الملائكة الحارسة فى الحفل السماوى أن تأمر بمنحك
أيها الصديق الأعز كل خير وجميل . وإننى مازلت المخلصة لك فى رجاء
وبلا خوف ، وأنا أسألك أن تهبنى عطفك السمع خلال الفسحة القصيرة
التي بقيت لى فى الأجل » (٩٧) . ثم ماتت فى ٦ يناير ١٨٢٧ ، فلما سمع جوته
بالنبا بكى . وفى ١٥ يونيو ١٨٢٨ مات الدوق ، وعرفت فيمار أن عصرها
الذهبي أخذ يولى . واستعد جوته لدوره بالعكوف على فاوست بنشاط
محموم . ولكن الدور لم يكن دوره بعد . ذلك أن أوجست ، ابنة الوحيد
الباقى على قيد الحياة ، بعد أربعين سنة من الفشل ، وعشرين من الفسق ،
مات فى روما فى ٢٧ أكتوبر ١٨٣٠ . وقد أظهر تشريح جثته أن حجم كبده
خمسة أضعاف الحجم العادى . فلما أبلغ جوته بالنبا قال (باللاتينية) « لم
أكن أجهل أننى أنجبته إنساناً فانياً » (٩٨) . وكتب يقول « حاولت إغراق
نفسى فى العمل وقد ألزمت نفسى بالمضى فى المجلد الرابع من كتاب
« الشعر والحقيقة » (٩٩) .

وحين بلغ الثمانين بدأ يحد من مجال اهتماماته . ففى ١٨٢٩ كف عن قراءة
الصحف . وكتب إلى تسلر يقول « لست أستطع البدء بإنبائك بما اكتسبته من

وقت وما أنجزته من أعمال خلال الأسابيع الستة التي تركت فيها جميع الصحف الفرنسية والألمانية دون أن أفتحها» (١٠٠) « سعيد من كان عالمه في بيته » (١٠١) . وقد حظى بالحبّة والرعاية من أرملة أوجست ، أوتيليه ، واستشعر البهجة بأطفالها . ولكنه كان أحياناً يعتكف حتى عنهم ويطلب الخلوة التامة ويثني على الوحدة لأنها المواسية والحك للعقل المثقف .

ولقد أفصح وجهه الآن عن أعواه الثمانين : غصون عميقة عبر الجبين وحول الفم ، وشعر فضي يتراجع ، وعيون هادئة متسائلة ؛ ولكن عوده ظل مستقيماً وصحته جيدة . وكان يفخر بأنه اجتنب القهوة والتبغ وكلاهما مذهب في رأيه لأنه سم زعاف . وكان معجباً بطلعته وبكتبه ، يستطيب ثناء الناس عليه صراحة ، ولا يبذله إلا ضئيلاً به . بعث إليه شاعر شاب في ١٨٣٠ بديوان شعر ، فرد عليه جوته يذنبه بتسلمه رداً لادعاء قال فيه « تصفحت كتبيك . ولكنني نحيته لأن على المرء في وباء من أوبئة الكوليرا أن يحمي نفسه من المؤثرات المضعفة » (١٠٢) . وكان يضيّق بأصحاب الكفريات الهزيلة ، ولإزداد ضيقه بالناس أكثر فأكثر كلما أكرهته الشيخوخة على الانطواء على نفسه ، وقد اعترف بهذا فقال « كل من ظنني لطيفاً من واقع مؤلفاتي ألقي نفسه مخدوعاً أشد الخداع حين احتك برجل فيه برود وتحفظ » (١٠٣) . ووصفه زواره بأنه بطيء الانفراج ، فيه شيء من التكلف والتصلب ربما نتيجة لارتبائه ، أولضنه بالوقت ينتزع من واجباته . ومع ذلك فإن كثيراً من رسائله تدل على الرقة ومراعاة مشاعر الآخرين .

وطبق صيته الآن آفاق أوروبا . وأشاد به كارليل — قبل موت جوته بزمان طويل — فحلا من فحول الأدب العالمي . وأهدى بايرون « ورنر » إليه ، وأهدى برليوز « هلاك فاوست » إلى « المونسنيور جوته » ؛ وأرسل إليه الملوك الهدايا . ولكن قراءه في ألمانيا كانوا قلّة ، والنقاد مناوئين له ، وانتقص منافسوه من قديره ورموه بأنه عضو في مجلس الأمير مغرور يدعى أنه شاعر وعالم . وأدان ليسنچ « جوتز » و « فرتر » لأنهما هراء رومانسي ؛ واحتقر كلويشتوك « ارمان ودوروتيا » لأنه كتاب عادي لا امتياز فيه ،

و«افجيني» لأنه تقليد جامد لليونان . ورد جوته بعبارات متكررة من الاحتقار لألمانيا — لمناخها ، ومناظرها الطبيعية ، وتاريخها ، ولغتها ، وفكرها . وشكا من أنه أضطر « للكتابة بالألمانية ، وهكذا . . . أهدر الحياة والفن على أسوأ مادة » (١٠٤) . وقال لأصحابه ان « هؤلاء الألمان الحمقى » يستحقون تماماً هزيمتهم على يد نابليون في يينا (١٠٥) ، وقد جاء دور ألمانيا لتضحك منه حين انتصر الحلفاء على بوناپرت في ووترلو .

ولإذ انسلخ عن نهر الأدب الرئيسي (النهر الرومانتيكى) في شيخوخته ، فقد عزى نفسه باحتقار ازداد عمقاً للعالم والإنسان . « تبدو الحياة كلها — إذا نظرنا إليها من قمع العقل — كأنها مرض خبيث ، والعالم كأنه مستشفى للمجانين » (١٠٦) . وكتب إلى تسلتر في ٢٦ مارس ١٨١٦ « قبل أيام وقعت على نسخة من أول طبعة لآلام فرتر ، وبدأت ترتفع من جديد تلك الأغنية التي طال إسكاتها . وشق على أن أفهم كيف استطاع رجل أن يطبق العالم أربعين سنة مع أنه تبين صفه حتى في صباه » (١٠٧) . ولم يتطلع إلى أى تحسين ذى بال في المستقبل . « ان الناس لا يعيشون إلا ليكدر ويقتل بعضهم بعضاً . كذلك كان ، وكذلك هو اليوم ، وكذلك سيظل إلى أبد الدهر » (١٠٨) ، وكان يرى كما يرى معظمنا بعد الستين أن الجيل الجديد منحط . « ان هذه الخيلاء التي لاتصدق ، والتي يشب عليها الشباب ، ستمخصص بعد بضع سنوات عن أعظم الحقايات . . . ومع ذلك فهناك الكثير الذي يتحرك وينشط ، وقد يكون مبعث اغتباط في السنين القادمة (١٠٩) » .

وفي ١٥ مارس ١٨٣٢ أصيب بنزلة برد وهو راكب عربته في نزهة . ثم بدا أنه تماثل للشفاء في الثامن عشر من الشهر ، ولكن في اليوم العشرين كانت الإصابة قد نزلت إلى صدره ، وألهمته حمى النزلة ، وشوه الألم وجهه . وفي الثاني والعشرين لاحظ أن الربيع بدأ ، وقال « لعل هذا يعينني على البرء . » وكانت الحجرة قد أظلمت لأراحة عينيه ؛ فاعترض قائلاً « أدخلوا مزيداً من الضوء » . وإذ كان لا يزال ضيقاً بالظلام أمر خادمه قائلاً « افتح ستارة النافذة الأخرى ليدخل مزيد من الضوء . » وكانت هذه

فما يبدو آخر كلماته . وكان قد قال لأوتيليه « أيتها المرأة الصغيرة ، ناوليني كفك الصغيرة » ومات بين ذراعيها قابضاً على يدها ظهر يوم ٢٢ مارس ١٨٣٢ بالغاً اثنتين وثمانين سنة وسبعة شهور (١١٠) .

ورأى اكرمان جثمانه في الغد :

« كان الجسد عارياً إلا من كفن أبيض . . . وأزاح الخادم الملاء فأذهلني ما رأيته في أطرافه من بهاء إلهي . وكان الصدر قوياً ، عريضاً ، مقبباً ، والذراعان والفخذان ممثلة مفتولة في رقة ؛ والقدمان أنيقتين وفي أكمل هيئة ؛ ولم يكن في الجسم كله أثر لا لشحم ولا لنحول ولا لتحال . فقد رقد أمامي رجل كامل في أجمل صورة ؛ وأنستني بهجة المنظر لحظة أن الروح الخالدة قد فارقت هذا المسكن » (١١١) .

وهكذا اختتم عصر عظيم ، ابتداء من انتصار فردريك الكتيب في ١٧٦٣ ، ومروراً بليسنج وكانط ، وفيلاند وهردر ، وانتهاء بشيلر وجوته . ولم يوفق العقل الألماني منذ لوثر إلى مثل هذا النشاط والتنوع والثراء في التفكير المستقل . ولم يكن بالكارثة على ألمانيا أنها لم تكن امبراطورية مترامية كامبراطورية بريطانيا مستغرقة في الفتح والتجارة ؛ ولا ملكية ممركة كالملكية الفرنسية يمزقها فشل الحكومة ؛ ولا استبدادية كاستبدادية روسيا تتخضم نفسها بالأرض أو تتخدر نفسها بالماء المقدس . ان ألمانيا — من الناحية السياسية — لم تكن قد ولدت بعد ، ولكنها في الأدب كانت تتحدى العالم الغربي ، وفي الفلسفة تقود هذا العالم .

الفصل الخامس والعشرون

اليهود

١٧١٥ - ١٧٨٩

كفاح الحياة

قال روسو :

أن اليهود يقدمون لنا مشهداً عجيباً . فقد مانت قوانين صولون ، ونوما ، وليكورجوس ؛ أما شرائع موسى ، الأقدم بكثير ، فما زالت حية . وقد بادت أثينا ، واسبرطة ، وروما ، ولم تترك خلفاً على الأرض ، أما صهيون التي دمرت فلم تفقد بنيتها ؛ فقد احتفظوا بكيانهم ، وهم يتكاثرون ، وينتشرون في أرجاء العالم . . . وهم يخالطون كل الشعوب دون أن يذوبوا فيها^(١) ؛ وليس لهم أحكام ، ومع ذلك فهم دائماً شعب» .

وربما كان بقاء ناموس راجعاً لالحكمته الأصلية بقدر جدواه في حفظ النظام والاستقرار بين جماعات تعيش في خطر وسط عقائد معادية وشرائع أجنبية . ففي الشتات كان على الكنيس (المجمع) أن يقوم بما تقوم به الكنيسة والحكومة ، وربط الخاضعات بين أفراد شعبهم في وحدة متماسكة خلال جميع التقلبات والغير بإعطائهم بركة إيمان ديني فخور لناموس نظم كل منحي من مناحي الحياة اليهودية وأصبحت الأسفار الموسوية الخمسة الدستور - وأصبح التهود المحكمة العليا - لدولة غير منظورة .

وفقد العداء لليهودية بعض قواعده الدينية باضمحلال الاعتقادات السنية . وقد عرف المسيحيون ممن ألبوا بطرف من التاريخ أن كل شعب تقريباً من الشعوب المسيحية ، في فترة أو أخرى ، اضطهد المهرطقين بالقتل

الجماعى جيلا بعد جيل أو دواوين التفيش أو المذابح المنظمة . وعرف فولتير هذا^(٢)، وندد المرة بعد المرة باضطهاد المسيحيين لليهود، وأثنى على ما رآه في اليهود من «أسلوب في الحياة رزين منظم، ومن زهد، وكد» وأدرك أن اليهود الأوربيين أقبلوا على التجارة لأن حرمانهم من تملك الأرض «أعجزهم عن التوطن بصفة دائمة — أى مأمونة — في أى بلد»^(٣) . ومع ذلك فقد انقلب فولتير عدواً لليهود عداوة لا هوادة فيها . ذلك أنه تورط في معاملات غير موفقة مع رجال المال اليهود . فعند رحيله إلى إنجلترا حمل معه صكوكاً على المصرف اللندنى «مدينياً» ، الذى أفلس أثناء ذلك وهو مدين لفولتير بعشرين ألف فرنك^(٤) . وفى برلين كلف ابراهام هيرش — كما أسلفنا — بشراء سندات هبطت قيمتها في سكسونيا ، بقصد استيرادها (بطريقة غير قانونية كما حذر هيرش) إلى بروسيا ليسترد قيمتها هناك بربح يبلغ خمسة وستين فى المائة^(٥) . وتشاجر الفيلسوف ورجل المال ، واحتكما إلى القضاء ، وانتهيا بالكراهية المتبادلة . وفى مقال فولتير عن «الأعراف» أطلق لحقده العنان فوصف العبرانيين القدامى بأنهم «أمة حقيرة ، وشعب من اللصوص ، فظيع ، رجس ، ناموسه ناموس المتوحشين ، وتاريخه نسيج من الجرائم ضد الإنسانية»^(٦) . واعترض قسيس كاثوليكي بأن هذا اتهام وحشى إلى حد مضحك^(٧) . ونشر يهودى برتغالى عالم يدعى إسحاق بنتو فى ١٧٦٢ «تأملات» فيها نقد للفقرات المعادية لليهود والواردة فى مقال بعنوان «اليهود» فى القاموس الفلسفى ؛ واعترف فولتير بأنه «أخطأ فى وصم أمة بأسرها برذائل أفراد» ، ووعده بحذف الفقرات المهيئة فى الطبقات القادمة ؛ ولكنه غفل عن الوفاء بوعد^(٨) . وكان موقف الكتاب الفرنسين عموماً ضد فولتير فى هذا الأمر^(٩) . وتكلم روسو على اليهود بتعاطف مشرب بالفهم^(١٠) .

ولم يكن لليهود فى فرنسا حقوق مدنية قبل الثورة ، ولكنهم أنشأوا جماعات ناجحة وخرجوا زعماء ذوى نفوذ ، اشترى أحدهم أقطاعية اشتملت على أميان ؛ واستعمل حقه الإقطاعى فى تعيين قساوسة الكندراتية ، فاحتج الأسقف ، ولكن برلمان باريس أيد الإقطاعى اليهودى (١٧٨٧) واعترفت الحكومة الفرنسية شاكرة بمساعدة المالىين اليهود لها فى حروب الوراثة

الأسبانية والبولندية ، ولعب اليهود دوراً كبيراً في إحياء شركة الهند الشرقية بعد انهيار مغامرة «لو» في ١٧٢٠ (١١) . وكان يهود بوردو ذوى ثراء عريض ؛ واشتهر تجارهم ومصرفيوهم بنزاهتهم وجمهدهم ؛ ولكنهم اعتزوا بأصلهم الصفاردي ، ونجحوا في اقضاء جميع اليهود الاشكنازيين عن بوردو .

ولم يكن في أسبانية القرن الثامن عشر يهود سافرون . ففى مطالع حكم البوريون الأسبان استغلت جماعات صغيرة منهم استنارة فليب الخامس المزعومة لاستئناف شعائر العبادة اليهودية سرّاً ، واكتشفت حالات كثيرة ، وأعدم ديوان التفتيش بين عامى ١٧٠٠ و ١٧٢٠ ثلاثة يهود فى برشلونه ، وخمسة فى قرطبة ، وثلاثة وعشرين فى طليطلة ، وخمسة فى مدريد . واحفظت الديوان هذه الاكتشافات فهب ينشط من جديد ، وبلغ عدد الدعاوى التى نظرتها محاكمه بين عامى ١٧٢١ و ١٧٢٧ أكثر من ثمانمائة بتهمة اليهودية من بين ٨٦٨ دعوى ، وأحرق خمسة وسبعون ممن أدينوا . أما بعد ذلك فالحالات المثيلة كانت نادرة جداً . وفى سنوات الديوان الختامية ، (١٧٨٠ — ١٨٢٠) حاكم الديوان الأسبانى نحو خمسة آلاف منهم ، لم يرم منهم باليهودية غير ستة عشر ، وكان عشرة منهم أجنب (١٢) . وظلت قوانين أسبانيا تحرم من المناصب المدنية أو الحربية جميع الأشخاص الذين لا يستطيعون إثبات نقاء دمائهم من كل أثر علق به من أسلاف يهود . وقد شكوا المصلحون من أن هذا الشرط حرم الجيش والحكومة الأسبانيين من خدمات الكثير من الرجال الأكفاء . وفى ١٧٨٣ خفف شارلى الثالث هذه القوانين (١٣) .

أما فى البرتغال فقد أحرق ديوان التفتيش سبعة وعشرين يهودياً لرفضهم الارتداد عن الديانة اليهودية (١٧١٧) (١٤) . وقد وفد على لشبونه فى ١٧١٢ قادماً من ريودجانيرو أنطونيو داسيانغا ، الذى كان فى رأى سودى أفضل كتاب المسرحيات البرتغال ؛ فقبض عليه هو وأمه فى ١٧٢٦ لأنهما يهوديان ، وأحرقتا الأم ، واستعطف الابن فأطلق سراحه ،

ويبدو أنه ارتد بعد ذلك ، لأنه أحرق في ١٧٣٩ ولما بعد الخامسة والثلاثين (١٥) ثم أنهى المركز دبوبال بإصلاح من إصلاحاته الكثيرة كل تفرقة بين المسيحيين القدامى والمحدثين (الذين اعتنقوا المسيحية) (١٧٧٤) (١٦) .

أما في إيطاليا فقد سبقت البندقية غيرها إلى تحرير اليهود ، ففي ١٧٧٢ أعلن أن يهود الجمهورية أحرار متساوون مع سائر السكان . وتخلفت روما ، وكان الغيت (حتى اليهود) هناك أسوأ أحيائهم في أوروبا . وزادت خصوبة الإنجاب الشديدة التي شجعها الأخبار من الفقر والقدارة ، وأنت على يهود روما فترة كان عشرة آلاف منهم يسكنون في حيز لا يزيد على كيلو متر مربع واحد (١٧) . وكان نهر تيبير يفيض على ضفافه كل عام فيغمر شوارع الحى الضيقة ويملاّ الحجرات السفلى بالطين الموبوء . واحترف يهوديو روما الخياطة لحرماتهم من أكثر الحرف ؛ ففي ١٧٠٠ كان ثلاثة أرباع الذكور البالغين منهم خياطين (١٨) ، فبدأوا بذلك عادة تحدت بينهم حتى أيامنا هذه . وفي ١٧٧٥ أصدر بيوس السادس مرسوماً بابوياً جدد فيه القديم من المحظورات على اليهود وأضاف إليها جديداً : فحرم عليهم ركوب العربات ، وترتيل المراثى في الجناز ، وإقامة الشواهد على قبور موتاهم (١٩) . وكان على يهود روما أن ينتظروا مجيء نابليون ليحررهم من هذه القيود .

وأما في النمسا فقد أحست ماريا تريزا أن التقوى تلزمها بحبس اليهود في أحياء ضيقة بعينها ، وبحرماتهم من الحرف والمناصب وتملك العقارات (٢٠) ، ولكن ابنها يوزف الذى مسه التنوير الفرنسى اقترح على مجلس الدولة في ١٧٨١ مشروعاً « يفيد به المجتمع من طبقة الإسرائيليين الكبيرة في أراضينا الوراثية » (النمسا والمجر وبوهيميا) وذلك بتشجيعهم على أن يتعلموا — وبعد ثلاثة أعوام يشترط عليهم أن يستعملوا — اللغة القومية في جميع الشؤون القانونية أو السياسية أو التجارية . ويجب ألا « يضايق اليهود على أى وجه في ممارسة شعائرهم أو عقائدهم » . وينبغي دعوتهم للاشتغال بالزراعة ، ولدخول ميدان الصناعة والتجارة ، ولممارسة الفنون — على أن يظل محظوراً عليهم أن يصنعوا معلمى حرف في النقابات الحرفية ، لأن هذا يتطلب حلف يمين الولاء للعقيدة المسيحية . ثم تلغى كل أسباب التفرقة المهنية ، وكل

القيود المفروضة إلى ذلك الحين على اليهود ، « وكذلك كل العلامات الظاهرة أيا كانت » . واعترض مجلس الدولة والمديرون الإقليميون على البرنامج لأنه فضفاض مفاجئ بحيث لا يقبله الشعب . وقدم يوزف حلاً وسطاً ، فأصدر في ٢ يناير ١٧٨٢ « ترخيص تسامح » لليهود فيينا والنمسا السفلى : فنالوا بمقتضاه حق إدخال أبنائهم مدارس الدولة وكنياتها ، والتمتع بالحرية الاقتصادية إلا أن يملكوا العقارات ؛ ولكن حرم عليهم التنظيم الطائفي المستقل ، وبناء المجمع في العاصمة ، ومنعوا من سكنى مدن معينة — ربما لأن العداء لليهود فيها كان مستحكماً إلى درجة خطيرة . ونصح يوزف رعاياه المسيحيين باحترام أشخاص اليهود وحقوقهم باعتبارهم اخواناً لهم ، وكل إهانة أو عنف يعامل به يهودى « سيعاقب مقترفه عقاباً صارماً » ، ويجب أن يمنع إدخالهم في المسيحية بالإكراه . وما لبث الإمبراطور أن أصدر تراخيص مماثلة لبوهيميا ومورافيا وسيليرنا النمساوية . وقد قدر لليهود مساهماتهم في خزانته ، فخلع النبالة على عدة يهود ، واستخدم عدداً منهم ما لبين للدولة^(٢١) ،

ولكن إصلاحاته — كما ذكر المبعوث الفرنسى إلى فيينا — « اثارت صيحة استنكار عامة . . . والتسهيلات الكبيرة الممنوحة لليهود يراها الناس مفضية بلا ريب إلى خراب الدولة »^(٢٢) . وشكا التجار المسيحيون من المنافسة الجديدة ، وأدان القساوسة المراسيم لأنها تتسامح مع الهرطقة السافرة ، واعترض بعض الحاخامات على اختلاف الأطفال اليهود إلى مدارس الدولة مخافة أن تفتن الشباب عن اليهودية . ولكن يوزف أصر على موقفه ، وقبل أن يموت بسنة وسع « ترخيص التسامح » ليضم غاليسيا أيضاً ، وكانت إحدى مدنها ، وهى برودى ، تضم خلقاً كثيراً من اليهود (١٨,٠٠٠) حتى لقد لقبها الإمبراطور أورشليم الحديثة . وعند موت يوزف (١٧٩٠) كانت فيينا قد عودت نفسها على النظام الجديد ، ومهدت الأرض لثقافة فيينا اليهودية المسيحية الرائعة التى ازدهرت فى القرن التاسع عشر .

ويمكن القول عموماً إن حظ اليهود فى الأقطار الإسلامية كان خيراً من

حظهم في الأقطار المسيحية . وقد وصفت الليدى مارى ورتلى مونتيجو ،
ربما في شيء من المبالغة حالهم في تركيا عام ١٧١٧ فقالت :

« إن اليهود . . . يتمتعون بسلطان لا يصدق في هذا البلد . فلهم امتيازات
كثيرة يفوقون فيها جميع الأهالى الأتراك أنفسهم . . . لأنهم يحاكمون طبقاً
لقوانينهم . وقد استقطبوا كل تجارة الإمبراطورية في أيديهم ، وذلك بفضل
ما يربطهم من وحدة وثيقة من جهة ومن جهة أخرى لبلادة الترك وافتقارهم
إلى الجلد والاجتهاد . ولكل باشا مساعده اليهودى الذى يدير أعماله . . . وهم
الاطباء ، والوكلاء ، والمترجمون ، لأكابر القوم أجمعين . . . وكثير
منهم ذوو ثراء عريض » (٢٣) .

والبون شاسع بين حظ هؤلاء وحظ اليهود القلائل الموجودين في
روسيا — لاسيا في « أقاليم التخوم » المواجهة لبولنده — عند وفاة بطرس
الأكبر . وفي ١٧٤٢ أمرت الإمبراطورة اليزابث بتروفتنا بأن « يرحل فوراً
من إمبراطوريتنا كلها . . . جميع اليهود . . . ولا يسمح لهم منذ الآن بدخول
إمبراطوريتنا بأية حجة . . . ما لم . . . يعتنقوا الديانة المسيحية على المذهب
الرومى » . وما حلت سنة ١٧٥٣ حتى كان قد طرد قرابة ٣٥,٠٠٠ يهودى (٢٤)
وتشفع بعض رجال الأعمال الروس لدى الإمبراطورة لتخفف من صرامة
المرسوم ، محتجين بأن طرد اليهود قد أحدث كساداً في اقتصاد الأقاليم لأنه
حول التجارة منها إلى بولنده وألمانيا ، ولكن اليزابث لم تلت لها قناة .

فلما أن تربعت العرش كاترين الثانية أرادت أن تسمح بدخول اليهود
من جديد ، ولكنها أحست بأن هذا العرش يهتز من تحتها اهتزازاً لا يتجرؤ
معه على التصدى لمعارضة رجال الدين . غير أن التقسيم الأول لبولنده أوصل
المشكلة إلى مرحلة جديدة . فإلى العمل في ٢٧,٠٠٠ يهودى طال مقامهم في
ذلك الجزء من بولنده الذى ظفرت به روسيا الآن ؟ لذلك أعلنت كاترين
(١٧٧٢) أن « الجماعات اليهودية المقيمة في المدن والأقاليم التى أدبجت الآن
في الإمبراطورية الروسية تترك لتتمتع بجميع الحريات التى تملكها الآن » (٢٥) .
وسمح هؤلاء اليهود البولنديين بقسط كبير من الحكم الذاتى ، وأجيز لهم

شغل المناصب البلدية ، ولكن حرم عليهم الهجرة من « نطاق الاستيطان » (الأقاليم البولندية السابقة) إلى داخل روسيا . وفي ١٧٩١ أبيع لليهود أن يستوطنوا أقاليم خرسون وتاوريدا وإكاترينوسلاف سبيلا إلى التعمير السريع لهذه الأقاليم المفتوحة حديثاً وتيسير الدفاع عنها . وكان العداء الإقتصادي لليهود الذي يلقونه من معظم رجال الأعمال الروس ، والعداء الديني الذي يلقونه من عامة الروس ، يجعلان الحياة أثناء ذلك شاقة خطيرة على اليهود في الإمبراطورية .

وفي ١٧٦٦ كان يسكن بولنده ٦٢١,٠٠٠ يهودي^(٢٦) . وقد صدق أوغسطس الثاني وأغسطس الثالث على « امتيازات » الحماية التي منحها لهم الحكام السابقين ، ولكن هذين الحاكمين السكسونيين ، المشغولين بمملكتين ومنذهبين دينيين (فضلاً عن خليطيهما) ، لم يتح لهما وقت يذكر للتصدي لذلك العداء العرقي الذي استشعرته الجماهير البولندية نحو اليهود . ففرضت . الحكومة عليهم ضرائب إضافية ، وحاول الإقطاعيون الهبوط بهم إلى درك الإقنان ، وكلفهم الحكام المحليون ثمناً باهظاً لحمايتهم من عنف الغوغاء . وندد القساوسة باليهود لأنهم « متشبهون بكفرهم » وطالب مجمع كنسي عقد في ١٧٢٠ بأن تحظر الحكومة « بناء المجمع الجديدة لليهود وترميم القديمة منها » . وكرر مجمع عقد في ١٧٣٣ مبدأ العصر الوسيط القائل بأن المبرر الوحيد للتسامح مع اليهود هو أنهم قد يصلحون « أداة للتذكير بعذابات المسيح ، ومثلاً يضرب - بعبوديتهم وبؤسهم - للعقاب العادل الذي ينزله الله بالكافرين »^(٢٧) .

وفي ١٧١٦ نشر عبراني دخل في المسيحية يدعى سيراфинوفتش كتاباً اسمه « فضح الشائعات اليهودية » اتهم فيه اليهود باستعمال دم المسيحيين لشق الأغراض السحرية : لتلطخ أبواب المسيحيين ، ولزجه بالفطير الذي يأكلونه في الفصح ، ولغمس قطعة قماش فيه محتوية على تزيمة يقصد بها حماية بيت أو انجاح تجارة وتحدى اليهود سيراфинوفتش أن يثبت صحة دعاواه ، وجمعوا مجلساً من الحاخامات والأساقفة ليستمعوا إليه ، ولكنه لم يمثل أمام المجلس ، بل أعاد نشر كتابه^(٢٨) . وقد اتهم اليهود غير مرة بقتل

الأطفال للحصول على دم مسيحي ، واستدعى يهود بولنديون لمحاكمتهم على تهم كهذه في ١٧١٠ و ١٧٢٤ و ١٧٣٦ و ١٧٤٧ و ١٧٤٨ و ١٧٥٣ و ١٧٥٦ و ١٧٥٩ و ١٧٦٠ ، وعذبوا في حالات كثيرة ، حتى الموت أحياناً ، وسلخت جلود بعضهم أحياء ، ومات بعضهم بالخازوق موتاً بطيئاً . . . (٢٩) وفزع اليهود المروعون إلى البابا بندكت الرابع عشر ليكشف عنهم هذه الاتهامات ، وعرضت أدلة الإثبات والنفي على الكردينال كامبانيلي ، وبعد أن تلقى تقريراً من الفير البابوي في وارسو ، أصدر مذكرة مؤداها أنه لم يثبت في حالة من هذه الحالات أنهم مذنبون . وأيدت محكمة ديوان التفتيش بروما مذكرة الكردينال . وكتب السفير البابوي للحكومة البولندية (١٧٦٣) يقول « ان الخبر الأقدس ، بعد فحص كل الأسس التي قام عليها اتهامهم بهذا الشذوذ — وهو أن اليهود يحتاجون إلى الدم البشري لتجهيز فطيرهم ، نخلص إلى أنه ما من دليل يثبت صحة ذلك الاتهام المغرض » (٣٠) . وكان البابا انوسنت الرابع قد أصدر حكماً مماثلاً في ١٢٤٧ . ولكن الاتهام بالشذوذ لم يتوقف .

وكان الخوف من المذابح عنصراً يتردد في حياة اليهود البولنديين . ففي ١٧٣٤ و ١٧٥٠ و ١٧٦٨ تألفت جماعات من القوزاق والفلاحين الأرثوذكس الروس الذين نظموا على شكل عصابات مثيرة للشغب ، وشنت الغارات على كثير من المدن والقرى في أقاليم كييف وفولينيا وبودوليا ، وينهبون الضياع ويقتلون اليهود . وفي ١٧٦٨ حمل المغيرون « مرسوماً ذهبياً » نسب زوراً وبهتاناً إلى كاترين الثانية ، ويدعوهم إلى « استئصال شأفة البولنديين واليهود ، الذين يدنسون ديانتنا المقدسة » ، وذبحوا في مدينة واحدة هي أومان عشرين ألف بولندي ويهودي . وجردت كاترين جيشاً روسياً يتعاون مع القوات البولندية على قمع المغيرين (٣١) .

أما في المانيا فإن اليهود كانوا يعيشون في أمن ورخاء نسبيين وإن عانوا من شتى المعوقات في الحياة الاقتصادية والسياسية . فقد فرضت عليهم ضرائب خاصة في معظم الإمارات (٣٢) . ولم يسمح القانون إلا لعدد محدود من اليهود بالعيش في برلين ، ولكن القانون لم ينفذ بدقة ، فزادت الجالية

البرليزية عدداً ومالا ، وقامت مستوطنات مماثلة في هامبورج وفرانكفورت .
وبلغ عدد من اختلف من التجار اليهود إلى سوق ليننيزج في ١٧٨٩ نيفاً
وألف تاجر^(٣٣) . واستخدم الحكام الألمان ، وحتى الأمراء - الأساقفة
الكاثوليك منهم ، اليهود لإدارة شئونهم المالية أو لتموين جيوشهم . وقد أدى
يوزف أوبنهايمر (١٦٩٢ - ١٧٣٨) المعروف باسم « اليهودي سوس »
هذه المهام وغيرها لئلا ينجب باللاتين في مانهايم ، ولكارل الكسندر دوق
فورتمبرج . وكان لذكائه واجتهاده الفضل في إثرائه وإثراء الدوق ، وفي
اكتسابه الكثير من الأعداء . وقد اتهم بالغش في دار ضرب النقود ، ولكن
مجلساً من المحققين برأ ساحته ، فرقي عضواً في مجلس الدوق الخاص ،
حيث لم يلبث أن أصبح القوة المسيطرة . وقد ابتكر ضرائب جديدة ،
وأنشأ احتكارات ملكية ، وقبل على ما يبدو الرشا - التي اقتسمها مع
الدوق^(٣٤) . فلما اقترح الدوق ابداع جميع أموال الكنيسة في مصرف
مركزي للدولة ، انضم رجال الدين البروتستانت مع الإشراف في معارضة
الدوق ووزيره . وفي ٣ مارس ١٧٣٧ مات الدوق فجأة ، فقبض قادة
الجيش والزعماء المدينون على أوبنهايمر وكل يهود شتوتجارت ، وحوكم
أوبنهايمر وادين ، وفي ٣ فبراير ١٧٣٨ خنق وعُلقت جثته في قفص في
ميدان عام^(٣٥) .

ذكرنا من قبل جولات جوته في حى اليهود بفرانكفورت . وقد
اشتقت أسرة من أقدم الأسرات هناك اسمها الأخير ، وهوروتشيلد ،
من الدرع الحمراء التي ميزت مسكنها . وفي ١٧٥٥ أصبح ماير أمشيل
صاحب الدرع الحمراء رب الأسرة بعد وفاة أبويه ، وكان في
الحادية عشرة من عمره . وكانت كثرة الدويلات الألمانية ، وكل لها
عملتها المستقلة ، قد جعلت تغيير النقود ضرورة متكررة للمسافرين ؛
وتعلم ماير في صباه معادلات النقود بين الدويلات ، فكان يتقاضى رسماً
صغيراً على كل تحويل . ثم درس علم العملات هواية جانبية وجمع
العملات النادرة ، وأرشد جماعاً آخر هو الأمير فلهلم الهاناوى وحصل منه
على لقب « وكيل التاج » الذي ساعده في عمله بفرانكفورت . ثم تزوج

في ١٧٧٠ ، وأنجب خمسة أبناء ، أنشأوا فيما بعد فروعاً لشركة روتشيلد في فيينا ونابلي وباريس ولندن . واكتسب ماير سمعة الحكم السديد والنزاهة والجدارة بالثقة . فلما ان خلف فلهم أمير هاناو آياه حاكماً على هسي كاسل ، ازداد تعامل ماير أمشيل مع القصر ، فها وفي عام ١٧٩٠ حتى بلغ دخله السنوي ثلاثة آلاف جولدن - وهو ما يعادل دخل أبي جوته الثرى ستمائة مرة (٣٦) . ونمت ثروة الأسرة نمواً سريعاً خلال حروب الثورة الفرنسية ، وشغل ماير بتموين الجيوش ، وعهد إليه بإخفاء أموال الأمراء وأحياناً باستثمارها .

وواصل اليهود في الأراضي الواطئة واسكندناوه تمتعهم بحرية نسبية . وازدهرت جماعة أمستردام اليهودية . ولم تعرف الأحياء المقصورة على اليهود في الدنمرك ، فقد تنقل اليهود بحرية وسمح بالزيارات المختلطة . وفي ألتونا ، المدينة التجارية الواقعة وراء نهر ألب من هامبورج ، والتي كانت آنئذ ملكاً للدنمرك ، عاشت جالية من أغنى الجاليات اليهودية في أوروبا . وفي السويد بسط جورستاف الثالث حمايته على اليهود في ممارستهم السلمية لشعائهم .

ووجد كثيرين من اليهود الهاربين من الاضطهاد في بولنده وبوهيميا الملجأ في انجلترا . وزاد عددهم من ٦,٠٠٠ في ١٧٣٤ إلى ٢٦,٠٠٠ في ١٨٠٠ ، وكان نصيب لندن منهم ٢٠,٠٠٠ . وكانوا يعيشون في فقر مدقع ، ولكنهم رعوا فقراءهم وتكفلوا بنفقات مستشفياتهم (٣٧) . وكان تعقب اليهود ومطاردتهم رياضة محببة للناس ، اضمحلت حين تعلم اليهود الملائكة وغدا أحدهم بطل الملائكة القوي (٣٨) . وقد أقصى شرط حلف يمين الولاء للمسيحية اليهود عن الوظائف المدنية والحربية . وأصبح سامسون جدعون أحد محافظي بنك انجلترا بعد أن قبل الدخول في المسيحية . وفي ١٧٤٥ ، حين كان الشاب المطالب بالعرش يزحف على لندن بجيش اسكتلندي أخذ على نفسه العهد بخلع جورج الثاني ورد آل ستيوارت إلى العرش ، فأصاب الذعر بجاهير الشعب بعد أن فقدوا الثقة في أمن الحكومة وسلامها وهددوا بالتراجع على المصرف لاسترداد ودائعهم ، في هذا الظرف قاد

جدعون التجار والأعيان اليهود لإنقاذ المصرف ، فتدفقت أموالهم الخاصة فيه ، وتعهدوا بقبول بنكنوت المصرف بالقيمة الاسمية في معاملاتهم التجارية ووفى المصرف بالتزاماته ، وأعيدت الثقة ، ورد المطالب بالعرش على أعقابها (٣٩) .

وأعربت وزارة الأحرار (الهوجز) عن تقديرها لصنيع اليهود بتقديمها مشروع قانون إلى البرلمان (١٧٥٣) يبيح الجنسية والمواطنة لجميع اليهود المولودين في الخارج والذين أقاموا في إنجلترا أو أرلنده ثلاثة أعوام ، (أما اليهود المولودين هناك فكانوا يكتسبون الجنسية بلولد (٤٠) . ووافق اللوردات والأساقفة على المشروع ، ووافق عليه أعضاء مجلس العموم بأغلبية ستة وتسعين صوتاً مقابل خمسة وخمسين . ولكن الشعب البريطاني الذي لم يكن له كبير علم أو فهم للدور الذي لعبه اليهود في إنقاذ المصرف هب معارضاً مشروع القانون معارضة ساحقة . وانهالت الاحتجاجات على البرلمان من كل مدينة في بريطانيا تقريباً ، وأجمعت المنابر والحانات على إدانته ، وشكا التجار من أن منافسة اليهود لهم في التجارة ستصبح أمر لا يحتمل . وكان الشتم والإهانة في الشوارع نصيب الأساقفة الذين صوتوا للمشروع ، وبعثت الأساطير القديمة التي ادعت قتل اليهود للمسيحيين طبقاً لشعائهم ، وأذيعت مئات النشرات والقصائد الشعبية والصور الكاريكاتورية والأهاجى الساخرة ، وزين النساء ثيابهن وصدورهن بالصلبان ولبسن أوشحة تحمل هذا الشعار « لايهود ، المسيحية إلى الأبد » (٤١) . وخاف زعماء الأحرار الهزيمة في الانتخاب القادم فحصلوا على إلغاء القانون (١٧٥٤) .

٢ - العزاء الصوفي

ولاذ كثير من اليهود ، لاسيما في بولنده ، بأسباب العزاء فوق الطبيعي هرباً من معاناتهم الأرضية . وأتلف بعضهم بصرهم بإدمان قراءة التلمود ، وفقد بعضهم عقولهم في القبلائية ، وظل بعض « الدسباطيين » يؤمنون بألوهية صبطاي زيفي رغم ارتداد هذا المسيح الكاذب وموته ، وانصرفوا عن اليهودية التلمودية إلى الآمال والقموس المهرطقة . وأقنع يانكييف ليبوفتش ،

الذى أصبح معروفاً باسم يعقوب فرانك الذى أطلقه عليه الترك ، مئات من اليهود البولنديين بأن روح زينى تقمصته ، وعلمهم عقيدة شبيهة بهرطقة مسيحية لطيفة تصورت الثلاث مؤلفاً من الله الآب ، ومريم المم ، والمسيح ابنهما ، وأخيراً قاد اتباعه إلى الكنيسة الكاثوليكية (١٧٥٩) .

وأنقذت الحركة « القاصدية » اليهود البولنديين بعض الإنقاذ من حالتهم الوضعية . وكان مؤسس « عقيدة التقوى » هذه اسراييل بن ألعازر ، المعروف باسم بعل شم - توب (« السيد الصالح لاسم الله ») ، واختصاراً باسم « بشت » الجامع لأول حروف اسمه الكامل . وكان يجوب البلاد معلماً للأطفال ، وعاش في فقر تجمله البهجة ، وكان يصلى بانتشاء ويشفى المرضى شفاء « معجزياً » بالأعشاب الجبلية . وقد طلب إلى اتباعه ألا يعبروا طقوس المجمع والمعرفة التلمودية كبير اهتمام ، وان يقتربوا إلى الله رأساً في شركة متواضعة ولكنها حميمة . وان يبصروا الله ويحبوه في شتى صور الطبيعة ومظاهرها ، في الصخور والأشجار ، وفي حالات اليسر والألم ؛ وأمرهم بأن يستمتعوا بالحياة في الحاضر بدلا من البكاء على خطايا الماضي وآلامه . وكانت أقواله الماثورة البسيطة أحيانا تشبه أقوال المسيح . « شكا بشت أن ابنه ترك الله ، وسأله قائلاً : يا معلم ، ماذا أصنع ؟ وأجابه بشت : أحبه أكثر مما فعلت في أى وقت » (٤٢) .

والحركة القاصدية في بولنده تقابل من بعض الوجوه حركات الأخوان الموافين . والتقريين الألمان ، والمثوديين الانجليز ؛ فقد اتفقت مع هذه الحركات على اخراج الدين من المعبد وإدخاله إلى القلب ، ولكنها رفضت النسك والاكثاب ، وأمرت اتباعها بأن يرقصوا ، ويستمتعوا بعناق أزواجهم ، لا بل بالشراب بين الحين والحين إلى حد النشوة .

فلما مات بعل شم - توب (١٧٦٠) تولى رعاية قطيعه ، وأحيانا جز صوفه ، (٤٣) سلسلة من « الصديقين » . وحارب التلموديون السنيون بزعماء عالم متعصب من فلنا يدعى إيليا بن سليمان « القاصدين » بالنصح والحرم ، ولكن عددهم زاد بانهار بولنده (١٧٧٢ - ٩٢) ، ولم يختتم القرن حتى كانوا يعاون ١٠٠,٠٠٠ نسمة (٤٤) .

وما كان لحياة •الارادة على الأرض على هذا النحو ، ونفوس مثبتة في السماء إلى هذا الحد ، ان تسهم بقسط كبير في الأدب الديني أو العلم أو الفلسفة . وكان اليهود في كل بلد تقريباً ممنوعين من الالتحاق بالجامعات بحكم القسم بالولاء للعتيدة المسيحية المشروط على جميع الطلاب . ثم ان ناموس موسى حرم عليهم ممارسة فن التصوير وبلد تذوقهم الفني . ولذا كانوا يكتبون بالعبرية التي لا تفهمها غير قلة قليلة ، أو بالييدية التي لم تكن بهد قد أصبحت لغة أدبية ، فقد افتقدوا الحافز لإنتاج أى أدب خلاف الشروح الدينية أو السفساف الشعبية . وثمة اسهام بارز واحد أسهموا به في الفنون العملية في هذا العصر : فقد اخترع يعقوب رودريج برير ، وهو أحد يهود بوردو ، لغة إشارات للصم والبكم ، فأنشئ عليه ديدرو ودالامير وروسو وبوفون . ثم شاعر يهودى واحد أنار هذه الظلمة .

وقد ولد الشاعر موسى حاتم لونساتوا في إيطاليا (١٧٠٧) لوالدين أتاح لهما بعض اليسر أن يحسنا تعليمه . وقد أخذ عن الشعراء اللاتين ، وعن الشعراء الإيطاليين من أمثال جواريني ، براعة في الأوزان الشعرية . مكنته من أن يسبغ على شعره العبرى من الإيقاع المتدفق والسحر الرقيق ما لم يعرف في تلك اللغة منذ أيام يهوذا هاليني . وحين بلغ السابعة عشرة كتب مسرحية عن شمشون والفلسطينيين . ثم أقبل على دراسة « الزهر » ، وهو كتاب القبلانية المقدسة ، فافتن خياله بأوهامه الصوفية ، فأدار بعضها شعراً ، وأدارت هي رأسه فخيّل إليه انه ملهم من السماء . فكتب « زهرا » ثانياً ، وأذاع انه المسيح الذى وعد به اليهود . فحرمه حاخامات البندقية (١٧٣٤) . ففر إلى فرانكفورت — على المين ، حيث أجبره الحاخامات على الوعد بالإقلاع عن أوهامه بأنه المسيح المنتظر . وانتقل إلى أمستردام حيث رحبت به الجالية اليهودية ، وهناك كسب قوته كما كسبه سبينوزا بصقل العدسات ، ثم استأنف دراساته القبلانية . وفي ١٧٤٣ ألف مسرحية عبرية « لا — ي أشاريم تهيللا (مجداً للأبرار) كان حظها التقريظ ممن كانوا أكفأ للحكم عليها ، برغم التجريدات التي استخدمها شخصاً للمسرحية .

ومؤدى المسرحية أن الجهل المستشري بين العوام ، يدعّم المكر والخداع ، يولد الخيانة ، التى تحبط بالحكمة مراراً ، وتحرم الكفاية من تاجها ، حتى ينتصر العقل والصبر فى النهاية على الخداع بالكشف عن الحقيقة ، على أن « الحقيقة » كان يقصد بها القبلانية . وفى ١٧٤٤ ذهب إلى فلسطين ، أملاً فى أن ينادى به المسيح المنتظر ، ولكنه مات فى عمكا بالطاعون (١٧٤٧) وهو فى التاسعة والثلاثين . وكان آخر صوت فصيح لعصر اليهودية الوسيط ، كما كان أول صوت كبير ليهودية تنبعث من العزلة الواقعة إلى الاحتكاك بالفكر الحديث .

٣ — موسى مندلسون

كان جده فيليكس مندلسون من أنبل شخصيات القرن الثامن عشر ، وكان صديقاً وخصماً أكانط ، وصديقاً وملهماً لليسنج . وكان أبوه مناحم مندل كاتباً ومعلمًا بمدرسة يهودية فى دسو . وهناك ولد « موسى الثالث » فى ٦ سبتمبر ١٧٢٩ ، وشب مشغولاً بالدرس حتى لقد أصابه شغفه هذا بتقوس مستديم فى العمود الفقري . فلما بلغ الرابعة عشرة أوفد إلى برلين لمزيد من دراسة التلمود ، وهناك اتبع بخذافيره تقريباً أمر التلمود الذى نصه « كل الخبز بالملح ، واشرب الماء بمقدار ، ونم على الأرض اليابسة ، وعش عبشة الحرمان ، وليكن الناموس شغلك الشاغل »^(٤٥) . وظل سبع سنين قانعاً بسكناه فى إحدى العليات يعلم رغيف خبزه الأسبوعى بخطوط تحدد جراته اليومية^(٤٦) ، ويكسب الرزق الضئيل بنسخ الوثائق بخطه الأنيق . وفى برلين أكب على آثار موسى بن ميمون ، ووجد الشجاعة فى حياة « موسى الثانى » ذاك وتعلم منه ومن الحياة أن ينزل بكبريائه إلى التواضع وبحدة طبعه إلى اللطف والمجاملة . وعلمه رفقاؤه البرلينيون اللاتينية والرياضيات والمنطق ، وقرأ لوك فى ترجمة لاتينية ، وانتقل إلى ليبنتس وفولف ، ولم يلبث أن عشق الفلسفة . ثم تعلم كتابة الألمانية فى نصاعة رقيقه ندر أن تجد لها نظيراً فى أدب وطنه فى جيله .

وانتهت أيام فقره حين أصبح في الحادية والعشرين معلماً خاصاً في أسرة صاحب مصنع حرير في برلين يدعى إسحاق برنهارت ، وبعد أربع سنوات عين محاسباً بالشركة ثم مندوباً متجولاً لها ، وأخيراً شريكاً فيها . وقد احتفظ بصلة العمل هذه بنشاط حتى نهاية عمره ، لأنه اعتزم ألا يعتمد في رزقه على رواج كتبه وحصيلتها من المال . والراجح انه التقى بليسنج في ١٧٥٤ ، على لعبة شطرنج فيما يبدو ، وهكذا بدأت صداقة اتصلت حتى موت ليسنج رغم ما بينهما من خلافات فلسفية . كتب ليسنج إلى صديق آخر في ١٦ أكتوبر ١٧٥٤ يقول : « ان مندلسون رجل في الخامسة والعشرين ، اكتسب دون أى تعليم جامعي معلومات كبيرة في اللغات والرياضيات والفلسفة والشعر . وانى لأتطلع فيه إلى مفعرة لأمتنا إذا أتاح له اخوانه في الدين أن يعصل إلى درجة النضج . . . وأن صراحته وروحه الفلسفية ليجعلانني أعده سلفاً ، اسبينوزا ثانياً » (٤٧) . أما مندلسون فكان يقول ان كلمة ود أو نظرة محبة من ليسنج تطرد عنه كل حزن أو غم (٤٨) .

وفي ١٧٥٥ رتب ليسنج نشر كتاب مندلسون « أحاديث فلسفية » ، الذى شرح ودافع عن كلا من سبينوزا وليبنيتس . وفي العام ذاته تعاون الصديقان على كتابة مقال « بوب ميتافيزيقيا ! » زعما فيه أن هذا الشاعر الانجليزى لم يكن له فاسفة من بنات أفكاره ، وكل ما فعله أنه نظم فلسفة ليبنيتس شعراً . وفي ١٧٥٥ أيضاً نشر مندلسون « رسائل في الوجدان » ، وقد سبق هذا كانت في رأيه أن الإحساس بالجمال مستقل كل الاستقلال عن الشهوة . وقد اكسبت هذه الكتب المنشورة اليهودى الشاب الترحيب في برلين بين « الإخوان الفلاسفة الذين لم يكونوا على تمام الصفاء والرزانة » . وعن طريق ليسنج التقى بفردريش نيقولاى ، ودرس هو ونيقولاى اليونانية معاً ، وما لبث أن بدأ يقرأ أفلاطون في لغته الأصلية . ثم ساعد نيقولاى في إنشاء مجلة سميت « مكتبة الآداب البحتة والفنون الجميلة » ، وأسهم في هذه المجلة وغيرها من المجالات بمقالات كان لها تأثير قوى في الأفكار السارية في نقد الأدب والفن .

وأحس مندلسون الآن بقدر من الأمن والطمأنينة يتيح له أن يقيم بيتاً

خاصاً به . ففي ١٧٦٣ ، وهو في الثالثة والثلاثين ، قروج فرومريت جرحهمايم
البالغة خمسة وعشرين ربيعاً . وكان كلاهما قد بلغ سن النضج الفكري ،
فأثمر اتحادهما الكثير من السعادة . وفي شهر العسل بدأ العمل في مسابقة قدمت
فيها أكاديمية برلين جائزة لأفضل مقال يتناول هذا الموضوع « هل العلوم
الميتافيزيقية تقبل الأدلة كالعلوم الرياضية » . وكان من المتسابقين إيمانويل
كانط . وفاز مقال مندلسون (١٧٦٣) ، فأثاه بخمسين دوقاتية وبشهرة
دولية .

وكان بين المتسابقين توماس آبت ، وهو أستاذ في فرانكفورت — على
الأودر . وفي رسائل كثيرة تبادلها مع مندلسون أعرب عن شكوكه في خلود
الروح ، وأسف على أن فقدان ذلك المعتقد قد يقوض الناموس الأخلاقي
ويحرم التعساء من آخر عزاء لهم . وبعض الفضل راجع إلى هذه الرسائل
في وضع مندلسون لأشهر كتبه قاطبة « فيدون » . وقد صاغه على مثال
نموذجه الأفلاطوني في شكل حوار وفي أسلوب ميسر . فروح الإنسان (كما
يزعم) متميزة من المادة بشكل واضح ، إذن لنا أن نعتقد أنها لا تشارك الجسد
مصيره ؛ وإذا كنا نؤمن بالله فإننا لانستطيع الافتراض بأنه يخذعنا إذ يغرس
في عقولنا آملا دون أن يكون له أساس من الحقيقة . يضاف إلى هذا (وهو
ما سيذهب إليه كانط) ان للروح حافظاً طبيعياً نحو كمال الذات ؛ وهذا
لا يمكن تحقيقه في حياتنا ؛ ولا بد أن الله يسمح للروح بأن تحيا بعد موت الجسد .
وقد شعر منذ لسون بأنه « بدون الله ، والعناية الإلهية ، والخلود » تفقد كل
طبيات الحياة قيمتها في نظري وتصبح حياتنا على الأرض . . . أشبه بالتيهان
في الريح والمطر دون أمل يعزى النائه بالعشور على غطاء ووقاء في الليل » (٤٩) .
وبراهين الكتاب هشة ، ولكن أسلوبه أبهج قراء كثيرين ، ولاح أن الكاتب
ظفر باستعادة سحر محاورات أفلاطون ، والواقع أن لقب « أفلاطون الألماني »
اسماً ثانياً لمندلسون . وطبعت من الكتيب خمس عشرة طبعة وترجم إلى جميع
اللغات الأوروبية تقريباً كما ترجم إلى العبرية ، وكان في جملة أوسع الكتب
انتشاراً في ألمانيا باستثناء القصص . ويشارك هرذر وجوته في تقيظه .

وزار لافاتر مؤلفه ، وفحص رأسه ووجهه ، وأعلن أن كل نتوء وخط فيه يشي بروح سقراط^(٥٠) .

وأشاد المسيحيون على اختلاف مذاهبهم باليهودي البليغ ، والتمس منه راهبان بندكتيان النصيحة الروحية . ولكن في ١٧٦٩ أثار لافاتر ، الذي كان لاهوتياً غيوراً كما كان عالماً في الفراسة ، ضجة بتوجيهه نداء علنياً لمندلسون أن يدخل في المسيحية . ورد مندلسون في « (١٧٧٠) » فسلم بعبوب الديانة اليهودية والحياة اليهودية ، ولكنه ذكر أن عيوباً كهذه تنشأ في كل ديانة في أثناء تاريخها ، وطلب إلى لافاتر أن يفكر في الشدائد التي عاناها اليهود في الأقطار المسيحية ، ثم أضاف : « أن الذي يلم بما نحن عليه الآن من حال ، ان كان له قلب رحيم ، سيفهم أكثر مما في وسعي التعبير عنه » . واختتم بهذه العبارة « انني لو طيد الثقة بالعناصر الأساسية في إيماني . . . بحيث أشهد الله على انني سأثبت على عقيدتي الأصلية ما لم تتخذ روحى طبيعة أخرى »^(٥١) وتأثر لافاتر ، واعتذر بتواضع عن توجيهه هذا النداء^(٥٢) . ولكن نفراً كبيراً من المعلقين شهبوا بمندلسون متهمينه بالكفر ، وأدانه بعض اليهود السنيين لتسليمه بأن هناك نقائص تسلك إلى الشعائر اليهودية^(٥٣) . وظل الجدل حيناً يثير من النقاش أكثر مما تثيره السياسة القومية أو تدهور صحة فردريك ،

وعانت صحة مندلسون نفسه من هذه الضجة ، فاضطر طوال شهر من عام ١٧٧٢ أن يكف عن أى نشاط ذهني . فلما استعاد عافيته كرس من وقته قدرأ أكبر للتخفيف من آلام إخوانه في الدين . وحين تهيأت بعض أقاليم سويسره لفرض مزيد من القيود على اليهود طلب إلى لافاتر أن يتدخل في الأمر ، ففعل ، وكان موفقاً في شفاعته . وحين وضعت سلطات درسدن خطة لطرد مئات من اليهود استعان مندلسون بصدقة تربطه بموظف محلي للحصول على الأمان لهم^(٥٤) . وبدأ في ١٧٧٨ نشر ترجمته للأسفار الموسوية الخمسة ؛ وأصدرها في ١٧٨٣ ، فأثارت عاصفة جديدة . ولكي يكتب بعض الشروح على النص كلف هرتس هو مبرج بالمهمة ، وكان مرتبطاً بيهود من برلين مبتوتى الصلة تماماً بالمجمع اليهودي . وحرّم الترجمة أحبار عديدون ، ولكنها شقت طريقها إلى الجاليات اليهودية ؛ وتعلم شباب

اليهود الألمانية منها ، وتحرك جيل اليهود التالى للمشاركة النشيطة فى الحياة الفكرية لألمانيا . ونشر ليسنج خلال ذلك (١٧٧٩) مسرحيته « ناثان الحكيم » ، التى فسرّها القراء على أنّها تمجيد لصديقه اليهودى .

أما وقد بلغ مندلسون قمة الشهرة والنفوذ ، فإنه أقنع ماركوس هرتس بأن يترجم إلى الألمانية كتاب « الدفاع عن اليهود » الذى وجهه منسى بن اسرائيل إلى الشعب الانجليزى فى ١٦٥٦ . وأضاف إلى الترجمة مقدمة فى « خلاص اليهود » (١٧٨٢) ، ناشد فيها الأحبار أن يتخلوا عن حقهم فى الحرم . وأتبع هذا فى ١٧٨٣ بكتاب بليغ سماه « أورشليم ، أو فى السلطة الدينية والديانة اليهودية » ، أعاد فيه تأكيد إيمانه اليهودى ، وأهاب باليهود أن يخرجوا من عزلتهم وانطوائهم ويدلّوا بدلوهم فى الثقافة الغربية ، وحث على الفصل بين الكنيسة والدولة ، وأدان أى إكراه فى الدين ، وذهب إلى أن الحكم على الدول يكون بقدر اعتمادها على الإقناع لا القوة . وكتب كانط ، الذى كان هو الآن أيضاً فى أوج شهرته ، إلى المؤلف رسالة تستحق أن يفرّد لها مكان فى سجلات الصداقة . قال :

« انى أعد هذا الكتاب بشير إصلاح عظيم لن يؤثر فى شعبك فحسب بل فى الشعوب الأخرى . فلقد وفقت فى الجمع بين دينك وبين قدر من حرية الضمير لم يتصور أحد أنه ميسور . . . ثم انك فى الوقت نفسه أثبتت فى كثير من الواضوح والدقة ضرورة حرية الضمير التى لاحدود لها فى كل دين ، بحيث أن كنيستنا (اللوثرية) ستضطر آخر الأمر إلى النظر فى أن تزيل من وسطها كل شىء من شأنه إقلاق الضمير أو إكراهه » (٥٥) .

وهاجم الكتاب الزعماء السنيون مسيحيين كانوا أو يهوداً ، ولكنه أسهم إلى حد هائل فى تحرير اليهود وتغريبهم .

فى عام ١٧٨٣ لم يكن مندلسون قد تجاوز الرابع والخمسين ، ولكنه كان دائماً رقيق البنية معتل الصحة ، وقد أحس أنه لم يبق له من الأجل كثير . وفى أخريات سنية ألقى على أبنائه وعلى بعض أصحابه محاضرات حدد فيها عقيدته الدينية ، وقد نشرت فى عام ١٧٨٥ باسم « ساعات الصباح أو محاضرات فى وجود الله » . وفى آخر سنة من عمره صدمه أن يقرأ فى كتاب

ألفه ياكوبى أن صديقه العزيز ليسنج ، والذي كان قد فارق الحياة ، اتبع طويلاً عقيدة سبينوزا فى وحدة الوجود ، فلم يستطع أن يصدق الخبر ، وكتب دفاعاً حاراً عن ليسنج عنوانه « إلى أصدقاء ليسنج » . وفيما هو حامل المخطوط إلى الناشر أصيب بنزلة برد ؛ وأثناء مرضه ذاك أصيب بسكتة دماغية أودت بحياته فى ٤ يناير ١٧٨٦ . واشترك المسيحيون مع اليهود فى إقامة تمثال له فى منسقط رأسه دسو .

لقد كان واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً فى جيله . فقد خرج شباب اليهود من عزلتهم بعد أن اهتمهم كتاباته وعبوره الناجح للفواصل الدينية ، ولم يلبثوا أن تركوا بصماتهم على الأدب والعلم والفلسفة . فذهب ماركوس هرتس إلى جامعة كونيغزبرج فى طلب الطب ؛ والتحق بعدة فصول دراسية لكنائس ، وأصبح المساعد والصيديق لفيلسوف المعرفة العظيم . وهو الذى توقف فى منتصف قراءته « نقد العقل الخالص » مخطوطاً مخافة أن يصاب بالجنون إذا مضى فى القراءة إلى النهاية . فلما نقل إلى برلين ، اشتغل بالطب وكثر زبائنه ، وألقى محاضرات فى الفيزياء والفلسفة على جمهور من المسيحيين واليهود . وافتتحت زوجته الجميلة المثقفة هنرييتا صالوناً كان فى نهاية القرن ملتقى هاماً لمفكرى برلين ؛ وإليه اختلف فلهم فون همبولت ، وشلاير ماخر ، وفريد ريش شليجل ، وميرابو الابن . . . ولعل اختلاط الأفكار الذى تمحضت عنه هذه اللقاءات ما كان ليسر مندلسون . فقد دخل عدد من أبنائه فى المسيحية . واشترك ابنتان من بنائه مع هنرييتا هرتس وغيرها فى « رابطة للفضيلة » تحترم « الانجذابات العاطفية » أكثر من الولاء الزوجى . وكان لهنرييتا علاقة غرام بشلاير ماخر ؛ وهجرت دوروتيا مندلسون زوجها لتصبح خليلية فزوجة وفية لفريد ريش شليجل ، وأخيراً تابعة للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ؛ كذلك اعتنقت هنرييتا مندلسون العقيدة الرومانية ، وجعل أبراهام مندلسون أبنائه ، ومنهم فيلكس ، يعملون فى الكنيسة اللوثرية ؛ وزعم الخاخامات السنيون أنهم كانوا على حق فى مخاوفهم . ولكن هذه كانت نتائج عارضة للحرية الجديدة ؛ أما النواحي الأبقى على الزمن فى تأثير مندلسون فقد ظهرت فى تحرير اليهود فكرياً واجتماعياً وسياسياً .

٤ - نحو الحرية

وفي هذه الحقبة اتخذ التحرير من الناحية الفكرية ، شكل « المسئلة » - وهي كلمة كانت تعنى الحكمة ، ولكنها أصبحت في هذا السياق ترمز إلى التنوير اليهودي ، أو تمرد عدد متزايد من اليهود على سيطرة الأحرار والتلمود ، وتصميمهم على أن يندمجوا اندماجاً نشيطاً في تيار الفكر الحديث . وتعلم هؤلاء المتمردون الألمانية ، وتعلم بعضهم الفرنسية - لا سيما في أسر التجار أو المالين ؛ وقرأوا مؤلفات أحرار الفكر الألمان أمثال ليسنج ، وكانط ، وفيلاند ، وهردر ، وشيلر ، وجوته ؛ وكثيرون نقبوا في أعمال فولتير ، وروسو ، وديدرو ، وهلفتيوس ، ودولباخ . ووقع انقسام بين اليهود المتحررين المقبلين على الحداثة ، واليهود المحافظين الذين شعروا بأن الولاء للتلمود والمجمع هو الطريق الأوحى للحفاظ على الوحدة الدينية والعرقية والأخلاقية للشعب اليهودي .

وانتشرت حركة المسئلة من ألمانيا جنوباً إلى غاليسيا والنمسا ، وشرقاً إلى بوهيميا وبولنده وروسيا . وزاد من سرعتها في النمسا ترخيص التسامح الذي أصدره يوزف الثاني ، والذي دعا اليهود إلى دخول المدارس غير اليهودية . فلما عارض الأحرار المحافظون ، ناشدهم شاعر يهودي هامبورجي يدعى نفتالي فيسيلي ، في بيان يهودي بليغ ، أن يباركوا اشتراك اليهود في التعليم العلماني ؛ وحث الجيل الصاعد على أن يحلوا العبرية والألمانية محل اليبدية ، وأن يدرسوا العلوم والفلسفة كما يدرسون التوراة والتلمود . وقد رفض أحرار النمسا آراءه ؛ ولكن قبلها زعماء اليهود في تريسته والبندقية وفرارا وبراغ . ومنذ ذلك الحين إلى وقتنا هذا أسهم اليهود في العلم والفلسفة والأدب والموسيقى والقانون بقدر يفوق كثيراً نسبتهم إلى عدد السكان .

وأعانت التطورات الفكرية والاقتصادية على تحرير اليهود . فنشر الدارسون الكاثوليك من أمثال رتشرد سيمون المعارف الربانية بين طلاب الكتاب المقدس ؛ وألف لاهوتي بروتستنتي يدعى جاك باناج كتاباً مشرباً بروح الود يسمى « تاريخ ديانة اليهود » (١٧٠٧) . وجمع نمو التجارة

والمالية بين المسيحيين واليهود في اتصالات أججت أحياناً نار الخصومة العرقية ، ولكنها كثيراً ما خففت منها . ولعب المالئون اليهود في عدة حكومات أدواراً تجلت فيها روح العون والوطنية .

وارتفعت الآن أصوات مسيحية تقترح إنهاء الاضطهاد الديني ، ففي ١٧٨١ نشر كرستيان فاهلم دوم ، وكان صديقاً لمندلسون ، بناء على اقتراحه نبذة خطيرة الأثر سماها « في تحسين الأحوال المدنية لليهود في ألمانيا » . وكانت المناسبة نداء وجهه يهود الألزاس إلى مندلسون يطلبون إليه كتابة احتجاج على القيود المفروضة عليهم . واضطلع دوم بالمهمة ، ووسعها إلى نداء عام لتحرير اليهود . . ووصف في تفصيل مؤثر ، المعوقات التي يعاينها اليهود في أوروبا ، وأشار إلى فداحة الخسارة التي خسرتها الحضارة الغربية لأنها لم تفد فائدة تذكر من مواهب اليهود العقلية — « ان مبادئ التفرقة هذه ، المنافية للإنسانية والسياسية على حد سواء ، تحمل طابع العصور المظلمة ، وهي غير جديرة بتنوير عصرنا هذا » ^(٥٦) واقترح دوم السماح لليهود بحرية العبادة الكاملة وبالالتحاق بمعاهد التعليم ، وبممارسة جميع المهن والحرف ، وبإعطائهم جميع الحقوق المدنية ، ويستثنى منها مؤقتاً اختيارهم للمناصب وهو ما لم يكونوا بعد مهيين له .

وأثارت الرسالة التعليق في أقطار كثيرة ، فاتهمه بعض خصومه بأنه باع قلمه لليهود ، ولكن العديد من رجال الدين البروتستانت سارعوا إلى الدفاع عنه . وأيده المؤرخ السويسري يوهان فون مولر ، وطلب ترجمة أعمال موسى بن ميخون إلى الألمانية أو الفرنسية . واكتسبت حركة التحرير دفعاً من براءة التسامح الصادرة في ١٧٨٢ بالنمسا ومن تحرير اليهود السياسي في الولايات المتحدة (١٧٨٣) . واستجابت الحكومة الفرنسية استجابة هزيلة برفع الضرائب الشخصية (١٧٨٤) التي أثقلت كواهل اليهود . واشترك الماركيز ميرابو مع ماليرب في تحقيق هذا التخفيف ، وساعد الحركة ابنه الكونت ميرابو بمقاله « عن مندلسون والإصلاح السياسي لليهود »

(١٧٨٧) ودفع الأب هنرى جريجوار الحركة بكتابته مقالا نال جائزة في مسابقة عن « الأحياء المادى والخلقى والسياسى لليهود » (١٧٨٩) .

على أن التحرير السياسى النهائى لم يأت إلا مع الثورة . فتمدحتواه ضمنا إعلان حقوق الإنسان الذى أذاعته الجمعية الوطنية (٢٧ أغسطس ١٧٨٩) ، وفى ٢٧ سبتمبر ١٧٩١ وافقت الجمعية التأسيسية على إعطاء كامل الحقوق المدنية لليهود فرنسا . وجاءت جيوش الثورة أو جيوش نابليون بالحرية لليهود هولنده فى ١٧٩٦ . وليهود البندقية فى ١٧٩٧ ، وما بنز فى ١٧٩٨ ، وروما فى ١٨١٠ ، وفرانكفورت فى ١٨١١ . وهكذا اختتمت حقبة العصور الوسطى بالنسبة لليهود .



الفصل الثاني والعشرون

من جنيف إلى استوكهولم

١ - السويسريون : ١٧٥٤ - ١٧٩٨

ان الذين استمتعوا منا بالهدوء وسط جنة الطبيعة في سويسرة ، وبالإلهام من شجاعة شعبها وأمانته ، يشق عليهم أن يدركوا أن من تحت الخلق الهادئ ، والفلاحة الصابرة ، والصناعة المستقرة التي أعجبت بها أوروبا يومها وتعجب بها الآن ، كانت تكمن الصراعات الطبقيّة - صراعات بين الجنس والجنس - وبين اللغة واللغة ، وبين العقيدة والعقيدة ، وبين الأقليم والأقليم ، وبين الطبقة والطبقة . وكان السويسريون في نطاقهم المتواضع قد اقتربوا جداً من تحقيق ذلك المثل الأعلى الذي صورّه الأب سان -- بيير وحلم به روسو وكانط : وهو الاتحاد الكونفدرالي يعقد بين دويلات مستقلة في شئونها الداخلية ، ملتزمة بالعدل الموحد في علاقاتها بالعالم المحيط بها . ففي ١٧٦٠ تكون الاتحاد الهلفيتي لدعم الولاء للأمة أكثر من الأقليم . ولتوحيد الحركات المبعثرة للإصلاح السياسي .

وقد قدر فولتير -- الذي كان يعيش عن كثب -- سكان سويسرا في ١٧٦٧ بـ ٧٢٠,٠٠٠ نسمة (١) . وكان أكثرهم يفلح الأرض أو يزرع الكروم ، ويسطب المتحدرات إلى ما يقرب من قمم الجبال . وكانت صناعة النسيج في نمو مطرد لا سيما في إقليم سانت جان وكانتون زيوريخ ؛ وكانت مراكز صناعية أخرى بسبيلها إلى التشكل في جلاروس ، وفرن ، وبازل ؛ أما جنيف ونويشاتل فكانتا المركزين العظيمين لصناعة الساعات . وأنشأ الوكلاء المنتشرون في أرجاء أوروبا من لندن إلى الأسنانه (التي كان بها ثمانية وثمانون

منهم) لجنيف تجارة صادر حققت الثراء السريع للمدينة الواقعة على الرون . وكثرت المصارف لأن الماليين السويسريين كانوا قد اكتسبوا سمعة دولية بالأمانة .

وكانت أغلب الكفاءات ، كما هي الحال في كل بلد ، مركزة في أقلية من الرجال ، فأدى هذا إلى تركيز الثروة . وكانت الكانتونات بصفة عامة تحكمها أوجركيات تسلك مسلك أى طبقة حاكمة . فالإشراف رعاة أغنياء للأدب والعلوم والفنون ولكنهم يقاومون كل خطوة للتوسع في حق الانتخاب . وقد اتهم جبون ، الذى كان يسكن لوزان ، أوجركية برن بأنها تثبط الصناعة في الأقاليم التابعة لها ، وتبقى على هبوط مستوى المعيشة فيها عملاً بالمبدأ القائل « ان الرعايا الفقراء المطيعين خير من الأغنياء المتمردين » (٢) . وقد نظمت جماعات لإلغاء الامتيازات الاقتصادية أو السياسية غير مرة ، ولكنها صدت بقوة الدولة والكنيسة المتحالفين (٣) . واضطربت أحوال جنيف أنا بعد آن نتيجة حرب الطبقات طوال القرن الثامن عشر . وساد فيها سلام نسبي من ١٧٣٧ إلى ١٧٦٢ ، ولكن احراق المجلس البلدى لكتاب إميل (١٧٦٢) فجر الدعوة لتوسيع حق التصويت . وعضد الحركة روسو وفولتير ، بعد جدل كثير نزلت طبقة الإشراف للطبقات الوسطى عن قسط صغير في الحكم .

وفد خلف هذا ثلاثة أرباع السكان مجردين تماماً من حق التصويت - الوطنيون (أو الأهالي) وهم الأشخاص المولدون في جنيف ولكن الأبوين من غير الوطنيين . وهؤلاء حرموا أيضاً من معظم المهن ، ومن المناصب الحربية . ومن الارتقاء معلمين في النقابات الحرفية ؛ وقد منعوا من توجيه الملتحقات إلى المجلس الأكبر والمجلس الأصغر اللذين يحكان الجمهورية . غير أنهم أثقلوا بالضرائب . وفي ٤ أبريل ١٧٦٦ ذهب وفد من « الوطنيين » إلى فرنيه وطلبوا إلى فولتير أن يساعدهم في نيل حق التصويت . فقال لهم : « يا أصدقائي ، انكم تؤلفون أكثر الطبقات عدداً في مجتمع مستقر كادح ، وأنتم ترسفون في العبودية ولا تطلبون إلا أن تتمتعوا بميزاتكم الطبيعية ، أى أن تمنحوا هذا الطلب المتواضع لا أكثر . وسأعينكم بكل ما أملك من نفوذ . . . »

فلذا أكرهتم على الرحيل عن وطن يثرى على حساب كدكم ، فسأستطيع تقديم العون لكم وحمايتكم في مكان آخر» (٤) .

ولكن الطبقتين الارستقراطية والبورجوازية اتحدتا في مقاومة نداء « الوطنيين » ، وكل ما استطاعه فولتير هو أن يرحب في مستعمرته الصناعية بكل من وفد عليه من الصناع الساخطين (١٧٦٨) . وفي ١٧٨٢ هب الوطنيين في ثورة أطاحت بطبقة الإشراف وأقامت حكومة نيابية . ولكن النبلاء استنجدوا بفرنسا وبرن وسردينيا ؛ فتدخلت هذه الدول ، وأحمد التردد ، وردت الأوجركية إلى الحكم . وكان على الوطنيين أن ينتظروا مجيء الثورة الفرنسية لتأتيهم بالحرية .

وأنجبت الكانتونات في ثلث القرن الذي نحن بصددده بعض الشخصيات ذات الشهرة الدولية . فكان يوهان هاينريش بستالوتسي أحد الأفراد النادرين الذين يتخذون العهد الجديد مرشداً للسلوك . وقد اتفق مع روسو على أن المدنية أفسدت الإنسان ، ولكنه أحس أن الإصلاح يمكن أن يأتي لاعتن طريق القوانين والنظم الجديدة ، ولكن بإعادة تكوين السلوك الإنساني بالتربية . ومن ثم كان طوال حياته يرحب بالأطفال لاسيما الفقراء منهم ، وخصوصاً المشردين ؛ يؤويهم ويعلمهم ، ويطبق في تعليمهم المبادئ التحريرية التي احتواها كتاب روسو « لامليل » ، مع أفكار من عنده . وقد بسط آراءه في كتاب كان أكثر الكتب انتشاراً بين قراء ذلك الجيل . فالبطلة في كتابه « ليونهارد وجرترود » (١٧٨١ - ٨٥) تصلح قرية بأسرها بمحاولة معاملة الناس كما لوكان المسيح يعاملهم . ويتعلم أطفالها في مراعاة صابرة لغرائزهم واستعداداتهم الفطرية . ومن رأى بستالوتسي أن يعطى الأطفال من الحرية القدر الذي تسمح به حقوق الآخرين . فينبغي أن يبدأ التعليم المبكر بالقدوة ، وأن يعلم الطفل بالأشياء والحواس ، والخبرة ، لا بالكلمات أو الأفكار أو الصم . وقد مارس بستالوتسي طرائقه في مدارس سويسرية شتى ، ولاسيما في ايفردون . وهناك زاره تاليران ، ومدام دستال ، وغيرهما ؛ ومنها انتشرت نظرياته في طول أوروبا وعرضها . على أن جوته شكك أن

مدارس بستانلوتسى تكون أشخاصاً فرديى النزعة . وقحاء . مغرورين ، متسردين (٥) .

وهناك انجليكا كاوفمان ، المولودة فى كانتون جريزون . والتى نافست مدام فيجيه لبرون بوصفها أشهر فنانة فى جيلهما . فكانت تجيد الرسم ، فضلاً عن إتقانها العزف ، حتى وهى فى الثانية عشرة . لإجادة حملت الأساقفة والنبلاء على أن يجلسوا إليها لتصورهم . وفى الثالثة عشرة (١٧٥٤) اصطحبها أبوها إلى إيطاليا حيث واصلت دراساتها . واحتفى بها القوم أينما ذهبت تقديراً لمهاراتها وإعجاباً بسحر شخصها . وحين دعت إلى انجلترا عام ١٧٦٦ أثارت ضجة بتصويرها جاريك . وأغرم السير جوشوا رينولدز جداً بـ « الآنسة اينجل » ، وصورها ، فصورته بدورها . وقد شاركت فى إنشاء الأكاديمية الملكية للفنون . التى كلفتها هى وغيرها فى ١٧٧٣ بترزين كتدراية القديس بولس . وفى ١٧٨١ قفلت إلى روما . حيث (١٧٨٨) سلكت جوته فى عداد أصدقائها الأوفياء . وماتت هناك فى ١٨٠٧ ، وكان ماتمها الذى نظمه كانوفا حدثاً من أحداث العصر ، وشيعها مجتمع الفنانين بأكمله إلى مثواها الأخير .

أما أبرز شخصيات الجيل السويسرية بعد روسو فهو يوهان كاسبار لافاتر . ولد فى زيورخ فى ١٧٤١ ، وأصبح راعياً بروتستنتياً ، واحتفظ طوال حياته بأحر الولاء للمسيحية التقليدية . وقد رأينا محاولاته لهداية جوته ومندلسون . ولكنه لم يكن دجماطيقيا . فقد احتفظ بصداقاته عبر الحدود الدينية والقومية . واحترمه كل من عرفه ، وأحبه الكثيرون (٦) . وقد ألف كتباً فيها ورع صوفى . وشرح سفر الرؤيا شرحاً مغرباً فى الخيال ، وآمن بالقوى المعجزية للصلاة ولكالايوسترو ، وأعطى زوجته علاجات « تنويمية » عملاً بإرشادات مزميز . وكان أخص دعاواه أن خلق الإنسان يمكن الحكم عليه من ملامح وجهه ومحيط دماغه . فآثار اهتمام جوته وهردر بآرائه . وقد أسهما بمقالات لكتابته « شذرات فى الفراسة » (١٧٧٥ - ٧٨) وقد درس نظرات الأفراد البارزين . وأدهمغتهم . وأشكاهم . وربط بين ملامح الجمجمة والوجه وصفات نوعية للعقل والخلق . وقد قبلت

تحليلاته واستنتاجاته على نطاق واسع ، ولكنها الآن مرفوضة بوجه عام .
على أن المبدأ العام الذى نادى به ، وهو أن الصفات السيكولوجية تشارك
(مع الهواء والبيئة والغذاء والمهنة الخ ..) فى تشكيل الجسم والوجه ، مازال
يحوى قدراً كبيراً من الحقيقة ، فكل وجه إنما هو ترجمة ذاتية .

وكان لافاتر جزءاً من حركة إزهار شملت روسو . والشاعر والعالم ألبرشت
فون هالر ، والشاعر والمصور سلومون جيسر . والمؤرخ يوهان فون مولر .
وهوراس دوسير ، الذى بدأ رياضة تسلق الجبال بارتقائه جبل مون بلان
فى ١٧٨٧ بعد محاولات اتصلت سبعة وعشرين عاماً . وأحست الكانتونات
خلال ذلك برياح الثورة تهب عليها عبر الحدود من فرنسا . وفى ١٧٩٧
انضم فردريك سيزار ولا هارب ، الذى كان معلماً خاصاً لحفيدى كاترين
الكبرى ، إلى بيتر أوخس عضو نقابة التجار فى بازل ، فى دعوة حكومة
الثورة الفرنسية لتساعد هما على إنشاء جمهورية ديمقراطية فى سويسرة .
وقد مهدت الطريق لهذه الخطوة ثورات محلية فى برن وفو (يناير ١٧٩٨) ؛
فعب جيش فرنسى الحدود فى ٢٨ يناير ، ورحب به أكثر السكان السويسريين
محرراً لهم من الألوجركية . وفى ١٩ مارس أعلنت « جمهورية هلفيسية واحدة
لانتقسام لها » . فأطاحت بكل امتيازات الكانتونات والطبقات والأشخاص ،
وجعلت سويسره كلها سواء أمام القانون . وكانت زيورخ أطول الأقاليم
مقاومة ، وفى الهياج الشديد الذى تلا ذلك أصيب بطلق نارى الشيخ الأمين
لافاتر (١٧٩٩) . فمات فى ١٨٠١ متأثراً بجرحه بأثراً بطيئاً .

٢ - الهولنديون : ١٧١٥ - ١٧٩٥

اعجب الناس جميعاً بالهولنديين . وقد وصف المسرحى الدنمركى
هولبرج ، الذى زار الأقاليم المتحدة (هولندا) و « بلجيكا » فى ١٧٠٤ .
هذه البلاد وصفاً تحمس فيه على الأخص لقنواتها التى كانت زوارقها كما
قال « تنقانى من مكان لآخر » فى هدوء عذب و « تمكننى من إنفاق كل ليلة
فى مدينة كبيرة . حتى أننى كنت أستطيع فى الأمسية ذاتها أن أذهب إلى

الأوبرا أو المسرح عقب وصولي رأساً»^(٧). وقد أعربت عن مثل هذا السرور اللبدي مازى ورتلى مونتيديو بعد اثني عشر عاماً فقالت :

« ان هذا البلد كله (هولنده) يبدو وكأنه حديقة فسيحة الأرجاء : فالطرق كلها حسنة الرصف ، تظللها على الجانبين صفوف الأشجار ، وتحفها قنوات واسعة غاصة بالزوارق الغادية الرائحة . . . وكل الشوارع (في روتردام) . . . معني بنظافتها جداً . . . حتى أنني جلت بأرجاء المدينة كلها تقريباً أمس ، متنكرة ، في خفي دون أن تنالني لوثة قدرر واحدة ، وترى الخادومات الهولنديات يغسلن الطوار . . . بعناية تفوق عناية خادوماتنا بغسل غرف نومنا . ومراكب التجار تصل (على القنوات) حتى أبواب البيوت . والدكاكين والمتاجر نظيفة بهية إلى حد مدهش ، غاصة بمقادير هائلة من السلع الجميلة »^(٨) .

على أن هذه التقارير الوردية وصفت هولنده قبل أن تحس بالآثار الاقتصادية لانتصارها على لويس الرابع عشر في حرب الوراثة الأسبانية . ففيها أراقت دمها ومالها إلى ما يقرب الانهك ؛ فتضمخ دينها العام ، وفقدت كثيراً من تجارة النقل التي ذهبت إلى حلفائها العسكريين الذين كانوا رغم تحالفهم العسكري معها منافسين لها في التجارة — وإلى ألمانيا . وهبطت أرباح شركة الهند الشرقية من أربعين في المائة في ١٧١٥ إلى اثني عشر ونصف في المائة في ١٧٣٧ ، وأرباح شركة الهند الغربية الهولندية من خمسة في المائة في ١٧٠٠ إلى اثنين في المائة في ١٧٤٠^(٩) . وجرت حرب السنين السبع مزيداً من الأذى . ذلك أن مصرفي أمستردام أثروا بفضل القروض المرتفعة الفائدة التي أقرضوها للدول المتحاربة ، ولكن صلح ١٧٦٣ أنهى هذه النعمة الكبرى ، فأفلس كثير من المصارف الهولندية ، وتضرر نتيجة لذلك كل مشروع تجاري كبير . كتب بوزويل الذي كان في هولنده في ١٧٦٣ يقول « ان الكثير من كبريات المدن تضععضعت إلى حد مخزن . . . وأنت تلتقي بمجموع من القراء الذين يتضورون جوعاً وهم عاطلون »^(١٠) . وزيدت الضرائب فأفضى ذلك إلى هجرة رأس المال والعناصر البشرية الصلبة ؛

وفي هذه الفترة امتزجت دماء المستعمرين الهولنديين والألمان في جنوب أفريقيا وانبعث البوير ببطء نتيجة الامتزاج .

وجاء الانتعاش بفضل خلق الهولنديين وجددهم وأمانتهم . فقد عكف شعب هادىء قوى مدبر على فلاحه أرضه ، وتشحيم طواحين هوائه ، ورعى أبقاره ، وتنظيف معامل ألبانه ، وإنتاج ألوان لذيذة من الجبن الشهى الكريه الرائحة ؛ وكانت هولنده سباقة بين دول أوروبا في مضمار الزراعة العلمية (١١) . واستعادت دلفت سوق البرسلان الذى فقدته . واسترد مصرفيو أمستردام الهولنديون واليهود ما اشتهروا به من جدارة بالثقة وقدرة على التصرف ؛ فأقرضوا المال بقليل من الفائدة والمخاطرة ، وحصلوا على عقود رابحة بدفع رواتب الجند وتمويهم ؛ ولجأت الحكومات ورجال الأعمال إلى أمستردام طلباً للقروض ، وندر أن ردوا نارغين ؛ وطوال ذلك القرن المضطرب كله تقريباً كانت بورصة أمستردام المركز المالى للعالم الغربى . كتب آدم سميث حوالى عام ١٧٧٥ يقول : « إن لإقليم هولنده . . . بالنسبة إلى مساحة أرضه وعدد سكانه ، بلد أغنى من إنجلترا » (١٢) .

وأكثر ما راع فولتير في ١٧٢٥ (١٣) كان تعايش مختلف الأديان تعايشاً لم يكدر صفوه مكابر . فهنا كان كاثوليك سنيون وكاثولوليك جانسينيون (ألم يكن جانسن نفسه هولندياً ؟) ، وبروتستنت أرمنيون من القائلين بحرية الإرادة ، وبروتستنت كلفنيون من القائلين بالقضاء والقدر ، ومعمدانيون من القائلين بتجديد العباد ، وسوسينيون ، وإخوان مورافيون ويهود ، ثم حفنة من أحرار الفكر يصطلون في دفع التنوير الفرنسى (١٤) . وكان أكثر القضاة من البروتستنت ، ولكنهم « كانوا يأخذون النقود بانتظام من الكاثوليك » كما يقول مؤرخ هولندى « للأغضاء عن ممارستهم شعائر دينهم والسماح لهم بشغل مناصبهم » (١٥) . وكان الكاثوليك الآن ثلث السكان الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين . أما الطبقات العليا ، الملمة بأديان كثيرة بفضل اشتغالها بالتجارة ، فقد تشككت في هذه الأديان كلها ، ولم تسمح لها بالتدخل في القمار ، والشراب ، والشره في الطعام ، وشئ من الفسق المتستر على الطريقة الفرنسية (١٦) .

وكانت الفرنسية لغة المثقفين . وكثرت المدارس ، واشتهرت جامعة
ليدن بدراساتها في الطب التي أحييت ذكر بويرها في العظم . وكان في كل
المدن جمعيات للفنون ، ومكتبات ، و « قاعات للخطابة » تعقد مباريات
دورية في الشعر . وكان تجار التحف الهولنديون يتمتعون بشهرة أوروبية
بكنوزهم وتزييفاتهم^(١٧) . وكان عصر الفن الهولندي الذهبي قد ولى بموت
هوبيا (١٧٠٩) . ولكن كورنيلس تروست كان على الأقل صدى يردد
عظمته . وربما كان أروع نتاج الفن الهولندي في هذا العصر هو الزواج
الرقيق المنقط أو المخفور بأبر من الماس^(١٨) . وكانت أمستردام عشاً
للناشرين ، بعضهم شرفاء وبعضهم قراصنة . وهبط النشاط الخلاق في
الأدب إلى مستوى منخفض النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ولكن حوالى
١٧٨٠ غدت حركة إحياء للأدب شاعراً مطبوعاً هو فليم بلردريك .

ويروى بوزويل أن صديقاً له أخبره أنه سيجد الهولنديين « سعداء في
غباثهم »^(١٩) ؛ ولكن بوزويل كتب من أوترخت يقول « اننا نعقد اجتماعات
متألقة مرتين في الأسبوع . وحفلات خاصة كل مساء تقريباً . .
وفي زمرةنا سيدات جميلات محبوبات هن من الكثرة بحيث لا تستطيع
الصحائف الكثيرة أن توفيهن حقهن من الثناء »^(٢٠) وأروع الصفحات في
مذكرات بوزويل السريعة الموجزة عن هولنده تلك التي تصف غرامه
المتردد بزليده أو « حسناء زويلين » — وهى ايزابيلا فان تويل . وكانت
تنتمى إلى أسرة عريقة مرموقة ؛ فأبوها « سيد زويلين وفستبروك » كان
أحد حكام إقليم أوترخت . وقد تلقت من التعليم فوق ما يتحتمل ، فباتت
تجهر بهرطقها في فخر ، وهزأت بالتقاليد ، والأخلاق ، والدين ، ومراتب
الشرف . ولكنها فتنت الناس جميعاً بحسنها ومرحها وصراحها المثيرة .
وقد أحجمت عن الزواج المذهب الوفي ، وكتبت تقول « لو لم يكن لي أب
ولا أم لما تزوجت . . ولا غتبطت كل الاغتباط بزواج يتخذني كخليته ؛
ولقلت له « لا تنظر إلى الوفاء على أنه واجب . فلا ينبغي أن يكون لك غير
حقوق العاشق وغيرته »^(٢١) . فأجاب بوزويل أشد الفاسقين إلحاحاً في
أوروبا « يا للعار يا زليدي ، أى أوهام هذه » ولكنها أصرت على موقفها « إنى

لأثر أن أكون غسالة لحبيبي ، وأن أسكن عليّة ، على حرية أسرنا الكبيرة
الجرءاء وآداب سلوكها المذهب» (٢٢) .

وجازت زليدة سلسلة من العلاقات الغرامية التي خلفتها وحيدة مشخنة
بجحاح لا تبرحها . وراحت تهدي أعصابها بالأفيون وهي بعد في الرابعة
والعشرين . وحين بلغت الثلاثين (١٧٧١) تزوجت سان - هياسنت دشاربير ،
وهو معلم خاص سويسري ، وذهبت لتعيش معه قرب لوزان . فلما وجدته قاصراً
من الناحية الفكرية . وقعت في أربعيناتها في حب رجل يصغرها بعشر سنين ،
فقضى طوره منها ثم هجرها . والتمست التنفيس في كتابة قصة اسمتها « كاليسست »
(١٧٨٥ - ٨٨) . طرب لها سانت - بييف أي طرب . وحين بلغت السابعة
والأربعين . التقت في باريس ببنيجامن كونستان . وكان فتي في العشرين ،
فأغوته بفكرها (١٧٨٧) وكتب يقول « إن للمدام شاربير أسلوباً غاية في
الأصالة والحيوية في النظر إلى الحياة ، واحتقاراً عميقاً جداً للتعصب ، وفكراً
بالغ القوة . وتفوقاً على أوساط الناس عارماً شتقراً . . . حتى أنني على
غربة أطواري وتكبري مثلها . . . وجدت في حديثها لذة لا عهد لي بها قط . .
وقد انتشيننا باحتقارنا للنوع الإنساني» (٢٣) . وسار الحال على هذا المنوال حتى
عام ١٧٩٤ حين وجد بنيجامن نشوة جديدة مع مدام دستال . وأعتكفت
زليدة في عزلة مرة ، وماتت في الخامسة والستين ، بعد أن خلقت نجواء
الحياة الدنيا واستنفذته .

ولو شاءت لوجدت غذاء للتشاؤم في التاريخ السياسي للأقاليم المتحدة
في القرن الثامن عشر . ذلك أن حكم البلاد بعد موت وليم الثالث (١٧٠٢)
احتكرته أوجركية من كبار رجال الأعمال انصرفوا إلى فرض الضرائب
على الشعب ومحاربة الأقرباء والذس والتآمر . كتب كاتب هولندي في
١٧٣٧ يشكو هذه الحال فقال « ان المواطنين ممنوعون من المشاركة في
الحكومة . . . ولا يطلب منهم نصيحة ولا رأي في إدارة شؤون الدولة » (٢٤) .
وقد تكشف العجز الحربي لهذا النظام حين دخلت هولنده حرب الوراثة
النمساوية (١٧٤٣) فغزاها جيش فرنسي ولم يلق مقاومة تذكر ، وسلمت

مدن كثيرة دون جدال . كتب المرشال دنواى يقول « علينا أن نتعامل مع شعب غابة فى اللطف والكرم » (٢٥) على أنهم لم يكونوا كلهم كذلك ، فقد ارتفعت أصوات معظم المواطنين مطالبة بزعيم حربى ينقذ البلاد على نحو ما فعل وليم الثالث فى ١٦٧٢ ، ونصب سليله غير المباشر ، وليم الرابع أمير أورانج ، حاكماً للأقاليم السبعة ، وقائداً للجيش ، وأميراً للبحرية (٣ مايو ١٧٤٧) ؛ وفى أكتوبر جعلت هذه المناصب وراثية فى أسرته ، ومعنى ذلك أن الملكية أعيدت فى واقع الأمر ، غير أن وليم الرابع كان فيه من التمسك بالخلق المسيحى مالا يجعله قائداً حربياً صالحاً ؛ فلم يستطع أن يعيد النظام إلى الجيوش ، وتوالت الهزائم يقفوا بعضها بعضاً ، وفى معاهدة إكس — لا — شابل (١٧٤٨) كانت هولنده محظوظة لاحتفاظها بأراضيها سليمة ، ولكنها عادت خربة من الناحية الاقتصادية ومات وليم بالحمرة وهو فى الأربعين (١٧٥١) ، وقامت أرملته الأميرة آن — بالوصاية على العرش إلى أن ماتت (١٧٥٩) ، ثم حكم لودفيج إرنست أمير برنزيك — فولفنبوتل البلاد حكماً صارماً كفتاً حتى بلغ وليم الخامس سن الرشد (١٧٦٦) .

وفى الحرب الدائرة بين انجلترا والمستعمرات الأمريكية احتجت هولنده على عدوان البريطانيين على السفن الهولندية ، وانضمت إلى روسيا فى « الحياذ المسلح » المبرم فى ١٧٨٠ ؛ وأعلنت انجلترا عليها الحرب ، واستولت على جميع السفن الهولندية تقريباً ، وفى معاهدة باريس (١٧٨٣) (١٨٧٣) كادت مصالح هولنده أن تغفل ، فنزلت عن نجاحاتنا (فى جنوبى الهند) لانجلترا ، وسمحت ، للانجليز بحرية الملاحة فى جزر الملقا . وهكذا لم تعد هولنده تلعب دوراً بين الدول .

ودمرت هذه الخطوب شعبية وليم الخامس . ثم ان نجاح الثورة فى أمريكيا حفز الأفكار الديمقراطية فى الأراضى الواطئة ، وأفضى إلى قيام حزب « الوطنيين » المناهض للأسرة الحاكمة . وكانت القلة صاحبة المال تمتص ثروة الأمة المتناقصة خلال كل تغيير فى الحكومة امتصاصاً الجأ رجالات كثيرين إلى التسول ونساء كثيرات إلى البغاء فى المدن التى كانت يوماً ما

مزدهرة يسودها النظام. وفي ١٧٨٣. تكونت سرّاً جماعات من « الرماة الأحرار » في أمستردام ولاهاي للاعداد للثورة . وفي ١٧٨٧ استولى « الوطنيون » على السلطة ، ولكن ولیم الخامس أعيد إلى عرشه بفضل تدخل بروسيا المسلح . ثم نفخت الثورة الفرنسية الحاسة من جديد في أفئدة الوطنيين ، فدعوا فرنسا لتخف لنجدتهم . وعليه ففي ١٧٩٤ غزت الجيوش الفرنسية هولنده ، وبطشت بالجيش الهولندي ، وفر ولیم الخامس إلى انجلترا ، وانضم أنصار الثورة الهولنديون إلى الفرنسيين في تنظيم الجمهورية البتافية (١٧٩٥-١٨٠٦) . وفي ١٨١٥ أعاد ابن ولیم الخامس بيت أورنج - نيساو إلى السلطة باسم الملك ولیم الأول ، وأسأله يتربعون على عرش هولنده اليوم (١٩٦٧) .

٣ - الدنمركيون : ١٧١٥ - ١٧٩٧

بلغ عدد سكان الدنمرك حسب أول تعداد رسمي للبلاد (١٧٦٩) ٨٢٥,٠٠٠ نسمة ، يضاف إليهم ٧٢٧,٦٠٠ في النرويج التي ظلت خاضعة للملوك الدنمركيين حتى ١٨١٤ . وكان كل الفلاحين تقريباً في النرويج يملكون أراضيتهم ، وفيهم كبرياء ككبرياء الفيكنج . أما الدنمرك فكان نصف فلاحياً أقناناً ، والنصف الآخر خاضعين للرسوم الإقطاعية . وجهد الملوك لكبح جماح هذا الإقطاع ، ولكنهم كانوا معتمدين مالياً على الإشراف ، واستمرت القنية حتى ١٧٨٧ . في هذا النظام لم تلق التجارة ولا الصناعة تشجيعاً يذكر ، ولم تنم طبقة وسطى ذات شأن ؛ وأفاد فتح قناة كيل (١٧٨٣) الإنجليز والهولنديين أكثر مما أفاد الدنمركيين . وفي ١٧٩٢ كانت الدنمرك أول دولة أوروبية تلغى النخاسة في ممتلكاتها .

وكما سيطر النبلاء على الدولة كذلك سيطرت الكنيسة على المناابر والطباعة ، وأملت أن تسيطر على العقول أيضاً . فحرمت الرقابة الصارمة التي امتدت من ١٥٣٧ إلى ١٨٤٩ كل ما يطبع أو يقال مما لا يتفق والتعاليم اللوثرية القويمة ؛ وصور الكثر من الكتب غير اللاهوتية ، كقصص جريمة « آلام فرتر » لأنها خطر يهدد الأخلاق العامة . وزاد من القيود المعطلة لنمو الأدب استعمال الألمانية في البلاط ، واللاتينية في الجامعات ، والفرنسية في الآداب

البحنة -- التي لم يكند يوجد منها شيء . وكان تدشين الأدب الدنمركى بالتأليف باللغة القومية ، وإدخال بصيص من التنوير إلى الدنمرك . من مآثر الملع دنمركى فى القرن الثامن عشر .

وتستطيع كل من النرويج والدنمرك أن تنسب إليها لودفيج فون هولبرج ، لأنه ولد فى برجن (٣ ديسمبر ١٦٨٤) . وبعد أن تلقى العلم فى المدرسة اللاتينية المحلية . عبر الماء ليلتحق بجامعة كوبنهاجن . ولكن سرعان ما نصب ماله : فتمثل إلى النرويج واشتغل مدرساً خصوصياً فى أسرة قسيس ريفى ، فلما أن ادخر ستين طالرا انطلق ليرى الدنيا من حوله . ففراه فى ١٧٠٤ فى هولنده ، وفى ١٧٠٦ -- ١٧٠٨ كان يعلم نفسه فى مكتبات أكسفورد . فلما عاد إلى كوبنهاجن ألقى محاضرات لم تأت به بأكثر كثيراً من تعليم الذات ، وعاش أثناء ذلك على التدريس الخصوصى ، واغتذى بالطموح . وفى ١٧١٤ عينته الجامعة أستاذاً دون راتب ، غير أن منحة خاصة أتاحت له الجولان عامين فى ربوع إيطاليا وفرنسا ، على قدميه أكثر الوقت . فلما آب من أروع رحلة بين الرحلات الرائعة كلها ، عين أستاذاً للميتافيزيقا ، وهو مادة أبغضها ، ثم للاتينية والبيان ، وأخيراً (١٧٣٠) للتاريخ والجغرافيا اللذين أحبهما .

ولقد خلق الأدب الدنمركى فى لحظات فراغه . فحتى زمنه لم يكن فى الدنمركية شيء سوى الأغاني الشعبية والفارصات والترانيم والكتب العميدية الشعبية . وألف هولبرج مكتبة صغيرة من القصائد والهجاءات والقصص والأنحاث بالدنمركية فى السياسة والقانون والتاريخ والعلوم والفلسفة . ولم ينافسه غير فولتير فى تعدد جوانبه . وقد استعمل الهزل كما استعمله فولتير ليسوط به الأساتذة المزهوين من عباد الدراسات الكلاسيكية ، والمحامين الذين يقيدون حركة العدالة بأغلال الدقائق التقنية ، ورجال الدين المتزاحمين بالمناكب على المال والمنصب ، والأطباء الذين ييسرون دخول المرضى إلى الأبدية . وتناول كل أعمدة المجتمع هؤلاء تقريباً بالتشهير فى أول آثاره الأدبية الكبرى ، وهو ملحمة ساخرة سماها بيدربارس (١٧١٩) . وأوجع بعض كبار الدنمركيين ونخر هذا الهجاء ، فناشدوا الملك فردريك الرابع

أن يصادر الكتاب باعتباره ضاراً بالأخلاق مستهزئاً بالقساوسة ؛ وقرئ على الملك أول قسم في الملحمة كطلبه ، فحكم بأنها « عمل برىء مسل » ، غير أن المجلس الملكي أحاط هولبرج بأنه كان خيراً لو أن القصيدة لم تكتب قط (٢٦) .

وعلى ذلك انصرف إلى المسرح . ففي ١٧٢٠ افتتح مثل فرنسى اسمه إتيين كايون في كوبنهاجن أول مسرح دنمركى . فلما افتقد المسرحيات الدنمركية الجديدة بالإخراج استورد الدرامات من فرنسا وألمانيا . غير أنه استشف من « بيدر بارس » أن هولبرج يملك المواد والموهبة اللازمة للكوميديا ، فلجأ إليه ليبد المسرح الجديد بتمثيلات باللغة العامية ، ولم ينقض عام حتى كان هولبرج قد ألف خمس تمثيلات ، وفي ثمانية أعوام ألف عشرين . كلها غنى في صور الأعراف والعادات المحلية غنى حمل خلفه العظيم آدم أو هلنشييجر على أن يقول فيه « إنه عرف كيف يصور الحياة البورجوازية لمدينته كوبنهاجن بأمانة عظيمة بحيث لو انشقت الأرض وابتلعت هذه المدينة ، وبعد مائتى عام أميط اللثام عن كوميديات هولبرج ، لاستطاع المرء أن يعيد بناء العصر منها ، على نحو ما نعرف أيام روما القديمة من أطلال بومبي وهركيولانيوم » (٢٧) .

ونقل هولبرج القوالب والأفكار عن بلوتوس وترنس وموليير والكوميديا ديلارتنى التى شهداها في إيطاليا . وبعض كوميدياته تمثيلات من فصل واحد ذات موضوعات تافهة فقدت قوة دفعها ، مثل « رحلة سمجاناريل إلى أرض الفلاسفة » (٢٨) . وبعضها مازال يحتفظ بقوته ، مثل « بى رجل التل » التى نعرف منها أن الفلاحين حين يظفرون بالسلطة يكونون أشد بغياً من سادتهم . وبعضها تمثيلات مكتملة الطول مثل « رازموس مونتائوس » ، وهى هجائية مرحة تسخر بتنطع العلماء ، وبغطرسه اللاهوتيين وبجهل العوام ، مع مسحة خبيثة من صراحة الريفيين وصادقهم ، مثل قول لسبيد لأبيها بعد أن سمعت بأن خطيبها عائد من الجامعة « إذن فقد صدق حلمى . . لقد حلمت اننى نمت معه البارحة » (٢٩) على أن مسرح كوبنهاجن

رغم هذه الكوميديات المرحية أغلق أبوابه في ١٧٢٧ لافتقاره إلى الدعم الشعبي . وكان آخر ما مثل فوق خشبته مسرحية هولبرج « مآثم الكوميديا الدنمركية » .

لقد صدم زملاءه من أساتذة الجامعة بالكتابة للمسرح ؛ أما الآن فقد ألان جانبهم بمؤلفات تاريخية يسرت للقراء الدنمركيين ثمرات الدراسات الأوروبية الغربية . وكانت كتبه « تاريخ للدنمرك » (١٧٣٢ — ١٧٣٥) ، تاريخ عام للكنيسة » (١٧٢٧ — ١٧٤٧) ، و « تاريخ لليهود » مصنفات ، ولكنها متقنة . واتمس هولبرج التخفف من هذه الجهود في رائعته . « رحلة نيلس كلیم السفلية » (١٧٤١) . وقد كتبها نثراً لاتينياً لتصل إلى القراء الأوروبيين ، فوصلت ، ولكن بطريق الترجمة : ترجمها ينز باجيربن إلى الدنمركية فطبعت الترجمة ثلاث مرات ، وظهر منها بالألمانية عشر طبعات ، بالسويدية ، والهولندية ، والانجليزية ، ثلاث ، وبالفرنسية والروسية اثنتان ، وبالمجرية واحدة . هذه « الرحلة السفلية » هي التي جعلت هولبرج « سوفيت الدنمرك » و « فولتيرها » معاً .

والقصة تروى أن الضوضاء المنبعثة من كهف تثير فضول نيلس ، فيصمم على استقصاء مصدرها ويدليه أصحابه بحبل ينقطع ، « وبسرعة مذهلة دفع نى إلى أعماق الهاوية » (٣١) . ثم يعثر فى قشرة الأرض على مساحة مكشوفة أو قبة سماوية فيها شمس وكواكبها السيارة ، ونجوم كثيرة . ويسقط صوب أحد هذه الكواكب فيصبح قرأً تابعاً له ويدور حوله عاجزاً ، ولكنه يمسك بنسر يحمله حتى يهبط فى رفق على الكوكب بوتو (أى يوتويا) مقلوبة) . هنا يجد الأشجار هى النوع السائد ، وهى غنية بعصارتها العاقلة ، ولسوء الحظ « كانت الشجرة التى تسلقها . . . هى زوجة العمدة » (٣١) . ولبوتو بعض القوانين الممتازة . فالناس الذين « يتجادلون علانية حول صفات الكائن الأعظم وما هيته ينظر إليهم على أن يهيم مساً من الجنون » ، فيعالجون بفصدهم ليهبط حاهم ، ثم يحبسون حتى « يفيقوا من هذا الهذيان » (٣٢) . والأمهات فى بوتو يرضعن أطفالهن — وهى فكرة سبقت بعشرين سنة دعوة روسو للأمهات لإرضاع أطفالهن من ثديهن . وفى إقليم كوكليكو

تحكم النساء الدولة ، ويعنى الرجال بشئون البيت أو يصبحون بغايا ، وللملكة « حریم » من ثلاثمائة شاب وسیم . وينفق الفلاسفة فى كوكليكو وقتهم فى محاولة الوصول إلى الشمس ، ولا يهتمون اهتماماً يذكر بشئون الدنيا . وفى إقليم ميكولاك تجد الناس كلهم ملحدین ، « يقارفون أى شر يستطيعون إخفاءه عن الشرطة » (٣٣) ويقع نیلس على كتاب بعنوان « رحلة تانیا إلى العالم السفلى » يصف أوربا وعاداتها الغريبة : الرعوس التى تكسوها البواريك الضخمة ، والقبعات المحمولة تحت الأذرع (كما كان يفعل نبلاء فرنسا) ، « والكعكات الصغيرة أو القرايين تحمل مروراً بالشوارع ويقول الكهان إنها آلهة ، والناس الذين خبزوها . . . يخلفون على الإيمان بأن هذه القرايين خلقت الدنيا » (٣٤) .

وقد اشتملت « الرحلة السفلية » على انتقادات للعقيدة المسيحية ، ودعت إلى إطلاق حرية العبادة لجميع المذاهب ، ولكنها أوصت بالإيمان بالله ، وبالجنة ، وبالنار ، باعتبارها ركائز ضرورية لناмос أخلاقى لا تفتأ تهاجمه مطالب النفس والجسد هجوماً شرساً (٣٥) . ورقى الملك فردريك الخامس المصلح الذى انصلح أمره بارونا فى ١٧٤٧ ؛ واستمتع هولبرج بلدة التمرد فى شبابه والرضى عنه فى شيخوخته التى اختتمت سنة ١٧٥٤ . ومازال إلى اليوم إمام الأدب الدنمركى .

على أن البعض قد يخصصون بهذا المقام يوهان إيفالد الذى ضارعت حياته حياة بايرون وكيتس وشلى مغامرة ومعاناة وقصراً . وقد ولد فى كوبنهاجن فى ١٧٤٣ لقسيس لوثرى ، وتمرد على المتزمطين من الكبار ، ووقع فى غرام آرنسى هوليجارد وهو فى السادسة عشرة ، وهجر مهنة اللاهوت لأنه استبطاً ثمراتها ، وتطوع فى الجيش البروسى ثم النمساوى ، وصمم على الظفر بالثروة والمجد اللذين ينيلانه آرنسى عروساً . ولكن الحرمان والمرض أتلغا صحته ، فعاد إلى كوبنهاجن واللاهوت ، وتزوجت آرنسى ثروة أعجل ، وسكب إيفالد قلبه فى الشعر والنثر . فكتب أول مأساة دانمركية أصيلة

سماها « رولف كراجي » (١٧٧٠) ، وبلغ قمة الشعر الدنمركي في القرن الثامن عشر بمسرحية « موت بالدر » (١٧٧٣) وهي دراما ملحمية بالشعر . على أن جهده لم يأت إلا بالكفاف ، فاعتكف في عزلة ريفية ، وراح يجتر سلسلة من الأوصاف ، ثم أنعشه معاش من الحكومة آخر الأمر . وقد رد على الصنيع بتمثيلية « صيادى السمك » (١٧٧٦) التي احتوت أغنية شعبية وطنية مطامها « وقف الملك كرستيان إلى جوار الصبارى العالى » التي أصبحت أنشودة الدنمركيين القومية المفضلة (٣٦) . وكانت دعوة إيفالد إلى المجد ، ووداعه للحياة ، ومات في ١٧٨١ إثر مرض طويل أليم غير متجاوز الثامنة والثلاثين . ويعده السكندنافيون « من أعظم شعراء الشمال الغنائيين ، بل ربما أعظمهم قاطبة » (٣٧) .

وبتقدم القرن الثامن عشر أصبح التاريخ السياسى للدنمرك جزءاً من الدراما الحديثة المتصلة ابداً بين التقاليد المتوارثة والتجربة . وقد مزج كرستيان السادس (حكم ١٧٣٠ - ٤٦) بين القوى المتعارضة . فدفع هو ووزراؤه التنمية الاقتصادية قدماً باستجلاب الغزاليين والنساجين لإنشاء صناعة النسيج ، وبتكوين الشركات القومية للتجار مع آسيا وأمريكا ، وبفتح مصرف كوبنهاجن (١٧٤٤) . ونشروا التعليم الابتدائى والثانوى ، وأسسوا الأكاديميات لتشجيع الأدب والعلم . على أنهم جددوا قانوناً قديماً يلزم بحضور خدمات الصلاة اللوثرية ، وأغلقوا جميع المسارح وصلات الرقص ، ونفوا الممثلين ، ومنعوا الحفلات التنكرية .

وأبني فردريك الخامس (حكم ١٧٤٦ - ٦٦) ابن كرستيان على هذه القوانين ولكنه خفف من وطأتها بروحه اللطيفة وحبهِ للذات الحسية . ففي ١٧٥١ استقدم من هانوفر يوهان هارنفيج أرنست فون بيرنشتورف ، الذى وفق وهو رئيس للوزراء فى رفع مستوى الأمانة والكفاءة فى الإدارة ، وأصلح شأن الجيش والبحرية ، وأبعدهما عن حرب السنين السبع ، وحرك مياه الثقافة الدنمركية الراكدة بجلب الأساتذة والشعراء والفنانين والعلماء ؛ وقد رأينا كلويشتوك يقبل هذه الدعوة . وفى ١٧٦٧ توج الكونت فون

بيرنشتورف سياسته الخارجية السلمية بإقناع كاترين الكبرى بتوقيع ، بفاقية
نزلت بمقتضاها للدنمرك عن هولشتين — جروتورب .

ومات فردريك الخامس في الثالثة والأربعين (١٧٦٦) بعد أن أنهكته
لذاته . وقد زوج ابنه كرستيان السابع (حكم ١٧٦٦ — ١٨٠٨) على عجل
وهو بعد في السابعة عشرة من كارولين ما تيلدا أخت جورج الثالث ملك
انجلترا ، وقد أفاضت اشراقاً على حياة العاصمة الاجتماعية ، ولكن زوجها
نصف المجنون أهملها إيثاراً لحياة الخلاعة ، وانزلت كاترين إلى غرام
مأساوى مع طبيب البلاط يوهان فريدريش شتروينزى . وكان ابنا لأستاذ
لاهورت في هاله ، فدرس فيها الطب ، وفقد إيمانه الدينى كما يفقده أكثر
الأطباء . وقد دان بحظوته عند الملك لبراعته في علاج العواقب الاكلينيكية
لغراميات الملك : وعند الملكة لتوفيقه في الأتيان بكرستيان السابع إلى
فراشها بما يكفى لإنجاب وريث للعرش . فلما تردى عقل الملك في درك
الاكتئاب وعدم المبالاة ، وزادت سلطة الملكة في الحكومة ، وسمحت
لطبيبها بإدارة سياستها كما سمحت له بالاستمتاع بحظوتها فغدا (١٧٧٠)
حاكم الدولة الفعلى . وخرجت الأوامر من القصر الملكى ممهورة من
شتروينزى باسم الملك « غير الممالك قواه العقلية » . وطرده برنشتورف ،
فاعتكف بهدوء في ضياعه بألمانيا .

وكان شتروينزى قد قرأ مؤلفات جماعة « الفلاسفة » الفرنسيين ، وعلى
مبادئهم نوى أن يشكل الحياة الدنمركية من جديد . فألغى استغلال النبلاء
لامتيازاتهم . وأنهى الرقابة على المطبوعات ، وأسس المدارس ، وظهر
المصالح الحكومية من الرشوة والاستغلال . وأعتق الأقنان ، وحرّم التعذيب
القضائى . وأعلن التسامح لجميع الأديان ، وشجع الآداب والفنون ، وأصلح
القانون والمحاكم والبوليس ، والجامعة ، والمالية ، ووسائل حفظ الصحة
البلدية . . . ثم ألغى معاشات كثيرة تخفيفاً من الدين العام ، ورصد دخول
المؤسسات الدينية للإنفاق على الأغراض العامة .

ولكن النبلاء تأمروا ليسقطوه ، واستغلوا حرية النشر لاستنزاف شعبيته .

وكره الأتقياء من الدنمركيين التسامح الديني لأنهم رأوه كفراً ، ورددت أحاديثهم عن شتروينزى أنه أجنبي دخيل ليس لسلطته سند غير فراش الملكة . وفي ١٧ يناير ١٧٧٢ أقنع لفيث من ضباط الجيش الملك بأن شتروينزى والملكة يبيتان قتله فوقع أمراً بالقبض عليهما . ورحلت كارولين إلى كرونبورج قلعة هاملت . أما شتروينزى فألقى في السجن ، وبعد خمسة أسابيع من المعاناة اعترف بزناه مع الملكة . وفي ٢٨ أبريل ١٧٧٢ قطع إرباً على مقصلة على مرأى من جمهور محبذ لهذا العقاب . وسمح لكارولين بعد إلحاح جورج الثالث بالاعتكاف في تسلييه بها نوfer ، حيث ماتت في ١٠ مايو ١٧٧٥ وهي بعد في الرابعة والعشرين .

وقلد المتآمرون الفائزون بالحكم لأوفي جولد برج ، المعلم الخاص الأمير فردريك . وقد قاد جولد برج خلال اثني عشر عاماً من الحكم حركة انتفاض وطنية على النفوذ الأجنبي في الحكومة واللغة والتعليم ، وفتح باب المناصب للعامة ، وأعاد القنية ، والتعذيب القضائي ، وسيادة الكنيسة اللوترية ، والتوجيه الديني للجامعة . ووكلت الشئون الخارجية لآندرياس بيتر فون برنشتورف ، ابن أخي الكونت فون برنشتورف ومحسوبه . فلما نصب الأمير فردريك نفسه وصياً (١٧٨٤) طرد جولد برج : وأصبح آندرياس فون برنشتورف رئيس الوزراء وظل كذلك إلى يوم مماته . وبإرشاده الحكيم ألغيت القنية ثانية (١٧٨٧) ، وأنهيت النخاسة في الممتلكات الدنمركية ، وأطلقت حرية القيام بالمشروعات الاقتصادية . فلما مات برنشتورف (١٧٩٧) كانت الدنمرك قد ثبتت أقدامها على الطريق إلى ذلك الرخاء السلمى الذى جعلها محسودة من العالم كله .

٤ — السويديون

١ — السياسة : ١٧١٨ — ٧١

كانت حياة شارل الثانى عشر المثيرة مأساة للسويد . ذلك أن مراميه لم تسترشد بموارد وطنه بل بظمته للمجد . وقد احتمله الشعب السويدي بشجاعة وهو يأتى على قوتهم البشرية وثروتهم ، ولكنهم كانوا يدركون قبل موته

بزمان أن مصيره الفشل الحقيقى . فقد نزلت السويد بمقتضى معاهدات ستوكهولم (١٧١٨ - ٢٠) عن دوقيتى بريمن وفردن هانوفر ، وعن الجزء الأكبر من بومرانيا لبروسيا . وبمقتضى صلح نيستاد (١٧٢١) نزلت عن ليفونيا واستونيا وانجرومانلاند وكاريليا الشرقية لروسيا . وقضى على سلطة السويد على أرض القارة ، وأكرهت على التقهقر إلى شبه جزيرة غنية بالمعادن وصلابة الخلق القومى ، متطلبة الجهد الشاق والمهارة المثابرة ثمناً للحياة .

وقد أضعفت هزيمة شارل شوكة الملكية ، وأتاحت للنبل أن يستردوا سيطرتهم على الحكومة . فأعطى دستور ١٧٢٠ السلطة الغالبة لمجلس نيابى أو «دايت» مؤلف من أربع «طبقات» أو مجالس . مجلس نبل «ريدارهوس» قوامه رؤساء الأسر النبيلة كلها ؛ ومجلس قساوسة - من الأساقفة مضافاً إليهم نحو خمسين مندوباً ينتخبهم اكليروس الأبرشيات من بينهم ؛ ومجلس سكان المدن ، من نحو تسعين مندوباً يمثلون الموظفين الإداريين وأقطاب رجال الأعمال فى المدن ؛ ومجلس فلاحين ، من مائة مندوب تقريباً يختارون بواسطة المزارعين من ملاك الأرض الأحرار ومن بينهم . وكانت كل طبقة تجلس منفصلة عن غيرها ، ولا يمكن أن يصبح أى مشروع قانوناً ما لم توافق عليه ثلاث طبقات ؛ ولم يكن لطبقة الفلاحين فى حقيقة الأمر قوة تشريعية إلا بموافقة طبقتين أخريين . وخلال اجتماعات المجلس النيابى كانت «لجنة سرية» من خمسين نبيلاً ، وخمسة وعشرين قسيساً ، وخمسة وعشرين نائباً عن المدن تحضر مشروعات القوانين جميعها ، وتختار الوزراء ، وتهيمن على السياسة الخارجية . وقد أعنى النبل من الضرائب ، واحتكروا حق شغل مناصب الدولة العليا (٣٨) . فلماذا لم يكن المجلس منعقداً سيردفة الحكم «راد» (مجلس) من ستة عشر أو أربعة وعشرين رجلاً يختارهم المجلس النيابى ويسألون أمامه . وكان الملك يرأس هذا المجلس وله صوتان ، وفيما عدا هذا لم يكن له سلطة التشريع . وتضافرت روسيا وبروسيا والدنمرك لتأييد هذا الدستور لأنه يجتذ سياسة السلام ويكبح النزعات الحربية للملوك الأقوياء . ولم تعد الملكية وراثية بل أصبحت انتخابية . وبعد موت شارل الثانى

عشر (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) كان مآل العرش بالوراثة إلى كارل فريدريش دوق هولشتين جوتنورب ، وهو ابن لأخت شارل الكبرى ؛ ولكن المجلس النيابي المنعقد في يناير ١٧١٩ لأول مرة في عشرين سنة ، أعطى التاج لأولريكا اليانورا وهي أخت أنخري لشارل ، بعد أن وافقت على التخلي عن سياسة الاستبداد الماكي التي مارسها أخوها . ولكن حتى مع هذه الموافقة تبين أنها عسيرة القيادة . وفي ١٧٢٠ اقنعت بالنزول عن العرش لزوجها الحاكم فردريك الأول أمير هسي — كاسل الذي أصبح الآن فردريك الأول ملك السويد . وبفضل الإرشاد الحكيم الذي بذله الكونت آرفيد برنهارد هورن — وكان مستشاراً للدولة — أتيح للسويد ثمانية عشر عاماً من السلام لتبرأ فيها من جراح الحرب .

غير أن الإبادة من السويديين سفحوا من سياسته السلمية ولقبوا أشياعه « الطواقي » وهم يعنون بهذا اللقب أنهم خرفون نيام بينما تراجع السويد إلى المؤخرة في ركب الدول . وقام ضد هؤلاء حزب « القبعات » الذي كونه الكونت كارل جيلنبورج ، وكارل تسين . وغيرهما . وتسلط هذا الحزب على المجلس النيابي في ١٧٣٨ ، وحل جيلنبورج محل هورن . وإذا كان مصمماً على إعادة السويد إلى سابق مكانها بين الدول ، فإنه جدد التحالف المتقادم مع فرنسا التي أرسلت معوناتها المالية للسويد لقاء معارضتها لمطامع روسيا ؛ وفي ١٧٤١ أعلنت الحكومة الحرب على روسيا ، أملاً في استرداد أقاليم البلطيق التي استولى عليها بطرس الأكبر ، ولكن لا الجيش ولا البحرية كانا معدين الأعداد الكافي ، وقد أعجز المرض رجال البحرية . وسلم الجيش فنلنده كلها أمام الزحف الروسي . على أن القيصرة اليزابث ، الحريصة على كسب تأييد السويد ، وافقت على رد معظم فنلنده إذا عين ابن عمها ادولفس فردريك أمير هولشتين — جوتنورب للعرش السويدي . وبهذه الشروط أنهى صلح آبو الحرب (١٧٤٣) . فلما مات فردريك الأول (١٧٥١) ارتقى ادولفس فردريك العرش .

ولم يمض وقت طويل حتى علمه مجلس الطبقات انه ملك بالاسم

لا بالفعل . فقد نازعه حقه في تعيين النبلاء الجديد ، أو اختيار أعضاء بلاطه ، وهدد بالاستغناء عن توقيعہ ان اعترض على التوقيع على قوانين أو وثائق معينة . وكان الملك رجلاً لين العريكة ، ولكن كان له زوجة متكبرة أمرة هي لويزة أولريكا أخت فردريك الأكبر . وحاول الملك والمملكة الثرة على سلطة المجلس . ولكن الثورة أخفقت ، وعذب عملاؤها وقطعت رؤوسهم أما الملك فعفى عنه لأن الشعب كان يحبه . وأما لويزة فعزت نفسها بحب الأدب وبرزت في مضاره . وقد صادقت ليناوس وجمعت من حولها لفيقاً من الشعراء والفنانين نشرت خلاصهم أفكار التنوير الفرنسي . وعين المجلس النباني معلماً جديداً لابنها ذى الأعوام العشرة ، وأصدر إليه تعليمات بأن يحيط ملك المستقبل جوستافس الثالث بأن الملوك في الدول الحرة لا يحتفظون بعروشهم إلا إذا سمح لهم بشروط ، وأنهم إنما تخضع عليهم الآلهة والجلال « لتشريف المملكة لا لأجل الشخص الذي يتفق أن يشغل المكان الأول في الموكب » وأنه « بما أن بريق البلاط ووجهه » قد يضلهم بأوهام العظمة ، فإنهم يحسنون صنعا أن هم تفقدوا أكوخ الفلاحين بين الحين والحين ، ورأوا الفقر الذي يدفع تكاليف الآلهة الملكية » (٣٩) .

وفي ١٢ فبراير ١٧٧١ مات أدولفس فردريك ودعا المجلس جوستافس الثالث ليأتى من باريس ويمثل لمراسم الملكية .

٢ — جوستافس الثالث

كان أكثر الملوك جاذبية بعد هنرى الرابع ملك فرنسا . وإذا كان وسيماً مرحاً ، عاشقاً للنساء والفنون والسلطة ، فقد لمع وتوهج خلال تاريخ السويد كأنه الشحنة الكهربائية دافعاً إلى الحركة كل العناصر الحيوية في حياة الأمة ، وكان قد أحسن تعليمه على يد كارل تسين ، ودلتته أمه المولعة به . وكان من حيث الفكر نابغاً مرهفاً ، ومن حيث الخيال والحس الجمالى موفور الحظ ، لا يستقر على حال لفرط طموحه وكبريائه ، فليس من اليسير أن يكون المرء أميراً متواضعاً . ونقلت إليه أمه عشقها للأدب الفرنسي ، فقرأ فولتير بنهم ، وبعث إليه بعبارات الاحترام ، وحفظ الهنريادة عن ظهر

قلب . وكان السفير السويدي في باريس يوافيه بكل مجلد من « الموسوعة » عند صدوره . ودرس التاريخ باهتمام وافتتان ، وأطربته سير جوستافس فاذا ، وجوستافس أدولفس ، وشارل الثاني عشر ؛ وبعد أن قرأ عن هؤلاء الرجال لم يطق أن يكون ملكاً خاملاً . وفي ١٧٦٦ ، زوجه المجلس للأميرة صوفيا مجدلينا ابنة فرديريك الخامس ملك الدنمرك دون أن يؤخذ رأيه ، ولا رضى أبويه . وكانت خجولا دمثة الطبع تقية ترى المسرح مكاناً للإثم ؛ أما هو فكان شكاكاً ، يحب الدراما ، ولم يغتفر قط للمجلس إقحامه في هذا الزواج المتنافر . وهذا المجلس ثأثرته مؤقتاً بمنحة طيبة تتيح له الرحلة إلى فرنسا (١٧٧٠ - ٧١) . ٥

وتوقف في كوبنهاجن ، وهامبورج ، وبرنزويك ، ولكن باريس كانت مقصده . وتحدى غضب لويس الخامس عشر بزيارة شوازيل المنفى ، وانتهك التقاليد بزيارة مدام دوبارى في قصرها الريفي في لوفيسين . والتقى بروسو ، ود الامير ، — وما رمونتيل ، وجريم ، ولكن ظنه فيهم خاب وكتب لأمه يقول « تعرفت إلى جميع الفلاسفة ، ولإني لأجد كتبهم ألطف كثير من أشخاصهم »^(٤١) وسطع نجماً من نجوم الشمال في صالونات السيدات جوفران ودودفان ودلسيناس ودينييه ونكير . وتلقى وسط انتصاراته نبأ يفيد أنه أصبح ملك السويد . فلم يتعجل الرجوع ، بل أقام في باريس ردهاً أتاح له الحصول على معونات مالية كبيرة للسويد من حكومة فرنسا المشرفة على الإفلاس ، و ٣٠٠,٠٠٠ جنيه لاستعماله الشخصي في ترويض أعضاء مجلس الأمه . وفي الطريق إلى أرض الوطن توقف ليرى فرديريك الأكبر الذي أنذره بأن بروسيا ستدافع — بالسلاح إن اقتضى الأمر — عن ذلك الدستور السويدي الذي قيد سلطات الملك تقييداً شديداً .

ووصل جوستافس إلى ستوكهلم في ٦ يونيو . وفي الرابع عشر افتتح أول مجلس أمة في عهده بكلام جميل أشبه بذلك الذي افتتح به ملك آخر معوق ، هو جورج الثالث ، برلمانه الأول في ١٧٦٠ . قال « إننى وقد ولدت ونشأت بين ظهرائكم تعلمت منذ نعومة أظفاري أن أحب وطني ، ولإني لأعده أعظم امتياز أننى ولدت سويدياً ، وأكبر شرف أن أكون المواطن الأول

لشعب حر»^(٤١) . وقد أكسبته بلاغته ووطنيته تجاوباً حاراً من الأمة ، ولكنهما لم تحركا قلوب رجال السياسة . وفاز حزب الطواقي -أصدقاء الدستور وروسيا - الذين تمولهم كاترين الثانية بأربعين ألف جنيه ، بأغلبية في ثلاث من مجالس الطبقات الأربع . ورد جوستافس باقتراض ٢٠٠,٠٠٠ جنيه من المصرفيين الهولنديين ليشتري انتخاب مرشحه رئيساً للمجلس . ولكن كان عليه أن ينتظر تنويجه ، فراجعت مجالس الطبقات التي يسيطر عليها حزب الطواقي بمن التتويج ليربط الملك بتعهد يلتزم فيه بقرار «أغلبية مجالس الطبقات» وأن تكون الكفاية وحدها أساساً لجميع الترقيات . وقام جوستافس نصف عام هذه الخطوة نحو الديمقراطية ، وأخيراً وقع (مارس ١٧٧٢) ، ولكنه في دخيلة نفسه اعتزم الإطاحة بهذا الدستور الكريه لأول بادرة تسنح له .

وقد مهد أرضه بتوطيد شعبيته . ففتح أبوابه للجميع ، و «أغدق الهبات كأنه يتلقاها» ، ولم يصرف أحداً غير راض . وقد وافقه نفر من قادة الجيش على أنه لا يستطيع تخليص السويد من تسلط روسيا وبروسيا - اللتين كانتا في هذا الوقت بالذات (٥ أغسطس ١٧٧٢) تقطعان أوصال بولنده - إلا حكومة مركزية قوية لا يعوق حركتها مجلس أمة مرتش . وساهم فرجين السفير الفرنسي بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دوقاتيه في نفقات الانقلاب . وفي ١٨ أغسطس رتب جوستافس أن يقابله ضباط الجيش في الترسانة صباح الغد . وجاء مائتان منهم . فطلب إليهم أن ينضموا إليه في الإطاحة بنظام حكم فاسد قلق يد عمه أعداء السويد ، فوافقوا كلهم على أن يتبعوه إلا واحداً . أما الخارج على الإجماع ، وهو رودبيك الحاكم العام ، فقد ركب مخترقاً شوارع ستوكهلم داعياً أفراد الشعب إلى حماية حريتهم ، ولكنهم ظلوا غير مكترئين ، لأنهم كانوا معجبين بـجوستافس ، ولم يحبوا هذا المجلس الذي كان في رأيهم يستر أولجاركية من النبلاء ورجال الأعمال وراء أشكال ديمقراطية . وقاد الملك الشاب (وقد بلغ السادسة والعشرين) الضباط إلى ثكنات حرس ستوكهلم فتحدث إليهم حديثاً بلغ من الإقناع مبلغاً جعلهم

يتعهدون بتأييده . وبدأ انه يكرر خطوة فخطوة الطريقة التي أوصلت كاترين الثانية إلى السلطة قبل عشر سنوات .

فلما التأم شمل مجلس الأمة في ٢١ أغسطس وجد ساحته يحيط بها الرماة والقاعة نفسها قد احتلها الجنود . ووبخ جوستافس في خطاب صنع التاريخ مجالس الطبقات لأنها لوئت نفسها بالتناحر الحزبي والرشوة الأجنبية ، وأمر بأن يقرأ عليها الدستور الجديد الذي أعده معاونوه . وقد احتفظ هذا الدستور بملكية مقيدة ، ولكنه وسع سلطات الملك ، فحول له الهيمنة على الجيش والبحرية والعلاقات الخارجية ، وله وحده حق تعيين الوزراء وإقالتهم ، ولا يجتمع مجلس الأمة إلا بدعوة منه ، وله أن يفرض متى شاء ، ولا يناقش المجلس إلا ما قدمه له الملك . ولكن لا يصبح مشروع قانوناً دون موافقة المجلس ، ويحتفظ المجلس بالإشراف على المالية عن طريق مصرف السويد وحق فرض الضرائب . وليس للملك أن يخوض حرباً هجومية دون موافقة المجلس . والقضاة يعينهم الملك ثم يصبحون غير قابلين للعزل ، ويحمى حق « الهايباس كوريس » كل الأشخاص المعتقلين من تعطيلات القضاء . وطلب جوستافس إلى النواب أن يقبلوا هذا الدستور ، وأقنعهم أسنة الخراب فقبلوه ، وأقسموا بيمين الولاء . وشكر الملك المجلس وفضه واعدأ بدعوته من جديد خلال ستة أعوام . واختفى حزبا الطواقي والقبعات . وقد تم الانقلاب في سرعة لم يرق فيها دم . وبرضى الشعب على ما يلوح . « وقد هتفوا لـجوستافس محرراً لهم وأغرقوه دعاء . . . وتعانق الناس وهم يذرفون دموع الفرح »^(٤٢) . واغتبطت فرنسا ، أما روسيا وبروسيا فهددتا بالحرب لرد الدستور القديم . ولكن جوستافس لم يهتز ، وتراجعت كاترين وفردريك ، مخافة أن تعرض الحرب مغانهما البولندية للخطر .

وسلك جوستافس في العقد التالي مسلك الملك الدنماركي . . . أى أنه خضع للقانون الموضوع . وقام بإصلاحات نافعة . وتبوأ له مكاناً بين حكام القرن « المستبدين المستنيرين » . وأشاد به فولتير باعتباره « الوريث الجدير باسم جوستافس العظيم »^(٤٣) . وأما طورجو الذي كان يعاني الإحباط في

فرنسا . فقد طاب نفساً حين رأى سياساته الاقتصادية تنجح في السويد ، حيث أجزت حرية التجارة في الغلال ، وأطلق عقال الصناعة من نظم النقابات الحرفية التي شلت حركتها . وحفز التجارة بتنظيم الموانئ الحرة على البلطيق ومدن الأسواق الحرة في الداخل . واستشير ميرابو الأب في تحسين الزراعة : وكلف لمربيه ولا ريفير بوضع خطة للتعليم العام^(٤٤) . وأرسل جوستافس إلى فولتير نسخة من الأمر الذي كفّل حرية النشر (١٧٧٤) ، وكتب يقول : « إنك أنت الذي يجب أن تسدى إليك الإنسانية الشكر على نخطيم تلك العقبات التي ألقاها الجهل والتعصب في طريق تقدمها^(٤٥) » وقد أصلح القانون والقضاء ، وألغى التعذيب ، وخفف العقوبات ، وثبت العملة . ثم خفف الضرائب على الفلاحين ، وأعاد تنظيم الجيش والأسطول ، ومنح التسامح لجميع المذاهب المسيحية واليهود في ثلاث مدن كبرى منها بذلك احتكار المذهب اللوثرى لتقوى السويديين ؛ فلما ان دعا مجلس الأمة للانعقاد في ١٧٧٨ . وافق المجلس على سنوات حكمه الست الأولى دون أن يخرج صوت واحد على الإجماع وكتب جوستافس إلى صديق له « لقد بلغت أسعد مراحل حياتي العملية . فأفراد شعبي مقتنعون بأنني لا أبغى شيئاً غير زيادة رفاهيتهم وتوطيد دعائم حريتهم^(٤٦) » .

٣ — التنوير السويدي

وفي زحمة هذا النشاط التشريعي والإداري . أسهم الملك بكل قلبه في ذلك التفجر الرائع للآداب والعلوم . الذي أوقف السويد على قدم المساواة مع التطورات الفكرية الأوروبية في القرن الثامن عشر ، وكان هذا عصر ليناوس في النبات . وشيليه وبرجمان في الكيمياء . وقد أشدنا بذكرهما في غير هذا الموضع — ولكن ربما كان من واجبنا أن ندرج في قائمة العلم رجلاً من ألمع السويديين في زمانه . وهو إيمانويل سويدنبورج . لأنه اشتهر أول ما اشتهر بوصفه عالماً . فقد أنجز عملاً أصيلاً في الفيزياء والفلك والجيو لوجيا والبيونولوجيا وعلم المعادن والفسيولوجيا وعلم النفس . وحسن المضحخة الهوائية باستعمال الزئبق ؛ وإيجاد وصف المغنطيسية

والوميض الفوسفورى ؛ واقترح نظرية سديمية قبل كانط ولا بلاس بزمان ؛ وسبق البحث الحديث فى الغدد الصماء . وبين قبل أى عالم آخر بمائة وخمسين عاماً أن حركة المخ متزامنة مع التنفس لأمع النبض . وحدد مكان عمليات العقل الراقية فى سماء المخ ، وحدد لأجزاء معينة من المخ وظيفة التحكم فى أعضاء معينة من الجسم^(٤٧) . وخطب مجلس النبلاء فى النظام العشرى ، وإصلاح العملة ، وموازنة التجارة . وبدأ أن عبقريته كلها موجهة إلى العلم . ولكنه حين خلص إلى أن دراساته تقوده إلى نظرية ميكانيكية للعقل والحياة ، وأن هذه النظرية مفضية إلى الإلحاد ، انتقص على العلم بقوة وتحول إلى الدين . وفى ١٧٤٥ بدأ يرى رؤى للجنة والنار ، وانتهى به الأمر إلى تصديق هذه الرؤى حرفياً ، فوصفها فى رسالته « السماء وعجائبها والجحيم » وأخبر قراءه الذين يعدون بالألوف أنهم فى الجنة لن يكونوا أرواحاً مجردة من جسموها بل رجالاً ونساء حقيقيين من لحم ودم ، يستمتعون بمباهج الحب الجسدية والروحية . جميعاً . ولم يعظ ، ولا ألف مذهباً أو شيعة ، ولكن تأثيره انتشر فى طول أوروبا وعرضها ، فتأثر به ويسلى ، ووليم بليك ، وكولردج ، وكارليل ، وإمرسن ، وبراوننج ، وأخيراً (١٧٨٨) كون اتباعه « كنيسة أورشليم الجديدة » .

على أن السويد رغم معارضته أسلمت عقلها أكثر فأكثر للتنوير . وسرعان ما أسفر استيراد المؤلفات الفرنسية والانجليزية أو ترجمتها عن علمته للثقافة وتهذيب للتذوق والأشكال الأدبية . ووجدت النزعة التحررية الجديدة فى عهد جوستافس الثالث وأمه قبولاً واسعاً فى الطبقتين الوسطى والعليا ، حتى بين كبار رجال الدين ، الذين بدأوا يبشرون بالتسامح وبعقيدة ربوبية بسيطة^(٤٨) . وكانت الشعارات السائدة فى كل مكان هى « العقل » ، و « التقدم » ، و « العلم » و « الحرية » و « الحياة الطيبة هنا على الأرض » . ونظم لينايوس وغيره الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم فى ١٧٣٩ ، وأسس كارل تسين الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة فى ١٧٣٣ . وكانت الأكاديمية الملكية للآداب البحتة قد عاشت فترة قصيرة على عهد الملكة لويزة أولريكتا ، فأحيها جوستافس (١٧٨٤) بوقف سنّى ، ووجهها لمنح ميدالية كل عام

قيمتها عشرون دوقانية لأفضل إنتاج سويدي في التاريخ أو الشعر أو الفلسفة ، وفاز هو نفسه بأول جائزة كوفي عنها على ثنائه على لئارت تورشتنسن ألمع قواد جريستافس أدولفس . وفي ١٧٨٦ أسس الملك ، (على حد قوله) «أكاديمية جديدة لتهديب لغتنا وصقلها ، على غرار الأكاديمية الفرنسية ، ويطلق عليها اسم الأكاديمية السويدية ، وتتألف من ثمانية عشر عضواً . وأمدت هذه الأكاديمية هي وأكاديمية الآداب البهتة بالمال اللازم لصرف المعاشات للدارسين والمؤلفين السويدين^(٤٩) . وكان جريستافس يساعد شخصياً رجال الأدب أو العلم أو الموسيقى ؛ وقد أشعرهم بأن جوده حق لهم ، ورفعهم إلى مقام اجتماعي جديد بدعوتهم إلى بلاطه ، ثم حفزهم بمنافسته إياهم .

وكان في السويد دراما قبل عهده ، لا سيما بتشجيع من أمه ، ولكنها كانت تزود بالممثلين الفرنسيين الذين يقدمون المسرحيات الفرنسية . فصرف جريستافس الفرقة الأجنبية ، واستنض الموهب الوطنية لإخراج تمثيلات للمسرح سويدي حقاً . وتعاون هو نفسه مع يوهان فيلاندر في تأليف أوبرا « تيطس وبيليه » ، وعرضت أول مرة في ١٨ يناير ١٧٧٣ ، واستمر عرضها ثمانين ليلة . ثم انصرف الملك إلى السياسة ثمانية أعوام . غير انه عاد إلى تناول القلم من جديد في ١٧٨١ وألف سلسلة من التمثيلات مازالت تحتفظ بمكانة مرموقة في الأدب السويدي . وأولى هذه التمثيلات - المسماة (أريحية جريستافس أدولفس ، ١٧٨٢) - كانت فاتحة الدراما السويدية . وكان الملك يستقي موضوعاته من سجلات التاريخ ، وقد علم شعبه تاريخ أمتهم كما علم شكسبير الانجليزى . وفي ١٧٨٢ بنى على حساب الدولة مسرح منيف للدراما والموسيقى . وكان جريستافس يكتب مسرحياته نثراً ، ثم يصوغها يوهان كلجرين شعراً ، ثم يدفعها إلى مؤلفين موسيقيين أجانب ليضغوا موسيقاها . وهكذا أصبحت تمثيلاته أوبرات . وكانت أشهى ثمرات هذا التعاون « جريستاف أدولف وإيبا براهى » التى أحييت ذكرى قصة غرام القائد العظيم ، وجريستاف فازا ، التى وصفت تحرير أول جريستاف للسويد من الحكم الدنمركى .

وبفضل هذه القيادة الملكية ، وبفضل ثلاث جامعات (أوبسالا ،

وآبو ، ولوند) دخلت السويد حركة تنويرها الخاصة . ومهد للحركة أولوف فون دالين بتمهيد أديسونى (أى على طريقة جوزف أديسون) بكتابته غفلا من التوقيع ، ونشره دوريا (١٧٣٣ — ٣٤) مجلة دنسفنسكا أرجوس « التى ناقش فيها كل شىء إلا السياسة : بأسلوب صحيفة سبكتيتور المهذب ، وابتهج كل قارئ تقريرا بما كتب : ووافق مجلس الأمة على إجازة الكاتب الذى طلع الآن من مخبئه . وعينه الملكة لويزه أولريكا شاعرا للبلاط ومعلما لابنها الذى أصبح جوستافس الثالث . فقيد المنصب شاعريته وبلدها ، ولكنه أتاح له من الوقت والمال ما أعانه على كتابة رائعته فى تاريخ السويد ، وهو أول تاريخ نقدى للمملكة السويد .

وكانت أطرف الشخصيات فى كوكبة الشعراء الجديدة امرأة تسمى هديج نوردنفلشت ، وهى للسويد قريح لسافو ، وأسباسيا ، وشارلوت بررنى فى أوطانهم . وقد أفرغت أبويها المتزمتين بقراءتها المسرحيات والشعر ، فعاقباها ، ولكنها لم تلتهمه ، وكتبت شعرا فيه من الخلاوة والفتنة ما أكرههما على أن يروضا نفسيهما على هذه الفضيحة . ولكنها أجبراهما على الزواج من ناظر ضيعتهما ، وكان رجلا حكيما ديم الوجه ، قالت « كنت أحب أن أصغى إليه فيلسوفا ، ولكن منظره عاشقا كان لا يحتمل » (٥٠) . وتعلمت أن تحبه ، ولكنها لم يلبث أن مات بين ذراعيها بعد زواجهما بثلاث سنين . وأنهى قسيس وسيم حدادها بخطبتها ، فأصبحت زوجا له ، واستمتعت « بأسعد حياة تتاح لإنسان فان فى هذا العالم الناقص » ، ولكنه مات بعد سنة ، وكادت هديج تجن حزنا عليه . فاعتكفت فى كوخ على جزيرة صغيرة ، وبثت حزنها فى قصائد حظيت بقبول حسن حملها على الانتقال إلى ستوكهولم حيث ظلت تصدر كل سنة (١٧٤٤ ... ٥٠) « حكما للنساء ، بتلم راعية من الشمال » وأصبح بيتها صالونا يلتقى فيه صفوة المجتمع والفكر . وحذا حذوها الشعراء الشبان أمثال فردريك جيلنبورج وجوستاف كروتز فى اتخاذ الأسلوب الفرنسى الكلاسيكى وفى اعتناق التنوير . وفى ١٧٥٨ ، حين بلغت الأربعين ، وقعت فى غرام يوهان فشرشروم . وكان فى الثالثة والعشرين ، واعترف لها بأنه يحب امرأة غيرها ، ولكنه حين رأى

هيدفيج وحيدة مبتثسة عرض عليها الزواج . فرفضت هذه التضحية ، وحاولت لإغراق نفسها حلاً للمشكلة ، فأنقذت ، ولكنها ماتت بعد ثلاثة أيام . وما زالت « راعية الشمال » عالماً من أعلام الأدب السويدي .

وحذا كروتز حذو خيالها الرومانسي المخلق بمجموعة رقيقة جداً من الأغاني سماها « أتيس وكاميللا » (١٧٦٢) ، ظلت سنين كثيرة أعظم ما يعجب به القراء من قصائد في هذه اللغة . فكاميللا ، بوصفها كاهنة لديانا ، تنذر للعفة ، ولكن أتيس الصياد يراها فتفو نفسه إليها ويضرب في الغابات يائساً . وتحرك عاطفة كاميللا أيضاً فتسأل ديانا « أليس ناموس الطبيعة مقدساً قداسة أمرك ؟ » ثم تصادف أيلاً جريحاً فتعني به وتخفف ألمه ، فيعلق يدها ، ويتوسل إليها أتيس أن تهبه امتيازات مماثلة ، فتوبخه ، فيقفز من جرف عال طلباً للموت ، ولكن كيوييد يعترض سقطته ، وتحنو عليه كاميللا وترضى بعناقه ، غير أن ثعباناً يذشب نابه في صدرها المرمى ، فتموت بين ذراعي أتيس . ويمص أتيس السم من جرحها فيشرف على الموت . وتلين قناة ديانا ، وتردهما إلى الحياة ، وتحل كاميللا من نذورها العذرية . وينتهي كل شيء نهاية سعيدة . وقد أشاد بهذه القصيدة الرعوية المثقفون السويديون كما أشاد بها فولتير ، ولكن كروتز انصرف إلى السياسة وأصبح مستشاراً للسويد .

ولإذا كانت هيدفيج نورد نفليشت هي سافو السويد ، فإن كارل بلمان كان روبرت بيرنز السويد . نشأ في أحضان العز والتقوى ، ولكنه تعلم أن يفضل أغاني الحانات المرححة على ترانيم بيته الكنيسة . ففي الحانات كانت حقائق الحياة والوجدان تعلن دون اكتراث بالتقاليد واللياقة ، وفيها يعرى الخمر كل نفس فتتيح للحقيقة أن تتكشف بين الوهم والغضب . وكان أكثر الشخصيات بعثاً للأسى في هذا الحطام البشري يان فريدمان ، الذي كان يوماً ما صانع ساعات البلاط ، والذي حاول الآن أن ينسى في الشراب فشل زواجه . وأكثرها مرحاً ماريكيلشتروم ، ملكة الأعماق السفلى . وقد غنى بلمان أغانيهم معهم ، وألف الأغاني عنهم ، وأنشدها أمامهم على أنغام موسيقى من تأليفه . وقد شاب بعض أغانيه شيء من التحلل ، فوبخه

كيلجرين ، الأمير غير المتوج لشعراء العصر . ولكن حين أعد بلمان « رسائل فريدمان » للطبع (١٧٩٠) قدم كيلجرين لهذه الرسائل الشعرية بمقدمة حماسية ، وحظى الكتاب بجائزة من الأكاديمية الملكية السويدية . واستمع جوستافس الثالث إلى بلمان في سرور ، ولقبه « أناكريون الشمال » ومنحه وظيفة شرقية في الحكومة . على أن اغتيال الملك (١٧٩٢) ترك الشاعر بغير مورد ، فتردى في مهاوى الفقر ، وحبس للدين ، ثم أفرج عنه بمعونة أصدقائه . وبينما كان مشرفاً على الموت بالسل وهو في الخامسة والخمسين أصر على زيارة حانته الأثيرة لآخر مرة ، وراح يغنى فيها حتى ببح صوته . ولم يلبث أن وافته منيته في ١١ فبراير ١٧٩٥ . ويعده البعض « أكثر الشعراء السويدين أصالة » و « بالإجماع أعظم شاعر في زمرة الشعراء » الذين شرفوا هذا العهد (٥١) .

ولكن الرجل الذى أقر معاصروه بأنه لا يفضلُه سوى الملك في حياة العصر الفكرية هو يوهان هنريك كيلجرين . كان ابناً لقسيس ، ولكنه تنكر للعقيدة المسيحية ، وسار في ركاب التنوير الفرنسى ، ورحب بكل لذائد الحياة ومتعها بأقل قدر من الندم . وكان أول كتبه « ضحكى » ، أغنية طويلة للفرح ، بما فيه أفراح العشق ، وقد أشاد كيلجرين بالضحك باعتباره « العلامة الوحيدة الإلهية المميزة للبشرية » وناشده أن يصحبه حتى آخر أيامه (٥٢) . وفي ١٧٧٨ ، وهو في السابعة والعشرين ، اشترك مع كارل بيتر لنجرين في تأسيس مجلة « بريد ستوكهولم » ، وقد جعل قلمه المرح هذه المجلة الصوت الغالب في الحياة العقلية السويدية على مدى سبعة عشر عاماً ؛ وفي صفحاتها بسط التنوير الفرنسى سلطانه كاملاً ، وشرف الأسلوب الكلاسيكى باعتباره اسماً معياراً للتفوق . وسخرت المجلة من الرومانسية الألمانية ، وامتمدحت تحليلات كيلجرين في قصائد أفزع الحافظين في البقاع النائية . على أن اغتيال ميلكه المحبوب انتزع من فلسفة اللذة التى دان بها الشاعر . وفي ١٧٩٥ أفلت منه زمام إحدى علاقاته الغرامية فعمقت حتى أصبحت حباً صادقاً . وبدأ كيلجرين يعترف بحقوق الرومانس ، والمثالية ، والدين ، وعدل عن إدانته لشييكسبير وجوته ، ورأى أن رأس الحكمة قد يكون مخافة

الله (رغم كل شيء) . على أنه حين مات (١٧٩٥) غير متجاوز الرابعة والأربعين . طلب ألا تقرأ لموته نواقيس^(٥٣) وهكذا عاد في النهاية ابناً لفولتير .

ومن النواحي الساحرة في خلقه استعدادده لفتح أعمدة مجلته لمعارضى آرائه . وكان أعنفهم توماس توريلد : الذى أعلن الحرب على التنوير باعتباره الإعجاب الفج بالفكر السطحي . وقد روع توريلد ستوكهولم وهو في الثانية والعشرين بكتابه « العواطف المشبوبة » الذى قال عنه إنه « يحوى القوة الكاملة لفلسفتي والبهاء كله لخيالى — طليقاً ، نشوان ، رائعاً » . وصرح بأن « حياته بأسرها مكرسة . . . للكشف عن الطبيعة وإصلاح العالم »^(٥٤) . والتف حوله نفر من الأدباء المتمردين الذين أججوا نارهم بوقود الحركة الزوابعية وفضلوا كلوبشتوك على جوته : وشكسبير على راسين . ورومو على فولتير . فلما أخفق توريلد في كسب جوستافس لصفه ، هاجر إلى إنجلترا (١٧٨٨) ، وغذى روحه بجيمس طومس ، وإدوارد يونج ، وصموئيل رتشر دسن ، وانضم إلى المتطرفين الذين ناصرُوا الثورة الفرنسية . وفي ١٧٩٠ قفل إلى السويد ونشر دعوة سياسية حملت الحكومة على نفيه . وبعد أن قضى عامين في ألمانيا سمح له بالعودة إلى السويد حيث استكان إلى كرسي في الجامعة .

وقد لمع في سماء الأدب نجوم آخرون . منهم كارل جوستاف آف ليوبولد الذى سر الملك بما اتسم به شعره من شكل كلاسيكى وطابع مهيب . ومنهم بنجت ليدنر الذى أثر الرومانس كما أثره توريلد . وقد طرأ من جامعة لوند لمغامراته الطائشة (١٧٧٦) ، ثم واصل دراساته وانخرط في روستوك ، فوضع على ظهر سفينة مبحرة إلى جزر الهند الشرقية . ولكن هرب منها ، وعاد إلى السويد ، وأثار انتباه جوستافس بديوان من الهندس الخرافية الشعرية ؛ وقد عين سكرتيراً للكونت كرويتز في سفارة باريس . وهناك درس النساء أكثر من السياسة ، فأرسل إلى وطنه ، حيث مات

فقيراً في الخامسة والثلاثين (١٧٩٣) . وقد كفر عن حياته بثلاثة دواوين تضطرم بنار بايرونية . ثم هناك شاعرة متواضعة هي آنا ماريا لنجرين ، زوجة مساعد كيلجرين في تحرير مجلة بريد ستوكهولم . فقد أسهمت فيها بشعر أكسبها ثناء خاصاً من الأكاديمية الملكية السويدية . ولكنها لم تسمح لربة شعرها أن تموقها عن أداء واجباتها المنزلية ؛ وفي قصيدة موجهة إلى ابنة وهمية نصحتها بأن تتجنب السياسة والمجتمع وتقنع بواجبات البيت ومباهج الحياة البتية .

ونسأل الآن : هل قامت في الفن السويدي أى حركة تتجاوب مع الأدب والدراما ؟ .. قليلاً ... ومن أمثلتها أن كارل جوستاف التسيني زخرف بالروكوك (حوالى ١٧٥٠) القصر الملكى الذى بناه أبوه نيقوديموس تسين في ١٦٩٣ - ٩٧ . وجمع مجموعة وافرة من الصور والتماثيل هي الآن جزء من متحف ستوكهولم القومى . وحفر يوهان طوبياس زرجيل بالأسلوب الكلاسيكى تمثالاً لفينوس وآخر لفون سكران (وهو إله الحقول والقطعان) ، وخلد في الرخام ملامح يوهان باش الغليظة . وكان هناك أربعة مصورين في أسرة باش : لورننس الأكبر ، وأخوه يوهان ، وأخته أولريكا ، ولورننس الأصغر ، وصور كل منهم الملكية والنبالة ، وكانوا جانباً متواضعاً في التنوير الرائع الذى ازدان به هذا الحكم .

٤ .. الاغتيال

كان الملك ذاته هو الذى ختم هذا الازدهار الرائع ختاماً حزيناً . ذلك أن الثورة الأمريكية التى عضدتها فرنسا أعظم تعضيد بدت له خطراً يهدد كل الملكيات . فوصف المستعمرين بأنهم « رعايا متمردون » وأقسم أنه لن يعترف بهم أمة حتى يحلهم ملك إنجلترا من عین الولاة له (٥٥) . وراح في العقد الأخير من عمره يحكم زمام السلطنة الملكية أكثر فأكثر . ويحيطها بالاحتفالات والمراسم ، ويقصى معاونيه الأكفاء ذوى العقول المستقلة ليحل محلهم خداماً له يمثلون لرغباته دون تردد أو معارضة . وبدأ يقيد الحرية التى منحها للمطبوعات . وحين وجد زوجته امرأة غبية حاملة لإنغمس في

مغازلات (٥٦) صدمت الرأى العام الذى كان يتوقع من ملوك السويد أن يكونوا للأمة قدوة فى المحبة والولاء الزوجيين . ثم نفر الشعب بتقريره احتكار الحكومة لتقطير المسكرات ، وتهرب الفلاحون الذين ألفوا أن يقطروا شرابهم بأنفسهم من هذا الاحتكار بعشرات الحيل . وقد أنفق مالا متزايداً على الجيش والبحرية ، وكان يتأهب بشكل ظاهر للحرب مع روسيا . فلما جمع مجلس الأمة مرة ثانية (٦ مايو ١٧٨٦) افتقد فى طبقاته ذلك الإجماع الذى وافق به مجلس ١٧٧٨ على قوانينه ، ورفض المجلس مقترحاته كلها تقريباً ، أو عدلها تعديلاً أفقدها قيمتها ، فاضطر الملك إلى إلغاء احتكار الحكومة لتقطير الخمر . وفى ٥ يوليو فُض المجلس وقرر أن يحكم البلاد دون موافقته .

وكانت هذه الموافقة طبقاً للدستور ١٧٧٢ ضرورية فى أى حرب إلا الحرب الدفاعية . وكان جوستافس ينوى الهجوم على روسيا . فما السبب ؟ لقد علم أن روسيا والدنمرك قد وقعتا (١٢ أغسطس ١٧٧٤) معاهدة سرية للعمل الموحد ضد السويد . وزار كاتن ين الثانية فى سانت بطرسبرج فى ١٧٧٧ ، ولكن تظاهرها بالصداف لم يخذع المضيفة ولا ضيفها . فلما تكاثرت انتصارات روسيا على تركيا ، خشى جوستافس إذا لم يقيم بعمل لإنهائها أن توجه الامبراطورية عاجلاً جيوشها الضخمة غرباً بأمل إخضاع السويد لمشيئتها على نحو ما فعلت ببولنده : فهل من سبيل لإحباط تلك الخطة ؟ لاسبيل فى رأى الملك إلا أن تعان تركيا بهجوم جناحى على سانت بطرسبرج . وساعده السلطان على اتخاذ هذا القرار بعرضه على السويد إعانة قدرها مليون قرش كل سنة على امتداد السنوات العشر التالية إذا انضمت إليه فى الجهد المبذول لكبح جماح كاترين . وعلل الملك نفسه بأن السويد قد تستطيع الآن أن تسترد ما أسلمته لبطرس الأكبر فى ١٧٢١ . وعليه فى ١٧٨٥ بدأ جوستافس فى تجهيز جيشه وبحريته للحرب . وفى ١٧٨٨ أرسل إلى روسيا إنذاراً نهائياً طالب فيه برد كارايا وليفويينا للسويد . وبرد القرم لتركيا . وفى ٢٤ يونيو أبحر قاصداً فنلنده . وفى ٢ يوليو . تولى فى هلسنجهفورس قيادة قواته المتجمعة . وشرع فى الزحف على سانت بطرسبرج .

ولكن الحظ خانة في كل شيء فالأسطول أوقفه أسطول روسي صغير في معركة غر حاسمة تجاه جزيرة هوجلاند (١٧ يوليو) . وتمرد في الجيش ١١٣ ضابطاً . متهمين الملك بأنه حث بعهدته بألا يشن حرباً هجومية دون موافقة مجلس الأمة . ووافدوا مبعوثاً إلى كاترين يعرضون عليها أن يضعوا أنفسهم تحت حمايتها وأن يتعاونوا معها في جعل فنلندة السويدية والروسية دولة مستقلة . وجردت الدنمرك على عجل خلال ذلك جيشاً مهاجم جوتبورج ، أغنى مدينة في السويد . وتقبل جوستافس هذا الغزو باعتباره تحدياً يستنفر شعبه ، ووجه نداءه إلى الأمة لاسيا الفلاحين الصلاب أهل مناطق التعدين المسمين « ديلز » ليعطوه جيشاً جديداً أكثر ولاء له ، وذهب بشخصه مرتدياً الزي الذي يتميز به رجال الديلز ليخطبهم من فناء الكنيسة في قرية مورا وهو الفناء الذي التمس فيه جوستافس فازامعونتهم في ١٥٢١ . واستجاب الشعب ، وتألقت أفواج المتطوعين في مائة مدينة . وفي سبتمبر ركب الملك الذي كان يقاتل لأجل حياته السياسية ٢٥٠ ميلاً في ثمان وأربعين ساعة ، وشق طريقه إلى جوتبرج . واستنفر الحامية لتواصل دفاعها ضد اثني عشر ألف من الدنمركيين الذين يحاصرونها . وتحول الحظ إلى جانبه . ذلك أن بروسيا التي كرهت أن تترك السويد تخضع لروسيا هددت بشن الحرب على الدنمرك . فانسحب الدنمركيون من الأرض السويدية . وعاد جوستافس ظافراً إلى عاصمته .

أما وقد اشتد ساعده بجيش جديد موال له فقد دعا مجلس الأمة للانعقاد في ٢٦ يناير ١٧٨٦ . وأيد سبعمائة عضو من أعضاء مجلس النبلاء — وعددهم ٩٥٠ — الضباط المتمردين . ولكن المجالس الأخرى — القساوسة . وأهل المدن . والفلاحين — ناصروا الملك بأغلبية ساحقة . وأعلن جوستافس الحرب السياسية على النبلاء بتقديمه للمجلس الأمة « قانوناً للوحدة والأمن » أنهى كثيراً من امتيازات الطبقة الارستقراطية ، وفتح باب المناصب كلها تقريباً للجميع . وأعطى الملك سلطات مأكية مطلقة في التشريع والإدارة والحرب والصلح . وأعطى الطبقات الثلاث الدنيا القانون . أما طبقة النبلاء فقد رفضته . واعتقل جوستافس واحداً وعشرين نبيلاً . ومنهم

الكونت فردريك آكسل فون فرسن والبارون كارل فردريك فون بكليين— وأحدهما رجل شريف الخلق غير فعال ، والآخر ذكى غادر . ولكن سلطة المال ظلت في يد مجلس الأمة ، وكانت موافقة المجالس الأربعة جميعها شرطاً لإقرار الاعتمادات المالية . ووافقت مجالس الطبقات الثلاث الدنيا على المال الذى طلبه الملك — للفترة التى يراها ضرورية — لمواصلة الحرب ضد روسيا ، أما مجلس النبلاء فرفض أن يوافق على الاعتمادات لأكثر من سنتين . وفى ١٧ أبريل دخل الملك مجلس النبلاء ، واتخذ مقعد الرئيس ، وطلب إلى النبلاء أن يوافقوا على قرار المجالس الثلاثة الأخرى . ورجحت كفة الرافضين، ولكن الملك أعلن أن اقتراحه فاز . وشكر النبلاء على تأييدهم الكريم ، ثم خرج بعد أن خاطر باغتباله بأيدي النبلاء الساخطين .

وأحسن الآن أنه مطلق اليد في خوض الحرب . فأعاد فيما بقى من عام ١٧٨٩ بناء الجيش والأسطول . وفى ٩ يوليو ١٧٩٠ التقت بحريته بالبحرية الروسية في الجزء السفلى من خليج فنلندة ، وأحرز أعظم نصر حاسم في تاريخ السويد البحرى ، وخسر الروس ثلاثاً وخمسين سفينة و ٩,٥٠٠ رجل . واستعدت كاترين الثانية لعقد الصلح وهى ما تزال مشغولة بالترك ، فوافقت بمقتضى معاهدة فارالا (١٥ أغسطس ١٧٩٠) على أنها جهودها للهزيمة على سياسة السويد ، وأعيدت الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب . وفى ١٩ أكتوبر ١٧٩١ أقنعها جوستافس بأن تبرم معه حلفاً دفاعياً تعهدت فيه بأن ترسل للسويد كل عام ٣٠٠,٠٠٠ روبل .

ولا ريب في أن خوف العدوين القديمين المشترك من الثورة الفرنسية حولهما إلى هذه المشاركة الجديدة . وتذكر جوستافس في عرفان أن فرنسا كانت الصديق الوفى للسويد طوال ٢٥٠ عاماً ، وأن لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر أمداه بمعونة بلغت ٣٨,٣٠٠,٠٠٠ جنيه بين عامى ١٧٧٢ و ١٧٨٩ . واقترح تأليف عصبة من الأمراء والملوك تغزو فرنسا وتعيد الملكية إلى سابق قوتها ، وأوفد هانز آكسل فون فرسن (وهو ابن عدوه الكونت فون فرسن) ليدبر فرار لويس السادس عشر من باريس ،

وذهب بنفسه إلى إكس — لا — شابل ليقود جيش الحلفاء ، وسمح للمهاجرين الفرنسيين بالالتجاء إلى معسكرة . وقدمت كاترين المال دون الرجال . ورفض ليوبولد الثاني التعاوض ، وقفل جوستافس إلى ستوكهولم ليحمي عرشه .

ذلك أن النبلاء الذين قضى على سيادتهم السياسية لم يرتضوا الهزيمة ، وكانوا يرون في حكم جوستافس الاستبدادى انتهاكاً صريحاً للقانون الذى أقسم من قبل على مساندته . وأطال يعقوب أنكارشتروم التفكير فى سقوط طبقته ، « لقد فكرت كثيراً فى أنه قد يكون هناك سبيل مشروع لجعل الملك يحكم وطنه وشعبه بمقتضى القانون ومحبة الخير ، ولكن كل الأدلة قامت ضدى . . . فخير أن يغامر لإنسان بحياته فى سبيل المصلحة العامة » ، وفى ١٧٩٠ حوكم بتهمة التحريض « لقد عقدت هذه المحنة . . . عزى على أن أموت خيراً من أن أحيا حياة تعسة ، حتى إن قلبي الذى طبع فى غير هذا على الحساسية والمحبة انقلب قاسياً أشد القسوة فيما يتصل بهذه الفعلة الشنيعة » (٥٧) . وانضم بكليين — كونت كارل هورن — وغيره إلى المؤامرة التى بيتت قتل الملك .

وفى ١٦ مارس ١٧٩٢ . وهو تاريخ يذكر بقيصر ذكرى مشثومة ، تلقى جوستافس رسالة تحذره من الذهاب إلى مرفص تنكرى حددت له تلك الليلة فى المسرح الفرنسى . وذهب الملك نصف مقنع ، ولكن الأوسمة التى حملها على صدره كانت تشى بمقامه . فتعرف عليه أنكارشتروم ، وأطلق عليه النار ، ثم فر هارباً . وحملوا جوستافس إلى مركبة مضوا بها إلى القصر الملكى مخترقين جمعاً هائجاً مضطرباً . وكان ينزف نزفاً خطراً ، ولكنه علق مداعباً بأنه أشبه بباباً يحمل فى موكب يخترق طرق روما . ولم يمحض على الهجوم ثلاثة ساعات حتى قبض على أنكارشتروم ، ثم على رؤوس المؤامرة أجمعين بعد أيام . واعترف هورن بأن المؤامرة تضم مائة متآمر .

وطالبت الجماهير بإعدامهم ، وأوصى جوستافس بالترفق بهم . فجلد أنكارشتروم ، وقطع رأسه ، ومزق جسده أرباعاً ، وأُفصح لجوستافس في الأجل عشرة أيام ، فلما أنبى بأن لم يبق له في الحياة غير ساعات ، أُملى وثائق بتعيين هيئة وصاية تحكم البلاد والعاصمة . ثم مات في ٢٦ مارس ١٧٩٢ بالغاً من العمر خمسة وأربعين عاماً . وبكته الأمة كلها تقريباً . لأنها تعلمت أن تحبه رغم أخطائه . وأدركت أن السويد تحت قيادته عاشت عصراً من أجدد العصور في تاريخها .

.....



- of a Pilgrimage to Al-Madinal and Mec-
cab, II, 94.
8. Letter of Apr. 18, 1717, in Montagu, *Let-
ters*, I, 318.
9. Letter of Apr. 1, 1717, in same, 286.
10. Friedländer, L., *Roman Life and Man-
ners*, II, 201.
11. Frederick, *Mémoires*, I, 55.
12. Sir Wm. Petty, *Political Arithmetic*
(1683).
13. Halsband, 74.
14. See *The Age of Louis XIV*, 425-26.
15. Lane, I, 172.
16. Lane-Poole, *Cairo*, 180.
17. Lane, I, 98.
18. *Ibid.*, 66.
19. *Enc. Brit.*, I, 618a.
20. *Ibid.*, XV, 816d.
21. Toynbee, *A Study of History*, I, 162.
22. Browne, Edward G., *Literary History of
Persia*, IV, 135.
23. *Ibid.*, 136; Sykes, Sir Percy, *History of
Persia*, II, 160.
24. *Ibid.*, 267.
25. *Enc. Brit.*, XII, 705b; Pope, Arthur U.,
Survey of Persian Art, IV, 470, 497-506.
26. Sykes, II, 201.
27. Pope, Arthur U., *Introduction to Persian
Art*, 140.
28. Browne, E. G., IV, 182.
29. *Ibid.*, 291-96.

CHAPTER XVII

1. Frederick the Great, *Mémoires*, I, 207.
2. Lyashchenko, Peter, *History of the Na-
tional Economy of Russia*, 271-73.
3. *Ibid.*
4. Réau, Louis, *L'Art russe*, II, 88.
5. Florinsky, M. T., *Russia: A History and
an Interpretation*, I, 575.
6. Mavor, James, *Economic History of Rus-
sia*, I, 477.
7. Réau, II, 88.
8. Mavor, I, 498-99.
9. Bernal, J. D., *Science in History*, 360.
10. Coxe, Wm., *Travels in Poland, Russia,
Sweden, and Denmark*, I, 281-82.
11. Castéra, J., *History of Catherine II*, 174.
12. Dorn, *Competition for Empire*, 70.
13. Florinsky, I, 600; Brückner, A., *Literary
History of Russia*, 113.
14. Coxe, *Travels*, I, 322.
15. Masson, *Memoirs of Catherine II and
Her Court*, 250.
16. Pougin, Arthur, *Short History of Rus-
sian Music*, 10 f.
17. Réau, II, 55.
18. Brückner, 78.
19. Waliszewski, K., *History of Russian Lit-
erature*, I, 57.

CHAPTER XVI

1. Montagu, Lady Mary W., *Letters*, I, 372;
cf. Macdonald, Duncan, *The Religious
Attitude to Life in Islam*, 126.
2. Lane, Edward W., *Manners and Cus-
toms of the Modern Egyptians*, I, 148;
Macdonald, Duncan, *Development of
Muslim Theology*, 283; Wherry, E. M.,
Commentary on the Quran, I, 281.
3. Macdonald, D., *Religious Attitude*, 126.
4. Doughty, Charles M., *Travels in Arabia
Deserta*, II, 99.
5. Halsband, Robert, *Life of Lady Mary
Wortley Montagu*, 73.
6. Lane-Poole, Stanley, *Story of Turkey*,
319.
7. Burton, Sir Richard, *Personal Narrative*

20. Wiener, Leo, *Anthology of Russian Literature*, I, 224-29.
21. Rambaud, Alfred, *History of Russia*, II, 170.
22. Waliszewski, *Peter the Great*, 224.
23. Waliszewski, *Russian Literature*, 83.
24. *Ibid.*
25. 85.
26. Catherine the Great, *Memoirs*, 60.
27. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 47.
28. *Ibid.*
29. 25.
30. Kluchevsky, V. O., *History of Russia*, IV, 354.
31. Catherine, *Memoirs*, 58.
32. Gooch, G. P., *Catherine the Great*, 11.
33. *CMH*, VI, 317.
34. Carlyle, *History of Frederick the Second*, V, 294.
35. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 34.
36. Kluchevsky, IV, 358.
37. Casanova, *Memoirs*, I, 33-34.
38. *CMH*, VI, 658.
39. Catherine, *Memoirs*, 28.
40. *Ibid.*, 44-45.
41. 29-30.
42. 54.
43. 62.
44. 63.
45. 65.
46. *CMH*, VI, 659.
47. Waliszewski, *Romance*, 78.
48. *Ibid.*
49. Kluchevsky, IV, 360.
50. Castéra, 122-23.
51. Waliszewski, *Romance*, 91.
52. Catherine, *Memoirs*, 203.
53. Castéra, 89.
54. Walpole, H., *Memoirs of the Reign of King George III*, I, 145.
55. Catherine, *Memoirs*, 208.
56. Gooch, *Catherine*, 8.
57. Catherine, 301.
58. *Ibid.*, 240.
59. 255 f.
60. Waliszewski, *Romance*, 102; Crocker, *The Embattled Philosopher*, 378.
61. Catherine, 271-74; Waliszewski, *Romance*, 119.
62. *Ibid.*, 125.
63. Catherine, 282.
64. Waliszewski, *Romance*, 145.
65. *Enc. Brit.*, XVII, 645b.
66. Castéra, 153.
67. Rambaud, II, 175.
68. Kluchevsky, IV, 366.
69. Castéra, 147, 157.
70. *Ibid.*, 156; *CMH*, VI, 328.
71. Kluchevsky, IV, 362.
72. Castéra, 152.

73. Waliszewski, *Romance*, 166.
74. *Ibid.*, 166; Castéra, 158.
75. Waliszewski, 166.
76. *Ibid.*, 164.
77. Gooch, *Catherine*, 16.
78. Catherine, 343.
79. *Ibid.*
80. Waliszewski, *Romance*, 176.

CHAPTER XVIII

1. Letter of Catherine to Potemkin, Aug. 2, 1762, in Catherine, *Memoirs*, 347.
2. Kluchevsky, IV, 371.
3. Catherine, 345.
4. Kluchevsky, IV, 371.
5. Catherine, 345.
6. Florinsky, I, 502.
7. *CMH*, VI, 663.
8. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 199.
9. *Ibid.*
10. Catherine, 370.
11. Gershey, *From Despotism to Revolution*, 303.
12. Rambaud, II, 207.
13. Florinsky, I, 504.
14. Brandes, *Voltaire*, 253.
15. Florinsky, I, 504.
16. Catherine, 263-72.
17. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 97.
18. Waliszewski, *Romance*, 383-88. Gooch, *Catherine*, 38.
19. Waliszewski, 4-6.
20. Masson, *Memoirs*, 98.
21. *Ibid.*
22. Catherine, 360.
23. *Ibid.*, 20.
24. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 197.
25. Catherine, 376.
26. *Ibid.*, 48.
27. Gooch, *Catherine the Great*, 45.
28. Masson, *Memoirs*, 116.
29. Waliszewski, *Romance*, 448.
30. Masson, 118.
31. Parton, *Life of Voltaire*, II, 386; Gooch, 58.
32. Voltaire, letter of May 18, 1767, in Desnoiresterres, VI, 380.
33. Parton, II, 388.
34. Desnoiresterres, VI, 380.
35. Letter of Sept. 7, 1764.
36. Crocker, *Embattled Philosopher*, 373.
37. Diderot, *Oeuvres*, 28.
38. In Ellis, Havelock, *The New Spirit*, 47.
39. Morley, John, *Diderot*, II, 113.
40. *Ibid.*, 114.
41. In Faguet, *Dix-huitième Siècle*, 242.
42. Crocker, 380.
43. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 215.

44. Padover, *Revolutionary Emperor*, 161.
45. Sainte-Beuve, II, 216.
46. Catherine, 365.
47. Castéra, 226; cf. Waliszewski, *Romance*, 371-82.
48. Cox, *Travels in Poland*, III, 156; Castéra, 385.
49. Quoted by Voltaire in *Philosophical Dictionary*, II, 102.
50. Florinsky, I, 511; CMH, VI, 686.
51. In Gooch, *Catherine*, 69.
52. Voltaire to Catherine, Feb. 26, 1769.
53. In Rambaud, II, 206.
54. Voltaire, *Phil. Dict.*, art. "Power."
55. Mavor, *Economic History of Russia*, I, 241; Rambaud, II, 211.
56. Waliszewski, *Romance*, 365.
57. Garrison, F., *History of Medicine*, 400.
58. Castéra, *Catherine*, 297; Rambaud, II, 212.
59. Mavor, I, 313-14.
60. *Ibid.*, 472.
61. CMH, VI, 690.
62. Waliszewski, *Romance*, 298.
63. Lyashchenko, 273.
64. Mavor, I, 204-08.
65. Gershoy, 125.
66. Catherine, *Memoirs*, 385.
67. Gershoy, 123.
68. Florinsky, I, 567-68.
69. Waliszewski, *Romance*, 321.
70. *Id.*
71. Rambaud, II, 192; *Cambridge History of Poland*, II, 103.
72. Gooch, *Catherine*, 63.
73. Rambaud, II, 192.
74. CMH, VI, 674.
75. Quoted by George Bancroft in *Literary and Historical Miscellanies*, 359.
76. Gooch, *Catherine*, 51.
77. Lewis, *Four Favorites*, 213.
78. *Ibid.*, 179.
79. 215; Bain, R. N., *The Last King of Poland*, 175.
80. Florinsky, I, 531.
81. Catherine, 15.
82. Gilbert, *Prince de Ligne*, 139; Waliszewski, *Romance*, 209.
83. Castéra, 575.
84. Gooch, *Catherine*, 96.
85. Reddaway, *Frederick the Great*, 340.
86. Waliszewski, *Romance*, 233, 287.
87. *Ibid.*, 388.
88. Catherine, 377.
89. CMH, VI, 696.
90. Waliszewski, *Romance*, 237.
91. Wiener, *Ambology of Russian Literature*, I, 272-76.
92. *Ibid.*, 385.
93. 390.
94. 381.
95. Waliszewski, *History of Russian Literature*, 103.
96. Brückner, *Literary History of Russia*, 102.
97. *Ibid.*, 115.
98. 116.
99. 105-07.
100. Waliszewski, *Romance of an Empress*, 342.
101. Réau, *L'Art russe*, II, 111.
102. *Ibid.*, 68.
103. Waliszewski, *Romance*, 349.
104. *Enc. Brit.*, XIX, 747b.
105. Waliszewski, *Romance*, 346.
106. Réau, II, 76.
107. *Ibid.*
108. 79.
109. Masson, *Memoirs of Catherine II and Her Court*, 93.
110. Gilbert, *Prince de Ligne*, 143.
111. Brückner, 112.
112. Morley, John, *Diderot*, II, 128; Rambaud, II, 245.
113. *Ibid.*, 247.
114. Masson, *Memoirs*, 303-06.
115. Catherine, 20.
116. Masson, 66.
117. Gooch in introd. to Catherine, *Memoirs*, 10.
118. Otto Höttsch in CMH, VI, 701.

CHAPTER XIX

1. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 37.
2. Goodwin, *The European Nobility*, 161.
3. Waliszewski, *Poland the Unknown*, 127.
4. Bain, R. Nisbet, *The Last King of Poland*, 22; Friedländer, L., *Roman Life and Manners*, II, 162.
5. Bain, 43.
6. *Cambridge History of Poland*, II, 75.
7. *Ibid.*, 76-77; Cox, Wm., *Travels in Poland*, II, 125.
8. *New CMH*, VII, 374; Lewinski-Corwin, E. H., *Political History of Poland*, 286.
9. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 73.
10. Bain, *Last King of Poland*, 100.
11. *Ibid.*, 59.
12. 31-32.
13. See *The Age of Louis XIV*, 374, 385-87.
14. CHP, II, 24.
15. Lewinski-Corwin, 289.
16. Bain, *Last King*, 55.
17. *Ibid.*, 56.
18. Aldis, *Madame Geoffrin*, 248.
19. Florinsky, *Russia*, I, 517.
20. Aldis, 251.
21. *Ibid.*, 282.
22. CHP, II, 116; Bain, 161.
23. Bain, *Last King*, 121.
24. Rambaud, *History of Russia*, II, 188.
25. CHP, II, 118.
26. CHP, II, 97-98; Bain, 77-78.

27. Rambaud, II, 188.
28. Bain, *Last King*, 78.
29. *CHP*, II, 120.
30. Voltaire, *Philosophical Dictionary*, art. "Superstition," Sec. III.
31. Martin, H., *Histoire de France*, XVI, 167.
32. *CHP*, II, 102.
33. *Ibid.*, 103.
34. *Ibid.*; Bain, 108.
35. Bain, *Last King*, 108.
36. *Ibid.*, 2.
37. *Enc. Brit.*, XVIII, 143d.
38. Treitschke, *Life of Frederick the Great*, 164.
39. *CMH*, VI, 670.
40. Lewis, D. B. W., *Four Favorites*, 101.
41. Gershoy, 180.
42. Morley, John, *Life of Voltaire*, in Voltaire, *Works*, XXIIb, 346; Florinsky, I, 537.
43. Cox, *Travels in Poland*, I, 159.
44. Bain, *Last King*, 121.
45. *CHP*, II, 181-82.
46. Bain, 102.
47. *CHP*, II, 181-83.
48. *Ibid.*, 135.
49. Bain, *Last King*, 249.
50. *Ibid.*, 278.
51. *CHP*, II, 155.
24. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
25. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
26. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
27. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
28. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
29. Paulsen, *German Education*, 142.
30. Gershoy, 284.
31. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
32. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
33. *Ibid.*, 299.
34. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
35. *CMH*, VI, 718.
36. Gershoy, 84.
37. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
38. Bruford, 22.
39. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
40. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
41. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
42. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 163.
43. Sime, James, *Lessing*, II, 131.
44. Schiller, *Poems*, 219-20. In *Works*.
45. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
46. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
47. Bruford, 39.
48. *Enc. Brit.*, IX, 152b.
49. Padover, *Revolutionary Emperor*, 269.
50. Campbell, Thos., *The Jesuit*, 611.
51. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 204.
52. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason"*, 6.
53. Eckermann, introduction.
54. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
55. *Ibid.*, 116-17.
56. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
57. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
58. Morley in Voltaire, *Works*, XXIIb, 153.
59. Nettie, *Mozart and Masonry*, 9.
60. Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 318.
61. *Ibid.*, 331.
62. Sime, *Lessing*, I, 27.
63. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
64. *Ibid.*, 118.
65. Lessing, *Laocöon*, 190; Ch. xxvi, ad. init.
66. Bosanquet, *History of Aesthetic*, 211n.
67. Lessing, *Laocöon*, 56.
68. *Ibid.*, 57.

CHAPTER XX

1. In Gooch, *Frederick the Great*, 65.
2. MacLaurin, C., *Men Mortals*, 195.
3. Mowat, R. B., *The Age of Reason*, 61.
4. Gooch, *Frederick*, 121.
5. Mann, Thos., *Three Essays*, 213.
6. Sir James Harrison in Gooch, *Frederick*, 149.
7. In Rolland, *Musical Tour*, 214.
8. *New York Times*, Mar. 10, 1929.
9. Frederick, letter of Oct. 30, 1776, in Voltaire and Frederick, *Letters*, 314.
10. Crocker, Lester, *Age of Crisis*, 133.
11. Gooch, *Frederick*, 138.
12. Gershoy, *From Despotism to Revolution*, 80.
13. Voltaire and Frederick, *Letters*, 249.
14. Frederick to Voltaire, July 2, 1759, and Oct. 31, 1760, in *Letters*, 256, 270.
15. Bertaut, J., *Napoleon in His Own Words*, 463.
16. Treitschke, *Life of Frederick*, 182.
17. In Hazard, Paul, *European Thought in the 18th Century*, 333.
18. Sainte-Beuve, *Portraits of the 18th Century*, II, 344.
19. *Ibid.*, 347.
20. In Mowat, 105.
21. Morley, in Voltaire, *Works*, XXIIb, 195.
22. Sainte-Beuve, I, 220-21.
23. Voltaire and Frederick, *Letters*, 282.
24. Carlyle, *History of Friedrich the Second*, IV, 179n.
25. Frederick to Voltaire, Feb. 10, 1767.
26. Chesterfield to his son, *Letter.*, June 23, 1752.
27. Schoenfeld, *Women of the Teutonic Nations*, 299.
28. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 106; Gershoy, 75.
29. Paulsen, *German Education*, 142.
30. Gershoy, 284.
31. Carlyle, *Friedrich*, VII, 201.
32. Gershoy, 76; Renard and Weulersee, *Life and Work in Modern Europe*, 297.
33. *Ibid.*, 299.
34. Bruford, W. H., *Germany in the 18th Century*, 186.
35. *CMH*, VI, 718.
36. Gershoy, 84.
37. Frederick, *Testament* (1768), in *CMH*, VI, 723.
38. Bruford, 22.
39. Casanova, *Memoirs*, I, 349.
40. Burke, *Thoughts on French Affairs*, in *Reflections on the French Revolution*, 296.
41. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 75-76.
42. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 163.
43. Sime, James, *Lessing*, II, 131.
44. Schiller, *Poems*, 219-20. In *Works*.
45. Eckermann and Soret, *Conversations with Goethe*, 79.
46. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 44.
47. Bruford, 39.
48. *Enc. Brit.*, IX, 152b.
49. Padover, *Revolutionary Emperor*, 269.
50. Campbell, Thos., *The Jesuit*, 611.
51. Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 204.
52. Smith, N. K., *Commentary to Kant's "Critique of Pure Reason"*, 6.
53. Eckermann, introduction.
54. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 118.
55. *Ibid.*, 116-17.
56. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 251. In *Works*.
57. F. C. Schlosser in Monroe, Paul, *Textbook in the History of Education*, 580.
58. Morley in Voltaire, *Works*, XXIIb, 153.
59. Nettie, *Mozart and Masonry*, 9.
60. Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 318.
61. *Ibid.*, 331.
62. Sime, *Lessing*, I, 27.
63. Garland, H. B., *Lessing*, 154.
64. *Ibid.*, 118.
65. Lessing, *Laocöon*, 190; Ch. xxvi, ad. init.
66. Bosanquet, *History of Aesthetic*, 211n.
67. Lessing, *Laocöon*, 56.
68. *Ibid.*, 57.

69. Sime, II, 4.
70. *Ibid.*, 35.
71. Lessing, *Hamburgische Dramaturgie*, No. 70, in Garland; 64.
72. Lessing, *Sämliche Schriften*, X, 53, in Sime, II, 106.
73. Sime, II, 85.
74. Casanova, II, 271.
75. See *The Age of Voltaire*, 502.
76. Sime, II, 348.
77. Lessing, *Education of the Human Race*, No. 74 (Harvard Classics, Vol. XXXII, 212).
78. *Ibid.*, Nos. 85-86.
79. Brandes, Goethe, I, 434; Cassirer, *Philosophy of the Enlightenment*, 190.
80. Sime, II, 300; Brandes, Goethe, I, 434.
81. Sime, II, 346.
82. *Ibid.*, 330.
83. Klopstock, *The Messiah, ad finem*.
84. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 79; II, 5. In *Works*.
85. *Penguin Book of German Verse*, 175.
86. *Ibid.*, 178-90.
87. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 350. In *Works*.
88. Eckermann, 370 (Feb. 18, 1829).
89. Boehn, Max von, *Modes and Manners*, IV, 238.
90. Pascal, Roy, *The German Sturm und Drang*, 5.
91. *Ibid.*, 31.
92. Francke, Kuno, *History of German Literature*, 312.
93. *Ibid.*, 310.
94. Boehn, 124.
95. Schloss Tiefurt, near Weimar.
96. Schlossmuseum, Weimar.
97. Sanssouci Palace, Potsdam.
98. Winckelmann, II, 36.
99. Leipzig, Museum der Bildenden Künste.
100. Munich, Neue Pinakothek.
101. Dresden Gemäldegalerie.
102. Winterthur, Museum des Kunstvereins.
103. Schlossmuseum, Weimar.
104. Dresden Gemäldegalerie.
105. Weimar Museum.
106. Jahn, *Mozart*, III, 235.
107. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 589.
108. *Grove's Dictionary of Music*, I, 175.
109. Jahn, II, 65.
110. *Grove's*, I, 145-55, 177-81.
111. Gooch, *Frederick*, 298.
112. Frederick, *Mémoires*, I, 56 f.
113. Gooch, 309.
114. *Ibid.*, 305.
115. 319.
116. 323.
117. Frederick, *Mémoires*, I, 56.
118. Gooch, *Frederick*, 319.
119. *Ibid.*, 280.
120. 292.
121. 287.
122. 287.
123. 291.
124. 89.
125. 294.
126. In Hauser, Arnold, *Social History of Art*, II, 602.
127. Pascal, Roy, *Sturm und Drang*, 42.
128. MacLaurin, *Mere Mortals*, 201.
129. Gooch, *Frederick*, 110.

CHAPTER XXI

1. Paulsen, *Immanuel Kant*, 26n.
2. Überweg, F., *History of Philosophy*, II, 139.
3. T. M. Greene in introd. to Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, xviii.
4. *Ibid.*, xxx.
5. Paulsen, *Kant*, 37.
6. Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 3.
7. Herder, *Briefe zur Beförderung der Humanität*, in Paulsen, *Kant*, 40.
8. Williams, H. S., *History of Science*, III, 27-28.
9. Lovejoy, Arthur, *The Great Chain of Being*, 266.
10. Harlow Shapley in Wilson, *Immanuel Kant*, 51.
11. Kant, *Critique of Judgment*, II, 78; Paulsen, 272n.
12. Überweg, II, 150.
13. Paulsen, 272n.
14. In Smith, N. K., *Commentary*, xix.
15. Kant, *Critique of Pure Reason*, 1st ed., 13 (preface).
16. *Critique of Judgment*, I, 3.
17. *Pure Reason*, 1st German ed., 10 (preface).
18. *Pure Reason*, 2d German ed., xlii.
19. *Ibid.*, xxx, xxxiv.
20. *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 9 (preface).
21. In Paulsen, 96.
22. *Pure Reason*, 1st Germ. ed., 112.
23. *Ibid.*, 125; *Prolegomena*, No. 36.
24. *Pure Reason*, 42.
25. *Ibid.*, 307, 375.
26. *Pure Reason*, 2d Germ. ed., 131-33, 136, 139, 143.
27. *Ibid.*, 428.
28. First ed., 622-23.
29. *Ibid.*, 627.
30. 671-73, 675.
31. 468.
32. 683-92, 698.
33. 700.
34. Karl Reinhold in Paulsen, 114.
35. *Prolegomena*, 13 (preface).
36. *Pure Reason*, first ed., 298, 752.

37. Robertson, J. M., *Short History of Free-thought*, II, 337.
38. *Pure Reason*, 2d ed., xxx, xxxiv.
39. Kant, *Fundamental Principles of the Metaphysics of Ethics*, 35.
40. Kant, *Critique of Practical Reason*, 313.
41. *Ibid.*, 248, 259.
42. 142.
43. *Fundamental Principles*, 68.
44. *Ibid.*, 57.
45. *Practical Reason*, 108-9, 146.
46. *Pure Reason*, 2d ed., 571-73.
47. *Ibid.*, xxviii, 566-69, 580-81; *Practical Reason*, 164 f.
48. *Ibid.*, 259 f.
49. 260.
50. *Pure Reason*, 1st ed., 819.
51. Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 25.
52. Heine, H., *Religion and Philosophy in Germany*, in Paulsen, 8a.
53. *Critique of Judgment*, I, 18, 15.
54. *Ibid.*, 46.
55. 46.
56. *Critique of Judgment*, II, 89.
57. *Ibid.*, 117.
58. Kant, *Werke*, VI, 129, in Cassirer, *Rousseau, Kant, and Goethe*, 39.
59. Überweg, II, 141.
60. Kant, *Religion within the Limits of Reason Alone*, 3.
61. *Ibid.*, 8.
62. 8.
63. 28.
64. 29.
65. Kant, *Education*, No. 19.
66. Kant, *Religion*, 35.
67. Kant, "Conjectural Beginning of the History of Man," in Überweg, II, 186.
68. Kant, *Religion*, 51.
69. *Ibid.*, 147, 150-61.
70. 142-43.
71. 91.
72. 63.
73. 117.
74. 57, 134.
75. 186.
76. 183-85.
77. 153, 164-65, 168, 112.
78. *Ibid.*, xxxv.
79. Kant, *A Philosophical Treatise on Perpetual Peace*, 10.
80. *Ibid.*, 28.
81. 31.
82. *Practical Reason*, 341n.
83. *Perpetual Peace*, 78.
84. Paulsen, 351.
85. *Perpetual Peace*, 29-30; Smith, N. K., *Commentary*, lvii.
86. *Education*, No. 30.
87. *Ibid.*, No. 7.
88. Paulsen, 374.
89. *Practical Reason*, 326n.
90. *Ibid.*, introd. by T. G. Abbott, xliii.
91. *Ibid.*, xlii.
92. Paulsen, 45.
93. *Ibid.*, 47; Klinke, *Kant for Everyman*, 105.
94. Struckenbergh, *Life of Kant*, 340-54, in Robertson, J. M., *Free-thought*, II, 343.
95. Robertson, II, 345.
96. Letter of Apr., 1766, in *Religion within the Limits of Reason Alone*, introd., xxxvi.
97. Paulsen, 52.
98. Vaihinger, *The Philosophy of "As if,"* 313.
99. *Ibid.*, 316-17.
100. Witte, *Schiller*, 46.
101. Schiller, *Poems*, 290.
102. Eckermann, 79 (Apr. 14, 1824).
103. Emerson, lecture of 1842 on "The Transcendentalist," in Wilson, E. C., *Immanuel Kant*, 23.

CHAPTER XXII

1. Eckermann, 138 (Apr. 27, 1825).
2. Lewisohn, L., *Goethe*, I, 134.
3. Schiller to Körner, Aug. 8 and Sept. 10, 1787, in Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 140-43.
4. Brandes, *Goethe*, I, 307.
5. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 101.
6. Francke, *History of German Literature*, 253.
7. Wieland, *History of Aesthetics*, I, xxiv.
8. Francke, 255.
9. *Agathon*, I, 123 (Book III, Ch. ii).
10. *Ibid.*, Book III, Ch. iii.
11. In Francke, 258.
12. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
13. Mann, Thos., *Three Essays*, 8.
14. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 285. In *Works*.
15. *Ibid.*, 155 f.
16. 209-30.
17. 178.
18. 175.
19. 233.
20. 318.
21. Goethe, *Works*, VII, 27.
22. *Truth and Fiction*, I, 306. In *Works*.
23. *Ibid.*, 367.
24. 368.
25. Brandes, *Goethe*, I, 71.
26. Autobiography of Heinrich Jung-Stilling in Lewisohn, I, 40.
27. In Ludwig, Emil, *Goethe*, 31.
28. *Truth and Fiction*, I, 407.
29. In Ludwig, 42.
30. Eckermann, 291 (Oct. 8, 1827).
31. E.g., *Truth and Fiction*, II, 43.
32. *Ibid.*, 75.
33. Letter of June, 1771, in Lewisohn, I, 57.

34. *Truth and Fiction*, II, 120.
35. *Ibid.*, 143.
36. Brandes, I, 140.
37. Ludwig, 57.
38. Goethe, *Götz von Berlichingen*, Act I, Sc. ii.
39. *Truth*, II, 167.
40. From Kestner's diary, in Lewisohn, I, 71.
41. *Truth*, II, 188.
42. *Ibid.*, 214.
43. 214.
44. Brandes, I, 173.
45. In Ludwig, 87.
46. Lewisohn, I, 101.
47. *Truth*, II, 216-17.
48. Eckermann, 52 (Jan. 2, 1824).
49. Goethe, *Werther*, letters of July 19 and 21 and Aug. 30, 1771.
50. Goethe, letter to Kestner, Nov. 20, 1774, in Lewisohn, I, 105.
51. Sime, *Lessing*, II, 200.
52. Lewisohn, I, 101.
53. Kestner, letter to Hennings, Nov. 18, 1772, in Pascal, *German Sturm und Drang*, 108.
54. *Truth*, Book XII.
55. In Ludwig, 94.
56. Lavater's diary, June 28, 1774, in Lewisohn, I, 90.
57. Goethe's letter of Nov. 12, 1816, in Lewisohn, II, 262.
58. Lewisohn, I, 295.
59. *Truth*, II, 261, 309.
60. Translation in Carus, Paul, *Goethe*, 245-47.
61. *Truth*, II, 318, 327.
62. *Ibid.*, 366.
63. Clark, Robert. *Herder*, 160.
64. *Truth*, II, 11.
65. *Ibid.*, 16.
66. In Pascal, *German Sturm und Drang*, 225.
67. Heiseler, B. von. *Schiller*, 49.
68. Schiller, *Poems*, 7. In *Works*.
69. *Ibid.*, 9.
70. Carlyle, *Life of Schiller*, 15. In *Works*.
71. Schiller, *The Robbers*, Act I, Sc. ii.
72. *Ibid.*, II, iii.
73. *Ibid.*
74. V. i.
75. Heiseler, 47.
76. Ungar, Frederick. *Friedrich Schiller*, 34.
77. Witte, *Schiller*, 131.
78. Heiseler, 83.
79. Schiller, *Philosophical Letters*, p. 376 (Letter 1). In *Works*.
80. *Ibid.*, 385 (Letter IV).
81. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 15.
82. *Ibid.*, 13-16.
83. Heiseler, 85.
84. *Ibid.*
85. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 30-33.

86. Körner to Schiller, July 8, 1785, in *Correspondence*, I, 36.

CHAPTER XXIII

1. Einstein, *Mozart*, 19.
2. Goethe, *Truth and Fiction*, I, 291. In *Works*.
3. Schiller to Körner, July 28 and Aug. 29, 1787.
4. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 85.
5. *Ibid.*, 90, 168.
6. Wieland, *Oberon*, introd.
7. Brandes, *Goethe*, II, 266-69.
8. Lewisohn, II, 209.
9. Schiller and Körner, I, 85.
10. Pascal, *German Sturm und Drang*, 17.
11. *Ibid.*, 18.
12. 17.
13. Goethe to Jacobi, Nov. 12, 1783.
14. Goethe to Lavater, December, 1783.
15. Schiller and Körner, I, 85.
16. Clark, *Herder*, 240.
17. Bancroft, Geo., *Literary and Historical Miscellanies*, 173.
18. Herder to Hamann, Jan. 13, 1777, in Pascal, 95.
19. Clark, *Herder*, 274-77.
20. Herder to Jacobi, Feb. 6 and Dec. 30, 1764, in Pascal, 104.
21. Pascal, 104.
22. Clark, 340.
23. Pascal, 106.
24. Clark, 303.
25. *Ibid.*, 322.
26. 357.
27. 368.
28. Lewisohn, I, 133.
29. *Ibid.*
30. 153.
31. Eckermann, 285 (Sept. 26, 1827).
32. Lewisohn, I, 134.
33. *Ibid.*, 135.
34. 137-40.
35. 141.
36. 146.
37. 150.
38. Goethe to Charlotte von Stein, May 24, 1776.
39. Lewisohn, I, 151.
40. *Ibid.*, 156.
41. 222.
42. Brandes, I, 335.
43. Lewisohn, I, 127.
44. *Ibid.*, 236.
45. 271.
46. 306.
47. Eckermann, 251 (Apr. 25, 1827).
48. Goethe's diary, in Lewisohn, I, 215.
49. Ludwig, 440.
50. Translation by Longfellow.
51. Lewisohn, I, 232.

52. See *The Age of Reason Begins*, 259-65.
53. Goethe, *Tasso*, Act I, Sc. ii.
54. *Ibid.*, II, i.
55. I, ii.
56. *Ibid.*
57. Letter of Apr. 24, 1783, in Lewisohn, I, 266.
58. Ludwig, 155.
59. Lewisohn, I, 309.
60. Ludwig, 217.
61. Letter of Oct. 8, 1786, in *Letters from Italy*, 177.
62. Ludwig, 222.
63. Städelsches Museum, Frankfurt.
64. Lewisohn, I, 320.
65. *Ibid.*, 322.
66. Eckermann, 133, 201 (Jan. 30, 1825, and Jan. 18, 1827).
67. *Letters from Italy*, Dec. 3, 1786, and Feb. 16, 1787.
68. *Ibid.*, Dec. 1 and 3, 1786.
69. Feb. 3, 1787, in Lewisohn, I, 327.
70. In McKinney and Anderson, *Music in History*, 511.
71. Eckermann, 213 (Jan. 29, 1827).
72. Taine, *Philosophy of Art*, in Brandes, *Goethe*, I, 457.
73. Letter of Dec. 13, 1786, in Lewisohn, I, 323.
74. Lewisohn, I, 353.
75. Brandes, I, 469.
76. Lewisohn, I, 257.
77. Goethe, *Poetical Works*, 34-42. In *Works*.
78. Lewisohn, I, 368.
79. Ludwig, 300.
80. Brandes, II, 30.
81. Letter of Jan. 3, 1781, in Lewisohn, I, 229.
82. Examples in Lewisohn, I, 101-2, 186-88, 196-97, 229, 379.
83. Ludwig, 246.
84. Schiller and Körner, *Correspondence*, I, 112.
85. *Ibid.*, 89 (Aug. 28, 1787).
86. Letters of July 28 and Aug. 18, 1787.
87. *Don Carlos*, Act III, Sc. x.
88. Schiller to Körner, Apr. 15, 1786.
89. Körner to Schiller, November, 1788.
90. Schiller to Körner, Sept. 12, 1788.
91. Schiller and Körner, *Correspondence*, II, 330.
92. Letter of May 28, 1789.
93. Carlyle, *Life of Schiller*, 103. In *Works*.
94. Letter of Dec. 7, 1787.
95. Heiseler, 114.
96. Letter of Mar. 1, 1790.
97. Heiseler, 119.
98. Schiller to Körner, Feb. 22, 1791.
99. Letter of May 24, 1791.
100. Schiller, *Essays*, 203. In *Works*.
101. *On the Aesthetic Education of Mankind*, Letters vii and x in *Essays*, 45, 53.
102. Letter of May 5, 1792.
103. Ludwig, 326.
104. Schiller, *Poems*, 272. In *Works*.
105. Schiller to Goethe, Aug. 17, 1795, in Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 88-89.
106. *On Naive and Sentimental Poetry*.
107. Eckermann, Oct. 7, 1827.
108. Cf. letter to Körner, Aug. 29, 1787.
109. Schiller to Goethe, Aug. 23, 1794.
110. Schiller to Goethe, Aug. 31, 1794.
111. Goethe, "Happy Incident," in Carlyle, *Life of Schiller*, 305. In *Works*.
112. Schiller and Goethe, *Correspondence*, I, 1.
113. *Ibid.*, 5.
114. 6.
115. Schiller to Körner, Feb. 1, 1796.
116. In Ungar, *Schiller*, 129.
117. *Ibid.*, 140.
118. Schiller, *Essays*, 286, 321. In *Works*.
119. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, I, 324.
120. Schiller to Körner, Dec. 9, 1794, Feb. 12, 1795, June 15, 1795, July 2, 1796.
121. Letters of July 2-9, Oct. 9, and Oct. 23, 1796.
122. Goethe to Schiller, July 7, 1796.
123. Eckermann, Mar. 23, 1829.
124. Ludwig, 385-86.
125. Eckermann, Mar. 22, 1825.
126. Lewes, G. H., *Life of Goethe*, II, 202.
127. Goethe to Schiller, Jan. 18, 1797.
128. *Hermann and Dorothea*, 56-57. In *Works*.
129. Brandes, II, 470.
130. Schiller to Körner, Jan. 5, 1800.
131. Eckermann, July 23, 1827.
132. Heiseler, 143.
133. Ludwig, 386.
134. Schiller to Charlotte Schimmelmänn.
135. Goethe to Schiller, Feb. 28, 1801.
136. Eckermann, Oct. 7, 1827.
137. Lewisohn, I, 61.
138. Letter of Jan. 20, 1801.
139. Heiseler, 170.
140. Staël, Mme. de, *Germany*, I, 182.
141. Schiller to Goethe, Dec. 21, 1803, in Lewisohn, II, 92.
142. *Ibid.*
143. Staël, 23-24.
144. Lewisohn, II, 293.
145. Heiseler, 189.
146. Eckermann, Jan. 18, 1827.
147. Witte, *Schiller*, 38.
148. Goethe to Zelter, June 1, 1805, in Lewisohn, II, 107.

CHAPTER XXIV

1. Cf. final lines of *Faust*, Part II.
2. Brandes, *Goethe*, II, 250.
3. Recollections of Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 161.
4. Brandes, 263-64.
5. *Ibid.*

6. Eckermann, Mar. 15, 1829.
7. For the historical background of the Faust legend see *The Reformation*, 852.
8. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 21-22. In *Works*.
9. Lewisohn, I, 123.
10. *Ibid.*
11. Eckermann, Feb. 10, 1829.
12. Brandes, 305.
13. In the *Gesamtausgabe* by Breitkopf and Härtel.
14. Translation by Albert Latham in Everyman's Library ed. of *Faust*.
15. Eckermann, Jan. 10, 1825.
16. Latham's translation, p. 52.
17. *Ibid.*, 117-19.
18. 116.
19. Brandes, 229.
20. Lewisohn, II, 174.
21. *Elective Affinities*, English tr., 335. In *Works*.
22. *Ibid.*, 180.
23. 218.
24. Ludwig, 427.
25. *Ibid.*, 429.
26. 453.
27. Lewisohn, II, 202-4.
28. Ludwig, 315.
29. Lewisohn, II, 250.
30. *Ibid.*, 303.
31. 2-4.
32. 300-8.
33. Ungar, Frederick, *Goethe's World View*, 9.
34. Magnus, Rudolf, *Goethe as a Scientist*, 221.
35. *Ibid.*, xvi-xviii, 209.
36. 167.
37. 178.
38. Goethe's letter of May 17, 1767.
39. Magnus, 73.
40. *Ibid.*, 78; Brandes, 462.
41. *Ibid.*, 429.
42. Magnus, 42.
43. Ludwig, 188.
44. Magnus, 136.
45. Eckermann, Apr. 16, 1825.
46. Ungar, *Goethe's World View*, 31.
47. *Ibid.*, 77.
48. *Faust*, Part II, line 1754.
49. Ungar, *Goethe's World View*, 9, 105.
50. Letter of Jan. 6, 1798.
51. Ungar, 99.
52. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 108. In *Works*.
53. Quoted in Mann, *Three Essays*, 49.
54. *Truth and Fiction*, Part III, Book II.
55. Ludwig, 3.
56. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
57. *Ibid.*
58. *Truth and Fiction*, II, 272-73.
59. Lewisohn, I, 255.
60. *Truth and Fiction*, Book XIV.
61. Ungar, *Goethe's World View*, 47.
62. *Ibid.*, 41.
63. 37.
64. 37.
65. 43-45; Smith, *Preserved, Age of the Reformation*, 712.
66. *Truth and Fiction*, II, 311 f.
67. Ungar, *Goethe's World View*, 55.
68. Ludwig, 206.
69. *Ibid.*, 457.
70. Recollections of Johann Falk, in Lewisohn, II, 210.
71. Goethe to Zelter, May 11, 1820.
72. Brandes, I, 437.
73. Ungar, *Goethe's World View*, 81.
74. *Ibid.*, 6.
75. Eckermann, Apr. 2, 1829.
76. Ungar, 167.
77. *Ibid.*, 129.
78. 139.
79. 16.
80. 89.
81. *Truth and Fiction*, I, 421.
82. *Wilhelm Meisters Lehrjahre*, Book VII, Ch. iii.
83. *Ibid.*, Book V, Ch. iii.
84. Carus, *Goethe*, 168.
85. *Faust*, Part II, Act II.
86. Eckermann, Jan. 4, 1824.
87. Ungar, *Goethe's World View*, 50.
88. Eckermann, Feb. 13, 1829.
89. Ungar, 141.
90. *Ibid.*
91. 91.
92. Lewisohn, II, 438.
93. *Faust*, Part II, p. 341.
94. *Ibid.*, 407.
95. Friedrich von Müller, in Lewisohn, II, 370.
96. *Ibid.*, 371.
97. 376.
98. 430.
99. Goethe to Zelter, Dec. 14, 1830.
100. Lewisohn, II, 4-1.
101. Ungar, *Goethe's World View*, 121.
102. Mann, *Three Essays*, 63.
103. *Truth and Fiction*, II, 246.
104. Ludwig, 293.
105. *Ibid.*, 472.
106. In Mann, 47.
107. Lewisohn, II, 254.
108. In Friedell, Egon, *Cultural History of the Modern Age*, I, 272.
109. In Mann, 64.
110. We have followed the account given by K. W. Müller in 1832, in Lewisohn, II, 449 f.
111. Eckermann, 572.

CHAPTER XXV

1. In Masson, P. M., *La Religion de Rousseau*, II, 240.

2. See "Sermon of Rabbi Akib," and art. "Jews" in *Philosophical Dictionary*.
3. *Ibid.*, Sec. III.
4. Sec. IV.
5. See *The Age of Voltaire*, Ch. xiii, Sec. VII.
6. Cf. Black, J. B., *The Art of History*, 40-50.
7. Graetz, H., *History of the Jews*, V, 346.
8. Gay, *Voltaire's Politics*, 352.
9. Graetz, V, 347.
10. Rousseau, *Emile*, 267-68.
11. Sombart, W., *The Jews and Modern Capitalism*, 56.
12. Lea, H. C., *History of the Inquisition in Spain*, III, 308-11.
13. Altamira, *History of Spain*, 462.
14. Parton, *Life of Voltaire*, I, 161.
15. Bell, Aubrey, *Portuguese Literature*, 280.
16. Lea, III, 310.
17. Abbott, G. F., *Israel in Europe*, 209.
18. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 224.
19. *Ibid.*
20. Padover, *The Revolutionary Emperor*, 252.
21. *Jewish Encyclopedia*, XII, 434; Padover, 253 f.; Graetz, V, 357.
22. Padover, 257.
23. Letter of May 17, 1717, in Montagu, Lady Mary W., *Letters and Works*, II, 321.
24. Dubnow, S. M., *History of the Jews in Russia and Poland*, I, 255-56. Florinsky, *Kisina*, I, 490.
25. Dubnow, I, 307.
26. *Ibid.*, 189.
27. 169-71.
28. 173.
29. 172-79.
30. 179-80.
31. 182-86.
32. Roth, Cecil, *The Jewish Contribution to Civilization*, 28.
33. Sombart, 23.
34. *Jew. Enc.*, XIX, 418a.
35. *Ibid.*, 415-16.
36. Corri, Egon C., *Rise of the House of Rothschild*, I, 19.
37. George, M. Dorothy, *London Life in the 18th Century*, 127.
38. Besant, Sir Walter, *London in the 18th Century*, 178.
39. Roth, 242.
40. Finkelstein, Louis, ed., *The Jews*, I, 260.
41. Besant, 180.
42. Browne, Lewis, *The Wisdom of Israel*, 551.
43. Dubnow, I, 233.
44. *Ibid.*, 222 f.; Baron, Salo, *Social and Religious History of the Jews*, II, 54 f.; Graetz, V, 374 f. Howe and Greenberg, *Treasury of Yiddish Stories*, 15 f.

45. Graetz, V, 294.
46. Hensel, S., *The Mendelssohn Family*, 4.
47. Simic, *Lessing*, I, 133.
48. Graetz, V, 298.
49. In Wolf, A., *History of Science . . . in the 18th Century*, 781.
50. Graetz, V, 309.
51. *Ibid.*, 311.
52. Hensel, 10.
53. Graetz, V, 317.
54. *Jew. Enc.*, VIII, 482d.
55. Graetz, V, 365.
56. *Ibid.*, 355.

CHAPTER XXVI

1. Voltaire, *Works*, 1b, 302.
2. In Herold, J., *The Swiss without Halos*, 106.
3. Oechsli, W., *History of Switzerland*, 290.
4. Parton, *Life of Voltaire*, II, 458.
5. Lewisohn, II, 238-39.
6. Goethe, *Truth and Fiction*, II, 240-46, 252, 375, 398-404. In *Works*.
7. Holberg, Ludwig, *Selected Essays*, p. 48 (Epistle 48).
8. Lady Mary Wortley Montagu, letters of Aug. 3 and 5, 1716, in *Letters and Works*, II, 226-27.
9. Desnoiresterres, *Voltaire et la société française*, I, 237.
10. *Boswell in Holland*, 288.
11. Cumming, Ian, *Helvétius*, 50.
12. Smith, Adam, *Wealth of Nations*, I, 81.
13. Parton, *Life of Voltaire*, I, 152.
14. Blok, P. J., *History of the People of the Netherlands*, Part V, 174 f.; Robertson, J. M., *Short History of Freethought*, II, 353.
15. Blok, V, 183.
16. *Ibid.*, 92.
17. 86.
18. Dillon, Edw., *Glass*, 295 f.; Sirwell, S., *The Netherlands*, 147.
19. George Dempster to Boswell, Aug. 26, 1763.
20. *Boswell in Holland*, 95.
21. *Ibid.*, 317.
22. Herold, *Mistress to an Age*, 143.
23. *Ibid.*, 144.
24. Blok, V, 56.
25. *Ibid.*, 108.
26. Horn, F. W., *History of the Literature of the Scandinavian North*, 187.
27. Freedley and Reeves, *History of the Theatre*, 268.
28. Holberg, *Seven One-Act Plays*, 165-87.
29. Matthews, Brander, *The Chief European Dramatists*, 705.
30. Holberg, *Journey of Niels Klim to the World Underground*, 10.
31. *Ibid.*, 18.
32. 32.

33. 109.
34. 191.
35. 109.
36. Translation by Longfellow, in Van Doren, Mark, *Anthology of World Poetry*, 981.
37. Horn, *Scandinavian Literature*, 217.
38. Goodwin, A., *European Nobility*, 136.
39. *CMH*, VI, 762.
40. Bain, R. N., *Gustavus III*, I, 56.
41. *CMH*, VI, 768.
42. Bain, *Gustavus III*, I, 124.
43. Andersson, Ingvar, *History of Sweden*, 281.
44. Higgs, *The Physiocrats*, 87.
45. Bain, *Gustavus III*, I, 163.
46. *CMH*, VI, 776.
47. *Enc. Brit.*, XXI, 653d; Smith, Preserved, *History of Modern Culture*, II, 460, 108.
48. Gustafson, Alrik, *History of Swedish Literature*, 112, 136.
49. Bain, *Gustavus III*, I, 260; Horn, 355.
50. Bain, II, 239.
51. Horn, 359 f.
52. Gustafson, 139 f.
53. Bain, *Gustavus III*, II, 286-88; Gustafson, 139 f.
54. Horn, 369.
55. Bain, II, 210.
56. *Ibid.*, I, 38.
57. *Ibid.*, II, 157.

فهرس

الجزء الثالث

الكتاب الرابع

الصفحة

الإسلام والشرق السلافى (١٧١٥ - ١٧٩٦)	٣
الفصل السادس عشر :	
الإسلام ١٧١٥ - ١٧٩٦	٥
١ - الأتراك	٥
٢ - الإسلام فى إفريقيا	١٢
٣ - الإسلام فى فارس (١٧٢٢ - ٨٩)	١٦
الفصل السابع عشر :	
فاصل روسى (١٧١٥ - ١٧٦٢)	٢٥
١ - العمل والحكم	٢٥
٢ - الدين والثقافة	٢٩
٣ - السياسة الروسية (١٧٢٥ - ٤١)	٣٧
٤ - اليزابيث بتروفنا (١٧٤١ - ٦٢)	٤١
٥ - بطرس وكاترين (١٧٤٣ - ٦١)	٤٤
٦ - بطرس الثالث (١٧٦٢)	٥٢

الصفحة

الفصل الثامن عشر :

٥٧	كاترين الكبرى (١٧٦٢ - ١٧٩٦)
٥٧	١ - الحاكمة المطلقة
٦٢	٢ - العاشقة
٦٦	٣ - الفيلسوفة
٧٢	٤ - الحاكمة القديرة
٧٨	٥ - الإقتصادية
٨٢	٦ - المحاربة
٩٠	٧ - المرأء
٩٤	٨ - الأدب
٩٨	٩ - الفن
١٠٣	١٠ - خاتمة المطاف

الفصل التاسع عشر

١٠٧	إغتصاب بولنده (١٧١٥ - ١٧٩٥)
١٠٧	١ - نظرة عامة (١٧١٥ - ١٧٦٤)
١١٣	٢ - الملوك السكسون (١٦٩٧ - ١٧٦٣)
١١٦	٣ - بونيا توفسكى
١٢٢	٤ - التقسيم الأول
١٢٨	٥ - التنوير البولندى (١٧٧٣ - ٩١)
١٣٣	٦ - تمزيق بولنده (١٧٩٢ - ٩٥)

الكتاب الخامس

١٤٣	الشمال البروتستنتى
	الفصل العشرون :

١٤٥	المانيا فى عهد فردريك (١٧٥٦ - ١٧٨٦)
١٤٥	١ - فردريك المظفر

الصفحة

٢	-- إعادة بناء روسيا	١٥٢
٣	-- الإمارات	١٥٧
٤	-- عصر التنوير الألماني	١٦٢
٥	-- جرحهولت ليسنج (١٧٢٩ -- ٨١)	١٦٧
٦	-- رد الفعل الرومانتيكي	١٨١
٧	-- الزوابعية	١٨٦
٨	-- الفنانون	١٩١
٩	-- بعد باخ	١٩٥
١٠	-- الشيخ فرتز	١٩٩

الفصل الحادى والعشرون

٢٠٥	كانط (١٧٢٤ -- ١٨٠٤)
٢٠٥	١ -- مقدمة
٢١١	٢ -- نقد العقل 'لخاص (١٧٨١)
٢٢٠	٣ -- نقد العقل العملى (١٧٨٨)
٢٢٤	٤ -- نقد المحكم (١٧٩٠)
٢٢٦	٥ -- الدين والعقل (١٧٩٣)
٢٣٠	٦ -- المصلح

الفصل اثنائى والعشرون :

٢٣٩	الطريق إلى فاممار (١٧٣٣ -- ٨٧)
٢٣٩	١ -- أثينة المانيا
٢٤١	٢ -- فيلاندا (١٧٣٣ -- ١٧٧٥)
٢٤٥	٣ -- جوتة بروميشيوس (١٧٤٩ -- ٧٥)
٢٤٥	١ -- نشأته
٢٥٢	٢ -- جوتز وفرتز
٢٥٩	٣ -- المالحد الشاب

صفحة

- ٤ — هرذر (١٧٤٤ — ٧٦) ٢٦٤
٥ — شيلر في سني تطويفه (١٧٥٩ — ٨٧) ١٦٨

الفصل الثالث والعشرون :

- فأعمار إبان إزدهارها (١٧٧٥ — ١٨٠٥) ٢٧٨
١ — تنمة لفيلاندا (١٧٧٥ — ١٨١٣) ٢٧٨
٢ — هرذر والتاريخ (١٧٧٧ — ١٨٠٣) ٢٧٩
٣ — جوته عضو المجلس الخاص (١٧٧٥ — ٧٦) ٢٨٥
٤ — جوته في إيطاليا (١٧٨٦ — ٨٨) ٢٩٥
٥ — جوته في الإنتظار (١٧٨٨ — ٩٤) ٢٩٩
٦ — شيلر في الإنتظار (١٧٨٧ — ٩٤) ٣٠٢
٧ — شيلر وجوته (١٧٩٤ — ١٨٠٥) ٣١١

الفصل الرابع والعشرون :

جوته « نسطور » (١٨٠٥ — ١٨٣٢)

- ١ — جوته ونابليون ٣٢٧
٢ — فاوست : الجزء الأول ٣٢٩
٣ — نسطور عاشقاً ٣٣٦
٤ — العالم ٣٤٢
٥ — الفيلسوف ٣٤٧
٦ — فاوست : الجزء الثاني ٣٥٥
٧ — التمام (١٨٢٥ — ٣٢) ٣٥٩

الفصل الخامس والعشرون :

- اليهود (١٧١٥ - ١٧٨٩) ٣٦٥
١ — كفاح الحياة ٣٦٥
٢ - العزاء الصوفي ٣٧٥

الصفحة

٣ - موسى مندلسون ٣٧٨

٤ - نحو الحرية ٣٨٤

الفصل السادس والعشرون :

٣٧٧ من جنيف إلى استوكهولم

١ - السويسريون (١٧٥٤ - ٩٨) ٣٧٧

٢ - الهولنديون (١٧١٥ - ٩٥) ٣٩١

٣ - الدنمركيون (١٧١٥ - ٩٧) ٣٩٧

٤ - السويديون ٤٠٤

١ - السياسة (١٧١٨ - ٧١) ٤٠٤

٢ - جوستاف الثالث ٤٠٧

٣ - التنوير السويدي ٤١١

٤ - الإغتيال ٤١٨

٤٢٩

المراجع

لقد رأينا الثورة الصناعية تبدأ بذلك السيل المتدفق من المخترعات التي قد تحقق قبل أن نصل إلى الألف الثاني للميلاد - حلم أرسطو بالآلات التي تحرر البشر من كل عناء يدوي. ولقد سجلنا المراحل التي خطتها علوم كثيرة صوب فهم للطبيعة وتطبيق أجدى لقوانينها. ولقد رحبنا بانتقال الفلسفة من أفضل الميتافيزيقا العقيمة إلى اجتهادات العقل في شئون البشر الدنيوية. ولقد علمتنا أن نقيم حكومة عادلة قادرة وأن نوفق بين جهود الساسة والفلاسفة الديموقراطية وبين بساطة البشر وعدم مساواتهم الطبيعية. ولقد استمتعنا بمختلف إبداعات الجمال في الباروك والفن الكلاسيكي المحدث وانتصارات الموسيقى. واستمتعنا أيضاً استمتاع بثروة القرن التاسع عشر في الأدب والعلم والفلسفة والموسيقى والفن والتكنولوجيا والحكم. لقد أتممنا على قدر استطاعتنا قصة الحضارة هذه. ومع أننا كرسنا معظم حياتنا لهذا العمل فإننا عليمون بأن عمر الإنسان أن هو إلا لحظة قصيرة في التاريخ وبأن خير ما يقدمه المؤرخ من عمل سرعان ما يكتسح حين يطمو نهر المعرفة ويتعاضم. غير أننا ونحن نتابع دراستنا من قرن إلى قرن ازددنا يقناً بأن كتابة التاريخ الرسمي قد أسرف في تجزئتها أبواباً وفروعاً وأنه ينبغي لبعضنا أن يحاول كتابة التاريخ كلاً كما كان يعاش في جميع وجوه الدراما المعقدة الموصولة .

لقد انقضت الآن أربعون عاماً من المشاركة السعيدة في ملاحقة التاريخ. وكنا نحلم باليوم الذي نكتب فيه آخر كلمة في آخر مجلد. والآن وقد أقبل هذا اليوم سنفتقد الهدف الممتع الذي أضفى على حياتنا معنى واتجاهاً. وإننا لشاكر فإننا للقارئ الذي صاحبنا هذه لسنين الكثيرة بعض الرحلة الطويلة أو كلها. لقد كنا على الدوام واعين بحضوره. والآن نستأذنه في الرحيل ونقرئه تحية الوداع ...

